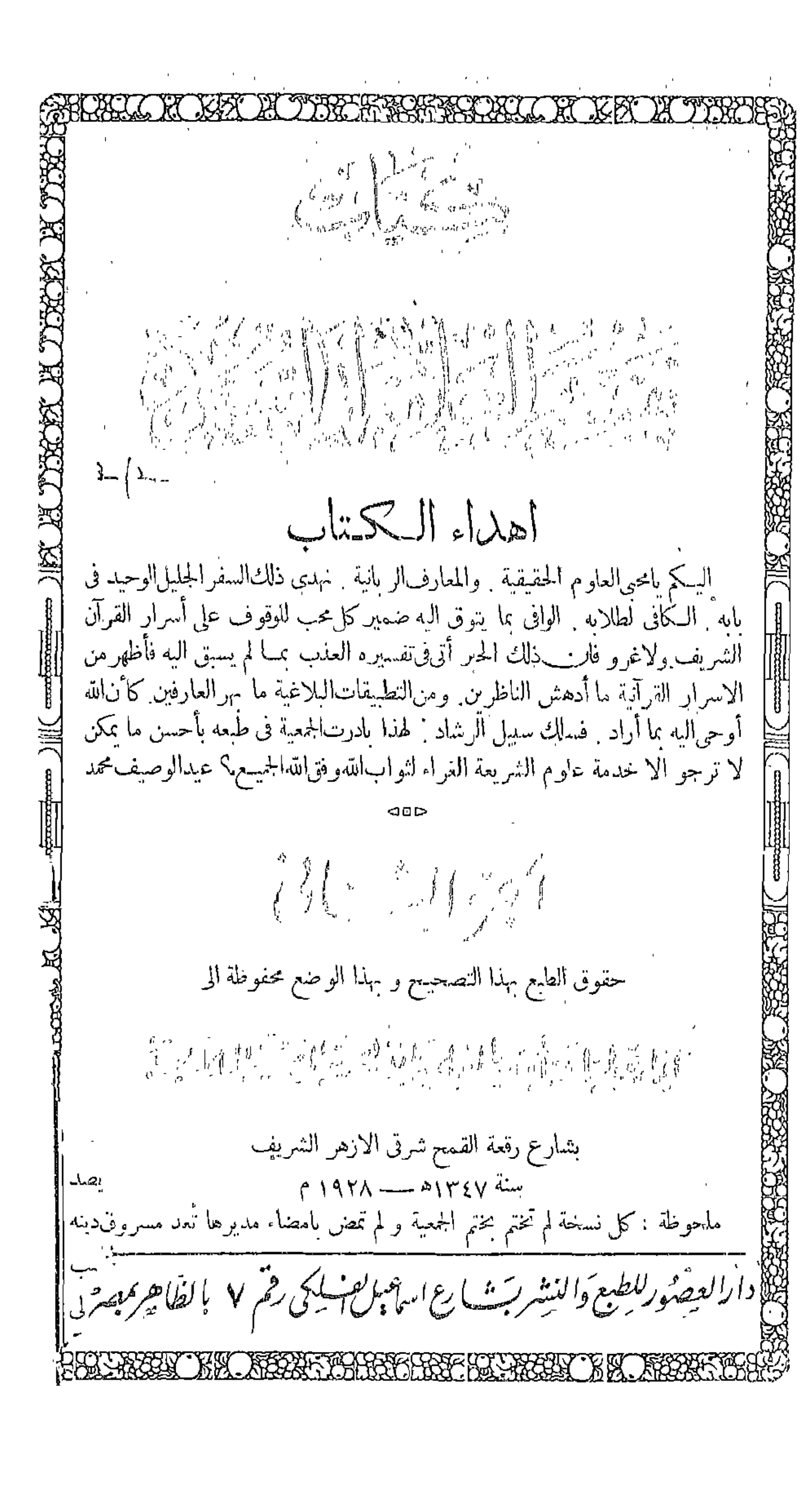


اهداء الكتاب

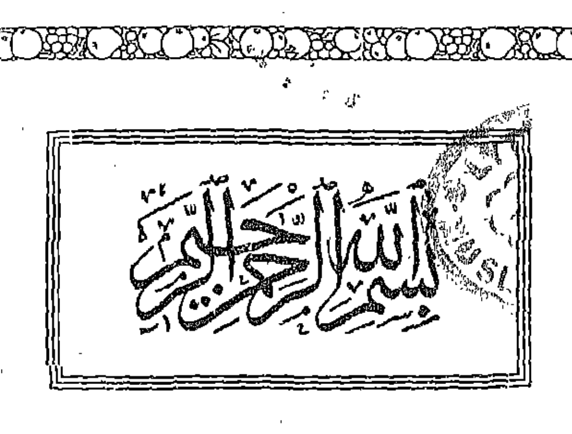
اليكم يا محبي العلوم الحقيقية . والمعارف الربانية . نهدي ذلك السفر الجليل الوحيد في بابه . الكافي لطلابه . الوافي بما يتوق اليه ضمير كل محب للوقوف على أسرار القرآن الشريف. ولا غرو فان ذلك الحبر أتى في تفسيره العذب بما لم يسبق اليه فأظهر من الاسرار القرآنية ما أدهش الناظرين. ومن التطبيقات البلاغية ما بهر العارفين. كأن الله أوحى اليه بما أراد . فسلك سبيل الرشاد . لهذا بادرت الجمعية في طبعه بأحسن ما يمكن لا ترجو الا خدمة علوم الشريعة الغراء لثواب الله وفق الله الجميع؟ عبد الوصيف محمد

بشارع رقعة القمح شرقي الازهر الشريف

سنة ١٣٤٧هـ — ١٩٢٨ م

دار العصور للطبع والنشر بشارع اسماعيل الفلكي رقم ٧ بالظاهر بمصر

خير ما يفتتح به القارىء الكريم



﴿ سورة المائدة مدنية وهى مائة وعشرون آية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) الوفاء القيام بموجب العقد وكذا الايفاء والعقد هو العهد الموثق المشبه بعقد الحبل ونحوه والمراد بالعقود ما يعم جميع ما ألزمه الله تعالى عباده وعقده عليهم من التكاليف والاحكام الدينية وما يعقدونه فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به أو يحسن دينا بأن يحمل الامر على معنى يعم الوجوب والندب أمر بذلك أولا على وجه الاجمال. ثم شرع فى تفصيل الاحكام التى أمر بالايفاء بها وبدىء بما يتعلق بضروريات معايشهم فقيل (أحلت لكم بهيمة الانعام) البهيمة كل ذات أربع وأضافتها الى الأنعام بيان كثوب الخز. وافرادها لارادة الجنس أى أحل لكم أكل البهيمة من الانعام وهى الأزواج الثمانية المعدودة فى سورة الأنعام وألحق بها الظباء وبقر الوحش ونحوهما. وقيل المرادة بالبهيمة ههنا لتقدم بيان حل الأنعام والاضافة لما بينهما من المشابهة والمماثلة لاجترار وعدم الانياب وفائدتها الاشعار بعلة الحكم المشتركة بين المضافين كانه قيل حلت لكم البهيمة الشبيهة بالانعام التى بين أحلالها فيما سبق المماثلة لها فى مناط الحكم. وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لما مر مرارا من أظهار العناية بالمقدم لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة الى

وروده فيتمكن عندها فضل تمكن (الا ما يتلى عليكم) استثناء من بهيمة الأنعام أى الا محرم ما يتلى عليكم من قوله تعالى «حرمت عليكم الميتة» ونحوه أو الا ما يتلى عليكم آية تحريمه (غير محلى الصيد) أى الاصطياد فى البر أو أكل صيده وهو نصب على الحالية من ضمير لكم ومعنى عدم احلالهم له تقرير حرمته عملا واعتقادا وهو شائع فى الكتاب والسنة وقوله تعالى (وأنتم حرم) أى محرمون حال من الضمير فى محلى وفائدة تقييد احلال بهيمة الانعام بما ذكر من عدم احلال الصيد حال الاحرام على تقدير كون المراد بها الظباء ونظائرها ظاهرة لما أن احلالها غير مطلق كأنه قيل أحل لكم الصيد حال كونكم ممتنعين عنه عند احرامكم . وأما على التقدير الاول ففائدته اتمام النعمة واظهار الامتنان باحلالها بتذكير احتياجهم اليه فان حرمة الصيد فى حالة الاحرام من مظان حاجتهم الى احلال غيره حينئذ كأنه قيل أحلت لكم الانعام مطلقا حال كونكم ممتنعين عن تحصيل ما يغنيكم عنها فى بعض الاوقات محتاجين الى احلالها وفى اسناد عدم الاحلال اليهم بالمعنى المذكور مع حصول المراد بان يقال غير محلل لكم أو محرما عليكم الصيد حال احرامكم مزيد تربية للامتنان وتقرير للحاجة ببيان علتها القريبة فان تحريم الصيد عليهم انما يوجب حاجتهم الى احلال ما يغنيهم عنه باعتبار تحريمهم له عملا واعتقادا مع ما فى ذلك من وصفهم بما هو اللائق بهم (ان الله يحكم ما يريد) من الاحكام حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فيدخل فيها ما ذكر من التحليل والتحريم دخولا أوليا . ومعنى الايفاء بهما الجريان على موجبهما عقدا وعملا والاجتناب عن تحليل المحرمات وتحريم بعض المحللات كالبحيرة ونظائرها التى [illegible] بيانها (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) لما بين حرمة احلال الاحرام ال[illegible] هو من شعائر الحج عقب ذلك ببيان حرمة احلال سائر الشعائر . واضافتها الى الله عز وجل لتشريفها وتهويل الخطب فى احلالها وهى جمع شعيرة وهى اسم لما أشعر أى جعل شعارا وعلما للنسك من مواقيت الحج ومرامى الجمار والمطاف والمسعى والافعال التى هى علامات الحاج يعرف بها من الاحرام والطواف والسعي والحلق والنحر واحلالها أن يتهاون بحرمتها ويحال بينها وبين المتنسكين بها ويحدث فى أشهر الحج ما يصد به الناس عن الحج وقيل المراد بها دين الله لقوله تعالى « ومن يعظم شعائر الله » أى دينه وقيل حرمات الله . وقيل فرائضه التى حدها لعباده . واحلالها الاخلال بها والاول أنسب بالمقام (ولا الشهر الحرام) أى لا تحلوه بالقتال فيه وقيل بالنسىء والاول هو الاولى بحال المؤمنين والمراد به شهر الحج . وقيل الاشهر الاربعة الحرم . والافراد لارادة الجنس

(ولا الهدى) بأن يتعرض له بالغصب أو بالمنع عن بلوغ محله وهو ما أهدى الى الكعبة من ابل أو بقر أوشاء جمع هدية كجدى وجدية (ولا القلائد) هي جمع قلادة وهى ما يقلد به الهدى من نعل أولحاء شجر ليعلم به أنه هدى فلا يتعرض له . والمراد النهى عن التعرض لذوات القلائد من الهدى وهى البدن وعطفها على الهدى مع دخولها فيه لمزيد التوصية بها لمزيتها على ما عداها كما عطف جبريل وميكال على الملائكة عليهم السلام كأنه قيل والقلائد منه خصوصا أو النهى عن التعرض لنفس القلائد مبالغة فى النهى عن التعرض لاصحابها على معنى لا تحلوا قلائدها فضلا عن أن تحلوها كما نهى عن ابداء الزينة بقوله تعالى «ولا يبدين زينتهن» مبالغة فى النهي عن ابداء مواقعها (ولا آمين البيت الحرام) أى لا تحلوا قوما قاصدين زيارته بأن تصدوهم عن ذلك باى وجه كان وقيل هناك مضاف محذوف أى قتال قوم أو أذى قوم آمين الخ . وقرىء ولا آمى البيت الحرام بالاضافة وقوله تعالى (يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا) حال من المستكن فى آمين لا صفة له لان المختار أن اسم الفاعل اذا وصف بطل عمله أى قاصدين زيارته حال كونهم طالبين أن يثيبهم الله تعالى ويرضى عنهم وتنكير فضلا ورضوانا للتفخيم . ومن ربهم متعلق بنفس الفعل أو بمحذوف وقع صفة لفضلا مغنية عن وصف ما عطف عليه بها أى فضلا كائنا من ربهم ورضوانا كذلك . والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لتشريفهم والاشعار بحصول مبتغاهم . وقرىء تبتغون على الخطاب فالجملة حينئذ حال من ضمير المخاطبين فى لا تحلوا على أن المراد بيان منافاة حالهم هذه للمنهي عنه لا تقييد النهى بها . واضافة الرب الى ضمير الآمين للايماء الى اقتصار التشريف عليهم وحرمان المخاطبين عنه وعن نيل المبتغى وفى ذلك من تعليل النهي وتأكيده والمبالغة فى استنكار المنهي عنه مالا يخفى ، ومن ههنا قيل ان المراد بالآمين هم المسلمون خاصة وبه تمسك من ذهب الى أن الآية محكمة وقد روي أن النبى عليه الصلاة والسلام قال سورة المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها . وقال الحسن رحمه الله تعالى ليس فيها منسوخ وعن أبى ميسرة فيها ثمان عشرة فريضة وليس فيها منسوخ . وقد قيل هم المشركون خاصة لانهم المحتاجون الى نهى المؤمنين عن احلالهم دون المؤمنين على أن حرمة احلالهم ثبتت بطريق دلالة النص ويؤيده أن الآية نزلت فى الحطم بن ضبعة البكرى وقد كان أتى المدينة فخلف خيله خارجها فدخل على النبى عليه الصلاة والسلام وحده وعده أن يأتى بأصحابه فيسلموا ثم خرج من عنده عليه السلام فمر بسرح المدينة فاستاقه فلما

كان فى العام القابل خرج من اليمامة حاجا فى حجاج بكر بن وائل ومعه تجارة عظيمة وقد قلدوا الهدي فسأل المسلمون النبى صلى الله عليه وسلم أن يخلى بينهم وبينه فأباه النبى عليه الصلاة والسلام فأنزل الله عز وجل «يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله» الآية وفسر ابتغاء الفضل بطلب الرزق بالتجارة وابتغاء الرضوان بأنهم كانوا يزعمون أنهم على سداد من دينهم وأن الحج يقربهم الى الله تعالى فوصفهم الله تعالى بظنهم وذلك الظن الفاسد وان كان بمعزل من استتباع رضوانه تعالى لكن لا بعد فى كونه مدارا لحصول بعض مقاصدهم الدنيوية وخلاصهم عن المكاره العاجلة لا سيما فى ضمن مراعاة حقوق الله تعالى وتعظيم شعائره. وقال قتادة هو أن يصلح معايشهم فى الدنيا ولا يعجل لهم العقوبة فيها. وقيل هم المسلمون والمشركون لما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن المسلمين والمشركين كانوا يحجون جميعا فنهي الله المسلمين أن يمنعوا أحدا عن حج البيت بقوله تعالى لا تحلوا الآية ثم نزل بعد ذلك «انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام» وقوله تعالى ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله» وقال مجاهد والشعبي لا تحلوا نسخ بقوله تعالى «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» ولا ريب فى تناول الآمين للمشركين قطعا اما استقلالا واما اشتراكا لما سيأتى من قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الخ فيتعين النسخ كلا أو بعضا ولا بد فى الوجه الاخير من تفسير الفضل والرضوان بما يناسب الفريقين فقيل ابتغاء الفضل أي الرزق للمؤمنين والمشركين عامة وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة ويجوز أن يكون الفضل على اطلاقه شاملا للفضل الاخروى أيضا ويختص ابتغاؤه بالمؤمنين (واذا حللتم فاصطادوا) تصريح بما أشير اليه بقوله تعالى وأنتم حرم من انتهاء حرمة الصيد بانتفاء موجبها والامر للاباحة بعد الحظر كأنه قيل واذا حللتم فلا جناح عليكم فى الاصطياد. وقرىء أحللتم وهو لغة فى حل وقرىء بكسر الفاء بالقاء حركة همزة الوصل عليها وهو ضعيف جدا (ولا يجرمنكم) نهى عن احلال قوم من الآمين خصوا به مع اندراجهم فى النهى عن احلال الكل كافة لاستقلالهم بامور ربما يتوهم كونها مصححة لاحلالهم داعية اليه وجرم جار مجري كسب فى المعنى وفى التعدي الى مفعول واحد والى اثنين يقال جرم ذنبا نحو كسبه وجرمته ذنبا نحو كسبته اياه خلا أن جرم يستعمل غالبا فى كسب مالا خير فيه وهو السبب فى ايثاره ههنا على الثانى وقد ينقل الاول من كل منهما بالهمزة الى معنى الثانى فيقال أجرمته ذنبا وأكسبته اياه وعليه قراءة من قرأ يجرمنكم بضم الياء (شنآن قوم) بفتح النون وقرىء بسكونها وكلاهما مصدر أضيف الى مفعوله لا الى

فاعله كما قيل وهو شدة البغض وغاية المقت (أن صدوكم) متعلق بالشنآن بأضمار لام العلة أى لأن صدوكم عام الحديبية (عن المسجد الحرام) عن زيارته والطواف به للعمرة وهذه آية بينة فى عموم آمين للمشركين قطعا . وقرىء أن صدوكم على انه شرط معترض أغنى عن جوابه لا يجرمنكم قد أبرز لصد المحقق فيما سبق فى معرض المفروض للتوبيخ والتنبيه على أن حقه ان لا يكون وقوعه الا على سبيل الفرض والتقدير (أن تعتدوا) أى عليهم وانما حذف تعويلا على ظهوره وايماء الى أن المقصد الاصلى من النهى منع صدور الاعتداء عن المخاطبين محافظة على تعظيم الشعائر لا منع وقوعه على القوم مراعاة لجانبهم وهو ثانى مفعولى يجرمنكم أى لا يكسبنكم شدة بغضكم لهم لصدهم اياكم عن المسجد الحرام اعتداءكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفى وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للشنآن عن كسب الاعتداء للمخاطبين لكنه فى الحقيقة نهى لهم عن الاعتداء على أبلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشيء ومبادية المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وابطال للسببية وقد يوجه النهى الى المسبب ويراد النهى عن السبب كما فى قوله: لا أرينك ههنا يريد به نهى مخاطبه عن الحضور لديه ولعل تأخير هذا النهى عن قوله تعالى « واذا حللتم فاصطادوا » مع ظهور تعلقه بما قبله للايذان بأن حرمة الاعتداء لا تنتهى بالخروج عن الاحرام كانتهاء حرمة الاصطياد به بل هى باقية مالم تنقطع علاقتهم عن الشعائر بالكلية وبذلك يعلم بقاء حرمة التعرض لسائر الآمين بالطريق الاولى (وتعاونوا على البر والتقوى) لما كان الاعتداء غالبا بطريق التظاهر والتعاون أمروا أثر مانهوا عنه بأن يتعاونوا على كل ماهو من باب البر والتقوى ومتابعة الامر ومجانبة الهوى فدخل فيه مانحن بصدده من التعاون على العفو والاغضاء عما وقع منهم دخولا أوليا ثم نهوا عن التعاون فى كل ماهو من مقولة الظلم والمعاصى بقوله تعالى (ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) فاندرج فيه النهى عن التعاون على الاعتداء والانتقام بالطريق البرهانى وأصل لا تعاونوا لا تتعاونوا فحذف منه احدى التاءين تخفيفا وانما أخر النهى عن الامر مع تقدم التخلية على التحلية مسارعة الى ايجاب ماهو مقصود بالذات فان المقصود من ايجاب ترك التعاون على الاثم والعدوان انما هو تحصيل التعاون على البر والتقوى ثم أمروا بقوله تعالى (واتقوا الله) بالاتقاء فى جميع الامور التى من جملتها مخالفة ماذكر من الاوامر والنواهى فثبت وجوب الاتقاء فيها بالطريق البرهانى ثم علل ذلك بقوله تعالى (ان الله شديد العقاب) أى لمن لا يتقيه فيعاقبكم لا محالة ان لم تتقوه واظهار الاسم الجليل لما مر مرارا من ادخال الروعة وتربية المهابة وتقوية استقلال الجملة (حرمت

عليكم الميتة)شروع في بيان المحرمات التي أشير اليها بقوله تعالى «الا مايتلى عليكم» والميتة مافارقه الروح بغير ذبح (والدم) أي المسفوح منه لقوله تعالى «أو دما مسفوحا» وكان أهل الجاهلية يصبونه في الامعاء ويشوونه ويقولون: لم يحرم من فزد له أي من فصد له (ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) أي رفع الصوت لغير الله عند ذبحه كقولهم باسم اللات والعزى (والمنخنقة) أي التي ماتت بالخنق (والموقوذة) أي التي قتلت بالضرب بالخشب ونحوه من وقذته اذا ضربته (والمتردية) أي التي تردت من علو أو الى بئر فماتت (والنطيحة) أي التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح والتاء للنقل وقرىء والمنطوحة (وما أكل السبع) أي وما أكل منه السبع فمات وقرىء بسكون الباء وقرىء وأكيل السبع . وفيه دليل على أن جوارح الصيد اذا أكلت مما صادته لم يحل (الاما ذكيتم) الا ما أدركتم ذكاته وفيه بقية حياة يضطرب اضطراب المذبوح وقيل الاستثناء مخصوص بما أكل السبع والذكاة في الشرع بقطع الحلقوم والمرىء بمحدد (وما ذبح على النصب) قيل هو مفرد وقيل جمع نصاب. وقرىء بسكون الصاد وأياما كان فهو واحد الانصاب وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة وقيل هي الاصنام (وأن تستقسموا بالأزلام) جمع زلم وهو القدح أي وحرم عليكم الاستقسام بالاقداح وذلك انهم اذا قصدوا فعلا ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها أمرني ربي. وعلى الثاني نهاني ربي. والثالث غفل فان خرج الآمر مضوا على ذلك وان خرج الناهي اجتنبوا عنه وان خرج الغفل أجالوها مرة أخرى فمعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم بالأزلام وقيل هو استقسام الجزور بالأقداح على الأنصباء المعهودة (ذلكم) اشارة الى الاستقسام بالازلام ومعنى البعد فيه للاشارة الى بعد منزلته في الشر (فسق) تمرد وخروج عن الحد ودخول في علم الغيب وضلال باعتقاد انه طريق اليه وافتراء على الله سبحانه ان كان هو المراد بقولهم ربي وشرك وجهالة ان كان هو الصنم. وقيل ذلكم اشارة الى تناول المحرمات المعدودة لان معنى تحريمها تحريم تناولها (اليوم) اللام للعهد والمراد به الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الماضية والآتية وقيل يوم نزولها وقد نزلت بعد عصر الجمعة يوم عرفة في حجة الوداع والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على العضباء فكادت عضد الناقة تندق لثقلها فبركت وأياما كان فهو منصوب على أنه ظرف لقوله تعالى (يئس الذين كفروا من دينكم) أي من أبطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه الخبائث أوغيرها أو من أن يغلبوكم عليه لما شاهدوا من أن الله عز وجل وفى بوعده حيث أظهره على الدين كله وهو الانسب

بقوله تعالى (فلا تخشوهم) أي أن يظهروا عليكم (واخشون) أى وأخلصوا الى الخشية (اليوم أكملت لكم دينكم) بالنصر والاظهار على الاديان كلها أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد وتقديم الجار الجار والمجرور للايذان من أول الامر بأن الاكمال لمنفعتهم ومصلحتهم كما فى قوله تعالى «ألم نشرح لك صدرك» وعليكم فى قوله تعالى (وأتممت عليكم نعمتى) متعلق بأتممت لا بنعمتى لان المصدر لايتقدم عليه معموله وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرات أى أتممتها بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين وهدم منار الجاهلية ومناسكها والنهى عن حج المشرك وطواف العريان أو بأكمال الدين والشرائع أو بالهداية والتوفيق قيل معنى أتممت عليكم نعمتى أنجزت لكم وعدى بقولى «ولاتم نعمتى عليكم» (ورضيت لكم الاسلام دينا) أى اخترته لكم من بين الاديان وهو الدين عند الله لاغير . عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أن رجلا من اليهود قال له ياأمير المؤمنين آية فى كتابكم تقرءونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا قال أى آية قال اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى الآية قال عمر رضى الله تعالى عنه قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذى أنزلت فيه على النبى عليه الصلاة والسلام وهو قائم بعرفة يوم الجمعة أشار رضى الله تعالى عنه الى أن ذلك اليوم عيد لنا وروى أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر رضى الله تعالى عنه فقال له النبي عليه الصلاة والسلام مايبكيك ياعمر قال أبكانى انا كنا فى زيادة من ديننا فاذا كمل فانه لايكمل شيء الا نقص فقال عليه الصلاة والسلام صدقت فكانت هذه الآية نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمالبث بعد ذلك الا أحد وثمانين يوما (فمن اضطر) متصل بذكر المحرمات ومابينهما اعتراض بما يوجب أن يجتنب عنه وهو أن تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والاسلام المرضى أى فمن اضطر الى تناول شيء من هذه المحرمات (فى مخمصة) أى مجاعة يخاف معها الموت أو مباديه (غير متجانف لأثم) قيل غير مائل ومنحرف اليه بان يأكلها تلذذا أو مجاوزا حد الرخصة أو ينتزعها من مضطر آخر كقوله تعالى «غير باغ ولاعاد» (فان الله غفور رحيم) لايؤاخذه بذلك (يسألونك ماذا أحل لهم) شروع فى تفصيل المحللات التى ذكر بعضها على وجه الاجمال اثر بيان المحرمات كأنهم سألوا عنها عند بيان أضدادها ولتضمن السؤال معنى القول أوقع على الجملة فماذا مبتدأ وأحل لهم خبره وضمير الغيبة لما أن يسألون بلفظ الغيبة فانه كما يعتبر حال المحكى عنه فيقال أقسم زيد لأفعلن يعتبر حال الحاكى فيقال أقسم زيد ليفعلن

و المسئول ما أحل لهم من المطاعم (قل أحل لكم الطيبات) أى مالم تستخبثه الطباع السليمة و لم تنفر عنه كما فى قوله تعالى «و يحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث» (و ما علمتم من الجوارح) عطف على الطيبات بتقدير المضاف على أن ما موصلة و العائد محذوف أي و صيد ما علمتموه أو مبتدأ على أن ما شرطية. و الجواب فكلوا وقد جوز كونها مبتدأ على تقدير كونها موصولة أيضا و الخبر كلوا . و انما دخلته الفاء تشبيها للموصول باسم الشرط . و من الجوارح حال من الموصول أو ضميره المحذوف و الجوارح الكواسب من سباع البهائم و الطير . وقيل سميت بها لانها تجرح الصيد غالبا (مكلبين) أى معلمين لها الصيد. و المكلب مؤدب الجوارح ومضريها بالصيد مشتق من الكلب لان التأديب كثيرا مايقع فيه أو لان كل سبع يسمى كلبا لقوله عليه الصلاة و السلام فى حق عتبة بن أبى لهب حين أراد سفر الشأم فقال النبى عليه الصلاة و السلام «اللهم سلط عليه كلبا من كلابك» فأكله الاسد. و انتصابه على الحالية من فاعل علمتم و فائدتها المبالغة فى التعليم لما أن اسم المكلب لايقع الا على التحرير فى علمه و قرىء مكلبين بالتخفيف و المعنى واحد (تعلمونهن) حال ثانية منه أو حال من ضمير مكلبين أو استئناف (مما علمكم الله) من الحيل وطرق التعليم و التأديب فان العلم به إلهام من الله تعالى أو مكتسب بالعقل الذى هو منحة منه أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بارسال صاحبه وانزجاره بزجره و انصرافه بدعائه وامساك الصيد عليه و عدم أكله منه (فكلوا مما أمسكن عليكم) قدم فيما سبق أن هذه الجملة على تقدير كون ما شرطية جواب الشرط و على تقدير كونها موصولة مرفوعة على الابتداء خبر لها . و أما على تقدير كونها عطفا على الطيبات فهى جملة متفرعة على بيان حل صيد الجوارح المعلمة مبينة للمضاف المقدر الذى هو المعطوف و به يتعلق الاحلال حقيقة و مشيرة الى نتيجة التعليم و أثره داخلة تحت الامر فالفاء فيها كما فى قوله - أمرتك الخير فافعل ما أمرت به - و من تبعيضية لما أن البعض مما لايتعلق به الاكل كالجلود و العظام و الريش و غير ذلك. وما موصولة أو موصوفة حذف عائدها . و على متعلقة بامسكن أى فكلوا بعض ما أمسكنه عليكم وهو الذى لم يأكلن منه و أما ما أكلن منه فهو مما أمسكنه على أنفسهن لقوله عليه الصلاة و السلام لعدى بن حاتم «و ان أكل منه فلا تأكل انما أمسك على نفسه» و اليه ذهب أكثر الفقهاء . و قال بعضهم لايشترط عدم الاكل فى سباع الطير لما أن تأديبها الى هذه الدرجة متعذر وقال آخرون لايشترط ذلك مطلقا و قد روى عن سلمان و سعد بن أبى وقاص و أبى هريرة رضى الله تعالى عنهم انه اذا أكل الكلب ثلثيه و بقى

ثلثه وقد ذكرت اسم الله عليه فكل (واذكروا اسم الله عليه) الضمير لما علمتم أى سموا عليه عند ارساله أو لما أمسكنه أى سموا عليه لما أدركتم ذكاته (واتقوا الله) فى شأن محرماته (ان الله سريع الحساب) أى سريع إتيان حسابه أو سريع تمامه اذا شرع فيه يتم فى أقرب ما يكون من الزمان والمعنى على التقديرين أنه يؤاخذكم سريعا فى كل ماجل ودق.واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم (اليوم أحل لكم الطيبات) قيل المراد بالايام الثلاثة وقت واحد وانما كرر للتأكيد ولاختلاف الاحداث الواقعة فيه حسن تكريره والمراد بالطيبات ما مر (وطعام الذين أوتوا الكتاب) أى اليهود والنصارى واستثنى على رضى الله تعالى عنه نصارى بنى تغلب وقال ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر وبه أخذ الشافعى رضى الله عنه والمراد بطعامهم ما يتناول ذبائحهم وغيرها (حل لكم) أى حلال وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال لا بأس وهو قول عامة التابعين وبه أخذ أبو حنيفة رضى الله عنه وأصحابه وحكم الصابئين حكم أهل الكتاب عنده . وقال صاحباه هما صنفان صنف يقرءون الزبور ويعبدون الملائكة عليهم السلام وصنف لا يقرءون كتابا ويعبدون النجوم فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب . وأما المجوس فقد سن بهم سنة أهل الكتاب فى أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم لقوله عليه الصلاة والسلام «سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحى نسائهم ولا آكلى ذبائحهم» (وطعامكم حل لهم) فلا عليكم ان تطعموهم وتبيعوه منهم ولو حرم عليهم لم يجز ذلك (والمحصنات من المؤمنات) رفع على أنه مبتدأ حذف خبره لدلالة ما تقدم عليه أى حل لكم أيضا والمراد بهن الحرائر العفائف وتخصيصهن بالذكر للبعث على ماهو الاولى لا لنفى ماعداهن فان نكاح الاماء المسلمات صحيح بالاتفاق وكذا نكاح غير العفائف منهن . وأما الاماء الكتابيات فهن كالمسلمات عند أبى حنيفة رضى الله عنه خلافا للشافعى رضى الله عنه (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) أى هن أيضا حل لكم وان كن حربيات وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا تحل الحربيات (اذا آتيتموهن اجورهن) أى مهورهن وتقييد الحل بايتائها لتأكيد وجوبها والحث على الاولى.وقيل المراد بايتائها التزامها واذا ظرفية عاملها حل المحذوف. وقيل شرطية حذف جوابها أى اذا آتيتموهن أجورهن حللن لكم (محصنين) حال من فاعل آتيتموهن أى حال كونكم أعفاء بالنكاح وكذا قوله تعالى (غير مسافحين) وقيل هو حال من ضمير محصنين وقيل صفة

المحصنين أى غير مجاهرين بالزنا (ولا متخذى أخدان) أى ولا مسرين به والخدن الصديق يقع على الذكر والانثى وهو اما مجرور عطفا على مسافحين وز يدت لا لتأكيد النفى المستفاد من غير او منصوب عطفا على غير مسافحين باعتبار أوجهه الثلاثة (ومن يكفر بالايمان) أى ومن ينكر شرائع الاسلام التى من جملتها مابين ههنا من الاحكام المتعلقة بالحل والحرمة ويمتنع عن قبولها (فقد حبط عمله) الصالح الذى عمله قبل ذلك (وهو فى الآخرة من الخاسرين) هو مبتدأ من الخاسرين خبره وفى متعلقة بما تعلق به الخبر من السكون المطلق وقيل بمحذوف دل عليه المذكور أى خاسر فى الآخرة وقيل بالخاسرين على أن الالف واللام للتعريف لاموصولة لان مابعدها لايعمل فيما قبلها وقيل يغتفر فى الظرف مالا يغتفر فى غيره كما فى قوله :

ربيته حتى اذا تمعددا   كان جزائى بالعصا أن أجلدا

(ياأيها الذين آمنوا) شروع فى بيان الشرائع المتعلقة بدينهم بعد بيان مايتعلق بدنياهم (اذا قمتم الى الصلاة) أي أردتم القيام اليها كما فى قوله تعالى « فاذاقرأت القرآن فاستعذ بالله عبر عن ارادة الفعل بالفعل المسبب عنها مجازا للايجاز والتنبيه على أن من أراد الصلاة حقه أن يبادر اليها بحيث لاينفك عن ارادتها أو اذا قصدتم الصلاة اطلاقا لاسم أحد لازميها على لازمها الاخر وظاهر الآية الكريمة يوجب الوضوء على كل قائم اليها وان لم يكن محدثا لما أن الامر للوجوب قطعا والاجماع على خلافه وقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس يوم الفتح بوضوء واحد فقال عمر رضى الله تعالى عنه صنعت شيئا لم تكن تصنعه فقال عليه الصلاة والسلام عمدا فعلته ياعمر يعنى بيانا للجواز .وحمل الامر بالنسبة الى غير المحدث على الندب مما لامساغ له فالوجه أن الخطاب خاص بالمحدثين بقرينة دلالة الحال واشتراط الحدث فى التيمم الذى هو بدله وما نقل عن النبى عليه الصلاة والسلام والخلفاء من أنهم كانوا يتوضئون لكل صلاة فلا دلالة فيه على أنهم كانوا يفعلونه بطريق الوجوب أصلا كيف لا وما روى عنه عليه الصلاة والسلام من قوله «من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات» صريح فى أن ذلك كان منهم بطريق الندب وما قيل كان ذلك أول الامر ثم نسخ يرده قوله عليه الصلاة والسلام «المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها» (فاغسلوا وجوهكم) أى أمروا عليها الماء ولا حاجة الى الدلك خلافا لمالك (وأيديكم الى المرافق) الجمهور على دخول المرفقين فى المغسول ولذلك قيل الى بمعنى مع كما فى قوله تعالى « و يزدكم قوة الى قوتكم» وقيل هى انما تفيد معنى الغاية مطلقا وأما دخولها

فى الحكم أو خروجها منه فلا دلالة لها عليه وانما هو أمر يدور على الدليل الخارجى كما فى حفظت القرآن من أوله الى آخره وقوله تعالى «فنظرة الى ميسرة» فان الدخول فى الاول والخروج فى الثانى متيقن بناء على تحقيق الدليل وحيث لم يتحقق ذلك فى الآية وكانت الايدى متناولة للمرافق حكم بدخولها فيها احتياطا وقيل الى من حيث افادتها للغاية تقتضى خروجها لكن لما لم تتميز الغاية ههنا عن ذى الغاية وجب ادخالها احتياطا (وامسحوا برءوسكم) الباء مزيدة وقيل للتبعيض فانه الفارق بين قولك مسحت المنديل ومسحت بالمنديل وتحقيقه انها تدل على تضمين الفعل معنى الالصاق فكأنه قيل وألصقوا المسح برءوسكم وذلك لايقتضى الاستيعاب كما يقتضيه مالو قيل وامسحوا رءوسكم فانه كقوله تعالى «فاغسلوا وجوهكم» واختلف العلماء فى القدر الواجب فأوجب الشافعى أقل ماينطلق عليه الاسم أخذا باليقين وأبو حنيفة ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث مسح على ناصيته وقدرها بربع الرأس ومالك مسح الكل أخذا بالاحتياط (وأرجلكم الى الكعبين) بالنصب عطفا على وجوهكم ويؤيده السنة الشائعة وعمل الصحابة وقول أكثر الأئمة والتحديد اذ المسح لم يعهد محدودا وقرىء بالجر على الجوار ونظيره فى القرآن كثير كقوله تعالى «عذاب يوم أليم» ونظائره وللنحاة فى ذلك باب مفرد وفائدته التنبيه على أنه ينبغى أن يقتصد فى صب الماء عليها ويغسلها غسلا قريبا من المسح وفى الفصل بينه وبين اخواته ايماء الى أفضلية الترتيب. وقرىء بالرفع أى وأرجلكم مغسولة (وان كنتم جنبا فاطهروا) أى فاغتسلوا وقرىء فاطهروا أى فطهروا أبدانكم وفى تعليق الامر بالطهارة الكبرى بالحدث الاكبر اشارة الى اشتراط الأمر بالطهارة الصغرى بالحدث الاصغر (وان كنتم مرضى) مرضا يخاف به الهلاك أو ازدياده باستعمال الماء (أو على سفر) أى مستقرين عليه (أو جاء أحد منكم من الغائط أولامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) من لابتداء الغاية وقيل للتبعيض وهى متعلقة بامسحوا. وقرىء فاموا صعيدا وقد مر تفسير الآية الكريمة مشبعا فى سورة النساء فليرجع اليه ولعل التكرير ليتصل الكلام فى أنواع الطهارة (مايريد الله) أى مايريد بالامر بالطهارة للصلاة أو بالامر بالتيمم (ليجعل عليكم من حرج) من ضيق فى الامتثال به (ولكن يريد) مايريد بذلك (ليطهركم) أى لينظفكم أو ليطهركم عن الذنوب فان الوضوء مكفر لها أو ليطهركم بالتراب اذا أعوزكم التطهر بالماء فمفعول يريد فى الموضعين محذوف واللام للعلة وقيل مزيدة والمعنى مايريد الله أن يجعل عليكم من حرج فى باب الطهارة حتى لايرخص لكم فى التيمم

ولكن يريد أن يطهركم بالتراب اذا أعوزكم التطهر بالماء (وليتم) بشرعه ماهو مطهرة لابدانكم و مكفرة لذنوبكم (نعمته عليكم) فى الدين أو ليتم برخصة انعامه عليكم بعزائمه (لعلكم تشكرون) نعمته ومن لطائف الآية الكريمة أنها مشتملة على سبعة أمور كلها مثنى طهارتان أصل و بدل و الاصل اثنان مستوعب و غير مستوعب و غير المستوعب باعتبار الفعل غسل و مسح و باعتبار المحل محدود و غير محدود و أن آلتهما مائع و جامد و موجبهما حدث أصغر و أكبر و أن المبيح للعدول الى البدل مرض وسفر وأن الموعود عليهما تطهير الذنوب و اتمام النعمة (و اذكروا نعمة الله عليكم) بالاسلام لتذكركم المنعم و ترغبكم فى شكره (و ميثاقه الذى و اثقكم به) أي عهده المؤكد الذى أخذه عليكم وقوله تعالى (اذ قلتم سمعنا و أطعنا) ظرف لو اثقكم به أو لمحذوف وقع حالا من الضمير المجرور فى به أو من ميثاقه أى كائنا وقت قولكم سمعنا و أطعنا و فائدة التقييد به تأكيد وجوب مراعاته بتذكر قبولهم و التزامهم بالمحافظة عليه وهو الميثاق الذى أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله عليه الصلاة والسلام على السمع و الطاعة فى حال العسر و اليسر و المنشط و المكره. وقيل هو الميثاق الواقع ليلة العقبة و فى بيعة الرضوان. و اضافته اليه تعالى مع صدوره عنه عليه الصلاة والسلام لكون المرجع اليه كما نطق به قوله تعالى «ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله» وقال مجاهد هو الميثاق الذى أخذه الله تعالى على عباده حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام (واتقوا الله) أى فى نسيان نعمته و نقض ميثاقه أو فى كل ماتأتون و ماتذرون فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا (ان الله عليم بذات الصدور) أى بخفياتها الملابسة لها ملابسة تامة مصححة لاطلاق الصاحب عليها فيجازيكم عليها فما ظنكم بجليات الاعمال. و الجملة اعتراض تذييلى و تعليل للامر بالاتقاء. واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة و تعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة (ياأيها الذين آمنوا) شروع فى بيان الشرائع المتعلقة بما يجرى بينهم و بين غيرهم اثر بيان مايتعلق بانفسهم (كونوا قوامين لله) مقيمين لاوامره ممتثلين بها معظمين لها مراعين لحقوقها (شهداء بالقسط) أى بالعدل (ولا يجرمنكم) أى لايحملنكم (شنآن قوم) أى شدة بغضكم لهم (على أن لاتعدلوا) فلاتشهدوا فى حقوقهم بالعدل أو فتعتدوا عليهم بارتكاب مالايحل كمثلة وقذف وقتل نساء و صبية ونقض عهد تشفيا وغير ذلك (اعدلوا هو) أى العدل (أقرب للتقوى) الذى أمرتم به صرح لهم بالامر بالعدل و بين أنه بمكان من التقوى بعدما نهاهم عن الجور و بين أنه مقتضى الهوى واذا كان وجوب العدل فى حق الكفار بهذه المثابة فما ظنك بوجوبه فى

حق المسلمين (واتقوا الله) أمر بالتقوي اثر مابين أن العدل أقرب له اعتناء بشأنه وتنبيها على أنه ملاك الامر (ان الله خبير بما تعملون) من الاعمال فيجازيكم بذلك وتكرير هذا الحكم أما لاختلاف السبب كما قيل أن الاول نزل فى المشركين وهذا فى اليهود او لمزيد الاهتمام بالعدل و المبالغة فى أطفاء نائرة الغيظ و الجملة تعليل لماقبلها .واظهار الجلالة لما مر مرات وحيث كان مضمونها منبئا عن الوعد والوعيد عقب بالوعد لمن يحافظ على طاعته تعالى و بالوعيد لمن يخل بها فقيل (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) التي من جملتها العدل والتقوى (لهم مغفرة و أجر عظيم) حذف ثاني مفعولى وعد استغناء عنه بهذه الجملة فانه استئناف مبين له .و قيل الجملة فى موقع المفعول فان الوعد ضرب من القول فكانه قيل وعدهم هذا القول (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) التى من جملتها ماتليت من النصوص الناطقة بالامر بالعدل و التقوى (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الكفر و تكذيب الآيات (أصحاب الجحيم) ملابسوها ملابسة مؤبدة من السنة السنية القرآنية شفع الوعد بالوعيد و الجمع بين الترغيب و الترهيب ايفاء لحق الدعوة بالتبشير و الانذار (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) تذكير لنعمة الانجاء من الشرائر تذكير نعمة ايصال الخير الذي هو نعمة الاسلام وما يتبعها من الميثاق وعليكم متعلق بنعمة الله أو بمحذوف وقع حالا منها وقوله تعالي (اذ هم قوم) على الاول ظرف لنفس النعمة وعلى الثانى لما تعلق به عليكم ولا سبيل الى كونه ظرفا لا ذكروا لتنافى زمانيهما أى اذكروا انعامه تعالى عليكم أو اذكروا نعمته كائنة عليكم فى وقت همهم (أن يبسطوا اليكم أيديهم) أى بأن يبطشوا بكم بالقتل و الاهلاك يقال بسط اليه يده اذا بطش به وبسط اليه لسانه اذا اشتمه و تقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح المسارعة الى بيان رجوع ضرر البسط وغائلته اليهم حملا لهم من أول الامر على الاعتداد بنعمة دفعه كما ان تقديم لكم فى قوله عز و جل «هو الذى خلق لكم مافى الارض» للمبادرة الى بيان كون المخلوق من منافعهم تعجيلا للمسرة (فكف أيديهم عنكم) عطف على هم وهو النعمة التى اريد تذكيرها وذكرا لهم الايذان بوقوعها عند مزيد الحاجة اليها و الفاء للتعقيب المفيد لتمام النعمة و كمالها .واظهار أيديهم فى موقع الاضمار لزيادة التقرير أي منع أيديهم أن تمد اليكم عقيب همهم بذلك لا أنه كفها عنكم بعد مامدوها اليكم .وفيه من الدلالة على كمال النعمة من حيث أنها لم تكن مشوبة بضرر الخوف والانزعاج الذى قلما يعرى عنه الكف بعد المد مالايخفى مكانه وذلك ماروى ان المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعسفان

فى غزوة ذى أنمار وهى غزوة ذات الرقاع وهى السابعة من مغازيه عليه الصلاة والسلام قاموا الى الظهر معا فلما صلوا ندم المشركون أن لا كانوا قد أكبوا عليهم فقالوا ان لهم بعدها صلاة هى أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم يعنون صلاة العصر وهموا أن يوقعوا بهم اذ قاموا اليها فرد الله تعالى كيدهم بأن أنزل صلاة الخوف . وقيل هو ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بنى قريظة ومعه الشيخان وعلى رضى الله تعالى عنهم يستقرضهم لدية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى خطأ يحسبهما مشركين فقالوا نعم ياأبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونعطيك ماسألت فأجلسوه فى صفة وهموا بالفتك به وعمد عمرو بن جحاش الى رحا عظيمة يطرحها عليه فامسك الله تعالى يده ونزل جبريل عليه السلام فاخبره فخرج عليه الصلاة والسلام . وقيل هو ماروى أنه عليه الصلاة والسلام نزل منزلا وتفرق أصحابه فى العضاه يستظلون بها فعلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه بشجرة فجاء أعرابى فاخذه وسله فقال من يمنعك منى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الله تعالى» فاسقطه جبريل عليه السلام من يده فاخذه الرسول عليه الصلاة والسلام فقال «من يمنعك منى فقال لا أحد أشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله» (واتقوا الله) عطف على اذكروا أي اتقوه فى رعاية حقوق نعمته ولا تخلوا بشكرها أو فى كل ماتأتون وما تذرون فيدخل فيهما ذكر دخولا أوليا (وعلى الله) أى عليه تعالى خاصة دون غيره استقلالا واشتراكا (فليتوكل المؤمنون) فانه يكفيهم فى ايصال كل خير ودفع كل شر والجملة تذييل مقرر لما قبله . وايثار صيغة أمر الغائب واسنادها الى المؤمنين لايجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهانى وللايذان بأن ماوصفوا به عند الخطاب من وصف الايمان داع الى ماأمروا به من التوكل والتقوى وازع عن الاخلال بهما . وأظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة التذييلية (ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل) كلام مستأنف مشتمل على ذكر بعض ماصدر عن بنى اسرائيل من الخيانة ونقض الميثاق وما أدى اليه ذلك من التبعات مسوق لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله تعالى ومراعاة حق الميثاق الذى واثقهم به وتحذيرهم من نقضه أو لتقرير ماذكر من الهم بالبطش وتحقيقه على تقدير كون ذلك من بنى قريظة حسبما مر من الرواية ببيان أن الغدر والخيانة عادة لهم قديمة توارثوها من أسلافهم . واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتفخيم الميثاق وتهويل الخطب فى نقضه مع مافيه من رعاية حق الاستئناف المستدعى للانقطاع عما قبله والالتفات فى قوله تعالى (وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا) للجرى على سنن الكبرياء أو لان البعث كان بواسطة موسى عليه السلام كما

سيأتى. و تقديم الجار و المجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر والنقيب فعيل بمعنى فاعل مشتق من النقب وهو التفتيش ومنه قوله تعالى «فنقبوا فى البلاد» سمى بذلك لتفتيشه عن أحوال القوم واسرارهم قال الزجاج واصله من النقب وهو الثقب الواسع روى أن بنى اسرائيل لما استقروا بمصر بعد مهلك فرعون أمرهم الله عز وجل بالمسير الى اريحاء أرض الشام وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون وقال لهم انى كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرجوا اليها وجاهدوا من فيها وانى ناصركم وامر موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبا أمينا يكون كفيلا على قومه النقباء بالوفاء بما أمروا به توثقة عليهم فاختار النقباء واخذ الميثاق على بنى اسرائيل وتكفل اليهم النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون فرأوا أجراما عظيمة وقوة وشوكة فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم بما رأوا وقد نهاهم موسى عن ذلك فنكثوا الميثاق الا كالب بن يوفنا نقيب سبط يهوذا ويوشع بن نون نقيب سبط افرايم بن يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام. قيل لما توجه النقباء الى أرضهم للتجسس لقيهم عوج بن عنق وكان طوله ثلاثة آلاف وثلثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وقد عاش ثلاثة آلاف سنة وكان على رأسه حزمة حطب فاخذهم وجعلهم فى الحزمة وانطلق بهم الى امرأته وقال انظرى الى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا فطرحهم بين يديها وقال الا أطحنهم برجلى فقالت لا بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ففعل فجعلوا يتعرفون أحوالهم وكان لا يحمل عنقود عنبهم الا خمسة رجال أو أربعة فلما خرج النقباء قال بعضهم لبعض ان أخبرتم بنى اسرائيل بخبر القوم ارتدوا عن نبى الله ولكن اكتموه الا عن موسى وهرون عليهما السلام فيكونان هما يريان رأيهما فاخذ بعضهم على بعض الميثاق ثم انصرفوا الى موسى عليه السلام وكان معهم حبة من عنبهم وقر رجل فنكثوا عهدهم وجعل كل منهم ينهى سبطه عن قتالهم ويخبرهم بما رأى الا كالب ويوشع وكان معسكر موسى فرسخا فى فرسخ فجاء عوج حتى نظر اليهم ثم رجع الى الجبل فقور منه صخرة عظيمة على قدر العسكر ثم حملها على رأسه ليطبقها عليهم فبعث الله تعالى الهدهد فقور من الصخرة وسطها المحاذى لرأسه فانتقبت فوقعت فى عنق عوج وطوقته فصرعته وأقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع وكذا طول العصا فترامى فى السماء عشرة أذرع فما أصاب العصا الا كعبه وهو مصروع فقتله قالوا فأقبلت جماعة ومعهم الخناجر حتى حزوا رأسه (وقال الله) أى لبنى اسرائيل فقط اذ هم المحتاجون الى ما ذكر من الترغيب والترهيب كما ينبىء عنه الالتفات

مع ما فيه من تربية المهابة وتأكيد ما يتضمنه الكلام من الوعد (انى معكم) أى بالعلم والقدرة والنصرة لا بالنصرة فقط فان تنبيههم على علمه تعالى بكل ما يأتون وما يذرون وعلى كونهم تحت قدرته وملكوته مما يحملهم على الجد فى الامتثال بما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه كأنه قيل انى معكم أسمع كلامكم وأرى أعمالكم وأعلم ضمائركم فأجازيكم بذلك هذا وقد قيل المراد بالميثاق هو الميثاق بالايمان والتوحيد وبالنقباء ملوك بنى اسرائيل الذين ينقبون أحوالهم ويلون أمورهم بالامر والنهى واقامة العدل وهو الانسب بقوله تعالى (لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى) أى بجميعهم واللام موطئة للقسم المحذوف وتأخير الايمان عن اقامة الصلاة وايتاء الزكاة مع كونهما من الفروع المترتبة عليه لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما مع ارتكابهم لتكذيب بعض الرسل عليهم السلام ولمراعاة المقارنة بينه وبين قوله تعالى (وعزرتموهم) أي نصرتموهم وقويتموهم وأصله الذب وقيل التعظيم والتوقير والثناء بخير وقرىء وعزرتموهم بالتخفيف (وأقرضتم الله) بالانفاق فى سبيل الخير أو بالتصدق بالصدقات المندوبة وقوله تعالى (قرضا حسنا) اما مصدر مؤكد وارد على غير صيغة المصدر كما فى قوله تعالى «فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا» أو مفعول ثان لاقرضتم على أنه اسم للمال المقرض وقوله تعالى (لاكفرن عنكم سيآتكم) جواب للقسم المدلول عليه باللام ساد مسد جواب الشرط (ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار) عطف على ما قبله داخل معه فى حكم الجواب متأخر عنه فى الحصول أيضا ضرورة تقدم التخلية على التحلية (فمن كفر) أى برسلى أو بشىء مما عدد فى حيز الشرط والفاء لترتيب بيان حكم من كفر على بيان حكم من آمن تقوية للترغيب بالترهيب (بعد ذلك) الشرط المؤكد المعلق به الوعد العظيم الموجب للايمان قطعا (منكم) متعلق بمضمر وقع حالا من فاعل كفر ولعل تغيير السبك حيث لم يقل وان كفرتم عطفا على الشرطية السابقة لاخراج كفر الكل عن حيز الاحتمال واسقاط من كفر عن رتبة الخطاب وليس المراد احداث الكفر بعد الايمان بل ما يعم الاستمرار عليه أيضا كأنه قيل فمن اتصف بالكفر بعد ذلك خلا أنه قصد بايراد ما يدل على الحدوث بيان ترقيهم فى مراتب الكفر فان الاتصاف بشىء بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث (فقد ضل سواء السبيل) أى وسط الطريق الواضح ضلالا بينا وأخطأه خطأ فاحشا لا عذر معه أصلا بخلاف من كفر قبل ذلك اذ ربما يمكن أن يكون له شبهة ويتوهم

له معذرة (فبما نقضهم ميثاقهم) الباء سببية وما مزيدة لتأكيد الكلام وتمكينه فى النفس أى بسبب نقضهم ميثاقهم المؤكد لا بشيء آخر استقلالا أو انضماما (لعناهم) طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا أو مسخناهم قردة وخنازير أو أذللناهم بضرب الجزية عليهم وتخصيص البيان بما ذكر مع أن حقه أن يبين بعد بيان تحقق نفس اللعن والنقض بأن يقال مثلا فنقضوا ميثاقهم فلعناهم ضرورة تقدم هيئة الشيء البسيطة على هيئته المركبة للإيذان بان تحققهما أمر جلي غني عن البيان وانما المحتاج الى ذلك ما بينهما من السببية والمسببية (وجعلنا قلوبهم قاسية) بحيث لا تتأثر من الآيات والنذر وقيل أملينا لهم ولم نعاجلهم بالعقوبة حتى قست أو خذلناهم ومنعناهم الالطاف حتى صارت كذلك . وقريء قسية وهي اما مبالغة قاسية واما بمعنى رديئة من قولهم درهم قسي أى رديء اذا كان مغشوشا له يبس وخشونة. وقريء بكسر القاف اتباعا لها بالسين (يحرفون الكلم عن مواضعه) استئناف لبيان مرتبة قساوة قلوبهم فانه لا مرتبة أعظم مما يصحح الاجتراء على تغيير كلام الله عز وجل والافتراء عليه. وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقيل حال من مفعول لعناهم (ونسوا حظا) أى تركوا نصيبا وافرا (مما ذكروا به) من التوراة أو من اتباع محمد عليه الصلاة والسلام وقيل حرفوا التوراة وزلت أشياء منها عن حفظهم وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية (ولا تزال تطلع على خائنة منهم) أى خيانة على انها مصدر كلاغية وكاذبة أو فعلة خائنة أى ذات خيانة أو طائفة خائنة أو شخص خائنة على أن التاء للمبالغة أو نفس خائنة . ومنهم متعلق بمحذوف واقع صفة لها خلا أن من على الوجهين الأولين ابتدائية أى على خيانة أو على فعلة خائنة كائنة منهم صادرة عنهم وعلى الوجوه الباقية تبعيضية والمعنى أن الغدر والخيانة عادة مستمرة لهم ولأسلافهم بحيث لا يكادون يتركونها أو يكتمونها فلا تزال ترى ذلك منهم (الا قليلا منهم) استثناء من الضمير المجرور فى منهم على الوجوه كلها. وقيل من خائنة على الوجوه الثلاثة الاخيرة والمراد بهم الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام واضرابه وقيل من خائنة على الوجه الثانى فالمراد بالقليل الفعل القليل ومن ابتدائية كما مر أى الا فعلا قليلا كائنا منهم (فاعف عنهم واصفح) أي ان تابوا وآمنوا أو عاهدوا والتزموا الجزية وقيل مطلق نسخ بآية السيف (ان الله يحب المحسنين) تعليل للامر وحث على الامتثال به وتنبيه على أن العفو على الاطلاق من باب الاحسان (ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم) بيان لقبائح النصارى وجناياتهم اثر بيان قبائح اليهود وخياناتهم ومن متعلقة

باخذنا اذ التقدير وأخذنا من الذين قالوا انا نصارى ميثاقهم . وتقديم الجار والمجرور للاهتمام به ولان ذكر حال احدى الطائفتين مما يوقع فى ذهن السامع أن حال الاخرى ماذا فكانه قيل ومن الطائفة الاخرى أيضا أخذنا ميثاقهم وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع خبرا لمبتدا محذوف قامت صفته أوصلته مقامه أى ومنهم قوم أخذنا ميثاقهم أو من أخذنا ميثاقهم وضمير ميثاقهم راجع الى الموصوف المقدر . وأما فى الوجه الاول فراجع الى الموصول وقيل راجع الى بنى اسرائيل أى أخذنا من هؤلاء ميثاق أولئك أى مثل ميثاقهم من الايمان بالله والرسل وبما يتفرع على ذلك من أفعال الخير . وانما نسب تسميتهم نصارى الى أنفسهم دون أن يقال ومن النصارى ايذانا بأنهم فى قولهم نحن أنصار الله بمعزل من الصدق وانما هو تقول محض منهم وليسوا من نصرة الله تعالى فى شىء أو اظهارا لكمال سوء صنيعهم ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم فان ادعاءهم لنصرته تعالى يستدعى ثباتهم على طاعته تعالى ومراعاة ميثاقه (فنسوا) عقيب أخذ الميثاق من غير تلعثم (حظا) وافرا (مما ذكروا به) فى تضاعيف الميثاق من الايمان بالله تعالى وغير ذلك حسبما مر آنفا وقيل هو ما كتب عليهم فى الانجيل من أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام فتركوه ونبذوه وراء ظهورهم واتبعوا أهواءهم فاختلفوا وتفرقوا نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصارا للشيطان (فأغرينا) أي ألزمنا وألصقنا من غرى بالشىء اذ الزمه ولصق به وأغراه غيره ومنه الغراء وقوله تعالى (بينهم) اما ظرف لاغرينا أو متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعوله أى أغرينا (العداوة والبغضاء) كائنة بينهم ولا سبيل الى جعله ظرفا لهما لان المصدر لا يعمل فيما قبله وقوله تعالى (الى يوم القيامة) اما غاية للاغراء أو للعداوة والبغضاء أى يتعادون ويتباغضون الى يوم القيامة حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة وآراؤهم الزائغة المؤدية الى التفرق الى الفرق الثلاث فضمير بينهم لهم خاصة وقيل لهم ولليهود أى أغرينا العداوة والبغضاء بين اليهود والنصارى (وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) وعيد شديد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت أى يجازيهم بما عملوه على الاستمرار من نقض الميثاق ونسيان الحظ الوافر مما ذكروا به وسوف لتأكيد الوعيد . والالتفات الى ذكر الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة لتشديد الوعيد والتعبير عن العمل بالصنع للايذان برسوخهم فى ذلك وعن المجازاة بالتنبئة للتنبيه على أنهم لا يعلمون حقيقة ما يعملونه من الاعمال السيئة واستتباعها للعذاب فيكون ترتيب العذاب عليها فى افادة العلم بحقيقة حالها بمنزلة الاخبار بها (يا أهل الكتاب) التفات الى خطاب الفريقين على أن الكتاب جنس

شامل للتوراة والانجيل اثر بيان أحوالها من الخيانة وغيرها من فنون القبائح ودعوة لهم الى الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن. وايرادهم بعنوان أهلية الكتاب لانطواء الكلام المصدر به على ما يتعلق بالكتاب وللمبالغة فى التشنيع فان أهلية الكتاب من موجبات مراعاته والعمل بمقتضاه وبيان ما فيه من الاحكام وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا وهم يعلمون (قد جاءكم رسولنا) الاضافة للتشريف والايذان بوجوب اتباعه وقوله تعالى (يبين لكم) حال من رسولنا. وايثار الجملة الفعلية على غيرها للدلالة على تجدد البيان أي قد جاءكم رسولنا حال كونه مبينا لكم على التدريج حسبما تقتضيه المصلحة (كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) أى التوراة والانجيل كبعثة محمد عليه الصلاة والسلام وآية الرجم فى التوراة وبشارة عيسى بأحمد عليهما السلام فى الانجيل. وتأخير كثيرا عن الجار والمجرور لما مر مرارا من اظهار العناية بالمقدم لما فيه من تعجيل المسرة والتشويق الى المؤخر لان ما حقه التقديم اذا أخر لاسيما مع الاشعار بكونه من منافع المخاطب تبقى النفس مترقبة الى وروده فيتمكن عندها اذا ورد فضل تمكن ولان فى المؤخر ضرب تفصيل، بما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم فان مما متعلق بمحذوف وقع صفة لكثيرا وما موصولة اسمية وما بعدها صلتها والعائد اليها محذوف ومن الكتاب متعلق بمحذوف هو حال من العائد المحذوف والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرارهم على الكتم والاخفاء أى يبين لكم كثيرا من الذي تخفونه على الاستمرار حال كونه من الكتاب الذى أنتم أهله والمتمسكون به (ويعفو عن كثير) أى ولا يظهر كثيرا مما تخفونه اذا لم تدع اليه داعية دينية صيانة لكم عن زيادة الافتضاح كما يفصح عنه التعبير عن عدم الاظهار بالعفو. وفيه حث لهم على عدم الاخفاء ترغيبا وترهيبا والجملة معطوفة على الجملة الحالية داخلة فى حكمها وقيل يعفو عن كثير منكم ولا يؤاخذه وقوله تعالى (قد جاءكم من الله نور) جملة مستأنفة مسوقة لبيان أن فائدة مجيء الرسول ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه بل له منافع لا تحصى ومن الله متعلق بجاء ومن لابتداء الغاية مجازا أو بمحذوف وقع حالا من نور وأياما كان فهو تصريح بما يشعر به اضافة الرسول من مجيئه من جنابه عز وجل. وتقديم الجار والمجرور على الفاعل للمسارعة الى بيان كون المجيء من جهته العالية والتشويق الى الجائى ولان فيه نوع تطويل يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم كما فى قوله تعالى «وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين» وتنوين نور للتفخيم والمراد به وبقوله تعالى (وكتاب مبين) القرآن لما

فيه من كشف ظلمات الشرك والشك وإبانة ماخفي على الناس من الحق والاعجاز البين والعطف لتنزيل المغايرة بالعنوان منزلة المغايرة بالذات وقيل المراد بالاول هو الرسول عليه الصلاة والسلام وبالثانى القرآن (يهدى به الله) توحيد الضمير المجرور لاتحاد المرجع بالذات أو لكونهما فى حكم الواحد أو أريد يهدى بما ذكر وتقديم الجار والمجرور للاهتمام وإظهار الجلالة لاظهار كمال الاعتناء بأمر الهداية ومحل الجملة الرفع على أنها صفة ثانية لكتاب أو النصب على الحالية منه لتخصصه بالصفة (من اتبع رضوانه) أى رضاه بالايمان به ومن موصولة أو موصوفة (سبل السلام) أى طرق السلامة من العذاب والنجاة من العقاب أو سبل الله تعالى وهى شريعته التى شرعها للناس قيل هو مفعول ثان ليهدى والحق ان انتصابه بنزع الخافض على طريقة قوله تعالى «واختار موسى قومه» وانما يعدى الى الثانى بالى أو باللام كما فى قوله تعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هى أقوم (ويخرجهم) الضمير لمن والجمع باعتبار المعنى كما أن الافراد فى اتبع باعتبار اللفظ (من الظلمات) أى ظلمات فنون الكفر والضلال (الى النور) الى الايمان (باذنه) بتيسيره أو بارادته (ويهديهم الى صراط مستقيم) هو أقرب الطرق الى الله تعالى ومؤد اليه لامحالة وهذه الهداية عين الهداية الى سبل السلام وانما عطفت عليها تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى كما فى قوله تعالى «ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ» (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) أى لاغير كما يقال الكرم هو التقوى وهم اليعقوبية القائلون بأنه تعالى قد يحل فى بدن انسان معين أو فى روحه وقيل لم يصرح به أحد منهم لكن حيث اعتقدوا اتصافه بصفات الله الخاصة وقد اعترفوا بأن الله تعالى موجود فلزمهم القول بأنه المسيح لاغير وقيل لما زعموا أن فيه لاهوتا وقالوا لا إله إلا واحد لزمهم أن يكون هو المسيح فنسب اليهم لازم قولهم توضيحا لجهلهم وتفضيحا لمعتقدهم (قل) أى تبكيتا لهم واظهاراً لبطلان قولهم الفاسد والقامالهم الحجر والفاء فى قوله تعالى (فمن يملك من الله شيئا) فصيحة ومن استفهامية للانكار والتوبيخ والملك الضبط والحفظ التام عن حزم ومن متعلقة به على حذف المضاف أى ان كان الامر كما تزعمون فمن يمنع من قدرته تعالى وإرادته شيئا وحقيقته فمن يستطيع أن يمسك شيئا منهما (ان أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الارض جميعا) ومن حق من يكون إلها أن لا يتعلق به ولا بشأن من شؤونه بل بشيء من الموجودات قدرة غيره بوجه من الوجوه فضلا عن أن يعجز عن دفع شيء منها عند

تعلقها بهلاكه فلما كان عجزه بيناً لا ريب فيه ظهر كونه بمعزل مما تقولوا فى حقه و المراد بالاهلاك الاماتة والاعدام مطلقاً لا بطريق السخط والغضب و إظهار المسيح على الوجه الذى نسبوا اليه الالوهية فى مقام الاضمار لزيادة التقرير و التنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره و ملكوته تعالى و نفى المالكية المذكورة بالاستفهام الانكارى عن كل أحد مع تحقق الالزام والتبكيت بنفيها عن المسيح فقط بأن يقال فهل يملك شيئا من الله ان اراد الخ لتحقيق الحق بنفى الألوهية عن كل ما عداه سبحانه واثبات المطلوب فى ضمنه بالطريق البرهانى فان انتفاء المالكية المستلزم لاستحالة الالوهية متى ظهر بالنسبة الى الكل ظهر بالنسبة الى المسيح على أبلغ وجه وآكده فيظهر استحالة ألوهيته قطعا وتعميم ارادة الاهلاك للكل مع حصول ماذكر من التحقيق بقصرها عليه بأن يقال فمن يملك من الله شيئا ان اراد أن يهلك المسيح لتهويل الخطب. واظهار كمال العجز ببيان أن الكل تحت قهره تعالى وملكوته لا يقدر أحد على دفع ما أريد به فضلا عن دفع ما أريد بغيره والايذان بأن المسيح اسوة لسائر المخلوقات فى كونه عرضة للهلاك كما أنه اسوة لها فيما ذكر من العجز وعدم استحقاق الالوهية وتخصيص أمه بالذكر مع اندراجها فى ضمن من فى الارض لزيادة تأكيد عجز المسيح ولعل نظمها فى سلك من فرض ارادة اهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل ذلك لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها انموذجا لحال بقية من فرض اهلاكه كانه قيل قل فمن يملك من الله شيئا ان أراد أن يهلك المسيح وأمه ومن فى الارض وقد أهلك أمه فهل مانعه أحد فكذا حال من عداها من الموجودين وقوله تعالى (ولله ملك السموات والارض وما بينهما) أى ما بين قطرى العالم الجسمانى لا بين وجه الارض و مقعر فلك القمر فقط فيتناول ما فى السموات من الملائكة عليهم السلام و ما فى أعماق الارض و البحار من المخلوقات تنصيص على كون الكل تحت قهره تعالى وملكوته اثر الاشارة الى كون البعض أى من فى الأرض كذلك أى له تعالى وحده ملك جميع الموجودات و التصرف المطلق فيها ايجادا واعداما واحياء واماتة لا لأحد سواه استقلالا ولا اشتراكا فهو تحقيق لاختصاص الالوهية به تعالى اثر بيان انتفائها عن كل ماسواه وقوله تعالى (يخلق ما يشاء) جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والالوهية على وجه يزيح ما اعتراهم من الشبهة فى امر المسيح لولادته من غير أب وخلق الطير واحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص أى يخلق ما يشاء من أنواع الخلق والايجاد على أن ما نكرة موصوفة محلها النصب على المصدرية لا على المفعولية كأنه قيل يخلق أى خلق

يشاؤه فتارة يخلق من غير أصل كخلق السموات والارض وأخرى من أصل كخلق ما بينهما فينشيء من أصل ليس من جنسه كخلق آدم وكثير من الحيوانات ومن أصل يجانسه اما من ذكر وحده كخلق حواء أو أنثى وحدها كخلق عيسى عليه السلام أو منهما كخلق سائر الناس ويخلق بلا توسط شيء من المخلوقات كخلق عامة المخلوقات وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر كخلق الطير على يد عيسى عليه السلام معجزة له واحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص وغير ذلك فيجب أن ينسب كله اليه تعالى لا الى من أجرى ذلك بيده على (والله على كل شيء قدير) اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله واظهار الاسم الجليل للتعليل وتقوية استقلال الجملة (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة وبيان لبطلانها بعد ذكر ما صدر عن أحدهما وبيان بطلانه أي قالت اليهود نحن أشياع ابنه عزير وقالت النصارى نحن أشياع ابنه المسيح كما قيل لاشياع أبي خبيب وهو عبد الله بن الزبير الخبيبيون وكما يقول أقارب الملوك عند المفاخرة نحن الملوك وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان النبي عليه الصلاة والسلام دعا جماعة من اليهود الى دين الاسلام وخوفهم بعقاب الله تعالى فقالوا كيف تخوفنا به ونحن أبناء الله وأحباؤه. وقيل إن النصارى يتلون في الانجيل أن المسيح قال لهم انى ذاهب الى أبي وأبيكم وقيل أرادوا ان الله تعالى كالاب لنا في الحنو والعطف ونحن كالابناء له في القرب والمنزلة وبالجملة أنهم كانوا يدعون أن لهم فضلا ومزية عند الله تعالى على سائر الخلق فرد عليهم ذلك وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (قل) الزاما لهم وتبكيتا (فلم يعذبكم بذنوبكم) أي أن صح ما زعمتم فلاى شيء يعذبكم في الدنيا بالقتل والاسر والمسخ وقد اعترفتم بانه تعالى سيعذبكم في الآخرة بالنار أياما بعدد أيام عبادتكم العجل ولو كان الامر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر ولما وقع عليكم ما وقع وقوله تعالى (بل أنتم بشر) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى لستم كذلك بل أنتم بشر (ممن خلق) أى من جنس من خلقه الله تعالى من غير مزية لكم عليهم (يغفر لمن يشاء) أن يغفر له من أولئك المخلوقين وهم الذين آمنوا به تعالى وبرسله (ويعذب من يشاء) أن يعذبه منهم وهم الذين كفروا به وبرسله مثلكم (ولله ملك السموات والارض وما بينهما) من الموجودات لا ينتمى اليه سبحانه شيء منها الا بالمملوكية والعبودية والمقهورية تحت ملكوته يتصرف فيهم كيف يشاء ايجادا واعداما احياء واماتة واثابة وتعذيبا فانى لهم ادعاء ما زعموا (واليه المصير) في الآخرة خاصة لا الى غيره استقلالا او اشتراكا فيجازى كلا من المحسن

والمسيء بما يستدعيه عمله من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه (يا أهل الكتاب) تكرير للخطاب بطريق الالتفات ولطف في الدعوة (قد جاءكم رسولنا يبين لكم) حال من رسولنا وايثاره على مبينا لما مر فيما سبق أي يبين لكم الشرائع والاحكام الدينية المقرونة بالوعد والوعيد ومن جملتها ما بين في الآيات السابقة من بطلان أقاويلكم الشنعاء وماسيأتي من أخبار الامم السالفة وانما حذف تعويلا على ظهور أن مجيء الرسول انما هو لبيانها أو يفعل لكم البيان ويبذله لكم في كل ما تحتاجون فيه الى البيان من أمور الدين وأما تقدير مثل ماسبق في قوله تعالى « كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب » كما قيل فمع كونه تكريرا من غير فائدة يرده قوله عز وجل (على فترة من الرسل) فان فتور الارسال وانقطاع الوحي انما يحوج الى بيان الشرائع والاحكام لا الى بيان ما كتموه وعلى فترة متعلق بجاءكم على الظرفية كما في قوله تعالى « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان » أي جاءكم على حين فتور من الارسال وانقطاع من الوحي ومزيد احتياج الى بيان الشرائع والاحكام الدينية أو بمحذوف وقع حالا من ضمير يبين أو من ضمير لكم أي يبين لكم ما ذكر حال كونه على فترة من الرسل أو حال كونكم عليها أحوج ما كنتم الى البيان ومن الرسل متعلق بمحذوف وقع صفة لفترة أي كائنة من الرسل مبتدأة من جهتهم وقوله تعالى (أن تقولوا) تعليل لمجيء الرسول بالبيان على حذف المضاف أي كراهة أن تقولوا معتذرين عن تفريطكم في مراعاة أحكام الدين (ما جاءنا من بشير ولا نذير) وقد انطمست آثار الشرائع السابقة وانقطعت أخبارها وزيادة من في الفاعل للمبالغة في نفي المجيء وتنكير بشير ونذير للتقليل وهذا كما ترى يقتضي أن المقدر أو المنوي فيما سبق هو الشرائع والاحكام لا كيفما كانت بل مشفوعة بما ذكر من الوعد والوعيد وقوله تعالى (فقد جاءكم بشير ونذير) متعلق بمحذوف تنبيء عنه الفاء الفصيحة وتبين انه معلل به وتنوين بشير ونذير للتفخيم أي لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم بشير أي بشير ونذير أي نذير (والله على كل شيء قدير) فيقدر على الارسال تترى كما فعله بين موسى وعيسى عليهما السلام حيث كان بينهما الف وسبعماية سنة وألف نبي وعلى الارسال بعد الفترة كما فعله بين عيسى ومحمد عليهما السلام حيث كان بينهما ستمائة سنة أو خمسماية وتسع وستون سنة أو خمسماية وست وأربعون سنة وأربعة أنبياء على ما روى الكلبي ثلاثة من بني أسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسي وقيل لم يكن بعد عيسى عليه السلام الا رسول الله عليه السلام وهو الانسب بما في تنوين فترة من التفخيم اللائق بمقام الامتنان عليهم بان الرسول قد بعث اليهم عند كمال حاجتهم اليه بسبب مضى دهر طويل بعد انقطاع الوحي ليهشوا اليه

و يعدوه أعظم نعمة من الله تعالى وفتح باب الى الرحمة و تلزمهم الحجة فلا يعتلوا غدا بانه لم يرسل اليهم من ينبههم من غفلتهم (واذ قال موسى لقومه) جملة مستأنفة مسوقة لبيان مافعلت بنو اسرائيل بعد أخذ الميثاق منهم و تفصيل كيفية نقضهم له وتعلقه بما قبله من حيث أن ماذكر فيه من الامور التى وصف النبي عليه السلام بيانها و من حيث اشتماله على انتفاء فترة الرسل فيما بينهم واذ نصب على أنه مفعول لفعل مقدر خوطب به النبي عليه الصلاة و السلام بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن أهل الكتاب ليعدد عليهم ماصدر عن بعضهم من الجنايات أى واذكر لهم وقت قول موسى لقومه ناصحا لهم ومستميلا لهم بأضافتهم اليه (ياقوم أذكروا نعمة الله عليكم) وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى ايجاب ذكرها لما أن ايجاب ذكر الوقت ايجاب لذكر ماوقع فيه بالطريق البرهانى ولان الوقت مشتمل على ماوقع فيه تفصيلا فاذا استحضر كان ماوقع فيه حاضرا بتفاصيله كانه مشاهد عيانا وعليكم متعلق بنفس النعمة اذا جعلت مصدرا و بمحذوف وقع حالا منها اذا جعلت اسما أى اذكروا انعامه تعالى عليكم أو اذكروا نعمته كائنة عليكم وكذا اذ فى قوله تعالى (اذجعل فيكم أنبياء) أي اذكروا انعامه تعالى عليكم فى وقت جعله أو اذكروا نعمته تعالى كائنة عليكم فى وقت جعله فيما بينكم من أقربائكم أنبياء ذوى عدد كثير و أولى شأن خطير حيث لم يبعث من أمة من الامم مابعث من بنى اسرائيل من الانبياء (و جعلكم ملوكا) عطف على جعل فيكم داخل فى حكمه أى جعل فيكم أو منكم ملوكا كثيرة فانه قد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الانبياء وانما حذف الظرف تعويلا على ظهور الامر أو جعل الكل فى مقام الامتنان عليهم ملوكا لما أن أقارب الملوك يقولون عند المفاخرة نحن الملوك وانما لم يسلك ذلك المسلك فيما قبله لما أن منصب النبوة من عظم الخطر وعزة المطلب وصعوبة المنال ليس بحيث يليق أن ينسب اليه ولو بمجاز امن ليس ممن اصطفاه الله تعالى له و قيل كانوا مملوكين فى أيدى القبط فانقذهم الله تعالى فسمى انقاذهم ملكا و قيل الملك من له مسكن واسع فيه ماء جار وقيل من له بيت وخدم و قيل من له مال لا يحتاج معه الى تكلف الاعمال وتحمل المشاق (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) من فلق البحر و اغراق العدو و تظليل الغمام وانزال المن و السلوى وغير ذلك مما أتاهم الله تعالى من الامور العظام والمراد بالعالمين الامم الخالية الى زمانهم .وقيل من عالمى زمانهم (ياقوم ادخلوا الارض المقدسة) كرر النداء بالاضافة التشريفية اهتماما بشأن الامر و مبالغة فى حثهم على الامتثال به و الارض هى أرض بيت المقدس سميت بذلك لانها كانت قرار الانبياء ومسكن المؤمنين

وقيل هى الطور وماحوله وقيل دمشق وفلسطين وبعض الاردن وقيل هى الشام (التى كتب الله لكم)أي كتب فى اللوح المحفوظ أنها تكون مسكنا لكم ان آمنتم واطعتم لقوله تعالى لهم بعد ماعصوا فانها محرمة عليهم وقوله تعالى (ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين)فان ترتيب الخيبة والخسران على الارتداد يدل على اشتراط الكتب بالمجاهدة المترتبة على الايمان والطاعة قطعا أى لاترجعوا مدبرين خوفا من الجبابرة فالجار والمجرور متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ترتدوا ويجوز ان يتعلق بنفس الفعل قيل لما سمعوا أحوالهم من النقباء بكوا وقالوا ياليتنا متنا بمصر تعالوا نجعل لنا رأسا ينصرف بنا الى مصر أو لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق بالله تعالى وقوله فتنقلبوا اما مجزوم عطفا على ترتدوا أو منصوب على جواب النهى والخسران خسران الدين والدنيا لاسيما دخول ما كتب لهم (قالوا)استئناف مبنى على سؤال نشأ من مساق الكلام كانه قيل فماذا قالوا بمقابلة أمره عليه السلام ونهيه فقيل قالوا غير ممتثلين بذلك (ياموسى ان فيها قوما جبارين) متغلبين لا يتأتى منازعتهم ولا يتسنى مناصبتهم والجبار العاتى الذى يجبر الناس ويقسرهم كائنا من كان على ما يريده كائنا ما كان فعال من جبره على الامر أى أجبره عليه (وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها) من غير صنع من قبلنا فانه لاطاقة لنا باخراجهم منها(فان يخرجوا منها) بسبب من الاسباب التى لاتعلق لنا بها (فانا داخلون) حينئذ أتوا بهذه الشرطية مع كون مضمونها مفهوما مما سبق من توقيت عدم الدخول بخروجهم منها تصريحا بالمقصود وتنصيصا على ان امتناعهم من دخولها ليس الا لمكانهم فيها وأتوا فى الجزاء بالجملة الاسمية المصدرة بحرف التحقيق دلالة على تقرر الدخول وثباته عند تحقق الشرط لا محالة واظهارا لكمال الرغبة فيه وفى الامتثال بالامر (قال رجلان) استئناف كما سبق كأنه قيل هل اتفقوا على ذلك أو خالفهم البعض فقيل قال رجلان (من الذين يخافون) أى يخافون الله تعالى دون العدو ويتقونه فى مخالفة أمره ونهيه وبه قرأ ابن مسعود وفيه تعريض بأن من عداهما لا يخافونه تعالى بل يخافون العدو وقيل من الذين يخافون العدو أى منهم فى النسب لا فى الخوف وهما يوشع بن نون وكالب بن يوفنا من النقباء .وقيل هما رجلان من الجبابرة أسلما وصارا الى موسى عليه السلام فالواو حينئذ لبنى اسرائيل والموصول عبارة عن الجبابرة واليهم يعود العائد المحذوف أى من الذين يخافهم بنو اسرائيل ويعضده قراءة من قرأ يخافون على صيغة المبنى للمفعول أى المخوفين وعلى الاول يكون هذا من الاخافة أى من الذين يخوفون من الله تعالى بالتذكير أو يخوفهم

الوعيد (أنعم الله عليهما) أى بالتثبيت وربط الجأش والوقوف على شؤنه تعالى والثقة بوعده أو بالايمان وهو صفة ثانية لرجلان أو اعتراض وقيل حال من الضمير فى يخافون أو من رجلان لتخصصه بالصفة أى قالا مخاطبين لهم ومشجعين (ادخلوا عليهم الباب) أى باب بلدهم وتقديم الجار والمجرور عليه للاهتمام به لان المقصود انما هو دخول الباب وهم فى بلدهم أى باغتوهم وضاغتوهم فى المضيق وامنعوهم من البروز الى الصحراء لئلا يجدوا للحرب مجالا (فاذا دخلتموه) أي باب بلدهم وهم فيه (فانكم غالبون) من غير حاجة الى القتال فانا قد رأيناهم وشاهدنا أن قلوبهم ضعيفة وان كانت أجسادهم عظيمة فلا تخشوهم واهجموا عليهم فى المضايق فانهم لا يقدرون فيها على الكر والفر وقيل انما حكما بالغلبة لما علماها من جهة موسى عليه السلام ومن قوله تعالى كتب الله لكم أو لما علما من سنته تعالى فى نصرة رسله وما عهدا من صنعه تعالى لموسى عليه السلام من قهر أعدائه والاول أنسب بتعليق الغلبة بالدخول (وعلى الله) تعالى خاصة (فتوكلوا) بعد ترتيب الاسباب ولا تعتمدوا عليها فانها بمعزل من التأثير وانما التأثير من عند الله العزيز القدير (ان كنتم مؤمنين) أى مؤمنين به تعالى مصدقين لوعده فان ذلك مما يوجب التوكل عليه حتما (قالوا) استئناف كما سبق أى قالوا غير مبالين بهما وبمقالتهما مخاطبين لموسى عليه السلام اظهارا لاصرارهم على القول الاول وتصريحا بمخالفتهم له عليه السلام (ياموسى انا لن ندخلها) أى أرض الجبابرة فضلا عن دخول بابهم وهم فى بلدهم (أبدا) أى دهرا طويلا (ماداموا فيها) أى فى أرضهم وهو بدل من أبدا بدل البعض أو عطف بيان (فاذهب) الفاء فصيحة أى فاذا كان الامر كذلك فاذهب (أنت وربك فقاتلا) أى فقاتلاهم انما قالوا ذلك استهانة واستهزاء به سبحانه وبرسوله وعدم مبالاة بهما وقصدوا ذهابهما حقيقة كما ينبىء عنه غاية جهلهم وقسوة قلوبهم. وقيل أرادوا إرادتهما وقصدهما كما تقول كلمته فذهب يجيبنى كأنهم قالوا فأريدا قتالهم واتصداهم. وقيل التقدير فاذهب أنت وربك يعينك ولا يساعده قوله تعالى فقاتلا ولم يذكروا هرون ولا الرجلين كأنهم لم يجزموا بذهابهم أو لم يعبؤا بقتالهم وقوله تعالى (انا ههنا قاعدون) يؤيد الوجه الاول وأرادوا بذلك عدم التقدم لاعدم التأخر (قال) عليه السلام لما رأى منهم ما رأى من العناد على طريقة البث والحزن والشكوى الى الله تعالى مع رقة القلب التى بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة (رب انى لا أملك إلا نفسى وأخى) عطف على نفسى وقيل على الضمير فى أنى على معنى انى لا أملك إلا نفسى وان أخى

لا يملك إلا نفسه . و قيل على الضمير فى لا أملك للفصل (فافرق بيننا) يريد نفسه وأخاه والفاء لترتيب الفرق أو الدعاء به على ماقبله (وبين القوم الفاسقين) الخارجين عن طاعتك المصرين على عصيانك بأن تحكم لنا بما نستحقه وعليهم بما يستحقونه وقيل بالتبعيد بيننا وبينهم وتخليصنا من صحبتهم (قال فانها) أى الارض المقدسة والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الدعاء (محرمة عليهم) تحريم منع لا تحريم تعبد لا يدخلونها و لا يملكونها لأن كتابتها لهم كانت مشروطة بالايمان والجهاد وحيث نكصوا على أدبارهم حرموا ذلك و انقلبوا خاسرين وقوله تعالى (أربعين سنة) ان جعل ظرفا لمحرمة يكون التحريم مؤقتا لا مؤبدا فلا يكون مخالفا لظاهر قوله تعالى «كتب الله لكم» فالمراد بتحريمها عليهم أنه لا يدخلها أحد منهم فى هذه المدة لكن لا بمعنى أن كلهم يدخلونها بعدها بل بعضهم ممن بقى حسبما روى أن موسى عليه السلام سار ممن بقى من بنى اسرائيل الى أريحا وكان يوشع بن نون على مقدمته ففتحها وأقام بها ما شاء الله تعالى ثم قبضه عليه السلام. وقيل لم يدخلها أحد ممن قال لن ندخلها أبدا وانما دخلها مع موسى عليه السلام النواشى من ذرياتهم فالموقت بالاربعين فى الحقيقة تحريمها على ذرياتهم وانما جعل تحريمها عليهم لما بينهما من العلاقة التامة المتاخمة للاتحاد وقوله تعالى (يتيهون فى الارض) أى يتحيرون فى البرية استئناف لبيان كيفية حرمانهم أو حال من ضمير عليهم وقيل الظرف متعلق بيتيهون فيكون التيه مؤقتا والتحريم مطلقا قيل كانوا ستمائة ألف مقاتل وكان طول البرية تسعين فرسخا وقد تاهوا فى ستة فراسخ أو تسعة فراسخ فى ثلاثين فرسخا . وقيل فى ستة فراسخ فى اثنى عشر فرسخا روى أنهم كانوا كل يوم يسيرون جادين حتى اذا أمسوا اذاهم بحيث ارتحلوا وكان الغمام يظلهم من حر الشمس ويطلع بالليل عمود من نور يضىء لهم وينزل عليهم المن والسلوى ولا تطول شعورهم وإذا ولد لهم مولود كان عليه ثوب كالظفر يطول بطوله وهذه الانعامات عليهم مع أنهم معاقبون لما أن عقابهم كان بطريق العرك والتأديب قيل كان موسى وهرون معهم ولكن كان ذلك لهما روحا وسلامة كالنار لابراهيم وملائكة العذاب عليهم السلام وروى ان هرون مات فى التيه ومات موسى بعده فيه بسنة و دخل يوشع أريحا بعد موته بثلاثة أشهر ولا يساعده ظاهر النظم الكريم فانه تعالى بعد ما قبل دعوته على بنى اسرائيل وعذبهم بالتيه بعيد أن ينجى بعض المدعو عليهم أو ذراريهم ويقدر وفاتهما فى محل العقوبة ظاهرا وان كان ذلك لهما منزل روح وراحة وقد قيل انهما لم يكونا معهم فى التيه وهو الانسب بتفسير الفرق

بالمباعدة ومن قال بانهما كانا معهم فيه فقد فسر الفرق بما ذكر من الحكم بما يستحقه كل فريق (فلا تأس) فلا تحزن (على القوم الفاسقين) روى أنه عليه السلام ندم على دعائه عليهم فقيل لاتندم و لا تحزن فانهم أحقاء بذلك لفسقهم (و اتل عليهم) عطف على مقدر تعلق به قوله تعالى « واذ قال موسى» الخ وتعليقه به من حيث انه تمهيد لما سيأتى من جنايات بنى اسرائيل بعد ما كتب عليهم ما كتب وجاءتهم الرسل بما جاءت به من البينات (نبأ ابنى آدم) هما قابيل و هابيل ونقل عن الحسن والضحاك أنهما رجلان من بني اسرائيل بقرينة آخر القصة وليس كذلك أوحى الله عز و جل الى آدم أن يزوج كلا منهما توأمة الآخر وكانت توأمة قابيل أجمل و اسمها اقليما فحسد عليها أخاه وسخط وزعم أن ذلك ليس من عند الله تعالي بل من جهة آدم عليه السلام فقال لهما عليه السلام قربا قربانا فمن أيكما قبل تزوجها ففعلا فنزلت نار على قربان هابيل فأكلته ولم تتعرض لقربان قابيل فاز داد قابيل حسدا وسخطاو فعل مافعل (بالحق) متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر محذوف أى تلاوة ملتبسةبالحق و الصحة أو حالا من فاعل اتل أو من مفعوله اى ملتبسا أنت أو نبؤهما بالحق و الصدق حسبما تقرر فى كتب الاولين(اذ قربا قربانا)منصوب بالنبأ ظرف له أى اتل قصتهماونبأهما فى ذلك الوقت وقيل بدل منه على حذف المضاف أى اتل عليهم نبأهما نبأ ذلك الوقت ورد عليهبان اذ لا يضاف اليها غير الزمان كوقتئذ وحينئذ والقربان اسم لما يتقرب به الى اللهتعالى من نسك أوصدقة كالحلوان اسم لما يحلى أي يعطى.و توحيده لما أنه فى الأصل مصدر. وقيل تقديره اذ قرب كل منهما قربانا (فتقبل من أحدهما) هوهابيل قيل كان هو صاحب ضرع وقرب جملا سمينا فنزلت نار فأكلته (ولم يتقبل من الآخر هو قابيل قيل كان هوصاحب زرع وقرب أردأ ماعنده من القمح فلم تتعرض له النار أصلا (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا قال من لم يتقبل قربانه فقيل قال لاخيه لتضاعف سخطه و حسده لما ظهر فضله عليه عند الله عز وجل (لأقتلنك) أى و الله لاقتلنك بالنون المشددة وقرىء بالمخففة (قال)استئناف كما قبله أى قال الذى تقبل قربانه لما رأى أن حسده لقبول قربانه وعدم قبول قربان نفسه (انما يتقبل الله) أى القربان (من المتقين) لامن غيرهم و انماتقبل قربانى ورد قربانك لما فينا من التقوى وعدمه أى انما أتيت من قبل نفسك لامن قبلى فلم تقتلنى خلا انه لم يصرح بذلك بل سلك مسلك التعريض حذارا من تهييج غضبه وحملا له على التقوى و الاقلاع عما نواه ولذلك أسند الفعل الى الاسم الجليل لتربية المهابة ثم صرح

بتقواه على وجه يستدعي سكون غيظه لو كان له عقل وازع حيث قال بطريق التوكيد (لئن بسطت الى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك) حيث صدر الشرطية باللام الموطئة للقسم وقدم الجار والمجرور على المفعول الصريح أيذانا من أول الامر برجوع ضرر البسط وغائلته اليه ولم يجعل جواب القسم الساد مسد جواب الشرط جملة فعلية موافقة لما فى الشرط بل اسمية مصدرة بما الحجازية المفيدة لتأكيد النفى بما فى خبرها من الباء للمبالغة فى اظهار براءته عن بسط اليد ببيان استمراره على نفى البسط كما فى قوله تعالى «وماهم بمؤمنين وقوله وماهم بخارجين منها» فان الجملة الاسمية الايجابية كما تدل بمعونة المقام على دوام الثبوت كذلك السلبية تدل بمعونته على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام وذلك باعتبار الدوام والاستمرار بعد اعتبار النفى لاقبله حتى يرد النفى على المقيد بالدوام فيرفع قيده أى والله لئن باشرت قتلى حسبما أوعدتنى به وتحقق ذلك منك ما أنا بفاعل مثله لك فى وقت من الاوقات ثم علل ذلك بقوله (انى أخاف الله رب العالمين) وفيه من ارشاد قابيل الى خشية الله تعالى على أبلغ وجه وآكده ما لا يخفى كأنه قال انى أخافه تعالى ان بسطت يدى اليك لاقتلك أن يعاقبنى وان كان ذلك منى لدفع عداوتك عنى فما ظنك بحالك وأنت البادئ العادى وفى وصفه تعالى بربوبية العالمين تأكيد للخوف. قيل كان هابيل أقوى منه ولكن تحرج عن قتله واستسلم خوفا من الله تعالى لان القتل للدفع لم يكن مباحا حينئذ وقيل تحريا لما هو الافضل حسبما قال عليه السلام كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ويأباه التعليل بخوفه تعالى الا أن يدعى أن ترك الاولى عنده بمنزلة المعصية فى استتباع الغائلة مبالغة فى التنزه وقوله تعالى (انى أريد أن تبوء باثمى واثمك) تعليل آخر لامتناعه عن المعارضة على أنه غرض متأخر عنه كما أن الاول باعث متقدم عليه وانما لم يعطف عليه تنبيها على كفاية كل منهما فى العلية والمعنى انى أريد باستسلامى لك وامتناعى عن التعرض لك أن ترجع بأثمى أي بمثل اثمى لو بسطت يدي اليك وبأثمك ببسط يدك الى كما فى قوله عليه السلام «المستبان ماقالا فعلى البادئ مالم يعتد المظلوم أى على البادئ عين اثم سبه ومثل سب صاحبه بحكم كونه سببا له وقيل معنى باثمى اثم قتلى ومعنى باثمك اثمك الذى لاجله لم يتقبل قربانك وكلاهما نصب على الحالية أى ترجع ملتبسا بالاثمين حاملا لهم ولعل مراده بالذات انما هو عدم ملابسته للاثم لا ملابسة أخيه له. وقيل المراد بالاثم عقوبته ولا ريب فى جواز ارادة عقوبة العاصى ممن علم أنه لا يرعوى عن المعصية أصلا ويأباه قوله تعالى (فتكون من أصحاب النار) فان كونه منهم انما يترتب على رجوعه

بالاثمين لا على ابتلائه بعقوبتهما وحمل العقوبة على نوع آخر يترتب عليها العقوبة النارية يرده قوله تعالى (وذلك جزاء الظالمين) فانه صريح فى أن كونه من أصحاب النار تمام العقوبة وكمالها والجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبلها ولقد سلك فى صرفه عما نواه من الشر كل مسلك من العظة والتذكير بالترغيب تارة والترهيب أخرى فما أورثه ذلك الا الاصرار على الغى والانهماك فى الفساد (فطوعت له نفسه قتل أخيه)وسعته وسهلته من طاع له المرتع اذا اتسع وترتيب التطويع على ما حكى من مقالات هابيل مع تحققه قبلها أيضا كما يفصح عنه قوله لأقتلنك لما أن بقاء الفعل بعد تقرر مايزيله من الدواعى القوية وان كان استمرارا عليه بحسب الظاهر لكنه فى الحقيقة أمر حادث وصنع جديد كما فى قولك وعظته فلم يتعظ أولان هذه المرتبة من التطويع لم تكن حاصلة قبل ذلك بناء على تردده فى قدرته على القتل لما أنه كان أقوى منه وانما حصلت بعد وقوفه على استسلام هابيل وعدم معارضته له والتصريح باخوته لكمال تقبيح ماسولته نفسه. وقرىء فطاوعت على أنه فاعل بمعنى فعل أو على أن قتل أخيه كأنه دعا نفسه الى الاقدام عليه فطاوعته ولم تمتنع وله لزيادة الربط كقولك حفظت لزيد ماله (فقتله) قيل لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل فتمثل ابليس وأخذ طائرا ووضع رأسه على حجر ثم شدخها بحجر آخر فتعلم منه فرضخ رأس هابيل بين حجرين وهو مستسلم لا يستعصى عليه وقيل اغتاله وهو نائم وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة واختلف فى موضع قتله فقيل عند عقبة حراء وقيل بالبصرة فى موضع المسجد الاعظم وقيل فى جبل بود ولما قتله تركه بالعراء لا يدرى ما يصنع به فخاف عليه السباع فحمله فى جراب على ظهره أربعين يوما وقيل سنة حتى أروح وعكفت عليه الطيور والسباع تنظر متى يرمى به فتأكله (فأصبح من الخاسرين) ديناودنيا (فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه) روى أنه تعالى بعث غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه حفرة فألقاه فيها والمستكن فى يريه لله تعالى أو للغراب واللام على الاول متعلقة ببعث حتما وعلى الثانى بيبحث ويجوز تعلقها ببعث أيضا وكيف حال من ضمير يوارى والجملة ثانى مفعولي يرى والمراد بسوأة أخيه جسده الميت (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا قال عند مشاهدة حال الغراب فقيل قال (ياويلتا) هى كلمة جزع وتحسر والالف بدل من ياء المتكلم والمعنى ياويلتى احضرى فهذا أوانك والويل والويلة الهلكة (أعجزت أن أكون) أى عن أن أكون (مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى) تعجب من عدم اهتدائه الى

ما اهتدى اليه الغراب وقوله تعالى فأوارى بالنصب عطف على أن أكون وقرىء بالرفع أى فأنا أوارى (فأصبح من النادمين) أي على قتله لما كابد فيه من التحير فى أمره وحمله على رقبته مدة طويلة روي أنه لما قتله اسود جسده وكان أبيض فسأله آدم عن أخيه فقال ما كنت عليه وكيلا قال بل قتلته ولذلك اسود جسدك ومكث آدم بعده مائة سنة لا يضحك وقيل لما قتل قابيل هابيل هرب الى عدن من أرض اليمن فأتاه ابليس فقال له انما أكلت النار قربان هابيل لانه كان يخدمها و يعبدها فان عبدتها أيضا حصل مقصودك فبنى بيت نار فعبدها وهو أول من عبد النار (من أجل ذلك) شروع فيما هو المقصود من تلاوة النبأ من بيان بعض آخر من جنايات بنى اسرائيل ومعاصيهم وذلك اشارة الى عظم شان القتل و افراط قبحه المفهومين مما ذكر فى تضاعيف القصة من استعظام هابيل له و كمال اجتنابه عن مباشرته وان كان ذلك بطريق الدفع عن نفسه واستسلامه لان يقتل خوفا من عقابه و بيان استتباعه لتحمل القاتل لاثم المقتول ومن كون قابيل بمباشرته من جملة الخاسرين دينهم ودنياهم و من ندامته على فعله مع ما فيه من العتو وشدة الشكيمة و قساوة القلب والاجل فى الاصل مصدر أجل شرا اذا جناه استعمل فى تعليل الجنايات كما فى قولهم من جراك فعلته أى من أن جررته و جنيته ثم اتسع فيه و استعمل فى كل تعليل وقرىء من أجل بكسر الهمزة وهى لغة فيه وقرىء من اجل بحذف الهمزة والفاء فتحها على النون ومن لابتداء الغاية متعلقة بقوله تعالى (كتبنا على بنى اسرائيل) وتقديمها عليه للقصر أى من ذلك ابتدأ الكتب ومنه نشأ لا من شيء آخر أى قضينا عليهم و بينا (انه من قتل نفسا) واحدة من النفوس (بغير نفس) أى بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص (أو فساد فى الارض) أى فساد يوجب اهدار دمها وهو عطف على ما أضيف اليه غير على معنى نفى كلا الامرين معا كما فى قولك من صلى بغير وضوء أو تيمم بطلت صلاته لا نفى أحدهما كما فى قولك من صلى بغير وضوء أو ثوب بطلت صلاته ومدار الاستعمالين اعتبار ورود النفى على ما يستفاد من كلمة أو من الترديد بين الامرين المنبىء عن التخيير والاباحة واعتبار العكس ومناط الاعتبارين اختلاف حال ما أضيف اليه غير من الامرين بحسب اشتراط نقيض الحكم بتحقق أحدهما و اشتراطه بتحققهما معا ففى الاول يرد النفى على الترديد الواقع بين الامرين قبل وروده فيفيد نفيهما معا وفى الثانى يرد الترديد على النفى فيفيد نفى أحدهما [illegible] اذ ليس قبل ورود النفي ترديد حتى يتصور عكسه وتوضيحه أن كل حكم شرط بتحقق أحد شيئين مثلا فنقيضه مشروط بانتفائهما معا وكل حكم شرط بتحققهما معا فنقيض

مشروط بانتفاء أحدهما ضرورة أن نقيض كل شيء مشروط بنقيض شرطه ولا ريب في أن نقيض الايجاب الجزئي كما في الحكم الاول هو السلب الكلي ونقيض الايجاب الكلي كما في الحكم الثاني هو رفعه المستلزم للسلب الجزئي فثبت اشتراط نقيض الاول بانتفائهما معا واشتراط نقيض الثاني بانتفاء أحدهما ولما كان الحكم في قولك من صلى بوضوء أو تيمم صحت صلاته مشروطا بتحقق أحدهما مهما كان نقيضه في قولك من صلى بغير وضوء أو تيمم بطلت صلاته مشروطا بنقيض الشرط المذكور ألبتة وهو انتفاؤهما معا فتعين ورود النفي المستفاد من غير على الترديد الواقع بين الوضوء والتيمم بكلمة أو فانتفى تحققهما معا ضرورة عموم النفي الوارد على المبهم وعلى هذا يدور ما قالوا انه اذا قيل جالس العلماء أو الزهاد ثم أدخل عليه لا الناهية امتنع فعل الجميع نحو ولا تطع منهم آثما أو كفورا إذ المعنى لا تفعل أحدهما فأيهما فعل فهو أحدهما وأما قولك من صلى بوضوء أو ثوب صحت صلاته فحيث كان الحكم فيه مشروطا بتحقق كلا الامرين كان نقيضه في قولك من صلى بغير وضوء أو ثوب بطلت صلاته مشروطا بنقيض الشرط المذكور وهو انتفاء أحدهما فتعين ورود الترديد على النفي فأفاد نفي أحدهما ولا يخفى أن اباحة القتل مشروطة بأحد ما ذكر من القتل والفساد ومن ضرورته اشتراط حرمته بانتفائهما معا فتعين ورود النفي على الترديد لا محالة كأنه قيل من قتل نفسا بغير أحدهما (فكأنما قتل الناس جميعا) فمن قال في تفسيره أو بغير فساد فقد أبعد عن توفية النظم الكريم حقه وما في كأنما كافة مهيئة لوقوع الفعل بعدها وجميعا حال من الناس أو تأكيد ومناط التشبيه اشتراك الفعلين في هتك حرمة الدماء والاستعصاء على الله تعالى وتجسير الناس على القتل وفي استتباع القود واستجلاب غضب الله تعالى وعذابه العظيم (ومن أحياها) أي تسبب لبقاء نفس واحدة موصوفة بعدم ما ذكر من القتل والفساد في الارض اما بنهي قاتلها عن قتلها أو استنقاذها من سائر أسباب الهلكة بوجه من الوجوه (فكأنما أحيا الناس جميعا) وجه التشبيه ظاهر والمقصود تهويل أمر القتل وتفخيم شأن الاحياء بتصوير كل منهما بصورة لائقة به في ايجاب الرهبة والرغبة ولذلك صدر النظم الكريم بضمير الشأن المنبيء عن كمال شهرته ونباهته وتبادره الى الاذهان عند ذكر الضمير الموجب لزيادة تقرير ما بعده في الذهن فان الضمير لا يفهم منه من أول الامر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده فضل تمكن كأنه قيل ان الشأن الخطير هذا (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات) جملة مستقلة غير معطوفة على كتبنا أكدت بالتوكيد القسمي وحرف التحقيق لكمال العناية

بتحقق مضمونها وانما لم يقل ولقد أرسلنا اليهم رسلنا الخ للتصريح بوصول الرسالة اليهم فانه أدل على تناهيهم فى العتو والمكابرة أى بالله لقد جاءتهم رسلنا حسبما أرسلناهم بالآيات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم تأكيدا لوجوب مراعاته وتأييدا لتحتم المحافظة عليه (ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك) أى بعد ماذكر من الكتب وتأكيد الامر بارسال الرسل تترى وتجديد العهد مرة بعد أخرى ووضع اسم الاشارة موضع الضمير للايذان بكمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك فى سلك الامور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايماء الى علو درجته وبعد منزلته فى عظم الشان وثم للتراخى فى الرتبة والاستبعاد (فى الارض) متعلق بقوله تعالى (لمسرفون) وكذا الظرف المتقدم ولا يقدح فيه توسط اللام بينه وبينهما لانها لام الابتداء وحقها الدخول على المبتدا وانما دخولها على الخبر لمكان ان فهى فى حيزها الاصلى حكما والاسراف فى كل أمر التباعد عن حد الاعتدال مع عدم مبالاة به أى مسرفون فى القتل غير مبالين به ولما كان اسرافهم فى أمر القتل مستلزما لتفريطهم فى شأن الاحياء وجودا وذكرا وكان هو أقبح الامرين وأفظعهما اكتفى بذكره فى مقام التشنيع (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) كلام مستأنف سيق لبيان حكم نوع من أنواع القتل وما يتعلق به من الفساد بأخذ المال ونظائره وتعيين موجبه العاجل والآجل اثر بيان عظم شأن القتل بغير حق وأدرج فيه بيان ما أشير اليه إجمالا من الفساد المبيح للقتل قيل أى يحاربون رسوله وذكر الله تعالى للتمهيد والتنبيه على رفعة محله عنده عز وجل ومحاربة أهل شريعته وسالكى طريقته من المسلمين محاربة له عليه السلام فيعم الحكم من يحاربهم ولو بعد أعصار بطريق العبارة دون الدلالة والقياس لان ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند النزول فيحتاج فى تعميمه لغيرهم الى دليل آخر وقيل جعل محاربة المسلمين محاربة لله تعالى ورسوله تعظيما لهم والمعنى يحاربون أولياءهما وأصل الحرب السلب والمراد هنا قطع الطريق وقيل المكابرة بطريق اللصوصية وان كانت فى مصر (ويسعون فى الارض) عطف على يحاربون والجار والمجرور متعلق به وقوله تعالى (فسادا) اما مصدر وقع موقع الحال من فاعل يسعون أى مفسدين أو مفعول له أى للفساد أو مصدر مؤكد ليسعون لانه فى معنى يفسدون على أنه مصدر من أفسد بحذف الزوائد أو اسم مصدر قيل نزلت الآية فى قوم هلال بن عويمر الاسلمى وكان وادعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن أتاه من المسلمين فهو آمن لا يهاج ومن مر بهلال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو آمن لا يهاج فمر قوم من بنى

كنانة يريدون الاسلام بناس من قوم هلال ولم يكن هلال يومئذ شاهدا فقطعوا عليهم وقتلوهم وأخذوا أموالهم. وقيل نزلت فى العرنيين وقصتهم مشهورة وقيل فى قوم من أهل الكتاب بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوا العهد و قطعوا السبيل و أفسدوا فى الأرض ولما كانت المحاربة والفساد على مراتب متفاوتة و وجوه شتي من القتل بدون أخذ المال و من القتل مع أخذه و أخذه بدون القتل و من الاخافة بدون قتل و أخذ شرعت لكل مرتبة من تلك المراتب عقوبة معينة بطريق التوزيع فقيل (أن يقتلوا) أي حدا من غير صلب ان أفردوا القتل ولو عفا الاولياء لا يلتفت الى ذلك لانه حق الشرع و لافرق بين أن يكون القتل بآلة جارحة أولا (أو يصلبوا) أي مع القتل ان جمعوا بين القتل والاخذ بان يصلبوا أحياء و تبعج بطونهم برمح الى أن يموتوا وفى ظاهر الرواية أن الامام مخير ان شاء اكتفى بذلك وان شاء قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وقتلهم وصلبهم وصيغة التفعيل فى الفعلين للتكثير وقرىء بالتخفيف فيهما (أو تقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف) أى أيديهم اليمنى و أرجلهم اليسرى ان اقتصروا على أخذ المال من مسلم أو ذمي وكان المقدار بحيث لو قسم عليهم أصاب كلا منهم عشرة دراهم أو مايساويها قيمة أما قطع أيديهم فلأخذ المال وأما قطع أرجلهم فلاخافة الطريق بتفويت أمنه (أو ينفوا من الارض) ان لم يفعلوا غير الاخافة والسعي للفساد و المراد بالنفى عندنا هو الحبس فانه نفي عن وجه الارض لدفع شرهم عن أهلها و يعزرون أيضا لمباشرتهم منكر الاخافة و ازالة الأمن. وعند الشافعى رضى الله عنه النفى من بلد الى بلد لا يزال يطلب و هو هارب فزعا وقيل هو النفى عن بلده فقط وكانوا ينفونهم الى دهلك وهو بلد فى أقصى تهامة وناصع وهو بلد من بلاد الحبشة (ذلك) أى ما فصل من الأحكام والأجزية قيل هو مبتدأ وقوله تعالى (لهم خزى) جملة من خبر مقدم على المبتدا وقوله تعالى (فى الدنيا) متعلق بمحذوف وقع صفة الخزى أو متعلق بخزى على الظرفية والجملة فى محل الرفع على أنها خبر لذلك وقيل خزى خبر لذلك و لهم متعلق بمحذوف وقع حالا من خزي لانه فى الاصل صفة له فلما قدم انتصب حالا وفى الدنيا إما صفة لخزى أو متعلق به على ما مر والخزى الذل والفضيحة (ولهم فى الآخرة) غير هذا (عذاب عظيم) لايقادر قدره لغاية عظم جناياتهم فقوله تعالى لهم خبر مقدم وعذاب مبتدا مؤخر وفى الآخرة متعلق بمحذوف وقع حالا من عذاب لانه فى الاصل صفة له فلما قدم انتصب حالا أي كائنا فى الآخرة (الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) استثناء مخصوص بما هو من حقوق الله عز وجل كما ينبيء عنه قوله تعالى (فاعلموا

أن الله غفور رحيم) أما ما هو من حقوق الاولياء من القصاص ونحوه فاليهم ذلك ان شاءوا عفوا وان شاءوا أحبوا استوفوا وانما يسقط بالتوبة وجوب استيفائه لا جوازه وعن علي رضي الله عنه أن الحرث بن بدر جاءه تائبا بعد ما كان يقطع الطريق فقبل توبته ودرأ عنه العقوبة (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) لما ذكر عظم شأن القتل والفساد وبين حكمهما وأشير في تضاعيف ذلك الى مغفرته تعالى لمن تاب من جنايته أمر المؤمنين بأن يتقوه تعالى في كل ما يأتون وما يذرون بترك ما يجب اتقاؤه من المعاصي التي من جملتها ما ذكر من القتل والفساد وبفعل الطاعات التي من زمرتها السعي في احياء النفوس ودفع الفساد والمسارعة الى التوبة والاستغفار (وابتغوا) أي اطلبوا لانفسكم (اليه) أي الى ثوابه والزلفى منه (الوسيلة) هي فعيلة بمعنى ما يتوسل به ويتقرب الى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي من وسل الى كذا أي تقرب اليه بشيء واليه متعلق بها قدم عليها للاهتمام به وليست بمصدر حتى لا تعمل فيما قبلها ولعل المراد بها الاتقاء المأمور به فانه ملاك الامر كله كما أشير اليه وذريعة لنيل كل خير ومنجاة من كل ضير فالجملة حينئذ جارية مما قبلها مجرى البيان والتأكيد أو مطلق الوسيلة وهو داخل فيها دخولا أوليا وقيل الجملة الاولى أمر بترك المعاصي والثانية أمر بفعل الطاعات وحيث كان في كل من ترك المعاصي المشتهاة للنفس وفعل الطاعات المكروهة لها كلفة ومشقة عقب الامر بهما بقوله تعالى (وجاهدوا في سبيله) بمحاربة أعدائه البارزة والكامنة (لعلكم تفلحون) بنيل مرضاته والفوز بكرامته (ان الذين كفروا) كلام مبتدأ مسوق لتأكيد وجوب الامتثال بالاوامر السابقة وترغيب المؤمنين في المسارعة الى تحصيل الوسيلة اليه عز وجل قبل انقضاء أوانه ببيان استحالة توسل الكفار يوم القيامة باقوى الوسائل الى النجاة من العذاب فضلا عن نيل الثواب (لو أن لهم) أي لكل واحد منهم كما في قوله تعالى «ولو ان لكل نفس ظلمت» الخ لا لجميعهم اذ ليس في ذلك هذه المرتبة من تهويل الامر وتفظيع الحال (ما في الارض) أي من أصناف أموالها وذخائرها وسائر منافعها قاطبة وهو اسم ان ولهم خبرها ومحلها الرفع بلا خلاف خلا أنه عند سيبويه رفع على الابتداء ولا حاجة فيه الى الخبر لاشتمال صلتها على المسند والمسند اليه وقد اختصت من بين سائر ما يؤول بالاسم بالوقوع بعد لو. وقيل الخبر محذوف ثم قيل يقدر مقدما أي لو ثابت كون ما في الارض لهم وقيل يقدر مؤخرا أي لو كون ما في الارض لهم ثابت وعند المبرد والزجاج والكوفيين رفع على الفاعلية والفعل مقدر بعد لو أي لو ثبت أن لهم ما في

الارض وقوله تعالى (جميعا) توكيد للموصول أو حال منه (ومثله) بالنصب عطف عليه وقوله تعالى (معه) ظرف وقع حالا من المعطوف والضمير راجع الى الموصول وفائدته التصريح بفرض كينونتهما لهم بطريق المعية لا بطريق التعاقب تحقيقا لكمال فظاعة الامر مع ما فيه من نوع اشعار بكونهما شيئا واحدا وتمهيدا لأفراد الضمير الراجع اليهما واللام فى قوله تعالى (ليفتدوا به) متعلقة بما تعلق به خبر أن أعنى الاستقرار المقدر فى لهم وبالخبر المقدر عند من يرى تقدير الخبر مقدما أو مؤخرا وبالفعل المقدر بعد لو على رأى المبرد ومن نحا نحوه ولا ريب فى أن مدار الافتداء بما ذكر هو كونه لهم لا ثبوت كونه لهم وان كان مستلزما له والباء فى به متعلقة بالافتداء والضمير راجع الى الموصول ومثله معا وتوحيده اما لما أشير اليه واما لاجرائه مجرى اسم الاشارة كأنه قيل بذلك كما فى قوله . كأنه فى الجلد توليع البهق . أى كان ذلك وقيل هو راجع الى الموصول والعائد الى المعطوف أعنى مثله محذوف كما حذف الخبر من قيار فى قوله : فانى وقيار بها لغريب

أى وقيار أيضا غريب وقد جوز أن يكون نصب ومثله على أنه مفعول معه ناصبه الفعل المقدر بعد لو تفريعا على مذهب المبرد ومن رأى رأيه وأنت خبير بأنه يؤدى الى كون الرافع للفاعل غير الناصب للمفعول معه لان المعنى على اعتبار المعية بين ما فى الارض ومثله فى الكينونة لهم لا فى ثبوت تلك الكينونة وتحققها ولا مساغ لجعل ناصبه الاستقرار المقدر فى لهم لما أن سيبويه قد نص على أن اسم الاشارة وحرف الجر المتضمن للاستقرار لا يعملان فى المفعول معه وان قوله : هذا لك وأباك قبيح وان جوزه بعض النحاة فى الظرف وحرف الجر وقوله تعالى (من عذاب يوم القيامة) متعلق بالافتداء أيضا أى لو أن ما فى الارض ومثله ثابت لهم ليجعلوه فدية لانفسهم من العذاب الواقع يومئذ (ما تقبل منهم) ذلك وهو جواب لو وترتيبه على كون ذلك لهم لاجل افتدائهم به من غير ذكر الافتداء بان يقال وافتدوا به مع أن الرد والقبول انما يترتب عليه لا على مباديه للايذان بأنه أمر محقق الوقوع غنى عن الذكر وانما المحتاج الى الفرض قدرتهم على ما ذكر أو للمبالغة فى تحقق الرد وتخييل أنه وقع قبل الافتداء على منهاج ما فى قوله تعالى «أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده» حيث لم يقل فأتى به فرآه فلما الخ وما فى قوله تعالى «وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه» من غير ذكر خروجه عليه السلام عليهن ورؤيتهن له والجملة الامتناعية بحالها خبر أن الذين كفروا والمراد تمثيل لزوم العذاب

لهم واستحالة نجاتهم منه بوجه من الوجوه المحققة والمفروضة وعن النبي عليه الصلاة والسلام يقال للكافر: أرأيت لو كان لك ملء الارض ذهبا أكنت تفتدي به فيقول نعم فيقال له قد سئلت أيسر من ذلك وهو كلمة الشهادة وقوله تعالى (ولهم عذاب أليم) تصريح بما أشير اليه بعدم قبول فديتهم لزيادة تقريره وبيان هوله وشدته قيل محله النصب على الحالية وقيل الرفع عطفا على خبر ان وقيل عطف على ان الذين فلا محل له كالمعطوف عليه (يريدون أن يخرجوا من النار) استئناف مسوق لبيان حالهم في أثناء مكابدة العذاب مبني على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل فكيف يكون حالهم أو ماذا يصنعون فقيل يريدون الخ وقد بين في تضاعيفه أن عذابهم عذاب النار قيل انهم يقصدون ذلك ويطلبون المخرج فيلفحهم لهب النار ويرفعهم الى فوق فهناك يريدون الخروج ولات حين مناص وقيل يكادون يخرجون منها لقوة النار وزيادة رفعها اياهم وقيل يتمنونه ويريدونه بقلوبهم وقوله عز وجل (وما هم بخارجين منها) اما حال من فاعل يريدون أو اعتراض وأيا ما كان فايثار الجملة الاسمية على الفعلية مصدرة بما الحجازية الدالة بما في خبرها من الباء على تأكيد النفي لبيان كمال سوء حالهم باستمرار عدم خروجهم منها فان الجملة الاسمية الايجابية كما تفيد بمعونة المقام دوام الثبوت تفيد السلبية أيضا بمعونته دوام النفي لا نفي الدوام كما مر في قوله تعالى ما أنا بباسط الخ وقرىء أن يخرجوا على بناء المفعول من الاخراج (ولهم عذاب مقيم) تصريح بما أشير اليه آنفا من عدم تناهي مدته بعد بيان شدته (والسارق والسارقة) شروع في بيان حكم السرقة الصغرى بعد بيان أحكام الكبرى وقد عرفت اقتضاء الحال لايراد ما توسط بينهما من المقال ولما كانت السرقة معهودة من النساء كالرجال صرح بالسارقة أيضا مع ان المعهود في الكتاب والسنة ادراج النساء في الاحكام الواردة في شأن الرجال بطريق الدلالة لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة في الزجر وهو مبتدأ خبره عند سيبويه محذوف تقديره وفيما يتلى عليكم أو وفيما فرض عليكم السارق والسارقة أي حكمهما وعند المبرد قوله تعالى (فاقطعوا أيديهما) والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط اذ المعنى الذي سرق والتي سرقت وقرىء بالنصب وفضلها سيبويه على قراءة الرفع لان الانشاء لا يقع خبرا الا بتأويل واضمار والسرقة أخذ مال الغير خفية وانما توجب القطع اذا كان الاخذ من حرز والمأخوذ يساوي عشرة دراهم فما فوقها مع شروط فصلت في موقعها والمراد بأيديهما أيمانهما كما يفصح عنه قراءة ابن مسعود رضي الله تعالى عنه والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم ولذلك ساغ وضع الجمع موضع المثنى كما في قوله تعالى «فقد صغت قلوبكما»

اكتفاء بتثنية المضاف اليه واليد اسم لتمام الجارحة ولذلك ذهب الخوارج الى أن المقطع هو المنكب والجمهور على أنه الرسغ لانه عليه الصلاة والسلام أتى بسارق فأمر بقطع يمينه منه (جزاء) نصب على أنه مفعول له أى فاقطعوا للجزاء أو مصدر مؤكد لفعله الذي يدل عليه فاقطعوا أى فجازوهما جزاء وقوله تعالى (بما كسبا) على الاول متعلق بجزاء وعلى الثانى باقطعوا وما مصدرية أى بسبب كسبهما أو موصولة أى بسبب ما كسباه من السرقة التى تباشر بالايدى وقوله تعالى (نكالا) مفعول له أيضا على البدلية من جزاء لانهما من نوع واحد وقيل القطع معلل بالجزاء والقطع المعلل معلل بالنكال وقيل هو منصوب بجزاء على طريقة الاحوال المتداخلة فانه علة للجزاء والجزاء علة للقطع كما اذا قلت ضربته تأديبا له احسانا اليه فان الضرب معلل بالتأديب والتأديب معلل بالاحسان وقد أجازوا فى قوله عز وجل ان يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده أن يكون بغيا مفعولا له ناصبه أن يكفروا ثم قالوا ان قوله تعالى أن ينزل الله مفعول له ناصبه بغيا على أن التنزيل علة للبغى والبغى علة للكفر وقوله تعالى (من الله) متعلق بمحذوف وقع صفة لنكالا أى نكالا كائنا منه تعالى (والله عزيز) غالب على أمره يمضيه كيف يشاء من غير ند ينازعه ولا ضد يمانعه (حكيم) فى شرائعه لا يحكم الا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ولذلك شرع هذه الشرائع المنطوية على فنون الحكم والمصالح (فمن تاب) أى من السراق الى الله تعالى (من بعد ظلمه) الذى هو سرقته والتصريح به مع أن التوبة لا تتصور قبله لبيان عظم نعمته تعالى بتذكير عظم جنايته (وأصلح) أى أمره بالتفصى عن تبعات ما باشره والعزم على ترك المعاودة اليها (فان الله يتوب عليه) أى يقبل توبته فلا يعذبه فى الآخرة وأما القطع فلا تسقطه التوبة عندنا لان فيه حق المسروق منه وتسقطه عند الشافعى فى أحد قوليه (ان الله غفور رحيم) مبالغ فى المغفرة والرحمة ولذلك يقبل توبته وهو تعليل لما قبله واظهار الاسم الجليل للاشعار بعلة الحكم وتأييد استقلال الجملة وكذا فى قوله عز وجل (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض) فان عنوان الالوهية مدار أحكام ملكوتهما والجار والمجرور خبر مقدم وملك السموات والارض مبتدأ والجملة خبر لان وهى مع ما فى حيزها سادة مسد مفعولى تعلم عند الجمهور وما فيه من تكرير الاسناد لتقوية الحكم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين وقيل لكل أحد صالح للخطاب والاستفهام الانكارى لتقرير العلم والمراد به الاستشهاد بذلك على قدرته تعالى على ما سيأتى من التعذيب والمغفرة على أبلغ وجه وأتمه أى ألم تعلم ان الله له السلطان القاهر

والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلي فيهما وفيما فيهما ايجادا واعداما واحياء واماتة الى غير ذلك حسبما تقتضيه مشيئته (يعذب من يشاء) أن يعذبه (ويغفر لمن يشاء) أن يغفر له من غير ند يساهمه ولا ضد يزاحمه وتقديم التعذيب على المغفرة لمراعاة ما بين سببيهما من الترتيب والجملة إما تقرير لكون ملكوت السموات والارض له سبحانه أو خبر آخر لان (والله على كل شيء قدير) فيقدر على ما ذكر من التعذيب والمغفرة والاظهار في موقع الاضمار لما مر مرارا والجملة تذييل مقرر لما قبلها (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) خوطب عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة للتشريف والاشعار بما يوجب عدم الحزن والمسارعة في الشيء الوقوع فيه بسرعة ورغبة وايثار كلمة في على كلمة الى الواقعة في قوله تعالى «سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة» الخ للايماء الى أنهم مستقرون في الكفر لا يبرحونه وانما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه الى بعض آخر منها كاظهار موالاة المشركين وابراز آثار الكيد للاسلام ونحو ذلك كما في قوله تعالى «أولئك يسارعون في الخيرات» فانهم مستمرون على الخير مسارعون في أنواعه وافراده والتعبير عنهم بالموصول للاشارة بما في حيز صلته الى مدار الحزن وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للكفرة عن أن يحزنوه عليه الصلاة والسلام بمسارعتهم في الكفر لكنه في الحقيقة نهي له عليه الصلاة والسلام عن التأثر من ذلك والمبالاة بهم على أبلغ وجه وآكده فان النهي عن أسباب الشيء ومباديه المؤدية اليه نهي عنه بالطريق البرهاني وقلع له من أصله وقد يوجه النهي الى المسبب ويراد به النهي عن السبب كما في قوله: لا أرينك ههنا يريد نهي مخاطبه عن الحضور بين يديه. وقرئ لا يحزنك من أحزنه منقولا من حزن بكسر الزاي وقرئ يسرعون يقال أسرع فيه الشيب أي وقع فيه سريعا أي لا تحزن ولا تبال بتهافتهم في الكفر بسرعة وقوله تعالى (من الذين قالوا آمنا بأفواههم) بيان للمسارعين في الكفر وقيل متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يسارعون وقيل من الموصول أي كائنين من الذين الخ والباء متعلقة بقالوا لا بآمنا وقوله تعالى (ولم تؤمن قلوبهم) جملة حالية من ضمير قالوا وقيل عطف على قالوا وقوله تعالى (ومن الذين هادوا) عطف على من الذين قالوا الخ وبه يتم بيان المسارعين في الكفر بتقسيمهم الى قسمين المنافقين واليهود فقوله تعالى (سماعون للكذب) خبر لمبتدأ محذوف راجع الى الفريقين أو الى المسارعين واما رجوعه الى الذين هادوا فمخل بعموم الوعيد الآتي ومباديه للكل كما ستقف عليه وكذا جعل قوله ومن الذين الخ خبرا على ان قوله سماعون صفة

لمبتدأ محذوف أي ومنهم قوم سماعون الخ لأدائه الى اختصاص ماعدد من القبائح وما يترتب عليها من الغوائل الدنيوية والاخروية بهم فالوجه ماذكر أولا أي هم سماعون واللام أما لتقوية العمل وأما لتضمين السماع معنى القبول واما لام كي والمفعول محذوف والمعنى هم مبالغون في سماع الكذب أوفي قبول مايفتريه أحبارهم من الكذب على الله سبحانه وتحريف كتابه أو سماعون أخباركم وأحاديثكم ليكذبوا عليكم بأن يمسخوها بالزيادة والنقص والتبديل والتغيير أو أخبار الناس وأقاويلهم الدائرة فيما بينهم ليكذبوا فيها بأن يرجفوا بقتل المؤمنين وانكسار سراياهم ونحو ذلك مما يضرهم وأياما كان فالجملة مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهي فان كونهم سماعين للكذب على الوجوه المذكورة وابتناء أمورهم على مالا أصل له من الاباطيل والأراجيف مما يقتضي عدم المبالاة بهم وترك الاعتداء بما يأتون وما يزرون للقطع بظهور بطلان أكاذيبهم واختلال مابنوا عليها من الافاعيل الفاسدة المؤدية الى الخزي والعذاب كماسيأتي وقرىء سماعين للكذب بالنصب على الذم وقوله تعالى (سماعون لقوم آخرين) خبر ثان للمبتدا المقدر مقرر للأول ومبين لما هو المراد بالكذب على الوجهين الاولين واللام مثل مافي سمع الله لمن حمده في الرجوع الى معنى من أي قبل منه حمده والمعنى مبالغون في قبول كلام قوم آخرين وأما كونها لام التعليل بمعني سماعون منه عليه الصلاة والسلام لأجل قوم آخرين وجهوهم عيونا ليبلغوهم ماسمعوا منه عليه الصلاة والسلام أو كونها متعلقة بالكذب على أن سماعون الثاني مكرر للتأكيد بمعنى سماعون ليكذبوا لقوم آخرين فلا يكاد يساعده النظم الكريم أصلا وقوله تعالى (لم يأتوك) صفة أخرى لقوم أي لم يحضروا مجلسك وتجافوا عنك تكبرا وافراطا في البغضاء قيل هم يهود خيبر والسماعون بنو قريظة وقوله تعالى (يحرفون الكلم من بعد مواضعه) صفة أخرى لقوم وصفوا أولا بمغايرتهم للسماعين تنبيها على استقلالهم وأصالتهم في الرأي والتدبير ثم بعدم حضورهم مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام ايذانا بكمال طغيانهم في الضلال ثم باستمرارهم على التحريف بيانا لأفراطهم في العتو والمكابرة والاجتراء على الافتراء على الله تعالى وتعيينا للكذب الذي سمعه السماعون أي يميلونه ويزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها اما لفظا باهماله أو تغيير وضعه واما معنى بحمله على غير المراد واجرائه في غير مورده وقيل الجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب ناعية عليهم شنائعهم وقيل خبر مبتدأ محذوف راجع الى القوم وقوله تعالى (يقولون) كالجملة السابقة في الوجوه المذكورة ويجوز أن يكون حالا من ضمير يحرفون وأما تجويز كونها صفة لسماعون أو حالا من الضمير فيه فمما لاسبيل اليه أصلا كيف لا وان مقول القول ناطق

بأن قائله ممن لا يحضر مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم والمخاطب به ممن يحضره فكيف يمكن أن يقوله السماعون المترددون اليه عليه الصلاة والسلام لمن لا يحوم حوله قطعا وادعاء قول السماعين لأعقابهم المخالطين للمسلمين تعسف ظاهر مخل بجزالة النظم الكريم والحق الذى لا محيد عنه أن المحرفين والقائلين هم القوم الآخرون أى يقولون لاتباعهم السماعين لهم عند القائهم اليهم أقاويلهم الباطلة مشيرين الى كلامهم الباطل (ان أوتيتم) من جهة الرسول عليه الصلاة والسلا (هذا فخذوه) واعملوا بموجبه فانه الحق (وان لم تؤتوه) بل أوتيتم غيره (فاحذروا) أي فاحذروا قبوله واياكم واياه وفى ترتيب الامر بالحذر على مجرد عدم ايتاء المحرف من المبالغة فى التحذير مالا يخفى روى أن شريفا من خيبر زنا بشريفة وهما محصنان وحدهما الرجم فى التوراة فكرهوا رجمهما لشرفهما فبعثوا رهطا منهم الى بنى قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقالوا ان امركم بالجلد والتحميم فاقبلوا وان أمركم بالرجم فلا تقبلوا وأرسلوا الزانيين معهم فأمرهم بالرجم فأبوا أن يأخذوا به فقال جبريل عليه السلام اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه له فقال عليه الصلاة والسلام هل تعرفون شابا أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا قالوا نعم وهو أعلم يهودى على وجه الارض بما أنزل الله على موسى بن عمران فى التوراة قال فأرسلوا اليه ففعلوا فأتاهم فقال له النبى عليه الصلاة والسلام «أنت ابن صوريا قال نعم قال عليه الصلاة والسلام وأنت أعلم اليهود قال كذلك يزعمون قال لهم أترضون به حكما قالوا نعم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدك الله الذى لا إله إلا هو الذي فلق البحر وأنجاكم وأغرق آل فرعون وظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى ورفع فوقكم الطور وأنزل عليكم التوراة فيها حلاله وحرامه هل تجدون فى كتابكم الرجم على من أحصن قال نعم والذى ذكرتني به لولا خشيت أن يحرقنى التوراة ان كذبت أو غيرت ما اعترفت لك ولكن كيف هى فى كتابك يا محمد قال عليه الصلاة والسلام اذا شهد أربعة رهط عدول أنه أدخل فيها كما يدخل الميل فى المكحلة وجب عليه الرجم قال ابن صوريا والذى أنزل التوراة على موسى هكذا أنزل الله فى التوراة على موسى فوثب عليه سفلة اليهود فقال خفت ان كذبته أن ينزل علينا العذاب ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله النبى الأمى العربى الذى بشر به المرسلون وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند باب المسجد» (ومن يرد الله فتنته) أى ضلالته أو فضيحته كائنا من كان فيندرج فيه

المذكورون اندراجا أوليا وعدم التصريح بكونهم كذلك للاشعار بكمال ظهوره واستغنائه عن ذكره (فلن تملك له) فلن تستطيع له (من الله شيئا) فى دفعها والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ومبينة لعدم انفكاكهم عن القبائح المذكورة أبدا (أولئك) إشارة الى المذكورين من المنافقين واليهود وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفساد وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم) أي من رجس الكفر وخبث الضلالة لانهما كهم فيهما وإصرارهم عليهما واعراضهم عن صرف اختيارهم الى تحصيل الهداية بالكلية كما ينبىء عنه وصفهم بالمسارعة فى الكفر أولا وشرح فنون ضلالاتهم آخرا والجملة استئناف مبين لكون إرادته تعالى لفتنتهم منوطة بسوء اختيارهم وقبح صنيعهم الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتداء (لهم فى الدنيا خزى) أما المنافقون فخزيهم فضيحتهم وهتك سترهم بظهور نفاقهم فيما بين المسلمين وأما خزى اليهود فالذل والجزية والافتضاح بظهور كذبهم فى كتمان نص التوراة. وتنكير خزي للتفخيم وهو مبتدأ ولهم خبره وفى الدنيا متعلق بما تعلق به الخبر من الاستقرار وكذا الحال فى قوله تعالى (ولهم فى الآخرة) أي مع الخزى الدنيوى (عذاب عظيم) هو الخلود فى النار وضمير لهم فى الجملتين للمنافقين واليهود جميعا لا لليهود خاصة كما قيل وتكرير لهم مع اتحاد المرجع لزيادة التقرير والتأكيد والجملتان استئناف مبنى على سؤال نشأ من تفصيل أفعالهم وأحوالهم الموجبة للعقاب كأنه قيل فما لهم من العقوبة فقيل لهم فى الدنيا الآية (سماعون للكذب) خبر آخر للمبتدأ المقدر كرر تأكيدا لما قبله وتمهيدا لما بعده من قوله تعالى (أكالون للسحت) وهو أيضا خبر آخر للمقدر وارد على طريقة الذم أو بناء على أن المراد بالكذب ما يفتعله الراشون عند الاكالين والسحت بضم السين وسكون الحاء فى الاصل كل ما لا يحل كسبه وقيل هو الحرام مطلقا من سحته اذا استأصله سمى به لانه مسحوت البركة والمراد به ههنا اما الرشا التي كان يأخذها المحرفون على تحريفهم وسائر أحكامهم الزائغة وهو المشهور أو ما كان يأخذه فقراؤهم من أغنيائهم من المال ليقيموا على اليهودية كما قيل واما مطلق الحرام المنتظم لما ذكر انتظاما أوليا وقرىء للسحت بضم السين والحاء وبفتحهما وبفتح السين وسكون الحاء وبكسر السين وسكون الحاء وعن النبى عليه الصلاة والسلام «كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به» (فان جاءوك) لما بين تفاصيل أمورهم الواهية وأحوالهم المختلفة الموجبة لعدم المبالاة بهم وبأفاعيلهم حسبما أمر به عليه الصلاة والسلام خوطب عليه الصلاة والسلام ببعض ما يبتني عليه من الاحكام بطريق التفريع والفاء فصيحة أى واذا كان حالهم كما

شرح فان جاءوك متحاكمين اليك فيما شجر بينهم من الخصومات (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) غير مبال بهم ولا خائف من جهتهم أصلا وهذا كما ترى تخيير له عليه الصلاة والسلام بين الامرين فقيل هو فى أمر خاص هو ما ذكر من زنا المحصن وقيل فى قتيل قتل من اليهود فى بنى قريظة والنضير فتحاكموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بنو قريظة اخواننا بنو النضير أبونا واحد وديننا واحد ونبينا واحد واذا قتلوا منا قتيلا لم يرضوا بالقود وأعطونا سبعين وسقا من تمر واذا قتلنا منهم قتلوا القاتل وأخذوا منا الضعف مائة وأربعين وسقا من تمر وان كان القتيل امرأة قتلوا بها الرجل منا وبالرجل منهم الرجلين منا وبالعبد منهم الحر منا فاقض بيننا فجعل عليه الصلاة والسلام الدية سواء وقيل هو عام فى جميع الحكومات. ثم اختلفوا فمن قائل انه ثابت وهو المروى عن عطاء والنخعى والشعبى وقتادة وأبى بكر الاصم وأبى مسلم وقائل انه منسوخ وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم ينسخ من المائدة الا آيتان قوله تعالى «لاتحلوا شعائر الله» نسخها قوله تعالى «فاقتلوا المشركين» وقوله تعالى «فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم» نسخها قوله تعالى «وأن احكم بينهم بما أنزل الله» وعليه مشايخنا (وان تعرض عنهم) بيان لحال الامرين اثر تخييره عليه الصلاة والسلام بينهما وتقديم حال الاعراض للمسارعة الى بيان أن لاضرر فيه حيث كان مظنة الضرر لما أنهم كانوا لايتحاكمون اليه عليه الصلاة والسلام إلا لطلب الايسر والاهون عليهم فاذا أعرض عنهم وأبى الحكومة بينهم شق ذلك عليهم فتشتد عداوتهم ومضارتهم له عليه الصلاة والسلام فأمنه الله عز وجل بقوله (فلن يضروك شيئا) من الضرر فان الله عاصمك من الناس (وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط) بالعدل الذى أمرت به كما حكمت بالرجم (ان الله يحب المقسطين) ومن ضرورته أن يحفظهم عن كل مكروه ومحذور (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) تعجيب من تحكيمهم لمن لايؤمنون به وبكتابه والحال أن الحكم منصوص عليه فى كتابهم الذى يدعون الايمان به وتنبيه على أنهم ماقصدوا بالتحكيم معرفة الحق واقامة الشرع وانما طلبوا به ماهو أهون عليهم وان لم يكن ذلك حكم الله على زعمهم فقوله تعالى وعندهم التوراة حال من فاعل يحكمونك وقوله تعالى فيها حكم الله حال من التوراة ان جعلت مرتفعة بالظرف وان جعلت مبتدأ فهو حال من ضميرها المستكن فى الخبر وقيل استئناف مسوق لبيان أن عندهم ما يغنيهم عن التحكيم وتأنيثها لكونها نظيرة المؤنث فى كلامهم كموماة ودوداة (ثم يتولون) عطف على يحكمونك داخل فى حكم

التعجيب وثم للتراخي فى الرتبة و قوله تعالى (من بعد ذلك) أى من بعد ما حكموك تصريح بما علم قطعا لتأكيد الاستبعاد و التعجيب أى ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم من بعد ما رضوا بحكمك وقوله تعالى (وما أولئك بالمؤمنين) تذييل مقرر لفحوى ماقبله و وضع اسم الاشارة موضع ضميرهم للقصد الى احضارهم فى الذهن بما وصفوا به من القبائح ايماء الى علة الحكم والى أنهم قد تميزوا بذلك عن غيرهم أكمل تميز حتى انتظموا فى سلك الامور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم فى العتو والمكابرة أى وما أولئك الموصوفون بما ذكر بالمؤمنين أى بكتابهم لاعراضهم عنه أولا وعن حكمك الموافق له ثانيا أو بهما وقيل وما أولئك بالكاملين فى الايمان تهكما بهم (إنا أنزلنا التوراة)كلام مستأنف سيق لبيان علو شأن التوراة ووجوب مراعاة أحكامها وانها لم تزل مرعية فيما بين الانبياء ومن يقتدي بهم كابرا عن كابر مقبولة لكل أحد من الحكام والمتحاكمين محفوظة عن المخالفة والتبديل تحقيقا لما وصف به المحرفون من عدم ايمانهم بها وتقريرا لكفرهم وظلمهم وقوله تعالى (فيها هدى ونور) حال من التوراة فان ما فيها من الشرائع و الاحكام من حيث ارشادها للناس الى الحق الذي لا محيد عنه هدى ومن حيث اظهارها وكشفها ما استبهم من الاحكام وما يتعلق بها من الامور المستورة بظلمات الجهل نور وقوله تعالى (يحكم بها النبيون) أى أنبياء بنى اسرائيل وقيل موسى ومن بعده من الانبياء جملة مستأنفة مبينة لرفعة رتبتها وسمو طبقتها وقد جوز كونه حالا من التوراة فيكون حالا مقدرة أى يحكمون باحكامها ويحملون الناس عليها وبه تمسك من ذهب ان أن شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم تنسخ وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق الى المؤخر ولان فى المؤخر وما يتعلق به نوع طول ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم وقوله تعالى (الذين أسلموا) صفة اجريت على النبيين على سبيل المدح دون التخصيص والتوضيح لكن لا للقصد الي مدحهم بذلك حقيقة فان النبوة أعظم من الاسلام قطعا فيكون وصفهم به بعد وصفهم بها تنزلا من الاعلى الى الادنى بل لتنويه شأن الصفة فان ابراز وصف فى معرض مدح العظماء منبئ عن عظم قدر الوصف لا محالة كما فى وصف الانبياء بالصلاح ووصف الملائكة بالايمان عليهم السلام ولذلك قيل : أوصاف الأشراف أشراف الأوصاف . وفيه رفع لشأن المسلمين وتعريض باليهود وأنهم بمعزل من الاسلام والاقتداء بدين الانبياء عليهم السلام لا سيما مع ملاحظة ما وصفوا به فى قوله تعالى (للذين هادوا) وهو متعلق بيحكم أى يحكمون فيما بينهم واللام أما لبيان اختصاص

الحكم بهم أعم من أن يكون لهم أو عليهم كانه قيل لأجل الذين هادوا . واما للايذان بنفعه للمحكوم عليه أيضا باسقاط التبعة عنه وأما للاشعار بكمال رضاهم به وانقيادهم له كانه أمر نافع لكلا الفريقين ففيه تعريض بالمحرفين وقيل التقدير للذين هادوا وعليهم فحذف ماحذف لدلالة ماذكر عليه وقيل هو متعلق بأنزلنا وقيل بهدي ونور وفيه فصل بين المصدر ومعموله وقيل متعلق بمحذوف وقع صفة لهما أى هدى ونور كائنان للذين هادوا (والربانيون والاحبار) أى الزهاد والعلماء من ولد هرون الذين التزموا طريقة النبيين وجانبوا دين اليهود وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الربانيون الذين يسوسون الناس بالعلم ويربونهم بصغاره قبل كباره والاحبار هم الفقهاء واحده حبر بالفتح والكسر والثانى أفصح وهو رأي الفراء مأخوذ من التحبير والتحسين فانهم يحبرون العلم ويزينونه ويبينونه وهو عطف على النبيون أى هم أيضا يحكمون بأحكامها وتوسيط المحكوم لهم بين المعطوفين للايذان بأن الاصل فى الحكم بها وحمل الناس على مافيها هم النبيون وانما الربانيون والاحبار خلفاء ونواب لهم فى ذلك كما ينبىء عنه قوله تعالى (بما استحفظوا) أى بالذي استحفظوه من جهة النبيين وهو التوراة حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل على الاطلاق ولا ريب فى أن ذلك منهم عليهم السلام استخلاف لهم فى إجراء أحكامها من غير اخلال بشىء منها وفى ابهامها أولا ثم بيانها ثانيا بقوله تعالى (من كتاب الله) من تفخيمها واجلالها ذاتا واضافة وتأكيد ايجاب حفظها والعمل بما فيها مالا يخفى وايرادها بعنوان الكتاب للايماء الى ايجاب حفظها عن التغيير من جهة الكتابة والباء الداخلة على الموصول متعلقة بيحكم لكن على أنها صلة له كالتى فى قوله تعالى بها لئلا يلزم تعلق حرفى جر متحدى المعنى بفعل واحد بل على أنها سببية أى ويحكم الربانيون والاحبار أيضا بسبب ما حفظوه من كتاب الله حسبما وصاهم به أنبياؤهم وسألوهم أن يحفظوه وليس المراد بسببيته لحكمهم ذلك سببيته من حيث الذات بل من حيث كونه محفوظا فان تعليق حكمهم بالموصول مشعر بسببية الحفظ المترتب لا محالة على مافى حيز الصلة من الاستحفاظ له وقيل الباء صلة لفعل مقدر معطوف على قوله تعالى يحكم بها النبيون عطف جملة على جملة أى ويحكم الربانيون والاحبار بحكم كتاب الله الذى سألهم أنبياؤهم أن يحفظوه من التغيير (وكانوا عليه شهداء) أى رقباء يحمونه من أن يحوم حوله التغيير والتبديل بوجه من الوجوه فتغيير الاسلوب لما ذكر من المزايا وقيل بما استحفظوا بدل من قوله تعالى بها باعادة العامل وهو بعيد وكذا تجويز كون الضمير فى استحفظوا للانبياء والربانيين

و الاحبار جميعا على ان الاستحفاظ من جناب الله عز و جل أى كلفهم الله تعالى أن يحفظوه و يكونوا عليه شهداء و قوله تعالى و تقدس (فلا تخشوا الناس) خطاب لرؤساء اليهود و علمائهم بطريق الالتفات وأما حكام المسلمين فيتناولهم النهى بطريق الدلالة دون العبارة و الفاء لترتيب النهي على ما فصل من حال التوراة وكونها معتنى بشأنها فيما بين الانبياء عليهم السلام و من يقتدى بهم من الربانيين و الاحبار المتقدمين عملا و حفظا فان ذلك مما يوجب الاجتناب عن الاخلال بوظائف مراعاتها والمحافظة عليها باى وجه كان فضلا عن التحريف و التغيير و لما كان مدار جراءتهم على ذلك خشية ذى سلطان أو رغبة فى الحظوظ الدنيوية نهوا عن كل منهما صريحا أى اذا كان شأنها كما ذكر (فلا تخشوا الناس) كائنا من كان واقتدوا فى مراعاة أحكامها و حفظها بمن قبلكم من الانبياء و أشياعهم (و اخشون) فى الاخلال بحقوق مراعاتها فكيف بالتعرض لها بسوء (و لا تشتروا بآياتى) الاشتراء استبدال السلعة بالثمن أي أخذها بدلا منه لا بذل الثمن لتحصيلها كما قيل ثم استعير لاخذ شىء بدلا مما كان له عينا كان أو معنى أخذا منوطا بالرغبة فيما أخذ و الاعراض عما أعطى و نبذ كما فصل فى تفسير قوله تعالى «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى» فالمعنى لا تستبدلوا بآياتى التى فيها بان تخرجوها منها أو تتركوا العمل بها و تأخذوا لانفسكم بدلا منها (ثمنا قليلا) من الرشوة والجاه و سائر الحظوظ الدنيوية فانها و ان جلت قليلة مسترذلة فى نفسها لاسيما بالنسبة الى مافات عنهم بترك العمل بها و أنما عبر عن المشترى الذى هو العمدة فى عقود المعاوضة والمقصد الاصلي بالثمن الذى شأنه أن يكون وسيلة الى تحصيله و أبرزت الآيات التى حقها أن يتنافس فيها المتنافسون فى معرض الآلات و الوسايط حيث قرنت بالباء التى تصحب الوسائل ايذانا بمبالغتهم فى التعكيس بأن جعلوا المقصد الاقصى وسيلة و الوسيلة الادنى مقصدا (ومن لم يحكم بما أنزل الله) كائنا من كان دون المخاطبين خاصة فانهم مندرجون فيه اندراجا أوليا أى من لم يحكم بذلك مستهينا به منكرا له كما يقتضيه ما فعلوه من تحريف آيات الله تعالى اقتضاء بينا (فأولئك) اشارة الى من و الجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فيما سبق باعتبار لفظها (هم الكافرون) لاستهانتهم به و هم اما ضمير الفصل أو مبتدأ و ما بعده خبره و الجملة خبر لأولئك وقد مر تفصيله فى مطلع سورة البقرة و الجملة تذييل مقرر لمضمون ماقبلها أبلغ تقرير و تحذير عن الاخلال به أشد تحذير حيث علق فيه الحكم بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى فكيف وقد انضم اليه الحكم بخلافه لا سيما مع مباشرة مانهوا عنه

من تحريفه و وضع غيره موضعه وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا (وكتبنا) عطف على أنزلنا التوراة (عليهم) أي على الذين هادوا وقرىء وأنزل الله على بني اسرائيل (فيها) أي في التوراة (ان النفس بالنفس) أي تقاد بها اذا قتلتها بغير حق (والعين) تفقأ (بالعين) اذا فقئت بغير حق (والانف) تجدع (بالانف) المقطوع بغير حق (والاذن) تصلم (بالاذن) المقطوعة ظلما (والسن) تقلع (بالسن) المقلوعة بغير حق (والجروح قصاص) أى ذات قصاص اذا كانت بحيث تعرف المساواة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة فنزلت وقرىء وان الجروح قصاص وقرىء والعين الى آخره بالرفع عطفا على محل ان النفس لان المعنى كتبنا عليهم النفس بالنفس اما لاجراء كتبنا مجرى قلنا واما لان معنى الجملة التي هي قولك النفس بالنفس مما يقع عليه الكتب كما يقع عليه القراءة تقول كتبت الحمد لله وقرأت سورة أنزلناها (فمن تصدق) أى من المستحقين (به) أى بالقصاص أى فمن عفا عنه والتعبير عنه بالتصدق للمبالغة فى الترغيب فيه (فهو) أي التصدق (كفارة له) أى للمتصدق يكفر الله تعالى بها ذنوبه وقيل للجاني اذا تجاوز عنه صاحب الحق سقط عنه مالزمه وقرىء فهو كفارته له أي فالمتصدق كفارته التي يستحقها بالتصدق له لا ينقص منها شيء وهو تعظيم للفعل كقوله تعالى «فأجره على الله» (ومن لم يحكم) كائنا من كان فيتناول من لا يرى قتل الرجل بالمرأة من اليهود تناولا بينا (بما أنزل الله) من الاحكام والشرائع كائنا ما كان فيدخل فيها الاحكام المحكية دخولا أوليا (فأولئك هم الظالمون) المبالغون فى الظلم المتعدون لحدوده تعالى الواضعون للشيء فى غير موضعه والجملة تذييل مقرر لايجاب العمل بالاحكام المذكورة (وقفينا على آثارهم) شروع فى بيان أحكام الانجيل اثر بيان أحكام التوراة وهو عطف على أنزلنا التوراة أى آثار النبيين المذكورين يقال قفيته بفلان اذا أتبعته اياه فحذف المفعول لدلالة الجار والمجرور عليه أى قفيناهم (بعيسى بن مريم) أي أرسلناه عقيبهم (مصدقا لما بين يديه من التوراة) حال من عيسى عليه السلام (وآتيناه الانجيل) عطف على قفينا وقرىء بفتح الهمزة (فيه هدى ونور) كما فى التوراة وهو فى محل النصب على أنه حال من الانجيل أي كائنا فيه ذلك كأنه قيل مشتملا على هدى ونور وتنوين هدى ونور للتفخيم ويندرج فى ذلك شواهد نبوته عليه السلام (ومصدقا لما بين يديه من التوراة) عطف عليه داخل فى حكم الحالية وتكرير ما بين يديه من التوراة لزيادة التقرير (وهدى وموعظة للمتقين) عطف على مصدقا منتظم معه فى سلك الحالية جعل كله هدى بعد ما جعل مشتملا عليه حيث قيل

فيه هدى وتخصيص كونه هدى وموعظة بالمتقين لانهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجدواه (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) أمر مبتدأ لهم بان يحكموا ويعملوا بما فيه من الامور التى من جملتها دلائل رسالته عليه الصلاة والسلام وشواهد نبوته وماقررته الشريعة الشريفة من أحكامه وأما أحكامه المنسوخة فليس الحكم بها حكما بما أنزل الله فيه بل هو ابطال وتعطيل له اذ هو شاهد بنسخها وانتهاء وقت العمل بها لان شهادته بصحة ما ينسخها من الشريعة شهادة بنسخها وبان أحكامه ما قررته تلك الشريعة التى شهد بصحتها كما سيأتى فى قوله تعالى «ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل» الآية وقيل هو حكاية للامر الوارد عليهم بتقدير فعل معطوف على آتيناه أى وقلنا ليحكم أهل الانجيل الخ وقرىء وأن ليحكم على أن أن موصولة بالامر كما فى قولك: أمرته بأن قم كانه قيل وآتيناه الانجيل وأمرنا بأن يحكم أهل الانجيل الخ وقرىء على صيغة المضارع ولام التعليل على أنها متعلقة بمقدر كأنه قيل وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه آتيناه اياه وقد عطف على هدى وموعظة على أنهما مفعول لها كأنه قيل وللهدى والموعظة آتيناه اياه وللحكم بما أنزل الله فيه (ومن لم يحكم بما أنزل الله) منكرا له مستهينا به (فاولئك هم الفاسقون) المتمردون الخارجون عن الايمان والجملة تذييل مقرر لمضمون الجملة السابقة ومؤكد لوجوب الامتثال بالامر وفيه دلالة على أن الانجيل مشتمل على الاحكام وان عيسى عليه السلام كان مستقلا بالشرع مأمورا بالعمل بما فيه من الاحكام قلت أو كثرت لا بما فى التوراة خاصة. وحمله على معنى وليحكم بما أنزل الله فيه من ايجاب العمل باحكام التوراة خلاف الظاهر (وأنزلنا اليك الكتاب) أي الفرد الكامل الحقيق بان يسمى كتابا على الاطلاق لحيازته جميع الأوصاف الكمالية لجنس الكتاب السماوي وتفوقه على بقية أفراده وهو القرآن الكريم فاللام للعهد والجملة عطف على أنزلنا وما عطف عليه وقوله تعالى (بالحق) متعلق بمحذوف وقع حالا مؤكدة من الكتاب أى ملتبسا بالحق والصدق وقيل من فاعل أنزلنا وقيل من الكاف فى اليك وقوله تعالى (مصدقا لما بين يديه) حال من الكتاب أى حال كونه مصدقا لما تقدمه اما من حيث انه نازل حسبما نعت فيه أو من حيث أنه موافق له فى القصص والمواعيد والدعوة الى الحق والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش. وأما ما يتراءى من مخالفته له فى بعض جزئيات الاحكام المتغيرة بسبب تغير الاعصار فليست بمخالفة فى الحقيقة بل هى موافقة لها من حيث ان كلا من تلك الاحكام حق بالاضافة الى عصره متضمن للحكمة التى عليها يدور أمر الشريعة وليس فى المتقدم دلالة على أبدية

أحكامه المنسوخة حتى يخالفه الناسخ المتأخر وانما يدل على مشروعيتها مطلقا من غير تعرض لبقائها و زوالها بل نقول هو ناطق بزوالها لما أن النطق بصحة ماينسخها نطق بنسخها وزوالها وقوله تعالى (من الكتاب) بيان لما و اللام للجنس اذ المراد هو الكتاب السماوى وهو بهذا العنوان جنس برأسه وان كان فى نفسه نوعا مخصوصا من مدلول لفظ الكتاب وعن هذا قالوا اللام للعهد الا أن ذلك لاينتهى الى خصوصية الفردية بل الى خصوصية النوعية التى هى أخص من مطلق الكتاب وهو ظاهر ومن الكتاب السماوى أيضا حيث خص بماعدا القرآن (ومهيمنا عليه) أى رقيبا على سائر الكتب المحفوظة من التغيير لانه يشهد لها بالصحة والثبات و يقرر أصول شرائعها وما يتأبد من فروعها و يعين أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاء وقت العمل بها ولاريب فى أن تمييز أحكامها الباقية على المشروعية أبدا عما انتهى وقت مشروعيته وخرج عنها من أحكام كونه مهيمنا عليه وقرىء ومهيمنا عليه على صيغة المفعول أى هومن عليه وحوفظ من التغيير والتبديل كقوله عزوجل «لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه» والحافظ اما من جهته تعالى كما فى قوله «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون» أو الحفاظ فى الاعصار والامصار والفاء فى قوله تعالى (فاحكم بينهم) لترتيب مابعدها على ماقبلها فان كون القرآن العظيم حقا مصدقا لما قبله من الكتب المنزلة على الامم مهيمنا عليه من موجبات الحكم المأمور به أى اذا كان شأن القرآن كما ذكر فاحكم بين أهل الكتابين عند تحاكمهم اليك (بما أنزل الله) أى بما أنزله اليك فانه مشتمل على جميع الاحكام الشرعية الباقية فى الكتب الالهية وتقديم بينهم للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على علية مافى حيز الصلة للحكم والالتفات باظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم (ولا تتبع أهواءهم) الزائغة (عما جاءك من الحق) الذى لامحيد عنه وعن متعلقة بلا تتبع على تضمين معنى العدول ونحوه كأنه قيل ولاتعدل عما جاءك من الحق متبعا أهواءهم وقيل بمحذوف وقع حالا من فاعله أى لاتتبع أهواءهم عادلا عما جاءك وفيه أن ماوقع حالا لابد أن يكون فعلا عاما ووضع الموصول موضع ضمير الموصول الاول للايماء بما فى حيز الصلة من مجىء الحق الى مايوجب كمال الاجتناب عن اتباع الاهواء وقوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) كلام مستأنف جىء به لحمل أهل الكتابين من معاصريه عليه الصلاة والسلام على الانقياد لحكمه بما أنزل اليه من القرآن الكريم ببيان أنه هو الذى كلفوا العمل به دون غيره من الكتابين

وانما الذين كلفوا العمل بهما من مضى قبل نسخهما من الامم السالفة والخطاب بطريق التلوين والالتفات للناس كافة لكن لا للموجودين خاصة بل للماضين أيضا بطريق التغليب واللام متعلقة بجعلنا المتعدى لواحد وهو أخبار بجعل ماض لا انشاء وتقديمها عليه للتخصيص ومنكم متعلق بمحذوف وقع صفة لما عوض عنه تنوين كل ولا ضير فى توسط جعلنا بين الصفة والموصوف كما فى قوله تعالى «أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات» الخ والمعنى لكل أمة كائنة منكم أيها الامم الباقية والخالية جعلنا أي عينا ووضعنا شرعة ومنهاجا خاصين بتلك الامة لا تكاد أمة تتخطى شرعتها التى عينت لها فالامة التى كانت من مبعث موسى الى مبعث عيسى عليهما السلام شرعتهم التوراة والتى كانت من مبعث عيسى الى مبعث النبى عليهما الصلاة والسلام شرعتهم الانجيل وأما أنتم أيها الموجودن فشرعتكم القرآن ليس الا فآمنوا به وأعملوا بما فيه . والشرعة والشريعة هى الطريقة الى الماء شبه بها الدين لكونه سبيلا موصلا الى ماهو سبب للحياة الابدية كما أن الماء سبب للحياة الفانية .والمنهاج الطريق الواضح فى الدين من نهج الامر اذا وضح وقرئ شرعة بفتح الشين قيل فيه دليل على أنا غير متعبدين بشرائع من قبلنا والتحقيق أنا متعبدون باحكامها الباقية من حيث أنها أحكام شرعتنا لا من حيث أنها شرعة للاولين (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) متفقة على دين واحد فى جميع الاعصار من غير اختلاف بينكم وبين من قبلكم من الامم فى شيء من الاحكام الدينية ولا نسخ ولا تحويل ومفعول المشيئة محذوف تعويلا على دلالة الجزاء عليه أى ولو شاء الله ان يجعلكم أمة واحدة لجعلكم الخ وقيل المعنى لو شاء الله اجتماعكم على الاسلام لأجبركم عليه (ولكن ليبلوكم) متعلق بمحذوف يستدعيه النظام أى ولكن لم يشأ ذلك أى أن يجعلكم أمة واحدة بل شاء ما عليه السنة الالهية الجارية فيما بين الأمم ليعاملكم معاملة من يبتليكم (فيما آتاكم) من الشرائع المختلفة المناسبة لأعصارها وقرونها هل تعملون بها مذعنين لها معتقدين أن اختلافها بمقتضى المشيئة الالهية المبنية على أساس الحكم البالغة والمصالح النافعة لكم فى معاشكم ومعادكم أو تزيغون عن الحق وتتبعون الهوى وتستبدلون المضرة بالجدوى وتشترون الضلالة بالهدي وبهذا اتضح أن مدار عدم المشيئة المذكورة ليس مجرد الابتلاء بل العمدة فى ذلك ما أشير اليه من انطواء الاختلاف على ما فيه مصلحتهم معاشاً ومعادا كما ينبيء عنه قوله عز وجل (فاستبقوا الخيرات) أي اذا كان الامر كما ذكر فسارعوا الى ما هو خير لكم فى الدارين من العقائد الحقة والاعمال الصالحة المندرجة فى القرآن الكريم وابتدروها انتهازاً للفرصة وإحرازاً لسابقة الفضل والتقدم

ففيه من تأكيد الترغيب في الاذعان للحق وتشديد التحذير عن الزيغ ما لا يخفى وقوله تعالى (الى الله مرجعكم) استئناف مسوق مساق التعليل لاستباق الخيرات بما فيه من الوعد والوعيد وقوله تعالى (جميعا) حال من ضمير الخطاب والعامل فيه اما المصدر المنحل الى حرف مصدري وفعل مبني للفاعل أو مبني للمفعول وأما الاستقرار المقدر في الجار (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) أى فيفعل بكم من الجزاء الفاصل بين الحق والمبطل ما لا يبقي لكم معه شائبة شك فيما كنتم فيه تختلفون في الدنيا وانما عبر عن ذلك بما ذكر لوقوعه موقع إزالة الاختلاف التي هي وظيفة الاخبار (وان احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) عطف على الكتاب أى أنزلنا اليك الكتاب والحكم بما فيه والتعرض لعنوان انزاله تعالى إياه لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر أو على الحق أى أنزلناه بالحق وبأن احكم وحكاية انزال الأمر بهذا الحكم بعد ما مر من الأمر الصريح بذلك تأكيد له وتمهيد لما يعقبه من قوله تعالى (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك) أي يصرفوك عن بعضه ولو كان أقل قليل بتصوير الباطل بصورة الحق وإظهار الاسم الجليل لتأكيد الامر بتهويل الخطاب وان بصلته بدل اشتمال من ضميرهم أى احذر فتنتهم أو مفعول له أي احذرهم مخافة أن يفتنوك واعادة ما أنزل الله لتأكيد التحذير بتهويل الخطب . روى أن أحبار اليهود قالوا اذهبوا بنا الى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه فذهبوا اليه صلى الله عليه وسلم وقالوا يا أبا القاسم قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا ان اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم وأن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم اليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت (فان تولوا) أى أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله تعالى وأرادوا غيره (فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) أى بذنب توليهم عن حكم الله عز وجل وانما عبر عنه بذلك إيذانا بأن لهم ذنوبا كثيرة هذا مع كمال عظمه واحد من جملتها وفي هذا الابهام تعظيم للتولي كما في قول لبيد أو يرتبط بعض النفوس حمامها يريد به نفسه أى نفسا كبيرة ونفسا أى نفس (وان كثيرا من الناس لفاسقون) أى متمردون في الكفر مصرون عليه خارجون عن الحدود المعهودة وهو اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ماقبله (أفحكم الجاهلية يبغون) انكار وتعجيب من حالهم وتوبيخ لهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى يتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية وتقديم المفعول للتخصيص المفيد لتأكيد الانكار والتعجيب لان التولي عن حكمه عليه الصلاة والسلام وطلب

حكم آخر منكر عجيب وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب والمراد بالجاهلية اما الملة الجاهلية التى هى متابعة الهوى الموجبة للميل والمداهنة فى الاحكام فيكون تعييرا لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم يبغون حكم الجاهلية التي هى هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع الى وحى. واما أهل الجاهلية وحكمهم ما كانوا عليه من التفاضل فيما بين القتلى حيث روى ان بنى النضير لما تحاكموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خصومة قتل وقعت بينهم وبين بنى قريظة طلبوا اليه عليه الصلاة والسلام أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل فقال عليه الصلاة والسلام القتلى سواء فقال بنو النضير نحن لا نرضى بذلك فنزلت. وقرىء برفع الحكم على أنه مبتدأ ويبغون خبره والراجع محذوف حذفه فى قوله تعالى أهذا الذى بعث الله رسولا وقد استضعف ذلك فى غير الشعر. وقرىء بتاء الخطاب إما بالالتفات لتشديد التوبيخ واما بتقدير القول أى قل لهم أفحكم الخ وقرىء بفتح الحاء والكاف أى أفحاكما كحكام الجاهلية يبغون (ومن أحسن من الله حكما) انكار لان يكون أحد حكمه أحسن من حكمه تعالى أو مساوله وان كان ظاهر السبك غير متعرض لنفى المساواة وانكارها وقد مر تفصيله فى تفسير قوله تعالى ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله (لقوم يوقنون) أى عندهم واللام كما فى هيت لك أى هذا الاستفهام لهم فانهم الذين يتدبرون الامور بانظارهم فيعلمون يقينا ان حكم الله عز وجل أحسن الاحكام وأعدلها (يا أيها الذين آمنوا) خطاب يعم حكمه كافة المؤمنين من المخلصين وغيرهم وان كان سبب وروده بعضا منهم كما سيأتى ووصفهم بعنوان الايمان لحملهم من أول الامر على الانزجار عما نهوا عنه بقوله عز وجل (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) فان تذكير اتصافهم بضد صفات الفريقين من أقوى الزواجر عن موالاتهما أى لا يتخذ أحد منكم أحدا منهم وليا بمعنى لا تصافوهم ولا تعاشروهم مصافاة الاحباب ومعاشرتهم لا بمعنى لا تجعلوهم أولياء لكم حقيقة فانه أمر ممتنع فى نفسه لا يتعلق به النهى (بعضهم أولياء بعض) أى بعض كل فريق من ذينك الفريقين أولياء بعض آخر من ذلك الفريق لا من الفريق الآخر وانما أوثر الاجمال فى البيان تعويلا على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين فريقى اليهود والنصارى رأسا والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل النهى وتأكيدا لايجاب الاجتناب عن المنهى عنه أى بعضهم أولياء بعض متفقون على كلمة واحدة فى كل ما يأتون وما يذرون ومن ضرورته اجماع الكل على مضادتكم ومضارتكم بحيث يسومونكم السوء ويبغونكم الغوائل فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة وقوله تعالى (ومن يتولهم منكم فانه منهم) حكم مستنتج منه فان انحصار الموالاة فيما بينهم يستدعى

كون من يواليهم منهم ضرورة أن الاتحاد فى الدين الذى عليه يدور أمر الموالاة حيث لم يكن بكونهم ممن يواليهم من المؤمنين تعين أن يكون ذلك بكون من يواليهم منهم وفيه زجر شديد للمؤمنين عن اظهار صورة الموالاة لهم وان لم تكن موالاة فى الحقيقة وقوله تعالى (ان الله لا يهدى القوم الظالمين) تعليل لكون من يتولاهم منهم أى لا يهديهم الى الايمان بل يخليهم وشأنهم فيقعون فى الكفر والضلالة وانما وضع المظهر موضع ضميرهم تنبيها على أن توليهم ظلم لما أنه تعريض لانفسهم للعذاب الخالد ووضع للشىء فى غير موضعه وقوله تعالى (فترى الذين فى قلوبهم مرض) بيان لكيفية توليهم واشعار بسببه وبما يؤل اليه أمرهم والفاء للايذان بترتبه على عدم الهداية والخطاب اما للرسول صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين واما لكل أحد ممن له أهلية له وفيه مزيد تشنيع للتشنيع أى لا يهديهم بل يذرهم وشأنهم فتراهم الخ وانما وضع موضع الضمير الموصول ليشار بما فى حيز صلته الى أن ما ارتكبوه من التولى بسبب ما فى قلوبهم من مرض النفاق ورخاوة العقل فى الدين وقوله تعالى (يسارعون فيهم) حال من الموصول والرؤية بصرية وقيل مفعول ثان والرؤية قلبية والاول هو الانسب بظهور نفاقهم أى تراهم مسارعين فى موالاتهم وانما قيل فيهم مبالغة فى بيان رغبتهم فيها وتهالكهم عليها . وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على أنهم مستقرون فى الموالاة وانما مسارعتهم من بعض مراتبها الى بعض آخر منها كما فى قوله تعالى «أولئك يسارعون فى الخيرات» لا أنهم خارجون عنها متوجهون اليها كما فى قوله تعالى «وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة» وقرىء فيرى بياء الغيبة على ان الضمير لله سبحانه وقيل لمن تصح منه الرؤية وقيل الفاعل هو الموصول والمفعول هو الجملة على حذف أن المصدرية والرؤية قلبية أى ويرى القوم الذين فى قلوبهم مرض أن يسارعوا فيهم فلما حذفت أن انقلب الفعل مرفوعا كما فى قول من قال :

ألا ايهذا الزاجرى احضر الوغى والمراد بهم عبد الله بن أبى وأضرابه الذين كانوا يسارعون فى موادة اليهود ونصارى نجران وكانوا يعتذرون الى المؤمنين بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم صروف الزمان وذلك قوله تعالى (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) وهو حال من ضمير يسارعون والدائرة من الصفات الغالبة التى لا يذكر معها موصوفها أى تدور علينا دائرة من دوائر الدهر ودولة من دولة بان ينقلب الامر وتكون الدولة للكفار وقيل نخشى أن يصيبنا مكروه من مكاره الدهر كالجدب والقحط فلا يعطونا الميرة والقرض روى أن عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان لى موالى من اليهود كثيرا عددهم وانى ابرأ الى الله ورسوله من ولايتهم

وأوالى الله ورسوله فقال عبد الله بن أبي انى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالى وهم يهودبنى قينقاع ولعله يظهر للمؤمنين أنه يريد بالدوائر المعنى الاخير ويضمر فى نفسه المعنى الاول وقوله تعالى (فعسى الله أن يأتى بالفتح) رد من جهة الله تعالى لعللهم الباطلة وقطع لاطماعهم الفارغة وتبشير للمؤمنين بالظفر فان عسى منه سبحانه وعد محتوم لما أن الكريم اذا أطمع أطعم لا محالة فما ظنك بأكرم الاكرمين وأن يأتى فى محل النصب على أنه خبر عسى وهو رأى الاخفش أو على أنه مفعول به وهو رأى سيبويه لئلا يلزم الاخبار عن الجثة بالحدث كما فى قولك عسى زيد أن يقوم والمراد بالفتح فتح مكة قاله الكلبى والسدى وقال الضحاك فتح قرى اليهود من خيبر وفدك وقال قتادة ومقاتل هو القضاء الفصل بنصره عليه الصلاة والسلام على من خالفه واعزاز الدين (أوأمر من عنده) بقطع شأفة اليهود من القتل والاجلاء (فيصبحوا) أي أولئك المنافقون المتعللون بما ذكر وهو عطف على يأتى داخل معه فى حيز خبر عسى وان لم يكن فيه ضمير يعود الى اسمها فان فاء السببية مغنية عن ذلك فانها تجعل الجملتين كجملة واحدة (على ماأسروا فى أنفسهم نادمين) وهو ما كانوا يكتمونه فى أنفسهم من الكفر والشك فى أمره عليه الصلاة والسلام وتعليق الندامة به لا بما كانوا يظهرونه من موالاة الكفرة لما أنه الذى كان يحملهم على الموالاة ويغريهم عليها فدل ذلك على ندامتهم عليها بأصلها وسببها (ويقول الذين آمنوا) كلام مبتدأ مسوق لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة وقرىء بغير واو على أنه جواب سؤال نشأ مما سبق كأنه قيل فماذا يقول المؤمنون حينئذ وقرىء ويقول بالنصب عطفا على يصبحوا وقيل على يأتى باعتبار المعنى كأنه قيل فعسى أن يأتى الله بالفتح ويقول الذين آمنوا والاول أوجه لان هذا القول انما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامة المنافقين لا عند اتيان الفتح فقط والمعنى ويقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود مشيرين الى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ويرجون دولتهم ويظهرون لهم غاية المحبة وعدم المفارقة عنهم فى السراء والضراء عند مشاهدتهم لخيبة رجائهم وانعكاس تقديرهم بوقوع ضد ماكانوا يترقبونه ويتعللون به تعجيبا للمخاطبين من حالهم وتعريضا بهم (أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم انهم لمعكم) أى بالنصرة والمعونة كما قالوا فيما حكى عنهم وان قوتلتم لننصرنكم واسم الاشارة مبتدأ وما بعده خبره والمعنى انكار مافعلوه واستبعاده وتخطئتهم فى ذلك أو يقول بعض المؤمنين لبعض مشيرين الى المنافقين أيضا أهولاء الذين أقسموا للكفرة أنهم لمعكم فالخطاب فى معكم لليهود على التقديرين الا أنه على الاول من جهة المؤمنين وعلى الثانى من جهة المقسمين وهذه الجملة لامحل لها

من الاعراب لانها تفسير وحكاية لمعنى أقسموا لكن لابألفاظهم والا لقيل انا لمعكم
وجهد الايمان أغلظها وهو فى الاصل مصدر ونصبه على الحال على تقدير وأقسموا
بالله يجهدون جهد أيمانهم فحذف الفعل و أقيم المصدر مقامه ولا يبالى بتعريفه لفظا لانه
مؤول بنكرة أى مجتهدين فى أيمانهم أو على المصدر أى أقسموا اقسام اجتهاد فى اليمين
وقوله تعالى (حبطت أعمالهم فاصبحوا خاسرين) اما جملة مستأنفة مسوقة من جهته
تعالى لبيان مآل ماصنعوه من ادعاء الولاية والاقسام على المعية فى المنشط والمكره
اثر الاشارة الى بطلانه بالاستفهام الانكارى واما خبر ثان للمبتدا عند من يجوز كونه
جملة كما فى قوله تعالى «فاذا هي حية تسعى» أو هو الخبر والموصول مع مافى حيز صلته
صفة لاسم الاشارة فالاستفهام حينئذ للتقرير وفيه معنى التعجب كأنه قيل ماأحبط أعمالهم
فما أخسرهم والمعنى بطلت أعمالهم التى عملوها فى شأن موالاتكم وسعوا فى ذلك سعيا
بليغا حيث لم تكن لكم دولة فينتفعوا بما صنعوا من المساعى وتحملوا من مكابدة المشاق
وفيه من الاستهزاء بالمنافقين والتقريع للمخاطبين مالا يخفى وقيل قاله بعض المؤمنين
مخاطبا لبعض تعجبا من سوء حال المنافقين واغتباطا بما من الله تعالى على أنفسهم
من التوفيق للاخلاص أهؤلاء الذين أقسموا لكم باغلاظ الايمان انهم أولياؤكم ومعاضدوكم
على الكفار بطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها فى رأى أعين الناس وأنت خبير بأن
ذلك الكلام من المؤمنين انما يليق بما لو أظهر المنافقون حينئذ خلاف ما كانوا يدعونه
و يقسمون عليه من ولاية المؤمنين ومعاضدتهم على الكفار فظهر كذبهم وافتضحوا
بذلك على رءوس الاشهاد و بطلت أعمالهم التى كانوا يتكلفونها فى رأى أعين المؤمنين
ولا ريب فى أنهم يومئذ أشد ادعاء وأكثر اقساما منهم قبل ذلك فضلا عن أن يظهروا
خلاف ذلك وانما الذى يظهر منهم الندامة على ماصنعوا وليس ذلك علامة ظاهرة
الدلالة على كفرهم وكذبهم فى ادعائهم فانهم يدعون أن ليست ندامتهم الا على ماأظهروه
من موالاة الكفرة خشية اصابة الدائرة (ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه)
وقرىء يرتدد بالفك على لغة الحجاز والادغام لغة تميم لما نهى فيما سلف عن موالاة
اليهود والنصارى و بين أن موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين وفصل مصير أمر
من يواليهم من المنافقين شرع فى بيان حال المرتدين على الاطلاق وهذا من الكائنات
التى أخبر عنها القرآن قبل وقوعها روى أنه ارتد عن الاسلام احدى عشرة فرقة ثلاث
فى عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام بنو مدلج ورئيسهم ذوالخمار وهو الاسود العنسى
كان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده فأخرج منها عمال رسول الله صلى الله عليه

وسلم فكتب عليه الصلاة والسلام الى معاذ بن جبل والي سادات اليمن فأهلكه الله تعالى على يد فيروز الديلمي بيته فقتله وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ليلة قتل فسر به المسلمون وقبض عليه الصلاة والسلام من الغد وأتى خبره فى آخر شهر ربيع الاول و بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب تنبأ و كتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله أما بعد فان الارض نصفها لى و نصفها لك فأجاب عليه الصلاة والسلام «من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتقين» فحاربه أبو بكر رضى الله عنه بجنود المسلمين و قتل على يدى وحشي قاتل حمزة رضى الله عنه و كان يقول قتلت فى جاهليتي خير الناس وفى اسلامى شر الناس و بنو أسد قوم طليحة بن خويلد تنبأ فبعث اليه أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد فانهزم بعد القتال الى الشام فاسلم و حسن اسلامه و سبع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه فزارة قوم عيينة بن حصن و غطفان قوم قرة ابن سلمة القشيرى و بنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل و بنو يربوع قوم مالك بن نويرة و بعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة التى زوجت نفسها من مسيلمة الكذاب و فيها يقول أبو العلاء المعرى فى كتاب استغفر واستغفرى :

آمت سجاح و والاها مسيلمة . كذابة فى بنى الدنيا و كذاب

و كندة قوم الاشعث بن قيس و بنوا بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد و كفي الله تعالى أمرهم على يدى أبى بكر رضى الله عنه وفرقة واحدة فى عهد عمر رضى الله عنه غسان قوم جبلة بن الأيهم نصرته اللطمة وسيرته الى بلاد الروم و قصته مشهورة وقوله تعالى (فسوف يأتى الله) جواب الشرط والعائد الى اسم الشرط محذوف أى فسوف يأتى الله مكانهم بعد اهلاكهم (بقوم يحبهم) أي يريد بهم خيرى الدنيا و الآخرة ومحل الجملة الجر على أنها صفة لقوم وقوله تعالى (و يحبونه) أى يريدون طاعته و يتحرزون عن معاصيه معطوف عليها داخل فى حكمها قيل هم اهل اليمن لما روي أن النبى عليه الصلاة و السلام أشار الى أبى موسى الاشعري و قال قوم هذا و قيل هم الانصار رضى الله عنهم وقيل هم الفرس لما روى أنه عليه السلام سئل عنهم فضرب بيده الكريمة على عاتق سلمان رضى الله عنه وقال «هذا و ذووه ثم قال لو كان الايمان معلقا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس» وقيل هم الفان من النخع وخمسة آلاف من كندة و ثلاثة آلاف من أفناء الناس جاهدوا يوم القادسية (أذلة على المؤمنين) جمع ذليل لاذلول فان جمعه ذلل أي أرقاء رحماء متذللين و متواضعين لهم و استعماله بعلى أما لتضمين معنى العطف و الحنو

أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم أو
لرعاية المقابلة بينه وبين مافى قوله تعالى (أعزة على الكافرين) أى أشداء متغلبين عليهم
من عزه إذا غلبه كما فى قوله عز وعلا «أشداء على الكفار رحماء بينهم» وهما صفتان أخريان
لقوم ترك بينهما العاطف للدلالة على استقلالهم بالاتصاف بكل منهما وفيه دليل على
صحة تأخير الصفة الصريحة عن غير الصريحة من الجملة والظرف كما فى قوله تعالى «وهذا
كتاب أنزلناه مبارك» وقوله تعالى «ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث» وقوله تعالى
«ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث» وما ذهب اليه من لا يجوزه من أن قوله تعالى
يحبهم ويحبونه كلام معترض وان مبارك خبر بعد خبر أو خبر لمبتدأ محذوف وأن من
ربهم ومن الرحمن حالان مقدمتان من ضمير محدث تكلف لا يخفى وقرىء أذلة أعزة
بالنصب على الحالية من قوم لتخصصه بالصفة (يجاهدون فى سبيل الله) صفة أخرى لقوم
مترتبة على ماقبلها مبينة مع ما بعدها لكيفية عزتهم أو حال من الضمير فى أعزة (ولا
يخافون لومة لائم) عطف على يجاهدون بمعنى أنهم جامعون بين المجاهدة فى سبيل الله
وبين التصلب فى الدين وفيه تعريض بالمنافقين فانهم كانوا اذا خرجوا فى جيش المسلمين
خافوا أولياءهم اليهود فلا يكادون يعملون شيئا يلحقهم فيه لوم من جهتهم وقيل هو
حال من فاعل يجاهدون بمعنى أنهم يجاهدون وحالهم خلاف حال المنافقين ويعكر
عليه بانهم نصوا على أن المضارع المنفى بلا أو ما كالمثبت فى عدم جواز مباشرة
واو الحال له واللومة المرة من اللوم وفيها وفى تنكير لائم مبالغة لا تخفى (ذلك) اشارة
الى ماتقدم من الاوصاف الجليلة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها فى الفضل
(فضل الله) أى لطفه واحسانه لا أنهم مستقلون فى الاتصاف بها (يؤتيه من يشاء)
ايتاءه اياه ويوفقه لكسبه وتحصيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (والله واسع)
كثير الفواضل والالطاف (عليم) مبالغ فى العلم بجميع الاشياء التى من جملتها من هو أهل
للفضل والتوفيق والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله واظهار الاسم الجليل للاشعار
بالعلة وتأكيد استقلال الجملة الاعتراضية (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا)
لما نهاهم الله عز وجل عن موالاة الكفرة وعلله بأن بعضهم أولياء بعض لا يتصور
ولايتهم للمؤمنين وبين أن من يتولاهم يكون من جملتهم بين ههنا من هو وليهم بطريق قصر
الولاية عليه كأنه قيل لا تتخذوهم أولياء لان بعضهم أولياء بعض وليسوا بأوليائكم انما أولياؤكم
الله ورسوله والمؤمنون فاختصوهم بالموالاة ولا تتخطوهم الى الغير وانما أفرد
الولى مع تعدده للايذان بان الولاية اصالة لله تعالى وولاية غيره بالتبع

المؤمنين بطريق التبعية لولايته عز وجل (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) صفة للذين آمنوا لجريانه مجرى الاسم أو بدل منه أو نصب على المدح أو رفع عليه (وهم راكعون) حال من فاعل الفعلين أي يعملون ماذكر من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى وقيل هو حال مخصوصة بايتاء الزكاة والركوع ركوع الصلاة والمراد بيان كمال رغبتهم في الاحسان ومسارعتهم اليه وروى أنها نزلت في على رضى الله عنه حين سأله سائل وهو راكع فطرح اليه خاتمه كأنه كان مرجا في خنصره غير محتاج في اخراجه الى كثير عمل يؤدي الى فساد الصلاة ولفظ الجمع حينئذ لترغيب الناس في مثل فعله رضى الله عنه. وفيه دلالة على أن صدقة التطوع تسمى زكاة (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا) أوثر الاظهار على أن يقال ومن يتولهم رعاية لما مر من نكتة بيان اصالته تعالى في الولاية كما ينبىء عنه قوله تعالى (فان حزب الله هم الغالبون) حيث أضيف الحزب اليه تعالى خاصة وهو أيضا من باب وضع الظاهر موضع الضمير العائد الى من أى فانهم الغالبون لكنهم جعلوا حزب الله تعالى تعظيما لهم واثباتا لغلبتهم بالطريق البرهاني كأنه قيل ومن يتول هؤلاء فانهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا) روى أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث أظهرا الاسلام ثم نافقا وكان رجال من المؤمنين يوادونهما فنهوا عن موالاتهما ورتب النهي على وصف يعمهما وغيرهما تعميما للحكم وتنبيها على العلة وايذانا بان من هذا شأنه جدير بالمعاداة فكيف بالموالاة (من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) بيان للمستهزئين والتعرض لعنوان ايتاء الكتاب لبيان كمال شناعتهم وغاية ضلالتهم لما أن ايتاء الكتاب وازع لهم عن الاستهزاء بالدين المؤسس على الكتاب المصدق لكتابهم (والكفار) أي المشركين خصوا به لتضاعف كفرهم وهو عطف على الموصول الاول ففيه اشعار بأنهم ليسوا بمستهزئين كما ينبىء عنه تخصيص الخطاب باهل الكتاب في قوله تعالى «يا أهل الكتاب هل تنقمون منا» الآية وقرىء بالجر عطفا على الموصول الاخير ويعضده قراءة أبي ومن الكفار وقراءة عبد الله ومن الذين أشركوا فهم أيضا من جملة المستهزئين (أولياء) وجانبوهم كل المجانبة (واتقوا الله) في ذلك بترك موالاتهم أو بترك المناهي على الاطلاق فيدخل فيه ترك موالاتهم دخولا أوليا (ان كنتم مؤمنين) أي حقا فان قضية الايمان توجب الاتقاء لا محالة (واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها) أي الصلاة أو المناداة ففيه دلالة على شرعية الاذان (هزوا ولعبا) بيان لاستهزائهم بحكم خاص من

أحكام الدين بعد بيان استهزائهم بالدين على الاطلاق إظهارا لكمال شقاوتهم روى أن نصرانيا بالمدينة كان اذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمدا رسول الله يقول أحرق الله الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام فتطايرت منه شرارة فى البيت فاحرقته وأهله جميعا (ذلك) أي الاستهزاء المذكور (بأنهم) بسبب أنهم (قوم لا يعقلون) فان السفه يؤدى الى الجهل بمحاسن الحق والهزء به ولو كان لهم عقل فى الجملة لما اجترؤا على تلك العظيمة (قل) أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق تلوين الخطاب بعد نهى المؤمنين عن تولى المستهزئين بان يخاطبهم ويبين أن الدين منزه عما يصحح صدور ما صدر عنهم من الاستهزاء ويظهر لهم سبب ما ارتكبوه ويلقمهم الحجر أى قل لأولئك الفجرة (يا أهل الكتاب) وصفوا باهلية الكتاب تمهيدا لما سيأتى من تبكيتهم والزامهم بكفرهم بكتابهم (هل تنقمون منا) من نقم منه كذا اذا عابه وأنكره وكرهه ينقمه من حد ضرب وقرىء بفتح القاف من حد علم وهى أيضا لغة أى ما تعيبون وما تنكرون منا (الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا) من القرآن المجيد (وما أنزل من قبل) أى من قبل انزاله من التوراة والانجيل المنزلين عليكم وسائر الكتب الالهية (وان أكثركم فاسقون) أى متمردون خارجون عن الايمان بما ذكر فان الكفر بالقرآن مستلزم للكفر بما يصدقه لا محالة وهو عطف على ان آمنا على انه مفعول له لتنقمون والمفعول الذى هو الدين محذوف ثقة بدلالة ماقبله وما بعده عليه دلالة واضحة فان اتخاذ الدين هزوا ولعبا عين نقمه وانكاره والايمان بما فصل عين الدين الذى نقموه خلا أنه أبرز فى معرض علة نقمهم له تسجيلا عليهم بكمال المكابرة والتعكيس حيث جعلوه موجبا لنقمه مع كونه فى نفسه موجبا لقبوله ورضائه فالاستثناء من أعم العلل أي ماتنقمون منا دينا لعلة من العلل إلا لأن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل من كتبكم ولأن أكثركم متمردون غير مؤمنين بواحد مما ذكر حتى لو كنتم مؤمنين بكتابكم الناطق بصحة كتابنا لآمنتم به واسناد الفسق الى أكثرهم لأنهم الحاملون لاعقابهم على التمرد والعناد وقيل عطف عليه على انه مفعول لتنقمون منا لكن لا على أن المستثنى مجموع المعطوفين بل هو ما يلزمهما من المخالفة كأنه قيل ماتنقمون منا الا مخالفتكم حيث دخلنا الايمان وأنتم خارجون عنه. وقيل على حذف المضاف أى واعتقاد ان أكثركم فاسقون وقيل عطف على ما أى ما تنقمون منا إلا ان آمنا بالله وما أنزل الينا وبأنكم فاسقون وقيل عطف على علة محذوفة أى لقلة انصافكم ولأن أكثركم فاسقون وقيل الواو بمعنى

مع أي ماتنقمون منا الا الايمان مع أن أكثركم الخ وقيل هو منصوب بفعل مقدر دل عليه المذكور أى ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون وقيل هو مرفوع على الابتداء والخبر محذوف أى وفسقكم معلوم أى ثابت والجملة حالية أو معترضة وقريء بأن المكسورة والجملة مستأنفة مبينة لكون أكثرهم فاسقين متمردين (قل هل أنبئكم بشر من ذلك) لما أمر عليه الصلاة والسلام بالزامهم وتبكيتهم ببيان أن مدار نقمهم للدين انما هو اشتماله على ما يوجب ارتضاءه عندهم أيضاً وكفرهم بما هو مسلم لهم أمر عليه الصلاة والسلام عقيبه بأن يبكتهم ببيان أن الحقيق بالنقم والعيب حقيقة ما هم عليه من الدين المحرف وينعى عليهم فى ضمن البيان جناياتهم وما حاق بهم من تبعاتها وعقوباتها على منهاج التعريض لئلا يحملهم التصريح بذلك على ركوب متن المكابرة والعناد ويخاطبهم قبل البيان بما ينبيء عن عظم شأن المبين ويستدعى اقبالهم على تلقيه من الجملة الاستفهامية المشوقة الى المخبر به والتنبئة المشعرة بكونه أمراً خطيراً لما أن النبأ هو الخبر الذى له شأن وخطر وحيث كان مناط النقم شرية المنقوم حقيقة أو اعتقاداً وكان مجرد النقم غير مفيد لشريته ألبتة قيل بشر من ذلك ولم يقل بأنقم من ذلك تحقيقا لشرية ماسيذكر وزيادة تقرير لها وقيل انما قيل ذلك لوقوعه فى عبارة المخاطبين حيث أتى نفر من اليهود فسألوا رسول الله صلى عليه وسلم عن دينه فقال عليه الصلاة والسلام «أومن بالله وما أنزل الينا الى قوله ونحن له مسلمون» فحين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام قالوا لا نعلم شراً من دينكم وانما اعتبر الشرية بالنسبة الى الدين وهو منزه عن شائبة الشرية بالكلية مجاراة معهم على زعمهم الباطل المنعقد على كمال شريته ليثبت أن دينهم شر من كل شر أى هل أخبركم بما هو شر فى الحقيقة مما تعتقدونه شرا وان كان فى نفسه خيراً محضاً (مثوبة عند الله) أى جزاء ثابتاً فى حكمه . وقريء مثوبة وهى لغة فيها كمشورة ومشورة وهى مختصة بالخير كما أن العقوبة مختصة بالشر وانما وضعت ههنا موضعها على طريقة قوله تحية بينهم ضرب وجيع ونصبها على التمييز من بشر وقوله عز وجل (من لعنه الله وغضب عليه) خبر لمبتدا محذوف بتقدير مضاف قبله مناسب لما أشير اليه بكلمة ذلك أى دين من لعنه الخ أو بتقدير مضاف قبلها مناسب لمن أي بشر من أهل ذلك والجملة على التقديرين استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الجملة الاستفهامية إما على حالها وهو الظاهر المناسب لسياق النظم الكريم واما باعتبار التقدير فيها فكأنه قيل ماالذى هو شر من ذلك فقيل هو دين من لعنه الله الخ أو قيل فى السؤال من ذا الذى هو شر من أهل ذلك فقيل هو من لعنه

الله ووضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وادخال الروعة وتهويل أمر اللعن وما تبعه والموصول عبارة عن المخاطبين حيث أبعدهم الله تعالى من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات وسنوح البينات (وجعل منهم القردة والخنازير) أي مسخ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت وبعضهم خنازير وهم كفار مائدة عيسى عليه السلام وقيل كلا المسخين في أصحاب السبت مسخت شبانهم قردة وشيوخهم خنازير وجمع الضمير الراجع الى الموصول في منهم باعتبار معناه كما أن أفراد الضميرين الأولين باعتبار لفظه. وايثار وضعه موضع ضمير الخطاب المناسب لأنبئكم للقصد الى اثبات الشرية بما عدد في حيز صلته من الامور الهائلة الموجبة لها على الطريقة البرهانية مع ما فيه من الاحتراز عن تهييج لجاجهم (وعبد الطاغوت) عطف على صلة من. وافراد الضمير لما مر وكذا عبد الطاغوت على قراءة البناء للمفعول ورفع الطاغوت وكذا عبد الطاغوت بمعنى صار معبودا فالراجع الى الموصول محذوف على القراءتين أي عبد فيهم أو بينهم وتقديم أوصافهم المذكورة بصدد اثبات شرية دينهم على وصفهم هذا مع أنه الاصل المستتبع لها في الوجود وأن دلالته على شريته بالذات لان عبادة الطاغوت عين دينهم البين البطلان ودلالتها عليها بطريق الاستدلال بشرية الآثار على شرية ما يوجبها من الاعتقاد والعمل اما للقصد الى تبكيتهم من أول الامر بوصفهم بما لا سبيل لهم الى الجحود لا بشريته وفظاعته ولا باتصافهم به واما للايذان باستقلال كل من المقدم والمؤخر بالدلالة على ما ذكر من الشرية ولو روعي ترتيب الوجود وقيل من عبد الطاغوت ولعنه الله وغضب عليه الخ لربما فهم أن علة الشرية هو المجموع. وقد قرئ عابد الطاغوت وكذا عبد الطاغوت بالاضافة على أنه نعت كفطن ويقظ وكذا عبدة الطاغوت وكذا عبد الطاغوت بالاضافة على أنه جمع عابد كخدم أو على أن أصله عبدة حذفت تاؤه للاضافة بالنصب في الكل عطفا على القردة والخنازير. وقرئ عبد الطاغوت بالجر عطفا على من بناء على أنه مجرور بتقدير المضاف. وقد قيل ان من مجرور على أنه بدل من شر على أحد الوجهين المذكورين في تقدير المضاف وأنت خبير بأن ذلك مع اقتضائه اخلال النظم الكريم عن المزايا المذكورة بالمرة مما لا سبيل اليه قطعا ضرورة أن المقصود الأصلي ليس مضمون الجملة الاستفهامية بل هو كما مر مقدمة سيقت أمام المقصود لهز المخاطبين وتوجيه أذهانهم نحو تلقي ما يلقى اليهم عقيبها بجملة خبرية موافقة في الكيفية للسؤال الناشئ عنها وهو المقصود أفادته وعليه يدور ذلك الالزام والتبكيت حسبما شرح فاذا

جعل الموصول بما فى حيز صلته من تتمة الجملة الاستفهامية فأين الذى يلقى اليهم عقيبها
جوابا عما نشأ منها من السؤال ليحصل به الالزام و التبكيت وأما الجملة الآتية فبمعزل
من صلاحية الجواب كيف لا و لابد من موافقته فى الكيفية للسؤال الناشيء عن الجملة
الاستفهامية وقد عرفت أن السؤال الناشيء عنها يستدعى وقوع الشر من تتمة
المخبر عنه لاخبرا كما فى الجملة المذكورة وسيتضح ذلك مزيد اتضاح باذن الله تعالى
و المراد بالطاغوت العجل وقيل هو الكهنة وكل من أطاعوه فى معصية الله عز وجل
فيعم الحكم دين النصارى أيضا و يتضح وجه تأخير ذكر عبادته عن العقوبات المذكورة
اذ لو قدمت عليها لتوهم اشتراك الفريقين فى تلك العقوبات ولما كان مآل ما ذكر
بصدد التبكيت أن ماهو شر مما نقموه دينهم أو أن من هو شر من أهل ما نقموه أنفسهم
بحسب ماقدر من المضافين وكانت الشرية على كلا الوجهين من تتمة الموضوع غير
مقصودة الاثبات لدينهم أو لأنفسهم عقب ذلك باثباتها لهم على وجه يشعر بعلية ما
ذكر من القبائح لثبوتها لهم بجملة مستأنفة مسوقة من جهته سبحانه شهادة عليهم بكمال
الشرارة والضلال أو داخلة تحت الأمر تأكيدا للالزام وتشديدا للتبكيت فقيل
(أولئك شر مكانا) فاسم الاشارة عبارة عمن ذكرت صفاتهم الخبيثة وما فيه من
من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشرارة أى أولئك الموصوفون بتلك القبائح
و الفضائح شر مكانا جعل مكانهم شرا ليكون أبلغ فى الدلالة على شرارتهم وقيل شر
مكانا أى منصرفا (وأضل عن سواء السبيل) عطف على شر مقرر له أي أكثر
ضلالا عن الطريق المستقيم وفيه دلالة على كون دينهم شرا محضا بعيدا عن الحق لان
مايسلكونه من الطريق دينهم فاذا كانوا أضل كان دينهم ضلالا مبينا لاغاية وراءه
و صيغة التفضيل فى الموضعين للزيادة مطلقا لا بالاضافة الى من يشاركهم فى أصل
الشرارة و الضلال (واذا جاءوكم قالوا آمنا) نزلت فى ناس من اليهود كانوا يدخلون
على رسول الله صلى الله عليه وسلم و يظهرون له الايمان نفاقا فالخطاب لرسول الله
صلى الله عليه وسلم والجمع للتعظيم أوله مع من عنده من المسلمين أى اذا جاءوكم أظهروا
الاسلام (وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) أى يخرجون من عندك ملتبسين
بالكفر كما دخلوا لم يؤثر فيهم ماسمعوا منك و الجملتان حالان من فاعل قالوا و بالكفر
و به حالان من فاعل دخلوا وخرجوا وقد وأن دخلت لتقريب الماضى من الحال
ليصح أن يقع حالا أفادت أيضا بما فيها من معنى التوقع أن أمارات النفاق كانت
لائحة وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يظنه و يتوقع أن يظهره الله تعالى

ولذلك قيل (والله أعلم بما كانوا يكتمون) أى من الكفر وفيه وعيد شديد لهم (وترى) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب والرؤية بصرية (كثيرا منهم) من اليهود والمنافقين وقوله تعالى (يسارعون فى الاثم) حال من كثيرا وقيل مفعول ثان والرؤية قلبية والاول أنسب بحالهم وظهور نفاقهم والمسارعة المبادرة والمباشرة للشىء بسرعة .وايثار كلمة فى على كلمة الى الواقعة فى قوله تعالى «وسارعوا الى مغفرة» الخ لما ذكر فى قوله تعالى «فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم» والمراد بالاثم الكذب على الاطلاق وقيل الحرام وقيل كلمة الشرك وقولهم عزير ابن الله وقيل هو مايختص بهم من الآثام (والعدوان) أى الظلم المتعدى الى الغير أو مجاوزة الحد فى المعاصى (وأكلهم السحت) أى الحرام خصه بالذكر مع اندراجه فى الإثم للمبالغة فى التقبيح (لبئس ما كانوا يعملون) أى لبئس شيأ كانوا يعملونه والجمع بين صيغتي الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار (لولا ينهاهم الربانيون والاحبار) قال الحسن الربانيون علماء الانجيل والاحبار علماء التوراة وقيل كلهم فى اليهود وهو تحضيض للذين يقتدي بهم أفناؤهم ويعلمون قباحة ماهم فيه وسوء مغبته على نهى أسافلهم عن ذلك مع توبيخ لهم على تركه (عن قولهم الاثم وأكلهم السحت) مع علمهم بقبحهما ومشاهدتهم لمباشرتهم لهما (لبئس ما كانوا يصنعون) وهذا أبلغ مما قيل فى حق عامتهم لما أن العمل لا يبلغ درجة الصنع مالم يتدرب فيه صاحبه ولم يحصل فيه مهارة تامة ولذلك ذم به خواصهم ولأن ترك الحسنة أقبح من مواقعة المعصية لان النفس تلتذ بها وتميل اليها ولا كذلك ترك الانكار عليها فكان جديرا بأبلغ ذم وفيه مما ينعى على العلماء توانيهم فى النهى عن المنكرات مالا يخفى وعن ابن عباس رضى الله عنهما انها أشد آية فى القرآن.وعن الضحاك مافى القرآن آية أخوف عندى منها (وقالت اليهود) قال ابن عباس وعكرمة والضحاك إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالا وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله سبحانه بأن كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبوه كف عنهم مابسط عليهم فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء (يد الله مغلولة) وحيث لم ينكر عليه الآخرون ورضوا به نسبت تلك العظيمة الى الكل كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم وأرادوا بذلك لعنهم الله أنه تعالى ممسك يقتر بالرزق فان كلا من غل اليد وبسطها مجاز عن محض البخل والجود من غير قصد فى ذلك الى اثبات يد وغل أو بسط ألا ترى أنهم يستعملونه حيث لا يتصور فيه ذلك كما فى قوله :

جاد الحمى بسط اليدين بوابل : شكرت نداه تلاعه ووهاده

وقد سلك لبيد هذا المسلك السديد حيث قال :

وغداة ريح قد شهدت وقرة اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

فانه انما أراد بذلك اثبات القدرة التامة للشمال على التصرف فى القرة كيفما تشاء على طريقة المجاز من غير ان يخطر بباله ان يثبت لها يدا ولا للقرزماما وأصله كناية فيمن يجوز عليه ارادة المعنى الحقيقى كما مر فى قوله تعالى «ولا ينظر اليهم يوم القيامة» فى سورة آل عمران وقيل أراد واما حكى عنهم بقوله تعالى «لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء» (غلت أيديهم) دعاء عليهم بالبخل المذموم والمسكنة أو بالفقر والنكد أو بغل الايدى حقيقة بأن يكونوا أسارى مغلولين فى الدنيا ويسحبوا الى النار بأغلالها فى الآخرة فتكون المطابقة حينئذ من حيث اللفظ وملاحظة المعنى الاصلى كما فى سبنى سب الله دابره (ولعنوا) عطف على الدعاء الاول أى أبعدوا من رحمة الله تعالى (بما قالوا) أى بسبب ما قالوا من الكلمة الشنعاء وقيل كلاهما خبر (بل يداه مبسوطتان) عطف على مقدر يقتضيه المقام أى كلا ليس كذلك بل هو فى غاية ما يكون من الجود واليه أشير بتثنية اليد فان أقصى ما ينتهى اليه همم الاسخياء أن يعطوا ما يعطونه بكلتا يديهم وقيل التثنية للتنبيه على منحه تعالى لنعمتى الدنيا والآخرة وقيل على اعطائه اكراما وعلى اعطائه استدراجا (ينفق كيف يشاء) جملة مستأنفة واردة لتأكيد كمال جوده وللتنبيه على سر ما ابتلوا به من الضيق الذى اتخذوه من غاية جهلهم وضلالهم ذريعة الى الاجتراء على تلك الكفرة العظيمة والمعنى أن ذلك ليس لقصور فى فيضه بل لان انفاقه تابع لمشيئته المبنية على الحكم التى عليها يدور أمر المعاش والمعاد وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصى أن يضيق عليهم كما يشير اليه ماسيأتى من قوله عز وجل «ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل» الآية وكيف ظرف ليشاء والجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير ينفق أى ينفق كائنا على أى حال يشاء أى كائنا على مشيئته أى مريدا وترك ذكر ما ينفقه لقصد التعميم (وليزيدن كثيرا منهم) وهم علماؤهم ورؤساؤهم (ما أنزل اليك) من القرآن المشتمل على هذه الآيات وتقديم المفعول للاعتناء به وتخصيص الكثير منهم بهذا الحكم لما أن بعضهم ليس كذلك (من ربك) متعلق بأنزل كما أن اليك كذلك . تأخيره عنه مع ان حق المبدأ أن يتقدم على المنتهى لاقتضاء المقام الاهتمام ببيان المنتهى لان مدار الزيادة هو النزول اليه عليه السلام كما فى قوله تعالى «وأنزل لكم من السماء ماء» والتعرض لعنوان الربوبية

مع الأضافة الى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام (طغيانا وكفرا) مفعول ثان للزيادة أى ليزيدنهم طغيانا على طغيانهم وكفرا على كفرهم القديمين إما من حيث الشدة والغلوو إما من حيث الكم والكثرة اذ كلما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم بحسب المقدار كما ان الطعام الصالح للاصحاء يزيد المرضى مرضا (وألقينا بينهم) أى بين اليهود فان بعضهم جبرية و بعضهم قدرية و بعضهم مرجئة و بعضهم مشبهة (العداوة والبغضاء) فلا يكاد تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم والجملة مبتدأة مسوقة لأزاحة ما عسى يتوهم من ذكر طغيانهم وكفرهم من الاجتماع على أمر يؤدى الى الاضرار بالمسلمين قيل العداوة أخص من البغضاء لان كل عدو مبغض بلاعكس كلى (الى يوم القيامة) متعلق بألقينا وقيل بالبغضاء (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) تصريح بما أشير اليه من عدم وصول غائلة ماهم فيه الى المسلمين أى كلما أرادوا محاربة الرسول عليه الصلاة والسلام ورتبوا مباديها وركبوا فى ذلك متن كل صعب وذلول ردهم الله تعالى وقهرهم أو كلما أرادوا حرب أحد غلبوا فانهم لما خالفوا حكم التوراة سلط الله تعالى عليهم بختنصر ثم افسدوا فسلط الله عليهم فطرس الرومى ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس . ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين وللحرب اما صلة لأوقدوا أو متعلق بمحذوف وقع صفة لنارا أى كائنة للحرب (ويسعون فى الارض فسادا) أى يجتهدون فى الكيد للاسلام وأهله واثارة الشر والفتنة فيما بينهم مما يغاير ما عبر عنه بايقاد نار الحرب وفسادا اما مفعول له أو فى موقع المصدر أى يسعون للفساد أو يسعون سعى فساد (والله لا يحب المفسدين) ولذلك أطفأ نائرة افسادهم واللام اما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا واما للعهد ووضع المظهر مقام الضمير للتعليل وبيان كونهم راسخين فى الأفساد (ولو أن أهل الكتاب) أى اليهود والنصارى على أن المراد بالكتاب الجنس المنتظم للتوراة والانجيل وانما ذكروا بذلك العنوان تأكيدا للتشنيع فان أهلية الكتاب توجب ايمانهم به واقامتهم له لا محالة فكفرهم به وعدم اقامتهم له وهم أهله أقبح من كل قبيح واشنع من كل شنيع فمفعول قوله تعالى (آمنوا) محذوف ثقة بظهوره مما سبق من قوله تعالى «هل تنقمون منا الى أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون» وما لحق من قوله تعالى «ولو أنهم أقاموا التوراة» الخ أى ولو أنهم مع صدور ما صدر عنهم من فنون الجنايات قولا وفعلا آمنوا بما نعى عنهم الايمان به فيندرج فيه فرض ايمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وأما ارادة ايمانهم به عليه السلام خاصة فيأباها المقام لان ما ذكر فيما سبق وما لحق من كفرهم به عليه السلام انما ذكر مشفوعا

بكفرهم بكتابهم أيضاً قصداً الى الالزام والتبكيت ببيان أن الكفر به عليه الصلاة والسلام مستلزم للكفر بكتابهم فحمل الايمان ههنا على الايمان به عليه السلام خاصة مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم (واتقوا) ما عددنا من معاصيهم التى من جملتها مخالفة كتابهم (لكفرنا عنهم سيئاتهم) التى اقترفوها وان كانت فى غاية العظم ونهاية الكثرة ولم نؤاخذهم بها (ولأدخلناهم) مع ذلك (جنات النعيم) وتكرير اللام لتأكيد الوعد وفيه تنبيه على كمال عظم ذنوبهم وكثرة معاصيهم وأن الاسلام يجب ما قبله من السيئات وان جلت وجاوزت كل حد معهود (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل) بمراعاة ما فيهما من الاحكام التى من جملتها شواهد نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ومبشرات بعثته فان اقامتها انما تكون بذلك لا بمراعاة جميع ما فيهما من الاحكام لانتساخ بعضها بنزول القرآن فليست مراعاة الكل من اقامتهما فى شىء (وما أنزل اليهم من ربهم) من القرآن المجيد المصدق لكتبهم. وايراده بهذا العنوان للايذان بوجوب اقامته عليهم لنزوله اليهم وللتصريح ببطلان ما كانوا يدعونه من عدم نزوله الى بنى اسرائيل وتقديم اليهم لما مر من قبل وفى إضافة الرب الى ضميرهم مزيد لطف بهم فى الدعوة الى الاقامة وقيل المراد بما أنزل اليهم كتب أنبياء بنى اسرائيل مثل كتاب شعيا وكتاب حنقوق وكتاب دانيال فانها مملوءة بالبشارة بمبعثه صلى الله عليه وسلم (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أى لوسع عليهم أرزاقهم بأن يفيض عليهم بركات السماء والارض أو بأن يكثر ثمرات الاشجار وغلال الزروع أو بأن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار فيجتنوا ما تهدل منها من رءوس الاشجار ويلتقطوا ما تساقط منها على الارض وقيل المراد المبالغة فى شرح السعة والخصب لا تعيين الجهتين كأنه قيل لأكلوا من كل جهة ومفعول أكلوا محذوف لقصد التعميم أو للقصد الى نفس الفعل كما فى قوله فلان يعطى ويمنع ومن فى الموضعين لابتداء الغاية وفى هاتين الشرطيتين من حثهم على ماذكر من الايمان والتقوى والاقامة بالوعد بنيل سعادة الدارين وزجرهم عن الاخلال به بما ذكر ببيان افضائه الى الحرمان عنها وتنبيههم على أن ما أصابهم من الضنك والضيق انما هو من شؤم جناياتهم لا لقصور فى فيض الفياض مالا يخفى (منهم أمة مقتصدة) جملة مستأنفة مبنية على سؤال نشأ من مضمون الجملتين المصدرتين بحرف الامتناع الدالتين على انتفاء الايمان والاتقاء واقامة الكتب المنزلة من أهل الكتاب كانه قيل هل كلهم كذلك مصرون على عدم الايمان الخ فقيل منهم أمة مقتصدة اما على أن منهم مبتدأ باعتبار مضمونه أى بعضهم أمة واما بتقدير الموصوف

أي بعض كائن منهم كما مر في قوله تعالى «ومن الناس من يقول آمنا بالله» الآية أي طائفة معتدلة وهم المؤمنون منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وثمانية وأربعون من النصارى . وقيل طائفة حالهم أمم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (وكثير منهم) مبتدأ لتخصصه بالصفة خبره (ساء ما يعملون) أي مقول في حقهم هذا القول أي بئس مايعملون وفيه معنى التعجب أي ما أسوأ عملهم من العناد والمكابرة وتحريف الحق والاعراض عنه والافراط في العداوة وهم الاجلاف المتعصبون ككعب بن الاشرف وأشباهه والروم (يا أيها الرسول) نودى عليه السلام بعنوان الرسالة تشريفا له وايذانا بأنها من موجبات الاتيان بما أمر به من تبليغ ما أوحى اليه (بلغ ما أنزل اليك) أي جميع ما أنزل اليك من الاحكام وما يتعلق بها كائنا ما كان وفي قوله تعالى (من ربك) أي مالك أمورك ومبلغك الى كمالك اللائق بك عدة ضمنية بحفظه عليه السلام وكلاءته أي بلغه غير مراقب في ذلك أحدا ولا خائف أن ينالك مكروه أبدا (وان لم تفعل) ما أمرت به من تبليغ الجميع بالمعنى المذكور كما ينبىء عنه قوله تعالى (فما بلغت رسالته) فان مالا تعلق به الاحكام أصلا من الاسرار الخفية ليست مما يقصد تبليغه الى الناس أي فما بلغت شيئا من رسالته وانسلخت مما شرفت به من عنوان الرسالة بالمرة لما أن بعضها ليس أولى بالاداء من بعض فاذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها لادلاء كل منها بما يدليه غيرها وكونها لذلك في حكم شيء واحد ولا ريب في أن الواحد لا يكون مبلغا غير مبلغ مؤمنا به غير مؤمن به ولان كتمان بعضها اضاعة لما أدى منها كترك بعض أركان الصلاة فان غرض الدعوة ينتقض بذلك وقيل فكأنك ما بلغت شيئا منها كقوله تعالى «فكأنما قتل الناس جميعا» من حيث ان أن كتمان البعض والكل سواء في الشناعة واستجلاب العقاب . وقرىء فما بلغت رسالاتي وعن ابن عباس رضي الله عنهما إن كتمت آية لم تبلغ رسالتي وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «بعثني الله برسالاته فضقت بها ذرعا فأوحى الله الى ان لم تبلغ رسالاتي عذبتك وضمن لي العصمة فقويت» وذلك قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) فانه كما ترى عدة كريمة بعصمته من لحوق ضررهم بروحه العزيز باعثة له عليه السلام على الجد في تحقيق ما أمر به من التبليغ غير مكترث بعداوتهم وكيدهم وعن أنس رضي الله عنه أنه عليه السلام كان يحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أدم فقال «انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس» وقوله تعالى (ان الله

لا يهدى القوم الكافرين) تعليل لعصمته تعالى له عليه السلام أى لا يمكنهم مما يريدون بك من الاضرار . و ايراد الآية الكريمة فى تضاعيف الآيات الواردة فى حق أهل الكتاب لما أن الكل قوارع يسوء الكفار سماعها ويشق على الرسول صلى الله عليه وسلم مشافهتهم بها وخصوصا ما يتلوها من النص الناعى عليهم كمال ضلالتهم ولذلك أعيد الامر فقيل (قل يا أهل الكتاب) مخاطبا للفريقين (لستم على شيء) أى دين يعتدبه و يليق بان يسمى شيئا لظهور بطلانه و وضوح فساده وفى هذا التعبير من التحقير و التصغير مالا غاية و راءه (حتى تقيموا التوراة و الأنجيل) أى تراعوهما وتحافظوا على ما فيهما من الامور التى من جملتها دلائل رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم و شواهد نبوته فان اقامتهما انما تكون بذلك وأما مراعاة أحكامهما المنسوخة فليست من اقامتهما فى شيء بل هى تعطيل لهما و رد لشهادتهما لانهما شاهدان بنسخها و انتهاء وقت العمل بها لان شهادتهما بصحة ماينسخها شهادة بنسخها وخروجها عن كونها من أحكامهما وان أحكامهما ماقرره النبى الذى بشر فيهما ببعثته وذكر فى تضاعيفهما نعوته فاذن اقامتهما بيان شواهد النبوة و العمل بما قرره الشريعة من الاحكام كما يفصح عنه قوله تعالى (وما أنزل اليكم من ربكم) أي القرآن المجيد بالايمان به فان اقامة الجميع لا تتأتى بغير ذلك وتقديم اقامة الكتابين على اقامته مع أنها المقصودة بالذات لرعاية حق الشهادة و استنزالهم عن رتبة الشقاق . وايراده بعنوان الانزال اليهم لما مر من التصريح بانهم مأمورون باقامته والايمان به لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب وفى اضافة الرب الى ضميرهم ما أشير اليه من اللطف فى الدعوة وقيل المراد بما أنزل اليهم كتب أنبياء بني اسرائيل كما مر وقيل الكتب الالهية فانها بأسرها آمرة بالايمان لمن صدقته المعجزة ناطقة بوجوب الطاعة له . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان جماعة من اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألست تقرأ ان التوراة حق من عند الله تعالى فقال عليه السلام بلى فقالوا فانا مؤمنون بها و لانؤمن بغيرها فنزلت و قوله تعالى (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا و كفرا) جملة مستأنفة مبينة لشدة شكيمتهم و غلوهم فى المكابرة و العناد وعدم افادة التبليغ نفعا. و تصديرها بالقسم لتأكيد مضمونها و تحقيق مدلولها و المراد بالكثير المذكور علماؤهم و رؤساؤهم ونسبة الانزال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع نسبته فيما مر اليهم للانباء عن انسلاخهم عن تلك النسبة (فلا تأس على القوم الكافرين)أى لاتتأسف ولا تحزن عليهم لافراطهم فى الطغيان والكفر بما تبلغه

اليهم فان غائلته آئلة اليهم وتبعته حائقة بهم لا تتخطاهم وفي المؤمنين مندوحة لك عنهم ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالرسوخ في الكفر (ان الذين آمنوا) كلام مستأنف مسوق لترغيب من عدا المذكورين في الايمان والعمل الصالح أي الذين آمنوا بألسنتهم فقط وهم المنافقون وقيل أعم من أن يواطئها قلوبهم أولا (والذين هادوا) أي دخلوا في اليهودية (والصابئون والنصارى) جمع نصران وقدمر تفصيله في سورة البقرة وقوله تعالى والصابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخر عما في حيز أن والتقدير ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كيت وكيت والصابئون كذلك كقوله . فاني وقيار بها لغريب . وقوله :

والا فاعلموا أنا وأنتم . بغاة مابقينا في شقاق

خلا انه وسط بين اسم أن وخبرها دلالة على ان الصابئين مع ظهور ضلالهم وزيغهم عن الاديان كلها حيث قبلت توبتهم ان صح منهم الايمان والعمل الصالح فغيرهم أولى بذلك وقيل الجملة الآتية خبر للمبتدأ المذكور وخبر ان مقدر كما في قوله

نحن بما عندنا وأنت بما . عندك راض والرأى مختلف

وقيل النصارى مرفوع على الابتداء كقوله تعالى والصابئون عطفا عليه وهو مع خبره عطف على الجملة المصدرة بأن ولا مساغ لعطفه وحده على محل أن واسمها لاشتراط ذلك بالفراغ عن الخبر والا لارتفع الخبر بان والابتداء معا واعتذر عنه بأن ذلك اذا كان المذكور خبرا لها وأما اذا كان خبر المعطوف محذوفا فلا محذور فيه ولا على الضمير في هادوا لعدم التأكيد والفصل ولاستلزامه كون الصابئين هودا وقرىء والصابيون بياء صريحة بتخفيف الهمزة وقرىء والصابون وهو من صبا يصبوا لانهم صبوا الى اتباع الهوى والشهوات في دينهم وقرىء والصابئين وقرىء ياأيها الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون وقوله تعالى (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) إما في محل الرفع على انه مبتدأ خبره (فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط وجمع الضمائر الاخيرة باعتبار معنى الموصول كما أن أفرادها في صلته باعتبار لفظه والجملة خبر ان والعائد الى اسمها محذوف أي من آمن منهم وأما في محل النصب على انه بدل من اسم ان وما عطف عليه والخبر قوله تعالى فلا خوف والفاء كما في قوله عز وعلا «ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم» الآية فالمعنى على تقدير كون المراد بالذين آمنوا المنافقين وهو الاظهر من أحدث من هذه الطوائف ايمانا خالصا بالمبدأ والمعاد على الوجه اللائق لا كما يزعمه أهل الكتاب فان

ذلك بمعزل من أن يكون ايمانا بهما وعمل عملا صالحا حسبما يقتضيه الايمان بهما فلا خوف
عليهم حين يخاف الكفار العقاب ولا هم يحزنون حين يحزن المقصرون على تضييع
العمر وتفويت الثواب والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون
الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما مر مرارا لان النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد
الدوام والاستمرار بحسب المقام واما على تقدير كون المراد بالذين آمنو مطلق المتدينين
بدين الاسلام المخلصين منهم والمنافقين فالمراد بمن آمن من اتصف منهم بالايمان
الخالص بالمبدأ والمعاد على الاطلاق سواء كان ذلك بطريق الثبات والدوام عليه كما هو
شأن المخلصين أو بطريق احداثه وانشائه كما هو حال من عداهم من المنافقين وسائر
الطوائف وفائدة التعميم للمخلصين المبالغة فى ترغيب الباقين فى الايمان ببيان أن تأخرهم
فى الاتصاف به غير مخل بكونهم اسوة لاولئك الاقدمين الاعلام وأما ما قيل المعنى من
كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقا بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه فمما
لا سبيل اليه أصلا كما مر تفصيله فى سورة البقرة (لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) كلام
مبتدأ مسوق لبيان بعض آخر من جناياتهم المنادية باستبعاد الايمان منهم أى بالله لقد
أخذنا ميثاقهم بالتوحيد وسائر الشرائع والاحكام المكتوبة عليهم فى التوراة (وأرسلنا
اليهم رسلا) ذوى عدد كثير وأولى شأن خطير ليقرروهم على مراعاة حقوق الميثاق
ويطلعوهم على ما يأتون ويذرون فى دينهم ويتعهدوهم بالعظة والتذكير وقوله تعالى
(كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم) جملة شرطية مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال
نشأ من الاخبار بأخذ الميثاق وارسال الرسل وجواب الشرط محذوف كأنه قيل فماذا
فعلوا بالرسل فقيل كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما لا تحبه أنفسهم المنهمكة فى
الغى والفساد من الاحكام الحقة والشرائع عصوه وعادوه وقوله تعالى (فريقا كذبوا
وفريقا يقتلون) جواب مستأنف عن استفسار كيفية ما أظهروه من آثار المخالفة المفهومة
من الشرطية على طريقة الاجمال كأنه قيل كيف فعلوا بهم فقيل فريقا منهم كذبوهم من
غير أن يتعرضوا لهم بشىء آخر من المضار وفريقا آخر منهم لم يكتفوا بتكذيبهم بل
قتلوهم أيضا وانما أوثر عليه صيغة المضارع على حكاية الحال الماضية لاستحضار
صورتها الهائلة للتعجيب منها وللتنبيه على أن ذلك ديدنهم المستمر وللمحافظة على رءوس
الآى الكريمة وتقديم فريقا فى الموضعين للاهتمام به وتشويق السامع الى ما فعلوا به
لا للقصر هذا واما جعل الشرطية صفة لرسلا كما ذهب اليه الجمهور فلا يساعده المقام
أصلا ضرورة ان الجملة الخبرية اذا جعلت صفة أو صلة ينسخ ما فيها من الحكم وتجعل

عنوانا للموصوف تتمة له فى اثبات أمر آخر ولذلك يجب أن يكون الوصف معلوم الانتساب الى الموصوف عند السامع قبل جعله وصفا له ومن ههنا قالوا ان الصفات قبل العلم بها أخبار والاخبار بعد العلم بها أوصاف ولا ريب فى أن ماسيق له النظم انما هو بيان أنهم جعلوا كل من جاءهم من رسل الله تعالى عرضة للقتل أو التكذيب حسبما يفيده جعلها استئنافا على أبلغ وجه وآكده لا لبيان أنه تعالى أرسل إليهم رسلا موصوفين بكون كل منهم كذلك كما هو مقتضى جعلها صفة (وحسبوا أن لا تكون فتنة) أى حسب بنو اسرائيل أن لا يصيبهم من الله تعالى بما أتوا من الداهية الدهياء والخطة الشنعاء بلاء وعذاب وقرىء لا تكون بالرفع على أن أن هى المخففة من أن واسمها ضمير الشأن المحذوف وأصله أنه لا تكون فتنة وتعليق فعل الحسبان بها وهى للتحقيق لتنزيله منزلة العلم لكمال قوته وان بما فى حيزها سادمسد مفعوليه (فعموا) عطف على حسبوا والفاء للدلالة على ترتيب مابعدها على ما قبلها أى أمنوا بأس الله تعالى فتمادوا فى فنون الغى والفساد وعموا عن الدين بعد ما هداهم الرسل الى معالمه الظاهرة وبينوا لهم مناهجه الواضحة (وصموا) عن استماع الحق الذي ألقوه عليهم ولذلك فعلوا بهم ما فعلوا وهذا إشارة الى المرة الأولى من مرتى افساد بني اسرائيل حين خالفوا أحكام التوراة وركبوا المحارم وقتلوا شعياء وقيل حبسوا أرمياء عليهما السلام لا الى عبادتهم العجل كما قيل فانها وان كانت معصية عظيمة ناشئة عن كمال العمى والصمم لكنها فى عصر موسى عليه السلام ولا تعلق لها بما حكى عنهم مما فعلوا بالرسل الذين جاؤوهم بعده عليه السلام باعصار (ثم تاب الله عليهم) حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد بعد ما كانوا ببابل دهراً طويلا تحت قهر بخت نصر أسارى فى غاية الذل والمهنة فوجه الله عز وجل ملكا عظيما من ملوك فارس الى بيت المقدس ليعمره ونجى بقايا بنى اسرائيل من أسر بخت نصر بعد مهلكه وردهم الى وطنهم وتراجع من تفرق منهم فى الاكناف فعمروه ثلاثين سنة فكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا عليه وقيل لما ورث بهمن بن اسفنديار الملك من جده كستاسف ألقى الله عز وجل فى قلبه شفقة عليهم فردهم الى الشام وملك عليهم دانيال عليه السلام فاستولوا على من كان فيها من أتباع بخت نصر فقامت فيهم الانبياء فرجعوا الى أحسن ما كانوا عليه من الحال وذلك قوله تعالى ثم رددنا لكم الكرة عليهم. وأما ما قيل من أن المراد قبول توبتهم عن عبادة العجل فقد عرفت أن ذلك لا تعلق له بالمقام ولم يسند التوبة اليهم كسائر أحواله من الحسبان والعمى والصمم تجافيا عن التصريح بنسبة الخير اليهم وانما أشير اليها فى ضمن

بيان توبته تعالى عليهم تمهيدا لبيان نقضهم إياها بقوله تعالى (ثم عموا وصموا) وهو إشارة الى المرة الآخرة من مرتى افسادهم وهو اجتراؤهم على قتل زكريا ويحيى وقصدهم قتل عيسى عليه السلام لا الى طلبهم الرؤية كما قيل لما عرفت سره فان فنون الجنايات الصادرة عنهم لا تكاد تتناهى خلا أن انحصار ما حكى عنهم ههنا فى المرتين وترتبه على حكاية ما فعلوا بالرسل عليهم السلام يقضى بأن المراد ما ذكرناه والله عنده علم الكتاب. وقرئ عموا وصموا بالضم على تقدير عماهم الله وصمهم أى رماهم وضربهم بالعمى والصمم كما يقال نزكته اذا ضربته بالنيزك وركبته اذا ضربته بركبتك وقوله تعالى (كثير منهم) بدل من الضمير فى الفعلين وقيل خبر مبتدا محذوف أى أولئك كثير منهم (والله بصير بما يعملون) أى بما عملوا وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة ورعاية للفواصل والجملة تذييل أشير به الى بطلان حسبانهم المذكور ووقوع العذاب من حيث لم يحتسبوا اشارة إجمالية اكتفى بها تعويلا على ما فصل نوع تفصيل فى سورة بنى اسرائيل والمعنى حسبوا أن لا يصيبهم عذاب ففعلوا ما فعلوا من الجنايات العظيمة المستوجبة لاشد العقوبات والله بصير بتفاصيلها فكيف لا يؤاخذهم بها ومن أين لهم ذلك الحسبان الباطل ولقد وقع ذلك فى المرة الاولى حيث سلط الله تعالى عليهم بخت نصر عامل لهراسب على بابل وقيل جالوت الجزرى وقيل سنحاريب من أهل نينوى والاول هو الاظهر فاستولى على بيت المقدس فقتل من أهله أربعين ألفا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية الى أرضه فبقوا هناك على أقصى ما يكون من الذل والنكد الى أن أحدثوا توبة صحيحة فردهم الله عز وجل الى ما حكى عنهم من حسن الحال ثم عادوا الى المرة الآخرة من الافساد فبعث الله تعالى عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه خيدرود وقيل خيدروس ففعل بهم ما فعل قيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال ما صدقونى فقتل عليه ألوفا منهم ثم قال ان لم تصدقونى ما تركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى عليه السلام فقال بمثل هذا ينتقم الله تعالى منكم ثم قال يا يحيى قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ باذن الله تعالى قبل أن لا أبقى أحدا منهم فهدأ (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم) شروع فى تفصيل قبائح النصارى وابطال أقوالهم الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود وهؤلاء هم الذين قالوا أن مريم ولدت الها قيل هم الملكانية والمار يعقوبية منهم وقيل هم اليعقوبية خاصة قالوا ومعنى هذا أن الله تعالى حل فى

ذات عيسى واتحد بذاته تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (وقال المسيح) حال من فاعل قالوا بتقدير قد مفيدة لمزيد تقبيح حالهم ببيان تكذيبهم للمسيح وعدم انزجارهم عما أصروا عليه بما أوعدهم به أي قالوا ذلك وقد قال المسيح مخاطبا لهم (يابنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم) فانى عبد مربوب مثلكم فاعبدوا خالقى وخالقكم (انه) أى الشان (من يشرك بالله) أى شيئا فى عبادته أو فيما يختص به من صفات الالوهية (فقد حرم الله عليه الجنة) فلن يدخلها أبدا كما لا يصل المحرم عليه الى المحرم فانها دار الموحدين واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتهويل الامر وتربية المهابة (ومأواه النار) فانها هى العدة للمشركين وهذا بيان لابتلائهم بالعقاب اثر بيان حرمانهم الثواب (وما للظالمين من أنصار) أى مالهم من أحد ينصرهم بانقاذهم من النار اما بطريق المغالبة أو بطريق الشفاعة والجمع لمراعاة المقابلة بالظالمين واللام اما للعهد والجمع باعتبار معنى من كما أن الافراد فى الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها واما للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا ووضعه على الاول موضع الضمير للتسجيل على أنهم ظلموا بالاشراك وعدلوا عن طريق الحق والجملة تذييل مقرر لما قبله وهو من تمام كلام عيسى عليه السلام واما وارد من جهته تعالى تأكيدا لمقالته عليه السلام وتقريرا لمضمونها وقد قيل انه من كلامه عز وجل على معنى أنهم ظلموا وعدلوا عن سبيل الحق فيما تقولوا على عيسى عليه السلام فلذلك لم يساعدهم عليه ولم ينصر قولهم ورده وأنكره وان كانوا معظمين له بذلك ورافعين من مقداره أو من قول عيسى عليه السلام على معنى لا ينصركم أحد فيما تقولون ولا يساعدكم عليه لاستحالته وبعده عن المعقول وأنت خبير بأن التعبير عما حكى عنه عليه السلام من مقابلته لقولهم الباطل بصريح الرد والانكار والوعيد بحرمان الجنة ودخول النار بمجرد عدم مساعدته على ذلك ونفى نصرته له مع خلوه عن الفائدة تصوير للقوى بصورة الضعيف وتهوين للخطب فى مقام تهويله بل ربما يوهم ذلك بحسب الظاهر مالا يليق بشأنه عليه السلام من توهم المساعدة والنصرة لاسيما مع ملاحظة قوله وان كانوا معظمين له الخ الا أن يحمل الكلام على التهكم بهم وكذا الحال على تقدير كونه من تمام كلامه عليه السلام فان زجره عليه السلام اياهم عن قولهم الفاسد بما ذكر من عدم الناصر والمساعد بعد زجره اياهم بما مر من الرد الاكيد والوعيد الشديد بمعزل من الافادة والتأثير ولا سبيل ههنا الى الاعتذار بالتهكم (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) شروع فى بيان كفر طائفة أخرى منهم ومعنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الاعداد

مطلقا لا الثالث والرابع خاصة ولذلك منع الجمهور أن ينصب ما بعده بان يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة وانما ينصبه اذا كان ما بعده دونه مرتبة كما فى قولك عاشر تسعة وتاسع ثمانية قيل انهم يقولون ان الآلهية مشتركة بين الله سبحانه وتعالى وعيسى ومريم وكل واحد من هؤلاء اله ويؤكده قوله تعالى للمسيح أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله فقوله تعالى ثالث ثلاثة أى أحد ثلاثة آلهة وهو المتبادر من ظاهر قوله تعالى (وما من اله الا اله واحد) أى والحال انه ليس فى الوجود ذات واجب مستحق للعبادة من حيث انه مبدأ جميع الموجودات الا اله موصوف بالوحدانية متعال عن قبول الشركة ومن مزيدة للاستغراق وقيل انهم يقولون الله جوهر واحد ثلاثة اقانيم أقنوم الأب وأقنوم الأبن وأقنوم روح القدس وانهم يريدون بالاول الذات وقيل الوجود وبالثانى العلم وبالثالث الحياة فمعنى قوله تعالى «وما من اله الا اله واحد» ألا اله واحد بالذات منزه عن شائبة التعدد بوجه من الوجوه (وأن لم ينتهوا عما يقولون) من الكفر الشنيع ولم يوحدوا وقوله تعالي (ليمسن الذين كفروا) جواب قسم محذوف ساد مسد جواب الشرط أى وبالله انلم ينتهوا ليمسنهم وانما وضع موضع ضميرهم الموصول لتكرير الشهادة عليهم بالكفر فمن فى قوله تعالى (منهم) بيانية أو ليمسن الذين بقوا منهم على ما كانوا عليه من الكفر فمن تبعيضية وانما جئ بالفعل المنبىء عن الحدوث تنبيها على أن الاستمرار عليه بعد ورود ما ينحى عليه بالقلع من نص عيسى عليه السلام وغيره كفر جديد وغلو زائد على ما كانوا عليه من أصل الكفر (عذاب أليم) أى نوع شديد الألم من العذاب وهمزة الاستفهام فى قوله تعالى (أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه) لانكار الواقع واستبعاده لالانكار الوقوع وفيه تعجيب من أصرارهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائغة والأقاويل الباطلة فلا يتوبون الى الله تعالى ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عما نسبوه اليه من الاتحاد والحلول فمدار الانكار والتعجيب عدم الانتهاء وعدم التوبة معا أو أيسمعون هذه الشهادات المكررة والتشديدات المقررة فلا يتوبون عقيب ذلك فمدارهما عدم التوبة عقيب تحقق ما يوجبها من سماع تلك القوارع الهائلة وقوله عز وجل (والله غفور رحيم) جملة حالية من فاعل يستغفرونه مؤكدة للانكار والتعجيب من اصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم الى الاستغفار أى والحال أنه تعالى مبالغ فى المغفرة فيغفر لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله (ما المسيح ابن مريم إلا رسول) استئناف مسوق لتحقيق الحق الذى لا محيد عنه وبيان حقيقة حاله عليه السلام وحال امه بالاشارة أولا الى أشرف ما لهما من نعوت

الكمال التى بها صارا من زمرة أكمل أفراد الجنس واخرا الى الوصف المشترك بينهما وبين جميع أفراد البشر بل أفراد الحيوان استنزالا لهم بطريق التدريج عن رتبة الاصرار على ماتقولوا عليهما وارشادالهم الى التوبة والاستغفار أى هو مقصور على الرسالة لا يكاد يتخطاها وقوله تعالى (قد خلت من قبله الرسل) صفة لرسول منبئة عن اتصافه بما ينافى الالوهية فان خلو الرسل السالفة عليهم السلام منذر بخلوه المقتضى لاستحالة الألوهية أى ما هو الا رسول كالرسل الخالية من قبله خصه الله تعالى ببعض من الآيات كما خص كلا منهم ببعض آخر منها فان أحيا الموتى على يديه فقد أحيا العصا فى يد موسى عليه السلام وجعلت حية تسعى وهو أعجب منه وان خلق من غير اب فقد خلق آدم من غير أب ولا أم وهو أغرب منه وكل ذلك من جنابه عز وجل وانما موسى وعيسى مظاهر لشئونه وأفعاله (وأمه صديقة) أى وما أمه أيضا الا كسائر النساء اللاتى يلازمن الصدق او التصديق ويبالغن فى الاتصاف به فما رتبتهما الا رتبة بشرين أحدهما نبى والآخر صحابى فمن أين لكم أن تصفوهما بما لا يوصف به سائر الانبياء وخواصهم (كانا يأكلان الطعام) استئناف مبين لما أشير اليه من كونهما كسائر أفراد البشر فى الاحتياج الى مايحتاج اليه كل فرد من أفراده بل من أفراد الحيوان وقوله عز وجل (أنظر كيف نبين لهم الآيات) تعجيب من حال الذين يدعون لهما الربوبية ولا يرعون عن ذلك بعد مابين لهم حقيقة حالهما بيانا لا يحوم حوله شائبة ريب وكيف معمول لنبين والجملة فى حيز النصب معلقة لانظر أى أنظر كيف نبين لهم الآيات الباهرة المنادية ببطلان ماتقولوا عليهما نداء يكاد يسمعه صم الجبال (ثم أنظر أنى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن استماعها والتأمل فيها والكلام فيه كما فيما قبله وتكرير الامر بالنظر للمبالغة فى التعجيب وثم لاظهار ما بين العجبين من التفاوت أى ان بياننا للايات أمر بديع فى بابه بالغ لأقاصى الغايات القاصية من التحقيق والايضاح واعراضهم عنها مع انتفاء ما يصححه بالمرة وتعاضد مايوجب قبولها أعجب وأبدع (قل) أمر له عليه الصلاة والسلام بالزامهم وتبكيتهم أثر تعجيبه من أحوالهم (أتعبدون من دون الله) أي متجاوزين اياه وتقديمه على قوله تعالى (مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا) لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر والموصول عبارة عن عيسى عليه السلام وايثاره على كلمة من لتحقيق ماهو المراد من كونه بمعزل من الالوهية رأسا ببيان انتظامه عليه السلام فى سلك الاشياء التى لاقدرة لها على شئ أصلا وهو عليه السلام وان كان يملك ذلك بتمليكه تعالى إياه لكنه لا يملكه من ذاته ولا يملك مثل مايضربه الله تعالى من البلايا

و المصائب وما ينفع به من الصحة و تقديم الضرر على النفع لان التحرز عنه أهم من تحرى النفع و لان أدنى درجات التأثير دفع الشر ثم جلب الخير وقوله تعالى (والله هو السميع العليم) حال من فاعل أتعبدون مؤكد للانكار والتوبيخ ومقرر للالزام والتبكيت و الرابط هو الواو أى أتشركون بالله تعالى مالا يقدر على شيء من ضركم و نفعكم و الحال ان الله تعالى هو المختص بالاحاطة التامة بجميع المسموعات و المعلومات التى من جملتها ماأنتم عليه من الاقوال الباطلة و العقائد الزائغة و الاعمال السيئة و بالقدرة الباهرة على جميع المقدورات التى من جملتها مضاركم ومنافعكم فى الدنيا والآخرة (قل ياأهل الكتاب) تلوين للخطاب وتوجيه له الى فريق أهل الكتاب بطريق الالتفات على لسان النبى عليه الصلاة والسلام بعد إبطال مسلك كل منهما للمبالغة فى زجرهم عما سلكوه من المسلك الباطل و ارشادهم الى الامم المؤتاة (لاتغلوا فى دينكم) أى لاتتجاوزوا الحد وهو نهى للنصارى عن رفع عيسى عن رتبة الرسالة الى ماتقولوا فى حقه من العظيمة ولليهود عن وضعهم له عليه السلام عن رتبته العلية الى ما تقولوا عليه من الكلمة الشنعاء وقيل هو خاص بالنصارى كما فى سورة النساء فذكرهم بعنوان أهلية الكتاب لتذكير أن الانجيل أيضا ينهاهم عن الغلو وقوله تعالى (غير الحق) نصب على انه نعت لمصدر محذوف أى لاتغلوا فى دينكم غلوا غير الحق أى غلوا باطلا أو حال من ضمير الفاعل أى لاتغلوا مجاوزين الحق أو من دينكم اى لاتغلوا فى دينكم حال كونه باطلا و قيل نصب على الاستثنا المتصل وقيل على المنقطع (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) هم اسلافهم و أئمتهم الذين قد ضلوا من الفريقين أو من النصارى على القولين قبل مبعث النبى عليه الصلاة والسلام فى شريعتهم (وأضلوا كثيرا) أى قوما كثيرا ممن شايعهم فى الزيغ و الضلال أو إضلالا كثيرا و المفعول محذوف (وضلوا)عند بعثة النبى عليه الصلاة والسلام وتوضيح محجة الحق و تبيين مناهج الاسلام (عن سواء السبيل)حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه وقيل الاول اشارة الى ضلالهم عن مقتضي العقل والثانى الى ضلالهم عما جاء به الشرع (لعن الذين كفروا) أي لعنهم الله عز وجل و بناء الفعل للمفعول للجرى على سنن الكبرياء من بنى اسرائيل متعلق بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من فاعل كفروا وقوله تعالى على لسان داود وعيسى ابن مريم) متعلق بلعن أى لعنهم الله تعالى فى الزبور والانجيل على لسانهما وقيل ان أهل ايلة لما اعتدوا فى السبت دعا عليهم داود عليه السلام وقال اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخهم الله قردة وأصحاب المائدة لما كفروا قال عيسى عليه السلام اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذابا لم تعذبه أحدا من العالمين و العنهم كما

لعنت أصحاب السبت فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل مافيهم امرأة ولا صبي (ذلك) اشارة الى اللعن المذكور . وايثاره على الضمير للتنبيه على كمال ظهوره وامتيازه عن نظائره وانتظامه بسببه فى سلك الامور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايذان بكمال فظاعته و بعد درجته فى الشناعة والهول وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بما عصوا وكانوا يعتدون) و الجملة مستأنفة واقعة موقع الجواب عما نشأ من الكلام كأنه قيل باى سبب وقع ذلك فقيل ذلك اللعن الهائل الفظيع بسبب عصيانهم واعتدائهم المستمر كما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل وينبيء عنه قوله تعالى (كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه) فانه استئناف مفيد بعبارته لاستمرار عدم التناهى عن المنكر ولا يمكن استمراره الا باستمرار تعاطى المنكرات وليس المراد بالتناهى أن ينهى كل واحد منهم الآخر عما يفعله من المنكر كما هو المعنى المشهور لصيغة التفاعل بل مجرد صدور النهى عن أشخاص متعددة من غير اعتبار أن يكون كل واحد منهم ناهيا ومنهيا معا كما فى تراءوا الهلال وقيل التناهى بمعنى الانتهاء يقال تناهى عن الامر وانتهى عنه اذا امتنع عنه وتركه فالجملة حينئذ مفسرة لما قبلها من المعصية والاعتداء و مفيدة لاستمرارهما صريحا وعلى الاول مفيدة لاستمرار انتفاء النهى عن المنكر بان لايوجد فيما بينهم من يتولاه فى وقت من الاوقات ومن ضرورته استمرار فعل المنكر حسبما سبق وعلى كل تقدير فما يفيده تنكير المنكر من الوحدة نوعية لاشخصية فلا يقدح وصفه بالفعل الماضى فى تعلق النهي به لما أن متعلق الفعل انما هو فرد من أفراد مايتعلق به النهى والانتهاء من مطلق المنكر باعتبار تحققه فى ضمن أى فرد كان من أفراده على أن المضى المعتبر فى الصفة انما هو بالنسبة الى زمان النزول لا الى زمان النهى حتى يلزم كون النهى بعد الفعل فلا حاجة إلى تقدير المعاودة أو المثل أو جعل الفعل عبارة عن الارادة على أن المعاودة كالنهى لا تتعلق بالمنكر المفعول فلا بد من المصير إلى أحد ماذكر من الوجهين أو الى تقدير المثل أو الى جعل الفعل عبارة عن ارادته وفى كل ذلك تعسف لايخفى (لبئس ما كانوا يفعلون) تقبيح لسوء أعمالهم وتعجيب منه بالتوكيد القسمى كيف لا وقد أداهم الى ماشرح من اللعن الكبير وليس فى تسبيبه بذلك دلالة على خروج كفرهم عن السببية مع الاشارة الى سببيته له فيما سبق من قوله تعالى «لعن الذين كفروا» فان اجراء الحكم على الموصول مشعر بعلية مافى حيز الصلة له لما أن ماذكر فى حيز السببية مشتمل على كفرهم أيضا (ترى كثيرا منهم) أى من أهل الكتاب ككعب بن الاشرف وأضرابه حيث خرجوا الى مشركى مكة ليتفقوا على محاربة النبي عليه الصلاة والسلام

والرؤية بصرية وقوله تعالى (يتولون الذين كفروا) حال من كثيرا لكونه موصوفا أي يوالون المشركين بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل من منافقي أهل الكتاب يتولون اليهود وهو قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومجاهد والحسن وقيل يوالون المشركين ويصافونهم (لبئس ماقدمت لهم أنفسهم) لبئس شيئا قدموا ليردوا عليه يوم القيامة (أن سخط الله عليهم) هو المخصوص بالذم على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه تنبيها على كمال التعلق والارتباط بينهما كأنهما شيء واحد ومبالغة في الذم أي موجب سخطه تعالى ومحله الرفع على الابتداء والجملة قبله خبره والرابط عند من يشترطه هو العموم أو لا حاجة اليه لان الجملة عين المبتدا أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف ينبىء عنه الجملة المتقدمة كأنه قيل ماهو أو أي شيء هو فقيل هو أن سخط الله عليهم وقيل المخصوص بالذم محذوف وما اسم تام معرفة في محل رفع بالفاعلية لفعل الذم وقدمت لهم أنفسهم جملة في محل الرفع على أنها صفة للمخصوص بالذم قائمة مقامه والتقدير لبئس الشيء شيء قدمته لهم أنفسهم فقوله تعالى أن سخط الله عليهم بدل من شيء المحذوف وهذا مذهب سيبويه (وفي العذاب) أي عذاب جهنم (هم خالدون) أبد الآبدين (ولو كانوا) أي الذين يتولون المشركين من أهل الكتاب (يؤمنون بالله والنبي) أي نبيهم (وما أنزل اليه) من الكتاب أو لو كان المنافقون يؤمنون بالله ونبينا ايمانا صحيحا (ما اتخذوهم) أي المشركين أو اليهود (أولياء) فان الايمان بما ذكر وازع عن توليهم قطعا (ولكن كثيرا منهم فاسقون) خارجون عن الدين والايمان بالله ونبيهم وكتابهم أو متمردون في النفاق مفرطون فيه (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ماقبلها من قبائح اليهود وعراقتهم في الكفر وسائر أحوالهم الشنيعة التي من جملتها موالاتهم المشركين أكدت بالتوكيد القسمي اعتناء ببيان تحقق مضمونها والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد صالح له ايذانا بان حالهم مما لايخفى على أحد من الناس والوجدان متعد الى اثنين أحدهما أشد الناس والثاني اليهود وماعطف عليه وقيل بالعكس لانهما في الاصل مبتدأ وخبر ومصب الفائدة هو الخبر لا المبتدأ ولا ضير في التقديم والتأخير اذا دل على الترتيب دليل وههنا دليل واضح عليه وهو أن المقصود بيان كون الطائفتين أشد الناس عداوة للمؤمنين لا كون أشدهم عداوة لهم الطائفتين المذكورتين وأنت خبير بانه بمعزل من الدلالة على ذلك كيف لا والافادة في الصورة الثانية أتم وأكمل مع

خلوها عن تعسف التقديم والتأخير اذ المعنى انك ان قصدت أن تعرف من أشد الناس عداوة للمؤمنين و تتبعت أحوال الطوائف طرا وأحطت بما لديهم خبرا و بالغت فى تعرف أحوالهم الظاهرة والباطنة وسعيت فى تطلب ماعندهم من الامور البارزة و الكامنة لتجدن الاشد تينك الطائفتين لا غير فتأمل واللام الداخلة على الموصول متعلقة بعداوة مقوية لعملها و لا يضر كونها مؤنثة بالتاء مبنية عليها كما فى قوله: ورهبة عقابك وقيل متعلقة بمحذوف هو صفة لعداوة أى كائنة للذين آمنوا وصفهم الله تعالى بذلك لشدة شكيمتهم و تضاعف كفرهم وانهما كهم فى اتباع الهوى و قربهم الى التقليد و بعدهم عن التحقيق و تمرنهم على التمرد والاستعصاء على الانبياء والاجتراء على تكذيبهم و مناصبتهم وفى تقديم اليهود على المشركين بعد لزها فى قرن واحد اشعار بتقدمهم عليهم فى العداوة كما أن فى تقديمهم عليهم فى قوله تعالى « ولتجدنهم أحرص الناس على حيوة ومن الذين أشركوا» ايذانا بتقدمهم عليهم فى الحرص (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا) أعيد الموصول مع صلته روما لزيادة التوضيح و البيان (الذين قالوا انا نصارى) عبر عنهم بذلك اشعارا بقرب مودتهم حيث يدعون أنهم أنصار الله وأوداء أهل الحق وان لم يظهروا اعتقاد حقية الاسلام وعلى هذه النكتة مبنى الوجه الثانى فى تفسير قوله تعالى «ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم » والكلام فى مفعولى لتجدن و تعلق اللام كالذى سبق والعدول عن جعل مافيه التفاوت بين الفريقين شيئا واحدا قد تفاوتا فيه بالشدة والضعف أو بالقرب والبعد بان يقال آخرا و لتجدن أضعفهم عداوة الخ أو بأن يقال أولا لتجدن أبعد الناس مودة الخ للايذان بكمال تباين مابين الفريقين من التفاوت ببيان أن أحدهما فى أقصى مراتب أحد النقيضين والآخر فى أقرب مراتب النقيض الآخر (ذلك) أى كونهم أقرب مودة للمؤمنين (بأن منهم) أى بسبب أن منهم (قسيسين وهم علماء النصارى وعبادهم ورؤساؤهم والقسيس صيغة مبالغة من تقسس الشىء اذا تتبعه وطلبه بالليل سموا به لمبالغتهم فى تتبع العلم قاله الراغب وقيل القس بفتح القاف حتى تتبع الشىء ومنه سمى عالم النصارى قسيسا لتتبعه العلم و قيل قص الاثر وقسه بى كيف وقيل أنه أعجمى وقال قطرب القس والقسيس العالم بلغة الروم . وقيل ضيعت النصح كفرهم الانجيل ومافيه وبقى منهم رجل يقال له قسيسا لم يبدل دينه فمن راعى هديه و د..فان اجراء له قسيس (ورهبانا) وهو جمع راهب كراكب وركبان وفارس و فر..ان ..بية مشتمل يطلق على الواحد وعلى الجمع وأنشد فيه قول من قال : ب بن الاشرف

لو عاينت رهبان دير فى قلل . لأقبل الرهبان يعدو ونزل يه الصلاة والسلام

والترهب التعبد فى الصومعة قال الراغب الرهبانية الغلو فى تحمل التعبد من فرط الخوف والتنكير لافادة الكثرة ولا بد من اعتبارها فى القسيسين أيضا اذ هى التى تدل على مودة جنس النصارى للمؤمنين فان اتصاف أفراد كثيرة لجنس بخصلة مظنة لاتصاف الجنس بها والا فمن اليهود أيضا قوم مهتدون ألا يرى الى عبد الله بن سلام وأضرابه قال تعالى «من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون» الخ لكنهم لما لم يكونوا فى الكثرة كالذين من النصارى لم يتعد حكمهم الى جنس اليهود (وأنهم لا يستكبرون) عطف على أن منهم أى وبانهم لا يستكبرون عن قبول الحق اذا فهموه ويتواضعون ولا يتكبرون كاليهود وهذه الخصلة شاملة لجميع أفراد الجنس فسببيتها لأقربيتهم مودة للمؤمنين واضحة وفيه دليل على أن التواضع والاقبال على العلم والعمل والاعراض عن الشهوات محمود وان كان ذلك من كافر (واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول) عطف على لا يستكبرون أى ذلك بسبب أنهم لا يستكبرون وأن أعينهم تفيض من الدمع عند سماع القرآن وهو بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم الى قبول الحق وعدم اباثهم اياه (ترى أعينهم تفيض من الدمع) أي تمتلىء بالدمع فاستعير له الفيض الذى هو الانصباب عن امتلاء مبالغة أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كانها تفيض بأنفسها (مما عرفوا من الحق) من الاولى لابتداء الغاية والثانية لتبيين الموصول أى ابتدأ الفيض ونشأ من معرفة الحق وحصل من أجله وبسببه ويحتمل ان تكون الثانية تبعيضية لان ما عرفوه بعض الحق وحيث أبكاهم ذلك فما ظنك بهم لو عرفوا كله وقرءوا القرآن وأحاطوا بالسنة. وقرىء ترى أعينهم على صيغة المبنى للمفعول (يقولون) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم عند سماع القرآن كانه قيل ماذا يقولون فقيل يقولون (ربنا آمنا) بهذا أو بمن أنزل هذا عليه أو بهما وقيل حال من الضمير فى عرفوا أو من الضمير المجرور فى أعينهم لما أن المضاف جزؤه كما فى قوله تعالى «ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا» (فاكتبنا مع الشاهدين) أى الذين شهدوا بانه حق أو بنبوته أو مع أمته الذين هم شهداء على الامم يوم القيامة وانما قالوا ذلك لانهم وجدوا ذكرهم فى الانجيل كذلك (وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق) كلام مستأنف قالوه تحقيقا لايمانهم وتقريرا له بانكار سبب انتفائه ونفيه بالكلية على أن قوله تعالى لا نؤمن حال من الضمير فى لنا والعامل ما فيه من الاستقرار أى أى شىء حصل لنا غير مؤمنين على توجيه الانكار والنفى الى السبب والمسبب جميعا كما فى قوله تعالى «وما لى لا أعبد الذى فطرنى» ونظائره لا الى السبب فقط مع تحقق المسبب كما فى قوله تعالى

«فما لهم لا يؤمنون» وأمثاله فان همزة الاستفهام كما تكون تارة لانكار الواقع كما فى أتضرب أباك وأخرى لانكار الوقوع كما فى أأضرب أبى كذلك ما الاستفهامية قد تكون لانكار سبب الواقع ونفيه فقط كما فى الآية الثانية وقوله تعالى «مالكم لا ترجون لله وقارا» فيكون مضمون الجملة الحالية محققا فان كلا من عدم الايمان وعدم الرجاء أمر محقق قد أنكر ونفى سببه وقد تكون لانكار سبب الوقوع ونفيه فيسريان الى المسبب أيضا كما فى الآية الاولى فيكون مضمون الجملة الحالية مفروضا قطعا فان عدم العبادة أمر مفروض حتما وقوله تعالى (ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) حال أخرى من الضمير المذكور بتقدير مبتدا والعامل فيها هو العامل فى الاولى مقيدا بها أى أى شيء حصل لنا غير مؤمنين ونحن نطمع فى صحبة الصالحين أو من الضمير فى لا نؤمن على معنى أنهم أنكروا على أنفسهم عدم ايمانهم مع أنهم يطمعون فى صحبة المؤمنين وقيل معطوف على نؤمن على معنى وما لنا نجمع بين ترك الايمان وبين الطمع المذكور (فأثابهم الله بما قالوا) أي عن اعتقاد من قولك هذا قول فلان أى معتقده وقرىء فآتاهم الله (جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) أى الذين أحسنوا النظر والعمل أو الذين اعتادوا الاحسان فى الامور والآيات الاربع روى أنها نزلت فى النجاشى وأصحابه بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه فقرأه ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين معه وأحضر القسيسين والرهبان فأمر جعفرا أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريم فبكوا وآمنوا بالقرآن وقيل نزلت فى ثلاثين أو سبعين رجلا من قومه وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم سورة مريم فبكوا وآمنوا (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) عطف التكذيب بآيات الله على الكفر مع أنه ضرب منه لما أن القصد الى بيان حال المكذبين وذكرهم بمقابلة المصدقين بها جمعا بين الترغيب والترهيب (ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) أى ما طاب ولذ منه كانه لما تضمن ما سلف من مدح النصارى على الترهب ترغيب المؤمنين فى كسر النفس ورفض الشهوات عقب ذلك بالنهى عن الافراط فى الباب أى لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم أولا تقولوا حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم فى العزم على تركها تزهدا منكم وتقشفا وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف القيامة لأصحابه يوما فبالغ وأشبع الكلام فى الانذار فرقوا واجتمعوا فى بيت عثمان ابن مظعون واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين وأن لا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودك ولا يقربوا النساء والطيب ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح ويسيحوا

فى الارض ويجبوا مذاكيرهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم «أنى لم أومر بذلك ان لأنفسكم عليكم حقا فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فانى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتى النساء فمن رغب عن سنتي فليس منى» فنزلت (ولا تعتدوا) أي ولا تعدوا حدود ما أحل لكم الى ما حرم عليكم أو ولا تسرفوا فى تناول الطيبات أو جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلما فنهى عن مطلق الاعتداء ليدخل تحته النهي عن تحريمها دخولا أوليا لوروده عقيبه أو أريد ولا تعتدوا بذلك (إن الله لا يحب المعتدين) تعليل لما قبله (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) أى ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله فحلالا مفعول كلوا ومما رزقكم اما حال منه تقدمت عليه لكونه نكرة أو متعلق بكلوا ومن ابتدائية أو هو المفعول وحلالا حال من الموصول أو من عائده المحذوف أو صفة لمصدر محذوف أى أكلا حلالا وعلى الوجوه كلها لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة زائدة (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) توكيد للوصية بما أمر به فان الايمان به تعالى يوجب المبالغة فى التقوى والانتهاء عما نهي عنه (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) اللغو فى اليمين الساقط الذى لا يتعلق به حكم وهو عندنا أن يحلف على شيء يظن أنه كذلك وليس كما يظن وهو قول مجاهد قيل كانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظن أنه قربة فلما نزل النهى قالوا كيف بأيماننا فنزلت. وعند الشافعى رحمه الله تعالى ما يبدو من المرء من غير قصد كقوله لا والله وبلى والله وهو قول عائشة رضى الله تعالى عنها .وفى ايمانكم صلة يؤاخذكم أو اللغو لانه مصدر أو حال منه (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان) أى بتعقيدكم الايمان وتوثيقها عليه بالقصد والنية والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتموه اذا حنثتم أو بنكث ما عقدتم فحذف للعلم به .وقرئ بالتخفيف وقرئ عاقدتم بمعنى عقدتم (فكفارته) أى فكفارة نكثه وهى الفعلة التى من شأنها أن تكفر الخطيئة وتسترها واستدل بظاهره على جواز التكفير قبل الحنث. وعندنا لا يجوز ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام «من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً فليأت الذى هو خير ثم ليكفر عن يمينه» (اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم) أى من أقصده فى النوع أو المقدار وهو نصف صاع من بر لكل مسكين ومحله النصب لانه صفة مفعول محذوف تقديره أن تطعموا عشرة مساكين طعاما كائنا من أوسط ما تطعمون أو الرفع على أنه بدل من أطعام وأهلون جمع أهل كأرضون جمع أرض. وقرئ أهاليكم بسكون الياء على لغة من يسكنها فى الحالات الثلاث كالالف وهذا أيضا جمع أهل كالاراضى

في جمع أرض والليالي في جمع ليل وقيل جمع اهلاه (أو كسوتهم) عطف على أطعام أو على محل من أوسط على تقدير كونه بدلا من اطعام وهو ثوب يغطي العورة وقيل ثوب جامع قميص أو رداء أو ازار وقرئ بضم الكاف وهي لغة كقدوة في قدوة وأسوة في اسوة. وقرئ أو كأسوتهم على أن الكاف في محل الرفع تقديره أواطعامهم كاسوتهم بمعنى أو كمثل ماتطعمون أهليكم اسرافا وتقتيرا تواسون بينهم وبينهم ان لم تطعموهم الأوسط (أو تحرير رقبة) أي أو اعتاق انسان كيفما كان وشرط الشافعي رضي الله تعالى عنه فيه الايمان قياساً على كفارة القتل ومعنى أو ايجاب احدى الخصال مطلقاً وخيار التعيين للمكلف (فمن لم يجد) أي شيئا من الأمور المذكورة (فصيام) أي فكفارته صيام (ثلاثة أيام) والتتابع شرط عند نا لقراءة ثلاثة أيام متتابعات. والشافعي رضي الله عنه لا يرى الشواذ حجة (ذلك) أي الذي ذكر (كفارة أيمانكم اذا حلفتم) أي وحنثتم (واحفظوا أيمانكم) بان تضنوا بها ولا تبذلوها كما يشعر به قوله تعالى اذا حلفتم وقيل بان تبروا فيها مااستطعتم ولم يفت بها خير أو بان تكفروها اذا حنثتم وقيل احفظوها كيف حلفتم بها ولا تنسوها تهاونا بها (كذلك) اشارة إلى مصدر الفعل الآتي لا الى تبيين آخر مفهوم مما سبق والقاف مقحمة لتأكيد ماأفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحله في الاصل النصب على انه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير يبين الله تبيينا كائنا مثل ذلك التبيين فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار نفس المصدر لانعتا له وقد مر تفصيله في قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا أي ذلك البيان البديع (يبين الله لكم آياته) أعلام شريعته وأحكامه لا بيانا أدنى منه وتقديم لكم على المفعول لما مر مراراً (لعلكم تشكرون) نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج (ياأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب) أي الاصنام المنصوبة للعبادة (والازلام) سلف تفسيرها في أوائل السورة الكريمة (رجس) قذر تعاف عنه العقول وافراده لانه خبر الخمر وخبر المعطوفات محذوف ثقة بالمذكور أو المضاف محذوف أي شأن الخمر والميسر الخ (من عمل الشيطان) في محل الرفع على أنه صفة رجس أي كائن من عمله لانه مسبب من تسويله وتزيينه (فاجتنبوه) أي الرجس أو ماذكر (لعلكم تفلحون) أي راجين فلا حكم وقيل لكي تفلحوا بالاجتناب عنه وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى «لعلكم تتقون» ولقد أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية الكريمة بفنون التأكيد حيث صدرت الجملة بانما وقرنا بالاصنام والازلام

وسميا رجسا من عمل الشيطان تنبيها على أن تعاطيهما شر بحت وأمر بالاجتناب عن عينهما وجعل ذلك سببا يرجى منه الفلاح فيكون ارتكابهما خيبة ومحقة ثم قرر ذلك ببيان مافيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقيل (انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر) وهو اشارة الى مفاسدهم الدنيوية (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) اشارة الى مفاسدهما الدينية وتخصيصهما باعادة الذكر وشرح مافيهما من الوبال للتنبيه على أن المقصود بيان حالهما وذكر الاصنام والازلام للدلالة على أنهما مثلهما فى الحرمة والشرارة لقوله عليه الصلاة والسلام «شارب الخمر كعابد الوثن» وتخصيص الصلاة بالافراد مع دخولها فى الذكر للتعظيم والاشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الايمان لما أنها عماده ثم أعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبا على ماتقدم من أصناف الصوارف فقيل (فهل أنتم منتهون) إيذانا بأن الامر فى الزجر والتحذير وكشف مافيهما من المفاسد والشرور قد بلغ الغاية وأن الاعذار قد انقطعت بالكلية (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) عطف على اجتنبوه أى أطيعوهما فى جميع ماأمرا به ونهيا عنه (واحذروا) أى مخالفتهما فى ذلك فيدخل فيه مخالفة أمرهما ونهيهما فى الخمر والميسر دخولا أوليا (فان توليتم) أى أعرضتم عن الامتثال بما أمرتم به من الاجتناب عن الخمر والميسر وعن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام والاحتراز عن مخالفتهما (فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) وقد فعل ذلك بما لامزيد عليه وخرج عن عهدة الرسالة أى خروج وقامت عليكم الحجة وانتهت الاعذار وانقطعت العلل ومابقى بعد ذلك إلا العقاب وفيه من عظم التهديد وشدة الوعيد مالا يخفى. وأما ماقيل من أن المعنى فاعلموا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول لانه ما كلف الاالبلاغ المبين بالآيات وقد فعل وانما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتموه فلايساعده المقام اذ لايتوهم منهم ادعاء أنهم بتوليهم يضرونه عليه الصلاة والسلام حتى يرد عليهم بأنهم لايضرونه وانما يضرون أنفسهم (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح) أى اثم وحرج (فيما طعموا) أى تناولوا أكلا أوشربا فان استعماله فى الشرب أيضا مستفيض منه قوله تعالى «ومن لم يطعمه فانه منى» قيل لما أنزل الله تعالى تحريم الخمر بعد غزوة الاحزاب قال رجال من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام أصيب فلان يوم بدر وفلان يوم أحد وهم يشربونها ونحن نشهد أنهم فى الجنة وفى رواية أخرى لما نزل تحريم الخمر والميسر قالت الصحابة رضى الله تعالى عنهم يارسول الله فكيف باخواننا الذين

ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر . وفى رواية أخرى قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه يارسول الله كيف باخواننا الذين ماتوا وقد شربوا الخمر وفعلوا القمار فنزلت وليست كلمة ما فى ماطعموا عبارة عن المباحات خاصة والا لزم تقييد أباحتها باتقاء ماعداها من المحرمات لقوله تعالى (اذا مااتقوا) واللازم منتف بالضرورة بل هى على عمومها موصولة كانت أو موصوفة وانما تخصصت بذلك القيد الطارىء عليها والمعنى ليس عليهم جناح فيما تناولوه من المأكول والمشروب كائنا ما كان اذ اتقوا أن يكون فى ذلك شىء من المحرمات والالم يكن نفى الجناح فى كل ماطعموه بل فى بعضه ولا محذور فيه اذ اللازم منه تقييد إباحة الكل بأن لايكون فيه محرم لا تقييد أباحة بعضه باتقاء بعض آخر منه كما هو اللازم من الاول (وآمنوا وعملوا الصالحات) أى واستمروا على الايمان والأعمال الصالحة وقوله تعالى (ثم اتقوا) عطف على اتقوا داخل معه فى حيز الشرط أى اتقوا ماحرم عليهم بعد ذلك مع كونه مباحا فيما سبق (وآمنوا) أى بتحريمه وتقديم الاتقاء عليه إما للاعتناء به أو لانه الذى يدل على التحريم الحادث الذى هو المؤمن به أو واستمروا على الايمان (ثم اتقوا) أى ماحرم عليهم بعد ذلك مما كان مباحا من قبل على أن المشروط بالاتقاء فى كل مرة اباحة كل ماطعموه فى ذلك الوقت لااباحة كل ماطعموه قبله لانتساخ أباحة بعضه حينئذ (وأحسنوا) أى عملوا الاعمال الحسنة الجميلة المنتظمة لجميع ماذكر من الأعمال القلبية والقالبية وليس تخصيص هذه المرات بالذكر لتخصيص الحكم بها بل لبيان التعدد والتكرر بالغا مابلغ والمعنى أنهم اذا اتقوا المحرمات واستمروا على ماهم عليه من الايمان والأعمال الصالحة وكانوا فى طاعة الله ومراعاة أوامره ونواهيه بحيث كلما حرم عليهم شىء من المباحات اتقوه ثم وثم فلا جناح عليهم فيما طعموه فى كل مرة من المطاعم والمشارب اذ ليس فيها شىء محرم عند طعمه وأنت خبير بأن ماعدا اتقاء المحرمات من الصفات الجميلة المذكورة لادخل لها فى انتفاء الجناح وانما ذكرت فى حيز اذا شهادة باتصاف الذين سئل عن حالهم بها ومدحا لهم بذلك وحمدا لاحوالهم وقد أشير الى ذلك حيث جعلت تلك الصفات تبعا للاتقاء فى كل مرة تمييزا بينها وبين ماله دخل فى الحكم فان مساق النظم الكريم بطريق العبارة وان كان لبيان حال المتصفين بما ذكر من النعوت فيما سيأتى بقضية كلمة اذا ما لكنه قد أخرج مخرج الجواب عن حال الماضين لاثبات الحكم فى حقهم فى ضمن التشريع الكلى على الوجه البرهانى بطريق دلالة النص بناء على كمال اشتهارهم بالاتصاف بها فكأنه قيل ليس عليهم جناح فيما طعموه اذا كانوا فى طاعته تعالى مع مالهم من الصفات الحميدة بحيث كلما أمروا بشىء تلقوه بالامتثال

وانما كانوا يتعاطون الخمر والميسر فى حياتهم لعدم تحريمهما اذ ذاك ولو حرما فى عصرهم لاتقوهما بالمرة هذا وقد قيل التكرير باعتبار الاوقات الثلاثة او باعتبار الحالات الثلاث: استعمال الانسان التقوى بينه وبين نفسه. وبينه وبين الناس. وبينه وبين الله عز وجل. ولذلك جيء بالاحسان فى الكرة الثالثة بدل الايمان اشارة الى ماقاله عليه الصلاة والسلام فى تفسيره. أو باعتبار المراتب الثلاث المبدأ والوسط والمنتهى أو باعتبار مايتقى فانه ينبغى أن يترك المحرمات توقيا من العقاب والشبهات توقيا من الوقوع فى الحرام وبعض المباحات حفظا للنفس عن الخسة وتهذيبا لها عن دنس الطبيعة. وقيل التكرير لمجرد التأكيد كما فى قوله تعالى «كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون» ونظائره وقيل المراد بالاول اتقاء الكفر وبالثانى اتقاء الكبائر وبالثالث اتقاء الصغائر ولاريب فى أنه لا تعلق لهذه الاعتبارات بالمقام فأحسن التأمل (والله يحب المحسنين) تذييل مقرر لمضمون ماقبله أبلغ تقرير (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله) جواب قسم محذوف أى والله ليعاملنكم معاملة من يختبركم ليتعرف أحوالكم (بشيء من الصيد) أى من صيد البر مأكولا او غير مأكول ما عدا المستثنيات من الفواسق فاللام للعهد نزلت عام الحديبية ابتلاهم الله تعالى بالصيد وهم محرمون كانت الوحوش تغشاهم فى رحالهم بحيث كانوا متمكنين من صيدها أخذا بايديهم وطعنا برماحهم وذلك قوله تعالى (تناله أيديكم ورماحكم) فهموا بأخذها فنزلت. وروى انه عن لهم حمار وحش فحمل عليه ابو اليسر بن عمرو فطعنه برمحه وقتله فقيل له قتلته وأنت محرم. فاتى اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله عن ذلك فانزل الله تعالى الآية فالتأكيد القسمى فى ليبلونكم انما هو لتحقيق أن ماوقع من عدم توحش الصيد عنهم ليس الا لابتلائهم لا لتحقيق وقوع المبتلى به كما لو كان النزول قبل الابتلاء وتنكير شيء للتحقير المؤذن بان ذلك ليس من الفتن الهائلة التى تزل فيها أقدام الراسخين كالابتلاء بقتل الانفس واتلاف الاموال وانما هو من قبيل ما ابتلى به أهل أيلة من صيد البحر وفائدته التنبيه على أن لم يثبت فى مثل هذا كيف يثبت عند شدائد المحن فمن فى قوله تعالى من الصيد بيانية قطعا أى بشيء حقير هو الصيد وجعلها تبعيضية يقتضى اعتبار قلته وحقارته بالنسبة الى كل الصيد لا بالنسبة الى عظائم البلايا فيعرى الكلام عن التنبيه المذكور (ليعلم الله من يخافه بالغيب) أى ليتميز الخائف من عقابه الأخروى وهو غائب مترقب لقوة ايمانه فلايتعرض للصيد ممن لايخافه كذلك لضعف ايمانه فيقدم عليه وانما عبر عن ذلك بعلم الله تعالى اللازم له ايذانا بمدار الجزاء ثوابا

وعقابا فانه أدخل فى حملهم على الخوف. وقيل المعنى ليتعلق علمه تعالى بمن يخافه بالفعل فان علمه تعالى بأنه سيخافه وان كان متعلقا به قبل خوفه لكن تعلقه بأنه خائف بالفعل وهو الذى يدور عليه أمر الجزاء انما يكون عند تحقق الخوف بالفعل وقيل هناك مضاف محذوف والتقدير ليعلم أولياء الله وقرئ ليعلم من الاعلام على حذف المفعول الاول أي ليعلم الله عباده الخ والعلم على القراءتين متعد إلى واحد واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة وادخال الروعة (فمن اعتدى بعد ذلك) أي بعد بيان أن ما وقع ابتلاء من جهته تعالى لما ذكر من الحكمة لابعد تحريمه أو النهى عنه كما قاله بعضهم اذ النهى و التحريم ليس أمراً حادثا يترتب عليه الشرطية بالفاء ولا بعد الابتلاء كما اختاره آخرون لان نفس الابتلاء لا يصلح مدارا لتشديد العذاب بل ربما يوهم كونه عذراً مسوغا لتخفيفه وانما الموجب للتشديد بيان كونه ابتلاء لان الاعتداء بعد ذلك مكابرة صريحة وعدم مبالاة بتدبير الله تعالى وخروج عن طاعته وانخلاع عن خوفه وخشيته بالكلية أى فمن تعرض للصيد بعد ما بينا أن ما وقع من كثرة الصيد وعدم توحشه منهم ابتلاء مؤد الى تمييز المطيع من العاصى (فله عذاب أليم) لما ذكر من أنه مكابرة محضة ولان من لا يملك زمام نفسه ولا يراعى حكم الله تعالى فى أمثال هذه البلايا الهينة لايكاد يراعيه فى عظائم المداحض والمراد بالعذاب الاليم عذاب الدارين قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يوسع ظهره وبطنه جلداً وينزع ثيابه (ياأيها الذين آمنوا) شروع فى بيان مايتدارك به الاعتداء من الاحكام اثر بيان مايلحقه من العذاب والتصريح بالنهى فى قوله تعالى (لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) مع كونه معلوما لاسيما من قوله تعالى «غير محلى الصيد وأنتم حرم» لتأكيد الحرمة وترتيب مايعقبه عليه واللام فى الصيد للعهد حسبما سلف . وحرم جمع حرام وهو المحرم وان كان فى الحل وفى حكمه من فى الحرم وان كان حلالا كردح جمع رداح والجملة حال من فاعل لاتقتلوا أى لاتقتلوه وأنتم محرمون (ومن قتله) أى الصيد المعهود . وذكر القتل فى الموضعين دون الذبح للايذان بكونه فى حكم الميتة (منكم) متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل قتله أى كائنا منكم (متعمداً) حال منه أيضا أي ذاكراً لاحرامه عالما بحرمة قتل مايقتله والتقييد بالتعمد مع أن محظورات الاحرام يستوى فيها العمد والخطأ لما أن الآية نزلت فى المتعمد كما مر من قصة أبى اليسر ولان الاصل فعل المتعمد والخطأ لاحق به للتغليظ. وعن الزهرى نزل الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه لا أرى فى الخطأ شيئا أخذا باشتراط التعمد فى الآية وهو قول داود

وعن مجاهد والحسن أن المراد بالتعمد هو تعمد القتل مع نسيان الاحرام أما اذا قتله عمداً وهو ذاكر لاحرامه فلا حكم عليه وأمره إلى الله عز وجل لانه أعظم من أن يكون له كفارة (فجزاء مثل ماقتل) برفعهما أى فعليه جزاء مماثل لما قتله وقرئ برفع الاول ونصب الثانى على أعمال المصدر وقرئ بجر الثانى على اضافته الى مفعوله وقرىء فجزاؤه مثل ماقتل على الابتداء والخبرية وقرىء بنصبهما على تقدير فليجز جزاء أو فعليه أن يجزى جزاء مثل ماقتل.والمراد به عند أبى حنيفة وأبى يوسف رضى الله عنهما المثل باعتبار القيمة يقوم الصيد حيث صيد أوفى أقرب الاماكن اليه فان بلغت قيمته قيمة هدى يخير الجانى بين أن يشترى بها ماقيمته قيمة الصيد فيهديه إلى الحرم وبين أن يشترى بها طعاما فيعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعا من غيره.وبين ان يصوم عن طعام كل مسكين يوما فان فضل مالايبلغ طعام مسكين تصدق به أو صام منه يوما كاملا اذ لم يعهد فى الشرع صوم مادونه فيكون قوله تعالى (من النعم) بيانا للهدي المشترى بالقيمة على أحد وجوه التخيير فان من فعل ذلك يصدق عليه أنه جزى بمثل ماقتل من النعم.وعند مالك والشافعى رحمهما الله تعالى ومن يرى رأيهما هو المثل باعتبار الخلقة والهيئة لان الله تعالى أوجب مثل المقتول مقيداً بالنعم فمن اعتبر المثل بالقيمة فقد خالف النص. وعن الصحابة رضى الله عنهم أنهم أوجبوا فى النعامة بدنة وفى الظبى شاة وفى حمار الوحش بقرة وفى الارنب عناقا وعن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال «الضبع صيد وفيه شاة إذا قتله المحرم » ولنا أن النص أوجب المثل.والمثل المطلق فى الكتاب والسنة واجماع الأمة والمعقول يراد به اما المثل صورة ومعنى وأما المثل معنى واما المثل صورة بلا معنى فلا اعتبار له فى الشرع أصلا واذا لم يكن ارادة الاول اجماعا تعينت ارادة الثانى لكونه معهوداً فى الشرع كما فى حقوق العباد ألا يرى أن المماثلة بين أفراد نوع واحد مع كونها فى غاية القوة والظهور لم يعتبرها الشرع ولم يجعل الحيوان عند الاتلاف مضمونا بفرد آخر من نوعه مماثل له فى عامة الأوصاف بل مضمونا بقيمته مع أن المنصوص عليه فى أمثاله انما هو المثل قال تعالى «فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» فحيث لم تعتبر تلك المماثلة القوية مع تيسر معرفتها وسهولة مراعاتها فلأن لاتعتبر ما بين أفراد أنواع مختلفة من المماثلة الضعيفة الخفية مع صعوبة مأخذها وتعسر المحافظة عليها أولى وأحرى ولان القيمة قد أريدت فيما لانظير له اجماعا فلم يبق غيره مراداً إذ لاعموم للمشترك فى مواقع الاثبات والمراد بالمروي ايجاب النظير باعتبار القيمة لاباعتبار

العين ثم الموجب الاصلي للجناية والجزاء المماثل للمقتول انما هو قيمته لكن لا باعتبار أن يعمد الجاني اليها فيصرفها الى المصارف ابتداء بل باعتبار أن يجعلها معيارا فيقدر بها احدي الخصال الثلاث فيقيمها مقامها فقوله تعالى «مثل ماقتل» وصف لازم للجزاء غير مفارق عنه بحال وأما قوله تعالى «من النعم» فوصف له معتبر في ثاني الحال بناء على وصفه الذي هو المعيار له ولمابعده من الطعام والصيام فحقهما أن يعطفا على الوصف المفارق لا على الوصف اللازم فضلا عن العطف على الموصوف كما سيأتي بأذن الله تعالى. ومما يرشدك الى ان المراد بالمثل هو القيمة قوله عز وجل (يحكم به) أي بمثل ماقتل (ذوا عدل منكم) أي حكمان عادلان من المسلمين لكن لا لأن التقويم هو الذي يحتاج إلى النظر والاجتهاد من العدول دون الاشياء المشاهدة التي يستوي في معرفتها كل أحد من الناس فان ذلك ناشيء من الغفلة عما أرادوا بما به المماثلة بل لأن ماجعلوه مدار المماثلة بين الصيد وبين النعم من ضرب مشاكلة ومضاهاة في بعض الاوصاف والهيئات مع تحقق التباين بينهما في بقية الاحوال مما لايهتدى اليه من أساطين أئمة الاجتهاد وصناديد أهل الهداية والارشاد الا المؤيدون بالقوة القدسية ألا يرى أن الامام الشافعي رضي الله عنه أوجب في قتل الحمامة شاة بناء على ماأثبت بينهما من المماثلة من حيث ان كلا منهما يعب ويهدر مع أن النسبة بينهما من سائر الحيثيات كما بين الضب والنون فكيف يفوض معرفة أمثال هذه الدقائق العويصة الى رأي عدلين من آحاد الناس. على أن الحكم بهذا المعنى انما يتعلق بالانواع لا بالاشخاص فبعد ماعين بمقابلة كل نوع من أنواع الصيد نوع من أنواع النعم يتم الحكم ولا يبقى عند وقوع خصوصيات الحوادث حاجة الى حكم أصلا . وقريء يحكم به ذو عدل على ارادة جنس العادل دون الوحدة وقيل بل على ارادة الامام والجملة صفة لجزاء أو حال منه لتخصصه بالصفة وقوله تعالى (هديا) حال مقدرة من الضمير في به أو من جزاء لما ذكر من تخصصه بالصفة أو بدل من مثل فيمن نصبه أو من محله فيمن جره أو نصب على المصدر أي يهديه هديا والجملة صفة أخرى لجزاء (بالغ الكعبة) صفة لهديا لان الاضافة غير حقيقية (أو كفارة) عطف على محل من النعم على أنه خبر مبتدا محذوف والجملة صفة ثانية لجزاء كما أشير اليه وقوله تعالى (طعام مساكين) عطف بيان لكفارة عند من لا يخصصه بالمعارف أو بدل منه أو خبر مبتدا محذوف أي هي طعام مساكين وقوله تعالى (أو عدل ذلك صياما) عطف على طعام الخ كأنه قيل فعليه جزاء مماثل للمقتول هو من النعم أو طعام مساكين أو

صيام أيام بعددهم فحينئذ تكون المماثلة وصفا لازما للجزاء يقدر به الهدى والطعام والصيام أما الاولان فبلا واسطة وأما الثالث فبواسطة الثانى فيختار الجانى كلامنهما بدلا من الآخرين هذا وقد قيل ان قوله تعالى أو كفارة عطف على جزاء فلا يبقى حينئذ فى النظم الكريم مايقدر به الطعام والصيام والالتجاء الى القياس على الهدى تعسف لا يخفى هذا على قراءة جزاء بالرفع وعلى سائر القراءات فقوله تعالى أو كفارة خبر مبتدا محذوف والجملة معطوفة على جملة هو من النعم وقرىء أو كفارة طعام مساكين بالاضافة لتبيين نوع الكفارة وقرىء طعام مسكين على أن التبيين يحصل بالواحد الدال على الجنس وقرىء أو عدل بكسر العين والفرق بينهما أن عدل الشىء ماعادله من غير جنسه كالصوم والاطعام وعدله ماعدل به فى المقدار كان المفتوح تسمية بالمصدر والمكسور بمعنى المفعول وذلك اشارة إلى الطعام وصياما تمييز للعدل والخيار فى ذلك للجانى عند أبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله وللحكمين عند محمد رحمه الله (ليذوق وبال أمره) متعلق بالاستقرار فى الجار والمجرور أى فعليه جزاء ليذوق الخ وقيل بفعل يدل عليه الكلام كأنه قيل شرع ذلك عليه ليذوق وبال أمره أى سوء عاقبة هتكه لحرمة الاحرام والوبال فى الاصل المكروه والضرر الذى ينال فى العاقبة من عمل سوء لثقله ومنه قوله تعالى «فأخذناه أخذا وبيلا» ومنه الطعام الوبيل وهو الذى لاتستمريه المعدة (عفا الله عما سلف) من قتل الصيد محرما قبل أن يسألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام وقيل عما سلف منه فى الجاهلية لانهم كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم وكان الصيد فيها محرما (ومن عاد) الى قتل الصيد بعد النهى عنه وهو محرم (فينتقم الله منه) خبر مبتدأ محذوف تقديره فهو ينتقم الله منه ولذلك دخلت الفاء كقوله تعالى «فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا» أي فذلك لايخاف الخ وقوله تعالى «ومن كفر فأمتعه» أى فأنا أمتعه والمراد بالانتقام التعذيب فى الآخرة وأما الكفارة فعن عطاء وابراهيم وسعيد بن جبير والحسن أنها واجبة على العائد وعن ابن عباس رضى الله عنهما وشريح أنه لا كفارة عليه تعلقا بالظاهر (والله عزيز) غالب لايغالب (ذو انتقام) شديد فينتقم ممن أصر على المعصية والاعتداء (أحل لكم) الخطاب للمحرمين (صيد البحر) أى مايصاد فى المياه كلها بحرا كان أو نهرا أو غديرا وهو مالا يعيش الا فى الماء مأكولا أو غير مأكول (وطعامه) أى ومايطعم من صيده وهو تخصيص بعد تعميم والمعنى أحل لكم التعرض لجميع مايصاد فى المياه والانتفاع به وأكل مايؤكل منه وهو السمك عندنا وعند ابن أبى ليلى جميع مايصاد فيه على أن تفسير الآية عنده

أحل لكم صيد حيوان البحر وأن تطعموه. وقرىء وطعمه وقيل صيد البحر ماصيد فيه وطعامه ماقذفه أو نضب عنه (متاعا لكم) نصب على أنه مفعول له مختص بالطعام كما أن نافلة فى قوله تعالى «ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة» حال مختصة بيعقوب عليه السلام أى أحل لكم طعامه تمتيعا للمقيمين منكم يأكلونه طريا (وللسيارة) منكم يتزودونه قديدا. وقيل نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر أى متعكم به متاعا وقيل مؤكد لمعنى أحل لكم فانه فى قوة متعكم به تمتيعا كقوله تعالى «كتاب الله عليكم» (وحرم عليكم صيد البر) وقرئ على بناء الفعل للفاعل ونصب صيد البر وهو مايفرخ فيه وان كان يعيش فى الماء فى بعض الاوقات كطير الماء (مادمتم حرما) أى محرمين وقرئ بكسر الدال من دام يدام وظاهره يوجب حرمة ماصاده الحلال على المحرم وان لم يكن له مدخل فيه وهو قول عمر وابن عباس رضى الله عنهم وعن أبى هريرة وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير رضى الله عنهم انه يحل له أكل ما صاده الحلال وان صاده لاجله اذا لم يشر اليه ولم يدل عليه وكذا ماذبحه قبل احرامه وهو مذهب أبى حنيفه لان الخطاب للمحرمين فكانه قيل وحرم عليكم ماصدتم فى البر فيخرج منه مصيد غيرهم وعند مالك والشافعى وأحمد لايباح ماصيد له (واتقوا الله) فيما نهاكم عنه أو فى جميع المعاصى التي من جملتها ذلك (الذى اليه تحشرون) لا الى غيره حتى يتوهم الخلاص من أخذه تعالى بالالتجاء اليه (جعل الله الكعبة) قال مجاهد سميت كعبة لكونها مكعبة مربعة وقيل لانفرادها من البناء وقيل لارتفاعها من الارض ونتوئها وقوله تعالى (البيت الحرام) عطف بيان على جهة المدح دون التوضيح كما تجىء الصفة كذلك وقيل مفعول ثان لجعل وقوله تعالى (قياما للناس) نصب على الحال ويرده عطف مابعده على المفعول الاول كما سيجيء بل هذا هو المفعول الثانى وقيل الجعل بمعنى الانشاء والخلق وهو حال كما مر ومعنى كونه قياما لهم أنه مدار لقيام أمر دينهم ودنياهم اذ هو سبب لانتعاشهم فى أمور معاشهم ومعادهم يلوذ به الخائف ويأمن فيه الضعيف ويربح فيه التجار ويتوجه اليه الحجاج والعمار وقرىء قيما على انه مصدر على وزن شبع أعل عينه بما أعل فى فعله (والشهر الحرام) أى الذى يؤدى فيه الحج وهو ذوالحجة وقيل جنس الشهر الحرام وهو وما بعده عطف على الكعبة فالمفعول الثانى محذوف ثقة بما مر أى جعل الشهر الحرام (والهدى والقلائد) أيضا قياما لهم والمراد بالقلائد ذوات القلائد وهى البدن خصت بالذكر لان الثواب فيها أكثر وبهاء الحج بها أظهر. (ذلك) اشارة الى الجعل المذكور خاصة أو مع ماذكر من الأمر بحفظ حرمة الاحرام وغيره

ومحله النصب بفعل مقدر يدل عليه السياق وهو العامل فى اللام بعده أى شرع ذلك (لتعلموا ان الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض) فان تشريع هذه الشرائع المستتبعة لدفع المضار الدينية والدنيوية قبل وقوعها وجلب المنافع الأولوية والأخروية من أوضح الدلائل على حكمة الشارع وعدم خروج شيء من علمه المحيط وقوله تعالى (وإن الله بكل شيء عليم) تعميم أثر تخصيص للتأكيد ويجوز أن يراد بما فى السموات والارض الاعيان الموجودة فيهما وبكل شيء الامور المتعلقة بتلك الموجودات من العوارض والاحوال التي هى من قبيل المعانى (اعلموا أن الله شديد العقاب) وعيد لمن انتهك محارمه، أو أصر على ذلك وقوله تعالى (وان الله غفور رحيم) وعد لمن حافظ على مراعاة حرماته تعالى أو أقلع عن الانتهاك بعد تعاطيه ووجه تقديم الوعيد ظاهر (ما على الرسول الا البلاغ) تشديد فى إيجاب القيام بما أمر به. أى الرسول قد أتى بما وجب عليه من التبليغ بما لا مزيد عليه وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم من بعد فى التفريط (والله يعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) فيؤاخذكم بذلك نقيرا وقطميرا (قل لا يستوى الخبيث والطيب) حكم عام فى نفي المساواة عند الله تعالى بين الرديء من الاشخاص والاعمال والاموال وبين جيدها قصد به الترغيب فى جيد كل منها والتحذير عن رديئها وان كان سبب النزول شريح بن ضبعة البكرى الذى مرت قصته فى تفسير قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله» الخ وقيل نزل فى رجل سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام ان الخمر كانت تجارتى وانى اعتقدت من بيعها مالا فهل ينفعنى من ذلك المال ان عملت فيه بطاعة الله تعالى فقال النبى عليه الصلاة والسلام «ان أنفقته فى حج أو جهاد أو صدقة لم يعدل جناح بعوضة ان الله لا يقبل الا الطيب» وقال عطاء والحسن رضى الله عنهما الخبيث والطيب والحرام والحلال وتقديم الخبيث فى الذكر للاشعار من أول الامر بأن القصور الذى ينبئ عنه عدم الاستواء فيه لا فى مقابله فان مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصانا وان جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر كما فى قوله تعالى «هل يستوى الاعمى والبصير» الى غير ذلك وأما قوله تعالى «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» فلعل تقديم الفاضل فيه لما أن صلته ملكة لصلة المفضول (ولو أعجبك كثرة الخبيث) أى وان سرك كثرته والخطاب لكل واحد من الذين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بخطابهم والواو لعطف الشرطية على مثلها المقدر. وقيل للحال وقد مر أى لو لم تعجبك كثرة الخبيث ولو أعجبتك وكلاهما فى موقع الحال من فاعل لا يستوى أى

لا يستويان كائنين على كل حال مفروض كما فى قولك: أحسن الى فلان و إن أساء اليك اى أحسن اليه ان لم يسىء اليك و ان أساء أى كائنا على كل حال مفروض وقد حذفت الأولى حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة فان الشيء اذا تحقق مع المعارض فلأن يتحقق بدونه أولى وعلى هذا السر يدور مافى لو وان الوصليتين من المبالغة والتأكيد وجواب لو محذوف فى الجملتين لدلالة ماقبلهما عليه وسيأتى تمام تحقيقه فى مواقع عديدة باذن الله عز وجل (فاتقوا الله ياأولى الالباب) أى فى تحرى الخبيث وان كثر وآثروا عليه الطيب وان قل فان مدار الاعتبار هو الجودة والرداءة لا الكثرة والقلة فالمحمود القليل خير من المذموم الكثير بل كلما كثر الخبيث كان أخبث (لعلكم تفلحون) راجين ان تنالوا الفلاح (ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء) هو اسم جمع على رأى الخليل وسيبويه وجمهور البصريين كطرفاء وقصباء أصله شيئاء بهمزتين بينهما ألف فقلبت الكلمة بتقديم لامها على فائها فصار وزنها لفعاء ومنعت الصرف لألف التأنيث الممدودة وقيل هو جمع شيء على أنه مخفف من شيّء كهين مخفف من هين والاصل أشيئاء كاهوناء بزنة أفعلاء فاجتمعت همزتان لام الكلمة والتى للتأنيث اذ الالف كالهمزة فخففت الكلمة بأن قلبت الهمزة الأولى ياء لانكسار ماقبلها فصارت أشيياء فاجتمعت ياءان أولاهما عين الكلمة فحذفت تخفيفا فصارت أشياء وزنها أفعلاء ومنعت الصرف لالف التأنيث وقيل انما حذفت من أشياء الياء المنقلبة من الهمزة التى هى لام الكلمة وفتحت الياء المكسورة لتسلم ألف الجمع فوزنها أفعاء وقوله تعالى (ان تبدلكم تسؤكم) صفة لاشياء داعية الى الانتهاء عن السؤال عنها وحيث كانت المساءة فى هذه الشرطية معلقة بابدائها لابالسؤال عنها عقبت بشرطية أخرى ناطقة باستلزام السؤال عنها لابدائها الموجب للمحذور قطعا فقيل (وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم) أى تلك الاشياء الموجبة للمساءة بالوحى كما ينبىء عنه تقييد السؤال بحين التنزيل والمراد بها مايشق عليهم ويغمهم من التكاليف الصعبة التى لا يطيقون بها والاسرار الخفية التى يفتضحون بظهورها ونحو ذلك مالاخير فيه فكما أن السؤال عن الامور الواقعة مستتبع لأبدائها كذلك السؤال عن تلك التكاليف مستتبع لايجابها عليهم بطريق التشديد لأساءتهم الأدب واجترائهم على المسئلة والمراجعة وتجاوزهم عما يليق بشأنهم من الاستسلام لأمر الله عز وجل من غير بحث فيه ولا تعرض لكيفيته وكميته أى لاتكثروا مسائلة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تسألوه عما لا يعنيكم من نحو تكاليف شاقة عليكم إن إفتاكم بها وكلفكم اياها حسبما أوحى اليه لم تطيقوا بها ونحو بعض أمور مستورة تكرهون بروزها وذلك مثل

ما روى عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله تعالى وأثني عليه ثم قال «ان الله تعالى كتب عليكم الحج فقام رجل من بني أسد يقال له عكاشة بن محصن وقيل هو سراقة بن مالك فقال أفي كل عام يارسول الله فأعرض عنه حتى أعاد مسئلته ثلاث مرات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم والله لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت مااستطعتم ولو تركتم لكفرتم فاتركوني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا أمرتكم بأمر فخذوا منه مااستطعتم واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» ومثل ما روى عن أنس وأبي هريرة رضي الله عنهما أنه سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء حتى أحفوه في المسألة فقام عليه الصلاة والسلام مغضبا خطيبا فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال «سلوني فوالله ماتسألوني عن شيء مادمت في مقامي هذا الا بينته لكم فاشفق أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام أن يكون بين يدي أمر قد حضر قال أنس رضي الله عنه فجعلت ألتفت يمينا وشمالا فلا أجد رجلا الا وهو لاف رأسه في ثوبه يبكي فقام رجل من قريش من بني سهم يقال له عبد الله بن حذافة وكان اذا لاحي الرجال يدعى الى غير أبيه وقال يانبي الله من أبي فقال عليه الصلاة والسلام أبوك حذافة بن قيس الزهري وقام آخر وقال أين أبي قال عليه الصلاة والسلام في النار ثم قام عمر رضي الله عنه فقال رضينا بالله تعالى ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا نبيا نعوذ بالله تعالى من الفتن انا حديثو عهد بجاهلية وشرك فاعف عنا يارسول الله فسكن غضبه عليه الصلاة والسلام» (عفا الله عنها) استئناف مسوق لبيان أن نهيهم عنها لم يكن لمجرد صيانتهم عن المساءة بل لانها في نفسها معصية مستتبعة للمؤاخذة وقد عفا عنها وفيه من حثهم على الجد في الانتهاء عنها مالا يخفي وضمير عنها للمسئلة المدلول عليها بلا تسألوا أي عفا الله تعالى عن مسائلكم السالفة حيث لم يفرض عليكم الحج في كل عام جزاء بمسئلتكم وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية بسائر مسائلكم فلا تعودوا الى مثلها وأما جعله صفة أخري لاشياء على ان الضمير لها بمعنى لاتسألوا عن أشياء عفا الله عنها ولم يكلفكم اياها فمما لاسبيل اليه أصلا لاقتضائه أن يكون الحج قد فرض أولا في كل عام ثم نسخ بطريق العفو وأن يكون ذلك معلوما للمخاطبين ضرورة أن حق الوصف أن يكون معلوم الثبوت للموصوف عند المخاطب قبل جعله وصفا له وكلاهما ضروري الانتفاء قطعا على انه يستدعي اختصاص النهي بمسئلة الحج ونحوها ان سلم وقوعها مع أن النظم الكريم صريح في انه مسوق للنهي عن السؤال عن عن الاشياء التي يسوءهم أبداؤها سواء كانت من قبيل الاحكام والتكاليف الموجبة

لمساءتهم بانشائها وايجابها بسبب السؤال عقوبة وتشديداً كمسئلة الحج لولا عفوه تعالى عنها أو من قبيل الامور الواقعة قبل السؤال الموجبة للمساءة بالاخبار بها كمسئلة من قال أين أبي ان قلت تلك الاشياء غير موجبة للمساءة ألبتة بل هي محتملة لايجاب المسرة أيضا لان ايجابها للاول ان كان من حيث وجودها فهي من حيث عدمها موجبة للاخرى قطعا وليست احدى الحيثيتين محققة عند السائل وانما غرضه من السؤال ظهورها كيف كانت بل ظهورها بحيثية ايجابها للمسرة فلم عبر عنها بحيثية ايجابها للمساءة قلت لتحقيق المنهي عنه كما ستعرفه مع ما فيه من تأكيد النهي وتشديده لان تلك الحيثية هي الموجبة للانتهاء والانزجار لا حيثية ايجابها للمسرة ولا حيثية ترددها بين الايجابين ان قيل الشرطية الثانية ناطقة بان السؤال عن تلك الاشياء الموجبة للمساءة مستلزم لابدائها ألبتة كما مر فلم تخلف الابداء عن السؤال في مسئلة الحج حيث لم يفرض في كل عام قلنا لوقوع السؤال قبل ورود النهي وماذكر في الشرطية انماهو السؤال الواقع بعد وروده اذ هو الموجب للتغليظ والتشديد ولا تخلف فيه ان قيل ماذكرته انما يتمشى فيما اذا كان السؤال عن الامور المترددة بين الوقوع وعدمه كما ذكر من التكاليف الشاقة وأما اذا كان عن الامور الواقعة قبله فلا يكاد يتسنى لان ما يتعلق به الابداء هو الذي وقع في نفس الأمر ولامرد له سواء كان السؤال قبل النهي أو بعده وقد يكون الواقع ما يوجب المسرة كما في مسئلة عبد الله بن حذافة فيكون هو الذي يتعلق به الابداء لاغيره فيتعين التخلف حتما قلنا لااحتمال للتخلف فضلا عن التعين فان المنهي عنه في الحقيقة انما هو السؤال عن الاشياء الموجبة للمساءة الواقعة في نفس الامر قبل السؤال كسؤال من قال أين أبي لاعما يعمها وغيرها مما ليس بواقع لكنه محتمل للوقوع عند المكلفين حتى يلزم التخلف في صورة عدم الوقوع وجملة الكلام أن مدلول النظم الكريم بطريق العبارة انما هو النهي عن السؤال عن الاشياء التي يوجب إبداؤها المساءة ألبتة اما بان تكون تلك الاشياء بعرضية الوقوع فتبدى عند السؤال بطريق الانشاء عقوبة وتشديدا كما في صورة كونها من قبيل التكاليف الشاقة واما بان تكون واقعة في نفس الامر قبل السؤال فتبدي عنده بطريق الاخبار بها فالتخلف ممتنع في الصورتين معا ومنشأ توهمه عدم الفرق بين المنهي عنه وبين غيره بناء على عدم امتياز ماهو موجود أو بعرضية الوجود من تلك الأشياء في نفس الامر وما ليس كذلك عند المكلفين وملاحظتهم للكل باحتمال الوجود والعدم وفائدة هذا الابهام الانتهاء عن السؤال عن تلك الاشياء على الاطلاق حذار إبداء المكروه (والله غفور حليم) اعتراض تذييلي مقرر لعفوه تعالى أي مبالغ في مغفرة الذنوب والاغضاء عن

المعاصى و لذلك عفا عنكم و لم يؤاخذكم بعقوبة ما فرط منكم (قدسألهاقوم) أى سألوا هذه المسألة لكن لاعينها بل مثلها فى كونها محظورة ومستتبعة للوبال وعدم التصريح بالمثل للمبالغة فى التحذير (من قبلكم) متعلق بسألها (ثم اصبحوا بها) أى بسببها أو بمرجوعها (كافرين) فان بنى اسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم فى أشياء فاذا أمروا بها تركوها فهلكوا (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) رد وابطال لما ابتدعه أهل الجاهلية حيث كانوا اذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أى شقوها وحرموا ركوبها ودرها ولا تطرد عن ماء ولا عن مرعي وكان يقول الرجل اذا قدمت من سفرى أو برئت من مرضى فناقتى سائبة وجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها وقيل كان الرجل اذا أعتق عبدا قال هو سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث واذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم وان ولدت ذكرا فهو لآلهتهم وان ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم واذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى ومعنى ماجعل ماشرع وماوضع ولذلك عدى الى مفعول واحد هو بحيرة وماعطف عليها ومن مزيدة لتأكيد النفى فان الجعل التكوينى كما يجيء تارة متعديا الى مفعولين وأخرى الى واحد كذلك الجعل التشريعى يجيء مرة متعديا الى مفعولين كما فى قوله تعالى «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس» وأخرى الى واحد كما فى الآية الكريمة (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب) حيث يفعلون مايفعلون ويقولون الله أمرنا بهذا وإمامهم عمرو بن لحى فانه أول من فعل هذه الأفاعيل الباطلة هذا شأن رؤسائهم وكبرائهم (وأكثرهم)وهم أراذلهم الذين يتبعونهم من معاصرى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يشهد به سياق النظم الكريم (لايعقلون) أنه افتراء باطل حتى يخالفوهم ويهتدوا الى الحق بأنفسهم فيبقون فى أسر التقليد وهذا بيان لقصور عقولهم وعجزهم عن الاهتداء بأنفسهم وقوله عز وجل (واذا قيل لهم) أى للذين عبر عنهم بأكثرهم على سبيل الهداية والارشاد (تعالوا الى ماأنزل الله)من الكتاب المبين للحلال والحرام (والى الرسول) الذى أنزل هو عليه لتقفوا على حقيقة الحال وتميزوا الحرام من الحلال (قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا) بيان لعنادهم واستعصائهم على الهادى الى الحق وانقيادهم للداعى الى الضلال (أولوكان آباؤهم لايعلمون شيئا ولا يهتدون) قيل الواو للحال دخلت عليها الهمزة للانكار والتعجيب أى أحسبهم ذلك ولوكان آباؤهم جهلة ضالين وقيل للعطف على شرطية أخرى مقدرة قبلها وهو الأظهر والتقدير أحسبهم ذلك أو أيقولون هذا القول لو لم يكن آباؤهم لايعقلون شيئا من الدين ولا يهتدون للصواب ولو كانوا

لايعلمون الخ وكلتاهما فى موقع الحال أى أحسبهم ماوجدوا عليه آباءهم كائنين على كل
حال مفروض وقد حذفت الأولى فى الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة
كيف لا وأن الشئ اذا تحقق عند المانع فلان يتحقق عند عدمه أولى كما فى قولك أحسن
الى فلان وان أساء اليك أى أحسن اليه ان لم يسئ اليك وان أساء أى أحسن اليه كائنا
على كل حال مفروض وقد حذفت الاولى لدلالة الثانية عليها دلالة ظاهرة اذ الاحسان
حيث أمر به عند المانع فلأن يؤمر به عند عدمه أولى وعلى هذا السر يدور مافى أن
ولو الوصليتين من المبالغة والتأكيد وجواب لو محذوف لدلالة ماسبق عليه أى لو كان
آباؤهم لايعلمون شيئا ولا يهتدون حسبهم ذلك أو يقولون ذلك ومافى لو من معنى
الامتناع والاستبعاد انما هو بالنظر الى زعمهم لا الى نفس الامر وفائدته المبالغة فى الانكار
والتعجيب ببيان أن ماقالوه موجب للانكار والتعجيب اذا كان كون آبائهم جهلة ضالين
فى حيز الاحتمال البعيد فكيف اذا كان ذلك واقعا لاريب فيه وقيل مآل الوجهين
واحد لان الجملة المقدرة حال فكذا ماعطف عليها وأنت خبير بأن الحال على الوجه
الاخير مجموع الجملتين لا الاخيرة فقط وان الواو للعطف لا للحال وقد مر التحقيق فى
قوله تعالى «أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون» (ياأيها [illegible] عليكم أنفسكم)
أى الزموا أمر أنفسكم واصلاحها. وقرىء بالرفع [illegible] عليكم أنفسكم
وقوله عز وجل (لايضركم من ضل إذا اهتديتم) اما مجزوم على انه جواب للامر
أو نهى مؤكد له وانما ضمت الراء اتباعا لضمة الضاد المنقولة اليها من الراء المدغمة اذ الاصل
لايضرركم ويؤيده القراءة بفتح الراء وقراءة من قرأ لايضركم بكسر الضاد وضمها من
ضاره يضيره ويضوره وإما مرفوع على أنه كلام مستأنف فى موقع التعليل لما قبله
ويعضده قراءة من قرأ لايضيركم أي لايضركم ضلال من ضل اذا كنتم مهتدين ولا
يتوهمن أن فيه رخصة فى ترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر مع استطاعتهما كيف
لا ومن جملة الاهتداء أن ينكر على المنكر حسبما تفى به الطاقة قال عليه الصلاة والسلام
«من رأى منكم منكرا فاستطاع أن يغيره فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه»
وقد روى أن الصديق رضى الله تعالى عنه قال يوما على المنبر ياأيها الناس أنكم
تقرءون هذه الآية وتضعونها غير موضعها ولاتدرون ماهى وانى سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول «ان الناس اذا رأوا منكرا فلم يغيروه عمهم الله بعقاب فأمروا بالمعروف
وانهوا عن المنكر ولا تغتروا بقول الله عز وجل «ياأيها الذين آمنوا» الخ فيقول أحدكم
على نفسى والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم

فيسومونكم سوء العذاب ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لهم» وعنه عليه الصلاة والسلام «مامن قوم عمل فيهم منكر أو سن فيهم قبيح فلم يغيروه ولم ينكروه الاوحق على الله تعالى ان يعمهم بالعقوبة جميعا ثم لا يستجاب لهم والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة وكانوا يتمنون ايمانهم وهم من الضلال بحيث لا يكادون يرعوون عنه بالامر والنهى. وقيل كان الرجل اذا أسلم لاموه وقالوا له سفهت آباءك وضللتهم أى نسبتهم الى السفاهة والضلال فنزلت تسلية له بأن ضلال آبائه لا يضره ولا يشينه (الى الله) لا الى أحد سواه (مرجعكم) رجوعكم يوم القيامه (جميعا) بحيث لا يتخلف عنه أحد من المهتدين وغيرهم (فينبئكم بما كنتم تعملون) فى الدنيا من أعمال الهداية والضلال فهو وعد ووعيد للفريقين وتنبيه على أن أحدا لا يؤاخذ بعمل غيره (يا أيها الذين آمنوا) استئناف مسوق لبيان الاحكام المتعلقه بأمور دنياهم اثر بيان الاحوال المتعلقة بامور دينهم وتصديره بحرف النداء والتنبيه لاظهار كمال العناية بمضمونه وقوله عزوجل (شهادة بينكم) بالرفع والاضافة الى الظرف توسعا امابا عتبار جريانها بينهم أو باعتبار تعلقها بما يجرى بينهم من الخصومات مبتدأ وقوله تعالى (اذا حضر أحدكم الموت) أى شارفه وظهرت علائمه ظرف لها وتقديم المفعول لافادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها فانه أدخل فى تهوين أمر الموت وقوله تعالى (حين الوصية) بدل منه لاظرف للموت كما توهم ولا لحضوره كما قيل فان فى الابدال تنبيها على أن الوصية من المهمات المقررة التى لا ينبغى أن يتهاون بها المسلم ويذهل عنها وقوله تعالى (اثنان) خبر المبتدا بتقدير المضاف أى شهادة بينكم حينئذ شهادة اثنين أو فاعل شهادة بينكم على أن خبرها محذوف أى فيما نزل عليكم أن يشهد بينكم اثنان . وقرئ شهادة بالرفع والتنوين والاعراب كما سبق. وقرئ شهادة بالنصب والتنوين على أن عاملها مضمر هو العامل فى اثنان أيضا أى ليقم شهادة بينكم اثنان (ذوا عدل منكم) أى من أقاربكم لانهم أعلم بأحوال الميت وأنصح له وأقرب الى تحرى ماهو أصلح له وقيل من المسلمين وهما صفتان لاثنان (أو آخران) عطف على اثنان تابع له فيما ذكر من الخبرية والفاعلية أى أو شهادة آخرين أو أن يشهد بينكم آخران أو ليقم شهادة بينكم آخران وقوله تعالى (من غيركم) صفة لآخران أى كائنان من غيركم أى من الأجانب وقيل من أهل الذمة وقد كان ذلك فى بدء الاسلام لعزة وجود المسلمين لاسيما فى السفر ثم نسخ وعن مكحول أنه نسخها قوله تعالى «وأشهدوا ذوى عدل منكم» (ان أنتم) مرفوع بمضمر يفسره مابعده تقديره ان ضربتم فلما حذف الفعل انفصل

الضمير وهذا رأى جمهور البصريين وذهب الاخفش والكوفيون الى أنه مبتدأ بناء على جواز وقوع المبتدا بعد أن الشرطية لجواز وقوعه بعد اذا فقوله تعالى (ضربتم فى الأرض) أى سافرتم فيها لا محل له من الاعراب عند الاولين لكونه مفسرا ومرفوع على الخبرية عند الباقين وقوله تعالى (فأصابتكم مصيبة الموت) عطف على الشرطية وجوابه محذوف لدلالة ماقبله عليه أى ان سافرتم فقاربكم الاجل حينئذ وما معكم من الاقارب أو من أهل الاسلام من يتولى أمر الشهادة كما هو الغالب المعتاد فى الاسفار فليشهد آخر ان أو فاستشهدوا آخرين أو فالشاهدان آخران كذا قيل والانسب أن يقدر عين ما سبق أي فآخران على معنى شهادة بينكم شهادة آخرين أو فان يشهد آخران على الوجوه المذكورة ثمة وقوله تعالى (تحبسونهما) استئناف وقع جوابا عما نشأ من اشتراط العدالة كأنه قيل فكيف نصنع ان ارتبنا بالشاهدين فقيل تحبسونهما أى تقفونهما وتصبرونهما للتحليف (من بعد الصلوة) وقيل هو صفة لآخران والشرط بجوابه المحذوف اعتراض فائدته الدلالة على أن اللائق اشهاد الاقارب أو أهل الاسلام وأما اشهاد الآخرين فعند الضرورة الملجئة اليه . وأنت خبير بأنه يقتضى اختصاص الحبس بالآخرين مع شموله للاولين أيضا قطعا على أن اعتبار اتصافهما بذلك يأباه مقام الامر بأشهادهما اذ مآله فآخران شأنهما الحبس والتحليف وان أمكن اتمام التقريب باعتبار قيد الارتياب بهما كما يفيده الاعتراض الآتى والمراد بالصلاة صلاة العصر وعدم تعيينها لتعينها عندهم بالتحليف بعدها لانه وقت اجتماع الناس ووقت تصادم ملائكة الليل وملائكة النهار ولان جميع أهل الاديان يعظمونه ويجتنبون فيه الحلف الكاذب وقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام وقتئذ حلف من حلف كما سيأتى. وقيل بعد أى صلاة كانت لانها داعية الى النطق بالصدق وناهية عن الكذب والزور ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (فيقسمان بالله) عطف على تحبسونهما وقوله تعالى (ان ارتبتم) شرطية محذوفة الجواب لدلالة ما سبق من الحبس والاقسام عليه سيقت من جهته تعالى معترضة بين القسم وجوابه للتنبيه على اختصاص الحبس والتحليف بحال الارتياب أى ان ارتاب بهما الوارث منكم بخيانة وأخذ شيء من التركة فاحبسوهما وحلفوهما بالله وقوله تعالى (لا نشترى به ثمنا) جواب للقسم وليس هذا من قبيل ما اجتمع فيه قسم وشرط فاكتفى بذكر جواب سابقهما عن جواب الآخر كما هو الواقع غالبا فان ذلك انما يكون عند سد جواب السابق مسد جواب اللاحق لاتحاد مضمونهما كما فى قولك: والله ان أتيتنى لأكرمنك ولا ريب فى استحالة ذلك ههنا لان القسم وجوابه كلاهما

وقد عرفت أن الشرط من جهته تعالى والاشتراء هو استبدال السلعة بالثمن أي أخذها بدلا منه لا بذله لتحصيلها كما قيل وان كان مستلزما له فان المعتبر في عقد الشراء ومفهومه هو الجلب دون السلب المعتبر في عقد البيع ثم استعير لاخذ شيء بازالة ما عنده عينا كان أو معنى على وجه الرغبة في المأخوذ والاعراض عن الزائل كما هو المعتبر في المستعار منه حسبما مر تفصيله في تفسير قوله تعالى «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى» والضمير في به لله والمعنى لا نأخذ لأنفسنا بدلا من الله أي من حرمته عرضا من الدنيا بأن نهتكها ونزيلها بالحلف الكاذب أي لا نحلف بالله كاذبين لاجل المال وقيل الضمير للقسم فلا بد من تقدير مضاف ألبتة أي لا نستبدل بصحة القسم بالله أي لا نأخذ لأنفسنا بدلا منها عرضا من الدنيا بان نزيل عنه وصف الصدق ونصفه بالكذب أي لا نحلف كاذبين كما ذكروا الا فلا سداد للمعنى سواء أريد به القسم الصادق أو الكاذب أما ان أريد به الكاذب فلانه يفوت حينئذ ما هو المعتبر في الاستعارة من كون الزائل شيئا مرغوبا فيه عند الحالف كحرمة اسم الله تعالى ووصف الصحة والصدق في القسم ولا ريب في أن القسم الكاذب ليس كذلك وأما ان أريد به الصادق فلانه وان أمكن أن يتوسل باستعماله الى عرض الدنيا كالقسم الكاذب لكن لا محذور فيه وأما التوسل اليه بترك استعماله فلا امكان له ههنا حتى يصح التبرؤ منه وانما يتوسل اليه باستعمال القسم الكاذب وليس استعماله من لوازم ترك استعمال الصادق ضرورة جواز تركهما معا حتى يتصور جعل ما أخذ باستعماله مأخوذا بترك استعمال الصادق كما في صورة تقدير المضاف فان ازالة وصف الصدق عن القسم مع بقاء الموصوف مستلزمة لثبوت وصف الكذب له ألبتة فتأمل وقوله تعالى (ولو كان) أي المقسم له المدلول عليه بفحوى الكلام (ذا قربى) أي قريبا منا تأكيد لتبرئهم من الحلف كاذبا ومبالغة في التنزه عنه كأنهما قالا لا نأخذ لأنفسنا بدلا من حرمة اسمه تعالى مالا ولو انضم اليه رعاية جانب الأقرباء فكيف اذا لم يكن كذلك وصيانة أنفسهما وان كانت أهم من رعاية الاقرباء لكنها ليست ضميمة للمال بل هي راجعة اليه وجواب لو محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه أي لا نشتري به ثمنا والجملة معطوفة على أخرى مثلها كما فصل في تفسير قوله تعالى «ولو أعجبك» الخ وقوله عز وجل (ولا نكتم شهادة الله) أي الشهادة التي أمرنا الله تعالى باقامتها معطوف على لا نشتري به داخل معه في حكم القسم وعن الشعبي أنه وقف على شهادة ثم ابتدأ آلله بالمد على حذف حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه وبغير مد كقولهم: ألله لأفعلن (انا اذا لمن الآثمين) أي ان كتمناها. وقرىء لملاثمين

بحذف الهمزة و ألقاء حركتها على اللام و ادخال النون فيها (فان عثر) أى طلع بعد التحليف (على انهما استحقا اثما) حسبما اعترفا به بقولهما انا اذا لمن الآثمين أى فعلا مايوجب اثما من تحريف وكتم بأن ظهر بأيديهما شيء من التركة وادعيا استحقاقهما له بوجه من الوجوه كما وقع فى سبب النزول حسبما سيأتى (فآخران) أي رجلان آخران وهو مبتدأ خبره (يقومان مقامهما) ولا محذور فى الفصل بالخبر بين المبتدا وبين وصفه الذى هو الجار والمجرور بعده أى يقومان مقام الذين عثر على خيانتهما وليس المراد بمقامهما مقام أداء الشهادة التى توليها و لم يؤدياها كما هى بل هو مقام الحبس والتحليف على الوجه المذكور لاظهار الحق و ابراز كذبهما فيما ادعيا من استحقاقهما لما فى أيديهما (من الذين استحق)على البناء للفاعل على قراءة على وابن عباس وأبى رضى الله عنهم أى من اهل الميت الذين استحق (عليهم الأوليان) من بينهم أى الاقربان الى الميت الوارثان له الاحقان بالشهادة أي باليمين كما ستعرفه ومفعول استحق محذوف أي استحقا عليهم أن يجردوهما للقيام بها لانهما حقهما و يظهروا بهما كذب الكاذبين وهما فى الحقيقة الآخران القائمان مقام الاولين على وضع المظهر مقام المضمر وقرىء على البناء للمفعول وهو الاظهر أى من الذين استحق عليهم الاثم أي جنى عليهم و هم أهل الميت وعشيرته فالاوليان مرفوع على أنه خبر لمبتدا محذوف كانه قيل ومن هما فقيل الأوليان أو هو بدل من الضمير فى يقومان أو من آخران وقد جوز ارتفاعه باستحق على حذف المضاف أي استحق عليهم انتداب الاولين منهم للشهادة . وقرىء الاولين على أنه صفة للذين الخ مجرور أو منصوب على المدح ومعنى الاولية التقدم على الأجانب فى الشهادة لكونهم أحق بها . و قرىء الأولين على التثنية و انتصابه على المدح وقرىء الاولان (فيقسمان بالله) عطف على يقومان (لشهادتنا) المراد بالشهادة اليمين كما فى قوله تعالى «فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله» أى ليميننا على أنهما كاذبان فيما ادعيا من الاستحقاق مع كونها حقة صادقة فى نفسها (أحق) بالقبول (من شهادتهما) أى من يمينهما مع كونها كاذبة فى نفسها لما أنه قد ظهر للناس استحقاقهما للاثم ويميننا منزهة عن الريب والريبة فصيغة التفضيل مع أنه لاحقية فى يمينهما رأسا انما هى لامكان قبولها فى الجملة باعتبار احتمال صدقهما فى ادعاء تملكهما لما ظهر فى أيديهما (وما اعتدينا) عطف على جواب القسم أي ماتجاوزنا فيها الحق أو ما اعتدينا عليهما بابطال حقهما (انا اذا لمن الظالمين)استئناف مقرر لما قبله أى أنا ان اعتدينا فى يميننا لمن الظالمين أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه بسبب هتك

حرمة اسم الله تعالى أو لمن الواضعين الحق في غير موضعه. ومعنى النظم الكريم أن المحتضر ينبغي أن يشهد على وصيته عدلين من ذوى نسبه أو دينه فان لم يجدهما بأن كان في سفر فآخران من غيرهم ثم ان وقع ارتياب بهما أقسما على انهما ما كتما من الشهادة ولا من التركة شيئا بالتغليظ في الوقت فان أطلع بعد ذلك على كذبهما بأن ظهر بايديهما شيء من التركة وادعيا تملكه من جهة الميت حلف الورثة وعمل بايمانهم. ولعل تخصيص الاثنين لخصوص الواقعة فانه روى أن تميم بن أوس الدارى وعدى بن يزيد خرجا الى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل بن أبي مريم مولى عمرو بن العاص وكان مسلما مهاجرا فلما قدموا الشام مرض بديل فكتب كتابا فيه جميع ما معه وطرحه في متاعه ولم يخبرهما بذلك وأوصى اليهما بأن يدفعا متاعه الى أهله ومات ففتشاه فوجدا فيه إناء من فضة وزنه ثلثمائة مثقال منقوشا بالذهب فغيباه ودفعا المتاع الى أهله فأصابوا فيه الكتاب فطلبوا منهما الاناء فقالا ماندرى انما أوصى الينا بشيء وأمرنا أن ندفعه اليكم ففعلنا وما لنا بالاناء من علم فرفعوهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم « فنزل يا أيها الذين آمنوا» الآية فاستحلفهما بعد صلاة العصر عند المنبر بالله الذى لا اله الا هو أنهما لم يختانا شيئا مما دفع ولا كتما فحلفا على ذلك فخلى عليه الصلاة والسلام سبيلهما ثم أن الاناء وجد بمكة فقال من بيده اشتريته من تميم وعدى. وقيل لما طالت المدة أظهراه فبلغ ذلك بنى سهم فطلبوه منهما فقالا كنا اشتريناه من بديل فقالوا ألم نقل لكما هل باع صاحبنا من متاعه شيئا فقلتما لا قالا ما كان لنا بينة فكرهنا أن نقر به فرفعوهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله عز وجل «فان عثر» الآية فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبى وداعة السهميان فحلفا بالله بعد العصر أنهما كذبا وخانا فدفع الاناء اليهما وفى رواية الى أولياء الميت واعلم أنهما ان كانا وارثين لبديل فلا نسخ الا فى وصف اليمين فان الوارث لا يحلف على البتات والا فهو منسوخ (ذلك) كلام مستأنف سيق لبيان أن ما ذكر مستتبع للمنافع وارد على مقتضى الحكمة والمصلحة أى الحكم الذي تقدم تفصيله (أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) أى أقرب الى أن يؤدى الشهود الشهادة على وجهها الذى تحملوها عليه من غير تحريف ولا خيانة خوفا من العذاب الاخروي وهذه كما ترى حكمة شرعية التحليف بالتغليظ المذكور وقوله تعالى (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) بيان لحكمة شرعية رد اليمين على الورثة معطوف على مقدر ينبيء عنه المقام كانه قيل ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاح على رءوس الاشهاد بابطال إيمانهم والعمل بايمان الورثة

فينزجروا عن الخيانة المؤدية اليه فاي الخوفين وقع حصل المقصد الذى هو الاتيان بالشهادة على وجهها وقيل هو عطف على يأتوا على معنى أن ذلك أقرب الى ان يأتوا بالشهادة على وجهها أو الى أن يخافوا الافتضاح برد اليمين على الورثة فلا يحلفوا على موجب شهادتهم ان لم يأتوا بها على وجهها فيظهر كذبهم بنكولهم وأما ماقيل من ان المعنى ان ذلك أقرب الى احد الامرين اللذين أيهما وقع كان فيه الصلاح أداء الشهادة على الصدق والامتناع عن ادائها على الكذب فيأباه المقام اذ لاتعلق له بالحادثة أصلا ضرورة أن الشاهد مضطر فيها الى الجواب فالامتناع عن الشهادة الكاذبة مستلزم للاتيان بالصادقة قطعا فليس هناك أمر ان أيهما وقع كان فيه الصلاح حتى يتوسط بينهما كلمة أو وانما يأتى ذلك فى شهود لم يتهموا بخيانة على أن إضافة الامتناع عن الشهادة الكاذبة الى خوف رد اليمين على الورثة ونسبة الاتيان بالصادقة الى غيره مع أن مايقتضى أحدهما يقتضى الآخر لامحالة تحكم بحت فتأمل (واتقوا الله) فى مخالفة أحكامه التى من جملتها هذا الحكم (واسمعوا) ماتؤمرون به كائناما كان سمع طاعة وقبول (والله لايهدى القوم الفاسقين) الخارجين عن الطاعة أى فان لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم فاسقين والله لايهدى القوم الفاسقين اى الى طريق الجنة أو الى مافيه نفعهم (يوم يجمع الله الرسل) نصب على انه بدل اشتمال من مفعول اتقوا لما بينهما من الملابسة فان مدار البدلية ليس ملابسة الظرفية والمظروفية ونحوها فقط بل هو تعلق ما مصحح لانتقال الذهن من المبدل منه الى البدل بوجه اجمالى كما فيما نحن فيه فان كونه تعالى خالق الاشياء كافة مالك يوم الدين خاصة كاف فى الباب مع أن الأمر بتقوى الله تعالى يتبادر منه الى الذهن أن المتقى أى شأن من شئونه وأى فعل من أفعاله وقيل هناك مضاف محذوف به يتحقق الاشتمال أى اتقوا عقاب الله فحينئذ يجوز انتصابه منه بطريق الظرفية وقيل منصوب بمضمر معطوف على اتقوا وما عطف عليه أي واحذروا أو واذكروا يوم الخ فان تذكير ذلك اليوم الهائل مما يضطرهم الى تقوى الله عز وجل وتلقى أمره بسمع الاجابة والطاعة وقيل هو ظرف لقوله تعالى لايهدى أى لايهديهم يومئذ الى طريق الجنة كما يهدى اليه المؤمنين وقيل منصوب بقوله تعالى واسمعوا بحذف مضاف أى اسمعوا خبر ذلك اليوم. وقيل منصوب بفعل مؤخر قد حذف للدلالة على ضيق العبارة عن شرحه وبيانه لكمال فظاعة ما يقع فيه من الطامة التامة والدواهى العامة كأنه قيل يوم يجمع الله الرسل فيقول الخ يكون من الاحوال والاهوال مالا يفى ببيانه نطاق المقال واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتربية المهابة وتشديد

التهويل وتخصيص الرسل بالذكر ليس لاختصاص الجمع بهم دون الامم كيف لاوذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وقد قال الله تعالى «يوم ندعو كل أناس بأمامهم» بل لابانة شرفهم وأصالتهم والايذان بعدم الحاجة الى التصريح بجمع غيرهم بناء على ظهور كونهم أتباعالهم ولاظهار سقوط منزلتهم وعدم لياقتهم بالانتظام فى سلك جمع الرسل كيف لاوهم عليهم السلام يجمعون على وجه الاجلال وأولئك يسحبون على وجوههم بالاغلال (فيقول) لهم مشيرا الى خروجهم عند عهدة الرسالة كما ينبغى حسبما يعرب عنه تخصيص السؤال بجواب الامم اعرابا واضحا والا لصدر الخطاب بأن يقال هل بلغتم رسالاتى و ماذا فى قوله عز وجل (ماذا أجبتم) عبارة عن مصدر الفعل فهو نصب على المصدرية أى أى اجابة أجبتم من جهة أممكم اجابة قبول أو أجابة رد وقيل عبارة عن الجواب فهو فى محل النصب بعد حذف الجار عنه أى بأى جواب أجبتم وعلى التقديرين ففى توجيه السؤال عما صدر عنهم وهم شهود الى الرسل عليهم السلام كسؤال الموءودة بمحضر من الوائد والعدول عن إسناد الجواب اليهم بان يقال ماذا أجابوا من الانباء عن كمال تحقير شأنهم وشدة الغيظ والسخط عليهم مالا يخفى (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا يقول الرسل عليهم السلام هنالك فقيل يقولون (لاعلم لنا) وصيغة الماضى للدلالة على التقرر والتحقق كما فى قوله تعالى «ونادى اصحاب الجنة ونادى أصحاب الاعراف» ونظائرهما وانما يقولون ذلك تفويضا للامر الى علمه تعالى واحاطته بما اعتراهم من جهتهم من مقاساة الاهوال ومعاناة الهموم والاوجال وعرضا لعجزهم عن بيانه لكثرته وفظاعته (انك أنت علام الغيوب) تعليل لذلك أى فتعلم ماأجابوا وأظهروا لنا ومالم نعلمه مما أضمروه فى قلوبهم وفيه إظهار للشكاة ورد للامر الى علمه تعالى بمالقوا من قبلهم من الخطوب وكابدوا من الكروب والالتجاء الى ربهم فى الانتقام منهم . وقيل المعنى لاعلم لنا بما أحدثوا بعدنا وانما الحكم للخاتمة ورد ذلك بأنهم يعرفونهم بسيماهم فكيف يخفى عليهم أمرهم وأنت خبير بان مرادهم حينئذ أن بعضهم كانوا فى زمانهم على الحق ثم صاروا كفرة . وعن ابن عباس ومجاهد والسدى رضى الله عنهم أنهم يفزعون من أول الامر ويذهلون عن الجواب ثم يجيبون بعدما ثابت اليهم عقولهم بالشهادة على أممهم ولايلائمه التعليل المذكور وقيل المراد به المبالغة فى تحقيق فضيحتهم . وقرئ علام الغيوب بالنصب على النداء أو الاختصاص بالمدح على أن الكلام قدتم عند قوله تعالى أنت أى انك أنت المنعوت بنعوت كمالك المعروف بذلك (اذ قال الله يعيسى ابن مريم) شروع فى بيان ماجرى بينه

تعالى و بين واحد من الرسل المجموعين من المفاوضة على التفصيل اثر بيان ما جرى بينه تعالى و بين الكل على وجه الاجمال ليكون ذلك كالأنموذج لتفاصيل أحوال الباقين وتخصيص شأن عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلا من بين شئون سائر الرسل عليهم السلام مع دلالتها على كمال هول ذلك اليوم ونهاية سوء حال المكذبين بالرسل لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نعيت عليهم فى السورة الكريمة جناياتهم فتفصيله أعظم عليهم وأجلب لحسرتهم وندامتهم و أفت فى أعضادهم وأدخل فى صرفهم عن غيهم وعنادهم واذ بدل من يوم يجمع الله الخ وصيغة الماضى لما ذكر من الدلالة على تحقق الوقوع واظهار الاسم الجليل فى مقام الاضمار لما مر من المبالغة فى التهويل وكلمة على فى قوله تعالى (اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك) متعلقة بنفس النعمة ان جعلت مصدرا أى اذكر إنعامى عليكما أو بمحذوف هو حال منها ان جعلت اسمها أي اذكر نعمتى كائنة عليكما وليس المراد بامره عليه السلام يومئذ بذكر النعمة المنتظمة فى سلك التعديد تكليفه عليه السلام شكرها و القيام بمواجبها ولات حين تكليف مع خروجه عليه السلام عن عهدة الشكر فى أوانه أى خروج بل اظهار أمره عليه السلام بتعداد تلك النعم حسبما بينه الله تعالى اعتدادا بها و تلذذا بذكرها على رءوس الاشهاد لتكون حكاية ذلك على ما أنبأ عنه النظم الكريم توبيخا و مزجرة للكفرة المختلفين فى شأنه عليه السلام افراطا وتفريطا وابطالا لقولهما جميعا (اذا أيدتك) ظرف لنعمتى أى اذكر انعامى عليكما وقت تأييدى لك أو حال منها أي اذكرها كائنة وقت تاييدى لك وقرىء آيدتك والمعنى واحد أى قويتك (بروح القدس) بجبريل عليه السلام لتثبيت الحجة أو بالكلام الذى يحيى به الدين واضافته الى القدس لانه سبب الطهر عن أوضار الآثام أو يحيى به الموتى أو النفوس حياة أبدية وقيل الارواح مختلفة الحقائق فمنها طاهرة نورانية ومنها خبيثة ظلمانية ومنها مشرقة ومنها كدرة ومنها حرة ومنها نذلة وكان روحه عليه السلام طاهرة مشرقة نورانية علوية وأياما كان فهو نعمة عليهما (تكلم الناس فى المهد وكهلا) استئناف مبين لتأييده عليه السلام أو حال من الكاف وذكر تكليمه عليه السلام فى حال الكهولة لبيان أن كلامه عليه السلام فى تينك الحالتين كان على نسق واحد بديع صادرا عن كمال العقل مقارنا لرزانة الرأى والتدبير وبه استدل على أنه عليه السلام سينزل من السماء لما أنه عليه السلام رفع قبل التكهل قال ابن عباس رضى الله عنهما أرسله الله تعالى وهو ابن ثلاثين سنة ومكث فى رسالته ثلاثين

شهرا ثم رفعه الله تعالى اليه (واذ علمتك الكتاب) عطف على قوله تعالى اذ أيدتك منصوب بما نصبه أى أذكر نعمتى عليكما وقت تعليمى لك الكتاب (والحكمة) أى جنسهما (والتوراة والانجيل) خصا بالذكر مما تناوله الكتاب والحكمة اظهارا لشرفهما وقيل الكتاب الخط والحكمة الكلام المحكم الصواب (واذ تخلق من الطين كهيئة الطير) أى تصور منه هيئة مماثلة لهيئة الطير (باذنى) بتسهيلى وتيسيرى لا على أن يكون الخلق صادرا عنه عليه السلام حقيقة بل على أن يظهر ذلك على يده عليه السلام عند مباشرة الأسباب مع كون الخالق حقيقة لله تعالى كما ينبىء عنه قوله تعالى (فتنفخ فيها) أى فى الهيئة المصورة (فتكون) أى تلك الهيئة (طيرا باذنى) فان اذنه تعالى لو لم يكن عبارة عن تكوينه تعالى للطير بل عن محض تيسيره مع صدور الفعل حقيقة عما أسند اليه لكان هذا تكونا من جهة الهيئة وتكرير قوله باذنى فى الطير مع كونه شيئا واحدا للتنبيه على أن كلا من التصوير والنفخ أمر معظم بديع لا يتسنى ولا يترتب عليه شيء الا باذنه تعالى (وتبرىء الاكمه والابرص باذنى) عطف على تخلق (واذ تخرج الموتى باذنى) عطف على اذ تخلق أعيد فيه اذ لكون اخراج الموتى من قبورهم لاسيما بعد ماصارت رميما معجزة باهرة ونعمة جليلة حقيقة بتذكير وقتها صريحا. قيل أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية وتكرير قوله باذنى فى المواضع الاربعة للاعتناء بتحقيق الحق ببيان أن تلك الخوارق ليست من قبل عيسى عليه الصلاة والسلام بل من جهته سبحانه قد أظهرها على يديه معجزة له ونعمة خصها به وأما ذكره فى سورة آل عمران مرتين لما أن ذلك موضع الاخبار وهذا موضع تعداد النعم (واذ كففت بنى اسرائيل عنك) عطف على اذ تخرج أى منعت اليهود الذين أرادوا بك السوء عن التعرض لك (اذ جئتهم بالبينات) بالمعجزات الواضحة مما ذكر ومالم يذكر كالاخبار بما يأكلون ومايدخرون فى بيوتهم ونحو ذلك وهو ظرف لكففت لكن لا باعتبار المجىء بها فقط بل باعتبار مايعقبه من قوله تعالى (فقال الذين كفروا منهم ان هذا الاسحر مبين) فان قولهم ذلك مما يدل على أنهم قصدوا اغتياله عليه السلام المحوج الى الكف أي كففتهم عنك حين قالوا ذلك عند مجيئك اياهم بالبينات وانما وضع موضع ضميرهم الموصول لذمهم بما فى حيز الصلة فكلمة من بيانية وهذا اشارة الى ماجاء به والتذكير لان اشارتهم الى مارأوه من نفس المسمى من حيث هو أو من حيث هو سحر لا من حيث هو مسمى بالبينات وقرىء ان هذا إلا ساحر مبين فهذا حينئذ إشارة الى عيسى عليه السلام (واذ أوحيت الى الحواريين) عطف على ما قبله من اخواتها الواقعة ظروفا

للنعمة التى أمر بذكرها وهي وان كانت فى الحقيقة عين ما يفيده الجمل التى أضيف اليها تلك الظروف من التأييد بروح القدس وتعليم الكتاب والحكمة وسائر الخوارق المعدودة لكنها لمغايرتها لها بعنوان منبيء عن غاية الاحسان أمر بذكرها من تلك الحيثية وجعلت عاملة فى تلك الظروف لكفاية المغايرة الاعتبارية فى تحقيق ما اعتبر فى مدلول كلمة اذ من تعدد النسبة فانه ظرف موضوع لزمان نسبتين ماضيتين واقعتين فيه احداهما معلومة الوقوع فيه للمخاطب دون الاخرى فيراد افادة وقوعها أيضا له فيضاف الى الجملة المفيدة للنسبة الاولى و يجعل ظرفا معمولا للنسبة الثانية ثم قد تكون المغايرة بين النسبتين بالذات كما فى قولك: اذكر احسانى اليك اذ أحسنت الى تريد تنبيه المخاطب على وقوع احسانك اليه وقت وقوع احسانه اليك وهما نسبتان متغايرتان بالذات وقد تكون بالاعتبار كما فى قولك اذكر احسانى اليك اذ منعتك من المعصية تريد تنبيهه على كون منعه منها احسانا اليه لا على احسان آخر واقع حينئذ ومن هذا القبيل عامة ما وقع فى التنزيل من قوله تعالى «ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا» الآية وقوله تعالى «ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذهم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم» الى غير ذلك من النظائر ومعنى ايحائه تعالى اليهم أمره تعالى اياهم فى الانجيل على لسانه عليه السلام وقيل الهامه تعالى اياهم كما فى قوله تعالى «وأوحينا الى أم موسى» وأن فى قوله تعالى (أن آمنوا بى و برسولى) مفسرة لما فى الايحاء من معنى القول . وقيل مصدرية وايراده عليه السلام بعنوان الرسالة للتنبيه على كيفية الايمان به عليه السلام كأنه قيل آمنوا بوحدانيتي فى الالوهية والربوبية وبرسالة رسولى ولا تزيلوه عن حيزه حطا ولا رفعا وقوله تعالى (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من سوق الكلام كأنه قيل فماذا قالوا حين أوحى اليهم ذلك فقيل قالوا (آمنا) أى بما ذكر من وحدانيته تعالى و برسالة رسوله كما يؤذن به قولهم (واشهد باننا مسلمون) أي مخلصون فى ايماننا من أسلم وجهه لله وهذا القول منهم بمقتضى وحيه تعالى وامره لهم بذلك نعمة جليلة كسائر النعم الفائضة عليه عليه الصلاة و السلام وكل ذلك نعمة على والدته أيضا روى أنه عليه السلام لما علم أنه سيؤمر بذكر هاتيك النعم العظام جعل يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يدخر شيئا لغد يقول «لكل يوم رزقه ومن لم يكن له بيت فيخرب ولا ولد فيموت أينما أمسى بات » (اذ قال الحواريون) كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ما جرى بينه عليه السلام و بين قومه منقطع عما قبله كما ينبيء عنه الاظهار فى موقع الاضمار واذ منصوب بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام

بطريق تلوين الخطاب والالتفات لكن لا لأن الخطاب السابق لعيسى عليه السلام فانه ليس بخطاب وانما هو حكاية خطاب بل لان الخطاب لمن خوطب بقوله تعالى «واتقوا الله» الآية فتأمل كانه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم عقيب حكاية ما صدر عن الحواريين من المقالة المعدودة من نعم الله تعالى الفائضة على عيسى عليه السلام اذكر للناس وقت قولهم الخ وقيل هو ظرف لقالوا أريد به التنبيه على أن ادعاءهم الايمان والاخلاص لم يكن عن تحقيق وايقان ولا يساعده النظم الكريم (يعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) اختلف فى أنهم هل كانوا مؤمنين أولا فقيل كانوا كافرين شاكين فى قدرة الله تعالى على ما ذكروا وفى صدق عيسى عليه السلام كاذبين فى دعوى الايمان والاخلاص . وقيل كانوا مؤمنين وسؤالهم للاطمئنان والتثبت لا لازاحة الشك وهل يستطيع سؤال عن الفعل دون القدرة عليه تعبيرا عنه بلازمه وقيل الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والارادة لا على ما تقتضيه القدرة وقيل المعنى هل يطيع ربك بمعنى هل يجيبك واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب بمعنى أجاب . وقرىء هل تستطيع ربك أى سؤال ربك والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عنه وهى قراءة على وعائشة وابن عباس ومعاذ رضى الله عنهم وسعيد بن جبير فى آخرين والمائدة الخوان الذى عليه طعام من ماده اذا أعطاه ورفده كأنها تميد من تقدم اليه ونظيره قولهم شجرة مطعمة وقال أبو عبيد هى فاعلة بمعنى مفعولة كعيشة راضية (قال) استئناف مبني على سؤال ناشىء مما قبله كأنه قيل فماذا قال لهم عيسى عليه السلام حين قالوا ذلك فقيل قال (اتقوا الله) أى من أمثال هذا السؤال (إن كنتم مؤمنين) بكمال قدرته تعالى وبصحة نبوتى أو ان صدقتم فى ادعاء الايمان والاسلام فان ذلك مما يوجب التقوي والاجتناب عن أمثال هذه الاقتراحات وقيل أمرهم بالتقوي ليصير ذلك ذريعة لحصول المسئول كقوله تعالى «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب» وقوله تعالى «يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة» (قالوا) استئناف كما سبق (نريد أن نأكل منها) تمهيد عذر وبيان لما دعاهم الى السؤال أى لسنا نريد بالسؤال أزاحة شبهتنا فى قدرته سبحانه على تنزيلها أو فى صحة نبوتك حتى يقدح ذلك فى الايمان والتقوى بل نريد أن نأكل منها أى أكل تبرك وقيل أكل حاجة وتمتع (وتطمئن قلوبنا) بكمال قدرته تعالى وان كنا مؤمنين به من قبل فان انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالى مما يوجب ازدياد الطمأنينة وقوة اليقين (ونعلم) أى علماً يقينياً لا يحوم حوله شائبة شبهة أصلا . وقرىء

ليعلم على البناء للمفعول (أن قد صدقتنا) أن هي المخففة من أن وضمير الشان محذوف أي ونعلم أنه قد صدقتنا في دعوي النبوة وأن الله يجيب دعوتنا وان كنا عالمين بذلك من قبل (ونكون عليها من الشاهدين) نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بنى اسرائيل ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة و يقيناً ويؤمن بسببها كفارهم أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر وعليها متعلق بالشاهدين ان جعل اللام للتعريف و بيان لما يشهدون عليه ان جعلت موصولة كأنه قيل على أي شيء يشهدون فقيل عليها فان مايتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول أو هو حال من اسم كان أو هو متعلق بمحذوف يفسره من الشاهدين (قال عيسى ابن مريم) لما رأي عليه السلام أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك وانهم لايقلعون عنه أزمع على استدعائها واستنزالها وأراد أن يلزمهم الحجة بكمالها روى أنه عليه الصلاة والسلام اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين فطأطأ رأسه وغض بصره ثم قال (اللهم ربنا) ناداه سبحانه وتعالي مرتين مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية اظهارا لغاية التضرع ومبالغة في الاستدعاء (أنزل علينا) تقديم الظرف على قوله (مائدة) لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر وقوله (من السماء) متعلق بأنزل أو بمحذوف هو صفة لمائدة أي كائنة من السماء نازلة منها وقوله (تكون لنا عيداً) في محل النصب على أنه صفة لمائدة واسم تكون ضمير المائدة وخبرها إما عيداً ولنا حال منه أو من ضمير تكون عند من يجوز اعمالها في الحال وأما لنا وعيدا حال من الضمير في لنا لانه وقع خبرا فيحمل ضميرا . أو من ضمير تكون عند من يرى ذلك أي يكون يوم نزولها عيدا نعظمه وانما اسند ذلك الى المائدة لان شرف اليوم مستعار من شرفها وقيل العيد السرور العائد ولذلك سمي يوم العيد عيدا . وقرئ تكن بالجزم على جواب الامر كما في قوله تعالى «فهب لى من لدنك وليا يرثنى» خلا ان قراءة الجزم هناك متواترة وههنا من الشواذ (لأولنا وآخرنا) بدل من لنا باعادة العامل أي عيدا لمتقدمينا ومتأخرينا روى أنها نزلت يوم الاحد ولذلك اتخذه النصارى عيدا وقيل للرؤساء منا والاتباع وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا وقرئ لأولانا وأخرانا بمعنى الأمة والطائفة (وآية) عطف على عيدا (منك) متعلق بمحذوف هو صفة لآية أى كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتى (وارزقنا) أى المائدة أو الشكر عليها (وأنت خير الرازقين) تذييل جار مجري التعليل أي خير من يرزق لانه خالق الارزاق ومعطيها بلا عوض وفى اقباله عليه السلام على الدعاء بتكرير

النداء المنبئ عن كمال الضراعة والابتهال و زيادته مالم يخطر ببال السائلين من الامور الداعية الى الاجابة و القبول دلالة واضحة على انهم كانوا مؤ منين وأن سؤالهم كان لتحصيل الطمأنينة كما فى قول ابراهيم عليه السلام «رب أرنى كيف تحيي الموتى» والا لما قبل اعتذارهم بما ذكروه ولما أضاف اليه من عنده مايؤكده ويقربه الى القبول (قال الله) استئناف كما سبق (انى منزلها عليكم) وورود الاجابة منه تعالى بصيغة التفعيل المنبئة عن التكثير مع كون الدعاء منه عليه السلام بصيغة الأفعال لاظهار كمال اللطف والاحسان كما فى قوله تعالى « قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب» الخ بعد قوله تعالى «لئن أنجانا من هذه» الخ مع مافيه من مراعاة ماوقع فى عبارة السائلين . وفى تصدير الجملة بكلمة التحقيق وجعل خبرها اسما تحقيق للوعد وايذان بانه تعالى منجز له لامحالة من غير صارف يثنيه ولا مانع يلويه واشعار بالاستمرار أى انى منزل المائدة عليكم مرات كثيرة . وقرىء بالتخفيف وقيل الانزال والتنزيل بمعنى واحد (فمن يكفر بعد) أى بعد تنزيلها (منكم) متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل يكفر (فانى أعذبه) بسبب كفره بعد معاينة هذه الآية الباهرة (عذابا) اسم مصدر بمعنى التعذيب وقيل مصدر بحذف الزوائد وانتصابه على المصدرية بالتقديرين المذكورين وجوز أن يكون مفعولا به على الاتساع وقوله تعالى (لا أعذبه) فى محل النصب على أنه صفة لعذابا والضمير له أى أعذبه تعذيبا لاأعذب مثل ذلك التعذيب (أحدا من العالمين) أى من عالمي زمانهم أو من العالمين جميعا قيل لما سمعوا هذا الوعيد الشديد خافوا أن يكفر بعضهم فاستعفوا وقالوا لانريدها فلم تنزل وبه قال مجاهد والحسن رحمهما الله والصحيح الذى عليه جماهير الأمة ومشاهير الائمة أنها قد نزلت روى أنه عليه السلام لما دعا بما دعا وأجيب بما أجيب اذا بسفرة حمراء نزلت بين غمامتين غمامة من فوقها و غمامة من تحتها وهم ينظرون اليها حتى سقطت بين أيديهم فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال «اللهم اجعلنى من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة للعالمين ولاتجعلها مثلة وعقوبة» ثم قام وتوضأ وصلى و بكى ثم كشف المنديل وقال بسم الله خير الرازقين فاذا سمكة مشوية بلافلوس ولاشوك تسيل دسما وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ماخلا الكراث واذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثانى عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون رأس الحواريين ياروح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة قال ليس منهما ولكنه شيء اخترعه الله تعالى بالقدرة العالية كلوا ماسألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله فقالوا ياروح

الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال ياسمكة أحي باذن الله فاضطربت ثم قال لها عودى كما كنت فعادت مشوية ثم طارت المائدة ثم عصوا فسخوا قردة وخنازير وقيل كانت تأتيهم أربعين يوما غبا يجتمع عليها الفقراء والاغنياء والصغار والكبار يأكلون حتى اذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون فى ظلها ولم يأكل منها فقير الاغنى مدة عمره ولا مريض الابرىء ولم يمرض أبدا ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أن اجعل مائدتى فى الفقراء والمرضى دون الاغنياء والاصحاء فاضطرب الناس لذلك فمسخ منهم من مسخ فاصبحوا خنازير يسعون فى الطرقات والكناسات ويأكلون العذرة فى الحشوش فلما رأى الناس ذلك فزعوا الى عيسى عليه السلام وبكوا على الممسوخين فلما أبصرت الخنازير عيسى عليه السلام بكت وجعلت تطيف به وجعل يدعوهم بأسمائهم واحدا بعد واحد فيبكون ويشيرون برءوسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عيسى عليه السلام قال لهم صوموا ثلاثين يوما ثم سلوا الله ماشئتم يعطكم فصاموا فلما فرغوا قالوا انا لو عملنا لاحد فقضينا عمله لأطعمنا وسألوا الله تعالى المائدة فاقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم قال كعب نزلت منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والارض عليها كل الطعام الااللحم . وقال قتادة كان عليها ثمر من ثمار الجنة وقال عطية العوفى نزلت من السماء سمكة فيها طعم كل شىء وقال الكلبى ومقاتل نزلت سمكة وخمسة أرغفة فأكلوا ماشاء الله تعالى والناس ألف ونيف فلما رجعوا الى قراهم ونشروا الحديث ضحك منهم من لم يشهد وقالوا ويحكم انما سحر أعينكم فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرة ومن أراد فتنته رجع الى كفره فمسخوا خنازير فمكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا وكذلك كل ممسوخ (واذ قال الله ياعيسى ابن مريم) معطوف على اذ قال الحواريون منصوب بما نصبه من المضمر المخاطب به النبى صلى الله عليه وسلم أو بمضمر مستقل معطوف على ذلك أى اذكر للناس وقت قول الله عز وجل له عليه السلام فى الآخرة توبيخا للكفرة وتبكيتا لهم باقراره عليه السلام على رءوس الاشهاد بالعبودية وأمره لهم بعبادته عز وجل وصيغة الماضى لما مر من الدلالة على التحقق والوقوع (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين) الاتخاذ اما متعد الى مفعولين فالهين ثانيهما وأما الى واحد فهو حال من المفعول وليس مدار أصل الكلام أن القول متيقن والاستفهام لتعيين القائل كما هو المتبادر من إيلاء الهمزة

المبتدأ على الاستعمال الفاشي وعليه قوله تعالى «أأنت فعلت هذا بآلهتنا» ونظائره بل على أن المتيقن هو الاتخاذ والاستفهام لتعيين أنه بأمره عليه السلام أو من تلقاء أنفسهم كما في قوله تعالى «أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل» وقوله تعالى (من دون الله) متعلق باتخذوا ومحله النصب على أنه حال من فاعله أي متجاوزين الله أو بمحذوف هو صفة لإلهين أي كائنين من دونه تعالى وأياما كان فالمراد اتخاذهما بطريق إشراكهما به سبحانه كما في قوله تعالى «ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا» وقوله عز وجل «ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله الى قوله سبحانه وتعالى عما يشركون» إذ به يتأتى التوبيخ ويتسنى التقريع والتبكيت ومن توهم أن ذلك بطريق الاستقلال ثم اعتذر عنه بأن النصارى يعتقدون أن المعجزات التى ظهرت على يد عيسى ومريم عليهما الصلاة والسلام لم يخلقها الله تعالى بل هما خلقاها فصح انهم اتخذوهما في حق بعض الاشياء إلهين مستقلين ولم يتخذوه تعالى إلها في حق ذلك البعض فقد أبعد عن الحق بمراحل. وأما من تعمق فقال أن عبادته تعالى مع عبادة غيره كلا عبادة فمن عبده تعالى مع عبادتهما كأنه عبدهما ولم يعبده تعالى فقد غفل عما يجديه واشتغل بما لا يعنيه كدأب من قبله فان توبيخهم انما يحصل بما يعتقدونه ويعترفون به صريحا لا بما يلزمه بضرب من التأويل. وإظهار الاسم الجليل لكونه في حيز القول المسند الى عيسى عليه السلام (قال) استئناف مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل فماذا يقول عيسى عليه السلام حينئذ فقيل يقول. وإيثار صيغة الماضي لما مر مرارا (سبحانك) سبحان علم للتسبيح وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه وفيه من المبالغة في التنزيه من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد في الأرض ومن جهة النقل الى صيغة التفعيل ومن جهة العدول من المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة المشير الى الحقيقة الحاضرة في الذهن ومن جهة إقامته مقام المصدر مع الفعل ما لا يخفى أي أنزهك تنزيها لائقا بك من أن أقول ذلك أو من أن يقال في حقك ذلك وأما تقدير من أن يكون لك شريك في الألوهية فلا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى (ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) استئناف مقرر للتنزيه ومبين للمنزه منه وما عبارة عن القول المذكور أي ما يستقيم وما ينبغي لي أن أقول قولا لا يحق لي أن أقوله. وإيثار ليس على الفعل المنفي لظهور دلالته على استمرار انتفاء الحقية وافادة التأكيد بما في حيزه من الباء فان اسمه ضميره العائد الى ما وخبره بحق والجار والمجرور فيما بينهما للتبيين كما في سقيا لك ونحوه وقوله تعالى (ان كنت قلته

فقد علمته) استئناف مقرر لعدم صدور القول المذكور عنه عليه السلام بالطريق البرهاني فان صدور ه عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعا لحيث انتفى علمه تعالى به انتفى صدور ه عنه حتما ضرورة أن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم (تعلم ما في نفسي) استئناف جار مجرى التعليل لما قبله كأنه قيل لأنك تعلم ما أخفيه في نفسي فكيف بما أعلنه وقوله تعالى (ولا أعلم ما في نفسك) بيان للواقع و إظهار لقصوره أي ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك و قوله في نفسك للمشاكلة وقيل المراد بالنفس هو الذات ونسبة المعلومات اليها لما أنها مرجع الصفات التي من جملتها العلم المتعلق بها فلم يكن كنسبتها الى الحقيقة وقوله تعالى (انك أنت علام الغيوب) تعليل لمضمون الجملتين منطوقا ومفهوما وقوله تعالى (ماقلت لهم الا ما أمرتني به) استئناف مسوق لبيان ماصدر عنه قد أدرج فيه عدم صدور القول المذكور عنه على أبلغ وجه وآكده حيث حكم بانتفاء صدور جميع الأقوال المغايرة للمأمور به فدخل فيه انتفاء صدور القول المذكور دخولا أوليا أي ماأمرتهم الا بما أمرتني به وانما قيل ماقلت لهم نزولا على قضية حسن الادب ومراعاة لما ورد في الاستفهام وقوله تعالى (ان اعبدوا الله ربي و ربكم) تفسير للمأمور به وقيل عطف بيان للضمير في به وقيل بدل منه وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقا ليلزم بقاء الموصول بلا عائد وقيل خبر مضمر أو مفعول له مثل هو أو أعني (وكنت عليهم شهيدا) رقيبا أراعي أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك و أمنعهم عن المخالفة أو مشاهدا لاحوالهم من كفر و أيمان (مادمت فيهم) ما مصدرية ظرفية تقدر بمصدر مضاف اليه زمان ودمت صلتها أي كنت شهيدا عليهم مدة دوامي فيما بينهم (فلما توفيتني) بالرفع الى السماء كما في قوله تعالى «اني متوفيك و رافعك الي فان التوفي أخذ الشيء وافيا والموت نوع منه قال تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها و التي لم تمت في منامها (كنت أنت الرقيب عليهم) لاغيرك فأنت ضمير الفصل أو تأكيد وقرئ الرقيب بالرفع على أنه خبر أنت والجملة خبر لكان وعليهم متعلق به أي أنت كنت الحافظ لأعمالهم والمراقب فمنعت من أردت عصمته عن المخالفة بالأرشاد الى الدلائل و التنبيه عليها بارسال الرسل وأنزال الآيات وخذلت من خذلت من الضالين فقالوا ماقالوا (وأنت على كل شيء شهيد) اعتراض تذييلي مقرر لما قبله . وفيه ايذان بانه تعالى كان هو الشهيد على الكل حين كونه عليه السلام فيما بينهم وعلى متعلقة بشهيد و التقديم لمراعاة الفاصلة (إن تعذبهم فانهم عبادك) وقد استحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك (وان تغفر لهم فانك أنت العزيز) أي القوي القادر على جميع المقدورات ومن جملتها الثواب والعقاب

(الحكيم) الذي لا يريد ولا يفعل الا مافيه حكمة ومصلحة فان المغفرة مستحسنة لكل مجرم فان عذبت فعدل وان غفرت ففضل و عدم غفران الشرك انما هو بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع الترديد . وقيل الترديد بالنسبة الى فرقتين و المعنى ان تعذبهم أى من كفر منهم وان تغفر لهم أى من آمن منهم (قال الله) كلام مستأنف ختم به حكاية ماحكى مما يقع يوم يجمع الله الرسل عليهم الصلاة والسلام وأشير الى نتيجته و مآله أى يقول الله تعالى يومئذ عقيب جواب عيسى عليه السلام مشيرا الى صدقه فى ضمن بيان حال الصادقين الذين هو فى زمرتهم و صيغة الماضى لما مر فى نظائره مرارا وقوله تعالى (هذا) اشارة الى ذلك اليوم وهو مبتدأ خبره ما بعده أى هذا اليوم الذى حكى بعض مايقع فيه اجمالا و بعضه تفصيلا (يوم ينفع الصادقين) بالرفع والاضافة والمراد بالصادقين كما ينبىء عنه الاسم المستمرون فى الدارين على الصدق فى الامور الدينية التي معظمها التوحيد الذى نحن بصدده والشرائع والاحكام المتعلقة به من الرسل الناطقين بالحق والصدق الداعين الى ذلك و به تحصل الشهادة بصدق عيسى عليه السلام و من الامم المصدقين لهم المقتدين بهم عقدا وعملا و به يتحقق المقصود بالحكاية من ترغيب السامعين فى الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم لا كل من صدق فى أى شيء كان ضرورة ان الجانى المعترف فى الدنيا بجنايته لا ينفعه يومئذ اعترافه وصدقه (صدقهم) أى صدقهم فيما ذكر من أمور الدين فى الدنيا اذهو المستتبع للنفع يومئذ واعتبار استمراره فى الدارين مع أنه لا حاجة اليه كما عرفت ولا دخل له فى استتباع النفع و الجزاء مما لا وجه له وهذه القراءة هى التى أطبق عليها الجمهور وهى الأليق بسياق النظم الكريم وسياقه وقد قرىء يوم بالنصب إما على أنه ظرف لقال فهذا حينئذ اشارة الى قوله تعالى «أأنت قلت» الخ وأما على انه خبر لهذا فهو حينئذ اشارة الى جواب عيسى عليه السلام أي هذا الجواب منه عليه السلام واقع يوم ينفع الخ أو الى السؤال والجواب معا وقيل هو خبر ولكنه بنى على الفتح وليس بصحيح عند البصريين لانه مضاف الى متمكن. وقرىء يوم بالرفع و التنوين كقوله تعالى «واتقوا يوما لا تجزى» الآية (لهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا) استئناف مسوق لبيان النفع المذكور كأنه قيل مالهم من النفع فقيل لهم نعيم دائم وثواب خالد وقوله تعالى (رضى الله عنهم) استئناف آخر لبيان أنه عز وجل أفاض عليهم غير ماذكر من الجنات مالا قدر لها عنده وهو رضوانه الذى لا غاية وراءه كما ينبىء عنه قوله تعالى (ورضوا عنه) اذ لا شيء أعز منه حتى تمتد اليه أعناق الهمم (ذلك) اشارة الى نيل

رضوانه تعالى وقيل الى نيل الكل (الفوز العظيم) لما أن عظم شأن الفوز تابع لعظم شأن المطلوب الذى تعلق به الفوز وقد عرفت أن لا مطلب وراء ذلك أصلا وقوله تعالى (لله ملك السموات والأرض ومافيهن) تحقيق للحق وتنبيه على كذب النصارى وفساد مازعموا فى حق المسيح وأمه أى له تعالى خاصة ملك السموات والأرض وما فيهما من العقلاء وغيرهم يتصرف فيها كيف يشاء إيجاداً واعداما وإحياء واماتة وأمرا ونهيا من غير أن يكون لشيء من الأشياء مدخل فى ذلك. وفى إيثار ما على من المختصة بالعقلاء على تقدير تناولها للكل مراعاة للأصل واشارة الى تساوى الفريقين فى استحالة الربوبية حسب تساويهما فى تحقق المربوبية وعلى تقدير اختصاصها بغير العقلاء تنبيه على كمال قصورهم عن رتبة الألوهية واهانة بهم بتغليب غيرهم عليهم (وهو على كل شيء) من الاشياء (قدير) مبالغ فى القدرة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المائدة أعطى من الاجر عشر حسنات ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودى ونصرانى يتنفس فى الدنيا .

(سورة الأنعام مكية غير ست آيات أو ثلاث من قوله تعالى)
(قل تعالوا أتل وهى مائة وخمس وستون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله) تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة أولا باسم الذات الذى عليه يدور كافة ما يوجبه من صفات الكمال واليه يؤل جميع نعوت الجلال والجمال للايذان بأنه عز وجل هو المستحق له بذاته لما مر من اقتضاء اختصاص الحقيقة به سبحانه لاقتصار جميع أفرادها عليه بالطريق البرهانى ووصفه تعالى ثانيا بما ينبىء عن تفصيل بعض موجباته المنتظمة فى سلك الاجمال من عظائم الآثار وجلائل الأفعال من قوله عز وجل (الذى خلق السموات والارض) للتنبيه على استحقاقه تعالى له واستقلاله به باعتبار أفعاله العظام وآلائه الجسام أيضا. وتخصيص خلقهما بالذكر لاشتمالها على جملة الآثار العلوية والسفلية وعامة الآلاء الجلية والخفية التى أجلها نعمة الوجود الكافية فى إيجاب حمده تعالى على كل موجود فكيف بما يتفرع عليها من فنون النعم الانفسية والآفاقية المنوط بها مصالح العباد فى المعاش والمعاد أى أنشأهما على ماهما عليه من النمط الفائق والطراز الرائق منطويتين من أنواع البدائع وأصناف الروائع على ما تتحير فيه العقول والافكار من تعاجيب العبر والآثار تبصرة وذكرى لأولى الابصار وجمع السموات لظهور تعدد طبقاتها واختلاف آثارها وحركاتها. وتقديمها لشرفها وعلو مكانها وتقدمها وجوداً على

الارض كما هى (وجعل الظلمات والنور) عطف على خلق مترتب عليه لكون جعلهما مسبوقا بخلق منشئهما ومحلهما داخل معه فى حكم الأشعار بعلة الحمد فكما أن خلق السموات والأرض وما بينهما لكونه أثرا عظيما ونعمة جليلة موجب لاختصاص الحمد بخالقهما جل وعلا كذلك جعل الظلمات والنور لكونه أمرا خطيرا ونعمة عظيمة مقتض لاختصاصه بجاعلهما. والجعل هو الانشاء والابداع كالخلق خلا ان ذلك مختص بالانشاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما فى الآية الكريمة وللتشريعى أيضا كما فى قوله تعالى «ماجعل الله من بحيرة» الآية وأياما كان ففيه أنباء عن ملابسة مفعوله بشيء آخر بأن يكون فيه أوله أو منه أو نحو ذلك ملابسة مصححة لأن يتوسط بينهما شيء من الظروف لغوا كان أو مستقرا لكن لا على أن يكون عمدة فى الكلام بل قيدا فيه كما فى قوله عز وجل «وجعل بينهما برزخا وقوله تعالى وجعل فيها رواسى وقوله تعالى واجعل لنا من لدنك وليا» الآية فان كل واحد من هذه الظروف اما متعلق بنفس الجعل أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله تقدمت عليه لكونه نكرة وأياما كان فهو قيد فى الكلام حتى اذا اقتضى الحال وقوعه عمدة فيه يكون الجعل متعديا الى اثنين هو ثانيهما كما فى قوله تعالى «يجعلون أصابعهم فى آذانهم» وربما يشتبه الامر فيظن أنه عمدة فيه وهو فى الحقيقة قيد بأحد الوجهين كما سلف فى قوله تعالى «انى جاعل فى الأرض خليفة» حيث قيل إن الظرف مفعول ثان لجاعل وقد أشير هناك الى أن الذى يقضى به الذوق السليم وتقتضيه جزالة النظم الكريم أنه متعلق بجاعل أو بمحذوف وقع حالا من المفعول وان المفعول الثانى هو خليفة وأن الاول محذوف على مامر تفصيله . وجمع الظلمات لظهور كثرة أسبابها ومحالها عند الناس ومشاهدتهم لها على التفصيل . وتقديمها على النور لتقدم الاعدام على الملكات مع مافيه من رعاية حسن المقابلة بين القرينتين وقوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) معطوف على الجملة السابقة الناطقة بما مر من موجبات اختصاصه تعالى بالحمد المستدعى لاقتصار العبادة عليه كما حقق فى تفسير الفاتحة الكريمة مسوق لانكار ماعليه الكفرة واستبعاده من مخالفتهم لمضمونها واجترائهم على مايقضى ببطلانه بديهة العقول. والمعنى أنه تعالى مختص باستحقاق الحمد والعبادة باعتبار ذاته وباعتبار مافصل من شئونه العظيمة الخاصة به الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه ثم هؤلاء الكفرة لايعملون بموجبه ويعدلون به سبحانه أي يسوون به غيره فى العبادة التى هى أقصى غايات الشكر الذى رأسه الحمد مع كون كل ماسواه مخلوقا له غير متصف بشيء من مبادى الحمد وكلمة ثم لاستبعاد الشرك بعد وضوح ماذكر من الآيات التكوينية القاضية ببطلانه لا بعد بيانه بالآيات التنزيلية والموصول

عبارة عن طائفة الكفار جار مجرى الاسم لهم من غير أن يجعل كفرهم بما يجب أن يؤمن به كلا أو بعضا عنوانا للموضوع فان ذلك مخل باستبعاد ما أسند اليهم من الاشراك والباء متعلقة بيعدلون. ووضع الرب موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع والتقبيح والتقديم لمزيد الاهتمام والمسارعة الى تحقيق مدار الانكار والاستبعاد والمحافظة على الفواصل وترك المفعول لظهوره أو لتوجيه الانكار الى نفس الفعل بتنزيله منزلة اللازم ايذانا بأنه المدار فى الاستبعاد والاستنكار لا خصوصية المفعول هذا هو الحقيق بجزالة التنزيل والخليق بفخامة شأنه الجليل وأما جعل الباء صلة لكفروا على أن يعدلون من العدول والمعنى ان الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته فيرده أن كفرهم به تعالى لاسيما باعتبار ربوبيته تعالى لهم أشد شناعة وأعظم جناية من عدولهم عن حمده عز وجل لتحققه مع اغفاله أيضا فجعل أهون الشرين عمدة فى الكلام مقصود الافادة واخراج أعظمهما مخرج القيد المفروغ عنه مما لا عهد له فى الكلام السديد فكيف بالنظم التنزيلى هذا وقد قيل انه معطوف على خلق السموات والمعنى أنه تعالى خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به سبحانه ما لا يقدر على شىء منه لكن لا على قصد انه صلة مستقلة ليكون بمنزلة أن يقال الحمد لله الذى عدلوا به بل على انه داخل تحت الصلة بحيث يكون الكل صلة واحدة كانه قيل الحمد لله الذى كان منه تلك النعم العظام ثم من الكفرة الكفر وأنت خبير بأن ما ينتظم فى سلك الصلة المنبئة عن موجبات حمده عز وجل حقه أن يكون له دخل فى ذلك الانباء ولو فى الجملة ولا ريب فى أن كفرهم بمعزل منه وادعاء أن له دخلا فيه لدلالته على كمال الجود كانه قيل الحمد لله الذى أنعم بمثل هذه النعم العظام على من لا يحمده تعسف لا يساعده النظام. وتعكيس يأباه المقام. كيف لا وسياق النظم الكريم كما تفصح عنه الآيات الآتية لتشنيع الكفرة وتوبيخهم ببيان غاية اساءتهم مع نهاية احسانه تعالى اليهم لا لبيان نهاية أحسانه تعالى اليهم مع غاية اساءتهم فى حقه تعالى كما يقتضيه الادعاء المذكور وبهذا اتضح أنه لا سبيل الى جعل المعطوف من روادف المعطوف عليه لما أن حق الصلة أن تكون غير مقصودة الافادة فما ظنك بما هو من روادفها وقد عرفت أن المعطوف هو الذى سيق له الكلام فتأمل وكن على الحق المبين (هو الذى خلقكم من طين) استئناف مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث مع مشاهدتهم لما يوجب الايمان به اثر بيان بطلان اشراكهم به تعالى مع معاينتهم لموجبات توحيده. وتخصيص خلقهم بالذكر من بين سائر دلائل صحة البعث مع أن ما ذكر من خلق السموات والارض من أوضحها وأظهرها كما ورد فى قوله تعالى « أو ليس الذى خلق السموات والارض

بقادر على أن يخلق مثلهم» لما أن محل النزاع بعثهم فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر. وهم بشئون أنفسهم أعرف. والتعامى عن الحجة النيرة أقبح. والالتفات لمزيد التشنيع والتوبيخ أى ابتدأ خلقكم منه فانه المادة الاولى للكل لما أنه منشأ آدم الذى هو أبو البشر وانما نسب هذا الخلق الى المخاطبين لا الى آدم عليه السلام وهو المخلوق منه حقيقة بأن يقال هو الذى خلق أباكم الخ مع كفاية علمهم بخلقه عليه السلام منه فى ايجاب الايمان بالبعث و بطلان الامتراء لتوضيح منهاج القياس وللمبالغة فى ازاحة الاشتباه والالتباس مع ما فيه من تحقيق الحق والتنبيه على حكمة خفية هى أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من انشائه عليه السلام منه حيث لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر آحاد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من الطين خلقا لكل أحد من فروعه منه. ولما كان خلقه على هذا النمط السارى الى جميع أفراد ذريته أبدع من أن يكون ذلك مقصورا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وأدل على عظم قدرة الخلاق العليم وكمال علمه وحكمته وكان ابتداء حال المخاطبين أولى بأن يكون معيارا لانتهائها فعل مافعل ولله در شأن التنزيل وعلى هذا السر مدار قوله تعالى «ولقد خلقناكم ثم صورناكم» الخ وقوله تعالى «وقد خلقتك من قبل و لم تك شيئا» كما سيأتى و قيل المعنى خلق أباكم منه على حذف المضاف وقيل معنى خلقهم منه خلقهم من النطفة الحاصلة من الاغذية المتكونة من الارض وأياما كان ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث مالا يخفى فان من قدر على احياء مالم يشم رائحة الحياة قط كان على احياء ماقارنها مدة أظهر قدرة (ثم قضى) أى كتب لموت كل واحد منكم (أجلا) خاصا به أى حدا معينا من الزمان يفنى عند حلوله لا محالة وكلمة ثم للايذان بتفاوت ما بين خلقهم و بين تقدير آجالهم حسبما تقتضيه الحكم البالغة (وأجل مسمى) أى حد معين لبعثكم جميعا وهو مبتدأ لتخصصه بالصفة كما فى قوله تعالى «ولعبد مؤمن» ولوقوعه فى موقع التفصيل كما فى قول من قال:

اذا مابكى من خلفها انصرفت له   بشق وشق عندنا لم يحول

وتنوينه لتفخيم شأنه وتهويل أمره ولذلك أوثر تقديمه على الخبر الذى هو (عنده) مع أن الشائع المستفيض هو التأخير كما فى قولك: عندى كلام حق ولى كتاب نفيس كأنه قيل وأى أجل مسمى مثبت معين فى علمه لا يتغير ولا يقف على وقت حلوله أحد لا مجملا و لا مفصلا وأما أجل الموت فمعلوم اجمالا وتقريبا بناء على ظهور أماراته أو على ما هو المعتاد فى أعمار الانسان وتسميته أجلا إنما هى باعتبار كونه غاية لمدة لبثهم

فى القبور لا باعتبار كونه مبدأ لمدة القيامة كما أن مدار التسمية فى الاجل الاول هو كونه آخر مدة الحياة لا كونه أول مدة الممات لما أن الاجل فى اللغة عبارة عن آخر المدة لا عن أولها . وقيل الاجل الاول مابين الخلق والموت والثانى مابين الموت والبعث من البرزخ فان الاجل كما يطلق على آخر المدة يطلق على كلها وهو الاوفق لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله تعالى قضى لكل أحد أجلين أجلا من مولده الى موته وأجلا من موته الى مبعثه فان كان برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث فى أجل العمر وان كان فاجرا قاطعا نقص من أجل العمر وزيد فى أجل البعث وذلك قوله تعالى « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب» فمعنى عدم تغير الاجل حينئذ عدم تغير آخره والاول هو الاشهر الاليق بتفخيم الاجل الثانى المنوط باختصاصه بعلمه تعالى والانسب بتهويله المبنى على مقارنته للطامة الكبرى فان كون بعضه معلوما للخلق ومضيه من غير أن يقع فيه شئ من الدواهي كما يستلزمه الحمل على المعنى الثانى مخل بذلك قطعا ومعنى زيادة الاجل ونقصه فيما روى تأخير الاجل الاول وتقديمه (ثم أنتم تمترون) استبعاد واستنكار لامترائهم فى البعث بعد معاينتهم لما ذكر من الحجج الباهرة الدالة عليه أى تمترون فى وقوعه وتحققه فى نفسه مع مشاهدتكم فى أنفسكم من الشواهد مايقطع مادة الامتراء بالكلية فان من قدر على افاضة الحياة وما يتفرع عليها من العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدة لشئ منها أصلا كان أوضح اقتدارا على افاضتها على مادة قد استعدت لها وقارنتها مدة ومن ههنا تبين أن ماقيل من أن الاجل الاول هو النوم والثانى هو الموت. أو أن الاول أجل الماضين والثانى أجل الباقين. أو أن الاول مقدار ما مضى من عمر كل أحد والثانى مقدار ما بقى منه مما لا وجه له أصلا لما رأيت من أن مساق النظم الكريم استبعاد امترائهم فى البعث الذى عبر عن وقته بالاجل المسمى بحيث أريد به أحد ماذكر من الامور الثلاثة ففى أى شئ يمترون ووصفهم بالامتراء الذى هو الشك وتوجيه الاستبعاد اليه مع أنهم جازمون بانتفاء البعث مصرون على انكاره كما ينبئ عنه قولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون. ونظائره للدلالة على أن جزمهم المذكور فى أقصى مراتب الاستبعاد والاستنكار وقوله تعالى (وهو الله) جملة من مبتدا وخبر معطوفة على ماقبلها مسوقة لبيان شمول أحكام الهيته تعالى لجميع المخلوقات واحاطة علمه بتفاصيل أحوال العباد وأعمالهم المؤدية إلى الجزاء اثر الاشارة الى تحقق المعاد فى تضاعيف بيان كيفية خلقهم وتقدير آجالهم وقوله

تعالى (فى السموات وفى الارض) متعلق بالمعنى الوصفى الذى ينبئ عنه الاسم الجليل اما باعتبار أصل اشتقاقه وكونه علما للمعبود بالحق كأنه قيل وهو المعبود فيهما واما باعتبار أنه اسم اشتهر بما اشتهرت به الذات من صفات الكمال فلوحظ معه منها ما يقتضيه المقام من المالكية الكلية والتصرف الكامل حسبما تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم البالغة فعلق به الظرف من تلك الحيثية فصار كأنه قيل وهو المالك أو المتصرف المدبر فيهما كما فى قوله تعالى «وهو الذى فى السماء آله وفى الارض آله» وليس المراد بما ذكر من الاعتبارين ان الاسم الجليل يحمل على معناه اللغوى أو على معنى المالك أو المتصرف أو نحو ذلك بل مجرد ملاحظة أحد المعانى المذكورة فى ضمنه كما لوحظ مع اسم الاسد فى قوله: أسد على الخ ما اشتهر به من وصف الجراءة التى اشتهر بها مسماه فجرى مجرى جرئ على . وبهذا تبين أن ماقيل بصدد التصوير والتفسير أى هو المعروف بذلك فى السموات وفى الأرض أو هو المعروف المشتهر بالصفات الكمالية أو هو المعروف بالالهية فيهما أو نحو ذلك بمعزل من التحقيق فان المعتبر مع الاسم هو نفس الوصف الذى اشتهر به اذ هو الذي يقتضيه المقام حسبما بين آنفا لا اشتهاره به ألا يرى أن كلمة على فى المثال المذكور لا يمكن تعليقها باشتهار الاسم بالجراءة قطعا وقيل هو متعلق بما يفيده التركيب الحصرى من التوحد والتفرد كأنه قيل وهو المتوحد بالالهية فيهما .وقيل بما تقرر عند الكل من اطلاق هذا الاسم عليه خاصة كأنه قيل وهو الذي يقال له الله فيهما لا يشرك به شئ فى هذا الاسم على الوجه الذي سبق من اعتبار معنى التوحد أو القول فى فحوى الكلام بطريق الاستتباع لا على حمل الاسم الجليل على معنى المتوحد بالالهية أو على تقدير القول .وقد جوز ان يكون الظرف خبرا ثانيا على ان كونه سبحانه فيهما عبارة عن كونه تعالى مبالغا فى العلم بما فيهما بناء على تنزيل علمه المقدس عن حصول الصور والاشباح لكونه حضوريا منزلة كونه تعالى فيهما وتصويره به على طريقة التمثيل المبنى على تشبيه حالة علمه تعالى بما فيهما بحالة كونه تعالى فيهما فان العالم اذا كان فى مكان كان عالما به وبما فيه على وجه لا يخفى عليه منه شئ فعلى هذا يكون قوله عز وجل (يعلم سركم وجهركم) أى ما اسررتموه وما جهرتم به من الاقوال او ما اسررتموه وما أعلنتموه كائنا ما كان من الاقوال والاعمال بيانا وتقريرا لمضمونه وتحقيقا للمعنى المراد منه وتعليق علمه عز وجل بما ذكر خاصة مع شموله لجميع ما فيهما حسبما تفيده الجملة السابقة لانسياق النظم الكريم الى بيان حال المخاطبين وكذا على الوجه الثانى فان ملاحظة الاسم الجليل من حيث المالكية الكلية والتصرف الكامل الجارى على النمط المذكور مستتبعة لملاحظة

علمه المحيط حتماً فيكون هذا بياناً وتقريراً له بلا ريب وأما على الأوجه الثلاثة الباقية فلا سبيل
الى كونه بياناً لكن لا لما قيل من أنه لا دلالة لاستواء السر والجهر فى علمه تعالى
على ما اعتبر فيهما من المعبودية والاختصاص بهذا الاسم اذ ربما يعبد ويختص به
من ليس له كمال العلم فانه باطل قطعاً اذ المراد بما ذكر هو المعبودية بالحق والاختصاص
بالاسم الجليل ولا ريب فى أنهما مما لا يتصور فيمن ليس له كمال العلم بديهة بل لأن
ما ذكر من العلم غير معتبر فى مدلول شيء من المعبودية بالحق والاختصاص بالاسم
حتى يكون هذا بياناً له وبهذا تبين أنه ليس ببيان على الوجه الثالث أيضاً لما أن التوحد
بالالهية لا يعتبر فى مفهومه العلم الكامل ليكون هذا بياناً له بل هو معتبر فيما صدق
عليه المتوحد وذلك غير كاف فى البيانية وقيل هو خبر بعد خبر عند من يجوز كون
الخبر الثانى جملة كما فى قوله تعالى «فاذا هى حية تسعى» وقيل هو الخبر والاسم الجليل
بدل من هو وبه يتعلق الظرف المتقدم ويكفى فى ذلك كون المعلوم فيهما كما فى قولك:
رميت الصيد فى الحرم اذا كان هو فيه وأنت خارجه. ولعل جعل سرهم وجهرهم فيهما
لتوسيع الدائرة وتصوير أنه لا يعزب عن علمه شيء منهما فى أى مكان كان لا لأنهما
قد يكونان فى السموات أيضاً وتعميم الخطاب لأهلها تعسف لا يخفى (ويعلم ما تكسبون)
أى ما تفعلونه لجلب نفع أو دفع ضر من الأعمال المكتسبة بالقلوب أو بالجوارح
سراً أو علانية وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فيما سبق على التفسير الثانى للسر والجهر
لاظهار كمال الاعتناء بها لانها التى يتعلق بها الجزاء وهو السر فى اعادة يعلم (وما تأتيهم
من آية من آيات ربهم) كلام مستأنف وارد لبيان كفرهم بآيات الله واعراضهم عنها
بالكلية بعد ما بين فى الآية الأولى اشراكهم بالله سبحانه واعراضهم عن بعض
آيات التوحيد وفى الآية الثانية امتراؤهم فى البعث واعراضهم عن بعض آياته والالتفات
للاشعار بأن ذكر قبائحهم قد اقتضى أن يضرب عنهم الخطاب صفحاً وتعدد جناياتهم
لغيرهم ذماً لهم وتقبيحاً لحالهم فما نافية وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو للدلالة
على الاستمرار التجددى ومن الأولى مزيدة للاستغراق والثانية تبعيضية واقعة مع
مجرورها صفة لآية وأضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها
المستتبع لتهويل ما اجترءوا عليه فى حقها والمراد بها إما الآيات التنزيلية فاتيانها
نزولها والمعنى ما ينزل اليهم آية من الآيات القرآنية التى من جملتها هاتيك الآيات
الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله عز وجل المنبئة عن جريان أحكام ألوهيته تعالى
على كافة الكائنات وإحاطة علمه بجميع أحوال الخلق وأعمالهم الموجبة للاقبال عليها

والأيمان بها (إلا كانوا عنها معرضين) أى على وجه التكذيب والاستهزاء كما ستقف عليه . وأما الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات فاتيانها ظهورها لهم والمعنى مايظهر لهم آية من الآيات التكوينية التى من جملتها ماذكر من جلائل شئونه تعالى الشاهدة بوحدانيته إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدى الى الايمان بمكونها . وايثاره على أن يقال الا أعرضوا عنها كما وقع مثله فى قوله تعالى « وأن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر» للدلالة على استمرارهم على الاعراض حسب استمرار أتيان الآيات وعن متعلقة بمعرضين قدمت عليه مراعاة للفواصل و الجملة فى محل النصب على أنها حال من مفعول تأتى أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما وأياما كان ففيها دلالة بينة على كمال مسارعتهم الى الاعراض وايقاعهم له فى آن الاتيان كما يفصح عنه كلمة لما فى قوله تعالى (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) فان الحق عبارة عن القرآن الذى أعرضوا عنه حين أعرضوا عن كل آية آية منه عبر عنه بذلك ابانة لكمال قبح مافعلوا به فان تكذيب الحق مما لايتصور صدوره عن أحد والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها لكن لاعلى أنها شيء مغاير له فى الحقيقة واقع عقيبه أو حاصل بسببه بل على أن الأول هو عين الثانى حقيقة وانما الترتيب بحسب التغاير الأعتبارى وقد لتحقيق ذلك المعنى كما فى قوله تعالى «فقد جاءوا ظلما وزورا» بعد قوله تعالى «وقال الذين كفروا إن هذا الا أفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » فان ماجاءوه أى فعلوه من الظلم والزور عين قولهم المحكى لكنه لما كان مغايرا له مفهوما وأشنع منه حالا رتب عليه بالفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلا لأمره كذلك مفهوم التكذيب بالحق حيث كان اشنع من مفهوم الأعراض المذكور أخرج مخرج اللازم البين البطلان فرتب عليه بالفاء اظهارا لغاية بطلانه ثم قيد ذلك بكونه بلا تأمل تأكيدا لشناعته وتمهيدا للبيان أن ما كذبوا به آثر ذى أثير له عواقب جليلة ستبد ولهم ألبتة والمعنى أنهم حيث أعرضوا عن تلك الآيات عند اتيانها فقد كذبوا بما لايمكن تكذيبه أصلا من غير أن يتدبروا فى حاله ومآله و يقفوا على مافى تضاعيفه من الشواهد الموجبة لتصديقه كقوله تعالى « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله» كما ينبىء عنه قوله تعالى (فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن) فان ماعبارة عن الحق المذكور عبر عنه بذلك تهويلا لامره بابهامه و تعليلا للحكم بما فى حيز الصلة وأنباؤه عبارة عماسيحيق بهم من العقوبات العاجلة التى نطقت بها آيات الوعيد . وفى لفظ الانباء إيذان بغاية

العظم لما أن النبأ لا يطلق الا على خبر عظيم الوقع وحملها على العقوبات الآجلة أو على ظهور الاسلام وعلو كلمته يأباه الآيات الآتية وسوف لتأكيد مضمون الجملة وتقرير أى فسيأتيهم ألبتة وان تأخر مصداق أنباء الشىء الذى كانوا يكذبون به قبل من غير أن يتدبروا فى عواقبه وانما قيل يستهزؤن إيذانا بأن تكذيبهم كان مقرونا بالاستهزا كما أشير اليه هذا على أن يراد بالآيات الآيات القرآنية وهو الاظهر وأما أن أريد بها الآيات التكوينية فالفاء داخلة على علة جواب شرط محذوف والاعراض على حقيقة كأنه قيل ان كانوا معرضين عن تلك الآيات فلا تعجب فقد فعلوا بما هو أعظم منها ما هو أعظم من الاعراض حيث كذبوا بالحق الذى هو أعظم الآيات ولا مساغ لحمل الآيات فى هذا الوجه على كلها أصلا . وأما ماقيل من أن المعنى أنهم لما كانوا معرضين عن الآيات كلها كذبوا بالقرآن فما ينبغى تنزيه التنزيل عن أمثاله (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن) استئناف مسوق لتعيين ماهو المراد بالانباء التى سبق بها الوعيد وتقرير إتيانها بطريق الاستشهاد وهمزة الانكار لتقرير الرؤية وهى عرفانية مستدعية لمفعول واحد وكم استفهامية كانت أو خبرية معلقة لها عن عمل مفيدة للتكثير سادة مع مافى حيزها مسد مفعولها منصوبة بأهلكنا على المفعولية على أنها عبارة عن الاشخاص ومن قرن مميزها على أنه عبارة عن أهل عصر من الاعصار سموا بذلك لاقترانهم برهة من الدهر كما فى قوله عليه الصلاة والسلام « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم » الحديث وقيل هو عبارة عن مدة من الزمان والمضاف محذوف أى من أهل قرن وأما انتصابها على المصدرية أو على الظرفية على أنها عبارة عن المصدر أو عن الزمان فتعسف ظاهر ومن الاولى ابتدائية متعلقة بأهلكنا أى ألم يعرفوا بمعاينة الآثار وسماع الاخبار أمة أهلكنا من قبل أهل مكة أى من قبل خلقهم أو من قبل زمانهم على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه كعاد وثمود وأضرابهم وقوله تعالى (مكناهم فى الارض) استئناف لبيان كيفية الاهلاك وتفصيل مباديه مبنى على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل كيف كان ذلك فقيل مكناهم الخ وقيل هو صفة لقرن لما أن النكرة مفتقرة الى مخصص فاذا وليها مايصلح مخصصا لها تعين وصفيته لها . وأنت خبير بأن تنوينه التفخيمى مغن له عن استدعاء الصفة على أن ذلك مع اقتضائه أن يكون مضمونه ومضمون ماعطف عليه من الجمل الاربع أمرا مفروغا عنه غير مقصود بسياق النظم مؤد الى اختلال النظم الكريم كيف لا والمعنى حينئذ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن موصوفين بكذا وكذا وبأهلاكنا اياهم بذنوبهم وانه بين الفساد وتمكين الشىء فى

الارض جعله قاراً فيها ولما لزمه جعلها مقرا له ورد الاستعمال بكل منهما فقيل تارة مكنة فى الارض ومنه قوله تعالى «ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه» وأخرى مكن له فى الارض ومنه قوله تعالى «إنا مكنا له فى الارض» حتى أجرى كل منهما مجري الآخر ومنه قوله تعالى (مالم نمكن لكم) بعد قوله تعالى مكناهم فى الارض كانه قيل فى الاول مكنا لهم أو فى الثانى مالم نمكنكم و ما نكرة موصوفة بمابعدها من الجملة المنفية والعائد محذوف محلها النصب على المصدرية أى مكناهم تمكينا لم نمكنه لكم والالتفات لما فى مواجهتهم بضعف الحال مزيد بيان لشأن الفريقين ولدفع الاشتباه من أول الامر عن مرجعى الضميرين (وأرسلنا السماء) أى المطر أو السحاب أو المظلة لانها مبدأ المطر (عليهم) متعلق بأرسلنا (مدراراً) أى مغزارا حال من السماء (وجعلنا الانهار) أى صيرناها فقوله تعالى (تجرى من تحتهم) مفعول ثان لجعلنا أو أنشأناها فهو حال من مفعوله ومن تحتهم متعلق بتجرى وفيه من الدلالة على كونها مسخرة لهم مستمرة على الجريان على الوجه المذكور ماليس فى أن يقال وأجرينا الانهار من تحتهم وليس المراد بتعداد هاتيك النعم العظام الفائضة عليهم بعد ذكر تمكينهم بيان عظم جنايتهم فى كفرانها واستحقاقهم بذلك لأعظم العقوبات بل بيان حيازتهم لجميع أسباب نيل المآرب ومبادى الامن والنجاة من المكاره والمعاطب وعدم اغناء ذلك عنهم شيئا والمعنى أعطيناهم من البسطة فى الاجسام والامتداد فى الاعمار والسعة من الاموال والاستظهار باسباب الدنيا فى استجلاب المنافع واستدفاع المضار ما لم نعط أهل مكة ففعلوا ما فعلوا (فأهلكناهم بذنوبهم) أى أهلكنا كل قرن من تلك القرون بسبب ما يخصهم من الذنوب فما أغنى عنهم تلك العدد والاسباب فسيحل بهؤلاء مثل ما حل بهم من العذاب وهذا كما ترى آخر ما به الاستشهاد والاعتبار وأما قوله سبحانه (وأنشأنا من بعدهم) أى أحدثنا من بعد اهلاك كل قرن (قرنا آخرين) بدلا من الهالكين فلبيان كمال قدرته تعالى وسعة سلطانه وأن ما ذكر من أهلاك الامم الكثيرة لم ينقص من ملكه شيئا بل كلما أهلك أمة أنشأ بدلها أخرى (ولو نزلنا عليك) جملة مستأنفة سيقت بطريق تلوين الخطاب لبيان شدة شكيمتهم فى المكابرة وما يتفرع عليها من الاقاويل الباطلة اثر بيان اعراضهم عن آيات الله تعالى و تكذيبهم بالحق واستحقاقهم بذلك لنزول العذاب ونسبة التنزيل ههنا اليه عليه السلام مع نسبة اتيان الآيات ومجيء الحق فيما سبق اليهم للاشعار بقدحهم فى نبوته عليه السلام فى ضمن قدحهم فيما نزل عليه صريحا وقال الكلبي ومقاتل نزلت فى النضر بن الحرث وعبد الله بن أبى أمية ونوفل

ابن خويلد حيث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى وأنك رسوله (كتابا) ان جعل اسما كالأمام فقوله تعالى (فى قرطاس) متعلق بمحذوف وقع صفة له أى كتابا كائنا فى صحيفة وان جعل مصدرا بمعنى المكتوب فهو متعلق بنفسه (فلمسوه) أى الكتاب وقيل القرطاس وقوله تعالى (بأيديهم) مع ظهور أن اللمس لا يكون عادة الا بالايدى لزيادة التعيين ودفع احتمال التجوز الواقع فى قوله تعالى «وأنا لمسنا السماء» أى تفحصنا أى فمسوه بايديهم بعد ما رأوه باعينهم بحيث لم يبق لهم فى شأنه اشتباه ولم يقدروا على الاعتذار بتسكير الأبصار (لقال الذين كفروا) أي لقالوا وانما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على اتصافهم بما فى حيز الصلة من الكفر الذي لا يخفى حسن موقعه باعتبار مفهومه اللغوى أيضا (ان هذا) أى ماهذا مشيرين الى ذلك الكتاب (الاسحر مبين) أي بين كونه سحرا تعنتا وعنادا للحق بعد ظهوره كما هو دأب المفحم المحجوج وديدن المكابر اللجوج (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) شروع فى قدحهم فى نبوته عليه السلام صريحا بعد ما أشير الى قدحهم فيها ضمنا وقيل هو معطوف على جواب لو وليس بذاك لما أن تلك المقالة الشنعاء ليست مما يقدر صدوره عنهم على تقدير تنزيل الكتاب المذكور بل هي من أباطيلهم المحققة وخرافاتهم الملفقة التى يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل. وعيتهم العلل. أى هلا أنزل عليه عليه السلام ملك بحيث نراه ويكلمنا انه نبى حسبما نقل عنهم فيما روى عن الكلبى ومقاتل ونظيره قولهم لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ولما كان مدار هذا الاقتراح على شيئين انزال الملك كما هو وجعله معه عليه السلام نذيرا أجيب عنه بان ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الوجود أصلا لاشتماله على أمرين متباينين لا يجتمعان فى الوجود لما أن انزال الملك على صورته يقتضى انتفاء جعله نذيرا وجعله نذيرا يستدعى عدم أنزاله على صورته لا محالة وقد أشير الى الاول بقوله تعالى (ولو أنزلنا ملكا لقضى الامر) أى لو أنزلنا ملكا على هيئته حسبما اقترحوه والحال أنه من هول المنظر بحيث لا تطيق بمشاهدته قوي الآحاد البشرية ألا يرى أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكة ويفاوضونهم على الصور البشرية كضيف ابراهيم ولوط وخصم داود عليهم السلام وغير ذلك وحيث كان شأنهم كذلك وهم مؤيدون بالقوى القدسية فما ظنك بمن عداهم من العوام فلو شاهدوه كذلك لقضى أمر هلاكهم بالكلية واستحال جعله نذيرا وهو مع كونه خلاف مطلوبهم مستلزما لأخلاء العالم عما عليه يدور نظام الدنيا والآخرة من

ارسال الرسل وتأسيس الشرائع وقد قال سبحانه «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» وفيه كما ترى ايذان بانهم فى ذلك الاقتراح كالباحث عن حتفه بظلفه . وان عدم الاجابة اليه للبقاء عليهم وبناء الفعل الاول فى الجواب للفاعل الذى هو نون العظمة مع كونه فى السؤال مبنيا للمفعول لتهويل الامر وتربية المهابة وبناء الثانى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء وكلمة ثم فى قوله تعالى (ثم لا ينظرون) أى لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين فضلا عن أن ينذروا به كما هو المقصود بالانزال للتنبيه على تفاوت ما بين قضاء الامر وعدم الانظار فان مفاجأة العذاب أشد من نفس العذاب وأشق . وقيل فى سبب اهلاكهم انهم اذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صورته وهى آية لاشيء أبين منها ثم لم يؤمنوا لم يكن بد من اهلاكهم وقيل انهم اذا رأوه يزول الاختيار الذى هو قاعدة التكليف فيجب اهلاكهم والى الثانى بقوله تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) على أن الضمير الاول للنذير المفهوم من فحوى الكلام بمعونة المقام . وانما لم يجعل للملك المذكور قبله بأن يعكس ترتيب المفعولين ويقال ولو جعلناه نذيرا لجعلناه رجلا مع فهم المراد منه أيضا لتحقيق أن مناط ابراز الجعل الاول فى معرض الفرض والتقدير ومدار استلزامه للثانى انما هو ملكية النذير لانذيرية الملك وذلك لان الجعل حقه أن يكون مفعوله الاول مبتدأ والثانى خبرا لكونه بمعنى التصيير المنقول من صار الداخل على المبتدا والخبر ولا ريب فى أن مصب الفائدة ومدار اللزوم بين طرفى الشرطية هو محمول المقدم لا موضوعه فحيث كانت امتناعية أريد بها بيان انتفاء الجعل الاول لاستلزامه المحذور الذى هو الجعل الثانى وجب أن يجعل مدار الاستلزام فى الاول مفعولا ثانيا لامحالة ولذلك جعل مقابله فى الجعل الثانى كذلك ابانة لكمال التنافى بينهما الموجب لانتفاء الملزوم والضمير الثانى للملك لا للمارجع اليه الاول والمعنى لو جعلنا النذير الذي اقترحوه ملكا لمثلنا ذلك الملك رجلا لما مر من عدم استطاعة الآحاد لمعاينة الملك على هيكله . وفى ايثار رجلا على بشر ايذان بأن الجعل بطريق التمثيل لا بطريق قلب الحقيقة وتعيين لما يقع به التمثيل وقوله تعالى (وللبسنا عليهم) عطف على جواب لو مبنى على الجواب الاول وقرىء بحذف لام الجواب اكتفاء بها فى المعطوف عليه يقال لبست الامر على القوم ألبسه اذا شبهته وجعلته مشكلا عليهم وأصله الستر بالثوب وقرىء الفعلان بالتشديد للمبالغة أى ولخلطنا عليهم بتمثيله رجلا (ما يلبسون) على أنفسهم حينئذ بأن يقولوا له انما أنت بشر ولست بملك ولو استدل على ملكيته بالقرآن المعجز الناطق بها أو بمعجزات أخر غير ملجئة الى التصديق لكذبوه كما

كذبوا النبى عليه الصلاة و السلام ولو أظهر لهم صورته الاصلية لزم الامر الاول والتعبير عن تمثيله تعالى رجلا باللبس اما لكونه فى صورة اللابس اولكونه سببا للبسهم أو لوقوعه فى صحبته بطريق المشاكلة وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكا كأنه قيل لو فعلناه لفعلنا مالايليق بشأننا من لبس الامر عليهم وقد جوز أن يكون المعنى وللبسنا عليهم حينئذ مثل مايلبسون على أنفسهم الساعة فى كفرهم بآيات الله البينة (ولقد استهزىء برسل من قبلك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من قومه وفى تصدير الجملة بلام القسم وحرف التحقيق من الاعتناء بها مالا يخفى وتنوين رسل للتفخيم والتكثير ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسل أى وبالله لقد استهزىء برسل أولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه (فحاق) عقيبه أى أحاط أو نزل أوحل أو نحو ذلك فان معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يستعمل الا فى الشر والحيق مايشتمل على الانسان من مكروه فعله وقوله تعالى (بالذين سخروا منهم) أى استهزؤا بهم من أولئك الرسل عليهم السلام متعلق بحاق وتقديمه على فاعله الذى هو قوله تعالى (ما كانوا به يستهزؤن) للمسارعة الى بيان لحوق الشر بهم وما إما موصولة مفيدة للتهويل أى فأحاط بهم الذى كانوا يستهزؤن به حيث أهلكوا لاجله واما مصدرية أى فنزل بهم وبال استهزائهم . وتقديم الجار والمجرور على الفعل لرعاية الفواصل (قل سيروا فى الارض) بعد بيان مافعلت الامم الخالية وما فعل بهم خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بانذار قومه وتذكيرهم باحوالهم الفظيعة تحذيرا لهم عماهم عليه وتكملة للتسلية بما فى ضمنه من العدة اللطيفة بأنه سيحيق بهم مثل ما حاق باضرابهم الاولين وقد أنجز ذلك يوم بدر أى انجاز أى سيروا فى الارض لتعرف أحوال أولئك الامم (ثم انظروا) أى تفكروا (كيف كان عاقبة المكذبين) وكلمة ثم اما لان النظر فى آثار الهالكين لايتسنى الا بعد انتهاء السير الى أماكنهم واما لابانة مابينهما من التفاوت فى مراتب الوجوب وهو الأظهر فان وجوب السير ليس الا لكونه وسيلة الى النظر كما يفصح عنه العطف بالفاء فى قوله عز وجل فانظروا الآية واما أن الأمر الأول لاباحة السير للتجارة و نحوها والثانى لايجاب النظر فى آثارهم وثم لتباعد مابين الواجب والمباح فلا يناسب المقام وكيف معلقة لفعل النظر ومحل الجملة النصب بنزع الخافض أى تفكروا فى أنهم كيف أهلكوا بعذاب الاستئصال والعاقبة مصدر كالعافية ونظائرها وهى منتهى الامر ومآله ووضع المكذبين موضع المستهزئين

لتحقيق أن مدار إصابة ما أصابهم هو التكذيب لينزجر السامعون عنه لا عن الاستهزاء فقط مع بقاء التكذيب بحاله بناء على توهم أنه المدار في ذلك (قل) لهم بطريق الالجاء والتبكيت (لمن ما في السموات والارض) من العقلاء وغيرهم أي لمن الكائنات جميعا خلقاً وملكا وتصرفا وقوله تعالى (قل لله) تقرير لهم وتنبيه على أنه المتعين للجواب بالاتفاق بحيث لا يتأتى لأحد أن يجيب بغيره كما نطق به قوله تعالى «ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله» وقوله تعالى (كتب على نفسه الرحمة) جملة مستقلة داخلة تحت الأمر ناطقة بشمول رحمته الواسعة لجميع الخلق شمول ملكه وقدرته للكل مسوقة لبيان أنه تعالى رءوف بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة ويقبل منهم التوبة والانابة وأن ما سبق ذكره وما لحق من أحكام الغضب ليس من مقتضيات ذاته تعالى بل من جهة الخلق كيف لا ومن رحمته أنه خلقهم على الفطرة السليمة وهداهم الى معرفته وتوحيده بنصب الآيات الأنفسية والآفاقية وإرسال الرسل وانزال الكتب المشحونة بالدعوة الى موجبات رضوانه والتحذير عن مقتضيات سخطه وقد بدلوا فطرة الله تبديلا وأعرضوا عن الآيات بالمرة وكذبوا بالكتب واستهزؤا بالرسل وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين ولولا شمول رحمته لسلك بهؤلاء أيضا مسلك الغابرين ومعنى كتب الرحمة على نفسه أنه تعالى قضاها وأوجبها بطريق التفضل والاحسان على ذاته المقدسة بالذات لا بتوسط شيء أصلا . وقيل هو ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لما قضى الله تعالى الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش ان رحمتي سبقت غضبي» وعنه في رواية أنه عليه الصلاة والسلام قال «لما قضى الله تعالى الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش ان رحمتي غلبت غضبي» وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكعب «ما أول شيء ابتدأه الله تعالى من خلقه فقال كعب كتب الله كتابا لم يكتبه بقلم ولا مداد كتابة الزبرجد واللؤلؤ والياقوت أني أنا الله لا إله إلا أنا سبقت رحمتي غضبي» ومعنى سبق الرحمة وغلبتها أنها أقدم تعلقا بالخلق وأكثر وصولا اليهم مع أنها من مقتضيات الذات المفيضة للخير . وفي التعبير عن الذات بالنفس حجة على من ادعى أن لفظ النفس لا يطلق على الله تعالى وان أريد به الذات إلا مشاكلة لما ترى من انتفاء المشاكلة ههنا بنوعيها وقوله تعالى (ليجمعنكم الى يوم القيامة) جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق للوعيد على أشراكهم وأغفالهم النظر أي والله ليجمعنكم في القبور مبعوثين أو محشورين الى يوم القيامة فيجازيكم على شرككم وسائر معاصيكم وإن

مهلكم بموجب رحمته ولم يعاجلكم بالعقوبة الدنيوية وقيل الى بمعنى اللام أي ليجمعنكم
يوم القيامة كقوله تعالى «انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه» وقيل هي بمعنى في أي
يجمعنكم في يوم القيامة (لا ريب فيه) أي في اليوم أو في الجمع وقوله تعالى (الذين
خسروا أنفسهم) أي بتضييع رأس مالهم وهو الفطرة الأصلية والعقل السليم والاستعداد
القريب الحاصل من مشاهدة الرسول عليه الصلاة والسلام واستماع الوحي وغير ذلك
من آثار الرحمة في موضع النصب أو الرفع على الذم أي أعني الذين الخ أو هم الذين الخ
وهو مبتدأ والخبر قوله تعالى (فهم لا يؤمنون) والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط
الاشعار بأن عدم ايمانهم بسبب خسرانهم فان أبطال العقل باتباع الحواس والوهم
الانهماك في التقليد واغفال النظر أدى بهم الى الاصرار على الكفر والامتناع من
الايمان والجملة تذييل مسوق من جهته تعالى لتقبيح حالهم غير داخل تحت الأمر (وله)
أي لله عز وجل خاصة (ماسكن في الليل والنهار) نزل الملوان منزلة المكان فعبر عن
نسبة الاشياء الزمانية اليهما بالسكنى فيهما وتعديته بكلمة في كما في قوله تعالى «وسكنتم في
مساكن الذين ظلموا أنفسهم» أو السكون مقابل الحركة والمراد ماسكن فيهما أو تحرك
اكتفى بأحد الضدين عن الآخر (وهو السميع) المبالغ في سماع كل مسموع (العليم)
المبالغ في العلم بكل معلوم فلا يخفى عليه شيء من الاقوال والافعال (قل) لهم بعدما بكتهم
بما سيق من الخطاب (أغير الله أتخذ وليا) أي معبودا بطريق الاستقلال أو الاشتراك
انما سلطت الهمزة على المفعول الاول لا على الفعل إيذانا بان المنكر هو اتخاذ غير الله
وليا لا اتخاذ الولي مطلقا كما في قوله تعالى «أغير الله أبغي ربا» وقوله تعالى «أفغير الله تأمروني
أعبد» الخ (فاطر السموات والارض) أي مبدعهما بالجر صفة للجلالة مؤكدة للانكار
لانه بمعنى الماضي ولذلك قرأ فطر . ولا يضر الفصل بينهما بالجملة لانها ليست بأجنبية اذ
هي عاملة في عامل الموصوف أو بدل فان الفصل بينه وبين المبدل منه أسهل لان البدل على
نية تكرير العامل. وقرىء بالرفع والنصب على المدح وعن ابن عباس رضي الله تعالى
عنهما ماعرفت معنى الفاطر حتى اختصم إلى أعرابيان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أي
ابتدأتها (وهو يطعم ولايطعم) أي يرزق الخلق ولا يرزق . وتخصيص الطعام بالذكر
لشدة الحاجة اليه أو لانه معظم مايصل الى المرزوق من الرزق ومحل الجملة النصب على
الحالية فان مضمونها مقرر لوجوب اتخاذه سبحانه وتعالى وليا وقرئ و لا يطعم بفتح
الياء وبعكس القراءة الاولى أيضا على أن الضمير لغير الله والمعنى أأشرك بمن هو فاطر
السموات والارض ماهو نازل عن رتبة الحيوانية وببنائهما للفاعل على أن الثاني بمعنى

يستطعم أو على معنى أن يطعم تارة ولا يطعم أخرى كقوله تعالى يقبض و يبسط (قل) بعد بيان أن اتخاذ غيره تعالى وليا مما يقضي ببطلانه بديهة العقول (أني أمرت) من جنابه عز و جل (أن أكون أول من أسلم) وجهه لله مخلصا له لان النبي إمام امته في الاسلام كقوله تعالى «و بذلك أمرت و أنا أول المسلمين» و قوله تعالى «سبحانك تبت اليك و أنا أول المؤمنين» ولا (تكونن) أي وقيل لي ولا تكونن (من المشركين) أي في أمر من أمور الدين ومعناه أمرت بالاسلام و نهيت عن الشرك و قد جوز عطفه على الامر (قل اني أخاف ان عصيت ربي) أي بمخالفة أمره ونهيه أي عصيان كان فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا وفيه بيان لكمال اجتنابه عليه السلام عن المعاصي على الإطلاق و قوله تعالى (عذاب يوم عظيم) أي عذاب يوم القيامة مفعول أخاف و الشرطية معترضة بينهما والجواب محذوف لدلالة ما قبله عليه و فيه قطع لأطماعهم الفارغة و تعريض بانهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم (من يصرف عنه) على البناء للمفعول أي العذاب وقرىء على البناء للفاعل والضمير لله سبحانه و قد قرىء بالاظهار و المفعول محذوف و قوله تعالى (يومئذ) ظرف للصرف أي في ذلك اليوم العظيم وقد جوز أن يكون هو المفعول على قراءة البناء للفاعل بحذف المضاف أي عذاب يومئذ (فقد رحمه) أي نجاه وأنعم عليه وقيل فقد أدخله الجنة كما في قوله تعالى «فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز» والجملة مستأنفة مؤكدة لتهويل العذاب وضمير عنه و رحمه لمن وهو عبارة عن غير العاصي (وذلك) اشارة الى الصرف أو الرحمة لانها مؤولة بأن مع الفعل وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجته وبعد مكانه في الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (الفوز المبين) أي الظاهر كونه فوزا وهو الظفر بالبغية والالف و اللام لقصره على ذلك (و ان يمسسك الله بضر) أي ببلية كمرض و فقر ونحو ذلك (فلا كاشف له) أي فلا قادر على كشفه عنك (الا هو) وحده (و ان يمسسك بخير) من صحة و نعمة ونحو ذلك (فهو على كل شيء قدير) و من جملته ذلك فيقدر عليه فيمسك به و يحفظه عليك من غير أن يقدر على دفعه أو على رفعه أحد كقوله تعالى «فلا راد لفضله» و حمله على تأكيد الجوابين يأباه الفاء تذكرة روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال أهدي للنبي صلى الله عليه وسلم بغلة أهداها له كسري فركبها بحبل من شعر ثم أردفني خلفه ثم سار بي ميلا ثم التفت الي فقال ياغلام فقلت لبيك يارسول الله . فقال « احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة و اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله فقد مضى القلم بما هو كائن فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله عليك ماقدروا عليه فان

استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا واعلم أن النصر مع الصبر وان مع الكرب فرجا وان مع العسر يسرا » (وهو القاهر فوق عباده) تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة (وهو الحكيم) فى كل ما يفعله و يأمر به (الخبير) بأحوال عباده وخفايا أمورهم و اللام فى المواضع الثلاثة للقصر (قل أى شيء أكبر شهادة) روى أن قريشا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فارنا من يشهد لك أنك رسول الله فنزلت فاى مبتدأ و أكبر خبره و شهادة نصب على التمييز و قوله تعالى (قل الله) أمر له عليه الصلاة والسلام بأن يتولى الجواب بنفسه أما للايذان بتعينه و عدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيره أو لانهم ربما يتلعثمون فيه لاتر ددهم فى أنه أكبر من كل شيء بل فى كونه شهيدا فى هذا الشأن وقوله تعالى (شهيد) خبر مبتدأ محذوف أى هو شهيد (بيني و بينكم) و يجوز أن يكون الله شهيد بيني و بينكم هو الجواب لأنه اذا كان هو الشهيد بينه و بينهم كان أكبر شيء شهادة شهيدا له عليه الصلاة والسلام وتكرير البين لتحقيق المقابلة (وأوحى إلي) أى من جهته تعالى (هذا القرآن) الشاهد بصحة رسالتى (لأنذركم به) بما فيه من الوعيد والاقتصار على ذكر الانذار لما أن الكلام مع الكفرة (ومن بلغ) عطف على ضمير المخاطبين أى لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والاحمر أو من الثقلين أو لانذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة . و هو دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين يوم نزوله ومن سيوجد بعد إلى يوم القيامة خلا أن ذلك بطريق العبارة فى الكل عند الحنابلة وبالاجماع عندنا فى غير الموجودين وفى غير المكلفين يومئذ كما مر فى أول سورة النساء (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى) تقرير لهم مع انكار واستبعاد (قل لا أشهد) بذلك وان شهدتم به فانه باطل صرف (قل) تكرير للأمر للتأكيد (انما هو اله واحد) أى بل انما أشهد أنه تعالى لا اله الا هو (واننى برئ مما تشركون) من الاصنام أو من اشراككم (الذين آتيناهم الكتاب) جواب عما سبق من قولهم لقد سألنا عنك اليهود والنصاري أخر عن تعيين الشهيد مسارعة إلى الزامهم بالجواب عن تحكمهم بقولهم فأرنا من يشهد لك الخ و المراد بالموصول اليهود والنصاري و بالكتاب الجنس المنتظم للتوراة والانجيل . وايرادهم بعنوان ايتاء الكتاب للايذان بمدار ما أسند اليهم بقوله تعالى (يعرفونه) أي يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة الكتابين بحليته ونعوته المذكورة فيهما (كما يعرفون أبناءهم) بحلاهم بحيث لا يشكون فى ذلك أصلا

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة قال عمر رضى الله عنه لعبد الله بن سلام أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآية فكيف هذه المعرفة فقال ياعمر لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابنى ولأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى لأنى لاأدرى ماصنع النساء وأشهد أنه حق من الله تعالى (الذين خسروا أنفسهم) من أهل الكتابين والمشركين بان ضيعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها وأعرضوا عن البينات الموجبة للايمان بالكلية (فهم لايؤمنون) لما أنهم مطبوع على قلوبهم ومحل الموصول الرفع على الابتداء وخبره الجملة المصدرة بالفاء لشبه الموصول بالشرط وقيل على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين خسروا الخ وقيل على أنه نعت للموصول الاول وقيل النصب على الذم فقوله تعالى فهم لايؤمنون على الوجوه الاخيرة عطف على جملة الذين آتيناهم الكتاب الخ (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بوصفهم النبى الموعود فى الكتابين بخلاف أوصافه عليه الصلاة والسلام فانه افتراء على الله سبحانه وبقولهم الملائكة بنات الله وقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله ونحو ذلك وهو انكار واستبعاد لان يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له وان كان سبك التركيب غير متعرض لأنكار المساوات ونفيها يشهد به العرف الفاشي والاستعمال المطرد فانه اذا قيل من أكرم من فلان أولا أفضل من فلان فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل. ألا يرى إلى قوله عز وجل «لاجرم انهم فى الآخرة هم الاخسرون» بعد قوله تعالى «ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا» الخ والسر فى ذلك أن النسبة بين الشيئين انما تتصور غالبا لاسيما فى باب المغالبة بالتفاوت زيادة ونقصانا فاذا لم يكن احدهما ازيد يتحقق النقصان لامحالة (او كذب بآياته) كأن كذبوا بالقرآن الذى من جملته الآية الناطقة بأنهم يعرفونه عليه الصلاة والسلام كما يعرفون ابناءهم وبالمعجزات وسموها سحرا وحرفوا التوراة وغيروا نعوته عليه الصلاة والسلام فان ذلك تكذيب بآياته تعالى وكلمة او للايذان بأن كلا من الافتراء والتكذيب وحده بالغ غاية الافراط فى الظلم فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا مانفاه الله تعالى ونفوا ماأثبته قاتلهم الله أنى يؤفكون (انه) الضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الايذان بفخامة مضمونها مع مافيه من زيادة تقريره فى الذهن فان الضمير لايفهم منه من أول الأمر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل ان الشأن الخطير هذا هو (لايفلح الظالمون) أي لاينجون من مكروه ولا يفوزون

بمطلوب و اذا كان حال الظالمين هذا فما ظنك بمن فى الغاية القاصية من الظلم (ويوم نحشرهم جميعا) منصوب على الظرفية بمضمر مؤخر قد حذف ايذانا بضيق العبارة عن شرحه وبيانه وايماء إلى عدم استطاعة السامعين لسماعه لكمال فظاعة مايقع فيه من الطامة والداهية التامة كأنه قيل ويوم نحشرهم جميعا (ثم نقول) لهم مانقول كان من الاحوال والاهوال مالايحيط به دائرة المقال وتقدير صيغة الماضى للدلالة على التحقق ولحسن موقع عطف قوله تعالى ثم لم تكن الخ عليه وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم أى واذكر لهم للتخويف والتحذير يوم نحشرهم الخ وقيل وليتقوا أو ليحذروا يوم نحشرهم الخ والضمير للكل وجميعا حال منه. وقرئ يحشرهم جميعاً ثم يقول بالياء فيهما (للذين أشركوا) أى نقول لهم خاصة للتوبيخ و التقريع على رءوس الاشهاد (أين شركاؤكم) أى آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله سبحانه واضافتها اليهم لما أن شركتها ليست الا بتسميتهم وتقولهم الكاذب كما ينبئ عنه قوله تعالى (الذين كنتم تزعمون) أى تزعمونها شركاء فحذف المفعولان معا وهذا السؤال المنبئ عن غيبة الشركاء مع عموم الحشر لها لقوله تعالى «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله» وغير ذلك من النصوص انما يقع بعد ماجرى بينها وبينهم من التبرؤ من الجانبين وتقطع مابينهم من الاسباب والعلائق حسبما يحكيه قوله تعالى «فزيلنا بينهم» الخ ونحو ذلك من الآيات الكريمة أما بعدم حضورها حينئذ فى الحقيقة بابعادها من ذلك الموقف واما بتنزيل عدم حضورها بعنوان الشركة والشفاعة منزلة عدم حضورها فى الحقيقة اذ ليس السؤال عنها من حيث ذواتها بل انما هو من حيث انها شركاء كما يعرب عنه الوصف بالموصول ولا ريب فى أن عدم الوصف يوجب عدم الموصوف من حيث هو موصوف فهى من حيث هى شركاء غائبة لا محالة وان كانت حاضرة من حيث ذواتها أصناما كانت أو غيرها وأما مايقال من أنه يحال بينها وبينهم فى وقت التوبيخ ليفقدوهم فى الساعة التى علقوا بها الرجاء فيها فيرون امكان خزيهم وحسرتهم فربما يشعر بعدم شعورهم بحقيقة الحال وعدم انقطاع حبال رجائهم عنها بعد . وقد عرفت أنهم شاهدوها قبل ذلك و انصرمت عروة أطماعهم عنها بالكلية على أنها معلومة لهم من حين الموت والابتداء بالعذاب فى البرزخ وانما الذى يحصل يوم الحشر الانكشاف الجلى واليقين القوى المترتب على المحاضرة والمحاورة (ثم لم تكن فتنتهم) بتأنيث الفعل ورفع فتنتهم على أنه اسم له والخبر (الا أن قالوا) وقرئ بنصب فتنتهم على انه الخبر والاسم الا أن قالوا والتأنيث للخبر كما فى قولهم من كانت

أملك وقرىء بالتذكير مع رفع الفتنة ونصبها و رفعها أنسب بحسب المعنى والجملة عطف على ماقدر عاملا فى يوم نحشرهم كما أشير اليه فيما سلف والاستثناء مفرغ من أعم الاشياء و فتنتهم اما كفرهم مرادا به عاقبته أى لم تكن عاقبة كفرهم الذى لزموه مدة أعمارهم وافتخروا به شيئا من الأشياء الا جحوده والتبرؤ منه بأن يقولوا (والله ربنا ما كنا مشركين) وأما جوابهم عبر عنه بالفتنة لانه كذب و وصفه تعالى بربوبيته لهم للمبالغة فى التبرؤ من الاشراك وقرىء ربنا على النداء فهو لاظهار الضراعة والابتهال فى استدعاء قبول المعذرة وانما يقولون ذلك مع علمهم بانه بمعزل من النفع رأسا من فرط الحيرة و الدهش وحمله على معنى ما كنا مشركين عند أنفسنا وماعلمنا فى الدنيا أنا على خطأ فى معتقدنا مما لاينبغى أن يتوهم أصلا فانه ممايوهم أن لهم عذرا ما و أن لهم قدرة على الاعتذار فى الجملة وذلك مخل بكمال هول اليوم قطعا على أنه قد قضى ببطلانه قوله تعالى (أنظر كيف كذبوا على أنفسهم) فانه تعجيب من كذبهم الصريح بانكار صدور الاشراك عنهم فى الدنيا أى انظر كيف كذبوا على أنفسهم فى قولهم ذلك فانه أمر عجيب فى الغاية وأما حمله على كذبهم فى الدنيا فتمحل يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه وقوله تعالى (وضل عنهم ما كانوا يفترون) عطف على كذبوا داخل معه فى حكم التعجيب و ما مصدرية أو موصولة قد حذف عائدها والمعنى انظر كيف كذبوا باليمين الفاجرة المغلظة على أنفسهم بانكار صدور ماصدر عنهم وكيف ضل عنهم أى زال وذهب افتراؤهم أو ما كانوا يفترونه من الاشراك حتى نفوا صدوره عنهم بالكلية وتبرؤا منه بالمرة. وقيل ماعبارة عن الشركاء . وايقاع الافتراء عليها مع أنه فى الحقيقة واقع على أحوالها من الالهية و الشركة و الشفاعة ونحوها للمبالغة فى أمرها كأنها نفس المفترى وقيل الجملة كلام مستأنف غير داخل فى حيز التعجيب (ومنهم من يستمع اليك) كلام مبتدأ مسوق لحكاية ماصدر فى الدنيا عن بعض المشركين من أحكام الكفر ثم بيان ماسيصدر عنهم يوم الحشر تقريرا لما قبله وتحقيقا لمضمونه و الضمير للذين أشركوا ومحل الظرف الرفع على انه مبتدا باعتبار مضمونه او بتقدير الموصوف كما فى قوله تعالى «ومنا دون ذلك» اى وجمع منا الخ ومن موصولة اوموصوفة محلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعضهم او وبعض منهم الذى يستمع اليك او فريق يستمع اليك على ان مناط الافادة اتصافهم بما فى حيز الصلة او الصفة لا كونهم ذوات اولئك المذكورين وقد مر فى تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ روى أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل واضرابهم يستمعون تلاوة رسول

الله صلى الله عليه وسلم فقالوا للنضر وكان صاحب أخبار ياأبا قتيلة ما يقول محمد فقال والذى جعلها بيته ما أدرى ما يقول الا انه يحرك لسانه ويقول أساطير الاولين مثل ما حدثتكم من القرون الماضية فقال أبو سفيان انى لأراه حقا فقال أبو جهل كلا فنزلت (وجعلنا على قلوبهم أكنة) من الجعل بمعنى الانشاء وعلى متعلقة به وضمير قلوبهم راجع الى من وجمعيته بالنظر الى معناها كما أن افراد ضمير يستمع بالنظر الى لفظها وقد روعى جانب المعنى فى قوله تعالى «ومنهم من يستمعون اليك» الآية والأكنة جمع كنان وهو مايستر به الشىء وتنوينها للتفخيم والجملة اما مستأنفة للاخبار بما تضمنه من الختم أو حال من فاعل يستمع بأضمار قد عند من يقدرها قبل الماضى الواقع حالا أى يستمعون اليك وقد ألقينا على قلوبهم أغطية كثيرة لايقادر قدرها خارجة عما يتعارفه الناس (أن يفقهوه) أى كراهة أن يفقهوا مايستمعونه من القرآن المدلول عليه بذكر الاستماع ويجوز ان يكون مفعولا لما ينبىء عنه الكلام اى منعناهم ان يفقهوه (وفى آذانهم وقرا) صمما وثقلا مانعا من سماعه والكلام فيه كما فى قوله تعالى «على قلوبهم أكنة» وهذا تمثيل معرب عن كمال جهلهم بشئون النبى عليه الصلاة والسلام وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج اسماعهم له وقد مر تحقيقه فى أول سورة البقرة وقيل هو حكاية لما قالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر الآية. وانت خبير بأن مرادهم بذلك الاخبار بما اعتقدوه فى حق القرآن والنبى عليه الصلاة والسلام جهلا وكفرا من اتصافهما باوصاف مانعة من التصديق والايمان ككون القرآن سحرا وشعرا واساطير الاولين وقس عليه ماتخيلوه فى حق النبى صلى الله عليه وسلم لا الاخبار بأن هناك امرا وراء ذلك قد حال بينهم وبين ادراكه حائل من قبلهم حتى يمكن حمل النظم الكريم على ذلك (وان يروا كل آية) من الآيات القرآنية اى يشاهدوها بسماعها (لايؤمنوا بها) على عموم النفى لا على نفي العموم أى كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم اياها كما هى لما مر من حالهم (حتى اذا جاؤك يجادلونك) هى حتى التى تقع بعدها الجمل والجملة هى قوله تعالى اذا جاءوك يقول الذين كفروا وما بينهما حال من فاعل جاءوا وانما وضع الموصول موضع الضمير ذما لهم بما فى حيز الصلة واشعارا بعلة الحكم أى بلغوا من التكذيب والمكابرة الى أنهم اذا جاءوك مجادلين لك لا يكتفون بمجرد عدم الايمان بما سمعوا من الآيات الكريمة بل يقولون (ان هذا) أى ماهذا (الا أساطير الاولين) فان عد أحسن الحديث وأصدقه الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من قبيل الاباطيل والخرافات رتبة من الكفر لاغاية وراءها . ويجوز أن تكون حتى جارة واذا ظرفية بمعنى وقت مجيئهم. ويجادلونك حال كما سبق وقوله تعالى

يقول الذين كفروا الخ تفسير للمجادلة والأساطير جمع أسطورة أو اسطارة أو جمع اسطار وهو جمع سطر بالتحريك وأصل الكل السطر بمعنى الخط (وهم ينهون عنه) الضمير المرفوع للمذكورين والمجرور للقرآن أي لا يقنعون بما ذكر من تكذيبه وعده من قبيل الاساطير بل ينهون الناس عن استماعه لئلا يقفوا على حقيته فيؤمنوا به (وينأون عنه) أي يتباعدون عنه بأنفسهم اظهارا لغاية نفورهم عنه وتأكيدا لنهيهم عنه فان اجتناب الناهي عن المنهي عنه من متممات النهي ولعل ذلك هو السر في تأخير النأي عن النهي. وقيل الضمير المجرور للنبي عليه الصلاة والسلام وقيل المرفوع لابي طالب ولعل جمعيته باعتبار استتباعه لاتباعه فانه كان ينهى قريشا عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وينأى عنه فلا يؤمن به وروى أنهم اجتمعوا اليه وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سوءا فقال:

والله لن يصلوا اليك بجمعهم . حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ماعليك غضاضة . وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي . ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا لامحالة انه . من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذاري سبة . لوجدتني سمحا بذاك مبينا

فنزلت (وان يهلكون) أي ما يهلكون بما فعلوا من النهي والنأي (الا أنفسهم) بتعريضها لأشد العذاب وأفظعه عاجلا وآجلا . وهو عذاب الضلال والاضلال وقوله تعالى (وما يشعرون) حال من ضمير يهلكون أي يقصرون الاهلاك على أنفسهم والحال أنهم مايشعرون أي لا بأهلاكهم أنفسهم ولا باقتصار ذلك عليها من غير أن يضروا بذلك شيئا من القرآن والرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وانما عبر عنه بالاهلاك مع أن المنفي عن غيرهم مطلق الضرر اذ غاية مايؤدي اليه مافعلوا من القدح في القرآن الكريم الممانعة في تمشي أحكامه وظهور أمر الدين للايذان بأن مايحيق بهم هو الهلاك لا الضرر المطلق على أن مقصدهم لم يكن مطلق الممانعة فيما ذكر بل كانوا يبغون الغوائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ويجوز أن يكون الاهلاك معتبرا بالنسبة الى الذين يضلونهم بالنهي فقصره على أنفسهم حينئذ مع شموله للفريقين مبني على تنزيل عذاب الضلال عند عذاب الأضلال منزلة العدم (ولو ترى اذ وقفوا على النار) شروع في حكاية ماسيصدر عنهم يوم القيامة من القول المناقض لما صدر عنهم في الدنيا من القبائح المحكية مع كونه كذبا في نفسه والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد من أهل المشاهدة والعيان قصدا الى بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الشناعة

والفظاعة الى حيث لايختص استغرابها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الامور العجيبة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها وجواب لو محذوف ثقة بظهوره وإيذانا بقصور العبارة عن تفصيله وكذا مفعول ترى لدلالة مافى حيز الظرف عليه أي لو تراهم حين يوقفون على النار حتى يعاينوها لرأيت مالا يسعه التعبير وصيغة الماضي للدلالة على التحقق أو حين يطلعون عليها اطلاعا وهي تحتهم او يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها من قولهم: وقفته على كذا إذا فهمته وعرفته وقرىء وقفوا على البناء للفاعل من وقف عليه وقوفا (فقالوا ياليتنا نرد) اى الى الدنيا تمنيا للرجوع والخلاص وهيهات ولات حين مناص (ولا نكذب بآيات ربنا) أي بآياته الناطقة باحوال النار وأهوالها الآمرة باتقائها اذ هي التي تخطر حينئذ بالهم ويتحسرون على مافرطوا فى حقها أو بجميع آياته المنتظمة لتلك الايات انتظاما اوليا (ونكون من المؤمنين) بها العاملين بمقتضاها حتى لانرى هذا الموقف الهائل او نكون من فريق المؤمنين الناجين من العذاب الفائزين بحسن المآب ونصب الفعلين على جواب التمنى بأضمار ان بعد الواو واجرائها مجرى الفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود وابن اسحق فلانكذب والمعنى ان رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين وقيل ينسبك من ان المصدرية ومن الفعل بعدها مصدر ويقدر قبله مصدر متوهم فيعطف هذا عليه كانه قيل ليت لنا ردا وانتفاء تكذيب وكونا من المؤمنين. وقرىء برفعهما على انه كلام مستأنف كقوله دعنى ولا أعود أى وأنا لا أعود تركتنى أو لم تتركنى أو عطف على نرد أو حال من ضميره فيكون داخلا فى حكم التمنى كالوجه الاخير للنصب وتعلق التكذيب الآتى به لما تضمنه من العدة بالايمان وعدم التكذيب كمن قال: ليتنى رزقت مالا فأكافئك على صنيعك فانه متمن فى معنى الواعد فلو رزق مالا ولم يكافىء صاحبه يكون مكذبا لامحالة وقرىء برفع الاول ونصب الثانى وقد مر وجههما (بل بدالهم ماكانوا يخفون من قبل) اضراب عما ينبىء عنه التمنى من الوعد بتصديق الآيات والايمان بها أى ليس ذلك عن عزيمة صادقة ناشئة عن رغبة فى الايمان وشوق الى تحصيله والاتصاف به بل لانه ظهر لهم فى موقفهم ذلك ما كانوا يخفونه فى الدنيا من الداهية الدهياء وظنوا أنهم مواقعوها فلخوفها وهول مطلعها قالوا ما قالوا والمراد بها النار التى وقفوا عليها اذ هى التى سيق الكلام لتهويل أمرها والتعجيب من فظاعة حال الموقوفين عليها وبأخفائها تكذيبهم بها فان التكذيب بالشىء كفر به واخفاء له لامحالة. وإشاره على صريح التكذيب الوارد فى قوله عز وجل «هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون» وقوله تعالى «هذه النار التى كنتم بها تكذبون» مع كونه

أنسب بما قبله من قولهم ولا نكذب بآيات ربنا لمراعاة ما فى مقابلته من البدو هذا هو الذي تستدعيه جزالة النظم الكريم . وأما ماقيل من ان المراد بما يخفون كفرهم ومعاصيهم او قبائحهم وفضائحهم التى كانوا يكتمونها من الناس فتظهر فى صحفهم و بشهادة جوارحهم عليهم أو شركهم الذى يجحدون به فى بعض مواقف القيامة بقولهم و الله ربنا ما كنا مشركين ثم يظهر بما ذكر من شهادة الجوارح عليهم أو ما أخفاه رؤساء الكفرة عن أتباعهم من أمر البعث والنشور أو ما كتمه علماء أهل الكتابين من صحة نبوة النبي عليه الصلاة والسلام ونعوته الشريفة عن عوامهم على أن الضمير المجرور للعوام والمرفوع للخواص أو كفرهم الذى أخفوه عن المؤمنين والضمير المجرور للمؤمنين والمرفوع للمنافقين فبعد الاغضاء عما فى كل منها من الاعتساف والاختلال لاسبيل الى شيء من ذلك أصلا لما عرفت من أن سوق النظم الشريف لتهويل أمر النار وتفظيع حال أهلها وقد ذكر وقوفهم عليها وأشير الى انه اعتراهم عند ذلك من الخوف والخشية والحيرة والدهشة مالا يحيط به الوصف ورتب عليه تمنيهم المذكور بالفاء القاضية بسببية ما قبلها لما بعدها فاسقاط النار بعد ذلك من تلك السببية وهى فى نفسها أدهى الدواهى وأزجر الزواجر واسنادها الى شيء من الامور المذكورة التى دونها فى الهول والزجر مع عدم جريان ذكرها ثمة أمر يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله. وأما ما قيل من ان المراد جزاء ما كانوا يخفون فمن قبيل دخول البيوت من ظهورها وأبوابها مفتوحة فتأمل (ولو ردوا) أى من موقفهم ذلك الى الدنيا حسبما تمنوه وغاب عنهم ماشاهدوه من الاهوال (لعادوا لما نهوا عنه) من فنون القبائح التى من جملتها التكذيب المذكور ونسوا ماعاينوه بالكلية لاقتصار أنظارهم على الشاهد دون الغائب (وانهم لكاذبون) أى لقوم ديدنهم الكذب فى كل ما يأتون وما يذرون (وقالوا)عطف على عادوا داخل فى حيز الجواب وتوسيط قوله تعالى وانهم لكاذبون بينهما لانه اعتراض مسوق لتقرير ما أفاده الشرطية من كذبهم المخصوص ولو أخر لاوهم أن المراد تكذيبهم فى انكارهم البعث والمعنى لو ردوا الى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وقالوا (ان هى) أى ما الحياة (الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) بعد ما فارقنا هذه الحياة كان لم يروا ماراوا من الاحوال التي أولها البعث والنشور (ولوترى اذوقفوا على ربهم) الكلام فيه كالذى مر فى نظيره خلا أن الوقوف ههنا مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجانى بين يدى سيده للعقاب وقيل عرفوا ربهم حق التعريف وقيل وقفوا على جزاء ربهم وقوله تعالى (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام السابق كانه

قيل فماذا قال لهم ربهم اذ ذاك فقيل قال (أليس هذا) مشيرا الى ما شاهدوه من البعث وما يتبعه من الامور العظام (بالحق) تقريعا لهم على تكذيبهم لذلك وقولهم عند سماع ما يتعلق به ما هو بحق وما هو الا باطل (قالوا) استئناف كما سبق (بلى وربنا) أكدوا اعترافهم باليمين اظهارا لكمال يقينهم بحقيته وايذانا بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط طمعا فى نفعه (قال) استئناف كما مر (فذوقوا العذاب) الذي عاينتموه والفاء لترتيب التعذيب على اعترافهم بحقية ما كفروا به فى الدنيا لكن لا على ان مدار التعذيب هو اعترافهم بذلك بل هو كفرهم السابق بما اعترفوا بحقيته الآن كما نطق به قوله عز وجل (بما كنتم تكفرون) أى بسبب كفركم فى الدنيا بذلك أو بكل ما يجب الايمان به فيدخل كفرهم به دخولا أوليا ولعل هذا التوبيخ والتقريع انما يقع بعد ما وقفوا على النار فقالوا ما قالوا اذ الظاهر أنه لا يبقى بعد هذا الامر الا العذاب (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) هم الذين حكيت أحوالهم لكن وضع الموصول موضع الضمير للايذان بتسبب خسرانهم بما فى حيز الصلة من التكذيب بلقائه تعالى بقيام الساعة وما يترتب عليه من البعث وأحكامه المتفرعة عليه واستمرارهم على ذلك فان كلمة حتى فى قوله تعالى (حتى اذا جاءتهم الساعة) غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم فانه أبدى لا حد له (بغتة) البغت والبغتة مفاجأة الشيء بسرعة من غير شعور به يقال بغته بغتا وبغتة أى فجأة وانتصابها اما على أنها مصدر واقع موقع الحال من فاعل جاءتهم أي مباغتة أو من مفعوله أى مبغوتين واما على أنها مصدر مؤكد على غير الصدر فان جاءتهم فى معنى بغتتهم كقولهم أتيته ركضا أو مصدر مؤكد لفعل محذوف وقع حالا من فاعل جاءتهم أى جاءتهم الساعة تبغتهم بغتة (قالوا) جواب اذا (ياحسرتنا) تعالى فهذا أوانك والحسرة شدة الندم وهذا التحسر وان كان يعتريهم عند الموت لكن لما كان ذلك من مبادى الساعة سمى باسمها ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «من مات فقد قامت قيامته» أو جعل مجيء الساعة بعد الموت كالواقع بغير فترة لسرعته (على ما فرطنا) فيها أي على تفريطنا فى شأن الساعة وتقصيرنا فى مراعاة حقها والاستعداد لها بالايمان بها واكتساب الاعمال الصالحة كما فى قوله تعالى «على ما فرطت فى جنب الله» وقيل الضمير للحياة الدنيا وان لم يجر لها ذكر لكونها معلومة والتفريط التقصير فى الشيء مع القدرة على فعله وقيل هو التضييع وقيل الفرط السبق ومنه الفارط أى السابق ومعنى فرط خلى السبق لغيره فالتضعيف فيه للسلب كما فى جلدت البعير وقوله تعالى (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) حال من فاعل قالوا فائدته الايذان بأن عذابهم ليس مقصورا على ما ذكر من الحسرة على

ما فات وزال بل يقاسون مع ذلك تحمل الاوزار الثقال والآثام الى أن تلك الحسرة من الشدة بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من فنون العقوبات والسر فى ذلك أن العذاب الروحانى أشد من الجسمانى نعوذ برحمة الله عز وجل منهما والوزر فى الاصل الحمل الثقيل سمى به الاثم والذنب لغاية ثقله على صاحبه وذكر الظهور كذكر الايدى فى قوله تعالى «فبما كسبت أيديكم» فان المعتاد حمل الاثقال على الظهور كما أن المألوف هو الكسب بالايدى والمعنى انهم يتحسرون على مالم يعملوا من الحسنات والحال أنهم يحملون أوزار ما عملوا من السيئات (ألا ساء ما يزرون) تذييل مقرر لما قبله وتكملة له أي بئس شيأ يزرونه وزرهم (وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو) لما حقق فيما سبق أن وراء الحياة الدنيا حياة أخري يلقون فيها من الخطوب ما يلقون بين بعده حال تينك الحياتين فى أنفسهما . واللعب عمل يشغل النفس ويفترها عما تنتفع به . واللهو صرفها عن الجد الى الهزل والمعنى اما على حذف المضاف أو على جعل الحياة الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة كما فى قول الخنساء فانما هي اقبال وأدبار أى وما أعمال الدنيا أى الاعمال المتعلقة بها من حيث هى هى أو وماهى من حيث أنها محل لكسب تلك الاعمال الالعب يشغل الناس ويلهيهم بما فيه من منفعة سريعة الزوال ولذة وشيكة الاضمحلال عما يعقبهم منفعة جليلة باقية ولذة حقيقية غير متناهية من الايمان والعمل الصالح (وللدار الآخرة) التى هى محل الحياة الاخرى (خير للذين يتقون) الكفر والمعاصى لان منافعها خالصة عن المضار ولذاتها غير منغصة بالآلام مستمرة على الدوام (أفلا تعقلون) ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والعصيان والفاء للعطف على مقدر أى أتغفلون فلا تعقلون أو ألا تتفكرون فتعقلون وقرىء يعقلون على الغيبة (قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون) استئناف مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحزن الذى يعتريه مما حكى عن الكفرة من الاصرار على التكذيب والمبالغة فيه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانة من الله عز وجل وأن مايفعلون فى حقه فهو راجع اليه تعالى فى الحقيقة وأنه ينتقم منهم لا محالة أشد انتقام وكلمة قد لتأكيد العلم بما ذكر المفيد لتأكيد الوعيد كما فى قوله تعالى «قد يعلم ماأنتم عليه» وقوله تعالى «قد يعلم الله المعوقين» ونحوهما باخراجها الى معنى التكثير حسبما يخرج اليه ربما فى مثل قوله :

وان تمس مهجور الفناء فربما أقام به بعد الوفود وفود

جريا على سنن العرب عند قصد الافراط فى التكثير تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب فارس عندى وعنده مقانب جمة يريد بذلك التمادى فى

تكثير فرسانه ولكنه يروم اظهار براءته عن التزيد وابراز أنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا عن تكثير القليل وعليه قوله عز وجل «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» وهذه طريقة انما تسلك عند كون الامر من الوضوح بحيث لا تحوم حوله شائبة ريب حقيقة كما فى الآيات الكريمة المذكورة أو ادعاء كما فى البيت وقوله :

قد أترك القرن مصفرا أنامله وقوله ولكنه قد يهلك المال نائله

والمراد بكثرة علمه تعالى كثرة تعلقه وهو متعد الى اثنين وما بعده ساد مسدهما واسم أن ضمير الشأن وخبرها الجملة المفسرة له والموصول فاعل يحزنك وعائده محذوف أي الذى يقولونه وهو ما حكى عنهم من قولهم أن هذا الا أساطير الاولين ونحو ذلك وقرئ ليحزنك من أحزان المنقول من حزن اللازم وقوله تعالى (فانهم لا يكذبونك) تعليل لما يشعر به الكلام السابق من النهى عن الاعتداد بما قالوا لكن لا بطريق التشاغل عنه وعده هينا والاقبال التام على ما هو أهم منه من استعظام جحودهم بآيات الله عز وجل كما قيل فانه مع كونه بمعزل من التسلية بالكلية مما يوهم كون حزنه عليه الصلاة والسلام لخاصة نفسه بل بطريق التسلى بما يفيده من بلوغه عليه الصلاة والسلام فى جلالة القدر ورفعة المحل والزلفى من الله عز وجل الى حيث لا غاية وراءه حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه عليه الصلاة والسلام تكذيبا لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله» بل نفى تكذيبهم عنه عليه الصلاة والسلام وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى «إن الذين يبايعونك انما يبايعون الله» ايذانا بكمال القرب واضمحلال شؤنه عليه الصلاة والسلام فى شأن الله عز وجل نعم فيه استعظام لجنايتهم منبئ عن عظم عقوبتهم كانه قيل لا تعتد به وكله الى الله تعالى فانهم فى تكذيبهم ذلك لا يكذبونك فى الحقيقة (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أى ولكنهم بآياته تعالى يكذبون فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالرسوخ فى الظلم الذى جحودهم هذا فن من فنونه. والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة واستعظام ما أقدموا عليه من جحود آياته تعالى. وايراد الجحود فى مورد التكذيب للايذان بأن آياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كل أحد وأن من ينكرها فانما ينكرها بطريق الجحود الذى هو عبارة عن الانكار مع العلم بخلافه كما فى قوله تعالى «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم» وهو المعنى بقول من قال أنه نفى ما فى القلب اثباته أو اثبات ما فى القلب نفيه والباء متعلقة بيجحدون يقال جحد حقه وبحقه اذا أنكره وهو يعلمه وقيل هو لتضمين الجحود معنى التكذيب وأيا ما كان فتقديم الجار والمجرور للقصر وقيل المعنى فانهم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بألسنتهم ويعضده ما روى من أن

الاخنس بن شريق قال لابى جهل ياأبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس عندنا أحد غيرنا فقال له والله ان محمدا صادق وما كذب قط ولكن اذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فنزلت وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمى الامين فعرفوا أنه لا يكذب فى شيء ولكنهم كانوا يجحدون وقيل فانهم لا يكذبونك لانك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ولكنهم يجحدون بآيات الله كما يروى أن أبا جهل كان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما نكذبك وانك عندنا لصادق ولكنا نكذب ماجئتنا به فنزلت. وكأن صدق المخبر عند الخبيث بمطابقة خبره لاعتقاده والاول هو الذى تستدعيه الجزالة التنزيلية. وقرىء لا يكذبون من الأكذاب فقيل كلاهما بمعنى واحد كأكثر وكثر وأنزل ونزل وهو الاظهر وقيل معنى أكذبه وجده كاذبا ونقل عن الكسائى أن العرب تقول كذبت الرجل أى نسبت الكذب اليه وأكذبته أى نسبت الكذب الى ماجاء به لا أليه وقوله تعالى (ولقد كذبت رسل من قبلك) افتنان فى تسليته عليه الصلاة والسلام فان عموم البلية ربما يهون أمرها بعض تهوين وارشاد له عليه الصلاة والسلام الى الاقتداء بمن قبله من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام فى الصبر على ماأصابهم من أممهم من فنون الاذية وعدة ضمنية له عليه الصلاة والسلام بمثل مامنحوه من النصر. وتصدير الكلام بالقسم لتأكيد التسلية وتنوين رسل للتفخيم والتكثير ومن إما متعلقة بكذبت أو بمحذوف وقع صفة لرسل أى وبالله لقد كذبت من قبل تكذيبك رسل أولو شأن خطير وذو وعدد كثير أو كذبت رسل كانوا من زمان قبل زمانك (فصبروا على ما كذبوا) ما مصدرية وقوله تعالى (وأوذوا) عطف على كذبوا داخل فى حكمه فانسبك منهما مصدران من المبني للمفعول أى فصبروا على تكذيبهم وايذائهم فتأس بهم واصطبر على مانالك من قومك والمراد بأيذائهم اما عين تكذيبهم واما مايقارنه من فنون الايذاء لم يصرح به ثقة باستلزام التكذيب اياه غالبا واياما كان ففيه تأكيد للتسلية وقيل عطف على صبروا وقيل على كذبت وقيل هو استئناف وقوله تعالى (حتى أتاهم نصرنا) غاية للصبر وفيه ايذان بأن نصره تعالى اياهم أمر مقرر لامرد له وأنه متوجه اليهم لابد من أتيانه ألبتة والالتفات الى نون العظمة لابراز الاعتناء بشأن النصر وقوله تعالى (ولا مبدل لكلمات الله) اعتراض مقرر لما قبله من اتيان نصره اياهم والمراد بكلماته تعالى ماينبىء عنه قوله تعالى « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم

الغالبون» وقوله تعالى «كتب الله لأغلبن أنا ورسلي» من المواعيد السابقة للرسل عليهم الصلاة والسلام الدالة على نصرة رسول الله أيضا لانفس الآيات المذكورة ونظائرها فان الاخبار بعدم تبدلها انما يفيد عدم تبدل المواعيد الواردة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة دون المواعيد السابقة للرسل عليهم الصلاة والسلام ويجوز أن يراد بكلماته تعالى جميع كلماته التي من جملتها تلك المواعيد الكريمة ويدخل فيها المواعيد الواردة في حقه عليه الصلاة والسلام دخولا أوليا والالتفات الى الاسم الجليل للاشعار بعلة الحكم فان الالوهية من موجبات أن لا يغالبه أحد في فعل من الافعال ولا يقع منه تعالى خلف في قول من الاقوال وقوله تعالى (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) جملة قسمية جيء بها لتحقيق مامنحوا من النصر وتأكيد ما في ضمنه من الوعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لتقرير جميع ما ذكر من تكذيب الامم وماترتب عليه من الامور والجار والمجرور في محل الرفع على أنه فاعل اما باعتبار مضمونه أي بعض نبأ المرسلين . أو بتقدير الموصوف أي بعض من نبأ المرسلين كما مر في تفسير قوله تعالى «ومن الناس من يقول آمنا بالله» الآية واياما كان فالمراد بنبئهم عليه السلام على الاول نصره تعالى اياهم بعد اللتيا والتي وعلى الثاني جميع ماجرى بينهم وبين أممهم على ماينبيء عنه قوله تعالى «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا» الآية وقيل في محل النصب على الحالية من المستكن في جاء العائد الى مايفهم من الجملة السابقة أي ولقد جاءك هذا الخبر كائنا من نبأ المرسلين (وان كان كبر عليك اعراضهم) كلام مستأنف مسوق لتأكيد ايجاب الصبر المستفاد من التسلية ببيان أنه أمر لامحيد عنه أصلا أي أن كان عظم عليك وشق أعراضهم عن الايمان بما جئت به من القرآن الكريم حسبما يفصح عنه ماحكى عنهم من تسميتهم له أساطير الاولين وتنائيهم عنه ونهيهم الناس عنه . وقيل ان الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في محضر من قريش فقال يامحمد ائتنا بآية من عند الله كما كانت الانبياء تفعل وأنا أصدقك فأبى الله أن يأتي بآية مما اقترحوا فأعرضوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك عليه لما أنه عليه الصلاة والسلام كان شديد الحرص على ايمان قومه فكان اذا سألوا آية يود أن ينزلها الله تعالى طمعا في ايمانهم فنزلت . فقوله تعالى اعراضهم مرتفع بكبر . وتقديم الجار والمجرور عليه لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر والجملة في محل النصب على أنها خبر لكان مفسرة لاسمها الذي هو ضمير الشان ولا حاجة الى تقدير قد وقيل

اسم كان اعراضهم وكبر جملة فعلية فى محل النصب على أنها خبر لها مقدم على اسمها لانه فعل رافع لضمير مستتر كما هو المشهور وعلى التقديرين فقوله تعالى (فان استطعت) الخ شرطية أخرى محذوفة الجواب وقعت جوابا للشرط الأول والمعنى إن شق عليك اعراضهم عن الايمان بما جئت به من البينات وعدم عدهم لها من قبيل الآيات وأحببت أن تجيبهم الى ماسألوه اقتراحا فان استطعت (أن تبتغى نفقا) أى سربا ومنفذا (فى الارض) تنفذ فيه الى جوفها (أو سلما) أى مصعدا (فى السماء) تعرج به فيها (فتأتيهم) منهما (بآية) مما اقترحوه فافعل وقد جوز أن يكون ابتغاؤهما نفس الاتيان بالآية فالفاء فى فتأتيهم حينئذ تفسيرية . وتنوين آية للتفخيم أى فان استطعت أن تبتغيهما فتجعل ذلك آية لهم فافعل . والظرفان متعلقان بمحذوفين هما نعتان لنفقا وسلما والاول لمجرد التأكيد اذ النفق لا يكون الا فى الارض. أو بتبتغى وقد جوز تعلقهما بمحذوف وقع حالا من فاعل تبتغى أى أن تبتغ نفقا كائنا أنت فى الأرض أو سلما كائنا فى السماء . وفيه من الدلالة على تبالغ حرصه عليه الصلاة والسلام على إسلام قومه وترامیه الى حيث لو قدر على أن يأتى بآية من تحت الارض أو من فوق السماء لفعل رجاء لأيمانهم مالا يخفى. وايثار الابتغاء على الاتخاذ ونحوه للايذان بأن ما ذكر من النفق والسلم مما لا يستطاع ابتغاؤه فكيف باتخاذه (ولوشاء الله لجمعهم على الهدى) أى ولو شاء الله تعالى أن يجمعهم على ماأنتم عليه من الهدى لفعله بأن يوفقهم للايمان فيؤمنوا معكم ولكن لم يشأ لعدم صرف اختيارهم الى جانب الهدى مع تمكنهم التام منه فى مشاهدتهم للآيات الداعية اليه لا أنه تعالى لم يوفقهم له مع توجههم الى تحصيله وقيل لوشاء الله لجمعهم عليه بأن يأتيهم بآية ملجئة اليه ولكن لم يفعله لخروجه عن الحكمة وقوله تعالى (فلا تكونن من الجاهلين) نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان عليه من الحرص الشديد على اسلامهم والميل الى اتيان مايقترحونه من الآيات طمعا فى إيمانهم مرتب على بيان عدم تعلق مشيئته تعالى بهدايتهم. والمعنى واذا عرفت أنه تعالى لم يشأ هدايتهم وايمانهم باحد الوجهين فلا تكونن بالحرص الشديد على اسلامهم أو الميل الى نزول مقترحاتهم من الجاهلين بدقائق شئونه تعالى التى من جملتها ماذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بايمانهم أما اختيارا فلعدم توجههم اليه وأما اضطرارا فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار ويجوز أن يراد بالجاهلين على الوجه الثانى المقترحون ويراد بالنهى منعه عليه الصلاة والسلام من المساعدة على اقتراحهم وايرادهم بعنوان الجهل دون الكفر ونحوه لتحقيق مناط النهى الذى هو الوصف الجامع بينه عليه

الصلاة والسلام وبينهم (انما يستجيب الذين يسمعون) تقرير لما مر من أن على قلوبهم أكنة مانعة من الفقه وفى آذانهم وقرا حاجزا من السماع وتحقيق لكونهم بذلك من قبيل الموتى لايتصور منهم الايمان ألبتة والاستجابة الاجابة المقارنة للقبول أى انما يقبل دعوتك الى الايمان الذين يسمعون مايلقى اليهم سماع تفهم وتدبر دون الموتى الذين هؤلاء منهم كقوله تعالى «انك لاتسمع الموتى» وقوله تعالى (والموتى يبعثهم الله) تمثيل لاختصاصه تعالى بالقدرة على توفيقهم للايمان باختصاصه تعالى بالقدرة على بعث الموتى من القبور وقيل بيان لاستمرارهم على الكفر وعدم اقلاعهم عنه أصلا على أن الموتى مستعار للكفرة بناء على تشبيه جهلهم بموتهم أى وهؤلاء الكفرة يبعثهم الله تعالى من قبورهم (ثم اليه يرجعون) للجزاء فحينئذ يستجيبون واما قبل ذلك فلا سبيل اليه . وقرىء يرجعون على البنا للفاعل من رجع رجوعا والمشهورة أوفى بحق المقام لأنبائه عن كون مرجعهم اليه تعالى بطريق الاضطرار (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه) حكاية لبعض آخر من اباطيلهم بعد حكاية ما قالوا فى حق القرآن الكريم وبيان مايتعلق به والقائلون رؤساء قريش وقيل الحرث بن عامر بن نوفل واصحابه ولقد بلغت بهم الضلالة والطغيان الى حيث لم يقتنعوا بما شاهدوا من البينات التى تخر لها صم الجبال حتى اجترءوا على ادعاء أنها ليست من قبيل الآيات وانما هى مااقترحوه من الخوارق الملجئة أو المعقبة للعذاب كما قالوا : اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السما الآية والتنزيل بمعنى الانزال كما تنبئ عنه القراءة بالتخفيف فيما سيأتى . وما يفيده التعرض لعنوان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من الاشعار بالعلية انما هو بطريق التعرض بالتهكم من جهتهم وإطلاق الآية فى قوله تعالى (قل ان الله قادر على ان ينزل آية) مع أن المراد بها ما هو من الخوارق المذكورة لا آية ما من الآيات لفساد المعنى مجاراة معهم على زعمهم ويجوز أن يراد بها آية موجبة لهلاكهم كانزال ملائكة العذاب ونحوه على أن تنوينها للتفخيم والتهويل كما أن اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة مع ما فيه من الاشعار بعلة القدرة الباهرة والاقتصار فى الجواب على بيان قدرته تعالى على تنزيلها مع أنها ليست فى حيز الانكار للايذان بأن عدم تنزيله تعالى أياها مع قدرته عليه لحكمة بالغة يجب معرفتها وهم عنها غافلون كما ينبىء عنه الاستدراك بقوله تعالى (ولكن أكثرهم لايعلمون) أى ليسوا من أهل العلم على أن المفعول مطروح بالكلية أو لايعلمون شيئا على انه محذوف مدلول عليه بقرينة المقام والمعنى أنه تعالى قادر على أن ينزل آية من ذلك أو آية أى آية ولكن اكثرهم لايعلمون فلا يدرون أن عدم تنزيلها مع ظهور قدرته عليه لما أن فى تنزيلها قلعا لأساس التكليف المبنى على قاعدة

الاختيار أو استئصالاهم بالكلية فيقترحونها جهلا و يتخذون بها عدم تنزيلها ذريعة الى التكذيب و تخصيص عدم العلم بأكثرهم لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال وانما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعنادا وقوله تعالى (وما من دابة فى الارض) الخ كلام مستأنف مسوق لبيان كمال قدرته عز وجل وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه تعالى قادر على تنزيل الآية وانما لا ينزلها محافظة على الحكم البالغة . وزيادة من لتأكيد الاستغراق وفى متعلقة بمحذوف هو وصف لدابة مفيد لزيادة التعميم كأنه قيل ومافرد من أفراد الدواب يستقر فى قطر من أقطار الارض وكذا زيادة الوصف فى قوله تعالى (ولا طائر يطير بجناحيه) مع ما فيه من زيادة التقرير أى ولا طائر من الطيور يطير فى ناحية من نواحي الجو بجناحيه كما هو المشاهد المعتاد وقرىء ولا طائر بالرفع عطفا على محل الجار والمجرور كأنه قيل ومادابة ولا طائر (الا أمم) أى طوائف متخالفة والجمع باعتبار المعنى كأنه قيل وما من دواب ولا طير الا أمم (أمثالكم) أى كل أمة منها مثلكم فى ان أحوالها محفوظة وأمورها مقننة ومصالحها مرعية جارية على سنن السداد ومنتظمة فى سلك التقديرات الالهية والتدبيرات الربانية (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) يقال فرط الشيء أى ضيعه وتركه قال ساعدة بن جؤية . معه سقاء لا يفرط حمله . أى لا يتركه ولا يفارقه ويقال فرط فى الشيء أى أهمل ما ينبغى أن يكون فيه وأغفله فقوله تعالى: فى الكتاب أى فى القرآن على الاول ظرف لغو وقوله تعالى: من شيء مفعول لفرطنا ومن مزيدة للاستغراق أى ما تركنا فى القرآن شيئا من الاشياء المهمة التي من جملتها بيان أنه تعالى مراع لمصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغى وعلى الثانى مفعول للفعل ومن شيء فى موضع المصدر أى ما جعلنا الكتاب مفرطا فيه شيئا من التفريط بل ذكرنا فيه كل مالا بد من ذكره وأياما كان فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها وقيل الكتاب اللوح فالمراد بالاعتراض الاشارة الى أن أحوال الامم مستقصاة فى اللوح المحفوظ غير مقصورة على هذا القدر المجمل . وقرىء فرطنا بالتخفيف وقوله تعالى (ثم الى ربهم يحشرون) بيان لأحوال الأمم المذكورة فى الآخرة بعد بيان أحوالها فى الدنيا . وايراد ضميرها على صيغة جمع العقلاء لاجرائها مجراهم والتعبير عنها بالأمم أي الى مالك أمورهم يحشرون يوم القيامة كدأبكم لا الى غيره فيجازيهم فينصف بعضهم من بعض حتى يبلغ من عدله أن يأخذ للجماء من القرناء . وقيل حشرها موتها ويأباه مقام تهويل الخطب وتفظيع الحال وقوله تعالى (والذين كذبوا بآياتنا) متعلق بقوله تعالى «مافرطنا فى الكتاب من شيء» والموصول عبارة عن المعهودين فى قوله تعالى «ومنهم من يستمع اليك» الآيات ومحله الرفع على الابتداء

خبره ما بعده أي أوردنا في القرآن جميع الأمور المهمة وأزحنا به العلل والأعذار والذين كذبوا بآياتنا التي هي منه (صم) لا يسمعونها سمع تدبر وفهم فلذلك يسمونها أساطير الاولين ولا يعدونها من الآيات ويقترحون غيرها (وبكم) لا يقدرون على أن ينطقوا بالحق ولذلك لا يستجيبون دعوتك بها وقوله تعالى (في الظلمات) أي في ظلمات الكفر أو ظلمات الجهل والعناد والتقليد اما خبر ثان للمبتدا على أنه عبارة عن العمى كما في قوله تعالى «صم بكم عمى» واما متعلق بمحذوف وقع حالا من المستكن في الخبر كأنه قيل ضالون كائنين في الظلمات أو صفة لبكم أي بكم كائنون في الظلمات والمراد به بيان كمال غراقتهم في الجهل وسوء الحال فان الاصم الابكم اذا كان بصيرا ربما يفهم شيئا بأشارة غيره وان لم يفهمه بعبارته وكذا يشعر غيره بما في ضميره بالاشارة وان كان معزولا عن العبارة وأما اذا كان مع ذلك أعمى أو كان في الظلمات فينسد عليه باب الفهم والتفهيم بالكلية وقوله تعالى (من يشأ الله يضلله) تحقيق للحق وتقرير لما سبق من حالهم ببيان أنهم من أهل الطبع لا يتأتى منهم الايمان أصلا فمن مبتدأ خبره ما بعده ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وانتفاء الغرابة في تعلقها به أي من يشاء الله أضلاله أي ان يخلق فيه الضلال يضلله أي يخلقه فيه لكن لا ابتداء بطريق الجبر من غير أن يكون له دخل ما في ذلك بل عند صرف اختياره الى كسبه وتحصيله وقس عليه قوله تعالى (ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) لا يضل من ذهب اليه ولا يزل من ثبت قدمه عليه (قل أرأيتكم) أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبكتهم ويلقمهم الحجر بما لا سبيل لهم الى النكير والكاف حرف جيء به لتأكيد الخطاب لا محل له من الأعراب . ومبنى التركيب وان كان على الاستخبار عن الرؤية قلبية كانت أو بصرية لكن المراد به الاستخبار عن متعلقها أي أخبروني (ان أتاكم عذاب الله) حسبما أتى الامم السابقة من أنواع العذاب الدنيوي (أو أتتكم الساعة) التي لا محيص عنها ألبتة (أغير الله تدعون) هذا مناط الاستخبار ومحط التبكيت وقوله تعالى (ان كنتم صادقين) متعلق بأرأيتكم مؤكد للتبكيت كاشف عن كذبهم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أي ان كنتم صادقين في أن أصنامكم آلهة كما أنها دعواكم المعروفة أو ان كنتم قوما صادقين فأخبروني أغير الله تدعون ان أتاكم عذاب الله الخ فان صدقهم بأي معنى كان من موجبات أخبارهم بدعائهم غيره سبحانه. وأما جعل الجواب ما يدل عليه قوله تعالى «أغير الله تدعون» أعني فادعوه على أن الضمير لغير الله فمخل بجزالة النظم الكريم كيف

لا والمطلوب منهم انما هو الاخبار بدعائهم غيره تعالى عند اتيان ما يأتى لا نفس دعائهم اياه وقوله تعالى (بل اياه تدعون) عطف على جملة منفية تنبئ عنها الجملة التى تعلق بها الاستخبار أنباء جليا كأنه قيل لا غيره تعالى تدعون بل اياه تدعون وقوله تعالى (فيكشف ماتدعون اليه) أى الى كشفه عطف على تدعون أى فيكشفه اثر دعائكم وقوله تعالى (ان شاء) أى ان شاء كشفه لبيان أن قبول دعائهم غير مطرد بل هو تابع لمشيئته المبنية على حكم خفية قد استأثر الله تعالى بعلمها فقد يقبله كما فى بعض دعواتهم المتعلقة بكشف العذاب الدنيوى وقد لا يقبله كما فى بعض آخر منها وفى جميع مايتعلق بكشف العذاب الاخروى الذى من جملته الساعة وقوله تعالى (وتنسون ماتشركون) أى تتركون ماتشركونه به تعالى من الاصنام تركا كليا عطف على تدعون أيضا وتوسيط الكشف بينهما مع تقارنهما وتأخر الكشف عنهما لاظهار كمال العناية بشأن الكشف والايذان بترتبه على الدعاء خاصة وقوله تعالى (ولقد أرسلنا) كلام مستأنف مسوق لبيان أن منهم من لا يدعوا الله تعالى عند اتيان العذاب أيضا لتماديهم فى الغى والضلال لا يتأثرون بالزواجر التكوينية كما لا يتأثرون بالزواجر التنزيلية وتصديره بالجملة القسمية لاظهار مزيد الاهتمام بمضمونه ومفعول أرسلنا محذوف لما أن مقتضى المقام بيان حال المرسل اليهم لا حال المرسلين اى و بالله لقد أرسلنا رسلا (الى أمم) كثيرة (من قبلك) أى كائنة من زمان قبل زمانك (فأخذناهم) أى فكذبوا رسلهم فأخذناهم (بالبأساء) أى بالشدة والفقر (والضراء) أى الضر والآفات وهما صيغتا تأنيث لا مذكر لهما (لعلهم يتضرعون) أى لكى يدعوا الله تعالى فى كشفها بالتضرع والتذلل و يتوبوا اليه من كفرهم ومعاصيهم (فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا) أي فلم يتضرعوا حينئذ مع تحقق مايستدعيه (ولكن قست قلوبهم) استدراك عما قبله أي فلم يتضرعوا اليه تعالى برقة القلب والخضوع مع تحقق مايدعوهم اليه ولكن ظهر منهم نقيضه حيث قست قلوبهم أى استمرت على ماهى عليه من القساوة او ازدادت قساوة كقولك : لم يكرمنى اذ جئته ولكن اهاننى (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) من الكفر والمعاصى فلم يخطروا ببالهم أن ما اعتراهم من البأساء والضراء ما اعتراهم الا لأجله وقيل الاستدراك لبيان انه لم يكن لهم فى ترك التضرع عذر سوى قسوة قلوبهم والاعجاب بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم وقوله تعالى (فلما نسوا ماذكروا به) عطف على مقدر ينساق اليه النظم الكريم اى فانهمكوا فيه ونسوا ما ذكروا به من البأساء والضراء فلما نسوه (فتحنا عليهم ابواب كل شيء

من فنون التحاء على منهاج الاستدراج لما روى انه عليه الصلاة والسلام قال «مكر بالقوم ورب الكعبة» وقرئ فتحنا بالتشديد للتكثير وفى ترتيب الفتح على النسيان المذكور اشعار بأن التذكر فى الجملة غير خال عن النفع وحتى فى قوله تعالى (حتى اذا فرحوا بما أوتوا) هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية كما فى قوله تعالى «حتى اذا جاء امرنا» الآية ونظائره وهى مع ذلك غاية لقوله تعالي فتحنا او لما يدل هو عليه كانه قيل ففعلوا مافعلوا حتي اذا اطمأنوا بما أتيح لهم وبطروا واشروا (أخذناهم بغتة) أي نزل بهم عذابنا فجأة ليكون أشد عليهم وقعا وأفظع هولا (فاذا هم مبلسون) متحسرون غاية الحسرة آيسون من كل خير واجمون . وفى الجملة الاسمية دلالة على استقرارهم على تلك الحالة الفظيعة (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أي آخرهم بحيث لم يبق منهم احد من دبره دبرا ودبورا أي تبعه ووضع الظاهر موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم فان هلاكهم بسبب ظلمهم الذى هو وضع الكفر موضع الشكر واقامة المعاصى مقام الطاعات (والحمد لله رب العالمين) على ماجري عليهم من النكال فان اهلاك الكفار والعصاة من حيث أنه تخليص لأهل الارض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة مستجلبة للحمد لاسيما مع ما فيه من اعلاء كلمة الحق التى نطقت بها رسلهم عليهم السلام (قل أرأيتم) أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتكرير التبكيت عليهم وتثنية الالزام بعد تكملة الالزام الاول ببيان أنه أمر مستمر لم يزل جاريا فى الامم وهذا أيضا استخبار عن متعلق الرؤية وان كان بحسب الظاهر استخباراً عن نفس الرؤية (ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم) بأن أصمكم وأعماكم بالكلية (وختم على قلوبكم) بأن غطى عليها بما لايبقى لكم معه عقل وفهم أصلا وتصيرون مجانين ويجوز أن يكون الختم عطفا تفسيريا للاخذ المذكور فان السمع والبصر طريقان للقلب منهما يرد مايرده من المدركات فأخذهما سدا لبابه بالكلية وهو السر فى تقديم أخذهما على ختمهما. وأما تقديم السمع على الأبصار فلانه مورد الآيات القرآنية وأفراده لما أن أصله مصدر وقوله تعالى (من إله) مبتدأ وخبر ومن استفهامية وقوله تعالى (غير الله) صفة للخبر وقوله تعالى (يأتيكم به) أى بذلك على أن الضمير مستعار لاسم الاشارة أو بما أخذ وختم عليه صفة أخرى له والجملة متعلق الرؤية ومناط الاستخبار أى أخبرونى أن سلب الله مشاعركم من إله غيره تعالى يأتيكم بها وقوله تعالى (أنظر كيف نصرف الآيات) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عدم تأثرهم بما عاينوا من الآيات الباهرة أى أنظر كيف نكررها ونقررها مصروفة

من أسلوب الى أسلوب تارة بترتيب المقدمات العقلية وتارة بطريق الترغيب والترهيب وتارة بالتنبيه والتذكير (ثم هم يصدفون) عطف على نصرف داخل فى حكمه وهو العمدة فى التعجيب وثم لاستبعاد صدوفهم أى أعراضهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديع الموجب للاقبال عليها (قل أرأيتكم) تبكيت آخر لهم بالجائهم الى الاعتراف باختصاص العذاب بهم (ان أتاكم عذاب الله) أى عذابه العاجل الخاص بكم كما أتى من قبلكم من الامم (بغتة) أي فجأة من غير أن يظهر منه مخايل الاتيان وحيث تضمن هذا معنى الخفية قوبل بقوله تعالى (أو جهرة) أى بعد ظهور أماراته وعلائمه وقيل ليلا أو نهارا كما فى قوله تعالى «بياتا أو نهارا» لما أن الغالب فيما أتى ليلا البغتة وفيما أتى نهارا الجهرة. وقرىء بغتة أو جهرة وهما فى موضع المصدر أى أتيان بغتة أو اتيان جهرة وتقديم البغتة لكونها أهول وأفظع وقوله تعالى (هل يهلك) متعلق الاستخبار والاستفهام للتقرير أى قل لهم تقريرا لهم باختصاص الهلاك بهم أخبرونى أن أتاكم عذابه تعالى حسبما تستحقونه هل يهلك بذلك العذاب الا أنتم أى هل يهلك غيركم ممن لا يستحقه وانما وضع موضعه (إلا القوم الظالمون) تسجيلا عليهم بالظلم وإيذانا بأن مناط أهلاكهم ظلمهم الذى هو وضعهم الكفر موضع الايمان. وقيل المراد بالظالمين الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا قال الزجاج هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم ويأباه تخصيص الأتيان بهم. وقيل الاستفهام بمعنى النفى فمتعلق الاستخبار حينئذ محذوف كأنه قيل أخبرونى إن أتاكم عذابه تعالى بغتة أو جهرة ماذا يكون الحال ثم قيل بيانا لذلك ما يهلك الا القوم الظالمون أي ما يهلك بذلك العذاب الخاص بكم الا أنتم فمن قيد الهلاك بهلاك التعذيب والسخط لتحقيق الحصر باخراج غير الظالمين لما أنه ليس بطريق التعذيب والسخط بل بطريق الأثابة ورفع الدرجة فقد أهمل ما يجديه واشتغل بما لا يعنيه وأخل بجزالة النظم الكريم وقرىء هل يهلك من الثلاثى (وما نرسل المرسلين) كلام مستأنف مسوق لبيان وظائف منصب الرسالة على الاطلاق وتحقيق ما فى عهدة الرسل عليهم السلام واظهار أن مايقترحه الكفرة عليه عليه السلام ليس مما يتعلق بالرسالة أصلا وصيغة المضارع لبيان أن ذلك أمر مستمر جرت عليه العادة الالهية وقوله تعالى (إلا مبشرين ومنذرين) حالان مقدرتان من المرسلين أي ما نرسلهم إلا مقدرا تبشيرهم وانذارهم ففيهما معنى العلة الغائية قطعا أى ليبشروا قومهم بالثواب على الطاعة وينذروهم بالعقاب على المعصية أى ليخبروهم بالخبر السار والخبر الضار دنيويا كان أو أخرويا من غير ان يكون لهم دخل ما فى وقوع المخبر به اصلا وعليه يدور القصر والألزام ان لا يكون بيان الشرائع والاحكام من وظائف الرسالة. والفاء فى قوله

تعالى (فمن آمن وأصلح) لترتيب مابعدها على ماقبلها ومن موصولة والفاء فى قوله تعالى (فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) لشبه الموصول بالشرط اى لاخوف عليهم من العذاب الذى انذروه دنيويا كان أو أخرويا ولاهم يحزنون بفوات ماشروا به من الثواب العاجل والآجل وتقديم نفى الخوف على نفى الحزن لمراعاة حق المقام وجمع الضمائر الثلاثة الراجعة الى من باعتبار معناها كما أن افراد الضميرين السابقين باعتبار لفظها أى لايعتريهم مايوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون والمراد بيان دوام انتفائهما لابيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لما تقرر فى موضعه من أن النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام ألا يرى أن الجملة الاسمية تدل بمعونة المقام على استمرار الثبوت فاذا دخل عليها حرف النفى دلت على استمرار الانتفاء لاعلى انتفاء الاستمرار كذلك المضارع الخالى عن حرف النفى يفيد استمرار الثبوت فاذا دخل عليه حرف النفى يفيد استمرار الانتفاء لاانتفاء الاستمرار ولا بعد فى ذلك فان قولك مازيدا ضربت مفيد لاختصاص النفى لا نفى الاختصاص كما بين فى محله وقوله عز وجل (والذين كذبوا) عطف على من آمن داخل فى حكمه وقوله تعالى (بآياتنا) اشارة الى أن ماينطق به الرسل عليهم السلام عند التبشير والانذار ويبلغونه الى الأمم آياته تعالى وان من آمن به فقد آمن بآياته تعالى ومن كذب به فقد كذب بها وفيه من الترغيب فى الايمان به والتحذير عن تكذيبه ما لا يخفى والمعنى مانرسل المرسلين الا ليخبروا أممهم من جهتنا بماسيقع منا من الأمور السارة والضارة لاليوقعها استقلالا من تلقاء أنفسهم أو استدعاء من قبلنا حتى يقترحوا عليهم مايقترحون فاذا كان الامر كذلك فمن آمن بما أخبروا به من قبلنا تبشيرا أو انذارا فى ضمن آياتنا وأصلح مايجب أصلاحه من أعماله أو دخل فى الصلاح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا التى بلغوها عند التبشير والانذار (يمسهم العذاب) أى العذاب الذى أنذروه عاجلا أوآجلا أو حقيقة العذاب وجنسه المنتظم له انتظاما أوليا (بما كانوا يفسقون) أى بسبب فسقهم المستمر الذى هو الاصرار على الخروج عن التصديق والطاعة (قل لاأقول لكم عندى خزائن الله) استئناف مبنى على ماأسس من السنة الالهية فى شأن ارسال الرسل وانزال الكتب مسوقة لاظهار تبرئه صلى الله عليه وسلم عما يدور عليه مقترحاتهم أى قل للكفرة الذين يقترحون عليك تارة تنزيل الآيات وأخرى غير ذلك لا أدعى أن خزائن مقدوراته تعالى مفوضة الى أتصرف فيها كيفما

أشاء استقلالا أو استدعاء حتى تقترحوا على تنزيل الآيات أو انزال العذاب أوقلب الجبال ذهبا أو غير ذلك مما لايليق بشأنى و جعل هذا تبرأ عن دعوى الالهية مما لاوجه له قطعا وقوله تعالى (ولا أعلم الغيب) عطف على محل عندى خزائن الله أى ولا أدعى أيضا انى أعلم الغيب من أفعاله تعالى حتى تسألونى عن وقت الساعة أو وقت نزول العذاب أو نحوهما (ولا أقول لكم انى ملك) حتى تكلفونى من الافاعيل الخارقة للعادات مالايطيق به البشر من الرقى فى السماء ونحوه أو تعدوا عدم اتصافى بصفاتهم قادحا فى أمرى كما ينبئ عنه قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق. والمعنى لا أدعى شيئا من هذه الاشياء الثلاثة حتى تقترحوا على ماهو من آثارها وأحكامها وتجعلوا عدم اجابتى الى ذلك دليلا على عدم صحة ماأدعيه من الرسالة التى لاتعلق لها بشئ مما ذكر قطعا بل انما هى عبارة عن تلقى الوحى من جهة الله عز وجل والعمل بمقتضاه فحسب حسبما ينبئ عنه قوله تعالى (ان أتبع الا مايوحى الى) لا على معنى تخصيص اتباعه صلى الله عليه وسلم بما يوحى اليه دون غيره بتوجيه القصر الى المفعول بالقياس الى مفعول آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر الى ما يتعلق بالفعل باعتبار النفى فى الاصـــل والاثبات فى القيد بل على معنى تخصيص حاله صلى الله عليه وسلم باتباع مايوحى اليه بتوجيه القصر الى نفس الفعل بالقياس الى مايغايره من الأفعال لكن لاباعتبار النفى والاثبات معا فى خصوصية فان ذلك غير ممكن قطعا بل باعتبار النفى فيما يتضمنه من مطلق الفعل والاثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص فان كل فعل من الأفعال الخاصة كنصر مثلا ينحل عند التحقيق الى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل والى معنى خاص يقومه فان معناه فعل النصر يرشدك الى ذلك قولهم: معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الاعطاء والمنع فورد القصر فى الحقيقة ما يتعلق بالفعل بتوجيه النفى الى الأصل والاثبات الى القيد كأنه قيل ماأفعل الا اتباع مايوحى الى من غير أن يكون لى مدخل ما فى الوحى أو فى الموحى بطريق الاستدعاء أو بوجه آخر من الوجوه أصلا (قل هل يستوى الاعمى والبصير) مثل للضال والمهتدى على الاطلاق والاستفهام انكارى والمراد انكارى استواء من لا يعلم ماذكر من الحقائق ومن يعلمها وفيه من الاشعار بكمال ظهورها ومن التنفير عن الضلال والترغيب فى الاهتداء مالا يخفى وتكرير الامر لتثنية التبكيت وتأكيد الالزام وقوله تعالى (أفلا تتفكرون) تقريع وتوبيخ داخل تحت الامر والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى الاتسمعون هذا الكلام الحق فلاتتفكرون فيه أو أتسمعون فلاتتفكرون فيه فمناط التوبيخ فى الاول عدم الامرين معا وفى الثانى

عدم التفكير مع تحقق مايوجبه (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم) بعد ما حكى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن من الكفرة قوما لايتعظون بتصريف الآيات الباهرة ولا يتأثرون بمشاهدة المعجزات القاهرة قد أيفت مشاعرهم بالكلية والتحقوا بالأموات وقرر ذلك بأن كرر عليهم من فنون التبكيت والالزام مايلقمهم الحجر أي ألقام فأبو الا الأباء والنكير ومانجع فيهم عظة ولا تذكير وما أفادهم الانذار الا الاصرار على الانكار أمر عليه الصلاة والسلام بتوجيه الانذار الى من يتوقع منهم التأثر فى الجملة وهم المجوزون منهم للحشر على الوجه الآتى سواء كانوا جازمين بأصله كاهل الكتاب وبعض المشركين المعترفين بالبعث المترددين فى شفاعة آبائهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالأولين أو فى شفاعة الاصنام كالآخرين أو مترددين فيهما معا كبعض الكفرة الذين يعلم من حالهم انهم اذا سمعوا بحديث البعث يخافون ان يكون حقا وأما المنكرون للحشر رأسا والقائلون به القاطعون بشفاعة آبائهم او بشفاعة الاصنام فهم خارجون عن أمر بأنذارهم وقد قيل هم المفرطون فى الاعمال من المؤمنين ولايساعده سباق النظم الكريم ولا سياقه بل فيه مايقضى باستحالة صحته كما ستقف عليه والضمير المجرور لما يوحى او لما دل هو عليه من القرآن والمفعول الثانى للانذار إما العذاب الاخروى المدلول عليه بما فى حيز الصلة واما مطلق العذاب الذى ورد به الوعيد والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلى لتربية المهابة وتحقيق المخافة وقوله تعالى (ليس لهم من دونه ولى و لاشفيع) فى حيز النصب على الحالية من ضمير يحشروا ومن متعلقة بمحذوف وقع حالا من اسم ليس لانه فى الاصل صفة له فلما قدم عليه انتصب حالا خلا أن الحال الاولى لأخراج الحشر الذى لم يقيد بها عن حيز الخوف وتحقيق أن مانيط به الخوف هو الحشر على تلك الحالة لاالحشر كيفما كان ضرورة أن المعترفين به الجازمين بنصرة غيره تعالى بمنزلة المنكرين له فى عدم الخوف الذى عليه يدور أمر الانذار وأما الحال الثانيه فليست لأخراج الولى الذى لم يقيد بها عن حيز الانتفاء لفساد المعنى لاستلزامه ثبوت ولايته تعالى لهم كما فى قوله تعالى «ومالكم من دون الله من ولى ولانصير» بل لتحقيق مدار خوفهم وهو فقدان ماعلقوا به رجائهم وذلك انما هو ولاية غيره سبحانه وتعالى فى قوله تعالى «ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض وليس له من دونه أولياء» والمعنى أنذر به الذين يخافون أن يحشروا غير منصورين من جهة أنصارهم على زعمهم ومن هذا اتضح أن لاسبيل الى كون المراد بالخائفين المفرطين من المؤمنين اذ ليس لهم ولى سواه تعالى ليخافوا الحشر

بدون نصرته وانما الذى يخافونه الحشر بدون نصرته عز وجل وقوله تعالى (لعلهم يتقون) تعليل للامرأى أنذرهم لكى يتقوا الكفر والمعاصى أو حال من ضمير الامر أى أنذرهم راجيا تقواهم أو من الموصول أى أنذرهم مرجوا منهم التقوى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) لما أمر صلى الله عليه وسلم بانذار المذكورين لينتظموا فى سلك المتقين نهى صلى الله عليه وسلم عن كون ذلك بحيث يؤدي الى طردهم. روى أن رؤساء من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو طردت هؤلاء الأعبد وأرواح جبابهم يعنون فقراء المسلمين كعمار وصهيب وخباب وسلمان وأضرابهم رضى الله تعالى عنهم جلسنا اليك وحادثناك فقال صلى الله عليه وسلم «ما أنا بطارد المؤمنين» فقالوا فأقمهم عنا اذا جئنا فاذا قمنا فأقعدهم معك ان شئت قال صلى الله عليه وسلم نعم طمعا فى ايمانهم وروى ان عمر رضى الله تعالى عنه قال له عليه الصلاة والسلام لو فعلت حتى ننظر الى ما يصيرون. وقيل ان عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدى والحرث بن نوفل وقرصة بن عبيد وعمرو ابن نوفل وأشراف بنى عبد مناف من أهل الكفر أتوا أباطالب فقالوا يا أباطالب: لو أن ابن أخيك محمداً يطرد موالينا وخلفاءنا وهم عبيدنا وعتقاؤنا كان أعظم فى صدورنا وأدنى لاتباعنا اياه فاتى أبو طالب الى النبى صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذي كلموه فقال عمر رضى الله عنه لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذى يريدونه والى ما يصيرونه وقال سلمان وخباب فينا نزلت هذه الآية جاء الاقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى وعباس بن مرداس وذووهم من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبى صلى الله عليه وسلم جالسا مع ناس من ضعفاء المؤمنين فلما رأوهم حوله صلى الله عليه وسلم حقروهم فأتوه عليه الصلاة والسلام فقالوا يارسول الله لو جلست فى صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم لجالسناك وحادثناك وأخذنا عنك فقال صلى الله عليه وسلم «ما أنا بطارد المؤمنين» قالوا فانا نحب أن تجعل لنا معك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا مع هؤلاء الأعبد فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فاقعد معهم ان شئت قال صلى الله عليه وسلم نعم قالوا فاكتب لنا كتابا فدعا بالصحيفة وبعلى رضى الله تعالى عنه ليكتب ونحن قعود فى ناحية فنزل جبريل عليه السلام بالآية فرمى عليه السلام بالصحيفة ودعانا فأتيناه وجلسنا عنده وكنا ندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته وكان يقوم عنا اذا أراد القيام فنزلت واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم فترك القيام عنا الى أن نقوم عنه وقال «الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى معكم المحيا ومعكم الممات» والمراد بذكر الوقتين الدوام وقيل صلاة الفجر والعصر وقرىء بالغدوة وقوله تعالى (يريدون

وجهه) حال من ضمير يدعون أى يدعونه تعالى مخلصين له فيه وتقييده به لتأكيد عليته للنهى فان الاخلاص من أقوى موجبات الاكرام المضاد للطرد وقوله تعالى (ماعليك من حسابهم من شيء) اعتراض وسط بين النهى وجوابه تقريرا له ودفعا لما عسى يتوهم كونه مسوغا لطردهم من أقاويل الطاعنين فى دينهم كدأب قوم نوح حيث قالوا مانراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى. أى ماعليك شيء ما من حساب ايمانهم وأعمالهم الباطنة حتى تتصدى له وتبنى على ذلك ماتراه من الاحكام وانما وظيفتك حسبما هو شأن منصب النبوة اعتبار ظواهر الاعمال وأجراء الاحكام على موجبها وأما بواطن الامور فحسابها على العليم بذات الصدور كقوله تعالى «ان حسابهم الاعلى ربى» وذكر قوله تعالى (وما من حسابك عليهم من شيء) مع ان الجواب قد تم بما قبله للمبالغة فى بيان انتفاء كون حسابهم عليه صلى الله عليه وسلم بنظمه فى سلك الاشبهة فيه أصلا وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام عليهم على طريقة قوله تعالى «لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون» واما ماقيل من أن ذلك لتنزيل الجملتين منزلة جملة واحدة لتأدية معنى واحد على نهج قوله تعالى ولاتزر وازرة وزر أخرى فغير حقيق بجلالة شأن التنزيل وتقديم عليك فى الجملة الاولى للقصد الى ايراد النفى على اختصاص حسابهم به صلى الله عليه وسلم اذ هو الداعى الى تصديه عليه الصلاة والسلام لحسابهم . وقيل الضمير للمشركين والمعنى انك لاتؤاخذ بحسابهم حتى يهمك ايمانهم ويدعوك الحرص عليه الى أن تطرد المؤمنين وقوله تعالى (فتطردهم) جواب النفى وقوله تعالى (فتكون من الظالمين) جواب النهى وقد جوز عطفه على فتطردهم على طريقة التسبيب وليس بذاك (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) استئناف مبين لما نشأ عنه ماسبق من النهى وذلك اشارة الى مصدر مابعده من الفعل الذى هو عبارة عن تقديمه تعالى لفقراء المؤمنين فى أمر الدين بتوفيقهم للايمان مع ماهم عليه فى أمر الدنيا من كمال سوء الحال وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته فى الكمال . والكاف مقحمة لتأكيد ماأفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الاصل النصب على انه نعت لمصدر مؤكد محذوف والتقدير فتنا بعضهم ببعض فتونا كائنا مثل ذلك الفتون ثم قدم على الفعل لافادة القصر المفيد لقدم المقصور فقط واعتبرت الكاف مقحمة فصار نفس المصدر المؤكد لانعتا له والمعنى ذلك الفتون الكامل البديع فتنا أى ابتلينا بعض الناس ببعضهم لافتونا غيره حيث قدمنا الآخرين فى أمر الدين على الأولين المتقدمين عليهم فى أمر الدنيا تقدما كليا واللام فى قوله تعالى (ليقولوا) للعاقبة أى ليقول البعض الأولون مشيرين الى الآخرين محقرين لهم نظرا الى مابينهما من التفاوت الفاحش الدنيوى وتعاميا عماهو مناط التفضيل حقيقة

أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بأن وفقهم لأصابة الحق ولما يسعدهم عنده تعالى من دوننا ونحن المقدمون و الرؤساء و هم العبيد والفقراء وغرضهم بذلك انكار وقوع المن رأسا على طريقة قولهم : لو كان خيرا ماسبقونا اليه لا لتحقير الممنون عليهم مع الاعتراف بوقوعه بطريق الاعتراض عليه تعالى وقوله تعالى (أليس الله بأعلم بالشاكرين) رد لقولهم ذلك و ابطال له و اشارة الى أن مدار استحقاق الانعام معرفة شأن النعمة والاعتراف بحق المنعم والاستفهام لتقرير علمه البالغ بذلك أي أليس الله بأعلم بالشاكرين لنعمه حتى تستبعدوا انعامه عليهم وفيه من الاشارة الى أن أولئك الضعفاء عارفون بحق نعم الله تعالى فى تنزيل القرآن والتوفيق للايمان شاكرون له تعالى على ذلك مع التعريض بأن القائلين بمعزل من ذلك كله مالا يخفى (و اذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) هم الذين نهى عن طردهم وصفوا بالايمان بآيات الله عز وجل كما وصفوا بالمداومة على عبادته تعالى بالاخلاص تنبيها على احرازهم لفضيلتى العلم والعمل وتأخير هذا الوصف مع تقدمه على الوصف الأول لما أن مدار الوعد بالرحمة والمغفرة هو الايمان بها كما أن مناط النهى عن الطرد فيما سبق هو المداومة على العبادة وقوله تعالى (فقل سلام عليكم) أمر بتبشيرهم بالسلامة عن كل مكروه بعد انذار مقابليهم و قيل بتبليغ سلامه تعالى اليهم وقيل بأن يبدأهم بالسلام وقوله تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة) أي قضاها وأوجبها على ذاته المقدسة بطريق التفضل والاحسان بالذات لابتوسط شيء ما أصلا تبشيرا لهم بسعة رحمته تعالى وبنيل المطالب أثر تبشيرهم بالسلامة عن المكاره وقبوله التوبة منهم وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الأضافة الى ضميرهم اظهار اللطف بهم والاشعار بعلة الحكم و قيل أن قوما جاءوا الى النبى صلى الله عليه و سلم فقالوا انا أصبنا ذنوبا عظاما فلم يرد عليهم شيئا فانصرفوا فنزلت و قوله تعالى (أنه من عمل منكم سوأ) بدل من الرحمة وقرىء بكسر انه على أنه تفسير للرحمة بطريق الاستئناف وقوله تعالى (بجهالة) حال من فاعل عمل أي عمله وهو جاهل بحقيقة مايتبعه من المضار و التقييد بذلك للايذان بان المؤمن لايباشر مايعلم أنه يؤدى الى الضرر أو عمله ملتبسا بجهالة (ثم تاب من بعده) أي من بعد عمله أو من بعد سفهه (وأصلح) أي ماأفسده تداركا وعزما على أن لايعود اليه أبدا (فانه غفور رحيم) أي فأمره أنه غفور رحيم أو فله أنه غفور رحيم . وقرىء فانه بالكسر على انه استئناف وقع فى صدر الجملة الواقعة خبرا لمن على أنها موصولة أو جوابا لها على انها شرطية (وكذلك نفصل الآيات) قد مر آنفا مافيه من الكلام أي هذا التفصيل البديع نفصل الآيات فى صفة أهل الطاعة

وأهل الأجرام المصرين منهم والاوابين (ولتستبين سبيل المجرمين) بتأنيث الفعل بنا على تأنيث الفاعل. وقرئ بالتذكير بناء على تذكيره فان السبيل مما يذكر ويؤنث وهو عطف على علة محذوفة للفعل المذكور لم يقصد تعليله بها بعينها وانما قصد الاشعار بأن له فوائد جمة من جملتها ماذكر أو علة لفعل مقدر هو عبارة عن المذكور فيكون مستأنفا أي ولتستبين سبيلهم نفعل ما نفعل من التفصيل. وقرئ بنصب السبيل على أن الفعل متعد وتاؤه للخطاب أي ولتستوضح أنت يا محمد سبيل المجرمين فتعاملهم بما يليق بهم (قل اني نهيت) أمر عليه الصلاة والسلام بالرجوع الى مخاطبة المصرين على الشرك اثر ما أمر بمعاملة من عداهم من أهل الانذار والتبشير بما يليق بحالهم أي قل لهم قطعا لأطماعهم الفارغة عن ركونه عليه الصلاة والسلام اليهم وبيانا لكون ماهم عليه من الدين هوى محضا وضلالا بحتا اني صرفت وزجرت بما نصب لى من الأدلة وأنزل على من الآيات في أمر التوحيد (أن أعبد الذين تدعون) أي عن عبادة ما تعبدونه (من دون الله) كائنا ما كان (قل) كرر الامر مع قرب العهد اعتناء بشأن المأمور به أو ايذانا باختلاف المقولين من حيث ان الاول حكاية لما من جهته تعالى من النهى والثانى حكاية لما من جهته صلى الله عليه وسلم من الانتهاء عما ذكر من عبادة ما يعبدونه وانما قيل (لا أتبع أهواءكم) استجهالا لهم وتنصيصا على انهم فيما هم فيه تابعون لأهواء باطلة وليسوا على شيء مما ينطلق عليه الدين أصلا واشعارا بما يوجب النهى والانتهاء وقوله تعالى (قد ضللت اذا) استئناف مؤكد لانتهائه عما نهى عنه مقرر لكونهم في غاية الضلال والغواية أى أن اتبعت أهواءكم فقد ضللت وقوله تعالى (وما أنا من المهتدين) عطف على ماقبله والعدول الى الجملة الأسمية للدلالة على الدوام والاستمرار اي دوام النفي واستمراره لا نفي الدوام والاستمرار كما مر مرارا اى ما انا في شيء من الهدى حين اكون فى عدادهم وقوله تعالى (قل انى على بينة) تحقيق للحق الذى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان لاتباعه اياه اثر ابطال الباطل الذي عليه الكفرة وبيان عدم اتباعه له والبينة الحجة الواضحة التى تفصل بين الحق والباطل والمراد بها القرآن والوحى وقيل هى الحجج العقلية أو ما يعمها ولا يساعده المقام والتنوين للتفخيم وقوله تعالى (من ربى) متعلق بمحذوف هو صفة لبينة مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره صلى الله عليه وسلم من التشريف ورفع المنزلة ما لا يخفى وقوله تعالى (وكذبتم به) اما جملة مستأنفة أو حالية بتقدير قد أو بدونه جيء بها لاستقباح مضمونها واستبعاد وقوعه مع تحقق ما يقتضى

عدمه من غاية وضوح البينة والضمير المجرور للبينة والتذكير باعتبار المعنى المراد والمعنى انى على بينة عظيمة كائنة من ربى وكذبتم بها وبما فيها من الاخبار التى من جملتها الوعيد بمجيء العذاب وقوله تعالى (ماعندى ما تستعجلون به) استئناف مبين لخطئهم فى شأن ماجعلوه منشأ لتكذيبهم بها وهو عدم مجيء ماوعد فيها من العذاب الذى كانوا يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد ان كنتم صادقين بطريق الاستهزاء أو بطريق الالزام على زعمهم أى أليس ماتستعجلونه من العذاب الموعود فى القرآن وتجعلون تأخره ذريعة الى تكذيبه فى حكمى وقدرتى حتى أجيء به وأظهر لكم صدقه اوليس امره بمفوض الى (ان الحكم) اى ما الحكم فى ذلك تعجيلا وتأخيرا او ما الحكم فى جميع الاشياء فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا (الا لله) وحده من غير أن يكون لغيره دخل مافيه بوجه من الوجوه وقوله تعالى (يقص الحق) أى يتبعه بيان لشئونه تعالى فى الحكم المعهود أو فى جميع أحكامه المنتظمة له انتظاما أوليا أى لا يحكم الا بما هو حق فيثبت حقية التأخير وقرىء يقضى فانتصاب الحق حينئذ على المصدرية أى يقضى القضاء الحق أو على المفعولية أى يصنع الحق ويدبره من قولهم قضى الدرع اذا صنعها وأصل القضاء الفصل بتمام الامر وأصل الحكم المنع فكأنه يمنع الباطل عن معارضة الحق أو الخصم عن التعدى على صاحبه (وهو خير الفاصلين) اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله مشير الى أن قص الحق ههنا بطريق خاص هو الفصل بين الحق والباطل هذا هو الذى تستدعيه جزالة التنزيل وقد قيل أن المعنى أنى من معرفة ربى وأنه لامعبود سواه على حجة واضحة وشاهد صدق وكذبتم به أنتم حيث أشركتم به تعالى غيره وأنت خبير بأن مساق النظم الكريم فيما سبق وما لحق على وصفهم بتكذيب آيات الله تعالى بسبب عدم مجيء العذاب الموعود فيها فتكذيبهم به سبحانه فى أمر التوحيد مما لاتعلق له بالمقام أصلا (قل لو أن عندى) أى فى قدرتى ومكنتى (ماتستعجلون به) من العذاب الذى ورد به الوعيد بأن يكون أمره مفوضا الى جهته تعالى (لقضى الامر بينى وبينكم) أى بأن ينزل ذلك عليكم أثر استعجالكم بقولكم متى هذا الوعد ونظائره وفى بناء الفعل للمفعول من الايذان بتعيين الفاعل الذي هو الله تعالى وتهويل الامر ومراعاة حسن الادب مالايخفى فما قيل فى تفسيره لأهلكتكم عاجلا غضبا لربى ولتخلصت منكم سريعا بمعزل من توفية المقام حقه وقوله تعالى (والله أعلم بالظالمين) اعتراض مقرر لما أفادته الجملة الامتناعية من انتفاء كون أمر العذاب مفوضا اليه صلى الله عليه وسلم المستتبع لانتفاء قضاء الامر وتعليل له والمعنى والله تعالى أعلم بحال الظالمين وبأنهم مستحقون للامهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب ولذلك لم يفوض الامر

الى فلم يقض الامر بتعجيل العذاب و الله أعلم (وعنده مفاتح الغيب) بيان لاختصاص المقدورات الغيبية به تعالى من حيث العلم أثر بيان اختصاص كلها به تعالى من حيث القدرة و المفاتح أما جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن فهو مستعار لمكان الغيب كأنها مخازن خزنت فيها الأمور الغيبية يغلق عليها ويفتح وأما جمع مفتح بكسرها وهو المفتاح ويؤيده قراءة من قرأ مفاتيح الغيب فهو مستعار لما يتوصل به الى تلك الامور بناء على الاستعارة الاولى أى عنده تعالى خاصة خزائن غيوبه أوما يتوصل به اليها وقوله عز وجل (لايعلمه الاهو) تأكيد لمضمون ماقبله وإيذان بأن المراد هو الاختصاص من حيث العلم لامن حيث القدرة والمعنى أن ماتستعجلونه من العذاب ليس مقدور الى حتى ألزمكم بتعجيله ولا معلوما لدى لأخبركم بوقت نزوله بل هو مما يختص به تعالى قدرة وعلما فينزله حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وقوله تعالى (ويعلم مافى البر والبحر) بيان لتعلق علمه تعالى بالمشاهدات أثر بيان تعلقه بالمغيبات تكملة له وتنبيها على أن الكل بالنسبة الى علمه المحيط سواء فى الجلاء أى يعلم ما فيهما من الموجودات مفصلة على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكثر أفرادها وقوله تعالى (وماتسقط من ورقة الايعلمها) بيان لتعلقه باحوالها المتغيرة بعد بيان تعلقه بذواتها فان تخصيص حال السقوط بالذكر ليس الابطريق الاكتفاء بذكرها عن ذكر سائر الاحوال كما ان ذكر حال الورقة وماعطف عليها خاصة دون احوال سائر مافيهما من فنون الموجودات الفائتة للحصر باعتبار انها أنموذج لأحوال سائرها وقوله تعالى (ولاحبة) عطف على ورقة وقوله تعالى (فى ظلمات الارض) متعلق بمحذوف هو صفة لحبة مفيدة لكمال نفوذ علمه تعالى اي ولاحبة كائنة فى بطون الارض الايعلمها وكذا قوله تعالى (ولارطب ولايابس) معطوفان عليها داخلان فى حكمها وقوله تعالى (الا فى كتاب مبين) بدل من الاستثناء الاول بدل الكل على ان الكتاب المبين عبارة عن علمه تعالى او بدل الاشتمال على انه عبارة عن اللوح المحفوظ وقريء الأخيران بالرفع عطفا على محل من ورقة وقيل رفعهما بالابتداء والخبر الا فى كتاب مبين وهو الانسب المقام لشمول الرطب واليابس حينئذ لما ليس من شأنه السقوط وقد نقل قراءة الرفع فى ولاحبة ايضا (وهو الذى يتوفاكم بالليل) اي ينيمكم فيه على استعارة التوفى من الاماتة للانامة لما بين الموت والنوم من المشاركة فى زوال الاحساس والتمييز واصله قبض الشيء بتمامه (ويعلم ماجرحتم بالنهار) أى ما كسبتم فيه والمراد بالليل والنهار الجنس المتحقق فى كل فرد من أفرادهما اذ بالتوفى والبعث الموجودين فيها يتحقق قضاء الاجل المسمى المترتب

عليها لا في بعضها والمراد بعلمه تعالى ذلك علمه قبل الجرح كما يلوح به تقديم ذكره على البعث أي يعلم ماتجرحون بالنهار . وصيغة الماضي للدلالة على التحقق وتخصيص التوفي بالليل والجرح بالنهار مع تحقق كل منهما فيما خص بالآخر للجري على سنن العادة (ثم يبعثكم فيه) أي يوقظكم في النهار عطف على يتوفاكم . وتوسيط قوله تعالى ويعلم الخ بينهما البيان مافي بعثهم من عظيم الاحسان اليهم بالتنبيه على أن ما يكتسبونه من السيئات مع كونها موجبة لابقائهم على التوفي بل لاهلاكهم بالمرة يفيض عليهم الحياة ويمهلهم كما ينبئ عنه كلمة التراخي كأنه قيل هو الذي يتوفاكم في جنس الليالي ثم يبعثكم في جنس النهر مع علمه بما ستجرحون فيها (ليقضى أجل مسمى) معين لكل فرد فرد بحيث لايكاد يتخطى أحد ماعين له طرفة عين (ثم اليه مرجعكم) اى رجوعكم بالموت لا الى غيره أصلا (ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) بالمجازاة بأعمالكم التي كنتم تعملونها في تلك الليالي والأيام وقيل الخطاب مخصوص بالكفرة والمعنى أنكم ملقون كالجيف بالليل كاسبون للآثام بالنهار وانه تعالى مطلع على أعمالكم يبعثكم الله من القبور في شأن ماقطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار ليقضى الاجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم وفيه مالا يخفى من التكلف والاخلال لافضائه الى كون البعث معللا بقضاء الأجل المضروب له (وهو القاهر فوق عباده) أي هو المتصرف في أمورهم لا غيره يفعل بهم ما يشاء ايجادا واعداما واحياء واماتة وتعذيبا واثابة الى غير ذلك (ويرسل عليكم) خاصة أيها المكلفون (حفظة) من الملائكة وهم الكرام الكاتبون وعليكم متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستيلاء وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقيل متعلق بمحذوف هو حال من حفظة اذ لو تأخر لكان صفة أي كائنين عليكم وقيل متعلق بحفظة والمحفوظ محذوف على كل حال أي يرسل عليكم ملائكة يحفظون أعمالكم كائنة ما كانت وفي ذلك حكمة جليلة ونعمة جميلة لمان أن المكلف اذا علم أن أعماله تحفظ عليه وتعرض على رءوس الاشهاد كان ذلك أزجر له عن تعاطي المعاصي والقبائح وأن العبد اذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشمه احتشامه من خدمه الواقفين على أحواله وحتى في قوله تعالى (حتى اذا جاء أحدكم الموت) هي التي يبتدأ بها الكلام وهي مع ذلك تجعل ما بعدها من الجملة الشرطية غاية لما قبلها كأنه قيل ويرسل عليكم حفظة يحفظون أعمالكم مدة حياتكم حتى اذا انتهت مدة أحدكم كائنا من كان وجاءه أسباب الموت ومباديه (توفته رسلنا) الآخرون المفوض اليهم ذلك وهم ملك الموت وأعوانه وانتهى هناك

حفظ الحفظة. وقرىء توفاه ماضيا أو مضارعا بطرح احدى التاءين (وهم) أى الرسل (لا يفرطون) أى بالتوانى و التأخير. وقرىء مخففا من الافراط أى لا يجاوزون ماحدلهم بزيادة أو نقصان والجملة حال من رسلنا وقيل مستأنفة سيقت لبيان اعتنائهم بما أمروا به وقوله تعالى (ثم ردوا) عطف على توفته والضمير للكل المدلول عليه باحدكم وهو السر فى مجيئه بطريق الالتفات تغليبا والافراد أولا والجمع آخرا لوقوع التوفى على الانفراد والرد على الاجتماع أى ثم ردوا بعد البعث بالحشر (الى الله) أى الى حكمه وجزائه فى موقف الحساب (مولاهم) أى مالكهم الذى يلى أمورهم على الاطلاق لاناصرهم كما فى قوله تعالى «وأن الكافرين لا مولى لهم» (الحق) الذى لا يقضى الا بالعدل وقرىء بالنصب على المدح (ألا له الحكم) يومئذ صورة ومعنى لا لاحد غيره بوجه من الوجوه (وهو أسرع الحاسبين) يحاسب جميع الخلائق فى أسرع زمان وأقصره لا يشغله حساب عن حساب ولا شأن عن شأن وفى الحديث «ان الله تعالى يحاسب الكل فى مقدار حلب شاة» (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر) أى قل تقريرا لهم بانحطاط شركائهم عن رتبة الالهية من ينجيكم من شدائدهما الهائلة التى تبطل الحواس وتدهش العقول ولذلك استعير لها الظلمات المبطلة لحاسة البصر يقال لليوم الشديد يوم مظلم و يوم ذو كواكب أو من الخسف فى البر والغرق فى البحر. وقرىء ينجيكم من الانجاء والمعنى واحد وقوله تعالى (تدعونه) نصب على الحالية من مفعول ينجيكم والضمير لمن أى من ينجيكم منها حال كونكم داعين له أو من فاعله أى من ينجيكم منها حال كونه مدعوا من جهتكم وقوله تعالى (تضرعا وخفية) اما حال من فاعل تدعونه أو مصدر مؤكد له أى تدعونه متضرعين جهارا ومسرين أو تدعونه دعاء اعلان واخفاء وقرىء خفية بكسر الخاء وقوله تعالى (لئن أنجيتنا) حال من الفاعل أيضا على تقدير القول أى تدعونه قائلين لئن أنجيتنا (من هذه) الشدة والورطة التى عبر عنها بالظلمات (لنكونن من الشاكرين) أى الراسخين فى الشكر المداومين عليه لاجل هذه النعمة أو جميع النعماء التى من جملتها هذه وقرىء لئن أنجانا مراعاة لقوله تعالى تدعونه (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) أمر صلى الله عليه وسلم بتقرير الجواب مع كونه من وظائفهم للايذان بأنه متعين عندهم ولبناء قوله تعالى (ثم أنتم تشركون) عليه أى الله تعالى وحده ينجيكم مما تدعونه الى كشفه من الشدائد المذكورة وغيرها من الغموم والكرب ثم أنتم بعد ما تشاهدون هذه النعم الجليلة تشركون بعبادته تعالى غيره وقرىء ينجيكم بالتخفيف وقوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا) استئناف مسوق لبيان أنه

تعالى هو القادر على القائهم فى المهالك اثر بيان انه هو المنجى لهم منها وفيه وعيد ضمنى بالعذاب لاشراكهم المذكور على طريقة قوله عز وجل «أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر الى قوله تعالى أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى» الآية وعليكم متعلق بيبعث وتقديمه على مفعوله الصريح للاعتناء به والمسارعة الى بيان كون المبعوث مما يضرهم ولتهويل امر المؤخر وقوله تعالى (من فوقكم) متعلق به ايضا او بمحذوف وقع صفة لعذابا اى عذابا كائنا من جهة الفوق كما فعل بمن فعل من قوم لوط وأصحاب الفيل وأضرابهم (أو من تحت أرجلكم) أو من جهة السفل كما فعل بفرعون وقارون وقيل من فوقكم أكابركم ورؤسائكم ومن تحت أرجلكم سفلتكم وعبيدكم وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع فلا منع لما كان من الجهتين معا كما فعل بقوم نوح (أو يلبسكم شيعا) أي يخلطكم فرقا متحزبين على أهواء شتى كل فرقة مشايعة لامام فينشب بينكم القتال فتختلطوا فى الملاحم كقول الحماسي:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى اذا التبست نفضت لها يدى

(ويذيق بعضكم بأس بعض) عطف على يبعث وقرىء بنون العظمة على طريقة الالتفات لتهويل الامر والمبالغة فى التحذير والبعض الاول الكفار والآخر المؤمنون ففيه وعد ووعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال عند قوله تعالى عذابا من فوقكم «أعوذ بوجهك وعند قوله تعالى أو من تحت أرجلكم أعوذ بوجهك وعند قوله تعالى أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض هذا أهون أو هذا أيسر» وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «سألت ربى أن لا يبعث على أمتى عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطانى ذلك وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنى ذلك» (أنظر كيف نصرف الآيات) من حال الى حال (لعلهم يفقهون) كى يفقهوا ويقفوا على جلية الأمر فيرجعوا عما هم عليه من المكابرة والعناد (وكذب به) أى بالعذاب الموعود أو القرآن المجيد الناطق بمجيئه (قومك) أي المعاندون منهم ولعل أيرادهم بهذا العنوان للايذان بكمال سوء حالهم فان تكذيبهم بذلك مع كونهم من قومه عليه الصلاة والسلام مما يقضى بغاية عتوهم ومكابرتهم. وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مرارا من أظهار الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقوله تعالى (وهو الحق) حال من الضمير المجرور أي كذبوا به والحال أنه الواقع لامحالة أو أنه الكتاب الصادق فى كل مانطق به . وقيل هو استئناف وأياما كان ففيه دلالة على عظم جنايتهم ونهاية قبحها (قل) لهم منبها على مايؤول اليه أمرهم وعلى أنك قد أديت ماعليك من وظائف الرسالة (لست عليكم بوكيل) بحفيظ وكل الى أمركم لأمنعكم من التكذيب وأجبركم على التصديق انما أنا منذر وقد خرجت عن العهدة حيث

أخبرتكم بما سترونه (لكل نبأ) أى لكل شىء ينبأ به من الأنباء التى من جملتها عذابكم أو لكل خبر من الاخبار التى من جملتها خبر مجيئه (مستقر) أى وقت استقرار ووقوع ألبتة أو وقت استقرار بوقوع مدلوله (وسوف تعلمون) أى حال نبئكم فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما معا وسوف للتأكيد كما فى قوله تعالى «ولتعلمن نبأه بعد حين» (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا) أى بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها كما هو دأب قريش وديدنهم (فأعرض عنهم) بترك مجالستهم والقيام عنهم وقوله تعالى (حتى يخوضوا فى حديث غيره) غاية للاعراض أى استمر على الاعراض الى أن يخوضوا فى حديث غير آياتنا والتذكير باعتبار كونها حديثا فان وصف الحديث بمغايرتها مشير الى اعتبارها بعنوان الحديثية وقيل باعتبار كونها قرآنا (واما ينسينك الشيطان) بأن يشغلك فتنسى النهى فتجالسهم ابتداء أو بقاء . وقرىء ينسينك من التنسية (فلا تقعد بعد الذكرى) أى بعد تذكر النهى (مع القوم الظالمين) أي معهم فوضع المظهر موضع المضمر نعيا عليهم أنهم بذلك الخوض ظالمون واضعون للتكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم راسخون فى ذلك (وما على الذين يتقون) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المسلمين حين نهوا عن مجالستهم عند خوضهم فى الآيات قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزءوا بالقرآن لم نستطع أن نجلس فى المسجد الحرام ونطوف بالبيت فنزلت أى ما على الذين يتقون قبائح أعمال الخائضين وأحوالهم (من حسابهم) أى مما يحاسبون عليه من الجرائم (من شيء) أى شيء ما على أنه فى محل الرفع على أنه مبتدأ وما تميمية أو اسم لها وهى حجازية ومن مزيدة للاستغراق ومن حسابهم حال منه على الذين يتقون فى محل الرفع على أنه خبر للمبتدا أو لما الحجازية على رأى من لا يجيز أعمالها فى الخبر المقدم مطلقا أو فى محل النصب على رأى من يجوز أعمالها فى الخبر المقدم عند كونه ظرفا أو حرف جر (ولكن ذكرى) استدراك من النفى السابق أى ولكن عليهم أن يذكروهم ويمنعوهم عماهم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير ويظهروا لهم الكراهة والنكير ومحل ذكرى اما النصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف أى عليهم أن يذكروهم تذكيرا أو الرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر أى ولكن عليهم ذكرى (لعلهم يتقون) أي يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم وقد جوز كون الضمير للموصول أى يذكروهم رجاء أن يثبتوا على تقواهم أو يزدادوها (وذر الذين اتخذوا دينهم) الذي كلفوه وأمروا باقامة مواجبه (لعبا ولهوا) حيث سخروا به واستهزءوا أو بنوا امر دينهم على مالا يكاد يتعاطاه العاقل بطريق الجد وانما يصدر عنه لو صدر بطريق اللعب واللهو

كعبادة الأصنام وتحريم البحائر والسوائب ونحو ذلك والمعنى أعرض عنهم ولاتبال بأفعالهم وأقوالهم وقيل هو تهديد لهم كقوله تعالى «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا» الآية (وغرتهم الحياة الدنيا) واطمأنوا بها حتى زعموا أن لاحياة بعدها أبدا (وذكر به) أي بالقرآن من يصلح للتذكير (ان تبسل نفس بما كسبت) أي لئلا تبسل كقوله تعالى أن تضلوا الآية أو مخافة أن تبسل أو كراهة ان تبسل نفوس كثيرة كما فى قوله تعالى «علمت نفس ما أحضرت» وترتهن لسوء عملها. واصل الأبسال والبسل المنع ومنه أسد باسل لان فريسته لاتفلت منه. أو لانه ممتنع والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه وهذا بسل عليك أي حرام ممنوع وقد جوز ان يكون الضمير المجرور فى به راجعا الى الابسال مع عدم جريان ذكره كما فى ضمير الشان وتكون الجملة بدلا منه مفسرا له لما فى الابهام أولا والتفسير ثانيا من التفخيم وزيادة التقرير كما فى قوله. على جوده لضن بالماء حاتم. بجر حاتم على انه بدل من ضمير جوده فالمعنى وذكر بارتهان النفوس وحبسها بما كسبت وقوله تعالى (ليس لها من دون الله ولى ولاشفيع) استئناف مسوق للأخبار بذلك وقيل فى محل النصب على انه حال من ضمير كسبت وقيل فى محل الرفع على انه وصف لنفس والاظهر أنه حال من نفس فانه فى قوة نفس كافرة أو نفوس كثيرة كما فى قوله تعالى «علمت نفس ما أحضرت» ومن دون الله متعلق بمحذوف هو حال من ولى كما بين فى تفسير قوله تعالى وأنذر به الآية وقيل هو خبر لليس فيكون لها حينئذ متعلقا بمحذوف على البيان (وان تعدل) أي ان تفد تلك النفس (كل عدل) أى كل فداء على أنه مصدر مؤكد (لايؤخذ منها) على اسناد الفعل الى الجار والمجرور لا الى ضمير العدل كما فى قوله تعالى «ولايؤخذ منها عدل» فانه المفدي به لا المصدر كما نحن فيه (أولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم فى سوء الحال ومحله الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى (الذين أبسلوا بما كسبوا) والجملة مستأنفة سيقت أثر تحذيرهم من الابسال المذكور لبيان أنهم المبتلون بذلك أي أولئك المتخذون دينهم لعبا ولهوا المغترون بالحياة الدنيا هم الذين أبسلوا بما كسبوا وقوله تعالى (لهم شراب من حميم) استئناف آخر مبين لكيفية الأبسال المذكور وعاقبته مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل ماذا لهم حين أبسلوا بما كسبوا فقيل لهم شراب من ماء مغلى يتجرجر فى بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم (وعذاب أليم) بنار تشتعل بأبدانهم (بما كانوا يكفرون) أي بسبب كفرهم المستمر فى الدنيا وقد جوز أن يكون لهم شراب الخ حالا من ضمير أبسلوا وترتيب ما ذكر من العذابين على

كفرهم مع أنهم معذبون بسائر معاصيهم أيضا حسبما ينطق به قوله تعالى « بما كسبوا» لانه العمدة فى ايجاب العذاب والأهم فى باب التحذير. أو أريد بكفرهم ماهو أعم منه ومن مستتبعاته من المعاصى والسيئات هذا وقد جوز أن يكون أولئك اشارة الى النفوس المدلول عليها بنفس محله الرفع بالابتداء والموصول الثانى صفته أو بدل منه ولهم شراب الخ خبره والجملة مسوقة لبيان تبعة الابسال (قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا) قيل نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن الى عبادة الأصنام فتوجيه الأمر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للايذان بما بينهما من الاتصال والاتحاد تنويها لشأن الصديق رضى الله تعالى عنه أى أنعبد متجاوزين عبادة الله الجامع لجميع صفات الالوهية التى من جملتها القدرة على النفع والضر مالا يقدر على نفعنا اذا عبدناه ولا على ضرنا اذا تركناه وأدنى مراتب المعبودية القدرة على ذلك وقوله تعالى (ونرد على أعقابنا) عطف على ندعوا داخل فى حكم الانكار والنفى أى ونرد الى الشرك والتعبير عنه بالرد على الاعقاب لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ماهو علم فى القبح مع مافيه من الاشارة الى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر وايثار نرد على نرتد لتوجيه الانكار الى الارتداد برد الغير تصريحا بمخالفة المضلين وقطعا لأطماعهم الفارغة وايذانا بان الارتداد من غير راد ليس فى حيز الاحتمال ليحتاج الى نفيه وانكاره وقوله تعالى (بعد اذ هدانا الله) أى الى الاسلام وأنقذنا من الشرك متعلق بنرد مسوق لتأكيد النكير لا لتحقيق معنى الرد وتصويره فقط والا لكفى أن يقال بعد أن اهتدينا كأنه قيل ونرد الى الشرك باضلال المضل بعد اذ هدانا الله الذى لاهادى سواه . قوله تعالى (كالذى استهوته الشياطين) فى محل النصب على أنه حال من مرفوع نرد أى أنرد على أعقابنا مشبهين بالذى استهوته مردة الجن واستغوته الى المهامه والمهالك أو على أنه نعت لمصدر محذوف أى أنرد ردا مثل رد الذى استهوته الخ والاستهواء استفعال من هوى فى الارض اذا ذهب فيها كأنها طلبت هويه وحرصت عليه وقرئ استهواه بألف ممالة وقوله تعالى (فى الارض) اما متعلق باستهوته أو بمحذوف هو حال من مفعوله أى كائنا فى الارض وكذا قوله تعالى (حيران) حال منه على أنها بدل من الاولى أو حال ثانية عند من يجوزها أو من الذى او من المستكن فى الظرف أى تائها ضالا عن الجادة لايدرى مايصنع وقوله تعالى (له أصحاب) جملة فى محل النصب على أنها صفة لحيران أو حال من الضمير فيه أو مستأنفة سيقت لبيان حاله وقوله تعالى (يدعونه الى الهدى) صفة لأصحاب أى لذلك المستهوى رفقة يهدونه الى الطريق المستقيم تسمية

له بالمصدر مبالغة كأنه نفس الهدى (ائتنا) على ارادة القول على أنه بدل من يدعونه أو حال من فاعله أي يقولون ائتنا . وفيه اشارة الى أنهم مهتدون ثابتون على الطريق المستقيم وأن من يدعونه ليس ممن يعرف الطريق المستقيم ليدعى الى اتيانه وانما يدرك سمت الداعي ومورد النعيق فقط (قل ان هدى الله) الذي هدانا اليه وهو الاسلام (هو الهدي) وحده وما عداه ضلال محض غي بحت كقوله تعالى «فماذا بعد الحق الا الضلال» ونحوه وتكرير الأمر للاعتناء بشأن المأمور به ولان ماسبق للزجر عن الشرك وهذا حث على الاسلام وهو توطئة لما بعده فان اختصاص الهدى بهداه تعالى مما يوجب الامتثال بالاوامر الواردة بعده (وأمرنا) عطف على ان هدى الله هو الهدى داخل تحت القول واللام في (لنسلم لرب العالمين) لتعليل الأمر المحكي وتعيين ما أريد به من الاوامر الثلاثة كما في قوله تعالى «قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا» الآية كأنه قيل أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم . وقيل هي بمعنى الباء أي أمرنا بان نسلم وقيل زائدة أي أمرنا أن نسلم على حذف الباء وقوله تعالى (وأن أقيموا الصلاة واتقوه) أي الله تعالى في مخالفة أمره عطف على نسلم على الوجوه الثلاثة على أن المصدرية اذا وصلت بالأمر يتجرد هو عن معنى الامر نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال فالمعنى على الاول أمرنا أي قيل لنا أسلموا واقيموا الصلاة واتقوا الله لاجل أن نسلم ونقيم الصلاة ونتقيه تعالى . وعلى الأخيرين أمرنا بأن نسلم ونقيم الصلاة ونتقيه تعالى والتعرض لوصف ربوبيته تعالى للعالمين لتعليل الأمر وتأكيد وجوب الامتثال به كما أن قوله تعالى (وهو الذى اليه تحشرون) جملة مستأنفة موجبة للامتثال بما أمربه من الأمور الثلاثة (وهو الذى خلق السموات والارض) اريد بخلقهما خلق مافيهما ايضا وعدم التصريح بذلك لظهور اشتمالهما على جميع العلويات والسفليات وقوله تعالى (بالحق) متعلق بمحذوف هو حال من فاعل خلق أو من مفعوله أو صفة لمصدره المؤكد له أي قائما بالحق أو ملتبسة بالحق أو خلقا ملتبسا به وقوله تعالى (ويوم يقول كن فيكون قوله الحق) استئناف لبيان أن خلقه تعالى لما ذكر من السموات والأرض ليس مما يتوقف على مادة أو مدة بل يتم بمحض الأمر التكويني من غير توقف على شيء آخر أصلا وأن ذلك الامر المتعلق بكل فرد فرد من أفراد المخلوقات في حين معين من أفراد الأحيان حتى في نفسه متضمن للحكمة ويوم ظرف لمضمون جملة قوله الحق والواو بحسب المعنى داخل عليها وتقديمه عليها للاعتناء به من حيث أنه مدار الحقية وترك ذكر المقول له للثقة بغاية ظهوره والمراد بالقول كلمة كن تحقيقا أو تمثيلا كما

هو المشهور فالمعنى وأمره المتعلق بكل شيء يريد خلقه من الاشياء فى حين تعلقه به لا قبله ولا بعده من أفراد الأحيان الحق أى المشهود له بالحقية المعروف بها هذا وقد قيل قوله مبتدأ والحق صفته ويوم يقول خبره مقدما عليه كقولك: يوم الجمعة القتال انتصابه بمعنى الاستقرار وحاصل المعنى قوله الحق كائن حين يقول لشيء من الاشياء كن فيكون ذلك الشيء. وقيل يوم منصوب بالعطف على السموات أو على الضمير فى واتقوه أو بمحذوف دل عليه بالحق وقوله الحق مبتدأ وخبر أو فاعل يكون على معنى حين يقول لقوله الحق أى لقضائه الحق كن فيكون والمراد حين يكون الاشياء ويحدثها او حين تقوم القيامة فيكون التكوين حشر الاجساد واحياءها فتأمل حق التأمل (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) تقييد اختصاص الملك به تعالى بذلك اليوم مع عموم الاختصاص لجميع الاوقات لغاية ظهور ذلك بانقطاع العلائق المجازية الكائنة فى الدنيا المصححة للمالكية المجازية فى الجملة لقوله تعالى «لمن الملك اليوم لله الواحد القهار» (عالم الغيب والشهادة) أى هو عالمهما (وهو الحكيم) فى كل مايفعله (الخبير) بجميع الامور الجلية والخفية (واذ قال ابراهيم) منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام معطوف على قل أندعوا لا على أقيموا كما قيل لفساد المعنى أى واذكر لهم بعد ماأنكرت عليهم عبادة مالايقدر على نفع وضر وحققت أن الهدى هو هدى الله ومايتبعه من شئونه تعالى وقت قول ابراهيم الذى يدعون أنهم على ملته موبخا (لأبيه آزر) على عبادة الأصنام فان ذلك مما يبكتهم وينادى بفساد طريقتهم وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة لما مر مرارا من المبالغة فى ايجاب ذكرها وآزر بزنة آدم وعابر وعازر وفالغ وكذلك تارح . ذكره محمد بن اسحاق والضحاك والكلبى وكان من قرية من سواد الكوفة ومنع صرفه للعجمة والعلمية وقيل اسمه بالسريانية تارح وآزر لقبه المشهور وقيل اسم صنم لقب هو به للزومه عبادته فهو عطف بيان لابيه أو بدل منه وقال الضحاك معناه الشيخ الهرم وقال الزجاج المخطىء وقال الفراء وسليمان التيمى المعوج فهو نعت له كما اذا جعل مشتقا من الأزر أو الوزر أو أريد به عابد آزر على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقرىء آزر على النداء وهو دليل العلمية اذلا يحذف حرف النداء الا من الاعلام (أتتخذ) متعد الى مفعولين هما (أصناما آلهة) أى أتجعلها لنفسك آلهة على توجيه الانكار الى اتخاذ الجنس من غير اعتبار الجميعة وانما ايراد صيغة الجمع باعتبار الوقوع وقرىء أأزرا بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام

وزاء ساكنة وراء منونة منصوبة وهو اسم صنم ومعناه أتعبد أزرا ثم قيل تتخذ أصناما آلهة تثبيتا لذلك وتقريرا وهو داخل تحت الانكار لكونه بيانا له وقيل الازر القوة والمعنى ألاجل القوة والمظاهرة تتخذ أصناما آلهة انكارا لتعززه بها على طريقة قوله تعالى «أيبتغون عندهم العزة» (انى أراك وقومك) الذين يتبعونك فى عبادتها (فى ضلال) عن الحق (مبين) أى بين كونه ضلالا لا اشتباه فيه أصلا والرؤية اما علمية فالظرف مفعولها الثانى واما بصرية فهو حال من المفعول والجملة تعليل للانكار والتوبيخ (وكذلك نرى ابراهيم) هذه الاراءة من الرؤية البصرية المستعارة للمعرفة ونظر البصيرة أى عرفناه وبصرناه وصيغة الاستقبال حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها وذلك اشارة الى مصدر نرى لا الى اراءة أخرى مفهومة من قوله انى أراك وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجة المشار اليه وبعد منزلته فى الفضل وكمال تميزه بذلك وانتظامه بسببه فى سلك الأمور المشاهدة والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الأصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير نرى ابراهيم اراءة كائنة مثل تلك الاراءة فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار المشار اليه نفس المصدر المؤكد لا نعتا له أى ذلك التبصير البديع نبصره عليه السلام (ملكوت السموات والارض) أى ربوبيته تعالى ومالكيته لهما وسلطانه القاهر عليهما وكونهما بما فيهما مربوبا ومملوكا له تعالى لا تبصيرا آخر ادنى منه والملكوت مصدر على زنة المبالغة كالرهبوت والجبروت ومعناه الملك العظيم والسلطان القاهر ثم هل هو مختص بملك الله عز سلطانه أولا فقد قيل وقيل والاول هو الاظهر وبه قال الراغب . وقيل ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما روى أنه كشف له عليه السلام عن السموات والارض حتى العرش وأسفل الارضين وقيل آياتهما وقيل ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الارض الجبال والاشجار والبحار وهذه الاقوال لا تقتضى أن تكون الاراءة بصرية اذ ليس المراد بأراءة ما ذكر من الامور الحسية مجرد تمكينه عليه السلام من أبصارها ومشاهدتها فى أنفسها بل اطلاعه عليه السلام على حقائقها . وتعريفها من حيث دلالتها على شئونه عز وجل ولا ريب فى أن ذلك ليس مما يدرك حسا كما ينبئ عنه اسم الاشارة المفصح عن كون المشار اليه أمرا بديعا فان الاراءة البصرية المعتادة بمعزل من تلك المثابة وقرئ ترى بالتاء واسناد الفعل الى الملكوت أى تبصره عليه السلام دلائل الربوبية واللام فى قوله تعالى (وليكون من الموقنين) متعلقة بمحذوف مؤخر والجملة اعتراض مقرر

لما قبلها أي وليكون من زمرة الراسخين فى الايقان البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى فعلنا مافعلنا من التبصير البديع المذكور لا لأمر آخر فان الوصول الى تلك الغاية القاصية كمال مترتب على ذلك التبصير لاعينه وليس القصر لبيان انحصار فائدته فى ذلك كيف لاوأرشاد الخلق والزام المشركين كما سيأتى من فوائده بلا مرية بل لبيان أنه الاصل الأصيل والباقى من مستتبعاته وقيل هى متعلقة بالفعل السابق والجملة معطوفة على علة أخرى محذوفة ينسحب عليها الكلام أى ليستدل بها وليكون الخ فينبغى أن يراد بملكوتهما بدائعهما وآياتهما لان الاستدلال من غايات أراءتها لامن غايات أراءة نفس الربوبية وقوله تعالى (فلما جن عليه الليل) على الاول وهو الحق المبين عطف على قال ابراهيم داخل تحت ما أمر بذكر وقته ومابينهما اعتراض مقرر لما سبق والحق فان تعريفه عليه السلام ربوبيته ومالكيته للسموات والارض ومافيهما وكون الكل مقهورا تحت ملكوته مفتقرا اليه فى الوجود وسائر مايترتب عليه من الكمالات وكونه من الراسخين فى معرفة شئونه تعالى الواصلين الى ذروة عين اليقين مما يقضى بأن يحكم عليه السلام باستحالة الهية ماسواه سبحانه من الاصنام والكواكب وعلى الثانى هو تفصيل لما ذكر من اراءة ملكوت السموات والارض وبيان لكيفية استدلاله عليه السلام ووصوله الى رتبة الايقان ومعنى جن عليه الليل ستره بظلامه وقوله تعالى (رأى كوكبا) جواب لما فان رؤيته انما تتحقق بزوال نور الشمس عن الحس وهذا صريح فى أنه لم يكن فى ابتداء الطلوع بل كان غيبته عن الحس بطريق الاضمحلال بنور الشمس والتحقيق أنه كان قريبا من الغروب كما ستعرفه قيل كان ذلك الكوكب هو الزهرة وقيل هو المشترى وقوله تعالى (قال هذا ربى) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الشرطية السابقة المتفرعة على بيان أراءته عليه السلام ملكوت السموات والارض فان ذلك مما يحمل السامع على استكشاف ماظهر منه عليه السلام من آثار تلك الاراءة وأحكامها كأنه قيل فماذا صنع عليه السلام حين رأى الكوكب فقيل قال على سبيل الوضع والفرض هذا ربى مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب فان المستدل على فساد قول يحكيه على رأى خصمه ثم يكر عليه بالابطال ولعل سلوك هذه الطريقة فى بيان استحالة ربوبية للكواكب دون بيان استحالة آلهية الاصنام لما أن هذا أخفى بطلانا واستحالة من الاول فلو صدع بالحق من أول الامر كما فعله فى حق عبادة الاصنام لتمادوا فى المكابرة والعناد ولجوا فى طغيانهم يعمهون وقيل قاله عليه السلام على وجه النظر والاستدلال وكان ذلك فى زمان مراهقته وأول أوان بلوغه وهو مبنى

على تفسير الملكوت بآياتهما و عطف قوله تعالى ليكون على ماذكر من العلة المقدرة وجعل قوله تعالى فلما جن الخ تفصيلا لما ذكر من الاراءة وبيانا لكيفية الاستدلال وأنت خبير بأن كل ذلك مما يخل بجزالة النظم الجليل وجلالة منصب الخليل عليه الصلاة والسلام (فلما أفل) أى غرب (قال لاأحب الآفلين) أى الارباب المنتقلين من مكان الى مكان المتغيرين من حال الى حال المحتجبين بالاستار فانهم بمعزل من استحقاق الربوبية قطعا (فلما رأى القمر بازغا) أى مبتدئا فى الطلوع اثر غروب الكواكب (قال هذا ربى) على الاسلوب السابق (فلما أفل) كما أفل النجم (قال لئن لم يهدنى ربى) الى جنابه الذى هو الحق الذى لامحيد عنه (لأكونن من القوم الضالين) فان شيئا مما رأيته لا يليق بالربوبية وهذا مبالغة منه عليه السلام فى اظهار النصفة ولعله عليه السلام كان اذ ذاك فى موضع كان فى جانبه الغربى جبل شامخ يستتر به الكوكب والقمر وقت الظهر من النهار أو بعده بقليل وكان الكوكب قريبا منه وأفقه الشرقى مكشوف أولا والافطلوع القمر بعد أفول الكوكب ثم أفوله قبل طلوع الشمس كما ينبىء عنه قوله تعالى (فلما رأى الشمس بازغة) أى مبتدأة فى الطلوع مما لا يكاد يتصور (قال) أى على النهج السابق (هذا ربى) وانما لم يؤنث لما أن المشار اليه والمحكوم عليه بالربوبية هو الجرم المشاهد من حيث هو لا من حيث هو مسمى باسم من الأسامى فضلا عن حيثية تسميته بالشمس أو لتذكير الخبر وصيانة الرب عن وصمة التأنيث وقوله تعالى (هذا أكبر) تأكيد لما رامه عليه السلام من أظهار النصفة مع اشارة خفية الى فساد دينهم من جهة أخرى ببيان أن الاكبر أحق بالربوبية من الاصغر (فلما أفلت) هى أيضا كما أفل الكوكب والقمر (قال) مخاطبا للكل صادعا بالحق بين أظهرهم (ياقوم انى برىء مما تشركون) أى من الذي تشركونه من الاجرام المحدثة المتغيرة من حالة الى أخرى المسخرة لمحدثها أو من اشراككم وترتيب هذا الحكم ونظيريه على الأفول دون البزوغ والظهور من ضروريات سوق الاحتجاج على هذا المساق الحكيم فان كلا منهما وان كان فى نفسه انتقالا منافيا لاستحقاق معروضه للربوبية قطعا لكن لما كان الاول حالة موجبة لظهور الآثار والاحكام ملائمة لتوهم الاستحقاق فى الجملة رتب عليها الحكم الاول على الطريقة المذكورة وحيث كان الثانى حالة مقتضية لانطماس الآثار و بطلان الاحكام المنافيين للاستحقاق المذكور منافاة بينة يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد رتب عليها ما رتب ثم لما تبرأ عليه السلام منهم توجه الى مبدع هذه المصنوعات ومنشئها فقال (انى وجهت وجهى للذي فطر السموات) التى هذه الاجرام التى تعبدونها من أجزائها

(والارض) التى تغيب هى فيها (حنيفا) أى مائلا عن الاديان الباطلة والعقائد الزائغة كلها (وما أنا من المشركين) فى شيء من الافعال والاقوال (وحاجه قومه) أى شرعوا فى مبالغته فى أمر التوحيد (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية محاجتهم كأنه قيل فماذا قال عليه السلام حين حاجوه فقيل قال منكرا لما اجترءوا عليه من محاجته مع قصورهم عن تلك الرتبة وعزة المطلب وقوة الخصم (أتحاجونى فى الله) بادغام نون الجمع فى نون الوقاية وقرىء بحذف الاولى وقوله تعالى (وقد هدان) حال من ضمير المتكلم مؤكدة للانكار فان كونه عليه السلام مهديا من جهة الله تعالى ومؤيدا من عنده مما يوجب استحالة محاجته عليه السلام أى أتجادلوننى فى شأنه تعالى ووحدانيته والحال أنه تعالى هدانى الى الحق بعد ما سلكت طريقتكم بالفرض والتقدير وتبين بطلانها تبيينا تاما كما شاهدتموه وقوله تعالى (ولا أخاف ما تشركون به) جواب عما خوفوه عليه السلام فى أثناء المحاجة من اصابة مكروه من جهة أصنامهم كما قال لهود عليه السلام قومه ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ه لعلهم فعلوا ذلك حين فعل عليه السلام بآلهتهم ما فعل وما موصولة اسمية حذف عائدها وقوله تعالى (الا أن يشاء ربى شيئا) استثناء مفرغ من أعم الأوقات أى لا أخاف ما تشركونه به سبحانه من معبوداتكم فى وقت من الأوقات الا فى وقت مشيئته تعالى شيئا من اصابة مكروه بى من جهتها وذلك انما هو من جهته تعالى من غير دخل لآلهتكم فيه أصلا وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام أظهار منه لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى واستسلام لامره واعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته وقوله تعالى (وسع ربى كل شيء علما) كانه تعليل للاستثناء أى أحاط بكل شيء علما فلا يبعد أن يكون فى علمه تعالى أن يحيق بى مكروه من قبلها بسبب من الاسباب وفى الاظهار فى موضع الاضمار تأكيد للمعنى المذكور واستلذاذ بذكره تعالى (أفلا تتذكرون) أى أتعرضون عن التأمل فى ان آلهتكم جمادات غير قادرة على شيء ما من نفع ولا ضر فلا تتذكرون أنها غير قادرة على اضرارى وفى ايراد التذكر دون التفكر ونظائره اشارة الى أن أمر أصنامهم مركوز فى العقول لا يتوقف الا على التذكر وقوله تعالى (وكيف أخاف ما أشركتم) استئناف مسوق لنفى الخوف عنه عليه السلام بحسب زعم الكفرة بالطريق الالزامى كما سيأتى بعد نفيه عنه بحسب الواقع ونفس الامر والاستفهام لانكار الوقوع ونفيه بالكلية كما فى قوله تعالى « كيف يكون للمشركين عهد عند الله » الآية لا لانكار الواقع واستبعاده مع وقوعه كما فى قوله تعالى « كيف تكفرون بالله » الخ وفى توجيه الانكار الى كيفية الخوف من المبالغة ما ليس فى توجيهه الى نفسه بان يقال أأخاف لما أن كل موجود يجب أن يكون

وجوده على حال من الأحوال وكيفية من الكيفيات قطعا فاذا انتفى جميع احواله وكيفياته فقد انتفى وجوده من جميع الجهات بالطريق البرهانى وقوله تعالى (ولا تخافون أنكم أشركتم بالله) حال من ضمير أخاف بتقدير مبتدأ والواو كافية فى الربط من غير حاجة الى الضمير العائد الى ذى الحال وهو مقرر لانكار الخوف ونفيه عنه عليه السلام ومفيد لاعترافهم بذلك فانهم حيث لا يخافوا فى محل الخوف فلأن لا يخاف عليه السلام فى محل الأمن أولى وأحرى أى وكيف اخاف أنا ما ليس فى حيز الخوف أصلا وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخوفات وأهولها وهو أشراككم بالله الذى ليس كمثله شىء فى الارض ولا فى السماء ما هو من جملة مخلوقاته وانما عبر عنه بقوله تعالى (مالم ينزل به) أى باشراكه (عليكم سلطانا) على طريقة التهكم مع الايذان بان الامور الدينية لا يعول فيها الا على الحجة المنزلة من عند الله تعالى وفى تعليق الخوف الثانى باشراكهم من المبالغة ومراعاة حسن الأدب مالا يخفى هذا وأما ماقيل من أن قوله تعالى ولا تخافون الخ معطوف على أخاف داخل معه فى حكم الانكار والتعجيب فما لاسبيل اليه أصلا لافضائه الى فساد المعنى قطعا كيف لا وقد عرفت أن الانكار بمعنى النفى بالكلية فيؤل المعنى الى نفى الخوف عنه عليه الصلاة والسلام ونفى نفيه عنهم وانه بين الفساد وحمل الأنكار فى الاول على معنى نفى الوقوع وفى الثانى على استبعاد الواقع مما لا مساغ له على أن قوله تعالى (فأى الفريقين أحق بالأمن) ناطق ببطلانه حتما فانه كلام مرتب على أنكار خوفه عليه الصلاة والسلام فى محل الأمن مع تحقيق عدم خوفهم فى محل الخوف مسوق لالجائهم الى الاعتراف باستحقاقه عليه الصلاة والسلام لما هو عليه من الأمن وبعدم استحقاقهم لما هم عليه وانما جىء بصيغة التفضيل المشعرة باستحقاقهم له فى الجملة لاستنزالهم عن رتبة المكابرة والاعتساف بسوق الكلام على سنن الانصاف والمراد بالفريقين الفريق الآمن فى محل الامن والفريق الآمن فى محل الخوف فايثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال فاينا أحق بالامن أنا أم أنتم لتأكيد الألجاء الى الجواب الحق للتنبيه على علة الحكم والتفادى عن التصريح بتخطئتهم لا لمجرد الاحتراز عن تزكية النفس (ان كنتم تعلمون) المفعول اما محذوف تعويلا على ظهوره بمعونة المقام أى ان كنتم تعلمون من أحق بذلك أو قصدا الى التعميم أى ان كنتم تعلمون شيئا واما متروك بالمرة أى ان كنتم من أولى العلم وجواب الشرط محذوف أى فاخبرونى (الذين آمنوا) استئناف من جهته تعالى مبين للجواب الحق الذى لا محيد عنه أى الفريق الذين آمنوا (ولم يلبسوا ايمانهم) ذلك أى لم يخلطوه (بظلم) أى بشرك

كما يفعله الفريق المشركون حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله عز وجل وان عبادتهم للأصنام من تتمات إيمانهم وأحكامه لكونها لاجل التقريب والشفاعة كما قالوا مانعبدهم إلاليقربونا الى اللهزلفي وهذا معنى الخلط (أولئك) أشارة الى الموصول من حيث اتصافه بما فى حيز الصلة وفى الاشارة اليه بعد وصفه بماذكر إيذان بأنهم تميزوا بذلك عن غيرهم وانتظموا فى سلك الأمور المشاهدة ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف وهو مبتدأ ثان وقوله تعالى (لهم الأمن) جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر وقعت خبرا لأولئك وهو مع خبره خبر المبتدأ الأول الذي هو الموصول ويجوز أن يكون أولئك بدلا من الموصول أو عطف بيان له ولهم خبرا للموصول والأمن فاعلا للظرف لاعتماده على المبتدأ ويجوز أن يكون لهم خبرا مقدما والامن مبتدأ والجملة خبرا للموصول ويجوز أن يكون أولئك مبتدأ ثانيا ولهم خبره والامن فاعلا له والجملة خبرا للموصول أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الايمان الخالص عن شوب الشرك لهم الأمن فقط (وهم مهتدون) الى الحق ومن عداهم فى ضلال مبين روى أنه لما نزلت الآية شق ذلك على الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا أينا لم يظلم نفسه فقال عليه الصلاة والسلام «ليس ماتظنون إنما هو ماقال لقمان لابنه يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» وليس الايمان به أن يصدق بوجود الصانع الحكيم ويخلط بهذا التصديق الاشراك به وليس من قضية الخلط بقاء الاصل بعد الخلط حقيقة. وقيل المراد بالظلم المعصية التي تفسق صاحبها والظاهر هو الاول لوروده مورد الجواب عن حال الفريقين (وتلك) إشارة الى ما احتج به ابراهيم عليه السلام من قوله تعالى فلما جن. وقيل من قوله أتحاجونى الى قوله مهتدون . وما فى اسم الاشارة من معنى البعد لتفخيم شأن المشار اليه والاشعار بعلو طبقته وسمو منزلته فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (حجتنا) خبره وفى أضافتها الى نون العظمة من التفخيم مالايخفى وقوله تعالى (آتيناها ابراهيم) أى أرشدناه اليها أو علمناه إياها فى محل النصب على أنه حال من حجتنا والعامل فيها معنى الاشارة كما فى قوله تعالى «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا» أو فى محل الرفع على أنه خبر ثان أو هو الخبر وحجتنا بدل أو بيان للمبتدأ أو ابراهيم مفعول أول لآتينا قدم عليه الثانى لكونه ضميرا وقوله تعالى (على قومه) متعلق بحجتنا أن جعل خبرا لتلك أو بمحذوف أن جعل بدلا أى آتينا ابراهيم حجة على قومه وقيل بقوله آتينا (نرفع) بنون العظمة وقرئ بالياء على طريقة الالتفات وكذا الفعل الآتى (درجات) أى رتبا عظيمة عالية من العلم والحكمة وانتصابها على المصدرية أو الظرفية

أو على نزع الخافض أى الى درجات أو على التميز والمفعول قوله تعالى (من نشاء) وتأخيره على الوجوه الثلاثة الأخيرة لمامر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ومفعول المشيئة محذوف أى من نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة. وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على أن ذلك سنة مستمرة جارية فيما بين المصطفين الاخيار . غير مختصة بابراهيم عليه السلام . وقرئ بالاضافة الى من والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها لامحل لها من الاعراب وقيل هى فى محل النصب على أنها حال من فاعل آتينا أى حال كوننا رافعين الخ (ان ربك حكيم) فى كل مافعل من رفع وخفض (عليم) بحال من يرفعه واستعداده له على مراتب متفاوتة والجملة تعليل لما قبلها وفى وضع الرب مضافا الى ضميره عليه السلام موضع نون العظمة بطريق الالتفات فى تضاعيف بيان أحوال ابراهيم عليه السلام اظهار لمزيد لطف وعناية به عليه السلام (ووهبنا له اسحق ويعقوب) عطف على قوله تعالى وتلك حجتنا الخ فان عطف كل من الجملة الفعلية والاسمية على الاخرى مما لا نزاع فى جوازه ولا مساغ لعطفه على آتيناها لان له محلا من الاعراب نصبا ورفعا حسبما بين من قبل فلو عطف هذا عليه لكان فى حكمه من الحالية والخبرية المستدعيتين للرابط ولاسبيل اليه ههنا (كلا) مفعول لما بعده وتقديمه عليه للقصر لكن لا بالنسبة الى غيرهما مطلقا بل بالنسبة الى أحدهما أى كل واحد منهما (هدينا) لا أحدهما دون الآخر وترك ذكر المهدى اليه لظهور أنه الذى أوتى ابراهيم وأنهما مقتديان به (ونوحا) منصوب بمضمر يفسره (هدينا من قبل) أى من قبل ابراهيم عليه السلام عد هداه نعمة على ابراهيم عليه السلام لان شرف الوالد سار الى الولد (ومن ذريته) الضمير لابراهيم لان مساق النظم الكريم لبيان شئونه العظيمة من إيتاء الحجة ورفع الدرجات وهبة الاولاد الانبياء وابقاء هذه الكرامة فى نسله الى يوم القيامة كل ذلك لالزام من ينتمى الى ملته عليه السلام من المشركين واليهود وقيل لنوح لانه أقرب ولان يونس ولوطا ليسا من ذرية ابراهيم فلو كان الضمير له لاختص بالمعدودين فى هذه الآية والتى بعدها وأما المذكورون فى الآيه الثالثة فعطف على نوحا وروى عن ابن عباس أن هؤلاء الانبياء كلهم مضافون الى ذرية ابراهيم وان كان منهم من لم يلحقه بولاد من قبل أم ولا أب لان لوطا ابن أخى ابراهيم والعرب تجعل العم أبا كما أخبر الله تعالى عن أبناء يعقوب أنهم قالوا نعبد إلهك وإله آبائك وابراهيم واسمعيل واسحق مع أن اسمعيل عم يعقوب (داود وسليمان) منصوبان بمضمر مفهوم مما سبق وكذا ماعطف عليهما وبه يتعلق من ذريته وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام

بشأنه مع مافى المفاعيل من نوع طول ربما يخل تأخيره بتجاوب النظم الكريم أى وهدينا من ذريته داود وسليمان (وأيوب) هو ابن أموص من أسباط عيصو بن اسحق (ويوسف وموسى وهرون) أو بمحذوف وقع حالا من المذكورين أى وهديناهم حال كونهم من ذريته (وكذلك) إشارة الى ما يفهم من النظم الكريم من جزاء ابراهيم عليه السلام ومحل الكاف النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير (نجزي المحسنين) جزاء مثل ذلك الجزاء والتقديم للقصر وقد مر تحقيقه مرارا والمراد بالمحسنين الجنس وبمماثلة جزائهم لجزائه عليه السلام مطلق المشابهة فى مقابلة الاحسان بالاحسان . والمكافأة بين الاعمال والأجزية من غير بخس لا المماثلة من كل وجه ضرورة أن الجزاء بكثرة الاولاد الانبياء مما اختص به ابراهيم عليه السلام والاقرب ان لام المحسنين للعهد وذلك اشارة الى مصدر الفعل الذى بعده وهو عبارة عما أوتى المذكورون من فنون الكرامات وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقته والكاف لتأكيد ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة ومحلها فى الاصل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف وأصل التقدير ونجزى المحسنين المذكورين جزاء كائنا مثل ذلك الجزاء فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة للنكتة المذكورة فصار المشار اليه نفس المصدر المؤكد لانعتاله أى وذلك الجزاء البديع نجزى المحسنين المذكورين لاجزاء آخر أدنى منه والاظهار فى موضع الاضمار للثناء عليهم بالاحسان الذى هو عبارة عن الاتيان بالاعمال الحسنة على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفى المقارن لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله «أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك» والجملة اعتراض مقرر لما قبلها (وزكريا) هو ابن آذن (ويحيى) ابنه (وعيسى) هو ابن مريم وفيه دليل بين على أن الذرية تتناول أولاد البنات (والياس) قيل هو ادريس جد نوح فيكون البيان مخصوصا بمن فى الآية الأولى وقيل هو من أسباط هرون أخى موسى عليهما السلام (كل) أى كل واحد من أولئك المذكورين (من الصالحين) أى من الكاملين فى الصلاح الذى هو عبارة عن الاتيان بما ينبغى والتحرز عما لا ينبغى والجملة اعتراض جىء به للثناء عليهم بالصلاح (واسمعيل واليسع) هو ابن أخطوب بن العجوز وقرىء والليسع وهو على القراءتين علم أعجمى أدخل عليه اللام ولا اشتقاق له ويقال انه يوشع بن نون وقيل انه منقول من مضارع وسع واللام كما فى يزيد فى قول من قال :

رأيت الوليد بن اليزيد مباركا شديدا بأعباء الخلافة كاهله

(ويونس) ابن متى (ولوطا) هو ابن هاران ابن أخى ابراهيم عليه السلام (وكلا) أى

وكل واحد من أولئك المذكورين (فضلنا) بالنبوة لا بعضهم دون بعض (على العالمين) على عالمي عصرهم والجملة اعتراض كأختيها وقوله تعالى (ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم) اما متعلق بما تعلق به من ذريته ومن ابتدائية والمفعول محذوف أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم واخوانهم جماعات كثيرة واما معطوف على كلا ومن تبعيضية أي وفضلنا بعض آبائهم الخ (واجتبيناهم) عطف على فضلنا أي اصطفيناهم (وهديناهم الى صراط مستقيم) تكرير للتأكيد وتمهيد لبيان ماهدوا اليه (ذلك) اشارة الى مايفهم من النظم الكريم من مصادر الافعال المذكورة وقيل الى ماداونوا به وما في ذلك من معنى البعد لما مر مرارا (هدى الله) الاضافة للتشريف (يهدى به من يشاء من عباده) وهم المستعدون للهداية والارشاد وفيه الاشارة الى أنه تعالى متفضل بالهداية (ولو أشركوا) أي هؤلاء المذكورون (لحبط عنهم) مع فضلهم وعلو طبقاتهم (ما كانوا يعملون) من الاعمال المرضية الصالحة فكيف بمن عداهم وهم هم وأعمالهم أعمالهم (أولئك) اشارة الى المذكورين من الانبياء الثمانية عشر والمعطوفين عليهم عليهم السلام باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها من النعوت الجليلة الثابتة لهم وما فيه من معنى البعد لما مر غير مرة من الايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل والشرف وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب) أي جنس الكتاب المتحقق في ضمن أي فرد كان من أفراد الكتب السماوية والمراد بايتائه التفهيم التام بما فيه من الحقائق والتمكين من الاحاطة بالجلائل والدقائق أعم من ان يكون ذلك بالانزال ابتداء أو بالايراث بقاء فان المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين (والحكم) أي الحكمة أو فصل الامر على ما يقتضيه الحق والصواب (والنبوة) أي الرسالة (فان يكفر بها) أي بهذه الثلاثة أو بالنبوة الجامعة للباقين (هؤلاء) أي كفار قريش فانهم بكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن كافرون بما يصدقه جميعا وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر (فقد وكلنا بها) أي أمرنا بمراعاتها ووفقنا للايمان بها والقيام بحقوقها (قوما ليسوا بها بكافرين) أي في وقت من الاوقات بل مستمرون على الايمان بها فان الجملة الاسمية الايجابية كما تفيد دوام الثبوت كذلك السلبية تفيد دوام النفي بمعونة المقام لانفي الدوام كما حقق في مقامه . قال ابن عباس ومجاهد رضي الله تعالى عنهما هم الأنصار وأهل المدينة . وقيل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل كل مؤمن من بني آدم . وقيل الفرس . فان كلا من هؤلاء الطوائف موفقون للايمان بالانبياء وبالكتب المنزلة اليهم

عاملون بما فيها من أصول الشرائع وفروعها الباقية فى شريعتنا و به يتحقق الخروج عن عهدة التوكيل والتكليف دون المنسوخة منها فانها بانتساخها خارجة عن كونها من أحكامها وقد مر تحقيقه فى تفسير سورة المائدة وقيل هم الانبياء المذكورون فالمراد بالتوكيل الامر بما هو أعم من إجراء أحكامها كما هو شأنهم فى حق كتابهم ومن اعتقاد حقيتها كما هو شأنهم فى حق سائر الكتب التى من جملتها القرآن الكريم . وقيل هم الملائكة فالتوكيل هو الأمر بانزالها وحفظها واعتقاد حقيتها وأيا ما كان فتنكير قوما للتفخيم والباء الاولى صلة لكافرين قدمت عليه محافظة على الفواصل والثانية لتأكيد النفى وأما تقديم صلة وكلنا على مفعوله الصريح فلما ذكر آنفا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ولان فيه نوع طول ربما يؤدى تقديمه الى الاخلال بتجاوب النظم الكريم أو الى الفصل بين الصفة والموصوف وجواب الشرط محذوف يدل عليه المذكور أى فان يكفر بها هؤلاء فلا اعتداد به أصلا فقد وفقنا للايمان بها قوما فخاما ليسوا بكافرين بها قطعا بل مستمرون على الايمان بها والعمل بما فيها ففى ايمانهم بها مندوحة عن ايمان هؤلاء ومن هذا تبين أن الوجه أن يكون المراد بالقوم أحدى الطوائف المذكورة اذ بايمانهم بالقرآن والعمل بأحكامه تتحقق الغنية عن ايمان الكفرة به والعمل بأحكامه وأما الأنبياء والملائكة عليهم السلام فايمانهم به ليس من قبيل ايمان آحاد الأمة كما أشير اليه (أولئك) اشارة الى الانبياء المذكورين وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (الذين هدى الله) أى الى الحق والنهج المستقيم والالتفات الى الاسم الجليل للاشعار بعلة الهداية (فبهداهم اقتده) أى فاختص هداهم بالاقتداء ولا تقتد بغيرهم والمراد بهداهم طريقتهم فى الايمان بالله تعالى وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع القابلة للنسخ فانها بعد النسخ لا تبقى هدى والهاء فى اقتده للوقف حتما أن تسقط فى الدرج واستحسن اثباتها فيه أيضا اجراء له مجرى الوقف واقتداء بالامام وقرىء باشباعها على أنها كناية المصدر (قل لا أسألكم عليه) أى على القرآن أو على التبليغ فان مساق الكلام يدل عليهما وأن لم يجر ذكرهما (أجرا) من جهتكم كما لم يسأله من قبلى من الانبياء عليهم السلام وهذا من جملة ما أمر صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهم فيه (ان هو) أى ما القرآن (إلا ذكرى للعالمين) أى عظة و تذكير لهم كافة من جهته سبحانه فلا يختص بقوم دون آخرين (وما قدروا الله) لما بين شأن القرآن العظيم وأنه نعمة جليلة منه تعالى على كافة الأمم حسبما ينطق به قوله تعالى «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» عقب ذلك ببيان غمطهم إياها وكفرهم بها على وجه

سرى ذلك الى الكفر بجميع الكتب الالهية وأصل القدر السبر و الحزر يقال قدر الشيء يقدره بالضم قدرا اذا سبره و حزره ليعرف مقداره ثم استعمل فى معرفة الشيء فى مقداره وأحواله وأوصافه وقوله تعالى (حق قدره) نصب على المصدرية وهو فى الأصل صفة للمصدرأى قدره الحق فلما أضيف إلى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه موصوفه أى ماعرفوه تعالى حق معرفته فى اللطف بعباده والرحمة عليهم ولم يراعوا حقوقه تعالى فى ذلك بل أخلوا بها اخلالا (إذ قالوا) منكرين لبعثة الرسل وانزال الكتب كافرين بنعمته الجليلة فيهما (ما أنزل الله على بشر من شيء) فنفى معرفتهم لقدره سبحانه كناية عن حطهم لقدره الجليل و وصفهم له تعالى بنقيض نعته الجميل كما أن نفى المحبة فى مثل ان الله لا يحب الكافرين كناية عن البغض والسخط والا فنفى معرفة قدره تعالى يتحقق مع عدم التعرض لحطه بل مع السعى فى تحصيل المعرفة كما فى قوله من يناجى مستقصرا لمعرفته وعبادته سبحانك ماعرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك . أو ماعرفوه حق معرفته فى السخط على الكفار وشدة بطشه تعالى بهم حسبما نطق به القرآن حين اجترءوا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء فالنفى بمعناه الحقيقى . والقائلون هم اليهود وقد قالوه مبالغة فى انكار انزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فالزموا بما لا سبيل لهم الى إنكاره أصلا حيث قيل (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) أى قل لهم ذلك على طريقة التبكيت والقام الحجر روى أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين فأنت الحبر السمين قد سمنت من مالك الذى تطعمك اليهود» فضحك القوم فغضب ثم التفت الى عمر رضى الله عنه فقال ما أنزل الله على بشر من شيء فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الاشرف . وقيل هم المشركون والزامهم أنزال التوراة لما أنه كان عندهم من المشاهير الذائعة ولذلك كانوا يقولون: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم . و وصف الكتاب بالوصول اليهم لزيادة التقريع وتشديد التبكيت وكذا تقييده بقوله تعالى (نورا وهدى) فان كونه بينا بنفسه ومبينا لغيره مما يؤكد الالزام أى تأكيد وانتصابهما على الحالية من الكتاب والعامل أنزل أو من الضمير فى به والعامل جاء واللام فى قوله تعالى (للناس) إما متعلق بهدى أو بمحذوف هو صفة له أى هدى كائنا للناس وليس المراد بهذا مجرد الزامهم بالاعتراف بانزال التوراة فقط بل بانزال القرآن أيضا فان الاعتراف بانزالها مستلزم للاعتراف بأنزاله قطعا لما فيها من

الشواهد الناطقة به وقد نعى عليهم مافعلوا بها من التحريف والتغيير حيث قيل (تجعلونه قراطيس) أى تضعونه فى قراطيس مقطعة وورقات مفرقة بحذف الجار بناء على تشبيه القراطيس بالظرف المبهم . أو تجعلونه نفس القراطيس المقطعة وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب ونزلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة والجملة حال كما سبق وقوله تعالى (تبدونها) صفة لقراطيس وقوله تعالى (وتخفون كثيرا) معطوف عليه والعائد الى الموصول محذوف أى كثيرا منها وقيل كلام مبتدأ لا محل له من الاعراب والمراد بالكثير نعوت النبى عليه الصلاة والسلام وسائر ما كتموه من أحكام التوراة وقرىء الأفعال الثلاثة بالياء حملا على قالوا وما قدروا وقوله تعالى (وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) قيل هو حال من فاعل تجعلونه بأضمار قد أو بدونه على اختلاف الرأيين قلت فينبغى أن يجعل ماعبارة عما أخذوه من الكتاب من العلوم والشرائع ليكون التقييد بالحال مفيدا لتأكيد التوبيخ وتشديد التشنيع فان ما فعلوه من الكتاب بالتفريق والتقطيع لما ذكر من الابداء والاخفاء شناعة عظيمة فى نفسها ومع ملاحظة كونه مأخذا لعلومهم ومعارفهم أشنع وأعظم لا عما تلقوه من جهة النبى صلى الله عليه وسلم زيادة على مافى التوراة وبيانا لما التبس عليهم وعلى آبائهم من مشكلاتها حسبما ينطق به قوله تعالى «أن هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون» كما قالوا لان تلقيهم لذلك من القرآن الكريم ليس مما يزجرهم عما صنعوا بالتوراة . اما ماورد فيه زيادة على مافيها فلانه لاتعلق بها نفيا ولا اثباتا وأما ما ورد بطريق البيان فلان مدار ما فعلوا بها من التبديل والتحريف ليس ما وقع فيها من التباس الأمر واشتباه الحال حتى يقلعوا عن ذلك بايضاحه وبيانه فتكون الجملة حينئذ خالية عن تأكيد التوبيخ فلا تستحق أن تقع موقع الحال . بل الوجه حينئذ أن تكون استئنافا مقررا لما قبلها من مجيء الكتاب بطريق التكملة والاستطراد والتمهيد لما يعقبه من مجيء القرآن ولا سبيل الى جعل ما عبارة عما كتموه من أحكام التوراة كما يفصح عنه قوله تعالى «قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب» فان ظهوره وان كان مزجرة لهم عن الكتم مخافة الافتضاح ومصححا لوقوع الجملة فى موقع الحال لكن ذلك مما يعلمه الكاتمون حتما هذا وقد قيل الخطاب لمن آمن من قريش كما فى قوله تعالى «لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم» وقوله تعالى (قل الله) أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بان يجيب عنهم إشعارا بتعيين الجواب بحيث لا محيد عنه وايذانا بأنهم أفحموا ولم يقدروا على التكلم أصلا (ثم ذرهم فى

خوضهم) فى باطلهم الذى يخوضون فيه ولا عليك بعد الزام الحجة والقام الحجر (يلعبون) حال من الضمير الاول والظرف صلة للفعل المقدم أو المؤخر أو متعلق بمحذوف هو حال من مفعول الأول أو من فاعل الثانى أو من الضمير الثانى لانه فاعل فى الحقيقة والظرف متصل بالاول (وهذا كتاب أنزلناه) تحقيق لنزول القرآن الكريم بعد تقرير أنزال ما بشر به من التوراة وتكذيب لهم فى كلمتهم الشنعاء أثر تكذيب (مبارك) أى كثير الفوائد وجم المنافع (مصدق الذى بين يديه) من التوراة لنزوله حسبما وصف فيها أو الكتب التى قبله فانه مصدق للكل فى إثبات التوحيد والامر به ونفى الشرك والنهى عنه وفى سائر أصول الشرائع التى لاتنسخ (ولتنذر أم القرى) عطف على ما دل عليه مبارك أى للبركات ولانذارك أهل مكة وأنما ذكرت باسمها المنبى عن كونها أعظم القرى شأنا وقبلة لاهلها قاطبة ايذانا بأن انذار أهلها أصل مستتبع لانذار أهل الارض كافة. وقرىء لينذر بالياء على أن الضمير للكتاب (ومن حولها) من أهل المدر والوبر فى المشارق والمغارب (والذين يؤمنون بالآخرة) وبما فيها من أفانين العذاب (يؤمنون به) أى بالكتاب لانهم يخافون العاقبة ولايزال الخوف يحملهم على النظر والتأمل حتى يؤمنوا به (وهم على صلواتهم يحافظون) تخصيص محافظتهم على الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات التى لابد للؤمنين من أدائها للايذان بأناقتها من بين سائر الطاعات وكونها أشرف العبادات بعد الايمان (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) فزعم أنه تعالى بعثه نبيا كمسيلمة الكذاب والاسود العنسى أو اختلق عليه أحكاما من الحل والحرمة كعمرو بن لحى ومتابعيه أى هو أظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب على نفى الاظلم منه وانكاره من غير تعرض لنفى المساوى وانكاره فان الاستعمال الفاشى فى قولك من أفضل من زيد أو لا أكرم منه على أنه أفضل من كل فاضل واكرم من كل كريم وقد مر تمام الكلام فيه (أوقال أوحى الي) من جهته تعالى (ولم يوح اليه) أى والحال أنه لم يوح اليه (شيء) أصلا كعبد الله بن سعد بن ابى سرح كان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فلما نزلت «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين فلما بلغ ثم أنشأناه خلقا آخر» قال عبدالله تبارك الله احسن الخالقين تعجبا من تفصيل خلق الانسان ثم قال عليه الصلاة والسلام اكتبها كذلك فشك عبد الله وقال لئن كان محمد صادقا فقد أوحى الى كما أوحى اليه ولئن كان كاذبا فقد قلت كما قال (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) كالذين قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا (ولو ترى اذ الظالمون) حذف مفعول ترى لدلالة الظرف عليه أى ولو ترى الظالمين اذهم (فى غمرات الموت) أى شدائده

من غمره اذا غشيه (والملائكة باسطو أيديهم) بقبض أرواحهم كالمتقاضى الملظ الملح يبسط يده الى من عليه الحق و يعنف عليه فى المطالبة من غير امهال و تنفيس أو باسطوها بالعذاب قائلين (أخرجوا أنفسكم) أى أخرجوا أرواحكم الينا من أجسادكم أو خلصوا أنفسكم من العذاب (أليوم) أى وقت الاماتة أو الوقت الممتد بعده الى مالانهاية له (تجزون عذاب الهون) أى العذاب المتضمن لشدة واهانة فاضافته الى الهون وهو الهوان لعراقته فيه (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) كاتخاذ الولد له ونسبة الشريك اليه و ادعاء النبوة والوحى كاذبا (وكنتم عن آياته تستكبرون) فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون بها (ولقد جئتمونا) للحساب (فرادى) منفردين عن الأموال و الاولاد وغير ذلك مما آثرتموه من الدنيا أو عن الأعوان و الأصنام التى كنتم تزعمون أنها شفعاؤكم وهو جمع فرد والألف للتأنيث ككسالى وقرئ فرادا كرخال وفراد كثلاث وفردى كسكرى (كما خلقناكم أول مرة) بدل من فرادى أى على الهيئة التى ولدتم عليها فى الانفراد أو حال ثانية عند من يجوز تعددها أو حال من الضمير فى فرادى أى مشبهين ابتداء خلقكم عراة حفاة غرلا بهما أو صفة مصدر جئتمونا أى مجيئا كخلقنا لكم أول مرة (وتركتم ماخولناكم) تفضلناه عليكم فى الدنيا فشغلتم به عن الآخرة (وراء ظهوركم) ماقدمتم منه شيئا ولم تحملوا نقيرا (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) أى شركاء الله تعالى فى الربوبية و استحقاق العبادة (لقد تقطع بينكم) أى وقع التقطع بينكم كما يقال جمع بين الشيئين أى أوقع الجمع بينهما وقرىء بينكم بالرفع على اسناد الفعل الى الظرف كما يقال قوتل أمامكم وخلفكم أو على أن البين اسم للفصل والوصل أى تقطع وصلكم وقرىء مابينكم (وضل عنكم) أى ضاع أو غاب (ما كنتم تزعمون) أنها شفعاؤكم أو أن لابعث ولا جزاء (ان الله فالق الحب والنوى) شروع فى تقرير بعض أفاعيله تعالى الدالة على كمال علمه و قدرته و لطف صنعه وحكمته أثر تقرير أدلة التوحيد . و الفلق الشق بأبانة أى شاق الحب بالنبات و النوى بالشجر و قيل المراد به الشق الذى فى الحبوب و النوى أي خالقها كذلك كما فى قولك ضيق فم الركية و وسع أسفلها وقيل الفلق بمعنى الخلق قال الواحدى ذهبوا بفالق مذهب فاطر (يخرج الحى من الميت) أى يخرج ماينموا من الحيوان و النبات مما لاينمو من النطفة والحب والجملة مستأنفة مبينة لما قبلها وقيل خبر ثان لان وقوله تعالى (ومخرج الميت) كالنطفة و الحب (من الحى) كالحيوان والنبات عطف على فالق الحب لا على يخرج على الوجه الاول لان اخراج الميت من الحى ليس من قبيل فلق الحب والنوى (ذلكم)

القادر العظيم الشأن هو (الله) المستحق للعبادة وحده (فأنى تؤفكون) فكيف تصرفون عن عبادته الى غيره ولا سبيل اليه أصلا (فالق الأصباح) خبر آخر لان أو لمبتدا محذوف والأصباح مصدر سمى به الصبح وقرئ بفتح الهمزة على انه جمع صبح أى فالق عمود الفجر عن بياض النهار واسفاره أو فالق ظلمة الأصباح وهى الغبش الذى يلى الصبح وقرئ فالق بالنصب على المدح (وجعل الليل سكنا) يسكن اليه التعب بالنهار لاستراحته فيه من سكن اليه اذا اطمأن اليه استئناسا به أو يسكن فيه الخلق من قوله تعالى لتسكنوا فيه وقرئ جاعل الليل فانتصاب سكنا بفعل دل عليه جاعل وقيل بنفسه على أن المراد به الجعل المستمر فى الازمنة المتجددة حسب تجددها لا الجعل الماضى فقط وقيل اسم الفاعل من الفعل المتعدى الى اثنين يعمل فى الثانى وإن كان بمعنى الماضى لانه لما أضيف الى الأول تعين نصبه للثانى لتعذر الاضافة بعد ذلك (والشمس والقمر) معطوفان على الليل وعلى القراءة الأخيرة قيل هما معطوفان على محله والأحسن نصبهما حينئذ بفعل مقدر وقد قرئا بالجر وبالرفع أيضا على الابتداء والخبر محذوف أى مجعولان (حسبانا) أى على أدوار مختلفة يحسب بها الأوقات التى نيط بها العبادات والمعاملات أو محسوبان حسبانا والحسبان بالضم مصدر حسب كما ان الحساب بالكسر مصدر حسب (ذلك) إشارة الى جعلهما كذلك وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته أى ذلك التسيير البديع (تقدير العزيز) الغالب القاهر الذي لا يستعصى عليه شىء من الاشياء التى من جملتها تسييرهما على الوجه المخصوص (العليم) بجميع المعلومات التى من جملتها ما فى ذلك التسيير من المنافع والمصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم (وهو الذى جعل لكم النجوم) شروع فى بيان نعمته تعالى فى الكواكب أثر بيان نعمته تعالى فى النيرين والجعل متعد الى واحد واللام متعلقة به وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور لما مر غيره مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر أى أنشأها وأبدعها لأجلكم فقوله تعالى (لتهتدوا بها) بدل من المجرور باعادة العامل بدل اشتمال كما فى قوله تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا والتقدير جعل لكم النجوم لاهتدائكم لكن لا على أن غاية خلقها اهتداؤهم فقط بل على طريقة أفراد بعض منافعها وغاياتها بالذكر حسبما يقتضيه المقام وقد جوز أن يكون مفعولا ثانيا للجعل وهو بمعنى التصيير أى جعلها كائنة لاهتدائكم فى أسفاركم عند دخولكم المفاوز أو البحار كما ينبىء عنه قوله تعالى (فى ظلمات البر والبحر) أى فى ظلمات الليل فى البر والبحر واضافتها اليهما للملابسة فان الحاجة الى الاهتداء بها انما تتحقق عند ذلك أو فى مشتبهات الطرق عبر عنها بالظلمات على

طريقة الاستعارة (قد فصلنا الآيات) أى بينا الآيات المتلوة المذكرة لنعمه التي هذه النعمة من جملتها أو الآيات التكوينية الدالة على شئونه تعالى مفصلة (لقوم يعلمون) أى معانى الآيات المذكورة و يعملون بموجبها أو يتفكرون فى الآيات التكوينية فيعلمون حقيقة الحال وتخصيص التفصيل بهم مع عمومه للكل لأنهم المنتفعون به (وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة)تذكير لنعمة أخرى من نعمه تعالى دالة على عظيم قدرته ولطيف صنعه وحكمته أى أنشأكم مع كثرتكم من نفس آدم عليه السلام (فمستقر و مستودع) أى فلكم استقرار فى الاصلاب أو فوق الأرض و استيداع فى الأرحام أو تحت الأرض أو موضع استقرار و استيداع فيما ذكر والتعبير عن كونهم فى الاصلاب أو فوق الأرض بالاستقرار لأنها مقرهم الطبيعى كما أن التعبير عن كونهم فى الأرحام أو تحت الأرض بالاستيداع لما أن كلامنهما ليس بمقرهم الطبيعي وقد حمل الاستيداع على كونهم فى الأصلاب وليس بواضح و قرىء فمستقر بكسر القاف أى فمنكم مستقر ومنكم مستودع فان الاستقرار منا بخلاف الاستيداع (قد فصلنا الآيات) المبينة لتفاصيل خلق البشر من هذه الآية ونظائرها (لقوم يفقهون)غوامض الدقائق باستعمال الفطنة و تدقيق النظر فان لطائف صنع الله عز وجل فى أطوار تخليق بنى آدم مما تحار فى فهمه الألباب وهو السر فى ايثار يفقهون على يعلمون كما ورد فى شأن النجوم (وهو الذي أنزل من السماء ماء) تذكير لنعمة أخرى من نعمه تعالى منبئة عن كمال قدرته تعالى وسعة رحمته أي أنزل من السحاب أو من سمت السماء ماء خاصا هو المطر وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا (فأخرجنا به)التفت الى التكلم اظهارا لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله أى فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته (نبات كل شىء) من الاشياء التي من شأنها النمو من أصناف النجم و الشجر و أنواعهما المختلفة فى الكم والكيف و الخواص و الآثار اختلافا متفاوتا فى مراتب الزيادة والنقصان حسبما يفصح عنه قوله تعالى «يسقي بماء واحد و نفضل بعضها على بعض فى الأكل» وقوله تعالى (فأخرجنا منه خضرا) شروع فى تفصيل ما أجمل من الاخراج و قد بدىء بتفصيل حال النجم أي فأخرجنا من النبات الذى لاساق له شيأ غضا أخضر يقال شيء أخضر وخضر كأعور و عور وأكثر مايستعمل الخضر فيما تكون خضرته خلقية وهو ماتشعب من أصل النبات الخارج من الحبة وقوله تعالى (نخرج منه) صفة لخضر وصيغة المضارع لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة أى نخرج من ذلك الخضر (حبا متراكبا) هو السنبل المنتظم للحبوب المتراكبة بعضها فوق بعض على هيئة مخصوصة. وقرىء يخرج

منه حب متراكب وقوله تعالى (ومن النخل) شروع في تفصيل حال الشجر أثر بيان حال النجم فقوله تعالى من النخل خبر مقدم وقوله تعالى (من طلعها) بدل منه باعادة العامل كما في قوله تعالى «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله» الخ والطلع شيء يخرج من النخل كأنه نعلان منطبقان والحمل بينهما منضود وقوله تعالى (قنوان) مبتدأ أى وحاصلة من طلع النخل قنوان ويجوز أن يكون الخبر محذوفا لدلالة أخرجنا عليه أى ومخرجة من طلع النخل قنوان . ومن قرأ يخرج منه حب متراكب كان قنوان عنده معطوف على حب . وقيل المعنى وأخرجنا من النخل نخلا من طلعها قنوان أو ومن النخل شيء من طلعها قنوان وهو جمع قنو وهو عنقود النخلة كصنو وصنوان . وقرئ بضم القاف كذئب وذؤبان وبفتحها أيضاً على أنه اسم جمع لان فعلان ليس من أبنية الجمع (دانية) سهلة المجتني قريبة من القاطف فانها وان كانت صغيرة ينالها القاعد تأتى بالثمر لاينتظر الطول أو ملتفة متقاربة والاقتصار على ذكرها لدلالتها على مقابلها كقوله تعالى «سرابيل تقيكم الحر» ولزيادة النعمة فيها (وجنات من أعناب) عطف على نبات كل شيء أي وأخرجنا به جنات كائنة من اعناب وقرىء جنات بالرفع على الابتداء أى ولكم أو وثمة جنات وقد جوز عطفه على قنوان كأنه قيل وحاصلة أو مخرجة من النخل قنوان وجنات من نبات اعناب ولعل زيادة الجنات ههنا من غير اكتفاء بذكر اسم الجنس كما فيما تقدم وما تأخر لما أن الانتفاع بهذا الجنس لايتأتى غالباً الا عند اجتماع طائفة من أفراده (والزيتون والرمان) منصوبان على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم أو على العطف على نبات وقوله تعالى (مشتبها وغير متشابه) حال من الزيتون اكتفي به عن حال ماعطف عليه كما يكتفى بخبر المعطوف عليه عن خبر المعطوف فى نحو قوله تعالى والله ورسوله أحق ان يرضوه وتقديره والزيتون مشتبهاً وغير متشابه والرمان كذلك وقد جوز أن يكون حالا من الرمان لقربه ويكون المحذوف حال الأول والمعنى بعضه متشابهاً وبعضه غير متشابه فى الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف الدالة على كمال قدرة صانعها وحكمة منشئها ومبدعها (انظروا إلى ثمره اذا أثمر) أى انظروا اليه نظر اعتبار واستبصار اذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلا لايكاد ينتفع به وقرئ إلى ثمره (وينعه) أى والى حال نضجه كيف يصير إلى كماله اللائق به ويكون شيئاً جامعاً لمنافع جمة. واليبنع فى الأصل مصدر ينعت الثمرة اذا أدركت وقيل جمع يانع كتاجر وتجر وقرئ بالضم وهى لغة فيه وقرئ يانعه (ان فى ذلك) اشارة إلى مامر بالنظر اليه ومافى اسم الاشارة

من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته (لآيات لقوم يؤمنون) أى لآيات عظيمة أو كثيرة دالة على وجود القادر الحكيم ووحدته فان حدوث هاتيك الأجناس المختلفة والانواع المتشعبة من أصل واحد وانتقالها من حال إلى حال على نمط بديع يحار فى فهمه الألباب لايكاد يكون إلا باحداث صانع يعلم تفاصيلها ويرجح ماتقتضيه حكمته من الوجوه الممكنة على غيره ولا يعوقه عن ذلك ضد يناويه أو ند يقاويه . ولذلك عقب بتوبيخ من أشرك به والرد عليه حيث قيل (وجعلوا لله شركاء) أى جعلوا فى اعتقادهم لله الذي شأنه مافصل فى تضاعيف هذه الآيات الجليلة شركاء (الجن) أى الملائكة حيث عبدوهم وقالوا الملائكة بنات الله وسموا جنا لاجتنانهم تحقيراً لشأنهم بالنسبة إلى مقام الألوهية أو الشياطين حيث أطاعوهم كما أطاعوا الله تعالى أو عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم أو قالوا الله خالق الخير وكل نافع والشيطان خالق الشر وكل ضار كما هو رأى الثنوية ومفعولا جعلوا قوله تعالى شركاء الجن قدم ثانيهما على الأول لاستعظام أن يتخذ لله سبحانه شريك ما كائناً ما كان ولله متعلق بشركاء قدم عليه للنكتة المذكورة وقيل هما لله شركاء والجن بدل من شركاء مفسر له نص عليه الفراء وأبو اسحق أو منصوب بمضمر وقع جوابا عن سؤال مقدر نشأ من قوله تعالى « وجعلوا لله شركاء » كأنه قيل من جعلوه شركاء لله تعالى فقيل الجن أى جعلوا الجن ويؤيده قراءة أبى حيوة ويزيد بن قطيب الجن بالرفع على تقدير هم الجن فى جواب من قال من الذين جعلوهم شركاء لله تعالى وقد قرىء بالجر على أن الاضافة للتبيين (وخلقهم) حال من فاعل جعلوا بتقدير قد أو بدونه على اختلاف الرأيين مؤكدة لما فى جعلهم ذلك من كمال القباحة والبطلان باعتبار علمهم بمضمونها أى وقد علموا أنه تعالى خالقهم خاصة وقيل الضمير للشركاء أى والحال أنه تعالى خالق الجن فكيف يجعلون مخلوقه شريكا له تعالى وقرىء خلقهم عطفا على الجن أى وما يخلقونه من الأصنام أو على شركاء أى وجعلوا له اختلاقهم الأفك حيث نسبوه اليه تعالى (وخرقوا له) أى افتعلوا وافتروا له يقال خلق الأفك واختلقه وخرقه واخترقه بمعنى وقرىء خرقوا بالتشديد للتكثير . وقرىء وحرفوا له أى زوروا (بنين وبنات) فقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت طائفة . من العرب الملائكة بنات الله (بغير علم) أى بحقيقة ماقالوه من خطأ أو صواب بل رميا بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية أو بغير علم بمرتبة ماقالوه وأنه . من الشناعة والبطلان بحيث لايقادر قدره والباء متعلقة

بمحذوف هو حال من فاعل خرقوا أونعت لمصدر مؤكد له أى خرقوا ملتبسين بغير علم أوخرقا كائنا بغير علم (سبحانه) استئناف مسوق لتنزيهه عز وجل عما نسبوه اليه وسبحان علم للتسبيح الذى هو التبعيد عن السوء اعتقادا وقولا أى اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح فى الأرض والماء اذا أبعد فيهما وأمعن ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وانتصابه على المصدرية ولايكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى انزهه عما لايليق به عقدا وعملا تنزيها خاصا به حقيقا بشأنه وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق من السبح ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس الى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة إقامته مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران لانه سمع له فعل من الثلاثى كما ذكر فى القاموس أريد به التنزه التام والتباعد الكلى ففيه مبالغة من حيث اسناد التنزه الى ذاته المقدسة أى تنزه بذاته تنزها لائقا به وهو الأنسب بقوله سبحانه (وتعالى) فانه معطوف على الفعل المضمر لامحالة ولما فى السبحان والتعالى من معنى التباعد قيل (عما يصفون) أى تباعد عما يصفونه من أن له شريكا أو ولدا (بديع السموات والأرض) أى مبدعهما ومخترعهما بلامثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه فان البديع كما يطلق على المبدع يطلق على المبدع نص عليه أئمة اللغة كالصريخ بمعنى المصرخ وقد جاء بدعه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه على ماذكر فى القاموس وغيره ونظيره السميع بمعنى المسمع فى قوله أمن ريحانة الداعي السميع وقيل هو من إضافة الصفة المشبهة الى الفاعل للتخفيف بعد نصبه تشبيها لها باسم الفاعل كما هو المشهور أى بديع سمواته وأرضه من بدع إذا كان على نمط عجيب وشكل فائق وحسن رائق أوالى الظرف كما فى قولهم ثبت الغدر بمعنى أنه عديم النظير فيهما والأول هو الوجه والمعنى أنه تعالى مبدع لقطرى العالم العلوي والسفلي بلامادة فاعل على الاطلاق منزه عن الانفعال بالمرة والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه فكيف يمكن أن يكون له ولد وقرئ بديع بالنصب على المدح وبالجر على أنه بدل من الاسم الجليل أومن الضمير المجرور فى سبحانه على رأى من يجيزه وارتفاعه فى القراءة المشهورة على أنه خبر مبتدأ محذوف أوفاعل تعالى واظهاره فى موضع الاضمار لتعليل الحكم وتوسيط الظرف بينه وبين الفعل للاهتمام ببيانه أو مبتدأ خبره قوله تعالى (أنى يكون له ولد) وهو على الاولين جملة مستقلة مسوقة كما قبلها لبيان استحالة مانسبوه اليه تعالى وتقرير تنزهه عنه وقوله تعالى (ولم تكن له صاحبة) حال مؤكدة للاستحالة المذكورة فان انتفاء أن يكون له تعالى صاحبة

مستلزم لانتفاء أن يكون له ولد ضرورة استحالة وجوده الولد بلا والدة وإن أمكن وجوده بلا والد وانتفاء الأول مما لاريب فيه لأحد فمن ضرورته انتفاء الثاني أي من أين أو كيف يكون له ولد كما زعموا والحال أنه ليس له على زعمهم أيضا صاحبة يكون الولد منها. وقرىء لم يكن بتذكير الفعل للفصل أو لان الاسم ضميره تعالى والخبر هو الظرف وصاحبة مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على المبتدا أو الظرف خبر مقدم وصاحبة مبتدأ مؤخر والجملة خبر للكون وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون الاسم ضمير الشأن لصلاحية الجملة حينئذ لان تكون مفسرة لضمير الشأن لا على الوجه الأول لما بين في موضعه أن ضمير الشأن لا يفسر إلا بجملة صريحة وقوله تعالى (وخلق كل شيء) اما جملة مستأنفة أخرى سيقت لتحقيق ما ذكر من الاستحالة او حال اخرى مقررة لها أي أنى يكون له ولد والحال انه خلق كل شيء انتظمه التكوين والايجاد من الموجودات التي من جملتها ما سموه ولدا له تعالى فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولدا لخالقه (وهو بكل شيء) من شأنه ان يعلم كائنا ما كان مخلوقا او غير مخلوق كما ينبىء عنه ترك الاضمار الى الاظهار (عليم) مبالغ في العلم ازلا وابدا حسبما يعرب عنه العدول الى الجملة الاسمية فلا يخفى عليه خافية مما كان وما سيكون من الذوات والصفات والأحوال التي من جملتها ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز من المحالات التي ما زعموه فرد من افرادها والجملة استئناف مقرر لمضمون ما قبلها من الدلائل القاطعة ببطلان مقالتهم الشنعاء التي اجترءوا عليها بغير علم (ذلكم) إشارة الى المنعوت بما ذكر من جلائل النعوت وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو شأن المشار اليه وبعد منزلته في العظمة والخطاب للمشركين المعهودين بطريق الالتفات وهو مبتدأ وقوله تعالى (الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء) أخبار أربعة مترادفة أي ذلك الموصوف بتلك الصفات العظيمة هو الله المستحق للعبادة خاصة مالك أمركم لا شريك له أصلا خالق كل شيء مما كان ومما سيكون فلا تكرار اذ المعتبر في عنوان الموضوع انما هو خالقيته لما كان فقط كما ينبىء عنه صيغة الماضي وقيل الخبر هو الأول والبواقي ابدال وقيل الاسم الجليل بدل من المبتدأ والبواقي أخبار وقيل يقدر لكل من الأخبار الثلاثة مبتدأ وقيل يجعل الكل بمنزلة اسم واحد وقوله تعالى (فاعبدوه) حكم مترتب على مضمون الجملة فان من جمع هذه الصفات كان هو المستحق للعبادة خاصة وقوله تعالى (وهو على كل شيء وكيل) عطف على الجملة المتقدمة أي هو مع ما فصل من الصفات الجليلة متولي أمور جميع مخلوقاته التي أنتم من جملتها فكلوا أموركم اليه وتوسلوا بعبادته الى نجاح مآربكم الدنيوية والاخروية (لا تدركه

الأبصار) البصر حاسة النظر وقد تطلق على العين من حيث انها محلها . وادراك الشيء عبارة عن الوصول اليه والاحاطة به أي لاتصل اليه الأبصار ولا تحيط به كما قال سعيد ابن المسيب وقال عطاء كلت أبصار المخلوقين عن الاحاطة به فلا متمسك فيه لمنكرى الرؤية على الاطلاق وقد روى عن ابن عباس ومقاتل رضى الله عنهم لاتدركه الأبصار فى الدنيا وهو يرى فى الآخرة (وهو يدرك الأبصار) أى يحيط بها علمه اذلا تخفى عليه خافية (وهو اللطيف الخبير) فيدرك مالا تدركه الأبصار يجوز ان يكون تعليلا للحكمين السابقين على طريقة اللف أي لا تدركه الأبصار لانه اللطيف وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير فيكون اللطيف مستفادا من مقابل الكثيف لما لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها وقوله تعالى (قد جاءكم بصائر من ربكم) استئناف وارد على لسان النبى عليه الصلاة والسلام والبصائر جمع بصيرة وهى النور الذى به تستبصر النفس كما ان البصر نور به تبصر العين والمراد بها الآيات الواردة ههنا أو جميع الآيات المنتظمة لها انتظاما أوليا ومن لابتداء الغاية مجازا سواء تعلقت بجاء أو بمحذوف هو صفة لبصائر . والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لاظهار كمال اللطف بهم أي قد جاءكم من جهة مالككم ومبلغكم الى كمالكم اللائق بكم من الوحي الناطق بالحق والصواب ماهو كالبصائر للقلوب أو قد جاءكم بصائر كائنة من ربكم (فمن أبصر) أى الحق بتلك البصائر وآمن به (فلنفسه) أي فلنفسه أبصر أو فابصاره لنفسه لان نفعه مخصوص بها (ومن عمى) أى ومن لم يبصر الحق بعد ما ظهر له بتلك البصائر ظهورا بينا وضل عنه وانما عبر عنه بالعمى تقبيحا له وتنفيرا عنه (فعليها) أي فعليها عمى أو فعماه عليها أو وبال عماه (وما أنا عليكم بحفيظ) وانما أنا منذر والله هو الذي يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها (وكذلك نصرف الآيات) أي مثل ذلك التصريف البديع نصرف الآيات الدالة على المعانى الرائقة الكاشفة عن الحقائق الفائقة لا تصريفا أدنى منه وقوله تعالى (وليقولوا درست) علة لفعل قد حذف تعويلا على دلالة السياق عليه أي وليقولوا درست ما نفعل من التصريف المذكور واللام للعاقبة والواو اعتراضية وقيل هي عاطفة على علة محذوفة واللام متعلقة بنصرف أى مثل ذلك التصريف نصرف الآيات لنلزمهم الحجة وليقولوا الخ وقيل اللام لام الأمر وتنصره القراءة بسكون اللام كأنه قيل وكذلك نصرف الآيات وليقولوا هم ما يقولون فانه لا احتفال بهم ولا اعتداد بقولهم وهذا أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث بقولهم ورد عليه بأن ما بعده يأباه ومعنى درست قرأت وتعلمت وقرىء دارست أى دارست العلماء ودرست أى قدمت هذه الآيات وعفت

كما قالوا أساطير الأولين ودرست بضم الراء مبالغة فى درست أى اشتد دروسها ودرست على البناء للمفعول بمعنى قرئت أو عفيت ودارست وفسروها بدارست اليهود محمد صلى الله عليه وسلم وجاز الاضمار لاشتهارهم بالدراسة وقد جوز اسناد الفعل الى الآيات وهو فى الحقيقة لاهلها أى دارس أهل الآيات وحملتها محمدا صلى الله عليه وسلم وهم أهل الكتاب ودرس أى درس محمد ودارسات أى هى دارسات أى قديمات أو ذات درس كعيشة راضية وقوله تعالى (ولنبينه) عطف على يقولوا واللام على الأصل لان التبيين غاية التصريف والضمير للآيات باعتبار المعنى أو للقرآن وان لم يذكر أو للمصدر أى ولنفعل التبيين واللام فى قوله تعالى (لقوم يعلمون) متعلقة بالتبيين وتخصيصه بهم لما أنهم المنتفعون به قال ابن عباس هم أولياؤه الذين هداهم الى سبيل الرشاد ووصفهم بالعلم للايذان بغاية جهل الأولين وخلوهم عن العلم بالمرة (اتبع ما أوحى اليك من ربك) لما حكى عن المشركين قدحهم فى تصريف الآيات عقب ذلك بأمره عليه السلام بالثبات على ما هو عليه وبعدم الاعتداد بهم وبأباطيلهم أى دم على ما أنت عليه من اتباع ما أوحى اليك من الشرائع والأحكام التى عمدتها التوحيد . وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من اظهار اللطف به مالا يخفى وقوله تعالى (لا اله الا هو) اعتراض بين الامرين المتعاطفين مؤكد لايجاب اتباع الوحي لا سيما فى أمر التوحيد وقد جوز أن يكون حالا من ربك أى منفردا فى الألوهية (وأعرض عن المشركين) لا تحتفل بهم وباقاويلهم الباطلة التى من جملتها ما حكى عنهم آنفا ومن جعله منسوخا بآية السيف حمل الاعراض على ما يعم الكف عنهم (ولو شاء الله) أى عدم اشراكهم حسبما هو القاعدة المستمرة فى حذف مفعول المشيئة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء (ما أشركوا) وهذا دليل على أنه تعالى لا يريد ايمان الكافر لكن لا بمعنى أنه تعالى يمنعه عنه مع توجهه اليه بل بمعنى أنه تعالى لا يريده منه لعدم صرف اختياره الجزئى نحو الايمان واصراره على الكفر والجملة اعتراض مؤكد للاعراض وكذا قوله تعالى (وما جعلناك عليهم حفيظا) أى رقيبا مهيمنا من قبلنا تحفظ عليهم أعمالهم وكذا قوله تعالى (وما أنت عليهم بوكيل) من جهتهم تقوم بأمورهم وتدبر مصالحهم وعليهم فى الموضعين متعلق بما بعده قدم عليه للاهتمام به أو لرعاية الفواصل (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) أى لا تشتموهم من حيث عبادتهم لآلهتهم كأن تقولوا تبا لكم ولما تعبدونه مثلا (فيسبوا الله عدوا) تجاوزا عن الحق الى الباطل بأن يقولوا لكم مثل قولكم لهم (بغير علم) أى بجهالة بالله تعالى وبما يجب

أن يذكر به . وقرىء عدوا يقال عدا يعدو عدوا و عدوا وعداء وعدوانا روى أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزول قوله تعالى «انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون الهك وقيل كان المسلمون يسبونهم فنهوا عن ذلك لئلا يستتبع سبهم سبه سبحانه وتعالى . وفيه أن الطاعة اذا أدت الى معصية راجحة وجب تركها فان ما يؤدي الى الشر شر (كذلك) أى مثل ذلك التزيين القوى (زينا لكل أمة عملهم) من الخير والشر باحداث ما يمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقا أو تخذيلا ويجوز أن يراد بكل أمة أمم الكفرة اذ الكلام فيهم وبعملهم شرهم وفسادهم والمشبه به تزيين سب الله تعالى لهم (ثم الي ربهم) مالك أمرهم (مرجعهم) أى رجوعهم بالبعث بعد الموت (فينبئهم) من غير تأخير (بما كانوا يعملون) فى الدنيا على الاستمرار من السيئات المزينة لهم وهو وعيد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده: سأخبرك بما فعلت وفيه نكتة سرية مبنية على حكمة أبية وهى أن كل ما يظهر فى هذه النشأة من الأعيان والاعراض فانما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التى بها يظهر فى النشأة الآخرة فان المعاصى سموم قاتلة قد برزت فى الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة كما نطقت به هذه الآية الكريمة وكذا الطاعات فانها مع كونها أحسن الأحاسن قد ظهرت عندهم بصور مكروهة ولذلك قال عليه السلام «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات». فأعمال الكفرة قد برزت لهم فى هذه النشأة بصورة مزينة يستحسنها الغواة ويستحبها الطغاة وستظهر فى النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا فعبر عن إظهارها بصورها الحقيقية بالاخبار بها لما أن كلا منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هى فليتدبر قوله تعالى (وأقسموا بالله) روى أن قريشا اقترحوا بعض آيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فان فعلت بعض ما تقولون أتصدقوننى فقالوا نعم وأقسموا لئن فعلته لنؤمنن جميعا فسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها طمعا فى ايمانهم فهم عليه الصلاة والسلام بالدعاء فنزلت» وقوله تعالى (جهد أيمانهم) مصدر فى موقع الحال أي أقسموا به تعالى جاهدين فى أيمانهم (لئن جاءتهم آية) من مقترحاتهم أو من جنس الآيات وهو الأنسب بحالهم فى المكابرة والعناد وترامى أمرهم فى العتو والفساد حيث كانوا لا يعدون ما يشاهدونه من المعجزات الباهرة من جنس الآيات (ليؤمنن بها) وما كان مرمى غرضهم فى ذلك الا التحكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلب المعجزة وعدم الاعتداد بما شاهدوا منه من البينات الحقيقية بان تقطع بها الأرض وتسير بها الجبال (قل انما الآيات) أى كلها فيدخل فيها ما اقترحوه دخولا أوليا

(عند الله) أي أمرها فى حكمه و قضائه خاصة يتصرف فيها حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة لاتتعلق بها و لا بشأن من شئونها قدرة أحد ولا مشيئته لا استقلالا ولا اشتراكا بوجه من الوجوه حتى يمكننى أن أتصدي لاستنزالها بالاستدعاء وهذا كما ترى سد لباب الاقتراح على أبلغ وجه وأحسنه ببيان علو شأن الآيات وصعوبة منالها وتعاليها من أن تكون عرضة للسؤال والاقتراح وأما ماقيل من أن المعنى انما الآيات عند الله تعالى لاعندى فكيف أجيبكم اليها أو آتيكم بها وهو القادر عليها لا أنا حتى آتيكم بها فلا مناسبة له بالمقام كيف لا وليس مقترحهم مجيئها بغير قدرة الله تعالى وارادته حتى يجابوا بذلك وقوله تعالى (وما يشعركم أنها اذا جاءت لايؤمنون) كلام مستأنف غير داخل تحت الأمر مسوق من جهته تعالى لبيان الحكمة الداعية الى ما أشعربه الجواب السابق من عدم مجيء الآيات خوطب به المسلمون اما خاصة بطريق التلوين لما كانوا راغبين فى نزولها طمعا فى إسلامهم و إمامهم عليه الصلاة والسلام بطريق التعميم لما روى عنه صلى الله عليه وسلم من الهم بالدعاء وقد بين فيه أن أيمانهم فاجرة و إيمانهم مما لايدخل تحت الوجود وأن أجيب إلي ماسألوه وما استفهامية انكارية لكن لاعلى أن مرجع الانكار هو وقوع المشعر به بل هو نفس الاشعار مع تحقق المشعر به فى نفسه أى وأى شيء يعلمكم أن الآية التى يقترحونها اذا جاءت لايؤمنون بل يبقون على ما كانوا عليه من الكفر والعناد أى لا تعلمون ذلك فتتمنون مجيئها طمعا فى إيمانهم فكأنه بسط عذر من جهة المسلمين فى تمنيهم نزول الآيات وقيل لامزيدة فيتوجه الانكار إلى الاشعار والمشعر به جميعا أى أى شيء يعلمكم ايمانهم عند مجيء الآيات حتى تتمنوا مجيئها طمعا فى إيمانهم فيكون تخطئة لرأي المسلمين وقيل أن بمعنى لعل يقال ادخل السوق أنك تشترى اللحم وعنك وعلك ولعلك كلها بمعنى ويؤيده أنه قريء لعلها اذا جاءت لا يؤمنون على أن الكلام قد تم قبله والمفعول الثانى لتشعركم محذوف كما فى قوله تعالى «ومايدريك لعله يزكى» والجملة استئناف لتعليل الانكار وتقريره أى أى شيء يعلمكم حالهم وما سيكون عند مجيء الآيات لعلها اذا جاءت لايؤمنون بها فما لكم تتمنون مجيئها فان تمنيه انما يليق بما اذا كان ايمانهم بها محقق الوجود عند مجيئها لامرجو العدم . وقريء انها بالكسر على أنه استئناف حسبما سبق مع زيادة تحقيق لعدم ايمانهم وقريء لاتؤمنون بالفوقانية فالخطاب فى وما يشعركم للمشركين. وقريء وما يشعرهم أنها اذا جاءتهم لايؤمنون فمرجع الانكار اقدام المشركين على الاقسام المذكور مع جهلهم بحال قلوبهم عند مجيء الآيات وبكونها

حينئذ كما هي الآن (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) عطف على لا يؤمنون داخل في حكم ما يشعركم مقيد بما قيد به أي وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه لكن لا مع توجهها اليه واستعدادها لقبوله بل لكمال نبوها عنه واعراضها بالكلية ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم ايمانهم اشعارا باصالتهم في الكفر وحسما لتوهم أن عدم ايمانهم ناشيء من تقليبه تعالى مشاعرهم بطريق الاجبار (كما لم يؤمنوا به) أي بما جاء من الآيات (أول مرة) أى عند ورود الآيات السابقة والكاف في محل النصب على انه نعت لمصدر محذوف منصوب بلا يؤمنون وما مصدرية أي لا يؤمنون بل يكفرون كفرا كائنا ككفرهم أول مرة وتوسيط تقليب الأفئدة والأبصار بينهما لانه من متممات عدم ايمانهم (ونذرهم) عطف على لا يؤمنون داخل في حكم الاستفهام الانكاري مقيد بما قيد به مبين لما هو المراد بتقليب الأفئدة ومعرب عن حقيقته بانه ليس على ظاهره بأن يقلب الله سبحانه مشاعرهم عن الحق مع توجههم اليه واستعدادهم له بطريق الاجبار بل بأن يخليهم وشأنهم بعد ما علم فساد استعدادهم وفرط نفورهم عن الحق وعدم تأثير اللطف فيهم أصلا ويطبع على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادهم كما أشرنا اليه وقوله تعالى (في طغيانهم) متعلق بنذرهم وقوله تعالى (يعمهون) حال من الضمير المنصوب في نذرهم أي ندعهم في طغيانهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين أو مفعول ثان لنذرهم أى نصيرهم عامهين وقرىء يقلب ويذر بالياء على اسنادهما الى ضمير الجلالة وقرىء تقلب بالتاء والبناء للمفعول على اسناده الى افئدتهم (ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة) تصريح بما أشعر به قوله عز وجل «وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون» من الحكمة الداعية الى ترك الاجابة الى ما اقترحوه من الآيات اثر بيان أنها في حكمه تعالى وقضائه المبنى على الحكم البالغة لا مدخل لأحد في أمرها بوجه من الوجوه وبيان لكذبهم في أيمانهم الفاجرة على أبلغ وجه وآكده أي ولو أننا لم نقتصر على ايتاء ما اقترحوه ههنا من آية واحدة من الآيات بل نزلنا اليهم الملائكة كما سألوه بقولهم لولا أنزل علينا الملائكة وقولهم لوما تأتينا بالملائكة (وكلمهم الموتى) وشهدوا بحقية الايمان بعد أن أحييناهم حسبما اقترحوه بقولهم فأتوا بآبائنا (وحشرنا) أي جمعنا (عليهم كل شيء قبلا) بضمتين وقرىء بسكون الباء أي كفلاء بصحة الأمر وصدق النبي صلى الله عليه وسلم على أنه جمع قبيل بمعنى الكفيل كرغيف ورغف وقضيب وقضب وهو الأنسب بقوله تعالى «أو تأتي بالله والملائكة قبيلا» أي لو لم نقتصر على ما اقترحوه بل زدنا على ذلك بان أحضرنا لديهم كل شيء يتأتى منه الكفالة والشهادة بما ذكر لا فرادى بل بطريق المعية أو جماعات على أنه جمع قبيل

وهوجمع قبيلة وهو الأوفق لعموم كل شئ وشموله للأنواع والأصناف أى حشرنا كل شئ نوعا نوعا وصنفا صنفا وفوجا فوجا وانتصابه على الحالية وجمعيته باعتبار الكل المجموعى اللازم للكل الافرادى أو مقابلة وعيانا على أنه مصدر كقبلا وقد قرئ كذلك وانتصابه على الوجهين على انه مصدر فى موقع الحال وقد نقل عن المبرد وجماعة من أهل اللغة ان الأخير بمعنى الجهة كما فى قولك: لى قبل فلان حق وأن انتصابه على الظرفية (ماكانوا ليؤمنوا) أى ماصح وما استقام لهم الايمان لتماديهم فى العصيان وغلوهم فى التمرد والطغيان وأما سبق القضاء عليهم بالكفر فمن الاحكام المترتبة على ذلك حسبما ينبئ عنه قوله عز وجل «ونذرهم فى طغيانهم يعمهون» وقوله تعالى (الا أن يشاء الله) استثناء مفرغ من أعم الأحوال . والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة أى ماكانوا ليؤمنوا بعد اجتماع ما ذكر من الامور الموجبة للايمان فى حال من الأحوال الداعية اليه المتممة لموجباته المذكورة الا فى حال مشيئته تعالى لايمانهم أو من أعم العلل أى ماكانوا ليؤمنوا لعلة من العلل المعدودة وغيرها الالمشيئته تعالى له وأياما كان فليس المراد بالاستثناء بيان أن ايمانهم على خطر الوقوع بناء على كون مشيئته تعالى أيضا كذلك بل بيان استحالة وقوعه بناء على استحالة وقوعها كأنه قيل ماكانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله وهيهات ذلك وحالهم حالهم بدليل ماسبق من قوله تعالى «ونقلب أفئدتهم» الآية كيف لا وقوله عز وجل (ولكن أكثرهم يجهلون) استدراك من مضمون الشرطية بعد ورود الاستثناء لاقبله ولا ريب فى أن الذى يجهلونه سواء أريد بهم المسلمون وهو الظاهر أو المقسمون ليس عدم ايمانهم بلا مشيئة الله تعالى كما هو اللازم من حمل النظم الكريم على المعنى الاول فانه ليس مما يعتقده الأولون ولا مما يدعيه الآخرون بل انما هو عدم ايمانهم لعدم مشيئته ايمانهم ومرجعه الى جهلهم بعدم مشيئته اياه فالمعنى أن حالهم كما شرح ولكن أكثر المسلمين يجهلون عدم ايمانهم عند مجئ الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لأيمانهم فيتمنون مجيئها طمعا فيما لايكون فالجملة مقررة لمضمون قوله تعالى وما يشعركم الخ على القراءة المشهورة أو ولكن أكثر المشركين يجهلون عدم ايمانهم عند مجئ الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لأيمانهم حينئذ فيقسمون بالله جهد ايمانهم على مالا يكاد يكون فالجملة على القراءة السابقة بيان مبتدا لمنشأ خطأ المقسمين ومناط اقسامهم وتقرير له على قراءة لا تؤمنون بالتاء الفوقانية وكذا على قراءة وما يشعرهم انها اذا جاءتهم لايؤمنون (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا) كلام مبتدا مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان

يشاهده من عداوة قريش له عليه الصلاة والسلام وما بنوا عليها مما لاخير فيه من الأقاويل والأفاعيل ببيان ان ذلك ليس مختصا بك بل هو امر ابتلى به كل من سبقك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومحل الكاف النصب على انه نعت لمصدر محذوف كما اشير اليه بذلك منصوب بفعله المحذوف مؤكد لما بعده وذلك اشارة الى ما يفهم قبله اى جعلنا لكل نبي عدوا والتقديم على الفعل المذكور للقصر المفيد للمبالغة اي مثل ذلك الجعل الذي جعلناه في حقك حيث جعلنا لك عدوا يضادونك ويضارونك ولا يومنون ويبغونك الغوائل ويدبرون في ابطال امرك مكايد جعلنا لكل نبي تقدمك عدوا فعلوا بهم مافعل بك اعداؤك لاجعلا انقص منه وفيه دليل على ان عداوة الكفرة للانبياء عليهم السلام بخلقه تعالى للابتلاء (شياطين الانس و الجن) اى مردة الفريقين على ان الاضافة بمعنى من البيانية وقيل هي اضافة الصفة الى الموصوف والأصل الأنس والجن والشياطين وقيل هي بمعنى اللام أى الشياطين التي للانس والتي للجن وهو بدل من عدوا والجعل متعد الى واحد أو الي اثنين وهو أول مفعوليه قدم عليه الثاني مسارعة الى بيان العداوة واللام على التقديرين متعلقة بالجعل أو بمحذوف هو حال من عدوا وقوله تعالى (يوحي بعضهم الى بعض) كلام مستأنف مسوق لبيان أحكام عداوتهم وتحقيق وجه الشبه بين المشبه والمشبه به أوحال من الشياطين أونعت لعدوا وجمع الضمير باعتبار المعنى فانه عبارة عن الاعداء كما في قوله :

إذا أنا لم أنفع صديقي بوده فان عدوى لم يضرهمو بغضى

والوحي عبارة عن الايماء والقول السريع أى يلقي ويوسوس شياطين الجن الى شياطين الانس أو بعض كل من الفريقين الى بعض آخر (زخرف القول) أى المموه منه المزين ظاهره الباطل باطنه من زخرفه اذا زينه (غرورا) مفعول له ليوحي أى ليغروهم أو مصدر في موقع الحال أى غارين أومصدر مؤكد لفعل مقدر هو حال من فاعل يوحي أى يغرون غرورا (ولوشاء ربك) رجوع الى بيان الشئون الجارية بينه صلى الله عليه وسلم وبين قومه المفهومة من حكاية ماجرى بين الانبياء عليهم السلام وبين أممهم كما ينبئ عنه الالتفات والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره صلى الله عليه وسلم المعربة عن كمال اللطف في التسلية أى ولوشاء ربك عدم الامور المذكورة لايمانهم كما قيل فان القاعدة المستمرة أن مفعول المشيئة إنما يحذف عند وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وهو قوله تعالى (مافعلوه) أي مافعلوا

ماذكر من عداوتك وأيحاء بعضهم الى بعض مزخرفات الاقاويل الباطلة المتعلقة بأمرك خاصة لابما يعمه وأمور الانبياء عليهم السلام أيضا كما قيل فان قوله تعالى (فذرهم ومايفترون) صريح فى أن المراد بهم الكفرة المعاصرون له عليه الصلاة والسلام أى اذا كان مافعلوا من أحكام عداوتك من فنون المفاسد بمشيئته تعالى فاتركهم وافتراءهم أو ومايفترونه من أنواع المكايد فان لهم فى ذلك عقوبات شديدة ولك عواقب حميدة لابتناء مشيئته تعالى على الحكم البالغة ألبتة (ولتصغى اليه) أى الى زخرف القول وهو على الوجه الاول علة أخرى للايحاء معطوفة على غرورا وما بينهما اعتراض وانما لم ينصب لفقد شرطه اذ الغرور فعل الموحى وصغو الافئدة فعل الموحى اليه أى يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول ليغرهم به ولتميل اليه (أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة) إنما خص بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة دون ماعداها من الامور التى يجب الايمان بها وهم بها كافرون اشعارا بماهو المدار فى صغو أفئدتهم الى مايلقى اليهم فان لذات الآخرة محفوفة فى هذه النشأة بالمكاره وآلامها مزينة بالشهوات فالذين لايؤمنون بها وبأحوال مافيها لايدرون أن وراء تلك المكاره لذات ودون هذه الشهوات آلاما وانما ينظرون الى مابدا لهم فى الدنيا بادئ الرأى فهم مضطرون الى حب الشهوات التى من جملتها مزخرفات الاقاويل ومموهات الاباطيل وأما المؤمنون بها فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال ناظرين الى عواقب الامور لم يتصور منهم الميل الى تلك المزخرفات لعلمهم ببطلانها ووخامة عاقبتها وأما على الوجهين الأخيرين فهو علة لفعل محذوف يدل عليه المقام أى ولكون ذلك جعلنا ماجعلنا والمعتزلة جعلوا اللام لام العاقبة أو لام القسم او لام الامر وضعفه فى غاية الظهور (وليرضوه) لانفسهم بعدما مالت اليه أفئدتهم (وليقترفوا) أى يكتسبوا بموجب ارتضائهم له (ماهم مقترفون) له من القبائح التى لايليق ذكرها (أفغير الله ابتغى حكما) كلام مستأنف وارد على إرادة القول والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام أى قل لهم أأميل الى زخارف الشياطين فأبتغى حكما غير الله يحكم بيننا ويفصل المحق منا من المبطل وقيل إن مشركى قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكما من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بمافى كتابهم من أمرك فنزلت . واسناد الابتغاء المنكر الى نفسه صلى الله عليه وسلم لاالى المشركين كما فى قوله تعالى «أفغير دين الله يبغون» مع انهم الباغون لاظهار كمال النصفة أو لمراعاة قولهم اجعل بيننا وبينك حكما وغير أما مفعول أبتغى وحكما حال منه وأما بالعكس وأياما كان فتقديمه على الفعل الذى

هو المعطوف بالفاء حقيقة كما أشير اليه للايذان بأن مدار الانكار هو ابتغاء غيره تعالى حكما لا مطلق الابتغاء وقيل حكما تمييز لما فى غير من الابهام كقولهم ان لنا غيرها ابلا قالوا الحكم أبلغ من الحاكم وأدل على الرسوخ لما انه لا يطلق إلا على العادل وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم وقوله تعالى (وهو الذى انزل اليكم الكتاب) جملة حالية مؤكدة لانكار ابتغاء غيره تعالى حكما ونسبة الانزال اليهم خاصة مع أن مقتضى المقام اظهار تساوى نسبته إلى المتحاكمين لاستمالتهم نحو المنزل واستنزالهم إلى قبول حكمه بايهام قوة نسبته اليهم أى أغيره تعالى أبتغى حكما والحال أنه هو الذى أنزل اليكم وأنتم أمة أمية لاتدرون ماتأتون وما تذرون القرآن الناطق بالحق والصواب الحقيق بان يخص به اسم الكتاب (مفصلا) أى مبينا فيه الحق والباطل والحلال والحرام وغير ذلك من الاحكام بحيث لم يبق فى أمور الدين شيء من التخليط والابهام فأى حاجة بعد ذلك إلى الحكم وهذا كما ترى صريح فى أن القرآن الكريم كاف فى أمر الدين مغن عن غيره ببيانه وتفصيله وأما أن يكون لاعجازه دخل فى ذلك كما قيل فلا وقوله تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) كلام مستأنف غير داخل تحت القول المقدر مسوق من جهته سبحانه لتحقق حقية الكتاب الذى نيط به أمر الحكمية وتقرير كونه منزلا من عنده عز وجل ببيان أن الذين وثقوا بهم ورضوا بحكميتهم حسبما نقل آنفا من علماء اليهود والنصارى عالمون بحقيته ونزوله من عنده تعالى وفى التعبير عن التوراة والانجيل باسم الكتاب ايماء إلى مابينهما وبين القرآن من المجانسة المقتضية للاشتراك فى الحقية والنزول من عنده تعالى مع مافيه من الايجاز. وايراد الطائفتين بعنوان ايتاء الكتاب للايذان بانهم علموه من جهة كتابهم حيث وجدوه حسبما نعت فيه وعاينوه موافقا له فى الاصول ومالا يختلف من الفروع ومخبرا عن أمور لاطريق إلى معرفتها سوي الوحى والمراد بالموصول إما علماء الفريقين وهو الظاهر فالايتاء هو التفهيم بالفعل وإما الكل وهم داخلون فيه دخولا أوليا فهو أعم مما ذكروا من ذلك التفهيم بالقوة ولا ريب فى أن الكل متمكنون من ذلك وقيل المراد مؤمنوا أهل الكتاب وقرئ منزل من الانزال والتعرض لعنوان الربوبية مع الأضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم لتشريفه عليه الصلاة والسلام والباء فى قوله تعالى بالحق متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير المستكن فى منزل أى ملتبسا بالحق (فلا تكونن من الممترين) أى فى أنهم يعلمون ذلك لما لاتشاهد منهم آثار العلم وأحكام المعرفة فالفاء لترتيب النهى على

الاخبار بعلم أهل الكتاب بشأن القرآن أو فى أنه منزل من ربك بالحق فيكون من باب التهييج والالهاب كقوله تعالى «ولا تكونن من المشركين» وقيل الخطاب فى الحقيقة للأمة وان كان له صلى الله عليه وسلم صورة وقيل الخطاب لكل أحد على معنى ان الأدلة قد تعاضدت وتظاهرت فلا ينبغى لأحد أن يمترى فيه والفاء على هذه الوجوه لترتيب النهى على نفس علمهم بحال القرآن (وتمت كلمة ربك) شروع فى بيان كمال الكتاب المذكور من حيث ذاته اثر بيان كماله من حيث اضافته اليه تعالى بكونه منزلا منه بالحق وتحقيق ذلك بعلم أهل الكتاب وانما عبر عنه بالكلمة لانها الاصل فى الاتصاف بالصدق والعدل وبها تظهر الآثار من الحكم وقرىء كلمات ربك (صدقا وعدلا) مصدران نصباً على الحال وقيل على التمييز وقيل على العلة وقوله تعالى (لامبدل لكلماته) اما استئناف مبين لفضلها على غيرها اثر بيان فضلها فى نفسها وإما حال أخرى من فاعل تمت على ان الظاهر مغن عن الضمير الرابط والمعنى انها بلغت الغاية القاصية صدقا فى الاخبار والمواعيد وعدلا فى الاقضية والاحكام لاأحد يبدل شيئا من ذلك بما هو أصدق وأعدل ولا بما هو مثله فكيف يتصور ابتغاء حكم غيره تعالى (وهو السميع) لكل مايتعلق به السمع (العليم) بكل مايمكن أن يعلم فيدخل فى ذلك أقوال المتحاكمين وأحوالهم الظاهرة والباطنة دخولا أوليا هذا وقد قيل المعنى لاأحد يقدر على ان يحرفها كما فعل بالتوراة فيكون ضمانا لها من الله عز وجل بالحفظ كقوله تعالى «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون» أو لانبى ولا كتاب بعدها ينسخها (وان تطع أكثر من فى الارض) لما تحقق اختصاصه تعالى بالحكمية لاستقلاله بما يوجبها من انزال الكتاب الكامل الفاصل بين الحق والباطل وتمام صدق كلامه وكمال عدالة أحكامه وامتناع وجود من يبدل شيئا منها واستبداده تعالى بالاحاطة التامة بجميع المسموعات والمعلومات عقب ذلك ببيان أن الكفرة متصفون بنقائض تلك الكمالات من النقائض التى هى الضلال والاضلال واتباع الظنون الفاسدة الناشىء من الجهل والكذب على الله سبحانه وتعالى ابانة لكمال مباينة حالها لما يرمونه وتحذيرا عن الركون اليهم والعمل بآرائهم والمراد بمن فى الارض الناس وبأكثرهم الكفار وقيل أهل مكة والارض أرضها أى ان تطعهم بأن جعلت منهم حكما (يضلوك عن سبيل الله) عن الطريق الموصل اليه أو عن الشريعة التى شرعها لعباده (ان يتبعون الا الظن) وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم على آثارهم يهتدون

أو جهالاتهم وآراؤهم الباطلة على أن المراد بالظن مايقابل العلم و الجملة استئناف مبنى على سؤال نشأ من الشرطية كأنه قيل كيف يضلون فقيل لا يتبعون فى أمور دينهم الا الظن و ان الظن لايغنى من الحق شيئا فيضلون ضلالا مبينا و لا ريب فى أن الضال المتصدى للارشاد إنما يرشد غيره الى مسلك نفسه فهم ضالون مضلون وقوله تعالى (وان هم الا يخرصون) عطف على ماقبله داخل فى حكمه أى يكذبون على الله سبحانه فيما ينسبون اليه تعالى كاتخاذ الولد وجعل عبادة الأوثان ذريعة اليه تعالى وتحليل الميتة و تحريم البحائر ونظائرها أو يقدرون أنهم على شيء وأنى لهم ذلك ودونه مناط العيون وحقيقته ما يقال عن ظن وتخمين (ان ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) تقرير لمضمون الشرطية ومابعدها وتأكيد لما يفيده من التحذير اي هو أعلم بالفريقين فاحذر أن تكون من الأولين ومن موصولة أو موصوفة فى محل النصب لابنفس أعلم فان أفعل التفضيل لاينصب الظاهر فى مثل هذه الصور بل بفعل دل هو عليه أو استفهامية مرفوعة بالابتداء والخبر يضل والجملة معلق عنها الفعل المقدر وقرىء يضل بضم الياء على أن من فاعل ليضل ومفعوله محذوف ومحلها النصب بما ذكر من الفعل المقدر أي هو أعلم يعلم من يضل الناس فيكون تأكيدا للتحذير عن طاعة الكفرة وأما أن الفاعل هو الله تعالى و من منصوبة بما ذكر أي يعلم من يضله أو مجرورة باضافة أعلم اليها أى أعلم المضلين من قوله تعالى «من يضلل الله» أو من قولك أضللته اذا وجدته ضالا فلا يساعده السباق والسياق والتفضيل فى العلم بكثرته واحاطته بالوجوه التى يمكن تعلق العلم بها ولزومه وكونه بالذات لابالغير (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) أمر مترتب على النهى عن اتباع المضلين الذين من جملة اضلالهم تحليل الحلال و تحريم الحرام وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين انكم تعبدون الله فما قتله الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم فقيل للمسلمين كلوا مما ذكر اسمه تعالى خاصة على ذبحه لا مما ذكر عليه اسم غيره فقط أو مع اسمه تعالى أو مات حتف أنفه (ان كنتم بآياته) التى من جملتها الآيات الواردة فى هذا الشأن (مؤمنين) فان الايمان بها يقتضى استباحة ما أحله الله والاجتناب عما حرمه وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه (وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) انكار لان يكون لهم شيء يدعوهم الى الاجتناب عن أكل ما ذكر عليه اسم الله تعالى من البحائر و السوائب ونحوها و قوله تعالى (وقد فصل لكم) الخ جملة حالية مؤكدة للانكار كما فى قوله تعالى «وما لنا الا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا» أى وأى سبب حاصل لكم

فى أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه أو وأى غرض يحملكم على أن لا تأكلوا ويمنعكم من أكله . الحال انه قد فصل لكم (ماحرم عليكم) بقوله تعالى «قل لا أجد فيما أوحى الى محرما الخ فبقى ماعدا ذلك على الحل لا بقوله تعالى» حرمت عليكم الميتة » الخ لانها مدنية وأما التأخر فى التلاوة فلا يوجب التأخر فى النزول وقرىء الفعلان على البناء للمفعول وقرىء الاول على البنا للفاعل والثانى للمفعول (الا ما اضطررتم اليه) مما حرم فانه أيضا حلال حينئذ (وان كثيرا) أى من الكفار (ليضلون) الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام كعمرو بن لحى وأضرابه وقرىء يضلون (بأهوائهم) الزائغة وشهواتهم الباطلة (بغير علم) مقتبس من الشريعة الشريفة مستند بالوحى (ان ربك هو أعلم بالمعتدين) المتجاوزين لحدود الحق الى الباطل والحلال الى الحرام (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) أى مايعلن من الذنوب وما يسر أو ما يعمل منها بالجوارح وما بالقلب وقيل الزنا فى الحوانيت واتخاذ الاخدان (ان الذين يكسبون الاثم) أى يكسبونه من الظاهر والباطن (سيجزون بما كانوا يقترفون) كائنا ما كان فلا بد من اجتنابهما والجملة تعليل للأمر (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ظاهر فى تحريم متروك التسمية عمدا كان أو نسيانا واليه ذهب داود وعن أحمد بن حنبل مثله وقال مالك والشافعى بخلافه لقوله عليه السلام «ذبيحة المسلم حلال وان لم يذكر اسم الله عليه» وفرق أبو حنيفة بين العمد والنسيان وأوله بالميتة أو بما ذكر عليه اسم غيره تعالى لقوله (وانه لفسق) فان الفسق ما أهل به لغير الله والضمير لما ويجوز ان يكون للأكل المدلول عليه بلا تأكلوا والجملة مستأنفة وقيل حالية (وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم) المراد بالشياطين إبليس وجنوده فايحاؤهم وسوستهم الى المشركين وقيل مردة المجوس فايحاؤهم الى أوليائهم ماأنهوا الى قريش بالكتاب أن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ثم يزعمون أن مايقتلونه حلال ومايقتله الله حرام (ليجادلوكم) أى بالوساوس الشيطانية أو بما نقل من أباطيل المجوس وهو يؤيد التأويل بالميتة (وان أطعتموهم) فى استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم (انكم لمشركون) ضرورة أن من ترك طاعة الله الى طاعة غيره واتبعه فى دينه فقد اشركه به تعالى بل آثره عليه سبحانه (أو من كان ميتا) وقرىء ميتا على الاصل (فاحييناه) تمثيل مسوق لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين اثر تحذيرهم عنها بالاشارة الى انهم مستضيئون بأنوار الوحى الالهى والمشركون خابطون فى ظلمات الكفر والطغيان فكيف يعقل اطاعتهم لهم والهمزة للانكار والنفى والواو لعطف الجملة الاسمية على مثلها الذي يدل عليه الكلام أى أأنتم مثلهم ومن كان ميتا فاعطيناه الحياة

وما يتبعها من القوى المدركة والمحركة (وجعلنا له) مع ذلك من الخارج (نورا) عظيما (يمشي به) أي بسببه والجملة استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا يصنع بذلك النور فقيل يمشي به (في الناس) أي فيما بينهم آمنا من جهتهم أو صفة له (كمن مثله) أي صفته العجيبة وهو مبتدأ وقوله تعالى (في الظلمات) خبره على ان المراد بهما اللفظ لا المعنى كما في قولك زيد صفته أسمر وهذه الجملة صلة لمن وهي مجرورة بالكاف وهي مع مجرورها خبر لمن الأولى وقوله تعالى (ليس بخارج منها) حال من المستكن في الظرف وقيل من الموصول أي غير خارج منها بحال وهذا كما ترى مثل أريد به من بقي في الضلالة بحيث لا يفارقها أصلا كما أن الأول مثل أريد به من خلقه الله تعالى على فطرة الاسلام وهداه بالآيات البينة الى طريق الحق يسلكه كيف يشاء لكن لا على ان يدل على كل واحد من هذه المعاني بما يليق به من الألفاظ الواردة في المثلين بواسطة تشبيهه بما يناسبه من معانيها فان ألفاظ المثل باقية في معانيها الأصلية بل على انه قد انتزعت من الامور المتعددة المعتبرة في كل واحد من جانبي المثلين هيئة على حدة ومن الامور المتعددة المذكورة في كل واحد من جانبي المثلين هيئة على حدة فشبهت بهما الاوليان ونزلتا منزلتيهما فاستعمل فيهما ما يدل على الآخرين بضرب من التجوز وقد أشير في تفسير قوله تعالى «ختم الله على قلوبهم» الآية الى أن التمثيل قسم برأسه لا سبيل الى جعله من باب الاستعارة حقيقة وان الاستعارة التمثيلية من عبارات المتأخرين نعم قد يجري ذلك على سنن الاستعارة بان لا يذكر المشبه كهذين التمثيلين ونظائرهما وقد يجري على منهاج التشبيه كما في قوله:

وما الناس الا كالديار وأهلها ... بها يوم حلوها وغدوا بلاقع

(كذلك) أي مثل ذلك التزيين البليغ (زين) أي من جهة الله تعالى بطريق الخلق عند إيحاء الشياطين أو من جهة الشياطين بطريق الزخرفة والتسويل (للكافرين) التابعين للوساوس الشيطانية الآخذين بالمزخرفات التي يوحونها اليها (ما كانوا يعملون) ما استمروا على عمله من فنون الكفر والمعاصي التي من جملتها ما حكى عنهم من القبائح فانها لو لم تكن مزينة لهم لما أصروا عليها ولما جادلوا بها الحق وقيل الآية نزلت في حمزة رضي الله عنه وأبي جهل وقيل في عمر أو عمار رضي الله عنهما وأبي جهل (وكذلك) قيل معناه كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها (جعلنا في كل قرية) من سائر القرى (أكابر مجرميها ليمكروا فيها) ومفعولا جعلنا أكابر مجرميها على تقديم المفعول الثاني والظرف لغو أوهما الظرف وأكابر على أن مجرميها بدل أو مضاف اليه فان أفعل التفضيل اذا أضيف جاز الافراد والمطابقة ولذلك قرىء أكبر مجرميها وقيل أكابر مجرميها مفعوله

الاول والثاني ليمكروا فيها ولا يخفى أن أي معنى يراد من هذه المعاني لابد أن يكون
مشهور التحقق عند الناس معهودا فيما بينهم حتى يصلح أن تصرف الاشارة عن سباق
النظم الكريم وتوجه اليه ويجعل مقياسا لنظائره باخراجه مخرج المصدر التشبيهي
وظاهر أن ليس الامر كذلك ولاسبيل الى توجيهها الى ما يفهم من قوله تعالى « كذلك
زين للكافرين ما كانوا يعملون » وان كان المراد بهم أكابر مكة لان مآل المعنى حينئذ
بعد اللتيا والتي كما جعلنا أعمال أهل مكة مزينة لهم جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها الخ
فاذن الأقرب ان ذلك اشارة الى الكفرة المعهودين باعتبار اتصافهم بصفاتهم والافراد
بتأويل الفريق او المذكور ومحل الكاف النصب على انه المفعول الثاني لجعلنا قدم عليه
لافادة التخصيص كما في قوله تعالى « كذلك كنتم من قبل » الآية والاول أكابر مجرميها
والظرف لغو أي ومثل أولئك الكفرة الذين هم صناديد مكة ومجرموها جعلنا في كل
قرية أكابرها المجرمين أي جعلناهم متصفين بصفات المذكورين مزينا لهم أعمالهم مصرين
على الباطل مجادلين به الحق ليمكروا فيها أي ليفعلوا المكر فيها وهذا تسلية لرسول الله
صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (وما يمكرون الا بانفسهم) اعتراض على سبيل الوعد
لرسول الله عليه الصلاة والسلام والوعيد للكفرة أي وما تحيق غائلة مكرهم الا بهم
(وما يشعرون) حال من ضمير يمكرون مع اعتبار ورود الاستثناء على النفي أي انما
يمكرون بأنفسهم والحال أنهم ما يشعرون بذلك أصلا بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم
وقوله تعالى (واذا جاءتهم آية) رجوع الى بيان حال مجرمي أهل مكة بعدما بين بطريق
التسلية أن حال غيرهم أيضا كذلك وأن عاقبة مكر الكل ما ذكر فان العظيمة المنقولة
انما صدرت عنهم لا عن سائر المجرمين أي اذا جاءتهم آية بواسطة الرسول عليه الصلاة
والسلام (قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) قال ابن عباس رضي الله
عنهما حتى يوحى الينا ويأتينا جبريل عليه السلام فيخبرنا أن محمدا صادق كما قالوا أو
تأتي بالله والملائكة قبيلا . وعن الحسن البصري مثله وهذا كما ترى صريح في أن ما علق
بايتاء ما أوتي الرسل عليهم الصلاة والسلام هو ايمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم
وبما أنزل اليه ايمانا حقيقيا كما هو المتبادر منه عند الاطلاق خلا أنه يستدعي أن يحمل
ما أوتي رسل الله على مطلق الوحي ومخاطبة جبريل عليه السلام في الجملة وأن تصرف
الرسالة في قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) عن ظاهرها وتحمل على رسا
جبريل عليه السلام بالوجه المذكور ويراد بجعلها تبليغها الى المرسل اليه لا وض
موضعها الذي هو الرسول ليتأتى كونه جوابا عن اقتراحهم وردا له بأن

ـهم العباده ... آثارهم يهتدون

الاقتراح لن نؤمن بكون تلك الآية نازلة من عند الله تعالى الى الرسول حتى يأتينا جبريل بالذات عيانا كما يأتى الرسول فيخبرنا بذلك ومعنى الرد الله أعلم من يليق بارسال جبريل عليه السلام اليه لامر من الامور ايذانا بأنهم بمعزل من استحقاق ذلك التشريف وفيه من التمحل ما لا يخفى وقال مقاتل نزلت فى أبى جهل حين قال زاحمنا بنو عبد مناف فى الشرف حتى اذا صرنا كفرسى رهان قالوا منانبى يوحى اليه والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدا حتى يأتينا وحى كما يأتيه وقال الضحاك سأل كل واحد من القوم أن يخص بالرسالة والوحى كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله «بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة» ولا يخفى أن كل واحد من هذين القوابين وان كان مناسبا للرد المذكور لكنه يقتضى ان يراد بالايمان المعلق بايتاء ما اوتى الرسل مجرد تصديقهم برسالته عليه الصلاة والسلام فى الجملة من غير شمول لكافة الناس وان تكون كلمة حتى فى قول اللعين حتى يأتينا وحي كما يأتيه الخ غاية لعدم الرضا لا لعدم الاتباع فانه مقرر على تقديرى ايتاء الوحي وعدمه فالمعنى لن نؤمن برسالته أصلا حتى نوتى نحن من الوحى والنبوة مثل ما أوتى رسل الله أو ايتاء مثل ايتاء رسل الله واما ما قيل من أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك لانى أكبر منك سنا وأكثر منك مالا وولدا فنزلت . فلا تعلق له بكلامهم المردود الا أن يراد بالايمان المعلق بما ذكر مجرد الايمان بكون الآية النازلة وحيا صادقا لا الايمان بكونها نازلة اليه عليه الصلاة والسلام فيكون المعنى واذا جاءتهم آية نازلة الى الرسول قالوا لن نؤمن بنزولها من عند الله حتي يكون نزولها الينا لا اليه لأنا نحن المستحقون دونه فان ملخص معني قوله لو كانت النبوة حقا الخ لو كان ماتدعيه من النبوة حقا لكنت أنا النبى لا أنت واذ لم يكن الامر كذلك فليست بحق ومآله تعليق الايمان بحقية النبوة بكونه نفسه نبيا. ومثل مااوتى نصب على أنه نعت لمصدر محذوف وما مصدرية أى حتى نؤتاها ايتاء مثل ايتاء رسل الله واضافة الايتاء اليهم لانهم منكرون لايتائه عليه الصلاة والسلام. وحيث نصب على المفعولية توسعا لابنفس أعلم لما عرفت من أنه لايعمل فى الظاهر بل بفعل دل هو عليه أى هو أعلم بعلم الموضع الذى يضعها فيه والمعنى أن منصب الرسالة ليس مما ينال بكثرة المال والولد وتعاضد الأسباب والعدد وانما ينال بفضائل نفسانية يخصها الله تعالى بمن يشاء من خلص عباده .وقرىء رسالاته (سيصيب الذين أجرموا) استئناف آخر ناع عليهم ماسيلقونه من فنون الشر بعد مانعى عليهم حرمانهم مما أملوه والسين للتأكيد ووضع الموصول موضع الضمير للاشعار بان اصابة ما يصيبهم لأجرامهم المستتبع لجميع

الشرور والقبائح أي يصيبهم ألبتة مكان ما تمنوه وعلقوا به أطماعهم الفارغة من عزة النبوة وشرف الرسالة (صغار) أي ذلة وحقارة بعد كبرهم (عند الله) أي يوم القيامة وقيل من عند الله (وعذاب شديد) في الآخرة أو في الدنيا (بما كانوا يمكرون) أي بسبب مكرهم المستمر أو بمقابلته وحيث كان هذا من معظم مواد إجرامهم صرح بسببيته (فمن يرد الله أن يهديه) أي يعرفه طريق الحق ويوفقه للايمان (يشرح صدره للاسلام) فيتسع له وينفتح وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهيئة لحلوله فيها مصفاة عما يمنعه وينافيه واليه أشار عليه الصلاة والسلام حين سئل فقال «نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفتح فقالوا هل لذلك من أمارة يعرف بها فقال نعم الانابة الى دار الخلود والاعراض عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله» (ومن يرد أن يضله) أي يخلق فيه الضلال بصرف اختياره اليه (يجعل صدره ضيقا حرجا) بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يكاد يدخله الايمان. وقرىء ضيقا بالتخفيف وحرجا بكسر الراء أي شديد الضيق والاول مصدر وصف به مبالغة (كأنما يصعد) ماهذه مهيئة لدخول كأن على الجمل الفعلية (في السماء) شبه للمبالغة في ضيق صدره بمن يزاول مالا يكاد يقدر عليه فان صعود السماء مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة. وفيه تنبيه على أن الايمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعود وقيل معناه كأنما يتصاعد الى السماء نبوا عن الحق وتباعدا في الهرب منه وأصل يصعد يتصعد وقد قرىء به وقرىء يصاعد وأصله يتصاعد (كذلك) أي مثل ذلك الجعل الذي هو جعل الصدر حرجا على الوجه المذكور (يجعل الله الرجس) أي العذاب او الخذلان قال مجاهد الرجس مالا خير فيه وقال الزجاج الرجس اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة (على الذين لا يؤمنون) أي عليهم ووضع الموصول موضع المضمر للاشعار بان جعله تعالى معلل بما في حيز الصلة من كمال نبوهم عن الايمان وإصرارهم على الكفر (وهذا) أي البيان الذي جاء به القرآن أو الاسلام أو ماسبق من التوفيق والخذلان صراط ربك أي طريقه الذي ارتضاه أو عادته وطريقته التي اقتضتها حكمته. وفي التعرض لعنوان الربوبية إيذان بأن تقويم ذلك الصراط للتربية وافاضة الكمال (مستقيما) لاعوج فيه أو عادلا مطردا وهو حال مؤكدة كقوله تعالى «وهو الحق مصدقا» والعامل فيها معنى الاشارة (قد فصلنا الآيات) بيناها مفصلة (لقوم يذكرون) يتذكرون مافي تضاعيفها فيعلمون أن كل مايحدث من الحوادث خيرا كان أو شرا فانما يحدث بقضاء الله تعالى وخلقه وانه تعالى عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما

يفعل بهم وتخصيص القوم المذكورين بالذكر لأنهم المنتفعون بتفصيل الآيات (لهم دار السلام) أي للمتذكرين دار السلام من كل المكاره وهي الجنة (عند ربهم) أي في ضمانه أو ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره تعالى (وهو وليهم) أي مولاهم وناصرهم (بما كانوا يعملون) بسبب أعمالهم الصالحة أو متوليهم بجزائها يتولى ايصاله اليهم (ويوم يحشرهم جميعا) منصوب بمضمر إما على المفعولية أو الظرفية وقرىء بنون العظمة على الالتفات لتهويل الأمر والضمير المنصوب لمن يحشر من الثقلين أي واذكر يوم يحشر الثقلين قائلا (يامعشر الجن) أو ويوم يحشرهم يقول يامعشر الجن أو ويوم يحشرهم ويقول يامعشر الجن يكون من الأحوال والأهوال مالا يساعده الوصف لفظاعته والمعشر الجماعة والمراد بمعشر الجن الشياطين (قد استكثرتم من الانس) أي من إغوائهم وإضلالهم أو منهم بان جعلتموهم أتباعكم فحشروا معكم كقولهم استكثر الأمير من الجنود وهذا بطريق التوبيخ والتقريع (وقال أولياؤهم) أي الذين أطاعوهم ومن في قوله تعالى (من الانس) اما لبيان الجنس أي أولياؤهم الذين هم الانس أو متعلقة بمحذوف وهو حال من أوليائهم أي كائنين من الانس (ربنا استمتع بعضنا ببعض) أي انتفع الانس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به اليها وقيل بأن القوا اليهم من الأراجيف والسحر والكهانة والجن بالانس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم بقبول ما ألقوه اليهم وقيل استمتاع الانس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم في المفاوز والمخاوف واستمتاعهم بالانس اعترافهم بأنهم قادرون على اجارتهم (وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) وهو يوم القيامة قالوه اعترافا بما فعلوا من طاعة الشياطين واتباع الهوى وتكذيب البعث واظهارا للندامة عليها وتحسرا على حالهم واستسلاما لربهم ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين للايذان بأن المضلين قد ألجموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلا (قال) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية كلامهم كأنه قيل فماذا قال الله تعالى حينئذ فقيل قال (النار مثواكم) أي منزلكم أو ذوات ثوائكم كما أن دار السلام مثوى المؤمنين (خالدين فيها) حال والعامل مثواكم إن جعل مصدرا ومعنى الاضافة إن جعل مكانا (الا ماشاء الله) قال ابن عباس رضي الله عنهما استثنى الله تعالى قوما قد سبق في علمه أنهم يسلمون ويصدقون النبي عليه الصلاة والسلام وهذا مبني على أن الاستثناء ليس من المحكي وما بمعنى من وقيل المعنى إلا الاوقات التي ينقلون فيها من النار الى الزمهرير فقد روى أنهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير ماعيز بعض أوصالهم من بعض فيتعاوون ويطلبون الرد الى الجحيم وقيل يفتح لهم وهم في النار باب الى الجنة فيسرعون نحوه حتى اذا صاروا اليه سد عليهم

الباب وعلى التقديرين فالاستثناء تهكم بهم وقيل الاماشاء الله قبل الدخول كانه قيل النار مثوا كم أبدا الا ما أمهلكم ولا يخفى بعده (ان ربك حكيم) فى أفاعيله (عليم) بأحوال الثقلين وأعمالهم وبما يليق بها من الجزاء (وكذلك) أى مثل ماسبق من تمكين الجن من أغواء الانس واضلالهم (نولى بعض الظالمين) من الانس (بعضا) آخر منهم أى نجعلهم بحيث يتولونهم بالاغواء والاضلال أو نجعل بعضهم قرناء بعض فى العذاب كما كانوا كذلك فى الدنيا عند اقتراف مايؤدي اليه من القبائح (بما كانوا يكسبون) بسبب ما كانوا مستمرين على كسبه من الكفر والمعاصى (يامعشر الجن والانس) شروع فى حكاية ماسيكون من توبيخ المعشرين وتقريعهم بتفريطهم فيما يتعلق بخاصة أنفسهم أثر حكاية توبيخ معشر الجن باغواء الانس واضلالهم وبيان مآل أمرهم (ألم يأتكم) أى فى الدنيا (رسل) أى من عند الله عز وجل لكن لا على أن يأتى كل رسول كل واحدة من الامم بل على أن يأتى كل أمة رسول خاص بها أى ألم يأت كل أمة منكم رسول معين وقوله تعالى (منكم) متعلق بمحذوف وقع صفة لرسل أى كائنة من جملتكم لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معا بل من الانس خاصة وانما جعلوا منهما إما لتأكيد وجوب اتباعهم والايذان بتقاربهما ذاتا واتحادهما تكليفا وخطابا كانهما جنس واحد ولذلك تمكن أحدهما من اضلال الآخر وإما لان المراد بالرسل مايعم رسل الرسل وقد ثبت أن الجن قد استمعوا القرآن وأنذروا به قومهم حيث نطق به قوله تعالى «واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن» الى قوله تعالى «ولوا الى قومهم منذرين» وقوله تعالى (يقصون عليكم آياتى) صفة أخرى لرسل محققة لما هو المراد من إرسال الرسل من التبليغ والانذار وقد حصل ذلك بالنسبة الى الثقلين (وينذرونكم) بمافى تضاعيفها من القوارع (لقاء يومكم هذا) يوم الحشر الذى قد عاينوا فيه ماأعد لهم من أفانين العقوبات الهائلة (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام السابق كانه قيل فماذا قالوا عند ذلك التوبيخ الشديد فقيل قالوا (شهدنا على أنفسنا) أى بأتيان الرسل وانذارهم وبمقابلتهم اياهم بالكفر والتكذيب وباستحقاقهم بسبب ذلك العذاب المخلد حسبما فصل فى حكاية جوابهم عن سؤال الخزنة النار حيث قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير . وقد أجمل ههنا فى الحكاية كما أجمل فى حكاية جوابهم حيث قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين وقوله تعالى (وغرتهم الحيوة الدنيا) مع ما عطف عليه اعتراض لبيان ماأداهم فى الدنيا الى ارتكابهم للقبائح التى ارتكبوها وإلجائهم بعد ذلك فى الآخرة

الى الاعتراف بالكفر واستيجاب العذاب وذم لهم بذلك أى واغتروا فى الدنيا بالحياة الدنيئة واللذات الخسيسة الفانية وأعرضوا عن النعيم المقيم الذى بشرت به الرسل واجترءوا على ارتكاب مايجرهم الى العذاب المؤبد الذي أنذروهم اياه (وشهدوا) فى الآخرة (على أنفسهم أنهم كانوا) فى الدنيا (كافرين) اى بالآيات والنذر التى أتى بها الرسل على التفصيل المذ ور آنفا واضطروا الي الاستسلام لأشد العذاب كما ينبىء عنه ماحكى عنهم بقوله تعالى «وقالوا لوكنا نسمع او نعقل ما كنا فى أصحاب السعير» وفيه من تحسيرهم وتحذير السامعين عن مثل صنيعهم مالا مزيد عليه (ذلك) اشارة الى ماذكر من شهادتهم على انفسهم بالكفر واستيجاب العذاب والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم بطاريق التلوين وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (ان لم يكن ربك مهلك القرى) بحذف اللام على أن أن مصدرية او مخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف وقوله تعالى (بظلم) متعلق اما بمهلك اي بسبب ظلم او بمحذوف وقع حالا من القرى أى ملتبسة بظلم فان ملابسة أهلها للظلم ملابسة للقرية له بواسطتهم وأما كونه حالا من ربك أو من ضميره فى مهلك كما قيل فيأباه أن غفلة أهلها مأخوذة فى معنى الظلم وحقيقته لامحالة فلا يحسن تقييده بقوله تعالى (وأهلها غافلون) والمعنى ذلك ثابت لانتفاء كون ربك أولان الشأن لم يكن ربك مهلك القرى بسبب أى ظلم فعلوه من أفراد الظلم قبل أن ينهوا عنه وينبهوا على بطلانه برسول وكتاب وان قضى به بديهة العقول و ينذروا عاقبة جناياتهم أي لولا انتفاء كونه تعالى معذبا لهم قبل ارسال الرسل وإنزال الكتب لما أمكن التوبيخ بما ذكروا ولما شهدوا على أنفسهم بالكفر واستيجاب العذاب ولا اعتذروا بعدم اتيان الرسل كما فى قوله تعالى «ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى» .وانما علل ماذكر بانتفاء التعذيب الدنيوى الذى هو إهلاك القرى قبل الانذار مع أن التقريب فى تعليله بانتفاء مطلق التعذيب من غير بعث الرسل أتم على مانطق به قوله تعالى «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» لبيان كمال نزاهته سبحانه وتعالى عن كلا التعذيبين الدنيوى والاخروى معا من غير انذار على أبلغ وجه وآكده حيث اقتصر على نفى التعذيب الدنيوى عنه تعالى ليثبت نفي التعذيب الاخروى عنه تعالى على الوجه البرهانى بطريق الاولوية فانه تعالى حيث لم يعذبهم بعذاب يسير منقطع بدون انذار فلأن لايعذبهم بعذاب شديد مخلد أولى وأجلى ولو علل بما ذكر من نفى التعذيب لانصرف بحسب المقام الى مافيه الكلام من نفي التعذيب الاخروى ونفى

التعذيب الدنيوي غير معرض له لاصريحا ولا دلالة ضرورة أن نفى الأعلى لايدل على نفى الأدنى ولان ترتب التعذيب الدنيوى على الانذار عند عدم تأثر المنذرين منه معلوم مشاهد عند السامعين فيستدلون بذلك على أن التعذيب الاخروى أيضا كذلك فينزجرون عن الاخلال بمواجب الانذار أشد انزجار هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الكريم وأما جعل ذلك اشارة الى ارسال الرسل عليهم السلام وانذارهم وخبر المبتدأ محذوف كما أطبق عليه الجمهور فبمعزل من مقتضى المقام والله سبحانه وتعالى أعلم (ولكل) أي من المكلفين من الثقلين (درجات) متفاوتة وطبقات متباينة (مما عملوا) من أعمالهم صالحة كانت أو سيئة فان أعمالهم درجات فى أنفسها أو من جزاء أعمالهم فان كل جزاء مرتبة معينة لهم أو من أجل أعمالهم (وماربك بغافل عما يعملون) فيخفى عليه عمل من أعمالهم أو قدر مايستحقون بها من ثواب أو عقاب وقرىء بالتاء تغليبا للخطاب على الغيبة (وربك الغنى) مبتدأ وخبر أي هو المعروف بالغنى عن كل ماسواه كائنا من كان وما كان فيدخل فيه غناء عن العباد وعن عبادتهم وفى التعرض لوصف الربوبية فى الموضعين لاسيما فى الثانى لكونه موقع الاضمار مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من اظهار اللطف به عليه السلام وتنزيه ساحته عن توهم شمول الوعيد الآتى لها أيضا مالا يخفي وقوله تعالى (ذو الرحمة) خبر آخر أو هو الخبر والغنى صفة أي يترحم عليهم بالتكليف تكميلا لهم ويمهلهم على المعاصى وفيه تنبيه على أن ماسلف ذكره من الارسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتمهيد لقوله تعالى (أن يشأ يذهبكم) أى مابه حاجة اليكم ان يشأ يذهبكم أيها العصاة وفى تلوين الخطاب من تشديد الوعيد مالايخفى (ويستخلف من بعدكم) أى من بعداذهابكم (مايشاء) من الخلق وايثار ما على من لاظهار كمال الكبرياء وإسقاطهم عن رتبة العقلاء (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) أى من نسل قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه الصلاة والسلام لكنه أبقاكم ترحما عليكم وما فى كما مصدرية ومحل الكاف النصب على انه مصدر تشبيهى على غير الصدر فان يستخلف فى معنى ينشيء كأنه قيل وينشىء انشاء كائنا كأنشائكم الخ أو نعت لمصدر الفعل المذكور أى يستخلف استخلافا كائنا كانشائكم الخ والشرطية استئناف مقرر لمضمون ماقبلها من الغنى والرحمة (ان ماتوعدون) أى الذى توعدونه من البعث ومايتفرع عليه من الامور الهائلة وصيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار التجددى (لآت) لواقع لامحالة كقوله تعالى «انماتوعدون لواقع» وايثاره عليه لبيان

كمال سرعة وقوعه بتصويره بصورة طالب حثيث لا يفوته هارب حسبما يعرب عنه قوله تعالى (وماأنتم بمعجزين) أى بفائتين ذلك وان ركبتم فى الهرب متن كل صعب وذلول كما ان ايثار صيغة الفاعل على المستقبل للايذان بكمال قرب الاتيان والمراد بيان دوام انتفاء الاعجاز لابيان انتفاء دوام الاعجاز فان الجملة الاسمية كما تدل على دوام الثبوت تدل بمعونة المقام اذا دخل عليها حرف النفى على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام كما حقق فى موضعه (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم) اثر مابين لهم حالهم ومآلهم بطريق الخطاب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين بأن يواجههم بتشديد التهديد وتكرير الوعيد ويظهر لهم ماهو عليه من غاية التصلب فى فى الدين ونهاية الوثوق بأمره وعدم المبالاة بهم أي اعملوا على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن أو على جهتكم وحالتكم التى أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة وقرىء مكاناتكم والمعنى اثبتوا على كفركم ومعاداتكم (انى عامل) ماأمرت به من الثبات على الاسلام والاستمرار على الاعمال الصالحة والمصابرة. وايراد التهديد بصيغة الأمر مبالغة فى الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجمعا عليه فيحمله بالأمر على مايؤدى اليه وتسجيل بأن المهدد لايتأتى منه الا الشر كالذى أمر به بحيث لايجد الى التفصى عنه سبيلا (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) سوف لتأكيد مضمون الجملة والعلم عرفانى ومن اما استفهامية معلقة لفعل العلم محلها الرفع على الابتداء وتكون باسمها وخبرها خبر لها وهى مع خبرها فى محل نصب لسدها مسد مفعول تعلمون أي فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة الحسنى التى خلق الله تعالى هذه الدار لها وإما موصولة فمحلها النصب على أنها مفعول لتعلمون أى فسوف تعلمون الذى له عاقبة الدار وفيه مع الانذار انصاف فى المقال وتنبيه على كمال وثوق المنذر بامره وقرىء بالياء لان تأنيث العاقبة غير حقيقى (انه) أى الشأن (لا يفلح الظالمون) وضع الظلم موضع الكفر ايذانا بأن امتناع الفلاح يترتب على أى فرد كان من أفراد الظلم فما ظنك بالكفر الذى هو أعظم أفراده (وجعلوا) شروع فى تقبيح أحوالهم الفظيعة بحكاية أقوالهم وأفعالهم الشنيعة وهم مشركو العرب كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله تعالى وأشياء منهما لآلهتهم فاذا رأوا ماجعلوه لله تعالى زاكيا ناميا يزيد فى نفسه خيرا رجعوا فجعلوه لآلهتهم واذا زكا ماجعلوه لآلهتهم تركوه معتلين بأن الله تعالى غني وما ذاك الا لحب آلهتهم وايثارهم لها والجعل اما متعد الي واحد فالجاران فى قوله تعالى (لله مماذرأ) متعلقان به ومن فى قوله تعالى (من الحرث

والأنعام) بيان لما وفيه تنبيه على فرط جهالتهم حيث أشركوا الخالق فى خلقه جمادا لايقدر على شيء ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزكى له أى عينوا له تعالى مما خلقه من الحرث والانعام (نصيبا) يصرفونه الى الضيفان والمساكين وتأخيره عن المجرورين لما مرمرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر واما الى مفعولين أو لهما ما ذرأ على أن من تبعيضية أي جعلوا لبعض ماخلقه نصيبا له وماقيل من أن الاول نصيبا والثانى لله لايساعده سداد المعنى وحكاية جعلهم له تعالى نصيبا تدل على أنهم جعلوا لشركائهم أيضا نصيبا ولم يذكر اكتفاء بقوله تعالى «فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا» وقرىء بضم الزاى وهو لغة فيه وانما قيد به الأول للتنبيه على أنه فى الحقيقة ليس بجعل لله تعالى غير مستتبع لشىء من الثواب كالتطوعات التي يبتغى بها وجه الله تعالى لالما قيل من أنه للتنبيه على أن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله تعالى به فان ذلك مستفاد من الجعل ولذلك لم يقيد به الثانى ويجوز أن يكون ذلك تمهيدا لما بعده على معنى أن قولهم هذا لله مجرد زعم منهم لايعملون بمقتضاه الذي هو اختصاصه به تعالى فقوله تعالى (فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم) بيان وتفصيل له أى فما عينوه لشركائهم لايصرف الى الوجوه التى يصرف اليها ماعينوه لله تعالى من قرى الضيفان والتصدق على المساكين وما عينوه لله تعالى اذا وجدوه زاكيا يصرف الى الوجوه التى يصرف اليها ماعينوه لآلهتهم من انفاق عليها وذبح نسائك عندها والأجراء على سدنتها ونحو ذلك (ساء مايحكمون) فيما فعلوا من أيثار آلهتهم على الله تعالى وعملهم بمالم يشرع لهم وما بمعنى الذى والتقدير ساء الذى يحكمون حكمهم فيكون حكمهم مبتدأ وما قبله الخبر وحذف لدلالة يحكمون عليه (وكذلك) ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك فى قسمة القربان بين الله تعالى و بين آلهتهم أو مثل ذلك التزيين البليغ المعهود من الشياطين (زين لكثير من المشركين قتل أولادهم) بوأدهم ونحرهم لآلهتهم كان الرجل يحلف فى الجاهلية لئن ولد له كذا غلاما لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب وهو مشهور (شركاؤهم) أى أولياؤهم من الجن أو من السدنة وهو فاعل زين أخر عن الظرف والمفعول لما مر غير مرة وقرىء على البناء للمفعول الذى هو القتل ونصب الاولاد وجر الشركاء بأضافة القتل اليه مفصولا بينهما بمفعوله وقرىء على البناء المفعول ورفع قتل وجر أولادهم ورفع شركاؤهم باضمار فعل دل عليه زين كانه لما قيل زين لهم قتل أولادهم قيل من زينه فقيل زينه شركاؤهم (ليردوهم) أي يهلكوهم بالاغواء (وليلبسوا عليهم دينهم) وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين اسمعيل عليه السلام أو ما وجب عليهم ان يتدينوا به واللام للتعليل ان كان التزيين من الشياطين وللعاقبة ان كان من السدنة (ولو شاء الله) أى

عدم فعلهم ذلك (مافعلوه) أي مافعل المشركون مازين لهم من القتل أو الشركاء التزيين أو الارداء واللبس أو الفريقان جميع ذلك على اجراء الضمير مجرى اسم الاشارة (فذرهم وما يفترون) الفاء فصيحة أي إذا كان مافعلوه بمشيئة الله تعالى فدعهم وافتراءهم او وما يفترونه من الافك فان فيما شاء الله تعالى حكما بالغة انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين وفيه من شدة الوعيد مالا يخفى (وقالوا) حكاية لنوع آخر من أنواع كفرهم (هذه) إشارة الى ماجعلوه لآلهتهم والتأنيث للخبر (أنعام وحرث حجر) أي حرام فعل بمعنى مفعول كالذبح يستوى فيه الواحد والكثير والذكر والانثى لان أصله المصدر ولذلك وقع صفة لانعام وحرث وقرىء حجر بالضم وبضمتين وحرج أي ضيق وأصله حرج وقيل هو مقلوب من حجر (لا يطعمها الا من نشاء) يعنون خدم الاوثان من الرجال دون النساء والجملة صفة اخرى لانعام متعلق بمحذوف هو حال من فاعل قالوا أي قالوه ملتبسين بزعمهم الباطل من غير حجة (وأنعام) خبر مبتدا محذوف والجملة معطوفة على قوله تعالى هذه أنعام الخ أى قالوا مشيرين الى طائفة أخرى من أنعامهم وهذه أنعام (حرمت ظهورها) يعنون بها البحائر والسوائب والحوامى (وأنعام) أي وهذه أنعام كما مر وقوله تعالى (لايذكرون اسم الله عليها) صفة لانعام لكنه غير واقع فى كلامهم المحكى كنظائره بل مسوق من جهته تعالى تعيينا للموصوف وتمييزا له عن غيره كما فى قوله تعالى «وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله» على أحد التفاسير كانه قيل وأنعام ذبحت على الأصنام فانها التى لايذكر عليها اسم الله وانما يذكر عليها اسم الأصنام وقيل لايحجون عليها فان الحج لايعرى عن ذكر الله تعالى وقال مجاهد كانت لهم طائفة من أنعامهم لايذكرون اسم الله عليها ولا فى شيء من شأنها لا ان ركبوا ولا ان حلبوا ولا ان نتجوا ولا ان باعوا ولا ان حملوا (افتراء عليه) نصب على المصدر اما على أن ماقالوه تقول على الله تعالى واما على تقدير عامل من لفظه أى افتراء والجار متعلق بقالوا أو بافتروا المقدر أو بمحذوف هو صفة له لا بافتراء لان المصدر المؤكد لايعمل أو على الحال من فاعل قالوا أى مفترين أو على العلة أى للافتراء فالجار متعلق به (سيجزيهم بما كانوا يفترون) أي بسببه أو بدله وفى ابهام الجزاء من التهويل مالا يخفى (وقالوا) حكاية لنوع آخر من فنون كفرهم (مافى بطون هذه الانعام) يعنون به أجنة البحائر والسوائب (خالصة لذكورنا) حلال لهم خاصة والتاء للنقل الى الاسمية أو للمبالغة أو لان الخالصة مصدر كالعافية وقع موقع الخالص مبالغة أو بحذف المضاف أى ذو خالصة أو للتأنيث بناء على أن ما عبارة عن الاجنة والتذكير فى قوله تعالى (ومحرم على أزواجنا)

أي جنس أزواجنا وهن الأناث باعتبار اللفظ وفيه كما ترى حمل للنظم الكريم على خلاف المعهود الذي هو الحمل على اللفظ أولا وعلى المعنى ثانيا كما فى قوله تعالى «ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم» الخ ونظائره وأما العكس فقد قالوا أنه لا نظير له فى القرآن وهذا الحكم منهم ان ولد ذلك حيا وهو الظاهر المعتاد (وان يكن ميتة) أى ان ولدت ميتة (فهم) أى الذكور والأناث (فيه) أى فيما فى بطون الانعام وقيل المراد بالميتة مايعم الذكر والانثى فغلب الاول على الثانى (شركاء) يأكلون منه جميعا وقرئ خالصة بالنصب على أنه مصدر مؤكد والخبر لذكورنا أوحال من الضمير الذي فى الظرف لامن الذى فى ذكورنا ولا من الذكور لانه لا يتقدم على العامل المعنوى ولا على صاحبه المجرور وقرئ خالصة بالرفع والاضافة الى الضمير على أنه بدل من ما أو مبتدأ ثان (سيجزيهم وصفهم) أى جزاء وصفهم الكذب على الله تعالى فى أمر التحليل والتحريم من قوله تعالى وتصف ألسنتهم الكذب (انه حكيم عليم) تعليل للوعيد بالجزاء فان الحكيم العليم بما صدر عنهم لايكاد يترك جزاءهم الذى هو من مقتضيات الحكمة (قد خسر الذين قتلوا أولادهم) جواب قسم محذوف وقريء بالتشديد وهم ربيعة ومضر وأضرابهم من العرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر أى خسروا دينهم ودنياهم (سفها بغير علم) متعلق بقتلوا على أنه علة له أى لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله هو الرزاق لهم ولأولادهم أو نصب على الحال ويؤيده أنه قريء سفهاء أو مصدر (وحرموا مارزقهم الله) من البحائر والسوائب ونحوهما (افتراء على الله) نصب على أحد الوجوه المذكورة واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لاظهار كمال عتوهم وطغيانهم (قد ضلوا) عن الطريق المستقيم (وما كانوا مهتدين) اليه وان هدوا بفنون الهدايات أو وما كانوا مهتدين من الأصل لسوء سيرتهم فالجملة حينئذ اعتراض وعلى الأول عطف على ضلوا (وهو الذى أنشأ جنات معروشات) تمهيد لما سيأتى من تفصيل أحوال الأنعام أى هو الذى أنشأهن من غير شركة لاحد فى ذلك بوجه من الوجوه والمعروشات من الكروم المرفوعات على مايحملها (وغير معروشات) وهن الملقيات على وجه الارض وقيل المعروشات ماغرسه الناس وعرشوه وغير المعروشات مانبت فى البوادى والجبال (والنخل والزرع) عطف على جنات أي أنشأهما (مختلفا أكله) وقريء أكله بسكون الكاف أى ثمره الذى يؤكل فى الهيئة والكيفية والضمير اما للنخل والزرع داخل فى حكمه أو للزرع والباقى مقيس عليه أو للجميع على تقدير أكل ذلك أوكل واحد منهما ومختلفا حال مقدرة اذ ليس كذلك

وقت الانشاء (والزيتون والرمان) أى أنشأهما وقوله تعالى (متشابها وغير متشابه) نصب على الحالية أى يتشابه بعض أفرادهما فى اللون والهيئة أو الطعم ولا يتشابه بعضها (كلوا من ثمره) أي من ثمر كل واحد من ذلك (اذا أثمر) وان لم يدرك ولم يينع بعد وقيل فائدته رخصة المالك فى الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) أريد به ما كان يتصدق به يوم الحصاد بطريق الوجوب من غير تعيين المقدار لا الزكاة المقدرة فانها فرضت بالمدينة والسورة مكية وقيل الزكاة والآية مدنية والأمر بأيتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يؤخر عن وقت الأداء وليعلم أن الوجوب بالادراك لا بالتصفية وقرئ يوم حصاده بكسر الحاء وهو لغة فيه (ولا تسرفوا) أي فى التصدق كما روى عن ثابت بن قيس أنه صرم خمسمائة نخلة ففرق ثمرها كلها ولم يدخل منه شيئاً الى منزله كقوله تعالى ولا تبسطها كل البسط الآية (انه لا يحب المسرفين) أى لا يرتضى إسرافهم (ومن الأنعام حمولة وفرشا) شروع فى تفصيل حال الأنعام وابطال ماتقولوا على الله تعالى فى شأنها بالتحريم والتحليل وهو عطف على مفعول أنشأ ومن متعلقة به أى وأنشأ من الأنعام مايحمل عليه الاثقال وما يفرش للذبح أو مايفرش المصنوع من شعره وصوفه ووبره وقيل الكبار الصالحة للحمل والصغار الدانية من الأرض كأنها فرش مفروش عليها (كلوا مما رزقكم الله) ماعبارة عما ذكر من الحمولة والفرش ومن تبعيضية أى كلوا بعض مارزقكم الله تعالى أي حلاله . وفيه تصريح بأن إنشاءها لأجلهم ومصلحتهم (ولا تتبعوا) فى أمر التحليل والتحريم بتقليد أسلافكم المجازفين فى ذلك من تلقاء أنفسهم المفترين على الله سبحانه (خطوات الشيطان) فان ذلك منهم باغوائه واستتباعه اياهم (انه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة (ثمانية أزواج) الزوج مامعه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل والمراد بها الأنواع الأربعة وايرادها بهذا العنوان وهذا العدد تمهيد لما سيق له الكلام من الانكار المتعلق بتحريم كل واحد من الذكر والأنثى وبما فى بطنها وهو بدل من حمولة وفرشا منصوب بما نصبهما وجعله مفعولا لكلوا على أن قوله تعالى ولا تتبعوا الآية معترض بينهما أو حالا من ما بمعنى مختلفة أو متعددة يأباه جزالة النظم الكريم لظهور انه مسوق لتوضيح حال الأنعام بتفصيلها اولا إلى حمولة وفرش ثم بتفصيلها إلى ثمانية ازواج حاصلة من تفصيل الأولى إلى الأبل والبقر وتفصيل الثانى إلى الضأن والمعز ثم تفصيل كل من الأقسام الأربعة إلى الذكر والانثى كل ذلك لتحرير المواد

التي تقولوا فيها عليه سبحانه و تعالى بالتحليل والتحريم ثم تبكيتهم باظهار كذبهم وافترائهم في كل مادة من تلك المواد بتوجيه الانكار اليها مفصلة واثنين في قوله سبحانه و تعالى (من الضأن اثنين) بدل من ثمانية أزواج منصوب بناصبه وهو العامل في من أي انشأ من الضأن زوجين الكبش والنعجة وقرئ اثنان على الابتداء والضأن اسم جنس كالابل وجمعه ضئين كأمير أو جمع ضائن كتاجر وتجر . و قرئ بفتح الهمزة (ومن المعز اثنين) عطف على مثله شريك له في حكمه أي وانشأ من المعز زوجين التيس والعنز وقرئ بفتح العين وهو جمع ماعز كصاحب وصحب وحارس وحرس وقرئ ومن المعزى وهذه الازواج الاربعة تفصيل للفرش ولعل تقديمها في التفصيل مع تأخر أصلها في الأجمال لكون هذين النوعين عرضة للاكل الذي هو معظم ما يتعلق به الحل والحرمة وهو السر في الاقتصار على الأمر به في قوله تعالى « كلوا مما رزقكم الله » من غير تعرض للانتفاع بالحمل و الركوب وغير ذلك مما حرموه في السائبة وأخواتها (قل) تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تفصيل أنواع الأنعام التي أنشأها أي قل تبكيتاً لهم واظهاراً لانقطاعهم عن الجواب (آلذكرين) من ذينك النوعين وهما الكبش والتيس (حرم) أي الله عز وجل كما تزعمون أنه هو المحرم (أم الأنثيين) وهما النعجة والعنز ونصب آلذكرين و الأنثيين بحرم وهو مؤخر عنهما بحسب المعنى وان توسط بينهما صورة وكذا قوله تعالى (أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) أي أم ما حملت أناث النوعين حرم ذكراً كان أو انثى وقوله تعالى (نبئوني بعلم) الخ تكرير للالزام وتثنية للتبكيت و الافحام أي أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى من الكتاب أو أخبار الأنبياء يدل على أنه تعالى حرم شيئاً مما ذكر أو نبئوني تنبئة ملتبسة بعلم صادرة عنه (ان كنتم صادقين) أي في دعوى التحريم عليه سبحانه وقوله تعالى (ومن الأبل اثنين) عطف على قوله تعالى « من الضأن اثنين » أي و أنشأ من الابل اثنين هما الجمل والناقة (ومن البقر اثنين) ذكراً وأنثى (قل) إفحاما لهم في أمر هذين النوعين أيضاً (آلذكرين) منهما (حرم ام الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين) من ذينك النوعين والمعنى انكار أن الله سبحانه حرم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة واظهار كذبهم في ذلك وتفصيل ماذكر من الذكور والاناث وما في بطونها للمبالغة في الرد عليهم بايراد الانكار على كل مادة من مواد افترائهم فانهم كانوا يحرمون ذكور الانعام تارة و أناثها تارة وأولادها كيفما كانت تارة أخرى مسندين ذلك كله الى الله سبحانه. وانما عقب تفصيل كل واحد من نوعى الصغار ونوعى الكبار

بما ذكر من الأمر بالاستفهام والانكار مع حصول التبكيت بايراد الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة بان يقال قل آلذكور حرم أم الأناث أم ما اشتملت عليه أرحام الاناث لما في التثنية والتكرير من المبالغة في التبكيت والالزام وقوله تعالى (أم كنتم شهداء) تكرير للافحام كقوله تعالى «نبؤني بعلم» وام منقطعة ومعنى الهمزة الانكار والتوبيخ ومعنى بل الاضراب عن التوبيخ بما ذكر الى التوبيخ بوجه آخر أي بل أكنتم حاضرين مشاهدين (إذ وصاكم الله بهذا) أي حين وصاكم بهذا التحريم اذ أنتم لا تؤمنون بنبي فلا طريق لكم حسبما يقود اليه مذهبكم الى معرفة أمثال ذلك الا المشاهدة والسماع وفيه من تركيك عقولهم والتهكم بهم ما لا يخفى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) فنسب اليه تحريم مالم يحرم والمراد كبراؤهم المقررون لذلك أو عمرو بن لحي بن قمعة وهو المؤسس لهذا الشر أو الكل لاشتراكهم في الافتراء عليه سبحانه وتعالى أي فأي فريق أظلم من فريق افتروا الخ ولا يقدح في أظلمية الكل كون بعضهم مخترعين له وبعضهم مقتدين بهم والفاء لترتيب ما بعدها على ماسبق من تبكيتهم واظهار كذبهم وافترائهم أي هو أظلم من كل ظالم وان كان المنفي صريحا الأظلمية دون المساواة كما مر غير مرة (ليضل الناس) متعلق بالافتراء (بغير علم) متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل افترى أي افترى عليه تعالى جاهلا بصدور التحريم عنه تعالى وانما وصفوا بعدم العلم بذلك مع أنهم عالمون بعدم صدوره عنه تعالى ايذانا بخروجهم في الظلم عن الحدود والنهايات فان من افترى عليه بغير علم بصدوره عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه اذا كان أظلم من كل ظالم فما ظنك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنه لم يصدر عنه ويجوز أن يكون حالا من فاعل يضل أي ملتبسا بغير علم بما يؤدي بهم اليه (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) كائنا من كان الى ما فيه صلاح حالهم عاجلا أو آجلا واذا كان هذا حال المتصفين بالظلم في الجملة فما ظنك بمن هو في أقصى غاياته (قل) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الزام المشركين وتبكيتهم وبيان أن ما يقولونه في أمر التحريم افتراء بحت لا أصل له قطعا بأن يبين لهم ما حرمه عليهم وفي قوله تعالى (لا أجد فيما أوحي إلي محرما) ايذان بأن مناط الحل والحرمة هو الوحي وانه صلى الله عليه وسلم قد تتبع جميع ما أوحي اليه وتفحص عن المحرمات فلم يجد غير ما فصل وفيه مبالغة في بيان انحصارها في ذلك ومحرما صفة لمحذوف أي لا أجد ريثما تصفحت ما أوحي الي طعاما محرما من المطاعم التي حرموها على طاعم أي طاعم كان من ذكر وأنثى ردا على قولهم محرم على أزواجنا وقوله تعالى (يطعمه) لزيادة التقرير (الا أن يكون) أي ذلك الطعام (ميتة) وقرئ تكون بالتاء لتأنيث الخبر وقرئ ميتة بالرفع على ان كان تامة وقوله

تعالى (أودما مسفوحا) حينئذ عطف على أن مع مافى حيزه أى إلا وجود ميتة أو دما مسفوحا أى مصبوبا كالدماء التى فى العروق لا كالطحال والكبد (أو لحم خنزير فانه) أى الخنزير (رجس) أى لحمه قذر لتعوده أكل النجاسات أو خبيث (أو فسقا) عطف على لحم خنزير وما بينهما اعتراض مقرر لحرمته (أهل لغير الله به) صفة له موضحة أى ذبح على اسم الاصنام و انما سمى ذلك فسقا لتوغله فى الفسق و يجوز أن يكون فسقا مفعولا له لاهل و هو عطف على يكون والمستكن راجع الى مارجع اليه المستكن فى يكون (فمن اضطر) اى اصابته الضرورة الداعية الى اكل الميتة بوجه من الوجوه المضطرة (غير باغ) فى ذلك على مضطر آخر مثله (ولا عاد) قدر الضرورة (فإن ربك غفور رحيم) مبالغ فى المغفرة و الرحمة لايؤاخذه بذلك و ليس التقييد بالحال الاولى لبيان انه لو لم يوجد القيد لتحققت الحرمة المبحوث عنها بل للتحذير من حرام آخر هو أخذه حق مضطر آخر فان من أخذ لحم الميتة من يد مضطر آخر فأكله فان حرمته ليست باعتبار كونه لحم الميتة بل باعتبار كونه حقا للمضطر الآخر واما الحال الثانية فلتحقيق زوال الحرمة المبحوث عنها قطعا فان التجاوز عن القدر الذى يسد به الرمق حرام من حيث انه لحم الميتة. و فى التعرض لوصف المغفرة و الرحمة ايذان بالمعصية باقية لكنه تعالى يغفر له و يرحمه و الآية محكمة لانها تدل على انه صلى الله عليه وسلم لم يجد فيما أوحى اليه الى تلك الغاية غيره ولا ينافيه ورود التحريم بعد ذلك فى شيء آخر فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد ولا على حل اشياء التى هى غيرها الا مع الاستصحاب (وعلى الذين هادوا) خاصة لاعلى من عداهم من الاولين والآخرين (حرمنا كل ذى ظفر) أى كل ماله اصبع من الابل و السباع والطيور وقيل كل ذى مخلب وحافر وسمى الحافر ظفرا مجازا والمسبب عن الظلم هو تعميم التحريم حيث كان بعض ذوات الظفر حلالا لهم فلما ظلموا عم التحريم كلها وهذا تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بأبطال ماخالفه من فرية اليهود و تكذيبهم فى ذلك فانهم كانوا يقولون لسنا أول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح و ابراهيم و من بعدهما حتى انتهى الامر الينا (ومن البقر و الغنم حرمنا عليهم شحومهما) لالحومهما فانها باقية على الحل و الشحوم الثروب وشحوم الكلى والاضافة لزيادة الربط (الا ماحملت ظهورهما) استثناء من الشحوم مخرج لما علق من الشحم بظهورهما عن حكم التحريم (أو الحوايا) عطف على ظهورهما أى ماحملته الحوايا وهى جمع حاوية أو حاوياء كقاصعاء وقواصع أو حوية كسفينة وسفائن (أو ما اختلط بعظم) عطف على ماحملت وهو شحم

الأليه واختلاطه بالعظم اتصاله بعجب الذنب وقيل هو كل شحم متصل بالعظم من الاضلاع وغيرها (ذلك) اشارة الى الجزاء أو التحريم فهو على الاول نصب على أنه مصدر مؤكد لما بعده وعلى الثانى أنه مفعول ثان له أى ذلك التحريم (جزيناهم ببغيهم) بسبب ظلمهم وهو قتلهم الأنبياء بغير حق وأكلهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل كقوله تعالى «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم» وكانوا كلما أتوا بمعصية عوقبوا بتحريم شيء مما أحل لهم وهم ينكرون ذلك ويدعون أنها لم تزل محرمة على الامم فرد ذلك عليهم وأكد بقوله تعالى (وانا لصادقون) أى فى جميع أخبارنا التى من جملتها هذا الخبر ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى «كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ماحرم أسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين» روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يجسروا ان يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها جميع مايحذرون أوضح بيان (فان كذبوك) قيل الضمير لليهود لانهم أقرب ذكرا ولذكر المشركين بعد ذلك بعنوان الاشراك وقيل للمشركين فالمعنى على الاول ان كذبتك اليهود فى الحكم المذكور وأصروا على ما كانوا عليه من ادعاء قدم التحريم (فقل) لهم (ربكم ذو رحمة واسعة) لايؤاخذكم بكل ماتأتونه من المعاصى ويمهلكم على بعضها (ولا يرد بأسه) بالكلية (عن القوم المجرمين) فلا تنكروا ماوقع منه تعالى من تحريم بعض الطيبات عليكم عقوبة وتشديدا وعلى الثانى فان كذبك المشركون فيما فصل من أحكام التحليل والتحريم فقل لهم ربكم ذو رحمة واسعة لايعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم فلاتغتروا بذلك فانه أمهال لا أهمال وقيل ذو رحمة للمطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فأقيم مقامه قوله تعالى ولا يرد بأسه الخ لتضمنه التنبيه على انزال البأس عليهم مع الدلالة على انه لاحق بهم ألبتة من غير صارف يصرفه عنهم أصلا (سيقول الذين أشركوا) حكاية لفن آخر من كفرهم وأخبار ه قبل وقوعه ثم وقوعه حسبما أخبر به كما يحكيه قوله تعالى عند وقوعه «وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء» صريح فى انه من الله تعالى (لو شاء الله ما أشركنا) اى لو شاء خلاف ذلك مشيئة ارتضاء لما فعلنا الأشراك نحن (ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) ارادوا به ان مافعلوه حق مرضى عند الله تعالى لا الاعتذار من ارتكاب هذه القبائح بأرادة الله تعالى اياها منهم حتى ينتهض ذمهم به دليلا للمعتزلة ألا يرى الى قوله تعالى (كذلك كذب الذين من قبلهم) اى مثل ما كذبك هؤلاء فى انه تعالى منع من الشرك ولم يحرم ماحرموه كذب متقدموهم الرسل فانه صريح فيما

قلنا وعطف آباؤنا على الضمير للفصل بلا (حتى ذاقوا بأسنا) الذى أنزلنا عليهم بتكذيبهم (قل هل عندكم من علم) من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم (فتخرجوه لنا) اى فتظهروه لنا (ان تتبعون الا الظن) اي ماتتبعون فى ذلك الا الظن الباطل الذي لا يغنى من الحق شيئا (وان انتم الا تخرصون) تكذبون على الله عز وجل وليس فيه دلالة على المنع من اتباع الظن على الاطلاق بل فيما يعارضه قطعى (قل فلله الحجة البالغة) الفاء جواب شرط محذوف أي وأذ قد ظهر ان لا حجة لكم فلله الحجة البالغة أى البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والثبات أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه والمراد بها الكتاب والرسول والبيان وهى من الحج بمعنى القصد كأنها تقصد اثبات الحكم و تطلبه (فلو شاء) هدايتكم جميعا (لهدا كم أجمعين) بالتوفيق لها والحمل عليها ولكن لم يشأ هداية الكل بل هداية البعض الصارفين هممهم الى سلوك طريق الحق وضلال آخرين صرفوا اختيارهم الى خلاف ذلك من غير صارف يلويهم و لا عاطف يثنيهم (قل هلم شهداءكم) أى أحضروهم وهو اسم فعل لا ينصرف على لغة أهل الحجاز وفعل يؤنث ويجمع على لغة بنى تميم على رأي الجمهور وقد خالفهم البعض فى فعليته وليس بشيء وأصله عند البصريين هالم من لم اذا قصد حذفت الألف لتقدير السكون فى اللام فانه الاصل وعند الكوفيين هل أم حذفت الهمزة بالقاء حركتها على اللام وهو بعيد لان هل لاتدخل الامر ويكون متعديا كما فى الآية ولازما كما فى قوله تعالى « هلم الينا » (الذين يشهدون أن الله حرم هذا) وهم قدوتهم الذين ينصرون قولهم وانما أمروا باستحضارهم ليلزمهم الحجة ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم وأنه لا متمسك لهم كمن يقلدهم ولذلك قيد الشهداء بالاضافة ووصفوا بما يدل على أنهم شهداء معروفون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم (فان شهدوا) بعدما حضروا بأن الله حرم هذا (فلا تشهد معهم) أى فلا تصدقهم فانه كذب بحت وافتراء صرف وبين لهم فساده فان تسليمه موافقة لهم فى الشهادات الباطلة (ولاتتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) من وضع المظهر مقام المضمر للدلالة على أن من كذب بآيات الله تعالى وعدل به غيره فهو متبع للهوى لا غير وأن من اتبع الحجة لا يكون الا مصدقا بها (والذين لا يؤمنون بالآخرة) كعبدة الأوثان عطف على الموصول الاول بطريق عطف الصفة على الصفة مع اتحاد الموصوف كما فى قوله :

الى الماجد القرم وابن الهمام ... وليث الكتائب فى المزدحم

فان من يكذب بآياته تعالى لا يؤمن بالآخرة وبالعكس (وهم بربهم يعدلون) أي

يجعلون له عديلا عطف على لا يؤمنون والمعنى لاتتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله و بين الكفر بالآخرة و بين الاشراك به سبحانه لكن لا على أن يكون مدار النهي الجمع المذكور بل على أن أولئك جامعون لها متصفون بكلها (قل تعالوا) لماظهر بطلان ماادعوا من أن اشراكهم واشراك آبائهم وتحريم ماحرموه بأمر الله تعالى ومشيئته بظهور عجزهم عن اخراج شيء يتمسك به فى ذلك واحضار شهداء يشهدون بما ادعوا فى أمر التحريم بعدما كلفوه مرة بعد أخرى عجزا بينا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين لهم من المحرمات مايقتضى الحال بيانه على الاسلوب الحكيم إيذانا بأن حقهم الاجتناب عن هذه المحرمات وأما الاطعمة المحرمة فقد بينت بقوله تعالى قل لاأجد الآية وتعال أمر من التعالى والاصل فيه أن يقوله من فى مكان عال لمن هو فى أسفل منه ثم اتسع فيه بالتعميم كما أن الغنيمة فى الأصل أصابة الغنم من العدو ثم استعملت فى أصابة كل مايصاب منهم اتساعا ثم فى الفوز بكل مطلب من غير مشقة (أتل) جواب الأمر وقوله تعالى (ماحرم ربكم) منصوب به على أن ماموصولة والعائد محذوف أى اقرأ الذى حرمه ربكم أي الآيات المشتملة عليه أومصدرية أى الآيات المشتملة على تحريمه او يحرم على انها استفهامية والجملة مفعول لأتل لان التلاوة من باب القول كانه قيل أقل أي شئ حرم ربكم (عليكم) متعلق بحرم على كل حال وقيل بأتل والاول أنسب بمقام الاعتناء بايجاب الانتهاء عن المحرمات المذكورة وهو السر فى التعرض لعنوان الربوبية مع الأضافة الى ضميرهم فان تذكير كونه تعالى ربا لهم ومالكا لامرهم على الاطلاق من أقوى الدواعى الى انتهائهم عما نهاهم عنه أشد انتهاء وأن فى قوله تعالى (أن لاتشركوا به) مفسرة لفعل التلاوة المعلق بما حرم ولا ناهية كما ينبئ عنه عطف مابعده من الأوامر والنواهى عليه وليس من ضرورة كون المعطوف عليه تفسير التلاوة المحرمات بحسب منطوقه كون المعطوفات أيضاً كذلك حتى يمتنع انتظام الأوامر فى سلك العطف عليه بل يكفى فى ذلك كونها تفسيراً لها باعتبار لوازمها التى هى النواهى المتعلقة باضداد ماتعلقت هى به فان الأمر بالشيء مستلزم للنهى عن ضده بل هو عينه عند البعض كأن الأوامر ذكرت وقصد لوازمها فان عطف الأوامر على النواهى الواقعة بعد ان المفسرة لتلاوة المحرمات مع القطع بأن المأمور به لايكون محرما دليل واضح على أن التحريم راجع إلى الاضداد على الوجه المذكور فكأنه قيل اتل ماحرم ربكم أن لاتشركوا ولا تسيئوا الى الوالدين خلا انه قد اخرج مخرج الأمر بالاحسان اليهما بين النهيين

المكتفين له للمبالغة فى إيجاب مراعاة حقوقهما فان مجرد ترك الاساءة اليهما غير كاف فى قضاء حقوقهما ولذلك عقب به النهى عن الاشراك الذى هو اعظم المحرمات واكبر الكبائر ههنا وفى سائر المواقع وقيل ان ناصبة ومحلها النصب بعليكم على انه للاغراء وقيل النصب على البدلية مما حرم وقيل من عائدها المحذوف على ان لا زائدة وقيل الجر بتقدير اللام وقيل الرفع بتقدير المتلو ان لاتشركوا او المحرم ان لاتشركوا بزيادة لا وقيل والذى عليه التعويل هو الأول لامور من جملتها ان فى اخراج المفسر على صورة النهى مبالغة فى بيان التحريم وقوله تعالى (شيأ) نصب على المصدرية أو المفعولية أى لاتشركوا به شيئاً من الاشراك أو شيئاً من الأشياء (وبالوالدين) أى وأحسنوا بهما (احسانا) وقدم تحقيقه (ولا تقتلوا أولادكم) تكليف متعلق بحقوق الاولاد عقب به التكليف المتعلق بحقوق الوالدين أى لاتقتلوهم بالوأد (من املاق) أى من أجل فقر كما فى قوله تعالى خشية إملاق وقيل هذا فى الفقر الناجز وذا فى المتوقع وقوله تعالى (نحن نرزقكم واياهم) استئناف مسوق لتعليل النهى وإبطال سببية ما اتخذوه سببا لمباشرة المنهى عنه وضمان منه تعالى لأرزاقهم أى نحن نرزق الفريقين لا أنتم فلا تخافوا الفقر بناء على عجزكم عن تحصيل الرزق وقوله تعالى (ولا تقربوا الفواحش) كقوله تعالى «ولا تقربوا الزنا أنه كان فاحشة» الآية الا أنه جيء ههنا بصيغة الجمع قصدا الى النهى عن أنواعها ولذلك أبدل عنها قوله تعالى (ماظهر منها وما بطن) أى ما يفعل منها علانية فى الحوانيت كما هو دأب أراذلهم وما يفعل سرا باتخاذ الأخدان كما هو عادة أشرافهم وتعليق النهى بقربانها إما للمبالغة فى الزجر عنها لقوة الدواعى اليها واما لان قربانها داع الى مباشرتها وتوسيط النهي عنها بين النهى عن قتل الأولاد والنهى عن القتل مطلقا كما وقع فى سورة بنى اسرائيل باعتبار أنها مع كونها فى نفسها جناية عظيمة فى حكم قتل الاولاد فان أولاد الزنا فى حكم الاموات وقد قال صلى الله عليه وسلم فى حق العزل «ذاك وأد خفى» ومن ههنا تبين أن حمل الفواحش على الكبائر مطلقا وتفسير ماظهر منها وما بطن بما فسر به ظاهر الأثم وباطنه فيما سلف من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) أى حرم قتلها بأن عصمها بالاسلام أو بالعهد فيخرج منها الحربى وقوله تعالى (الا بالحق) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى لاتقتلوها فى حال من الاحوال الا حال ملابستكم بالحق الذى هو أمر الشرع بقتلها وذلك بالكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان وقتل النفس المعصومة أو من أعم الاسباب أى لاتقتلوها بسبب من الاسباب الا بسبب الحق وهو ماذكر أو من أعم المصادر أى لاتقتلوها قتلا ما الا قتلا

كائنا بالحق وهو القتل بأحد الامور المذكورة (ذلكم) اشارة الى ماذكر من التكاليف الخمسة ومافي ذلك من معنى البعد للايذان بعلو طبقاتها من بين التكاليف الشرعية وهو مبتدأ وقوله تعالى (وصاكم به) أي أمركم به ربكم أمرا مؤكدا خبره والجملة استئناف جيء به تجديدا للعهد وتأكيدا لايجاب المحافظة على ما كلفوه ولما كانت الامور المنهى عنها مما تقضى بديهة العقول بقبحها فصلت الآية الكريمة بقوله تعالى (لعلكم تعقلون) أي تستعملون عقولكم التي تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة القبائح المذكورة (ولا تقربوا مال اليتيم) توجيه النهى الى قربانه لما مر من المبالغة في النهى عن أكله ولاخراج القربان النافع عن حكم النهى بطريق الاستثناء أي لاتتعرضوا له بوجه من الوجوه (الا بالتي هي أحسن) الا بالخصلة التي هي أحسن مايكون من الحفظ والتثمير ونحو ذلك والخطاب للأولياء والاوصياء لقوله تعالى (حتي يبلغ أشده) فانه غاية لما يفهم من الاستثناء لا للنهى كأنه قيل احفظوه حتى يصير بالغا رشيدا فحينئذ سلموه اليه كما في قوله تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم والأشد جمع شدة كنعمة وأنعم أو شد ككلاب وأكلب أو شد كصر وآصر وقيل هو مفرد كآنك (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) أي بالعدل والتسوية (لانكلف نفسا الا وسعها) الا مايسعها ولا يعسر عليها وهو اعتراض جيء به عقيب الامر بالعدل للايذان بان مراعاة العدل كما هو عسير كأنه قيل عليكم بما في وسعكم وما وراءه معفو عنكم (واذا قلتم) قولا في حكومة أو شهادة أو نحوها (فاعدلوا) فيه (ولو كان) أي المقول له او عليه (ذاقربى) أي ذاقرابة منكم ولا تميلوا نحوهم أصلا وقد مر تحقيق معنى لو في مثل هذا الموضع مرارا (وبعهد الله أوفوا) أي ماعهد اليكم من الأمور المعدودة أو أي عهد كان فيدخل فيه ماذكر دخولا أوليا أو ماعاهدتم الله عليه من الايمان والنذور وتقديمه للاعتناء بشأنه (ذلكم) أشار الى مافصل من التكاليف ومعنى البعد لما ذكر فيما قبل (وصاكم به) أمركم به أمرا مؤكدا (لعلكم تذكرون) تتذكرون مافي تضاعيفه وتعملون بمقتضاه وقرىء بتشديد الذال وهذه أحكام عشرة لا تختلف باختلاف الأمم والاعصار عن ابن عباس رضى الله عنهما هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب وهن محرمات على بنى آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار وعن كعب الاحبار والذى نفس كعب بيده ان هذه الآيات لأول شيء في التوراة بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا الآيات (وان هذا صراطى) إشارة الى ماذكر في الآيتين من الامر والنهى قاله مقاتل وقيل

الى ماذكر فى السورة فانها بأسرها فى إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة وقرىء صراطى بفتح الياء ومعنى اضافته الى ضميره عليه الصلاة والسلام انتسابه اليه عليه الصلاة والسلام من حيث السلوك لا من حيث الوضع كما فى صراط الله والمراد بيان أن مافصل من الأوامر والنواهى غير مختصة بالمتلو عليهم بل متعلقة به عليه الصلاة والسلام أيضا وأنه صلى الله عليه وسلم مستمر على العمل بها ومراعاتها وقوله تعالى (مستقيما) حال مؤكدة ومحل ان مع مافى حيزها الجر بحذف لام العلة أى ولأن هذا صراطى اى مسلكى مستقيما (فاتبعوه) كقوله تعالى «وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا» وتعليل اتباعه بكونه صراطه عليه الصلاة والسلام لا بكون صراط الله تعالى مع انه فى نفسه كذلك من حيث ان سلوكه صلى الله عليه وسلم فيه داع للخلق الى الاتباع إذ بذلك يتضح عندهم كونه صراط الله عز وجل وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف وقرىء أن هذا مخففة من أن على أن اسمها الذى هو ضمير الشأن محذوف وقرىء صراطى وقرىء هذا صراطى وقرىء وهذا صراط ربكم وهذا صراط ربك (ولا تتبعوا السبل) الأديان المختلفة أو طرق البدع والضلالات (فتفرق بكم) بحذف إحدى التاءين والباء للتعدية أى فتفرقكم حسب تفرقها أيادى سبا فهو كما ترى أبلغ من تفرقكم كما قيل من أن ذهب به لما فيه من الدلالة على الاستصحاب أبلغ من أذهبه (عن سبيله) أى سبيل الله الذى لاعوج فيه ولاحرج وهو دين الاسلام الذى ذكر بعض أحكامه وقيل هو اتباع الوحى واقتفاء البرهان وفيه تنبيه على أن صراطه عليه الصلاة والسلام عين سبيل الله تعالى (ذلكم) إشارة الى مامر من اتباع سبيله تعالى وترك اتباع سائر السبل (وصاكم به لعلكم تتقون) اتباع سبل الكفر والضلالة (ثم آتينا موسى الكتاب) كلام مسوق من جهته تعالى تقريرا للوصية وتحقيقا لها وتمهيدا لما يعقبه من ذكر أنزال القرآن المجيد كاينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات الى التكلم معطوف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كانه قيل بعد قوله تعالى ذلكم وصاكم به بطريق الاستئناف تصديقا له وتقرير المضمونه فعلنا ذلك ثم آتينا الخ كما أن قوله تعالى «ونطبع على قلوبهم» معطوف على مايدل عليه معنى أولم يهد الخ كانه قيل يغفلون عن الهداية ونطبع الخ وأما عطفه على ذلكم وصاكم به ونظمه معه فى سلك الكلام الملقن كما أجمع عليه الجمهور فمما لايليق بجزالة النظم الكريم فتدبر وثم للتراخى فى الأخبار كما فى قولك بلغنى ماصنعت اليوم ثم ماصنعت أمس أعجب أو للتفاوت فى الرتبة كانه قيل ذلكم وصاكم به قديما وحديثا ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى التوارة فان أيتاءها مشتملة على الوصية المذكورة وغيرها أعظم من التوصية

بهافقط (تماما) للكرامة والنعمة أى اتماما لها على انه مصدر من أتم بحذف الزوائد (على الذى أحسن) أى على من أحسن القيام به كائنا من كان ويؤيده أنه قرىء على الذين أحسنوا و تماما على المحسنين أو على الذى أحسن تبليغه وهو موسى عليه السلام أو تماما على ما أحسنه موسى عليه السلام أى أجاده من العلم والشرائع أى زيادة على علمه على وجه التتميم وقرىء بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف أى على الذى هو أحسن دين وأرضاه أو آتينا موسى الكتاب تماما أى تاما كاملا على أحسن ما يكون عليه الكتب (وتفصيلا لكل شيء) وبيانا مفصلا لكل ما يحتاج اليه فى الدين وهو عطف على تماما ونصبهما أما على العلية أو على المصدرية كما أشير اليه أو على الحالية وكذا قوله تعالى (وهدى ورحمة) وضمير (لعلهم) لبني اسرائيل المدلول عليهم بذكر موسى وإيتاء الكتاب والباء فى قوله تعالى (بلقاء ربهم) متعلقة بقوله تعالى (يؤمنون) قدمت عليه محافظة على الفواصل قال ابن عباس رضى الله عنهما كى يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعذاب (وهذا) أى الذى تليت عليكم أوامره ونواهيه أى القرآن (كتاب) عظيم الشأن لا يقادر قدره وقوله تعالى (أنزلناه مبارك) أي كثير المنافع دينا ودنيا صفتان لكتاب وتقديم وصف الانزال مع كونه غير صريح لأن الكلام مع منكريه أو خبران آخران لاسم الاشارة أى أنزلناه مشتملا على فنون الفوائد الدينية والدنيوية التى فصلت عليكم طائفة منها والفاء فى قوله تعالى (فاتبعوه) لترتيب ما بعدها على ماقبلها فان عظم شأن الكتاب فى نفسه وكونه منزلا من جنابه عز وجل مستتبعا للمنافع الدينية والدنيوية موجب لاتباعه أى إيجاب (واتقوا) مخالفته (لعلكم ترحمون) بواسطة اتباعه والعمل بموجبه (أن تقولوا) علة لانزلناه المدلول عليه بالمذكور لا لنفسه للزوم الفصل حينئذ بين العامل والمعمول بأجنبى هو مبارك وصفا كان أو خبرا أى انزلناه كذلك كراهة أن تقولوا يوم القيامة لو لم ننزله (انما أنزل الكتاب) الناطق بتلك الأحكام العامة لكل الأمم (على طائفتين) كائنتين (من قبلنا) وهما اليهود والنصارى وتخصيص الانزال بكتابيهما لأنهما اللذان اشتهرا حينئذ فيما بين الكتب السماوية بالاشتمال على الاحكام لاسيما الاحكام المذكورة (وان كنا) ان هى المخففة من أن واللام فارقة بينها وبين النافية وضمير الشأن محذوف ومرادهم بذلك دفع ما يرد عليهم من أن نزوله عليهما لا ينافى عموم أحكامه فلم تعملوا بأحكامه العامة أى وانه كنا (عن دراستهم لغافلين) لا ندرى ما فى كتابهم إذ لم يكن على لغتنا حتى نتلقى منه تلك الاحكام العامة ونحافظ عليها وان لم يكن منزلا علينا وبهذا تبين أن معذرتهم هذه مع أنهم غير مأمورين بما فى الكتابين لاشتمالها على الأحكام

المذكورة المتناولة لكافة الأمم كما أن قطع تلك المعذرة بانزال القرآن لاشتماله أيضا عليها لا على سائر الشرائع والأحكام فقط (أو تقولوا) عطف على تقولوا وقرىء كلاهما بالياء على الالتفات من خطاب فاتبعوه واتقوا (لو أنا أنزل علينا الكتاب) كما أنزل عليهم (لكنا أهدى منهم) الى الحق الذي هو المقصد الاقصى أو الى ما فى تضاعيفه من جلائل الاحكام والشرائع ودقائقها لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا ولذلك تلقفنا من فنون العلم كالقصص والأخبار والخطب والأشعار ونحو ذلك طرفا صالحا ونحن أميون وقوله تعالى (فقد جاءكم) متعلق بمحذوف ينبىء عنه الفاء الفصيحة اما معلل به أى لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم الخ واما شرط له أى ان صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم من كونكم أهدى من الطائفتين على تقدير نزول الكتاب عليكم فقد حصل ما فرضتم وجاءكم (بينة) وأى بينة أى حجة واضحة لا يكتنه كنهها وقوله تعالى (من ربكم) متعلق بجاءكم أو بمحذوف هو صفة لبينة أى بينة كائنة منه تعالى وأياما كان ففيه دلالة على فضلها الأضافى كما أن فى تنوينها التفخيمى دلالة على فضلها الذاتى وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم مزيد تأكيد لايجاب الاتباع (وهدى ورحمة) عطف على بينة وتنوينهما أيضا تفخيمى عبر عن القرآن بالبينة أيذانا بكمال تمكنهم من دراسته ثم بالهدى والرحمة تنبيها على أنه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم بل هو عين الهداية والرحمة (فمن أظلم) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان مجيء القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه أى واذا كان الامر كذلك فمن أظلم (ممن كذب بآيات الله) وضع الموصول موضع ضميرهم بطريق الالتفات تنصيصا على اتصافهم بما فى حيز الصلة واشعارا بعلة الحكم واسقاطا لهم عن رتبة الخطاب وعبر عما جاءهم بآيات الله تهويلا للأمر وتنبيها على أن تكذيب أى آية كانت من آيات الله تعالى كاف فى الاظلمية فما ظنك بتكذيب القرآن المنطوى على الكل والمعنى انكار أن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أو مساويا له وان لم يكن سبك التركيب متعرضا لأنكار المساواة ونفيها فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد به حتما بحكم العرف الفاشى والاستعمال المطرد أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل وقد مر مرارا (وصدف عنها) أي صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والأضلال (سنجزى الذين يصدفون) الناس (عن آياتنا) وعيد لهم ببيان جزاء أضلالهم بحيث يفهم منه جزاء ضلالهم أيضا ووضع الموصول موضع المضمر لتحقيق مناط الجزاء (سوء العذاب) أى

العذاب السيء الشديد النكاية (بما كانوا يصدفون) أي بسبب ما كانوا يفعلون الصدف والصرف على التجدد والاستمرار وهذا تصريح بما أشعر به اجراء الحكم على الموصول من علية مافي حيز الصلة له (هل ينظرون) استئناف مسوق لبيان أنه لا يتأتى منهم الايمان بانزال ماذكر من البينات والهدى وأنهم لا يرعوون عن التمادي في المكابرة واقتراح ماينافي الحكمة التشريعية من الآيات الملجئة وان الايمان عند اتيانها مما لا فائدة له أصلا مبالغة في التبليغ والانذار وازاحة العلل والاعذار أي ما ينتظرون (الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك) حسبما اقترحوا بقولهم لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا وبقولهم أو تأتي بالله والملائكة قبيلا وبقولهم لولا أنزل عليه ملك ونحو ذلك أو الا أن تأتيهم ملائكة العذاب أو يأتي أمر ربك بالعذاب والانتظار محمول على التمثيل كما سيجيء وقرئ يأتيهم بالياء لان تأنيث الملائكة غير حقيقي (أو يأتي بعض آيات ربك) أي غير ما ذكر كما اقترحوا بقولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ونحو ذلك من عظائم الآيات التي علقوا بها ايمانهم والتعبير عنها بالبعض للتهويل والتفخيم كما أن اضافة الآيات في الموضعين الى اسم الرب المنبيء عن المالكية الكلية لذلك واضافته الى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف وقيل المراد بالملائكة ملائكة الموت وباتيانه سبحانه وتعالى اتيان كل آياته بمعنى آيات القيامة والهلاك الكلي بقرينة مابعده من اتيان بعض آياته تعالى على أن المراد به أشراط الساعة التي هي الدخان ودابة الارض وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب والدجال وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام ونار تخرج من عدن كما نطق به الحديث الشريف المشهور وحيث لم يكن اتيان هذه الامور مما ينتظرونه كاتيان ما اقترحوه من الآيات فان تعليق ايمانهم باتيانها انتظار منهم له ظاهرا حمل الانتظار على التمثيل المبني على تشبيه حالهم في الاصرار على الكفر والتمادي في العناد الى أن تأتيهم تلك الأمور الهائلة التي لابد لهم من الايمان عند مشاهدتها ألبتة بحال المنتظرين لها وأنت خبير بأن النظم الكريم بسباقه المنبيء عن تماديهم في تكذيب آيات الله تعالى وعدم الاعتداد بها وسياقه الناطق بعدم نفع الايمان عند اتيان ماينتظرونه يستدعي أن يحمل ذلك على أمور هائلة مخصوصة بهم اما بأن تكون عبارة عما اقترحوه أو عن عقوبات مترتبة على جناياتهم كاتيان ملائكة العذاب وأتيان أمره تعالى بالعذاب وهو الأنسب لما سيأتي من قوله تعالى «قل انتظروا انا منتظرون» وأما حمله على ماذكر من أتيان ملائكة الموت واتيان كل آيات القيامة وظهور أشراط الساعة مع شمول إتيانها لكل بر وفاجر واشتمال غائلتها

على كل مؤمن وكافر فما لايساعده المقام على أن بعض أشراط الساعة ليس مما ينسد به باب الايمان والطاعة نعم يجوز حمل بعض الآيات فى قوله عز وجل (يوم يأتى بعض آيات ربك) على مايعم مقترحاتهم وغيرها من الدواهى العظام السالبة للاختيار الذى عليه يدور فلك التكليف فانه بمنزلة الكبرى من الشكل الأول فيتم التقريب عند وقوعها بدخول ماينتظرونه فى ذلك دخولا أوليا ويوم منصوب بقوله تعالى (لاينفع) فان امتناع عمل ما بعد لا فيما قبلها عند وقوعها جواب القسم وقرىء يوم بالرفع على الابتداء والخبر هو الجملة والعائد محذوف أى لاينفع فيه (نفساً) من النفوس (إيمانها) حينئذ لانكشاف الحال وكون الأمر عيانا ومدار قبول الايمان أن يكون بالغيب كقوله تعالى «فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا» وقرىء لاتنفع بالتاء الفوقانية لاكتساب الايمان من ملابسة المضاف اليه تأنيثا وقوله تعالي (لم تكن آمنت من قبل) أي من قبل إتيان بعض الآيات صفة لنفسا فصل بينهما بالفاعل لاشتماله على ضمير الموصوف ولاضير فيه لانه غير أجنبى منه لاشتراكهما فى العامل (أو كسبت فى إيمانها خيراً) عطف على آمنت بايراد الترديد على النفى المفيد لكفاية أحد النفيين فى عدم النفع والمعنى أنه لاينفع الايمان حينئذ نفسا لم تقدم ايمانها أو قدمته ولم تكسب فيه خيرا ومن ضرورته اشتراط النفع بتحقق الأمرين أي الايمان المقدم والخير المكسوب فيه معا بمعنى أن النافع هو تحققهما والايمان المؤخر لغو وتحصيل للحاصل لا أنه هو النافع وتحققهما شرط فى نفعه كما لو كان المقدم غير المؤخر بالذات فان قولك: لاينفع الصوم والصدقة من لم يؤمن قبلهما معناه أنهما ينفعانه عند وقوعهما بعد الايمان وقد استدل به أهل الاعتزال على عدم اعتبار الايمان المجرد عن الأعمال وليس بناهض ضرورة صحة حمله على نفى الترديد المستلزم لعمومه المفيد بمنطوقه لاشتراط عدم النفع بعدم الأمرين معا وبمفهومه لاشتراط النفع بتحقق أحدهما بطريق منع الخلو دون الانفصال الحقيقى فالمعنى أنه لاينفع الايمان حينئذ نفسا لم يصدر عنها من قبل أحد الامرين إما الايمان المجرد أو الخير المكسوب فيه فيتحقق النفع بأيهما كان حسبما تنطق به النصوص الكريمة من الآيات والأحاديث. وماقيل من أن عدم الايمان السابق مستلزم لعدم كسب الخير فيه بالضرورة فيكون ذكره تكرارا بلافائدة على أن الموجب للخلود فى النار هو العدم الأول من غير أن يكون للثانى دخل ما فى ذلك قطعا فيكون ذكره بصدد بيان مايوجب الخلود لغوا من الكلام لغو من الكلام مبنى على توهم أن المقصود بوصف النفس بالعدمين المذكورين مجرد بيان إيجابهما للخلود فيها وعدم نفع الايمان الحادث

فى أنجائها عنه وليس كذلك والا لكفى فى البيان أن يقال لاينفع نفسا ايمانها الحادث بل المقصد الأصلى من وصفها بذينك العدمين فى أثناء بيان عدم نفع ايمان الحادث تحقيق أن موجب النفع إحدى ملكتيهما أعنى الايمان السابق والخير المكسوب فيه بما ذكر من الطريقة والترغيب فى تحصيلهما فى ضمن التحذير من تركهما ولاسبيل الى أن يقال كما أن عدم الاول مستقل فى ايجاب الخلود فى النار فيلغو ذكر عدم الثانى كذلك وجوده مستقل فى ايجاب الخلاص عنها فيكون ذكر الثانى لغوا لما أنه قياس مع الفارق كيف لا والخلود فيها أمر لايتصور فيه تعدد العلل . وأما الخلاص عنها مع دخول الجنة فله مراتب بعضها مترتب على نفس الايمان وبعضها على فروعه المتفاوتة كما وكيفا وانما لم يقتصر على بيان مايوجب أصل النفع وهو الايمان السابق مع أنه هو المقابل لما لايوجبه أصلا أعنى الايمان الحادث بل قرن به مايوجب النفع الزائد أيضا ارشادا الى تحرى الأعلى وتنبيها على كفاية الادنى واقناطا للكفرة عما علقوا به أطماعهم الفارغة من أعمال البر التى عملوها فى الكفر من صلة الارحام واعتاق الرقاب وفك العناة واغاثة الملهوفين وقرى الأضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم ببيان أن كل ذلك لغو بحت لابتنائه على غير أساس حسبما نطق به قوله تعالى «والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح» الآية ونحو ذلك من النصوص الكريمة وأن الايمان الحادث كما لاينفعهم وحده لاينفعهم بانضمام أعمالهم السابقة واللاحقة ولك أن تقول المقصود بوصف النفس بما ذكر من العدمين التعريض بحال الكفرة فى تمردهم وتفريطهم فى كل واحد من الأمرين الواجبين عليهم وان كان وجوب أحدهما منوطا بالآخر كما فى قوله عز وجل «فلا صدق ولا صلى» تسجيلا بكمال طغيانهم وايذانا بتضاعف عقابهم لما تقرر من أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع فى حق المؤاخذة كما ينبىء عنه قوله تعالى «فويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة» اذا تحققت هذا وقفت على أن الآية الكريمة أحق بأن تكون حجة على المعتزلة من أن تكون حجة لهم . هذا وقد قيل إنها من باب اللف التقديرى أي لاينفع نفسا ايمانها ولا كسبها فى الايمان لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فيه وليس بواضح فان مبنى اللف التقديرى أن يكون المقدر من متممات الكلام ومقتضيات المقام قد ترك ذكره تعويلا على دلالة الملفوظ عليه واقتضائه اياه كما مر فى تفسير قوله عز وجل «ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا» فانه قد طوى فى المفصل ذكر حشر المؤمنين ثقة بانباء التفصيل عنه أعنى قوله تعالى «فاما الذين آمنوا» الآية ولا ريب فى ان ماقدر

ههنا ليس مما يستدعيه قوله تعالى «أو كسبت فى ايمانها خيرا» ولاهو من مقتضيات المقام لانه ليس مما وعدوه وعلقوه باتيان ماذكر من الآيات كالايمان حتى يرد عليهم ببيان عدم نفعه اذ ذاك على أن ذلك مشعر بأن لهم بعد ماأصابهم من الدواهى ماأصابهم بقاء على السلامة و زمانا يتأتى منهم الكسب والعمل فيه وفيه من الاخلال بمقام تهويل الخطب و تفظيع الحال مالا يخفى وقد أجيب عن الاستدلال بوجوه أخرى قصارى امرها اسقاط الآية الكريمة عن رتبة المعارضة للنصوص القطعية المتون القوية الدلالة على ماذكر من كفاية الايمان المجرد عن العمل فى الانجاء من العذاب الخالد ولو بعد اللتيا والتى لما تقرر من أن الظنى بمعزل من معارضة القطعى (قل) لهم بعد بيان حقيقة الحال على وجه التهديد (انتظروا) ماتنتظرونه من اتيان أحد الامور الثلاثة لتروا أى شيء تنتظرون (انا منتظرون) لذلك لنشاهد مايحل بكم من سوء العاقبة وفيه تأييد لكون المراد بما ينتظرونه اتيان ملائكة العذاب أو اتيان أمره تعالى بالعذاب كما أشير اليه وعدة ضمنية لرسول الله صلى الله عليه وسلم و المؤمنين بمعاينتهم لما يحيق بالكفرة من العقاب ولعل ذلك هو الذى شاهدوه يوم بدر والله سبحانه أعلم (ان الذين فرقوا دينهم) استئناف لبيان أحوال أهل الكتابين أثر بيان حال المشركين أى بددوه وبعضوه فتمسك بكل بعض منه فرقة منهم وقرىء فارقوا أى باينوا فان ترك بعضه وان كان بأخذ بعض آخر معه ترك للكل ومفارقة له (وكانوا شيعا) أى فرقا تشيع كل فرقة اماما لها قال عليه الصلاة والسلام «افترقت اليهود على إحدي وسبعين فرقة كلهم فى الهاوية الا واحدة وافترقت النصاري اثنتين وسبعين فرقة كلهم فى الهاوية الا واحدة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى الهاوية الا واحدة» واستثناء الواحدة من فرق كل من أهل الكتابين إنما هو بالنظر الى العصر الماضى قبل النسخ وأما بعده فالكل فى الهاوية وان اختلفت أسباب دخولهم فمعنى قوله تعالى (لست منهم فى شيء) لست من البحث عن تفرقهم والتعرض لمن يعاصرك منهم بالمناقشة والمؤاخذة وقيل من قتالهم فى شيء سوى تبليغ الرسالة واظهار شعائر الدين الحق الذى أمرت بالدعوة اليه فيكون منسوخا بآية السيف وقوله تعالي (انما أمرهم إلى الله) تعليل للنفى المذكور أى هو يتولى وحده أمر أولاهم وأخراهم ويدبره كيف يشاء حسبما تقتضيه الحكمة يؤاخذهم فى الدنيا متي شاء و يأمر بقتالهم اذا أراد . وقيل المفرقون أهل البدع والأهواء الزائغة من هذه الامة. ويرده أنه عليه الصلاة والسلام مأمور بمؤاخذتهم والاعتذار بأن معنى لست منهم فى شيء حينئذ أنت برىء منهم ومن مذهبهم وهم برآء منك يأباه التعليل

المذكور (ثم ينبئهم) أى يوم القيامة (بما كانوا يفعلون) عبر عن إظهاره بالتنبئة لما بينهما من الملابسة فى أنهما سببان للعلم تنبيها على أنهم كانوا جاهلين بحال مارتكبوه غافلين عن سوء عاقبته أى يظهر لهم على رءوس الاشهاد ويعلمهم أي شيء شنيع كانوا يفعلونه فى الدنيا على الاستمرار ويرتب عليه مايليق به من الجزاء وقوله تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) استئناف مبين لمقادير أجزية العاملين وقد صدر ببيان أجزية المحسنين المدلول عليهم بذكر أضدادهم قال عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهم يريد من عمل من المصدقين حسنة كتبت له عشر حسنات أي من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة من المؤمنين اذ لاحسنة بغير إيمان فله عشر حسنات أمثالها تفضلا من الله عز وجل وقرئ عشر بالتنوين وأمثالها بالرفع على الوصف وهذا أقل ماوعد من الأضعاف وقد جاء الوعد بسبعين وبسبعمائة وبغير حساب ولذلك قيل المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر فى العدد الخاص (ومن جاء بالسيئة) أى بأعمال السيئة كائنا من كان من العاملين (فلا يجزي الا مثلها) بحكم الوعد واحدة بواحدة (وهم لا يظلمون) بنقص الثواب وزيادة العقاب (قل انني هدانى ربى) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين لهم ماهو عليه من الدين الحق الذين يدعون أنهم عليه وقد فارقوه بالكلية . وتصدير الجملة بحرف التحقيق لاظهار كمال الاعتناء بمضمونها والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره صلى الله عليه وسلم لمزيد تشريفه أى قل لاولئك المفرقين أرشدنى ربى بالوحى وبما نصب فى الآفاق والأنفس من الآيات التكوينية (الى صراط مستقيم) موصل الى الحق وقوله تعالى (دينا) بدل من الى صراط فان محله النصب كما فى قوله تعالى «ويهديك صراطا مستقيما» أو مفعول لفعل مضمر يدل عليه المذكور (قيما) مصدر نعت به مبالغة والقياس قوما كعوض فأعل لأعلال فعله كالقيام وقرئ قيما وهو فيعل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من المستقيم باعتبار الزنة وان كان هو أبلغ منه باعتبار الصيغة (ملة ابراهيم) عطف بيان لدينا (حنيفا) حال من ابراهيم أي مائلا عن الاديان الباطلة وقوله تعالى (وما كان من المشركين) اعتراض مقرر لنزاهته عليه السلام عما عليه المفرقون لدينه من عقد وعمل أي ما كان منهم فى أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا صرح بذلك ردا على الذين يدعون أنهم على ملته عليه السلام من أهل مكة واليهود والمشركين بقولهم عزير ابن الله والنصارى المشركين بقولهم المسيح ابن الله (قل ان صلاتى ونسكى) أعيد الامر لما أن المأمور به متعلق بفروع

الشرائع وما سبق بأصولها أي عبادتي كلها وقيل وذبحي جمع بينه وبين الصلاة كما في قوله تعالى «فصل لربك وانحر» قيل صلاتي وحجي (ومحياي ومماتي) أي وما أنا عليه في حياتي وما أكون عليه عند موتي من الايمان والطاعة أو طاعات الحياة والخيرات المضافة الى الممات كالوصية والتدبير وقرىء محياي بسكون الياء أجراء للوصل مجرى الوقف (لله رب العالمين لاشريك له) خالصة له لاأشرك فيها غيره (وبذلك) اشارة الى الاخلاص وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبته وبعد منزلته في الفضل أي بذلك الاخلاص (امرت) لابشيء غيره وقوله تعالى (وأنا أول المسلمين) لبيان مسارعته عليه السلام الى الامتثال بما أمر به وان ماأمر به ليس من خصائصه عليه السلام بل الكل مأمورون به ويقتدي به عليه السلام من أسلم منهم (قل أغير الله أبغي ربا) آخر فاشركه في العبادة (وهو رب كل شيء) جملة حالية مؤكدة للانكار أي والحال أن كل ماسواه مربوب له مثلي فكيف يتصور أن يكون شريكا له في المعبودية (ولا تكسب كل نفس الا عليها) كانوا يقولون للمسلمين اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم اما بمعنى ليكتب علينا ما عملتم من الخطايا لاعليكم واما بمعنى لنحمل يوم القيامة ماكتب عليكم من الخطايا فهذا رد له بالمعني الاول أي لا تكون جناية نفس من النفوس الا عليها ومحال أن يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر حتى يتأتى ماذكرتم وقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) رد له بالمعنى الثاني أي لا تحمل يومئذ نفس حاملة حمل نفس أخرى حتى يصح قولكم (ثم الى ربكم مرجعكم) تلوين للخطاب وتوجيه له الى الكل لتأكيد الوعد وتشديد الوعيد أي الى مالك أموركم رجوعكم يوم القيامة (فينبئكم) يومئذ (بما كنتم فيه تختلفون) ببيان الرشد من الغي وتمييز الحق من الباطل (وهو الذي جعلكم خلائف الارض) حيث خلفتم الأمم السالفة أو يخلف بعضكم بعضا أو جعلكم خلفاء الله تعالى في أرضه تتصرفون فيها على أن الخطاب عام (ورفع بعضكم) في الشرف والغنى (فوق بعض درجات) كثيرة متفاوتة (ليبلوكم فيما آتاكم) من المال والجاه أي ليعاملكم معاملة من يبتليكم لينظر ماذا تعملون من الشكر وضده (ان ربك) تجريد الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع اضافة اسم الرب الى ضميره عليه الصلاة والسلام لابراز مزيد اللطف به عليه السلام (سريع العقاب) أي عقابه سريع الاتيان لمن لم يراع حقوق ما آتاه الله تعالى ولم يشكره لان كل آت قريب أو سريع التمام عند ارادته لتعاليه عن استعمال المبادي والآلات (وانه لغفور رحيم) لمن راعاها كما ينبغي وفي جعل خبر هذه الجملة من الصفات الذاتية الواردة

على بناء المبالغة مؤكدا باللام مع جعل خبر الاولى صفة جارية على غير من هى له من التنبيه على أنه تعالى غفور رحيم بالذات مبالغ فيهما فاعل للعقوبة بالعرض مسامح فيها مالا يخفى والله أعلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنزلت على سورة الانعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الانعام صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الانعام يوما وليلة» والله تعالى أعلم

سورة الاعراف مكية

غير ثمان آيات من قوله واسألهم الى قوله واذ نتقنا الجبل وآيها مائتان وخمس

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(المص) اما مسرود على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الاعراب واما اسم للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف والتقدير هذا المص أى مسمى به وتذكير اسم الاشارة مع تأنيث المسمى لما أن الاشارة اليه من حيث أنه مسمى بالاسم المذكور لا من حيث أنه مسمى بالسورة وانما صحت الاشارة اليه مع عدم سبق ذكره لما أنه باعتبار كونه بصدد الذكر صار فى حكم الحاضر المشاهد وقوله عز وجل (كتاب) على الوجه الاول خبر مبتدا محذوف وهو ما ينبىء عنه تعديد الحروف كأنه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف مراد به السورة كتاب الخ أو اسم اشارة أشير به اليه تنزيلا لحضور المؤلف منه منزلة حضور نفس المؤلف أى هذا كتاب الخ وعلى الوجه الثانى خبر بعد خبر جىء به أثر بيان كونه مترجما باسم بديع منبىء عن غرابته فى نفسه ابانة لجلالة محله ببيان كونه فردا من أفراد الكتب الالهية حائزا للكمالات المختصة بها وقد جوز كونه خبرا والمص مبتدا أى المسمى بالمص كتاب وقد عرفت ما فيه من أن ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذ لا عهد بالتسمية قبل فحقها الاخبار بها (أنزل اليك) أى من جهته تعالى بنى الفعل للمفعول جريا على سنن الكبرياء وايذانا بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهور تعينه وهو السر فى ترك ذكر مبدأ الانزال كما فى قوله جل ذكره «بلغ ما أنزل اليك من ربك» ونظائره والجملة صفة لكتاب مشرفة له ولمن أنزل اليه وجعلها خبرا له على معنى كتاب عظيم الشان أنزل اليك خلاف الأصل (فلا يكن فى صدرك حرج) أى شك كما فى قوله تعالى «فان كنت فى شك مما

أنزلنا اليك» خلا أنه عبر عنه بما يلازمه من الحرج فان الشاك يعتريه ضيق الصدر كما أن المتيقن يعتريه انشراحه وانفساحه مبالغة فى تنزيه ساحته عليه الصلاة والسلام عن نسبة الشك اليه ولو فى ضمن النهى فانه من الاحوال القلبية التى يستحيل اعتراؤها اياه عليه الصلاة والسلام وما قد يقع من نسبته اليه فى ضمن النهى فعلى طريقة التهييج والالهاب والمبالغة فى التنفير والتحذير بايهام أن ذلك من القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه أصلا فكيف بمن يمكن ذلك منه والتنوين للتحقير والجار فى قوله تعالى (منه) متعلق بحرج يقال حرج منه أى ضاق به صدره أو بمحذوف وقع صفة له أى حرج كائن منه أى لا يكن فيك شك ما فى حقيقته أو فى كونه كتابا منزلا اليك من عنده تعالى فالفاء على الاول لترتيب النهى أو الانتهاء على مضمون الجملة فانه مما يوجب انتفاء الشك فيما ذكر بالكلية وحصول اليقين به قطعا وأما على الثانى فهى لترتيب ما ذكر على الاخبار بذلك لا على نفسه فتدبر وتوجيه النهى الى الحرج مع أن المراد نهيه عليه الصلاة والسلام عنه اما لما مر من المبالغة فى تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن الشك فيما ذكر فان النهى عن الشيء مما يوهم امكان صدور المنهى عنه عن المنهى واما للمبالغة فى النهى فان وقوع الشك فى صدره عليه الصلاة والسلام سبب لاتصافه عليه الصلاة والسلام به والنهى عن السبب نهى عن المسبب بالطريق البرهانى ونفى له من أصله بالمرة كما فى قوله تعالى «ولا يجرمنكم شنآن قوم» الآية وليس هذا من قبيل لا أرينك ههنا فان النهى هناك وارد على المسبب مرادا به النهى عن السبب فيكون المآل نهيه عليه الصلاة والسلام عن تعاطى مايورث الحرج فتأمل وقيل الحرج على حقيقته أى لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغه مخافة أن يكذبوك أو أن تقصر فى القيام بحقه فانه عليه الصلاة والسلام كان يخاف تكذيب قومه له واعراضهم عنه فكان يضيق صدره من الاداء ولا ينبسط له فآمنه الله تعالى ونهاه عن المبالاة بهم فالفاء حينئذ للترتيب على مضمون الجملة أو على الأخبار به فان كلا منهما موجب للاقدام على التبليغ وزوال الخوف قطعا وإن كان إيجابه الثانى بواسطة الأول وقوله تعالى (لتنذر به) أى بالكتاب المنزل متعلق بأنزل وما بينهما اعتراض توسطيينهما تقريرا لما قبله وتمهيدا لما بعده وحسما لتوهم أن مورد الشك هو الانزال للانذار وقيل متعلق بالنهى فان إنتفا الشك فى كونه منزلا من عنده تعالى موجب للانذار به قطعا وكذا انتفا الخوف منهم أو العلم بانه موفق للقيام بحقه موجب للتجاسر على ذلك وأنت خبير بأنه لا يتأتى على التفسير الأول لأن تعليل النهى عن الشك بما ذكر من الانذار والتذكير مع ايهامه لامكان

صدوره عنه عليه الصلاة والسلام مشعر بأن المنهي عنه ليس محذورا لذاته بل لافضائه الى فوات الانذار و التذكير لا أقل من الايذان بأن ذلك معظم غائلته ولا ريب في فساده وأما على التفسير الثاني فانما يتأتى التعليل بالانذار لا بتذكير المؤمنين إذ ليس فيه شائبة خوف حتي يجعل غاية لانتفائه وقوله تعالى (وذكرى للمؤمنين) في حيز النصب باضمار فعله معطوفا على تنذر أى و تذكر المؤمنين تذكيرا أو الجر عطفا على محل أن تنذر أى للانذار والتذكير وقيل مرفوع عطفا على كتاب أو خبر لمبتدأ محذوف. وتخصيص التذكير بالمؤمنين للايذان باختصاص الانذار بالكفرة أى لتنذر به المشركين وتذكر المؤمنين. وتقديم الانذار لأنه أهم بحسب المقام (اتبعوا ما أنزل اليكم) كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين بطريق التلوين وأمروا باتباع ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم قبله بتبليغه بطريق الانذار والتذكير و جعله منزلا اليهم بواسطة انزاله اليه عليه الصلاة و السلام أثر ذكر ما يصححه من الانذار و التذكير لتأكيد وجوب اتباعه وقوله تعالى (من ربكم) متعلق بأنزل على ان من لابتداء الغاية مجازا أو بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من ضميره في الصلة وفي التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين مزيد لطف بهم وترغيب لهم في الامتثال بما أمروا به وتأكيد لوجوبه و جعل ما أنزل ههنا عاما للسنة القولية و الفعلية بعيد نعم يعمهما حكمه بطريق الدلالة لا بطريق العبارة و لما كان اتباع ما أنزله الله تعالى اتباعا له تعالى عقب الأمر بذلك بالنهي عن اتباع غيره تعالى فقيل (ولا تتبعوا من دونه) أى من دون ربكم الذى أنزل اليكم ما يهديكم الى الحق ومحله النصب على انه حال من فاعل فعل النهي أي لا تتبعوا متجاوزين الله تعالى (أولياء) من الجن والانس بأن تقبلوا منهم ما يلقونه اليكم بطريق الوسوسة والأغواء من الأباطيل ليضلوكم عن الحق و يحملوكم على البدع والأهواء الزائغة أو من أولياء قدم عليه لكونه نكرة إذ لو أخر عنه لكان صفة له أى أولياء كائنة غيره تعالى وقيل الضمير للموصول على حذف المضاف في أولياء أى ولا تتبعوا من دون ما أنزل أباطيل أولياء كأنه قيل ولا تتبعوا من دون دين ربكم دين أولياء. وقرىء ولا تبتغوا كما في قوله تعالى «ومن يبتغ غير الاسلام دينا» وقوله تعالى (قليلا ما تذكرون) بحذف إحدى التاءين وتخفيف الذال وقرىء بتشديدها على ادغام التاء المهموسة في الذال المجهورة وقرىء يتذكرون على صيغة الغيبة وقليلا نصب اما بما بعده على انه نعت لمصدر محذوف مقدم للقصر أو لزمان كذلك محذوف وما مزيدة لتأكيد القلة أى تذكرا قليلا أو زمانا قليلا تذكرون لا كثيرا حيث لا تتأثرون بذلك و لا تعملون بموجبه و تتركون دين الله تعالى

وتتبعون غيره ويجوز أن يراد بالقلة العدم كما قيل فى قوله تعالى «فقليلا ما يؤمنون» والجملة اعتراض تذييلى مسوق لتقبيح حال المخاطبين والالتفات على القراءة الاخيرة للايذان باقتضاء سوء حالهم فى عدم الامتثال بالامر والنهي صرف الخطاب عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة وأما نصب على انه حال من فاعل لا تتبعوا وما مصدرية مرتفعة به أي لاتتبعوا من دونه أوليا قليلا تذكركم لكن لا على توجيه النهى الى المقيد فقط كما فى قوله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى بل الى المقيد والقيد جميعا وتخصيصه بالذكر لمزيد تقبيح حالهم بجمعهم بين المنكرين (وكم من قرية أهلكناها) شروع فى انذارهم بما جرى على الأمم الماضية لسبب اعراضهم عن اتباع دين الله تعالى واصرارهم على اتباع دين أوليائهم وكم خبرية للتكثير فى موضع رفع على الابتدا كما فى قولك: زيد ضربته والخبر هو الجملة بعدها ومن قرية تمييز والضمير فى أهلكناها راجع الى معنى كم أى كثير من القرى أهلكناها أو فى موضع نصب بأهلكناها كما فى قوله تعالى «انا كل شئ خلقناه بقدر» والمراد باهلاكها ارادة اهلاكها كما فى قوله تعالى «اذا قمتم الى الصلاة» أى أردنا اهلاكها (فجاءها) أى فجاء أهلها (بأسنا) أى عذابنا بياتا مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال أى بائتين كقوم لوط (أو هم قائلون) عطف عليه أى أو قائلين من القيلولة نصف النهار كقوم شعيب وانما حذفت الواو من الحال المعطوفة على اختها استثقالا لاجتماع العاطفين فان واو الحال حرف عطف قد استعيرت للوصل لا اكتفاء بالضمير كما فى جاءنى زيد هو فارس فأنه غير فصيح وتخصيص الحالتين بالعذاب لما أن نزول المكروه عند الغفلة والدعة أفظع وحكايته للسامعين ازجر وأردع عن الاغترار بأسباب الأمن والراحة ووصف الكل بوصفى البيات والقيلولة مع أن بعض المهلكين بمعزل منهما لاسيما القيلولة للايذان بكمال غفلتهم وأمنهم (فما كان دعواهم) أى دعاؤهم واستغاثتهم ربهم أو ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم (اذ جاءهم بأسنا) عذابنا وعاينوا أمارته (الأأن قالوا) جميعا (انا كنا ظالمين) أى الا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وشهادتهم ببطلانه تحسرا عليه وندامة وطمعا فى الخلاص وهيهات ولات حين نجاة (فلنسئلن الذين أرسل اليهم) بيان لعذابهم الأخروى أثر بيان عذابهم الدنيوى خلا أنه قد تعرض لبيان مبادى أحوال المكلفين جميعا لكونه أدخل فى التهويل والفاء لترتيب الاحوال الاخروية على الدنيوية ذكرا حسب ترتبها عليها وجودا أى لنسئلن الامم قاطبة قائلين ماذا أجبتم المرسلين (ولنسئلن) المرسلين عما أجيبوا قال تعالى «يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم» والمراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم والذى نفى بقوله تعالى «ولا يسأل

عن ذنوبهم المجرمون» سؤال الاستعلام أو الاول فى موقف الحساب والثانى فى موقف العقاب (فلنقصن عليهم) أى على الرسل حين يقولون لاعلم لنا أنك أنت علام الغيوب أو عليهم وعلى المرسلين اليهم جميعا ما كانوا عليه (بعلم) أى عالمين بظواهرهم وبواطنهم أو معلومنا منهم (وما كنا غائبين) عنهم فى حال من الاحوال فيخفى علينا شيء من أعمالهم وأحوالهم والجملة تذييل مقرر لما قبلها (والوزن) أى وزن الاعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها وجيدها ورديئها ورفعه على الابتداء وقوله تعالى (يومئذ) خبره وقوله تعالى (الحق) صفته أى والوزن الحق ثابت يوم اذ يكون السؤال والقص وقيل خبر مبتدأ محذوف كانه قيل ماذلك الوزن فقيل الحق أى العدل السوى وقرىء القسط . واختلف فى كيفية الوزن والجمهور على أن صحائف الأعمال هى التى توزن بميزان له لسان وكفتان ينظر اليه الخلائق اظهارا للمعدلة وقطعا للمعذرة كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وجوارحهم ويشهد عليهم الانبياء والملائكة والأشهاد وكما يثبت فى صحائفهم فيقرءونها فى موقف الحساب ويؤيد ماروى ان الرجل يؤتى به الى الميزان فينشر له تسعة وتسعون سجلا مدى البصر فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فتطيش السجلات وتثقل البطاقة وقيل يوزن الاشخاص لماروي عنه عليه الصلاة والسلام «أنه ليأتى العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقيل الوزن عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل وبه قال مجاهد والاعمش والضحاك واختاره كثير من المتأخرين بناء على أن استعمال لفظ الوزن فى هذا المعنى شائع فى اللغة والعرف بطريق الكناية قالوا إن الميزان انما يراد به التوصل الى معرفة مقادير الشيء ومقادير أعمال العباد لا يمكن اظهارها بذلك لانها أعراض قد فنيت وعلى تقدير بقائها لاتقبل الوزن. وقيل إن الاعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية تبرز فى النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها فى الحسن والقبح حتى أن الذنوب والمعاصى تتجسم هناك وتتصور بصورة النار وعلى ذلك حمل قوله تعالى «وأن جهنم لمحيطة بالكافرين» وقوله تعالى «الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا» وكذا قوله عليه الصلاة والسلام فى حق من يشرب من اناء الذهب والفضة «انما يجرجر فى بطنه نار جهنم» ولابعد فى ذلك ألا يرى أن العلم يظهر فى عالم المثال على صورة اللبن كما لايخفى على من له خبرة بأحوال الحضرات الخمس وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه يؤتى بالاعمال الصالحة على صور حسنة وبالاعمال السيئة على صور قبيحة فتوضع فى الميزان. ان قيل إن المكلف يوم القيامة اما مؤمن بأنه تعالى

حكيم منزه عن الجور فيكفيه حكمه تعالى بكيفيات الاعمال وكمياتها وإما منكر له فلا يسلم حينئذ أن رجحان بعض الاعمال على بعض لخصوصيات راجعة الى ذوات تلك الأعمال بل يسنده إلى اظهار الله تعالى اياه على ذلك الوجه فما الفائدة فى الوزن أجيب بأنه ينكشف الحال يومئذ وتظهر جميع الاشياء بحقائقها على ماهى عليه وبأوصافها وأحوالها فى أنفسها من الحسن والقبح وغير ذلك وتنخلع عن الصور المستعارة التى بها ظهرت فى الدنيا فلا يبقى لاحد ممن يشاهدها شبهة فى أنها هى التى كانت فى الدنيا بعينها وأن كل واحد منها قد ظهر فى هذه النشأة بصورته الحقيقية المستتبعة لصفاته ولا يخطر بباله خلاف ذلك والله تعالى أعلم (فمن ثقلت موازينه) تفصيل للاحكام المترتبة على الوزن والموازين إما جمع ميزان أو جمع موزون على أن المراد به ماله وزن وقدر وهو الحسنات فان رجحان أحدها مستلزم لرجحان الآخر أى فمن رجحت موازينه التى توزن بها حسناته أو أعماله التى لها قدر وزنة. وعن الحسن البصرى وحق لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل وحق لميزان توضع فيه السيآت أن يخف (فأولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بثقل الميزان والجمعية باعتبار معناه كما أن جمع الموازين لذلك وأما ضمير موازينه فراجع اليه باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل والشرف (هم المفلحون) الفائزون بالنجاة والثواب وهم أما ضمير فصل يفصل بين الخبر والصفة ويؤكد النسبة ويفيد اختصاص المسند بالمسند اليه أو مبتدأ خبره المفلحون والجملة خبر لاولئك. وتعريف المفلحون للدلالة على أنهم الناس الذين بلغك أنهم مفلحون فى الآخرة أو إشارة الى مايعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم (ومن خفت موازينه) أى موازين أعماله أو أعماله التي لاوزن لها ولااعتداد بها وهى أعماله السيئة (فأولئك) اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بتلك الصفة القبيحة. والجمعية ومعنى البعد لما مر آنفا فى نظيره وهو مبتدأ خبره (الذين خسروا أنفسهم) أى ضيعوا الفطرة السليمة التى فطروا عليها وقد أيدت بالآيات البينة وقوله تعالى (بما كانوا بآياتنا يظلمون) متعلق بخسروا وما مصدرية وبآياتنا متعلق بيظلمون على تضمين معنى التكذيب قدم عليه لمراعاة الفواصل والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الظلم فى الدنيا أى فأولئك الموصوفون بخفة الموازين الذين خسروا أنفسهم بسبب تكذيبهم المستمر بآياتنا ظالمين (ولقد مكنا كم فى الارض) لما أمر الله سبحانه أهل مكة باتباع ماأنزل اليهم ونهاهم عن اتباع غيره وبين لهم وخامة عاقبته بالاهلاك فى الدنيا والعذاب المخلد فى الآخرة ذكرهم ما أفاض عليهم من

فنون النعم الموجبة للشكر ترغيبا فى الامتثال بالامر والنهى اثر ترهيب أى جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) المعايش جمع معيشة وهى مايعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها أو ما يتوصل به الى ذلك والوجه فى قراءته اخلاص الياء وعن ابن عامر أنه همزه تشبيها له بصحائف ومدائن والجعل بمعنى الأنشاء والابداع أى أنشأنا وأبدعنا لمصالحكم ومنافعكم فيها أسبابا تعيشون بها وكل واحد من الظرفين متعلق به أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله المنكر اذ لو تأخر لكان صفة له وتقديمهما على المفعول مع أن حقهما التأخير عنه لما مر غير مرة من الاعتناء بشأن المقدم والتشويق الى المؤخر فان النفس عند تأخير ماحقه التقديم لاسيما عند كون المقدم منبئا عن منفعة للسامع تبقى مترقبة لورود المؤخر فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن . وأما تقديم اللام على فى فلما أنه المنبيء عما ذكر من المنفعة فالاعتناء بشأنه أتم والمسارعة الى ذكره أهم هذا وقد قيل ان الجعل متعد الى مفعولين ثانيهما أحد الظرفين على أنه مستقر قدم على الاول والظرف الاخر اما لغو متعلق بالجعل أو بالمحذوف الواقع حالا من المفعول الاول كما مر وأنت خبير بأنه لافائدة معتد بها فى الاخبار بجعل المعايش حاصلة لهم أو حاصلة فى الارض وقوله تعالى (قليلا ماتشكرون) أى تلك النعمة تذييل مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم وبقية الكلام فيه عين مامر فى تفسير قوله تعالى قليلا ماتذكرون (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) تذكير لنعمة عظيمة فائضة على آدم عليه السلام سارية الى ذريته موجبة لشكرهم كافة . وتأخيره عن تذكير ماوقع قبله من نعمة التمكين فى الارض اما لانها فائضة على المخاطبين بالذات وهذه بالواسطة واما للايذان بأن كلا منهما نعمة مستقلة مستوجبة للشكر على حيالها فان رعاية الترتيب الوقوعى ربما تؤدي الى توهم عد الكل نعمة واحدة كما ذكر فى قصة البقرة. وتصدير الجملتين بالقسم وحرف التحقيق لاظهار كمال العناية بمضمونهما وانما نسب الخلق والتصوير الى المخاطبين مع ان المراد بهما خلق آدم عليه السلام وتصويره حتما توفية لمقام الامتنان حقه وتأكيدا لوجوب الشكر عليهم بالرمز الى أن لهم حظا من خلقه عليه السلام وتصويره لما أنهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه عليه السلام كسجود الملائكة له عليه السلام بل من الامور السارية الى ذريته جميعا اذ الكل مخلوق فى ضمن خلقه على نمطه ومصنوع على شاكلته فكأنهم الذى تعلق به خلقه وتصويره أي خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم سار اليكم جميعا (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)

صريح في انه ورد بعد خلقه عليه الصلاة و السلام و تسويته ونفخ الروح فيه أمر منجز غير الامر المعلق الوارد قبل ذلك بقوله تعالى «فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» وهو المراد بما حكى بقوله تعالى « و اذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» الآية في سورة البقرة وسورة بني اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه من غير تعرض لوقته وكلمة ثم ههنا تقتضي تراخيه عن التصوير من غير تعرض لبيان ماجرى بينهما من الامور وقد بينا في سورة البقرة أن ذلك ظهور فضل آدم عليه السلام بعد المحاورة المسبوقة بالاخبار باستخلافه عليه السلام حسبما نطق به قوله عز وجل «واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة الي قوله و ما كنتم تكتمون» فان ذلك أيضا من جملة ما نيط به الامر المعلق من التسوية ونفخ الروح وعدم ذكره عند الحكاية لا يقتضي عدم ذكره عند وقوع المحكي كما أن عدم ذكر الامر المعلق عند حكاية الامر المنجز لا يستلزم عدم مسبوقيته به فان حكاية كلام واحد على أساليب مختلفة يقتضيها المقام ليست بعزيزة في الكلام العزيز فلعله قد ألقى الى الملائكة عليهم السلام أولا جميع ما يتوقف عليه الامر المنجز اجمالا بان قيل مثلا اني خالق بشرا من طين وجاعل اياه خليفة في الارض فاذا سويته ونفخت فيه من روحي وتبين لكم فضله فقعوا له ساجدين فخلقه فسواه فنفخ فيه من روحه فقالوا عند ذلك ماقالوا . أو ألقى اليهم خبر الخلافة بعد تحقق الشرائط المذكورة بان قيل اثر نفخ الروح اني جاعل هذا خليفة في الارض فهنالك ذكروا في حقه عليه السلام ماذكروا فايده الله تعالى بتعليم الاسماء فشاهدوا منه عليه السلام ماشاهدوا فعند ذلك ورد الامر المنجز اعتناء بشأن المأمور به وايذانا بوقته وقد حكى بعض الامور المذكورة في بعض المواطن وبعضها في بعضها اكتفاء بما ذكر في كل موطن عما ترك في موطن آخر والذي يرفع غشاوة الاشتباه عن البصائر السليمة أن ما في سورة ص من قوله تعالى «اذ قال ربك للملائكة» الآيات بدل من قوله اذ يختصمون فيما قبله من قوله «ما كان لي من علم بالملأ الأعلى اذ يختصمون» أي بكلامهم عند اختصامهم ولا ريب في أن المراد بالملأ الاعلى الملائكة وآدم عليهم السلام وابليس حسبما أطبق عليه جمهور المفسرين وباختصامهم ماجرى بينهم في شأن الخلافة من التقاول الذي من جملته ماصدر عنه عليه السلام من الأنباء بالاسماء ومن قضية البدلية وقوع الاختصام المذكور في تضاعيف ماشرح فيه مفصلا من الامر المعلق وما علق به من الخلق والتسوية ونفخ الروح فيه وما ترتب عليه من سجود الملائكة وعناد ابليس ولعنه واخراجه من بين الملائكة وماجرى

بعده من الافعال والاقوال واذ ليس تمام الاختصام بعد سجود الملائكة ومكابرة ابليس وطرده من البين لما عرفت من أنه أحد المختصمين كما أنه ليس قبل الخلق ضرورة فاذن هو بعد نفخ الروح وقبل السجود بأحد الطريقين المذكورين والله تعالى أعلم (فسجدوا) أى الملائكة عليهم السلام بعد الامر من غير تلعثم (الا إبليس) استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة متصفا بصفاتهم فغلبوا عليه فسجدوا ثم استثني استثناء واحد منهم. أو لان من الملائكة جنسا يتوالدون يقال لهم الجن كما مر فى سورة البقرة فقوله تعالى (لم يكن من الساجدين) أى ممن سجد لآدم كلام مستأنف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فان عدم السجود قد يكون للتأمل ثم يقع السجود وبه علم أنه لم يقع قط وقيل منقطع فحينئذ يكون متصلا بما بعده أى لكن ابليس لم يكن من الساجدين (قال) استئناف مسوق للجواب عن سؤال نشأ من حكاية عدم سجوده كانه قيل فماذا قال الله تعالى حينئذ وبه يظهر وجه الالتفات الى الغيبة اذ لاوجه لتقدير السؤال على وجه المخاطبة وفيه فائدة أخري هى الاشعار بعدم تعلق المحكى بالمخاطبين كما فى حكاية الخلق والتصوير (مامنعك أن لا تسجد) أى أن تسجد كما وقع فى سورة «ص» ولا مزيدة مؤكدة لمعنى الفعل الذى دخلت عليه كما فى قوله تعالى «لئلا يعلم أهل الكتاب» منبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود وقيل الممنوع عن الشيء مصروف الى خلافه فالمعنى ماصرفك الى أن لاتسجد (اذ أمرتك) قيل فيه دلالة على أن مطلق الامر للوجوب والفور وفى سورة الحجر «يا إبليس مالك أن لا تكون مع الساجدين» وفى سورة ص «مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى» واختلاف العبارات عند الحكاية يدل على أن اللعين قد أدمج فى معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الأمر ومفارقة الجماعة والأباء عن الانتظام فى سلك أولئك المقربين والاستكبار مع تحقير آدم عليه السلام وقد وبخ حينئذ على كل واحدة منها لكن اقتصر عند الحكاية فى كل موطن على ماذكر فيه اكتفاء بما ذكر فى موطن آخر واشعار ابان كل واحدة منها كافية فى التوبيخ واظهار بطلان ماارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا فى سورة البقرة وسورة بنى إسرائيل وسورة الكهف وسورة طه (قال) استئناف كما سبق مبنى على سؤال نشأ من حكاية التوبيخ كانه قيل فماذا قال اللعين عند ذلك فقيل قال (أنا خير منه) متجانفا عن تطبيق جوابه على السؤال بأن يقول منعنى كذا مدعيا لنفسه بطريق الاستئناف شيئا بين الاستلزام لمنعه من السجود على زعمه ومشعرا بأن من شأنه هذا لايحسن أن يسجد لمن دونه فكيف يحسن أن يؤمر به كما ينبئ

عنه مافي سورة الحجر من قوله «لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون»
فهو أول من أسس بنيان التكبر واخترع القول بالحسن والقبح العقليين وقوله تعالى
(خلقتني من نار وخلقته من طين) تعليل لما ادعاه من فضله عليه ولقد أخطأ اللعين
حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر وزل عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ
عنه قوله تعالى « مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدي » أي بغير واسطة على وجه
الاعتناء به وما من جهة الصورة كما نبه عليه بقوله تعالى ونفخت فيه من
روحي وما من جهة الغاية وهو ملاك الامر ولذلك أمر الملائكة بسجوده
عليه السلام حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة في الارض
وأن له خواص ليست لغيره وفي الآية دليل على الكون والفساد وأن الشياطين
اجسام كائنة ولعل اضافة خلق البشر الى الطين والشياطين الى النار باعتبار الجزء الغالب
(قال) استئناف كما سلف والفاء في قوله تعالى (فاهبط منها) لترتيب الامر على ماظهر
من اللعين من مخالفة الامر وتعليله بالاباطيل واصراره على ذلك أي فاهبط من الجنة
والاضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها قال ابن عباس رضي الله عنهما كانوا في عدن
لافي جنة الخلد وقيل من زمرة الملائكة المعززين فان الخروج من زمرتهم هبوط وأي
هبوط وفي سورة الحجر فاخرج منها وأما ماقيل من أن المراد الهبوط من السماء فيرده أن
وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد فلا بد أن يحمل على أحد الوجهين
قطعا وتكون وسوسته على الوجه الاول بطريق النداء من باب الجنة كما روي عن
الحسن البصري وقوله تعالى (فما يكون لك) أي فما يصح ولا يستقيم لك ولا يليق
بشأنك (أن تتكبر فيها) أي في الجنة أو في زمرة الملائكة تعليل للامر بالهبوط فان
عدم صحة أن يتكبر فيها علة للامر المذكور فانها مكان المطيعين الخاشعين ولا دلالة
فيه على جواز التكبر في غيرها وفيه تنبيه على أن التكبر لايليق بأهل الجنة وانه تعالى
انما طرده لتكبره لالمجرد عصيانه وقوله تعالى (فاخرج) تأكيد للامر بالهبوط
متفرع على علته وقوله تعالى (انك من الصاغرين) تعليل للامر بالخروج
مشعر بأنه لتكبره أي من الاذلاء وأهل الهوان على الله تعالى وعلى أوليائه
لتكبرك وعن عمر رضي الله عنه: من تواضع لله رفع الله حكمته و قال انتعش نعشك الله ومن
تكبر وعدا طوره وهصه الله الى الأرض (قال) استئناف كما مر مبني على سؤال نشأ مما قبله
كأنه قيل فماذا قال اللعين بعد ماسمع هذا الطرد المؤكد فقيل قال (أنظرني) أي أمهلني
ولا تمتني (الي يوم يبعثون) أي آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وهو وقت النفخة الثانية

وأراد اللعين بذلك أن يجد فسحة من إغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت لاستحالته بعد البعث (قال) استئناف كما سلف (انك من المنظرين) وورود الجواب بالجملة الأسمية مع التعرض لشمول ماسأله لآخرين على وجه يشعر بأن السائل تبع لهم فى ذلك صريح فى أنه أخبار بالأنظار المقدر لهم أزلا لا انشاء لأنظار خاص به أجابة لدعائه وان استنظاره كان طلبا لتأخير الموت اذبه يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل أى أنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه الحكمة التكوينية الى وقت فناء غير ما استثناه الله تعالى من الخلائق وهو النفخة الأولى لا إلى وقت البعث الذى هو المسئول وقد ترك التوقيت للايجاز ثقة بما وقع فى سورة الحجر وسورة ص كما ترك ذكر النداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ماذكر فيهما بقوله عزوجل «رب فأنظرنى الى يوم يبعثون قال فأنك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم» وفى إنظاره ابتلاء للعباد وتعريض للثواب إن قلت لاريب فى أن الكلام المحكى له عند صدوره عن التكلم حالة مخصوصة تقتضى وروده على وجه خاص من وجوه النظم بحيث لو أخل بشيء من ذلك سقط الكلام عن رتبة البلاغة ألبتة فالكلام الواحد المحكى على وجوه شتى ان اقتضى الحال وروده على وجه معين من تلك الوجوه الواردة عند الحكاية فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى رتبة البلاغة دون ما عداه من الوجوه . اذا تمهد هذا فنقول لا يخفى أن استنظار اللعين انما صدر عنه مرة واحدة لاغير فمقامه إن اقتضى اظهار الضراعة وترتيب الاستنظار على ماحاق به من اللعن والطرد على نهج استدعاء الجبر فى مقابلة الكسر كما هو المتبادر من قوله رب فانظرنى حسبما حكى عنه فى السورتين فما حكى ههنا يكون بمعزل عن المطابقة لمقتضى الحال فضلا عن العروج الى معارج الاعجاز قلنا مقام استنظاره مقتض لما ذكر من إظهار الضراعة وترتيب الاستنظار على الحرمان المدلول عليه بالطرد والرجم وكذا مقام الاستنظار مقتض لترتيب الأخبار بالانذار على الاستنظار وقد طبق الكلام عليه فى تينك السورتين ووفى كل واحد من مقامى الحكاية والمحكى جميعا حظه . وأما ههنا فحيث اقتضى مقام الحكاية مجرد الأخبار بالاستنظار والانظار سيقت الحكاية على نهج الايجاز والاختصار من غير تعرض لبيان كيفية كل واحد منهما عند المخاطبة والحوار . ان قلت فاذن لا يكون ذلك نقلا للكلام على ماهو عليه ولا مطابقا لمقتضى المقام قلنا الذى يجب اعتباره فى نقل الكلام انما هو أصل معناه ونفس مدلوله الذى يفيده وأما كيفية إفادته له فليس مما يجب مراعاته عند النقل ألبتة بل قد تراعى وقد لا تراعى حسب اقتضاء المقام ولا يقدح فى أصل الكلام تجريده عنها

بل قد يراعى عند نقله كيفيات وخصوصيات لم يراعها المتكلم أصلا ولا يخل ذلك بكون المنقول أصل المعني ألا يري أن جميع المقالات المنقولة فى القرآن الكريم انما تحكى بكيفيات واعتبارات لايكاد يقدر على مراعاتها من تكلم بها حتما والا لأمكن صدور الكلام المعجز عن البشر فيما اذا كان المحكى كلاما. وأما عدم مطابقته لمقتضى الحال فمنشؤه الغفلة عما يجب توفير مقتضاه من الأحوال فان ملاك الأمر هو مقام الحكاية وأما مقام وقوع المحكى فان كان مقتضاه موافقا لمقتضى مقام الحكاية يوفى كل واحد من المقامين حقه كما فى سورة الحجر وسورة ص فان مقام الحكاية فيهما لما كان مقتضيا لبسط الكلام وتفصيله على الكيفيات التى وقع عليها روعى حق المقامين معا . وأما فى هذه السورة الكريمة فحيث اقتضى مقام الحكاية الا يجاز روعى جانبه ألا يرى أن المخاطب المنكر اذا كان ممن لايفهم الا أصل المعنى وجب على المتكلم أن يجرد كلامه عن التأكيد وسائر الخواص والمزايا التى يقتضيها المقام ويخاطبه بما يناسبه من الوجوه لكنه مع ذلك يجب أن يقصد معنى زائدا يفهمه سامع آخر بليغ هو تجريده عن الخواص رعاية لمقتضى حال المخاطب فى الفهم وبذلك يرتقى كلامه عن رتبة أصوات الحيوانات كما حقق فى مقامه فاذا وجب مراعاة مقام الحكاية مع أفضائها الى تجريد الكلام عن الخواص والمزايا بالمرة فما ظنك بوجوب مراعاته مع تحلية الكلام بمزايا أخر يرتقى بها الى رتبة الاعجاز لاسيما اذا وفى حق مقام وقوع المحكى فى السورتين الكريمتين وكان هذا الايجاز مبنيا عليه وثقة به (قال) استئناف كأمثاله (فبما أغويتنى) الباء للقسم كما فى قوله تعالى «فبعزتك لأغوينهم» فان اغواءه تعالى اياه أثر من آثار قدرته عز وجل وحكم من أحكام سلطانه تعالى فمآل الاقسام بهما واحد فلعل اللعين أقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بأحدهما وأخرى بالآخر والفاء لترتيب مضمون الجملة على الأنظار وما مصدرية أى فأقسم باغوائك اياى (لأقعدن لهم) أو للسببية على أن الباء متعلقة بفعل القسم المحذوف لا بقوله لاقعدن لهم كما فى الوجه الاول فان اللام تصدعن ذلك أى فبسبب اغوائك اياى لاجلهم أقسم بعزتك لاقعدن لآدم وذريته ترصدا بهم كما يقعد القطاع للقطع على السابلة (صراطك المستقيم) الموصل الى الجنة وهو دين الاسلام فالقعود مجاز متفرع على الكناية وانتصابه على الظرفية كما فى قوله كما عسل الطريق الثعلب وقيل على نزع الجار تقديره على صراطك كقولك ضرب زيد الظهر والبطن (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) أى من الجهات الاربع التى يعتاد هجوم العدو منها مثل قصده اياهم للتسويل والأضلال من أى وجه يتيسر باتيان العدو من الجهات الاربع ولذلك لم يذكر الفوق والتحت وعن ابن

عباس رضى الله عنهما من بين أيديهم من قبل الآخرة ومن خلفهم من جهة الدنيا وعن أيمانهم وعن شمائلهم من جهة حسناتهم وسيئاتهم وقيل من بين أيديهم من حيث يعلمون ويقدرون على التحرز منه ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرون وعن أيمانهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم ومن حيث لا يتيسر لهم ذلك وانما عدى الفعل الى الاولين بحرف الابتداء لانه منهما متوجه اليهم والى الآخرين بحرف المجاوزة فان الآتى منهما كالمنحرف المتجافى عنهم المار على عرضهم ونظيره جلست عن يمينه (ولا تجد أكثرهم شاكرين) أى مطيعين وإنما قاله ظنا لقوله تعالى «ولقد صدق عليهم ابليس ظنه» لما رأى منهم مبدأ الشر متعددا ومبدأ الخير واحدا وقيل سمعه من الملائكة عليهم السلام (قال) استئناف كما سلف مرارا (اخرج منها) أى من الجنة أو من السماء أو من بين الملائكة (مذؤما) أى مذموما من ذأمه اذا ذمه وقرىء مذوما كسول فى مسئول أو كمكول فى مكيل من ذامه يذيمه ذيما (مدحورا) مطرودا (لمن تبعك منهم) اللام موطئة للقسم وجوابه (لأملأن جهنم منكم أجمعين) وهو ساد مسد جواب الشرط وقرىء لمن تبعك بكسر اللام على أنه خبر لأملأن على معنى لمن تبعك هذا الوعيد أو علة لاخرج ولأملأن جواب قسم محذوف ومعنى منكم منك ومنهم على تغليب المخاطب (ويا آدم) أى وقلنا كما وقع فى سورة البقرة وتصدير الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بتلقى المأمور به وتخصيص الخطاب به عليه السلام للايذان باصالته فى تلقى الوحى وتعاطى المأمور به (اسكن أنت وزوجك الجنة) هو من السكن الذى هو عبارة عن اللبث والاستقرار والاقامة لا من السكون الذى هو ضد الحركة وأنت ضمير أكد به المستكن ليصح العطف عليه والفاء فى قوله تعالى (فكلا من حيث شئتما) لبيان المراد مما فى سورة البقرة من قوله تعالى «وكلا منها رغدا حيث شئتما» من أن ذلك كان جمعا مع الترتيب وقوله تعالى من حيث شئتما فى معنى منها حيث شئتما ولم يذكر ههنا رغدا ثقة بما ذكر هناك وتوجيه الخطاب اليهما لتعميم التشريف والايذان بتساويهما فى مباشرة المأمور به فان حواء أسوة له عليه السلام فى حق الاكل بخلاف السكن فانها تابعة له فيه ولتعليق النهى بهما صريحا فى قوله تعالى (ولا تقربا هذه الشجرة) وقرىء هذي وهو الاصل بتصغيره على ذيا والهاء بدل من الياء (فتكونا من الظالمين) اما جزم على العطف أو نصب على الجواب (فوسوس لهما الشيطان) أى فعل الوسوسة لاجلهما أو تكلم لهما كلاما خفيا متداركا متكررا وهى فى الاصل الصوت الخفى كالهينمة والخشخشة ومنه وسوس

الحلى وقد سبق بيان كيفية وسوسته فى سوره البقرة (ليبدى لهما) أى ليظهر لهما واللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما ولذلك عبر عنهما بالسوأة . وفيه دليل على أن كشف العورة فى الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن فى الطباع (ماووري عنهما من سوآتهما) ما غطى وستر عنهما من عوراتهما وكانا لايريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر وانما لم تقلب الواو المضمومة همزة فى المشهورة كما قلبت فى أو يصل تصغير واصل لان الثانية مدة وقرىء سواتهما بحذف الهمزة والقاء حركتها على الواو وبقلبها واوا وأدغام الواو الساكنة فيها (وقال) عطف على وسوس بطريق البيان (مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة) أى عن أكلها (الا أن تكونا ملكين) أى الاكراهة أن تكونا ملكين (أو تكونا من الخالدين) الذين لايموتون أويخلدون فى الجنة وليس فيه دلالة على أفضلية الملائكة عليهم السلام لما أن من المعلوم أن الحقائق لاتنقلب وانما كانت رغبتهما فى أن يحصل لها أوصاف الملائكة من الكمالات الفطرية والاستغناء عن الاطعمة والاشربة وذلك بمعزل من الدلالة على الافضلية بالمعنى المتنازع فيه (وقاسمهما أنى لكما لمن الناصحين) أى أقسم لهما وصيغة المبالغة للمبالغة وقيل أقسما له بالقبول وقيل قالا له أتقسم بالله انك لمن الناصحين وأقسم لهما فجعل ذلك مقاسمة (فدلاهما) فنزلهما على الاكل من الشجرة وفيه تنبيه على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية فان التدلية والادلاء ارسال الشيء من الاعلى الى الاسفل (بغرور) بما غرهما به من القسم فانهما ظنا أن أحدا لايقسم بالله كاذبا أو ملتبسين بغرور (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما) أي فلما وجدا طعمها آخذين فى الاكل منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما واختلف فى أن الشجرة كانت السنبلة أو الكرم أو غيرهما وأن اللباس كان نورا أوظفرا (وطفقا يخصفان) طفق من أفعال الشروع والتلبس كاخذ وجعل وأنشأ وعلق وهب وانبرى أى أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة (عليهما من ورق الجنة) قيل كان ذلك ورق التين. وقرئ يخصفان من أخصف أى يخصفان أنفسهما ويخصفان من التخصيف ويخصفان أصله يختصفان (وناداهما ربهما) مالك أمرهما بطريق العتاب والتوبيخ (ألم أنهكما) وهو تفسير للنداء فلا محل له من الاعراب أو معمول لقول محذوف أى أو قائلا ألم أنهكما (عن تلكما الشجرة) مافى اسم الاشارة من معنى البعد لما أنه اشارة الى الشجرة التى نهى عن قربانها (وأقل لكما) عطف على أنهكما أى ألم أقل

لكما (ان الشيطان لكما عدو مبين) وهذا عتاب وتوبيخ على الاغترار بقول العدو كما أن الاول عتاب على مخالفة النهى قيل فيه دليل على أن مطلق النهى للتحريم ولكما متعلق بعدو لما فيه من معنى الفعل أو بمحذوف هو حال من عدو ولم يحك هذا القول ههنا وقد حكى فى سورة طه بقوله تعالى «ان هذا عدو لك ولزوجك» الآية روى انه تعالى قال لآدم « ألم يكن فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة فقال بلى وعزتك ولكن ماظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذبا قال فبعزتى لأهبطنك الى الارض ثم لا تنال العيش الا كدا» فاهبط وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد وداس وذرى وعجن وخبز (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) أى ضررناها بالمعصية والتعريض للاخراج من الجنة (وان لم تغفر لنا) ذلك (وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وهو دليل على أن الصغائر يعاقب عليها ان لم تغفر . وقالت المعتزلة لا تجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر ولذلك حملوا قولهما ذلك على عادات المقربين فى استعظام الصغير من السيئات واستصغار العظيم من الحسنات (قال) استئناف كما مر مرارا (اهبطوا) خطاب لآدم وحواء وذريتهما أو لهما ولابليس كرر الأمر له تبعا لهما ليعلم انهم قرناء أبدا أو أخبر عما قال لهم مفرقا كما فى قوله تعالى «ياأيها الرسل كلوا من الطيبات» ولم يذكر ههنا قبول توبتهما ثقة بما ذكر فى سائر المواضع (بعضكم لبعض عدو) جملة حالية من فاعل اهبطوا أى متعادين (ولكم فى الارض مستقر) أى استقرار أو موضع استقرار (ومتاع) أى تمتع وانتفاع (الى حين) هو حين انقضاء آجالكم (قال) أعيد الاستئناف اما للايذان بعدم اتصال مابعده بما قبله كما فى قوله تعالى «قال فما خطبكم أيها المرسلون» اثر قوله تعالى «قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون» وقوله تعالى «قال أرأيتك هذا الذى كرمت على» بعد قوله تعالى «قال أأسجد لمن خلقت طينا» واما لاظهار الاعتناء بمضمون ما بعده من قوله تعالى (فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) أى للجزاء كقوله تعالى «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى» (يابنى آدم) خطاب للناس كافة وأيرادهم بهذا العنوان مما لايخفى سره (قد أنزلنا عليكم لباسا) أى خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة منها ونظيره وأنزل لكم من الانعام الخ وقوله تعالى «وأنزلنا الحديد» (يوارى سوآتكم) التى قصد ابليس ابداءها من أبويكم حتى اضطرا الى خصف الاوراق وأنتم مستغنون عن ذلك وروى أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عرايا ويقولون لانطوف بثياب عصينا الله تعالى فيها فنزلت ولعل ذكر قصة آدم عليه السلام حينئذ للايذان بأن انكشاف العورة أول سوء أصاب

الانسان من قبل الشيطان وأنه أغواهم فى ذلك كما أغوى أبويهم (وريشا) ولباسا تتجملون به والريش الجمال وقيل مالا ومنه تريش الرجل أى تمول وقرىء رياشا وهو جمع ريش كشعب وشعاب (ولباس التقوى) أى خشية الله تعالى. وقيل الايمان وقيل السمت الحسن وقيل لباس الحرب ورفعه بالابتداء خبره جملة (ذلك خير) أو خبر و ذلك صفته كأنه قيل ولباس التقوى المشار اليه خير وقرىء ولباس التقوى بالنصب عطفا على لباسا (ذلك) أى أنزال اللباس (من آيات الله) دالة على عظيم فضله وعميم رحمته (لعلهم يذكرون) فيعرفون نعمته أو يتعظون فيتورعون عن القبائح (يابنى آدم) تكرير النداء للايذان بكمال الاعتناء بمضمون ماصدر به وأيرادهم بهذا العنوان لما لايخفى سببه (لايفتننكم الشيطان) أي لا يوقعنكم فى الفتنة والمحنة بأن يمنعكم من دخول الجنة (كما أخرج أبويكم من الجنة) نعت لمصدر محذوف أى لايفتننكم فتنة مثل اخراج أبويكم وقد جوز أن يكون التقدير لايخرجنكم بفتنته اخراجا مثل اخراجه لأبويكم والنهى وان كان متوجها الى الشيطان لكنه فى الحقيقة متوجه الى المخاطبين كما فى قولك: لاأرينك ههنا وقد مر تحقيقه مرارا (ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما) حال من أبويكم أو من فاعل أخرج واسناد النزع اليه للتسبيب وصيغة المضارع لاستحضار الصورة وقوله تعالى (انه يراكم هو وقبيله) أى جنوده وذريته استئناف لتعليل النهى و تأكيد التحذير منه (من حيث لاترونهم) من الابتداء غاية الرؤية وحيث ظرف لمكان انتفاء الرؤية ولا ترونهم فى محل الجر بأضافة الظرف اليه ورؤيتهم لنا من حيث لانراهم لاتقتضى امتناع رؤيتنا لهم مطلقا واستحالة تمثلهم لنا (انا جعلنا الشياطين) جعل قبيله من جملته فجمع (أولياء للذين لايؤمنون) أى جعلناهم بما أوجدنا بينهم من المناسبة أو بارسالهم عليهم و تمكينهم من أغوائهم و حملهم على ماسولوا لهم أولياء أى قرناء مسلطين عليهم والجملة تعليل آخر للنهى وتأكيد للتحذير اثر تحذير (واذا فعلوا فاحشة) جملة مبتدأة لامحل لها من الاعراب وقد جوز عطفها على الصلة و الفاحشة الفعلة المتناهية فى القبح والتاء لانها مجراة على الموصوف المؤنث أو للنقل من الوصفية الى الاسمية والمراد بها عبادة الاصنام وكشف العورة فى الطواف ونحوهما (قالوا) جوابا للناهين عنها (وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) محتجين بأمرين تقليد الآباء والافتراء على الله سبحانه ولعل تقديم المقدم للايذان منهم بأن آباءهم انما كانوا يفعلونها بامر الله تعالى بها على أن الضمير أمرنا لهم ولآبائهم فحينئذ يظهر وجه الاعراض عن الاول فى رد مقالتهم بقوله تعالى (قل ان الله لا يأمر بالفحشاء) فان عادته تعالى جارية

على الامر بمحاسن الاعمال والحث على مراضى الخصال ولا دلالة فيه على أن قبح الفعل بمعنى ترتب الذم عليه عاجلا والعقاب آجلا عقلى فان المراد بالفاحشة ماينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم وقيل هما جوابا سؤالين مترتبين كانه قيل لما فعلوها لم فعلتم فقالوا وجدنا عليها آباءنا فقيل لم فعلها آباؤكم فقالوا الله أمرنا بها وعلى الوجهين يمنع التقليد اذا قام الدليل بخلافه لامطلقا (أتقولون على الله مالا تعلمون) من تمام القول المأمور به والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وتوجيه الانكار والتوبيخ الى قولهم عليه تعالى مالا يعلمون صدوره عنه تعالى مع أن بعضهم يعلمون عدم صدوره عنه تعالى مبالغة فى انكار تلك الصورة فان اسناد مالم يعلم صدوره عنه تعالى أليه تعالى اذا كان منكرا فاسناد ماعلم عدم صدوره عنه اليه عز وجل أشد قبحا وأحق بالأنكار (قل أمر ربى بالقسط) بيان للمأمور به اثر نفى ماأسند أمره اليه تعالى من الأمور المنهى عنها والقسط العدل وهو الوسط من كل شىء المتجافى عن طرفى الافراط والتفريط (وأقيموا وجوهكم) وتوجهوا الى عبادته مستقيمين غير عادلين الى غيرها أو أقيموا وجوهكم نحو القبلة (عند كل مسجد) فى كل وقت سجود أو مكان سجود وهو الصلاة أو فى أى مسجد حضرتكم الصلاة عنده ولا تؤخروها حتى تعودوا الى مساجدكم (وادعوه) واعبدوه (مخلصين له الدين) أى الطاعة فان مصيركم اليه بالآخرة (كما بدأكم) أي أنشأكم ابتداء (تعودون) اليه بأعادته فيجازيكم على أعمالكم وانما شبه الأعادة بالأبداء تقريرا لأمكانها والقدرة عليها وقيل كما بدأكم من التراب تعودون اليه وقيل حفاة عراة غرلا تعودون اليه وقيل كما بدأكم مؤمنا وكافرا يعيدكم (فريقا هدى) بأن وفقهم للأيمان (وفريقا حق عليهم الضلالة) بمقتضى القضاء السابق التابع للمشيئة المبنية على الحكم البالغة وانتصابه بفعل مضمر يفسره مابعده أى وخذل فريقا (انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) تعليل لخذلانه أو تحقيق لضلالتهم (ويحسبون أنهم مهتدون) فيه دلالة على أن الكافر المخطىء والمعاند سواء فى استحقاق الذم وللفارق أن يحمله على المقصر فى النظر (يابنى آدم خذوا زينتكم) أى ثيابكم لمواراة عورتكم (عند كل مسجد) أى طواف أو صلاة ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة وفيه دليل على وجوب ستر العورة فى الصلاة (وكلوا واشربوا) مما طاب لكم . روى أن بنى عامر كانوا فى أيام حجهم لا يأكلون الطعام الا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فهم المسلمون بمثله فنزلت (ولا تسرفوا) بتحريم الحلال أو بالتعدى الى الحرام أو بالأفراط فى الطعام والشره عليه وعن ابن عباس رضى الله

تعالى عنهما: كل ماشئت والبس ماشئت ماأخطأتك خصلتان سرف ومخيلة وقال على ابن الحسين بن واقد جمع الله الطب فى نصف آية فقال كلوا واشربوا ولا تسرفوا (انه لا يحب المسرفين) أى لا يرتضى فعلهم (قل من حرم زينة الله) من الثياب وما يتجمل به (التى أخرج لعباده) من النبات كالقطن والكتان والحيوان كالحرير والصوف والمعادن كالدروع (والطيبات من الرزق) أى المستلذات من المآكل والمشارب وفيه دليل على أن الأصل فى المطاعم والملابس وأنواع التجملات الأباحة لان الاستفهام فى من انكارى (قل هي للذين آمنوا فى الحياة الدنيا) بالأصالة والكفرة وان شاركوهم فيها فبالتبع (خالصة يوم القيامة) لا يشاركهم فيها غيرهم وانتصابها على الحالية وقرىء بالرفع أى على أنه خبر بعد خبر (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) أى مثل هذا التفصيل نفصل سائر الاحكام لقوم يعلمون مافى تضاعيفها من المعانى الرائقة (قل انما حرم ربى الفواحش) أى ماتفاحش قبحه من الذنوب وقيل مايتعلق منها بالفروج (ماظهر منها وما بطن) بدل من الفواحش أى جهرها وسرها (والاثم) أى ما يوجب الاثم وهو تعميم بعد تخصيص وقيل هو شرب الخمر (والبغى) أى الظلم أو الكبر أفرد بالذكر للمبالغة فى الزجر عنه (بغير الحق) متعلق بالبغى مؤكد له معنى (وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا) تهكم بالمشركين وتنبيه على تحريم اتباع مالا يدل عليه برهان (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) بالالحاد فى صفاته والافتراء عليه كقولهم: والله أمرنا بها وتوجيه التحريم الى قولهم عليه تعالى مالا يعلمون وقوعه لا مايعلمون عدم وقوعه قدمر سره (ولكل أمة) من الامم المهلكة (أجل) حد معين من الزمان مضروب لمهلكهم (فاذا جاء أجلهم) ان جعل الضمير للامم المدلول عليها بكل أمة فأظهار الاجل مضافا اليه لافادة المعنى المقصود الذى هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها ومجيئه اياها بواسطة اكتساب الأجل بالاضافة عموما يفيده معنى الجمعية كأنه قيل اذا جاءهم آجالهم بأن يجيء كل واحدة من تلك الأمم أجلها الخاص بها وان جعل لكل أمة خاصة كما هو الظاهر فالاظهار فى موقع الأضمار لزيادة التقرير والاضافة الى الضمير لافادة أكمل التمييز أى اذا جاءها أجلها الخاص بها (لا يستأخرون) عن ذلك الاجل (ساعة) أى شيئا قليلا من الزمان فانها مثل فى غاية القلة منه أى لا يتأخرون أصلا وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك مع طلبهم له (ولا يستقدمون) أى ولا يتقدمون عليه وهو عطف على يستأخرون لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع امكانه فى نفسه كالتأخر بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلا كما فى قوله

سبحانه «وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار» فان من مات كافرا مع ظهور أن لاتوبة له رأسا قد نظم فى عدم القبول فى سلك من سوفها الى حضور الموت إيذانا بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة وقيل المراد بالمجئ الدنو بحيث يمكن التقدم فى الجملة كمجىء اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة فيه وليس بذاك وتقديم بيان انتفاء الاستئخار لما أن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب وأما مافى قوله تعالى «ماتسبق من أمة أجلها وما يستأخرون» من سبق السبق فى الذكر فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير أهلاكهم مع استحقاقهم له حسبما ينبئ عنه قوله تعالى «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون» فالاهم هناك بيان انتفاء السبق (يابنى آدم) تلوين للخطاب وتوجيه له الى كافة الناس اهتماما بشأن مافى حيزه (اما يأتينكم) هى أن الشرطية ضمت اليها ما التأكيد معنى الشرط ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة وفيه تنبيه على أن ارسال الرسل أمر جائز لاواجب عقلا (رسل منكم) الجار متعلق بمحذوف هو صفة لرسل أى كائنون من جنسكم وقوله (يقصون عليكم آياتى) صفة أخرى لرسل أى يبينون لكم أحكامى وشرائعى وقوله تعالى (فمن اتقى وأصلح فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون) جملة شرطية وقعت جوابا للشرط أى فمن اتقى منكم التكذيب وأصلح عمله فلاخوف الخ وكذا قوله تعالى (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى والذين كذبوا منكم بآياتنا. وإيراد الاتقاء فى الاول للايذان بأن مدار الفلاح ليس مجرد عدم التكذيب بل هو الاتقاء والاجتناب عنه. وادخال الفاء فى الجزاء الاول دون الثانى للمبالغة فى الوعد والمسامحة فى الوعيد (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) أى تقول عليه تعالى مالم يقله أو كذب ماقاله أى هو أظلم من كل ظالم وقد مر تحقيقه مرارا (أولئك) اشارة الى الموصول والجمع باعتبار معناه كما أن افراد الفعلين باعتبار لفظه وما فيه من معنى البعد للايذان بتماديهم فى سوء الحال أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الافتراء والتكذيب (ينالهم نصيبهم من الكتاب) أى مما كتب لهم من الارزاق والأعمار وقيل الكتاب اللوح أى ماأثبت لهم فيه وأياما كان فمن الابتدائية متعلقة بمحذوف وقع حالا من نصيبهم أى ينالهم نصيبهم كائنا من الكتاب وقيل نصيبهم العذاب وسواد الوجه وزرقة العيون وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما كتب لمن يفترى على الله سواد الوجه قال تعالى «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة»

وقوله تعالى (حتى اذا جاءتهم رسلنا) أى ملك الموت وأعوانه (يتوفونهم) أى حال كونهم متوفين لارواحهم يؤيد الأول فان حتى وان كانت هى التى يبتدأ بها الكلام لكنها غاية لما قبلها فلا بد أن يكون نصيبهم مما يتمتعون بها الى حين وفاتهم أى ينالهم نصيبهم من الكتاب الى أن يأتيهم ملائكة الموت فاذا جاءتهم (قالوا) لهم (أينما كنتم تدعون من دون الله) أى أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا وما وقعت موصولة بأين فى خط المصحف وحقها الفصل لانها موصولة (قالوا) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية سؤال الرسل كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل قالوا (ضلوا عنا) أى غابوا عنا أى لاندرى مكانهم (وشهدوا على أنفسهم) عطف على قالوا أى اعترفوا على أنفسهم (أنهم كانوا) أى فى الدنيا (كافرين) عابدين لما لا يستحق العبادة أصلا حيث شاهدوا حاله وضلاله ولعله أريد بوقت مجيء الرسل وحال التوفى الزمان الممتد من ابتداء المجيء والتوفى الى انتهائه يوم الجزاء بناء على تحقق المجيء والتوفى فى كل ذلك الزمان بقاء وان كان حدوثهما فى أوله فقط أو قصد بيان غاية سرعة وقوع البعث والجزاء كأنهما حاصلان عند ابتداء التوفى كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام «من مات فقد قامت قيامته» والا فهذا السؤال والجواب وما ترتب عليهما من الامر بدخول النار وما جرى بين أهلها من التلاعن والتقاول انما يكون بعد البعث لامحالة (قال) أى الله عز وجل يوم القيامة بالذات أو بواسطة الملك (ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم) أى كائنين من جملة أمم مصاحبين لهم (من الجن والانس) يعنى كفار الامم الماضية من النوعين (فى النار) متعلق بقوله ادخلوا (كلما دخلت أمة) من الامم السابقة واللاحقة فيها (لعنت أختها) التى ضلت بالاقتداء بها (حتى اذا اداركوا فيها جميعا) أى تداركوا وتلاحقوا فى النار (قالت أخراهم) دخولا أو منزلة وهم الاتباع (لأولاهم) أى لاجلهم اذ الخطاب مع الله تعالى لامعهم (ربنا هؤلاء أضلونا) سنوا لنا الضلال فاقتدينا بهم (فآتهم عذابا ضعفا) أى مضاعفا (من النار) لانهم ضلوا وأضلوا (قال لكل ضعف) أما القادة فلما ذكر من الضلال والأضلال وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم (ولكن لا تعلمون) أى مالكم وما لكل فريق من العذاب . وقرئ بالياء (وقالت أولاهم) أى مخاطبين (لأخراهم) حين سمعوا جواب الله تعالى لهم (فما كان لكم علينا من فضل) أى فقد ثبت أن لافضل لكم علينا وانا واياكم متساوون فى الضلال واستحقاق العذاب (فذوقوا العذاب) أى العذاب المعهود المضاعف (بما كنتم تكسبون)

من قول القادة (ان الذين كذبوا بآياتنا) مع وضوحها (واستكبروا عنها) أى عن الايمان بها والعمل بمقتضاها (لا تفتح لهم أبواب السماء) أي لا تقبل أدعيتهم و لا أعمالهم أو لاتعرج اليها أرواحهم كما هو شأن أدعية المؤمنين و أعمالهم و ارواحهم والتاء فى تفتح لتأنيث الأبواب والتشديد لكثرتها . و قرىء بالتخفيف و بالتخفيف والياء . وقرئ على البناء للفاعل ونصب الأبواب على أن الفعل للآيات و بالياء على أنه لله تعالى (و لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) أى حتى يدخل ماهو مثل فى عظم الجرم فيما هو علم فى ضيق المسلك وهو ثقبة الابرة وفى كون الجمل مماليس من شأنه الولوج فى سم الابرة مبالغة فى الاستبعاد وقرئ الجمل كالقمل والجمل كالنغر والجمل كالقفل والجمل كالنصب والجمل كالحبل وهى الحبل الغليظ من القنب وقيل حبل السفينة وسم بالضم والكسر وقرىء فى سم المخيط وهو الخياط أى مايخاط به كالحزام والمحزم (وكذلك) أى ومثل ذلك الجزاء الفظيع (نجزى المجرمين) أى جنس المجرمين وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا (لهم من جهنم مهاد) أى فراش من تحتهم والتنوين للتفخيم.و من تجريدية (و من فوقهم غواش) أى أغطية والتنوين للبدل عن الاعلال عند سيبويه والصرف عند غيره وقرىء غواش على الغاء المحذوف كما فى قوله تعالى «وله الجوار المنشآت (وكذلك) ومثل ذلك الجزاء الشديد (نجزى الظالمين) عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى أشعارا بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بكل واحد من ذينك الوصفين القبيحين وذكر الجرم مع الحرمان من دخول الجنة والظلم مع التعذيب بالنار للتنبيه على أنه أعظم الجرائم والجرائر (والذين آمنوا) أى بآياتنا أو بكل مايجب أن يؤمن به فيدخل فيه الآيات دخولا أوليا وقوله تعالى (وعملوا الصالحات) أى الاعمال الصالحة التى شرعت بالآيات وهذا بمقابلة الاستكبار عنها (لانكلف نفسا إلا وسعها) اعتراض وسط بين المبتدأ الذى هو الموصول والخبر الذي هو جملة (أولئك أصحاب الجنة) للترغيب فى اكتساب مايؤدى الى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله و تيسر تحصيله وقرىء لا تكلف نفس واسم الاشارة مبتدأ وأصحاب الجنة خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول أو اسم الاشارة بدل من المبتدأ الأول الذى هو الموصول و الخبر أصحاب الجنة ومافيه من معني البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل والشرف (هم فيها خالدون) حال من أصحاب الجنة وقد جوز كونه حالا من الجنة لاشتماله على ضميرها والعامل معنى الاضافة أو اللام المقدرة أو خبر ثان لأولئك على رأى من جوزه وفيها متعلق بخالدون (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) أى نخرج من قلوبهم

أسباب الغل أو نطهرها منه حتى لايكون بينهم إلا التواد وصيغة الماضي للإيذان بتحققه وتقرره وعن على رضى الله تعالى عنه انى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم (تجرى من تحتهم الأنهار) زيادة فى لذتهم وسرورهم والجملة حال من الضمير فى صدورهم والعامل أما معنى الاضافة وأما العامل فى المضاف أو حال من فاعل نزعنا والعامل نزعنا وقيل هى مستأنفة للأخبار عن صفة أحوالهم (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا) أى لما جزاؤه هذا (وما كنا لنهتدى) أى لهذا المطلب الأعلى أو لمطلب من المطالب التى هذا من جملتها (لولا ان هدانا الله) ووفقناله واللام لتأكيد النفى وجواب لولا محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه ومفعول نهتدى وهدانا الثانى محذوف لظهور المراد أو لارادة التعميم كما أشير اليه والجملة مستأنفة أو حالية وقرىء ماكنا لنهتدى الخ بغير واو على أنها مبينة ومفسرة للأولى (لقد جاءت رسل ربنا)جواب قسم مقدر قالوه تبجحا واغتباطا بما نالوه وابتهاجا بايمانهم بما جاءتهم الرسل عليهم السلام والباء فى قوله تعالى (بالحق) أما للتعدية فهى متعلقة بجاءت أو للملابسة فهى متعلقة بمقدر وقع حالا من الرسل أى والله لقد جاءوا بالحق أو لقد جاءوا ملتبسين بالحق (ونودوا)أى نادتهم الملائكة عليهم السلام (أن تلكم الجنة) مفسرة لما فى النداء من معنى القول أو مخففة من أن وضمير الشأن محذوف ومعنى البعد فى اسم الاشارة أما لأنهم نودوا عند رؤيتهم إياها من مكان بعيد وإما لرفع منزلتها وبعد رتبتها وأما للاشعار بأنها تلك الجنة التى وعدوها فى الدنيا (أورثتموها بما كنتم تعملون)فى الدنيا من الأعمال الصالحة أى أعطيتموها بسبب أعمالكم أو بمقابلة أعمالكم والجملة حال من الجنة والعامل معنى الاشارة على أن تلكم الجنة مبتدأ وخبر أو الجنة صفة والخبر أورثتموها (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) تبجحا بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيرا لهم لا لمجرد الأخبار بحالهم والاستخبار عن حال مخاطبيهم (أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا) حيث نلنا هذا المنال الجليل (فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا)حذف المفعول من الفعل الثانى اسقاطا لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد وقيل لأن ماساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصا بهم وعدا كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة فانهم قد وجدوا جميع ذلك حقا وان لم يكن وعده مخصوصا بهم (قالوا نعم)أى وجدناه حقا وقرىء بكسر العين وهى لغة فيه (فأذن مؤذن)قيل هو صاحب الصور (بينهم) أى بين الفريقين (أن لعنة الله على الظالمين)بأن المخففة أو المفسرة وقرىء بأن المشددة ونصب لعنة وقرىء إن بكسر الهمزة على ارادة القول أو اجراء أذن مجرى قال (الذين يصدون عن سبيل الله) صفة مقررة للظالمين أو رفع على الذم

أو نصب عليه (ويبغونها عوجا) أي يبغون لها عوجا بأن يصفوها بالزيغ والميل عن الحق وهو أبعد شيء منهما والعوج بالكسر في المعاني والأعيان مالم يكن منتصبا وبالفتح ما كان في المنتصب كالرمح والحائط (وهم بالآخرة كافرون) غير معترفين (وبينهما حجاب) أي بين الفريقين كقوله تعالى «فضرب بينهم بسور» أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر إحداهما الي الأخرى (وعلى الاعراف) أي على أعراف الحجاب وأعاليه وهو السور المضروب بينهما جمع عرف مستعار من عرف الفرس وقيل العرف ما ارتفع من الشيء فانه بظهوره أعرف من غيره (رجال) طائفة من الموحدين قصروا في العمل فيجلسون بين الجنة والنار حتى يقضى الله فيهم مايشاء وقيل قوم علت درجاتهم كالأنبياء والشهداء والأخيار والعلماء من المؤمنين أو ملائكة يرون في صور الرجال (يعرفون كلا) من أهل الجنة والنار (بسيماهم) بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها كبياض الوجه وسواده فعلى: من سام ابله اذا أرسلها في المرعي معلمة أو من وسم بالقلب كالجاه من الوجه وانما يعرفون ذلك بالهام أو بتعليم الملائكة (ونادوا) أي رجال الاعراف (أصحاب الجنة) حين رأوهم (أن سلام عليكم) بطريق الدعاء والتحية أو بطريق الاخبار بنجاتهم من المكاره (لم يدخلوها) حال من فاعل نادوا أو من مفعوله وقوله تعالى (وهم يطمعون) حال من فاعل يدخلوها أي نادوهم وهم لم يدخلوها حال كونهم طامعين في دخولها مترقبين له أي لم يدخلوها وهم في وقت عدم الدخول طامعون (واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار) أي الى جهتهم وفي عدم التعرض لتعلق أنظارهم بأصحاب الجنة والتعبير عن تعلق أبصارهم باصحاب النار بالصرف اشعار بان التعلق الأول بطريق الرغبة والميل والثاني بخلافه (قالوا) متعوذين بالله تعالى من سوء حالهم (ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين) أي في النار وفي وصفهم بالظلم دون ماهم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذي هو الموجب للدعاء اشعار بأن المحذور عندهم ليس نفس العذاب فقط بل منع مايوجبه ويؤدي اليه من الظلم (ونادى أصحاب الأعراف) كرر ذكرهم مع كفاية الاضمار لزيادة التقرير (رجالا) من رؤسا الكفار حين رأوهم فيمابين أصحاب النار (يعرفونهم بسيماهم) الدالة على سوء حالهم يومئذ وعلى رياستهم في الدنيا (قالوا) بدل من نادى (ما أغني عنكم) ما أما استفهامية للتوبيخ والتقريع أو نافية (جمعكم) أي اتباعكم وأشياعكم أو جمعكم للمال (وما كنتم تستكبرون) ما مصدرية أي ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم المستمر عن قبول الحق أو على الخلق وهو الأنسب بما بعده وقرئ تستكثرون من الكثرة أي من الاموال والجنود (أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة) من تتمة قولهم للرجال والاشارة الى ضعفاء المؤمنين الذين كانت

الكفرة يحتقرونهم فى الدنيا ويحلفون صريحا أنهم لايدخلون الجنة أو يفعلون ماينبئ عن ذلك كما فى قوله تعالى «أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال» (أدخلوا الجنة) تلوين للخطاب وتوجيه له الى أولئك المذكورين أى أدخلوا الجنة على رغم أنوفهم (لاخوف عليكم) بعد هذا (ولا أنتم تحزنون) أو قيل لأصحاب الاعراف أدخلوا الجنة بفضل الله تعالى بعد أن حبسوا وشاهدوا أحوال الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا والأظهر أن لا يكون المراد بأصحاب الاعراف المقصرين فى العمل لان هذه المقالات وما تتفرع هى عليه من المعرفة لاتليق بمن لم يتعين حاله بعد وقيل لما عيروا أصحاب النار أقسموا أن أصحاب الاعراف لايدخلون الجنة فقال الله تعالى أو الملائكة ردا عليهم أهؤلاء الخ وقرئ ادخلوا ودخلوا على الاستئناف وتقديره دخلوا الجنة مقولا فى حقهم لاخوف عليكم (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة) بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار واطمأنت به الدار (أن أفيضوا علينا من الماء) أي صبوه وفيه دلالة على أن الجنة فوق النار (أو مما رزقكم الله) من سائر الاشربة ليلائم الأفاضة أو من الاطعمة على أن الافاضة عبارة عن الاعطاء بكثرة (قالوا) استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا قالوا فقيل قالوا (إن الله حرمهما على الكافرين) أي منعهما منهم منعا كليا فلا سبيل الى ذلك قطعا (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) كتحريم البحيرة والسائبة ونحوها والتصدية حول البيت واللهو صرف الهم الى مالا يحسن أن يصرف اليه واللعب طلب الفرح بما لايحسن أن يطلب (وغرتهم الحياة الدنيا) بزخارفها العاجلة (فاليوم ننساهم) نفعل بهم مايفعل الناسى بالمنسى من عدم الاعتداد بهم وتركهم فى النار تركا كليا والفاء فى فاليوم فصيحة وقوله تعالى (كما نسوا لقاء يومهم) فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى ننساهم نسيانا مثل نسيانهم لقاء يومهم هذا حيث لم يخطروه ببالهم ولم يعتدوا له وقوله تعالى (وما كانوا بآياتنا يجحدون) عطف على كما نسوا أى وكما كانوا منكرين بأنها من عند الله تعالى انكارا مستمرا (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه) أى بينا معانيه من العقائد والاحكام والمواعظ والضمير للكفرة قاطبة والمراد بالكتاب الجنس أو للمعاصرين منهم والكتاب هو القرآن (على علم) حال من فاعل فصلناه أى عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيما أو من مفعوله أى مشتملا على علم كثير وقرئ فضلناه أى على سائر الكتب عالمين بفضله (هدى ورحمة) حال من المفعول (لقوم يؤمنون) لانهم المغتنمون لآثاره المقتبسون من أنواره (هل ينظرون الا تأويله) أى ماينتظر هؤلاء

الكفرة بعدم إيمانهم به الا مايؤل اليه أمره من تبين صدقه بظهور ماأخبر به من الوعد والوعيد (يوم يأتى تأويله) وهو يوم القيامة (يقول الذين نسوه من قبل) أى تركوه ترك المنسى من قبل اتيان تأويله (قد جاءت رسل ربنا بالحق) أى قد تبين أنهم قد جاءوا بالحق (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) اليوم ويدفعوا عنا العذاب (أو نرد) أى هل نرد الى الدنيا وقرئ بالنصب عطفا على فيشفعوا أولان أو بمعنى الى أن فعلى الأول المسئول أحد الأمرين أما الشفاعة لدفع العذاب أو الرد الى الدنيا وعلى الثانى أن يكون لهم شفعاء أما لاحد الامرين أو لأمر واحد هو الرد (فنعمل) بالنصب على أنه جواب الاستفهام الثانى وقرئ بالرفع أى فنحن نعمل (غير الذى كنا نعمل) أى فى الدنيا (قد خسروا أنفسهم) بصرف أعمارهم التى هي رأس مالهم الى الكفر والمعاصى (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى ظهر بطلان ما كانوا يفترونه من أن الأصنام شركاء الله تعالى وشفعاؤهم يوم القيامة (إن ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام) شروع فى بيان مبدأ الفطرة أثر بيان معاد الكفرة أى أن خالقكم ومالككم الذي خلق الاجرام العلوية والسفلية فى ستة أوقات كقوله تعالى «ومن يولهم يومئذ دبره» أو فى مقدار ستة أيام فان المتعارف أن اليوم زمان طلوع الشمس الى غروبها ولم تكن هي حينئذ وفى خلق الأشياء مدرجا مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار واعتبار للنظار وحث على التأنى فى الأمور (ثم استوى على العرش) أى استوى أمره واستولى وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة الله تعالى بلا كيف والمعنى أنه تعالى استوى على العرش على الوجه الذي عناه منزها عن الاستقرار والتمكن والعرش الجسم المحيط بسائر الاجسام سمي به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فان الأمور والتدابير تنزل منه وقيل الملك (يغشى الليل النهار) أى يغطيه به ولم يذكر العكس للعلم به أو لان اللفظ يحتملهما ولذلك قرىء بنصب الليل ورفع النهار وقرئ بالتشديد للدلالة على التكرار (يطلبه حثيثا) أى يعقبه سريعا كالطالب له لا يفصل بينهما شئ والحثيث فعيل من الحث وهو صفة مصدر محذوف أو حال من الفاعل أو من المفعول بمعنى حاثا أو محثوثا (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) أى خلقهن حال كونهن مسخرات بقضائه وتصريفه وقرىء كلها بالرفع على الابتداء والخبر (ألا له الخلق والأمر) فانه الموجد للكل والمتصرف فيه على الاطلاق (تبارك الله رب العالمين) أى تعالى بالوحدانية فى الألوهية وتعظم بالتفرد فى الربوبية وتحقيق الآية الكريمة والله تعالى أعلم أن الكفرة كانوا متخذين

أربابا فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد هو الله تعالى لانه الذي له الخلق والامر فانه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فأبدع الافلاك ثم زينها بالشمس والقمر والنجوم كما أشار اليه بقوله تعالى «فقضاهن سبع سموات فى يومين» وعمد الى الاجرام السفلية فخلق جسما قابلا للصور المتبدلة والهيئات المختلفة ثم قسمها بصور نوعية متباينة الآثار والأفعال وأشار اليه بقوله تعالى «وخلق الأرض فى يومين» أى مافى جهة السفل فى يومين ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولا وتصويرها ثانيا كما قال بعد قوله تعالى «خلق الأرض فى يومين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام» أى مع اليومين الأولين لما فصل فى سورة السجدة ثم لما تم له عالم الملك عمد الى تدبيره كالملك الجالس على سريره فدبر الامر من السماء الى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالى والايام ثم صرح بما هو فذلكة التقرير ونتيجته فقال تعالى ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين ثم أمر بأن يدعوه مخلصين متذللين فقال (ادعوا ربكم) الذى قد عرفتم شئونه الجليلة (تضرعا وخفية) أى ذوى تضرع وخفية فان الاخفاء دليل الاخلاص (انه لايحب المعتدين) أى لايحب دعاء المجاوزين لما أمروا به فى كل شئ فيدخل فيه الاعتداء فى الدعاء دخولا أوليا وقد نبه به على أن الداعى يجب أن لايطلب مالايليق به كرتبة الانبياء والصعود الى السماء وقيل هو الصياح فى الدعاء والاسهاب فيه وعن النبى صلى الله عليه وسلم «سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وحسب المرء أن يقول اللهم إنى أسألك الجنة وماقرب اليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وماقرب اليها من قول وعمل ثم قرأ انه لايحب المعتدين» (ولاتفسدوا فى الارض) بالكفر والمعاصى (بعد اصلاحها) ببعث الانبياء عليهم السلام وشرع الاحكام (وادعوه خوفا وطمعا) أي ذوى خوف نظرا الى قصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطمع نظرا الى سعة رحمته ووفور فضله وأحسانه (ان رحمة الله قريب من المحسنين) فى كل شئ ومن الاحسان فى كل الدعاء أن يكون مقرونا بالخوف والطمع وتذكير قريب لان الرحمة بمعنى الرحم أو لانه صفة لمحذوف أي أمر قريب أو على تشبيه بفعيل الذى هو بمعنى مفعول أو الذي هو مصدر كالنقيض والصهيل أو للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره أو لاكتسابه التذكير من المضاف اليه كما أن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف اليه (وهو الذى يرسل الرياح) عطف على الجملة السابقة وقرئ الريح (بشرا) تخفيف بشر جمع بشير أى مبشرات وقرئ بفتح الباء على أنه مصدر بشره بمعنى باشرات أو للبشارة وقرئ نشرا بالنون المضمومة

جمع نشور أي ناشرات ونشرا على أنه مصدر في موقع الحال بمعنى ناشرات أو مفعول مطلق فان الارسال والنشر متقاربان (بين يدى رحمته) قدام رحمته التي هي المطر فان الصبا تثير السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه (حتى اذا أقلت) أي حملت واشتقاقه من القلة فان المقل للشئ يستقله (سحابا ثقالا) بالماء جمعه لانه بمعنى السحائب (سقناه)أي السحاب وأفراد الضمير لافراداللفظ (لبلدميت)أي لاجله ولمنفعته او لاحيائه اولسقيه وقرئ ميت (فأنزلنا به الماء) اى بالبلداوبالسحاب او بالسوق او بالريح والتذكير بتأويل المذكور وكذا قوله تعالى (فأخرجنا به)ويحتمل أن يعود الضمير الى الماء وهو الظاهر واذا كان للبلد فالباء للالصاق في الاول والظرفية في الثاني واذا كان لغيره فهي للسببية (من كل الثمرات) أي من كل أنواعها (كذلك نخرج الموتى) الاشارة الى اخراج الثمرات أو الى احياء البلد الميت أي كما نحييه باحداث القوة النامية فيه و تطريتها بانواع النبات والثمرات نخرج الموتى من الاجداث ونحييها برد النفوس الى مواد أبدانها بعدجمعها وتطريتها بالقوى والحواس (لعلكم تذكرون) بطرح احدى التاءين أي تتذكرون فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا من غير شبهة (والبلد الطيب) أي الارض الكريمة التربة (يخرج نباته بأذن ربه) بمشيئته وتيسيره عبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لانه أوقعه في مقابلة قوله تعالى (والذى خبث) من البلاد كالسبخة والحرة (لا يخرج الانكدا) قليلا عديم النفع ونصبه على الحال والتقدير والبلد الذي خبث لايخرج نباته الانكدا فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فصار مرفوعا مستترا وقرىء لايخرج الانكدا أى لايخرجه البلد الانكدا فيكون الانكدا مفعوله وقرىء نكدا على المصدر أي ذانكدو نكدا بالاسكان للتخفيف (كذلك) أى مثل ذلك التصريف البديع (نصرف الآيات) أى نرددها ونكررها (لقوم يشكرون) نعمة الله تعالى فيتفكرون فيها و يعتبرون بها وهذا كما ترى مثل لارسال الرسل عليهم السلام بالشرائع التي هي ماء حياة القلوب الى المكلفين المنقسمين الى المقتبسين من أنوارها والمحرومين من مغانم آثارها وقد عقب ذلك بما يحققه و يقرره من قصص الامم الخالية بطريق الاستئناف فقيل (لقد أرسلنا نوحا الى قومه) هو جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا الخ واطراد استعمال هذه اللام مع قد لكون مدخولها مظنة للتوقع الذى هو معنى قد فان الجملة القسمية انما تساق لتأكيد الجملة المقسم عليها ونوح هو ابن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو ادريس النبي عليهما السلام قال ابن عباس رضى الله تعالى

عنهما بعث عليه الصلاة والسلام على رأس أربعين سنة من عمره ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا ومائتين وأربعين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مائة سنة وقيل وهو ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مائتين وخمسين سنة . ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة . وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة . فكان عمره ألفا وأربعمائة وخمسين سنة (فقال ياقوم اعبدوا الله) أي اعبدوه وحده وترك التقييد به للايذان بانها العبادة حقيقة وأما العبادة بالاشراك فليست من العبادة فى شيء وقوله تعالى (مالكم من اله غيره) أي من مستحق للعبادة استئناف مسوق لتعليل العبادة المذكورة أو الامر بها وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله الذى هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية وقرىء بالجر باعتبار لفظه وقرىء بالنصب على الاستثناء وحكم غير حكم الاسم الواقع بعد الا أي مالكم من اله الا اياه كقولك مافى الدار من أحد الا زيد أو غير زيد فمن اله ان جعل مبتدأ فلكم خبره أو خبره محذوف ولكم للتخصيص والتبيين أى مالكم فى الوجود أو فى العالم اله غير الله (انى أخاف عليكم) أى ان لم تعبدوه حسبما أمرت به (عذاب يوم عظيم) هو يوم القيامة أو يوم الطوفان والجملة تعليل للعبادة ببيان الصارف عن تركها اثر تعليلها ببيان الداعي اليها ووصف اليوم بالعظم لبيان عظم مايقع فيه وتكميل الانذار (قال الملأ من قومه) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قوله عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالوا له عليه الصلاة والسلام فى مقابلة نصحه فقيل قال الرؤساء من قومه الاشراف الذين يملؤن صدور المحافل بأجرامهم والقلوب بجلالهم وهيبتهم والابصار بجمالهم وأبهتهم (انا لنراك فى ضلال) أى ذهاب عن طريق الحق والصواب والرؤية قلبية ومفعولاها الضمير والظرف (مبين) بين كونه ضلالا (قال) استئناف كما سبق (ياقوم) ناداهم باضافتهم اليه استمالة لقلوبهم نحو الحق (ليس بى ضلالة) أى شيء ما من الضلال قصد عليه الصلاة والسلام تحقيق الحق فى نفى الضلال عن نفسه ردا على الكفرة حيث بالغوا فى إثباته له عليه الصلاة والسلام حيث جعلوه مستقرا فى الضلال الواضح كونه ضلالا وقوله تعالى (ولكنى رسول من رب العالمين) استدراك مما قبله باعتبار مايستلزمه من كونه فى أقصى مراتب الهداية فان رسالة رب العالمين مستلزمة له لا محالة كأنه قيل ليس بى شيء من الضلال ولكنى فى الغاية القاصية من الهداية ومن لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف هو صفة لرسول مؤكدة لما يفيده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى رسول وأى رسول كائن من رب العالمين (أبلغكم رسالات ربى) استئناف

مسوق لتقرير رسالته و تفصيل أحكامها و أحوالها و قيل صفة أخرى لرسوم على طريقة . أنا الذى سمتنى أمى حيدره » وقرىء أبلغكم من الابلاغ وجمع الرسالات لاختلاف أوقاتها أو لتنوع معانيها أولان المراد بها ماأوحى اليه والى النبيين من قبله وتخصيص ربوبيته تعالى به عليه الصلاة والسلام بعد بيان عمومها للعالمين للاشعار بعلة الحكم الذى هو تبليغ رسالته تعالى اليهم فان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته تعالى اليهم (وأنصح لكم) عطف على أبلغكم مبين لكيفية اداء الرسالة وزيادة اللام مع تعدى النصح بنفسه للدلالة على امحاض النصيحة لهم وأنها لمنفعتهم ومصلحتهم خاصة .وصيغة المضارع للدلالة على تجدد نصيحته لهم كما يعرب عنه قوله تعالى « رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا » وقوله تعالى (وأعلم من الله مالا تعلمون) عطف على ماقبله وتقرير لرسالته عليه الصلاة والسلام أي أعلم من جهة الله تعالى بالوحى مالا تعلمونه من الامور الآتية أو أعلم من شئونه عز وجل وقدرته القاهرة و بطشه الشديد على أعدائه وأن بأسه لايرد عن القوم المجرمين مالا تعلمونه قيل كانوا لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم فكانوا غافلين آمنين لايعلمون ما علمه نوح عليه السلام بالوحى (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم) جواب ورد لما اكتفى عن ذكره بقولهم انا لنراك فى ضلال مبين من قولهم مانراك الا بشرا مثلنا وقولهم لو شاء الله لأنزل ملائكة والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل أ أستبعدتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر أي وحى أو موعظة من مالك أموركم ومربيكم (على رجل منكم) أى على لسان رجل من جنسكم كقوله تعالى « ماوعدتنا على رسلك » وقلتم لاجل ذلك ماقلتم من أن الله تعالى لوشاء لانزل ملائكة (لينذركم) علة للمجىء أى ليحذركم عاقبة الكفر والمعاصى (ولتتقوا) عطف على العلة الاولى مترتبة عليها (ولعلكم ترحمون) عطف على العلة الثانية مترتبة عليها أي ولتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم وفائدة حرف الترجى التنبيه على عزة الطلب وأن التقوى غير موجبة للرحمة بل هى منوطة بفضل الله تعالى وأن المتقى ينبغى أن لايعتمد على تقواه ولا يأمن عذاب الله عز وجل (فكذبوه) فتموا على تكذيبه فى دعوى النبوة ومانزل عليه من الوحى الذي بلغه اليهم وأنذرهم بما فى تضاعيفه واستمروا على ذلك هذه المدة المتطاولة بعد ما كرر عليه الصلاة والسلام عليهم الدعوة مرارا فلم يزدهم دعاؤه الافرارا حسبما نطق به قوله تعالى « رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا » الآيات اذ هو الذى يعقبه الانجاء والاغراق لامجرد التكذيب (فأنجيناه والذين معه) من المؤمنين قيل كانوا أربعين رجلا وأربعين

امرأة وقيل تسعة أبناؤه الثلاثة وستة ممن آمن به وقوله تعالى (في الفلك) متعلق بالاستقرار في الظرف أي استقروا معه في الفلك أو صحبوه فيه أو بفعل الانجاء أي أنجيناهم في السفينة ويجوز أن يتعلق بمضمر وقع حالا من الموصول أو من ضميره في الظرف (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) أي استمروا على تكذيبها وليس المراد بهم الملأ المتصدين للجواب فقط بل كل من أصر على التكذيب منهم ومن أعقابهم وتقديم ذكر الانجاء على الاغراق للمسارعة الى الاخبار به والايذان بسبق الرحمة التي هي مقتضى الذات وتقدمها على الغضب الذي يظهر أثره بمقتضى جرائمهم (انهم كانوا قوما عمين) عمى القلوب غير مستبصرين قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد وقرىء عامين والاول أدل على الثبات والقرار (والى عاد) متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى أرسلنا في قصة نوح عليه السلام وهو الناصب لقوله تعالى (أخاهم) أي وأرسلنا الى عاد أخاهم أي واحدا منهم في النسب لا في الدين كقولهم يا أخا العرب وقيل العامل فيهما الفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا والاول هو الأولى وأياما كان فلعل تقديم المجرور ههنا على المفعول الصريح للحذر عن الاضمار قبل الذكر يرشدك الى ذلك ماسيأتي من قوله تعالى ولوطا الخ فان قومه لما لم يعهدوا باسم معروف يقتضي الحال ذكره عليه السلام مضافا اليهم كما في قصة عاد وثمود ومدين خولف في النظم الكريم بين قصته عليه السلام وبين القصص الثلاث وقوله تعالى (هودا) عطف بيان لأخاهم وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل هود بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح بن عم أبي عاد وانما جعل منهم لانهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وأقرب الى اتباعه (قال) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية ارساله عليه السلام اليهم كأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال (ياقوم اعبدوا الله) أي وحده كما يعرب عنه قوله (مالكم من اله غيره) فانه استئناف جار مجرى البيان للعبادة المأمور بها أو التعليل لها أو للأمر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئا اذ ليس لكم إله سواه وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله وقرىء بالجر حملا له على لفظه (أفلا تتقون) انكار واستبعاد لعدم اتقائهم عذاب الله تعالى بعد ماعلموا ماحل بقوم نوح والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي ألا تتفكرون أو أتغفلون فلا تتقون فالتوبيخ على المعطوفين معا أو أتعلمون ذلك فلا تتقون فالتوبيخ على المعطوف فقط وفي سورة هود أفلا تعقلون ولعله عليه السلام خاطبهم بكل منهما وقد اكتفى بحكاية كل منهما في موطن عن حكايته في موطن آخر كما

لم نذكر ههنا ماذكر هناك من قوله تعالى «ان أنتم إلا مفترون» وقس على ذلك حال بقية ما ذكر وما لم يذكر من أجزاء القصة بل حال نظائره فى سائر القصص لا سيما فى المحاورات الجارية فى الأوقات المتعددة والله أعلم (قال الملأ الذين كفروا من قومه) استئناف كما مر وانما وصف الملأ بالكفر إذ لم يكن كلهم على الكفر كملأ قوم نوح بل كان منهم من آمن به عليه السلام ولكن كان يكتم إيمانه كمرثد بن سعد وقيل وصفوا به لمجرد الذم (انا لنراك فى سفاهة) أى متمكنا فى خفة عقل راسخا فيها حيث فارقت دين آبائك الا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (وانا لنظنك من الكاذبين) أى فيما ادعيت من الرسالة قالوه لعراقتهم فى التقليد وحرمانهم من النظر الصحيح (قال) مستعطفا لهم ومستميلا لقلوبهم مع ماسمع منهم ماسمع من الكلمة الشنعاء الموجبة لتغليظ القول والمشافهة بالسوء (ياقوم ليس بى سفاهة) أى شىء منها ولا شائبة من شوائبها (ولكنى رسول من رب العالمين) استدراك مما قبله باعتبار مايستلزمه ويقتضيه من كونه فى الغاية القصوى من الرشد والاناة والصدق والأمانة فان الرسالة من جهة رب العالمين موجبة لذلك حتما كأنه قيل ليس بى شىء مما تنسبوننى اليه ولكنى فى غاية مايكون من الرشد والصدق ولم يصرح بنفى الكذب اكتفاء بمافى حيز الاستدراك ومن لابتداء الغاية مجازا متعلقة بمحذوف وقع صفة لرسول مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية وقوله تعالى (أبلغكم رسالات ربى) استئناف سيق لتقرير رسالته وتفصيل أحوالها وقيل صفة أخرى لرسول والكلام فى اضافة الرب الى نفسه عليه السلام بعد إضافته الى العالمين وكذا فى جميع الرسالات كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام وقرىء أبلغكم من الابلاغ (وأنا لكم ناصح أمين) معروف بالنصح والأمانة مشهور بين الناس بذلك وانما جىء بالجملة الاسمية دلالة على الثبات والاستمرار وإيذانا بأن من هذا حاله لايحوم حوله شائبة السفاهة والكذب (أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم) الكلام فيه كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام (على رجل منكم) أى من جنسكم (لينذركم) ويحذركم عاقبة ماأنتم عليه من الكفر والمعاصى حتى تنسبونى الى السفاهة والكذب وفى إجابة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من يشافههم بما لاخير فيه من أمثال تلك الأباطيل بما حكى عنهم من المقالات الحقة المعربة عن نهاية الحلم والرزانة وكمال الشفقة والرأفة من الدلالة على حيازتهم القدح المعلى من مكارم الأخلاق مالايخفى مكانه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء) شروع فى بيان ترتيب أحكام النصح والأمانة والانذار وتفصيلها وإذ منصوب باذكروا على المفعولية دون الظرفية وتوجيه الأمر

بالذكر الى الوقت دون ماوقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر مافيه بالطريق البرهانى ولان الوقت مشتمل عليها فاذا استحضر كانت هى حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا ولعله معطوف على مقدر كانه قيل لاتعجبوا من ذلك أو تدبروا فى أمركم واذكروا وقت جعله تعالى اياكم خلفاء (من بعد قوم نوح) أى فى مساكنهم أو فى الأرض بأن جعلكم ملوكا فان شداد بن عاد ممن ملك معمورة الارض من رمل عالج الى شجر عمان (وزادكم فى الخلق) أى فى الابداع والتصوير أو فى الناس (بسطة) قامة وقوة فانه لم يكن فى زمانهم مثلهم فى عظم الاجرام قال الكلبى والسدى كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعا (فاذكروا آلاء الله) التى أنعمها عليكم من فنون النعماء التى هذه من جملتها وهذا تكرير للتذكير لزيادة التقرير وتعميم أثر تخصيص (لعلكم تفلحون) كى يؤديكم ذلك الى الشكر المؤدى الى النجاة من الكروب والفوز بالمطلوب (قالوا) مجيبين عن تلك النصائح العظيمة (أجئتنا لنعبد الله وحده) أى لنخصه بالعبادة (ونذر ما كان يعبد آباؤنا) أنكروا عليه السلام مجيئه لتخصيصه تعالى بالعبادة والاعراض عن عبادة الاوثان انهماكا فى التقليد وحبا لما ألفوه وألفوا أسلافهم عليه ومعنى المجئ اما مجيئه عليه السلام من متعبده ومنزله واما من السماء على التهكم واما القصد والتصدي مجازا كما يقال فى مقابله ذهب يشتمنى من غير ارادة معنى الذهاب (فأتنا بما تعدنا) من العذاب المدلول عليه بقوله تعالى «أفلا تتقون» (ان كنت من الصادقين) أى فى الاخبار بنزول العذاب وجواب أن محذوف لدلالة المذكور عليه أى فائت به (قال قد وقع عليكم) اى وجب وحق أو نزل باصراركم هذا بناء على تنزيل المتوقع منزلة الواقع كما فى قوله تعالى «أتى أمر الله» (من ربكم) أى من جهته تعالى وتقديم الظرف الأول على الثانى مع أن مبدأ الشئ متقدم على منتهاه للمسارعة الى بيان اصابة المكروه لهم وكذا تقديمهما على الفاعل الذي هو قوله تعالى (رجس) مع مافيه من التشويق الى المؤخر ولان فيه نوع طول بما عطف عليه من قوله تعالى (وغضب) فربما يخل تقديمهما بتجاوب النظم الكريم. والرجس العذاب من الارتجاس الذى هو الاضطراب والغضب ارادة الانتقام وتنوينهما للتفخيم والتهويل (أتجادلوننى فى أسماء) عارية عن المسمى (سميتموها) أى سميتم بها (أنتم وآباؤكم) انكار واستقباح لانكارهم مجيئه عليه السلام داعيا لهم الى عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة الأصنام أى أتجادلوننى فى أشياء سميتوها آلهة ليست هى الا محض الاسماء من أن يكون فيها من مصداق الالهية شئ ما لان المستحق للمعبودية بالذات ليس الا من

أوجد الكل وأنها لو استحقت لكان ذلك بجعله تعالى اما بانزال آية أو نصب حجة وكلاهما مستحيل وذلك قوله تعالى (ما نزل الله بها من سلطان) واذ ليس ذلك فى حيز الامكان تحقق بطلان ماهم عليه (فانتظروا) مترتب على قوله تعالى قد وقع عليكم أى فانتظروا ماتطالبونه بقولكم فائتنا بما تعدنا الخ (انى معكم من المنتظرين) لما يحل بكم والفاء فى قوله تعالى (فأنجيناه) فصيحة كما فى قوله تعالى فانفجرت أي فوقع ماوقع فأنجيناه (والذين معه) أى فى الدين (برحمة) أي عظيمة لا يقادر قدرها وقوله تعالى (منا) أى من جهتنا متعلق بمحذوف هو نعت لرحمة مؤكد لفخامتها الذاتية المنفهمة من تنكيرها بالفخامة الاضافية (وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) أى استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم (وما كانوا مؤمنين) عطف على كذبوا داخل معه فى حكم الصلة أى أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرعووا عن ذلك أبدا وتقديم حكاية الانجاء على حكاية الاهلاك قدمر سره . وفيه تنبيه على أن مناط النجاة هو الايمان بالله تعالى وتصديق آياته كما أن مدار البوار هو الكفر والتكذيب . وقصتهم أن عادا قوم كانوا باليمن بالاحقاف وكانوا قد تبسطوا فى البلاد مابين عمان الى حضرموت . وكانت لهم أصنام يعبدونها صداء وصمود والهباء فبعث الله تعالى اليهم هودا نبيا وكان من اوسطهم وأفضلهم حسبا فكذبوه وازدادوا عتوا وتجبرا فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا وكان الناس اذا نزل بهم بلاء طلبوا الى الله الفرج منه عند بيته الحرام مسلمهم ومشركهم وأهل مكة اذ ذاك العماليق أولاد عمليق ابن لاوذ بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر فجهزت عاد الى مكة من أماثلهم سبعين رجلا منهم قيل بن عنز ومرثد بن سعد الذي كان يكتم اسلامه فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا عن الحرم فانزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم قينتا معاوية فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له أهمه ذلك وقال قد هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء على ماهم عليه وكان يستحى أن يكلمهم خشية أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه فذكر ذلك للقينتين فقالتا قل شعرا نغنيهم به لا يدرون من قاله فقال معاوية

ألا ياقيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يسقينا غماما
فيسقى أرض عاد ان عادا ... قد امسوا لايبينون الكلاما

فلما غنتا به قالوا ان قومكم يتغوثون من البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم فقال لهم مرثد بن سعد والله لاتسقون بدعائكم ولكن ان

أطعتم نبيكم وتبتم الى الله تعالى سقيتم وأظهر اسلامه فقالوا لمعاوية احبس عنا مرثدا لايقدمن معنا فانه قد اتبع دين هود وترك ديننا ثم دخلوا مكة فقال قيل اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء ياقيل اختر لنفسك ولقومك فقال اخترت السوداء فانها أكثرهن ماء فخرجت على عاد من واد يقال له المغيث فاستبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه فأتوا مكة فعبدوا الله تعالى فيها الى أن ماتوا (والى ثمود أخاهم صالحا) عطف على ماسبق من قوله تعالى «والى عاد أخاهم هودا» موافق له فى تقديم المجرور على المنصوب . وثمود قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام وقيل انما سموه بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وقرئ بالصرف بتأويل الحى وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام الى وادى القرى واخوة صالح عليه السلام لهم من حيث النسب كهود عليه السلام فانه صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ولما كان الاخبار بأرساله عليه السلام اليهم مظنة لان يسأل ويقال فماذا قال لهم قيل جوابا عنه بطريق الاستئناف (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره) وقد مر الكلام فى نظائره (قد جاءتكم بينة) أى آية ومعجزة ظاهرة شاهدة بنبوتى وهى من الالفاظ الجارية مجرى الابطح والابرق فى الاستغناء عن ذكر موصوفاتها حالة الافراد والجمع كالصالح افرادا وجمعا وكذلك الحسنة والسيئة سواء كانتا صفتين للاعمال أو المثوبة أو الحالة من الرخاء والشدة ولذلك أوليت العوامل بقوله تعالى (من ربكم) متعلق بجاءتكم أو بمحذوف هو صفة لبينة كما مر مرارا والمراد بها الناقة وليس هذا الكلام منه عليه السلام أول ماخاطبهم أثر دعوتهم الى التوحيد بل انما قاله بعدما نصحهم وذكرهم بنعم الله تعالى فلم يقبلوا كلامه وكذبوه ألا يرى الى مافى سورة هود من قوله تعالى «هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها» الى آخر الآيات روى أنه لما أهلكت عاد عمرت ثمود بلادها وخلفوهم فى الارض وكثروا وعمروا أعمارا طوالا حتى أن الرجل كان يبنى المسكن المحكم فينهدم فى حياته فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا فى سعة ورخاء من العيش فعتوا على الله تعالى وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الاوثان فبعث الله تعالى اليهم صالحا وكانوا قوما عربا وصالح من أوسطهم نسبا فدعاهم الى الله عز وجل فلم يتبعه الا قليل منهم مستضعفون فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية فقال أية آية تريدون قالوا تخرج معنا الى عيدنا فى يوم معلوم لهم من السنة فتدعو إلهك وندعوا

آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك وان استجيب لنا اتبعتنا فقال صالح عليه السلام نعم فخرج معهم ودعوا أوثانهم وسألوا الاستجابة فلم تجبهم ثم قال سيدهم جندع بن عمرو وأشار الى صخرة منفردة فى ناحية الجبل يقال لها الكاثبة أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبراء والمخترجة التى شاكلت البخت فان فعلت صدقناك وأجبناك فأخذ صالح عليه السلام عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن قالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها الا الله تعالى وعظماؤهم ينظرون ثم نتجت ولدا مثلها فى العظم فآمن به جندع ورهط من قومه ومنع أعقابهم ناس من رؤسهم أن يؤمنوا فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد غبا فاذا كان يومها وضعت رأسها فى البئر فما ترفعها حتى تشرب كل ما فيها ثم تتفحج فيحتلبون ماشاءوا حتى تمتلىء أوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت اذا وقع الحر تصيفت بظهر الوادى فيهرب منها انعامهم فتهبط الى بطنه واذا وقع البرد تشتت بطن الوادى فتهرب مواشيهم الى ظهره فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار لما أضرت به من مواشيهما وكانتا كثيرتى المواشى فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه فانطلق سقبها حتى رقى جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا وكان صالح عليه السلام قال لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه فانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح تصبحون غدا ووجوهكم مصفرة وبعد غد ووجوهكم محمرة واليوم الثالث ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالانطاع فأتتهم صيحة من السماء ورجفة من الارض فتقطعت قلوبهم فهلكوا وقوله تعالى (هذه ناقة الله لكم آية) استئناف مسوق لبيان البينة واضافة الناقة الى الاسم الجليل لتعظيمها ولجيئها من جهته تعالى بلا أسباب معهودة ووسائط معتادة ولذلك كانت آية وأى آية ولكم بيان لمن هى آية له وانتصاب آية على الحالية والعامل فيها معنى الاشارة ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا من هذه أو عطف بيان له أو مبتدأ ثانيا ولكم خبرا عاملا فى آية (فذروها) تفريع على كونها آية من آيات الله تعالى فان ذلك مما يوجب عدم التعرض لها (تأكل فى أرض الله) جواب الأمر أى الناقة ناقة الله والارض أرض الله تعالى فاتركوها تأكل ما تأكل فى أرض ربها فليس لكم أن تحولوا بينها وبينها وقرىء تأكل بالرفع على أنه فى موضع الحال أى آكلة فيها وعدم التعرض للشرب

أما للاكتفاء عنه بذكر الأكل أو لتعميمه له أيضا كما فى قوله علفتها تبنا وماء باردا وقد ذكر ذلك فى قوله تعالى « لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » (ولا تمسوها بسوء) نهى عن المس الذي هو مقدمة الاصابة بالشر الشامل لانواع الاذية ونكر السوء مبالغة فى النهى أي لا تتعرضوا لها بشئ مما يسوءها أصلا ولا تطردوها ولا تريبوها اكراما لآية الله تعالي (فيأخذكم عذاب أليم) جواب النهى . ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر فى غزوة تبوك قال لاصحابه «لا يدخلن أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين الا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذى أصابهم» وقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه «يا على أتدرى من أشقى الأولين قال الله ورسوله أعلم قال عاقر ناقة صالح . أتدرى من أشقى الآخرين قال الله ورسوله اعلم قال قاتلك» (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) أي خلفاء فى الارض أو خلفاء لهم كما مر (وبوأكم فى الارض) أي جعل لكم مباءة ومنزلا فى أرض الحجر بين الحجاز والشام (تتخذون من سهولها قصورا) استئناف مبين لكيفية التبوئة أى تبنون فى سهولها قصورا رفيعة أو تبنون من سهولة الارض بما تعملون منها من الرهص واللبن والآجر (وتنحتون الجبال) أي الصخور وقرىء تنحتون بفتح الحاء وتنحاتون باشباع الفتحة كما فى قوله :

ينباع من ذفرى أسيل حرة . والنحت نجر الشئ الصلب فانتصاب الجبال على المفعولية وانتصاب قوله تعالى (بيوتا) على أنها حال مقدرة منها كما تقول خطت هذا الثوب قميصا وقيل انتصاب الجبال على اسقاط الجار وانتصاب بيوتا على المفعولية وقد جوز أن يضمن النحت معنى الاتخاذ فانتصابهما على المفعولية قيل كانوا يسكنون السهول فى الصيف والجبال فى الشتاء (فاذكروا آلاء الله) التي أنعم بها عليكم مما ذكر او جميع آلائه التى هذه من جملتها (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) فان حق آلائه تعالى أن تشكر ولا تهمل ولا يغفل عنها فكيف بالكفر والعثى فى الأرض بالفساد (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) أى عتوا وتكبروا استئناف كما سلف وقرىء بالواو عطفا على ماقبله من قوله تعالى قال ياقوم الخ واللام فى قوله تعالى (للذين استضعفوا) للتبليغ وقوله تعالى (لمن آمن منهم) بدل من الموصول باعادة العامل بدل الكل ان كان ضمير منهم لقومه وبدل البعض ان كان للذين استضعفوا على أن من المستضعفين من لم يؤمن والاول هو الوجه اذ لا داعي الى توجيه الخطاب أولا الى جميع المستضعفين مع أن المجاوبة مع المؤمنين منهم على أن الاستضعاف مختص بالمؤمنين أى قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه) وانما قالوه بطريق

الاستهزاء بهم (قالوا انا بما أرسل به مؤمنون) عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا نعم أو نعلم أنه مرسل منه تعالى مسارعة الى تحقيق الحق واظهار مالهم من الايمان الثابت المستمر الذى تنبىء عنه الجملة الاسمية وتنبيها على أن أمر ارساله من الظهور بحيث لاينبغي أن يسئل عنه وانما الحقيق بالسؤال عنه هو الايمان به (قال الذين استكبروا) أعيد الموصول مع صلته مع كفاية الضمير ايذانا بانهم قد قالوا ماقالوه بطريق العتو والاستكبار (انا بالذى آمنتم به كافرون) و انما لم يقولوا انا بما أرسل به كافرون اظهارا لمخالفتهم اياهم وردا لمقالتهم (فعقروا الناقة) أي نحروها أسند العقر الى الكل مع أن المباشر بعضهم للملابسة أو لان ذلك لما كان برضاهم فكأنه فعله كلهم وفيه من تهويل الامر وتفظيعه بحيث أصابت غائلته الكل مالا يخفى (وعتوا عن أمر ربهم) أى استكبروا عن امتثاله وهو مابلغهم صالح عليه السلام من الامر والنهى (وقالوا) مخاطبين له عليه السلام بطريق التعجيز والالزام على زعمهم (ياصالح ائتنا بما تعدنا) أى العذاب والاطلاق للعلم به قطعا (أن كنت من المرسلين) فان كونك من جملتهم يستدعي صدق ماتقول من الوعد والوعيد (فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة لكن لااثر ماقالوا ماقالوا بل بعد ماجرى عليهم ماجرى من مبادى العذاب فى الايام الثلاثة حسبما مر تفصيله (فاصبحوا فى دارهم) أى صاروا فى أرضهم وبلدهم أو فى مساكنهم (جاثمين) خامدين موتى لاحراك بهم واصل الجثوم البروك يقال الناس جثوم أي قعود لاحراك بهم ولا ينبسون نبسة قال أبو عبيدة الجثوم للناس والطير والبروك للابل والمراد كونهم كذلك عند ابتداء نزول العذاب بهم من غير اضطراب ولاحركة كما يكون عند الموت المعتاد ولا يخفى مافيه من شدة الاخذ وسرعة البطش اللهم انا بك نعوذ من نزول سخطك وحلول غضبك وجاثمين خبر لاصبحوا والظرف متعلق به ولا مساغ لكونه خبرا وجاثمين حالا لأفضائه الى كون الاخبار بكونهم فى دارهم مقصودا بالذات وكونهم جاثمين قيدا تابعا له غير مقصود بالذات قيل حيث ذكرت الرجفة وحدت الدار وحيث ذكرت الصيحة جمعت لان الصيحة كانت من السماء فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة فقرن كل منهما بما هو أليق به (فتولى عنهم) اثر ماشاهد ماجرى عليهم تولى مغتم متحسر على مافاتهم من الايمان متحزن عليهم (وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم) بالترغيب والترهيب وبذلت فيكم وسعي ولكن لم تقبلوا مني ذلك وصيغة المضارع فى قوله تعالى (ولكن لاتحبون الناصحين) حكاية حال ماضية أى شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم خاطبهم عليه الصلاة

والسلام بذلك خطاب رسول الله عليه الصلاة والسلام أهل قليب بدر حيث قال « انا وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا » وقيل انما تولى عنهم قبل نزول العذاب بهم عند مشاهدته عليه الصلاة والسلام لعلاماته تولى ذاهب عنهم منكر لأصرارهم على ماهم عليه. وروى أن عقرهم الناقة كان يوم الاربعاء ونزل بهم العذاب يوم السبت وروى أنه خرج فى مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكى فالتفت فرأى الدخان ساطعا فعلم أنهم قد هلكوا وكانوا ألفا وخمسمائة دار. وروى أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم (ولوطا) منصوب بفعل مضمر معطوف على ماسبق وعدم التعرض للمرسل اليهم مقدما على المنصوب حسبما وقع فيما سبق وما لحق قد مر بيانه فى قصة هود عليه السلام وهو لوط بن هاران بن تارح ابن أخى ابراهيم كان من ارض بابل من العراق مع عمه ابراهيم فهاجر الى الشام فنزل فلسطين وأنزل لوطا الأردن وهى كورة بالشام فأرسله الله تعالى الى أهل سدوم وهى بلد بحمص وقوله تعالى (اذ قال لقومه) ظرف للمضمر المذكور أى أرسلنا لوطا الى قومه وقت قوله لهم الخ ولعل تقييد ارساله عليه السلام بذلك لما أن ارساله اليهم لم يكن فى أول وصوله اليهم وقيل هو بدل من لوطا بدل اشتمال على أن انتصابه باذكر أى اذكر وقت قوله عليه السلام لقومه (أتأتون الفاحشة) بطريق الانكار التوبيخى التقريعى أى أتفعلون تلك الفعلة المتناهية فى القبح المتمادية فى الشرية والسوء (ماسبقكم بها) ماعملها قبلكم على أن الباء للتعدية كما فى قوله عليه السلام « سبقك بها عكاشة » من قولك سبقته بالكرة أى ضربتها قبله ومن فى قوله تعالى (من أحد) مزيدة لتأكيد النفى وافادة معنى الاستغراق وفى قوله تعالى (من العالمين) للتبعيض والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع فان مباشرة القبيح قبيحة واختراعه أقبح ولقد أنكر الله تعالى عليهم أولا اتيان الفاحشة ثم وبخهم بأنهم أول من عملها فان سبك النظم الكريم وان كان على نفى كونهم مسبوقين من غير تعرض لكونهم سابقين لكن المراد أنهم سابقون لكل من عداهم من العالمين كما مر تحقيقه مرارا فى نحو قوله تعالى « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا » أو مسوقة جوابا عن سؤال مقدر كأنه قيل من جهتهم لم لانأتيها فقيل بيانا للعلة واظهارا للزاجر ماسبقكم بها احد لغاية قبحها وسوء سبيلها فكيف تفعلونها قال عمرو بن دينار مانزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط قال محمد بن اسحق كانت لهم ثمار وقرى لم يكن فى الدنيا مثلها فقصدهم الناس فآذوهم فعرض لهم ابليس فى صورة شيخ ان فعلتم بهم كذا وكذا نجوتم منهم فأبوا فلما الح الناس عليهم قصدوهم فأصابوا غلمانا صباحا فأخبثوا فاستحكم فيهم ذلك. قال

الحسن كانوا لا يفعلون ذلك الا بالغرباء . وقال الكلبي أول من فعل به ذلك الفعل ابليس الخبيث حيث تمثل لهم فى صورة شاب جميل فدعاهم الى نفسه ثم عبثوا بذلك العمل (انكم لتأتون الرجال) خبر مستأنف لبيان تلك الفاحشة وقرىء بهمزتين صريحتين وبتليين الثانية بغير مد وبمد أيضا على أنه تأكيد للانكار السابق وتشديد للتوبيخ وفى زيادة ان واللام مزيد توبيخ وتقريع كان ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد فيؤكد تأكيدا قويا وفى ايراد لفظ الرجال دون الغلمان والمردان ونحوهما مبالغة فى التوبيخ وقوله تعالى (شهوة) مفعول له أو مصدر فى موقع الحال وفى التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغى له أن يكون الداعى له الى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لاقضاء الشهوة ويجوز أن يكون المراد الانكار عليهم وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة كما ينبئ عنه قوله تعالى (من دون النساء) أى متجاوزين النساء اللاتى هن محال الاشتهاء كما ينبئ عنه قوله تعالى هن أطهر لكم (بل أنتم قوم مسرفون) اضراب عن الانكار المذكور الى الاخبار بحالهم التى أفضتهم الي ارتكاب أمثالهم وهى اعتياد الاسراف فى كل شىء أو عن الانكار عليها الى الذم على جميع معايبهم أو عن محذوف أى لا عذر لكم فيه بل أنتم قوم عادتكم الاسراف (وما كان جواب قومه) أى المستكبرين منهم المتولين للامر والنهى المتصدين للعقد والحل وقوله تعالى (الا أن قالوا) استثناء مفرغ من أعم الأشياء أي ما كان جوابا من جهة قومه شىء من الاشياء الا قولهم أى لبعضهم الآخرين المباشرين للامور معرضين عن مخاطبته عليه السلام (أخرجوهم) أى لوطا ومن معه من أهله المؤمنين (من قريتكم) أى الا هذا القول الذى يستحيل أن يكون جوابا لكلام لوط عليه السلام وقرىء برفع جواب على أنه اسم كان والا أن قالوا الخ خبرها وهو أظهر وان كان الاول أقوى فى الصناعة لان الاعرف أحق بالاسمية وأياما كان فليس المراد أنه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن مقالات لوط عليه السلام ومواعظه الا هذه المقالة الباطلة كما هو المتسارع الى الافهام بل أنه لم يصدر عنهم فى المرة الاخيرة من مرات المحاورات الجارية بينهم وبينه عليه السلام الا هذه الكلمة الشنيعة والا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثير من الترهات حسبما حكى عنهم فى سائر السور الكريمة وهذا هو الوجه فى نظائره الواردة بطريق القصر وقوله تعالى (انهم أناس يتطهرون) تعليل للامر بالاخراج ووصفهم بالتطهر للاستهزاء والسخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش والخبائث والافتخار بما هم فيه من القذارة كما هو ديدن الشطار والدعار (فأنجيناه وأهله) أى المؤمنين منهم (الا

امرأته) استثناء من أهله فانها كانت تسر بالكفر (كانت من الغابرين) أى الباقين
فى ديارهم الهالكين فيها والتذكير للتغليب ولبيان استحقاقها لما يستحقه المباشرون
للفاحشه والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن استثنائها من حكم الانجاء
كأنه قيل فماذا كان حالها فقيل كانت من الغابرين (وأمطرنا عليهم مطرا) أي نوعا من
المطر عجيبا وقد بينه قوله تعالى «وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل» قال أبو عبيدة مطر
فى الرحمة وامطر فى العذاب وقال الراغب مطر فى الخير وأمطر فى العذاب والصحيح أن
أمطرنا بمعنى أرسلنا عليهم ارسال المطر قيل كانت المؤتفكة خمس مدائن وقيل كانوا
أربعة آلاف بين الشام والمدينة فأمطر الله عليهم الكبريت والنار وقيل خسف
بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم وقيل أمطر عليهم ثم خسف
بهم . وروى أن تاجرا منهم كان فى الحرم فوقف الحجر له أربعين يوما حتى قضى
تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه . وروى ان امرأته التفتت نحو ديارها فأصابها
حجر فماتت (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) خطاب لكل من يأتى منه التأمل والنظر
تعجيبا من حالهم وتحذيرا من أعمالهم (والى مدين أخاهم شعيبا) عطف على قوله
والى عاد أخاهم هودا وما عطف عليه وقد روعى ههنا ما فى المعطوف عليه من تقديم
المجرور على المنصوب أي وأرسلنا اليهم وهم أولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام
شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين وقيل شعيب بن ثويب بن مدين وقيل
شعيب بن يثرون بن مدين وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه وكانوا
أهل بخس للمكاييل والموازين مع كفرهم (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ عن
حكاية ارساله اليهم كانه قيل فماذا قال لهم فقيل قال (ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله
غيره) مر تفسيره مرارا (قد جاءتكم بينة) أى معجزة وقوله تعالى (من ربكم)
متعلق بجاءتكم أو بمحذوف هو صفة لفاعله مؤكدة لفخامته الذاتية المستفادة من
تنكيره بفخامته الاضافية أى بينة عظيمة ظاهرة كائنة من ربكم ومالك أموركم ولم
يذكر معجزته عليه السلام فى القرآن العظيم كما لم يذكر اكثر معجزات النبى صلى الله
عليه وسلم فمنها ماروى من محاربة عصا موسى عليه السلام التنين حين دفع اليه غنمه
ومنها ولادة الغنم الدرع خاصة حين وعد أن يكون له الدرع من أولادها . ومنها وقوع
عصا آدم عليه السلام على يده فى المرات السبع لان كل ذلك كان قبل أن يستنبأ موسى
عليه السلام . وقيل البينة مجيئه عليه السلام كما فى قوله تعالى «ياقوم أرأيتم ان كنت على
بينة من ربى »أى حجة واضحة وبرهان نير عبر بهما عما أتاه الله من النبوة والحكمة

(فأوفوا الكيل) أى المكيال كما وقع فى سورة هود ويؤيده قوله تعالى (والميزان)
فان المتبادر منه الآلة وان جاز كونه مصدرا كالميعاد وقيل آلة الكيل والوزن على
الاضمار والفاء لترتيب الامر على مجيء البينة ويجوز أن تكون عاطفة على اعبدوا فان
عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التى معظمها بعد الكفر البخس الذى
كانوا يباشرونه (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) التى تشترونها بهما معتمدين على تما مهما
أى شيء كان وأى مقدار كان فانهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير
وقيل كانوا مكاسين لايدعون شيئا الا مكسوه قال زهير:

أفى كل أسواق العراق اتاوة ... وفى كل ماباع امرؤ مكس درهم

(ولا تفسدوا فى الارض) أى بالكفر والحيف (بعد اصلاحها) بعد ما أصلح
أمرها وأهلها الانبياء وأتباعهم بأجراء الشرائع أو أصلحوا فيها واضافته اليها كاضافة
مكر الليل والنهار (ذلكم خير لكم) اشارة الى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه و
الخيرية اما الزيادة مطلقا أو فى الانسانية وحسن الاحدوثه ومايطلبونه من المال
والربح لان الناس اذا عرفوهم بالامانة رغبوا فى معاملتهم ومتاجرتهم
مؤمنين) أى مصدقين لى فى قولى هذا (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) أى
طرق الدين كالشيطان وصراط الحق وان كان واحدا لكنه يتشعب الى معارف وحدود وأحكام
وكانوا اذا رأوا أحدا يشرع فى شيء منها منعوه وقيل كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد
شعيبا إنه كذاب لا يفتننك عن دينك ويتوعدون لمن آمن به وقيل يقطعون الطريق (وتصدون
عن سبيل الله) أى السبيل الذي قعدوا عليه فوقع المظهر موقع المضمر بيانا لكل صراط
ودلالة على عظم مايصدون عنه وتقبيحا لما كانوا عليه أو الايمان بالله أو بكل صراط
على أنه عبارة عن طرق الدين وقوله تعالى (من آمن به) مفعول تصدون على
أعمال الاقرب ولو كان مفعول توعدون لقيل وتصدونهم وتوعدون حال من الضمير
فى تقعدوا (وتبغونها عوجا) أى وتطلبون لسبيل الله عوجا بالقاء الشبه أو بوصفها
للناس بأنها معوجة وهى أبعد شيء من شائبة الاعوجاج (واذكروا اذ كنتم قليلا
فكثركم) بالبركة فى النسل والمال (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) من الأمم
الماضية كقوم نوح ومن بعدهم من عاد وثمود وأضرابهم واعتبروا بهم (وان كان
طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به) من الشرائع والاحكام (وطائفة لم يؤمنوا)
أى به أو لم يفعلوا الايمان (فاصبروا حتى يحكم الله بيننا) أى بين الفريقين بنصر
المحقين على المبطلين فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين (وهو خير الحاكمين) اذ

لا معقب لحكمه ولا حيف فيه (قال الملأ الذين استكبروا من قومه) استئناف مبني على سؤال ينساق اليه المقال كأنه قيل فماذا قالوا بعد ماسمعوا هذه المواعظ من شعيب عليه السلام . فقيل قال أشراف قومه المستكبرون متطاولين عليه عليه السلام غير مكتفين بمجرد الاستعصاء عليه والامتناع من الطاعة له بالغين من العتو والاستكبار الى أن قصدوا استتباعه عليه السلام فيما هم فيه واتباعه المؤمنين واجترءوا على اكراههم عليه بوعيد النفي وخاطبوه بذلك على طريقة التوكيد القسمي (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا) بنسبة الاخراج اليه عليه السلام أولا والى المؤمنين ثانيا بعطفهم عليه تنبيها على أصالته عليه السلام في الاخراج وتبعيتهم له فيه كما ينبيء عنه قوله تعالى (معك) فانه متعلق بالاخراج لا بالايمان وتوسيط النداء باسمه العلمي بين المعطوفين لزيادة التقرير والتهديد الناشئة عن غاية الوقاحة والطغيان أي والله لنخرجنك وأتباعك (من قريتنا) بغضا لكم ودفعا لفتنتكم المترتبة على المساكنة والجوار وقوله تعالى (أو لتعودن في ملتنا) عطف على جواب القسم أي والله ليكونن أحد الأمرين ألبتة على أن المقصد الأصلي هو العود وانما ذكر النفي والاجلاء لمحض القسر والالجاء كما يفصح عنه عدم تعرضه عليه السلام لجواب الاخراج كأنهم قالوا لاندعكم فيما بيننا حتى تدخلوا في ملتنا وادخالهم له عليه السلام في خطاب العود مع استحالة كونه عليه السلام في ملتهم قيل ذلك انما هو بطريق تغليب الجماعة على الواحد وانما لم يقولوا أو لنعيدنكم على طريقة ما قبله لما أن مرادهم أن يعودوا اليها بصورة الطواعية حذر الاخراج باختيار أهون الشرين لا لاعادتهم بسائر وجوه الاكراه والتعذيب (قال) استئناف كما سبق أي قال عليه السلام رد لمقالتهم الباطلة وتكذيبا لهم في أيمانهم الفاجرة (أو لو كنا كارهين) على أن الهمزة لانكار الوقوع ونفيه لا لانكار الواقع واستقباحه كالتي في قوله تعالى «أو لو جئتك بشيء مبين» ويجوز أن يكون الاستفهام فيه باقيا على حاله وقد مر مرارا أن كلمة لو في مثل هذا المقام ليست لبيان انتفاء الشيء في الزمن الماضي لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف تعويلا على دلالة ماقبلها عليه ملاحظة قصدية الا عند القصد الى بيان الاعراب على القواعد الصناعية بل هي لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق بالذات أو بالواسطة من الحكم الموجب أو المنفي على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ماعداه من الاحوال بطريق الأولوية لما أن الشيء متى تحقق مع المنافي القوي فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك

لا يذكر معه شيء من سائر الأحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعددها وهذا معنى قولهم إنها لاستقصاء الأحوال على سبيل الأجمال وهذا المعنى ظاهر فى الخبر الموجب والمنفى والامر والنهى كما فى قولك : فلان جواد يعطى ولو كان فقيرا أو بخيل لايعطى ولو كان غنيا وكقولك: أحسن اليه ولو أساء اليك ولا تهنه ولو أهانك لبقائه على حاله سالما عما يغيره وأما فيما نحن فيه ففيه نوع خفاء لتغيره بورود الانكار عليه لكن الأصل فى الكل واحد الا أن كلمة لو فى الصورة المذكورة متعلقة بنفس الفعل المذكور قبلها وأن مايقصد بيان تحققه على كل حال هو نفس مدلوله وأن الجملة حال من ضميره أو مما يتعلق به وأن مافى حيز لو مقرر على ماهو عليه من الاستبعاد بخلاف مانحن فيه لما أن كلمة لو متعلقة فيه بفعل مقدر يقتضيه المذكور وأن مايقصد بيان تحققه على كل حال هو مدلوله لا مدلول المذكور وان الجملة حال من ضميره لامن ضمير المذكور كما سيأتى وان المقصود الأصلى إنكار مدلوله من حيث مقارنته للحالة المذكورة . وأما تقدير مقارنته لغيرها فلتوسيع الدائرة وان مافى حيز لو لا يقصد استبعاده فى نفسه بل يقصد الاشعار بأنه أمر مقرر الا أنه أخرج مخرج الاستبعاد مبالغة فى الانكار من جهة أن العود مما ينكر عند كون الكراهة أمرا مستبعدا فكيف به عند كونها أمرا محققا ومعاملة مع المخاطبين على معتقدهم لاستنزالهم من رتبة العناد وليس المراد بالكراهة مجرد كراهة المؤمنين للعود فى ملة الكفر ابتداء حتى يقال انها معلومة لهم فكيف تكون مستبعدة عندهم بل إنما هى كراهتهم له بعد وعيد الاخراج الذى جعل قرينا للقتل فى قوله تعالى « ولو أنا كتبنا» الآية فانهم كانوا يستبعدونها ويطمعون فى أنهم حينئذ يختارون العود خشية الاخراج اذرب مكروه يختار عند حلول ماهو أشد منه وأفظع والتقدير أنعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين غير مبالين بالاكراه فالجملة فى محل النصب على الحالية من ضمير الفعل المقدر حسبما أشير اليه اذ مآله أنعود فيها حال عدم الكراهة وحال الكراهة انكارا لما تفيده كلمتهم الشنيعة بأطلاقها من العود على أى حالة كانت غير أنه اكتفى بذكر الحالة الثانية التى هى أشد الأحوال منافاة للعود وأكثرها بعدا منه تنبيها على أنها هى الواقعة فى نفس الأمر وثقة بأغنائها عن ذكر الأولى اغناء واضحا لأن العود الذى تعلق به الانكار حين تحقق مع الكراهة على مايوجبه كلامهم فلأن يتحقق مع عدمها أولى. ان قلت النفى المستفاد من الاستفهام الانكارى فيما نحن فيه بمنزلة صريح النفى ولا ريب فى أن الأولوية هنالك معتبرة بالنسبة الى النفى الا يرى أن الأولى

بالتحقيق فيما ذكر من مثال النفى عند الحالة المسكوت عنها أعنى عدم الغنى هو عدم الأعطاء لانفسه فكان ينبغى أن يكون الاولى بالتحقق فيما نحن فيه عند عدم الكراهة عدم العود لانفسه اذ هو الذى يدل عليه قولنا أنعود لانه فى معنى لانعود فلم اختلف الحال بينهما . قلت لما أن مناط الاولوية هو الحكم الذى أريد بيان تحققه على كل حال وذلك فى مثال النفى عدم الاعطاء المستفاد من الفعل المنفى المذكور وأما فيما نحن فيه فهو نفس العود المستفاد من الفعل المقدر اذ هو الذى يقتضيه الكلام السابق أعنى قولهم لتعودون وأما الاستفهام فخارج عنه وارد عليه لأبطال مايفيده ونفى مايقتضيه لانه من تمامه كما فى صورة النفى . وتوضيحه أن بين النفيين فرقا معنويا تختلف به أحكامهما التى من جملتها ماذكر من اعتبار الاولوية فى أحدهما بالنسبة الى نفسه وفى الآخر بالنسبة الى متعلقه ولذلك لاتستقيم إقامة أحدهما مقام الآخر على وجه الكلية ألا يرى أنك لو قلت مكان أنعود فيها الى آخ لانعود فيها ولو كنا كارهين لاختل المعنى اختلالا فاحشا لأن مدلول الأول نفى العود المقيد بحال الكراهة ومدلول الثانى تقييد العود المنفى بها وذلك لأن حرف النفى يباشر نفس الفعل وينفيه وما يذكر بعده يرجع اليه من حيث هو منفى وأما همزة الاستفهام فانها تباشر الفعل بعد تقييده بما بعده لما أن دلالتها على الانكار والنفى ليست بدلالة وضيعة كدلالة حرف النفى حتى يتعلق معناها بنفس الفعل الذى يليها ويكون مابعده راجعا اليه من حيث هو منفى بل هى دلالة عقلية مستفادة فى سياق الكلام فلا بد أن يكون مايذكر بعد الفعل من موانعه ودواعى انكاره ونفيه حتما ليكون قرينة صارفة للهمزة عن حقيقتها الى معنى الانكار والنفى. ثم لما كان المقصود نفى الحكم على كل حال مع الاقتصار على ذكر بعض منها مغن عن ذكر ما عداها لاستلزام تحققه مع تحققه مع غيره بطريق الأولوية وكانت حال الكراهة عند كونها قيدا لنفس العود كذلك أى مغنيا عن ذكر سائر الأحوال ضرورة أن تحقق العود فى حال الكراهة مستلزم لتحققه فى حال عدمها ألبتة وعند كونها قيدا لنفيه بخلاف ذلك أى غير مغن عن ذكر غيرها ضرورة ان نفى العود فى حال الكراهة لايستلزم نفيه فى غيرها بل الأمر بالعكس فان نفيه فى حال الارادة مستلزم لنفيه فى حال الكراهة قطعا استقام الأول لأفادته نفى العود فى الحالتين مع الاقتصار على ذكر ماهو مغن عن ذكر الأخرى ولم يستقم الثانى لعدم إفادته اياه على الوجه المذكور . ان قيل فما وجه استقامتهما جميعا عند ذكر المعطوفين معا حيث يصح أن يقال لانعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين كما يصح أن يقال أنعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنا كارهين مع أن المقدر فى حكم

الملفوظ . قلنا وجهها أن كلا منهما يفيد معنى صحيحا فى نفسه لا أن معنى أحدهما عين معنى الآخر أو متلازمان متفقان فى جميع الأحكام كيف لا ومدلول الأول أن العود منتف فى الحالتين ومدلول الثانى أن العود فى الحالتين منتف وكلا المعنيين صحيح فى نفسه مصحح لنفي العود فى الحالتين مع ذكرهما معا غير أن الثانى مصحح لنفي العود فى الحالتين مع الاقتصار على ذكر حالة الكراهة على عكس المعنى الأول فانه مصحح لنفيه فيهما مع الاقتصار على ذكر حالة الارادة (قد افترينا على الله كذبا) أى كذبا عظيما لا يقادر قدره (ان عدنا فى ملتكم) التي هي الشرك وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه أي ان عدنا فى ملتكم (بعد إذ نجانا الله منها)فقد افترينا على الله كذبا عظيما حيث نزعم حينئذ أن لله تعالى ندا وليس كمثله شيء وانه قد تبين لنا أن ما كنا عليه من الاسلام باطل و أن ما كنتم عليه من الكفر حق و أى افتراء أعظم من ذلك وقيل انه جواب قسم محذوف حذف عنه اللام تقديره والله لقد افترينا الخ (وما يكون لنا)أى وما يصح وما يستقيم لنا (أن نعود فيها) فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات (إلا أن يشاء الله)أي الا حال مشيئة الله تعالى أو وقت مشيئته تعالى لعودنا فيها وذلك مما لا يكاد يكون كما ينبىء عنه قوله تعالى (ربنا) فان التعرض لعنوان ربوبيته تعالى لهم مما ينبىء عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعا . وكذا قوله تعالى « بعد إذ نجانا الله منها » فان تنجيته تعالى لهم منها من دلائل عدم مشيئته لعودهم فيها . و قيل معناه الا أن يشاء الله خذلاننا وقيل فيه دليل على أن الكفر بمشيئته تعالى و أيا ما كان فليس المراد بذلك بيان أن العود فيها فى حيز الامكان وخطر الوقوع بناء على كون مشيئته كذلك بل بيان استحالة وقوعها كأنه قيل وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا و هيهات ذلك بدليل ماذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له (وسع ربنا كل شيء علما) فهو محيط بكل ما كان وما سيكون من الأشياء التى من جملتها أحوال عباده وعزائمهم ونياتهم وما هو اللائق بكل واحد منهم فمحال من لطفه أن يشاء عودنا فيها بعد ما نجانا منها مع اعتصامنا به خاصة حسبما ينطق به قوله تعالى (على الله توكلنا)أى فى أن يثبتنا على مانحن عليه من الايمان و يتم علينا نعمته بانجائنا من الاشراك بالكلية . واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار للمبالغة فى التضرع والجؤار وقوله تعالى (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق)اعراض عن مقاولتهم أثر ماظهر له عليه الصلاة والسلام أنهم من العتو و العناد بحيث لا يتصور منهم الايمان أصلا و إقبال على الله تعالى بالدعاء لفصل ما بينه و بينهم بما يليق بحال كل من الفريقين أى احكم بيننا بالحق . والفتاحة الحكومة أو أظهر أمرنا حتى

ينكشف مابيننا و بينهم و يتميز المحق من المبطل من فتح المشكل إذا بينه (وأنت خير الفاتحين) تذييل مقرر لمضمون ماقبله على المعنيين (وقال الملأ الذين كفروا من قومه) عطف على قال الملأ الذين الخ ولعل هؤلاء غير أولئك المستكبرين و دونهم فى الرتبة شأنهم الوساطة بينهم و بين العامة و القيام بأمورهم حسبما يراه المستكبرون و يجوز أن يكون عين الأولين وتغيير الصلة لما أن مدار قولهم هذا هو الكفر كما أن مناط قولهم السابق هو الاستكبار أى قال اشرافهم الذين أصروا على الكفر لأعقابهم بعد ماشاهدوا صلابة شعيب عليه السلام و من معه من المؤمنين فى الايمان وخافوا أن يستتبعوا قومهم تثبيطا لهم عن الايمان به وتنفيرا لهم عنه على طريقة التوكيد القسمى والله (لئن اتبعتم شعيبا) ودخلتم فى دينه وتركتم دين آبائكم (انكم إذا لخاسرون)أى فى الدين لاشترائكم الضلالة بهداكم أو فى الدنيا لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف و إذن حرف جواب وجزاء معترض بين اسم أن وخبرها والجملة سادة مسد جوابى الشرط والقسم الذى وطأته اللام (فأخذتهم الرجفة) اى الزلزلة و هكذا فى سورة العنكبوت وفى سورة هود وأخذت الذين ظلموا الصيحة أي صيحة جبريل عليه السلام ولعلها من مبادئ الرجفة فأسند هلاكهم الى السبب القريب تارة و الى البعيد أخرى (فاصبحوا فى دارهم) أى فى مدينتهم وفى سورة هود فى ديارهم (جاثمين) أى ميتين لازمين لاماكنهم لا براح لهم منها (الذين كذبوا شعيبا) استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم فيما سبق لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا وعقوبتهم بمقابلته والموصول مبتدأ خبره قوله تعالي (كأن لم يغنوا فيها) أى استؤصلوا بالمرة وصاروا كأنهم لم يقيموا بقريتهم أصلا أى عوقبوا بقولهم ذلك وصاروا هم المخرجين من القرية اخراجا لادخول بعده أبدا و قوله تعالى (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الاخير واعادة الموصول والصلة كما هى لزيادة التقرير والايذان بأن ماذكر فى حيز الصلة هو الذى استوجب العقوبتين أى الذين كذبوه عليه السلام عوقبوا بمقالتهم الاخيرة فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لاالمتبعون له عليه الصلاة والسلام و بهذا القصر اكتفى عن التصريح بأنجائه عليه الصلاة والسلام كما وقع فى سورة هود من قوله تعالى «ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا و الذين آمنوا معه» الخ (فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم) قاله عليه الصلاة والسلام بعدما هلكوا تأسفا بهم لشدة حزنه عليهم ثم أنكر على نفسه ذلك فقال (فكيف آسى) أحزن حزنا شديداً (على قوم كافرين) أي مصرين على الكفر ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم مانزل عليهم بكفرهم أو قاله اعتذارا من عدم شدة حزنه عليهم . والمعنى لقد

بلغت في الابلاغ والانذار وبذلت وسعى في النصح والاشفاق فلم تصدقوا قولى فكيف آسى عليكم وقرىء ايسى بامالتين (وما أرسلنا في قرية من نبي) إشارة اجمالية الى بيان أحوال سائر الامم أثر بيان أحوال الامم المذكورة تفصيلا ومن مزيدة لتأكيد النفي والصفة محذوفة أى من نبي كذب أوكذبه أهلها (الا أخذنا أهلها) استثناء مفرغ من أعم الاحوال وأخذنا في محل النصب من فاعل أرسلنا والفعل الماضي لايقع بعد الاالابأحد شرطين اما تقدير قدكما في هذه الآية أو مقارنة قدكما في قولك: مازيد الاقد قام والتقدير وما أرسلنا في قرية من القرى المهلكة نبيا من الأنبياء في حال من الاحوال الاحال كوننا آخذين أهلها (بالبأساء) بالبؤس والفقر (والضراء) بالضر والمرض لكن لاعلى معنى أن ابتداء الارسال مقارن للاخذ المذكور بل على أنه مستتبع له غير منفك عنه بالآخرة لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه حسبما فعلت الأمم المذكورة (لعلهم يضرعون) كى يتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر والعزة عن أكنافهم كقوله تعالى «لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون» (ثم بدلنا) عطف على أخذنا داخل في حكمه (مكان السيئة) التى أصابتهم للغاية المذكورة (الحسنة) أى أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والسعة كقوله تعالى «وبلوناهم بالحسنات والسيئات» (حتى عفوا) أى كثروا عددا وعددا من عفا النبات اذا كثر وتكاثف وأبطرتهم النعمة (وقالوا) غير واقفين على أن ماأصابهم من الأمرين ابتلاء من الله سبحانه (قدمس آباءنا الضراء والسراء) كما مسنا ذلك وماهو إلامن عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء من غير أن يكون هناك داعية تؤدى اليهما أوتبعة تترتب عليهما ولعل تأخير السراء للاشعار بأنها تعقب الضراء فلاضير فيها (فأخذناهم) أثر ذلك (بغتة) فجأة أشد الأخذ وأفظعه (وهم لايشعرون) بذلك ولايخطرون ببالهم شيئا من المكاره كقوله تعالى «حتى اذا فرحوا بما أوتوا» الآية . وليس المراد بالأخذ بغتة اهلاكهم طرفة عين كاهلاك عاد وقوم لوط بل مايعمه ومايمضى بين الأخذ وإتمام الاهلاك أيام كدأب ثمود (ولوأن أهل القرى) أى القرى المهلكة المدلول عليها بقوله تعالى في قرية وقيل هي مكة وماحولها من القرى وقيل جنس القرى المنتظمة لما ذكر ههنا انتظاما أوليا (آمنوا) بما أوحى الى أنبيائهم معتبرين بماجرى عليهم من الابتلاء بالضراء والسراء (واتقوا) أى الكفر والمعاصى أواتقوا ماأنذروا به على ألسنة الأنبياء ولم يصروا على مافعلوا من القبائح ولم يحملوا ابتلاء الله تعالى على عادات الدهر وقال ابن عباس

رضى الله تعالى عنهما وحدوا الله واتقوا الشرك (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التى بعضها من السماء وبعضها من الارض . وقيل المراد المطر والنبات وقرئ لفتحنا بالتشديد للتكثير (ولكن كذبوا) أى ولكن لم يؤمنوا ولم يتقوا وقد اكتفى بذكر الاول لاستلزامه للثانى (فأخذناهم بما كانوا يكسبون) من أنواع الكفر والمعاصى التى من جملتها قولهم قد مس آباءنا الخ وهذا الاخذ عبارة عما فى قوله تعالى «فأخذناهم بغتة» لاعن الجدب والقحط كما قيل فانهما قد زالا بتبديل الحسنة مكان السيئة (أفأمن أهل القرى) أى أهل القرى المذكورة على وضع المظهر موضع المضمر للايذان بأن مدار التوبيخ أمن كل طائفة ماأتاهم من البأس لاأمن مجموع الامم . فأن كل طائفة منهم أصابهم بأس خاص بهم لايتعداهم الى غيرهم كما سيأتى والهمزة لانكار الواقع واستقباحه لالانكار الوقوع ونفيه كما قاله أبو شامة وغيره لقوله تعالى « فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » والفاء للعطف على أخذناهم وما بينهما اعتراض توسط بينهما للمسارعة الى بيان أن الاخذ المذكور مما كسبته أيديهم والمعنى أبعد ذلك الأخذ أمن أهل القرى (أن يأتيهم بأسنا بياتا) أي تبييتا أو وقت بيات أومبيتا أو مبيتين وهو فى الاصل مصدر بمعنى البيتوتة ويجئ بمعنى التبييت كالسلام بمعني التسليم (وهم نائمون) حال من ضميرهم البارز أو المستتر فى بياتا (أوأمن أهل القرى) أنكار بعد أنكار للمبالغة فى التوبيخ والتشديد ولذلك لم يقل «أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون» أوضحى وهم يلعبون . وقرئ أو بسكون الواو على الترديد (أن يأتيهم بأسنا ضحى) أي ضحوة النهار وهو فى الاصل ضوء الشمس اذا ارتفعت (وهم يلعبون) أى يلهون من فرط الغفلة أو يشتغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون (أفأمنوا مكر الله) تكرير للنكير لزيادة التقرير ومكر الله تعالى استعارة لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لايحتسب . والمراد به اتيان بأسه تعالى فى الوقتين المذكورين ولذلك عطف الاول والثالث بالفاء فان الانكار فيهما متوجه الى ترتب الأمن على الأخذ المذكور . وأما الثانى فمن تتمة الاول (فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) أى الذين خسروا أنفسهم وأضاعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها والاستعداد القريب المستفاد من النظر فى الآيات (اولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها) أى يخلفون من خلا قبلهم من الامم المهلكة ويرثون ديارهم . والمراد بهم أهل مكة ومن حولها وتعدية فعل الهداية باللام أما لتنزيلها

منزلة اللازم كأنه قيل أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم الخ وإما لأنها بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل على التقديرين هو الجملة الشرطية أو لم يبين لهم مآل أمرهم (أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) أي أن الشأن لو نشاء أصبناهم بجزاء ذنوبهم أو بسبب ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم وقرئ نهد بنون العظمة فالجملة مفعوله (ونطبع على قلوبهم) عطف على ما يفهم من قوله تعالى أو لم يهد كأنه قيل لا يهتدون أو يغفلون عن الهداية وعن التفكر والتأمل أو منقطع عنه بمعنى ونحن نطبع ولا يجوز عطفه على أصبناهم على أنه بمعنى طبعنا لأفضائه الى نفي الطابع عنهم لانه في سياق جواب لو (فهم لا يسمعون) أي أخبار الأمم المهلكة فضلا عن التدبر والنظر فيها والاغتنام بما في تضاعيفها من الهداية (تلك القرى) جملة مستأنفة جارية مجرى الفذلكة لما قبلها من القصص منبئة عن غاية غواية الأمم المذكورة وتماديهم فيها بعد ما أتتهم الرسل بالمعجزات الباهرة وتلك إشارة الى قرى الأمم المهلكة على أن اللام للعهد وهو مبتدأ وقوله تعالى (نقص عليك من أنبائها) خبره وصيغة المضارع للايذان بعدم انقضاء القصة بعد ومن للتبعيض أي بعض أخبارها التي فيها عظة وتذكير وقيل تلك مبتدأ والقرى خبره وما بعده حال أو خبر بعد خبر عند من يجوز كون الخبر الثاني جملة كما في قوله تعالى «فاذا هي حية تسعى» وتصدير الكلام بذكر القرى وإضافة الأنباء اليها مع أن المقصوص أنباء أهلها والمقصود بيان أحوالهم حسبما يعرب عنه قوله تعالى (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) لما أن حكاية هلاكهم بالمرة على وجه الاستئصال بحيث يشمل أماكنهم أيضا بالخسف بها والرجفة وبقائها خاوية معطلة أهول وأفظع والباء في قوله تعالى بالبينات متعلقة إما بالفعل المذكور على انها للتعدية وإما بمحذوف وقع حالا من فاعله أي ملتبسين بالبينات لكن لا بأن يأتي كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة فان مراعاة انقسام الآحاد الى الآحاد انما هي فيما بين الرسل وضمير الأمم والجملة مستأنفة مبينة لكمال عتوهم وعنادهم أي وبالله لقد جاء كل أمة من تلك الأمم المهلكة رسولهم الخاص بهم بالمعجزات البينة المتكاثرة المتواردة عليهم الواضحة الدلالة على صحة رسالته الموجبة للايمان حتما وقوله تعالى (فما كانوا ليؤمنوا) بيان لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي لا لعدم استمرار إيمانهم وترتيب حالتهم هذه على مجيء الرسل بالبينات بالفاء لما أن الاستمرار على فعل من الافعال بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه في الحقيقة لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث نحو وعظته فلم ينزجر ودعوته فلم يجب واللام لتأكيد النفي أي فما صح وما استقام لقوم من أولئك الاقوام في وقت من الأوقات

أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعا منهم الى أن لقوا مالقوا لغاية عتوهم و شدة شكيمتهم فى الكفر والطغيان ثم إن كان المحكى عنهم آخر حال كل قوم منهم فالمراد بعدم إيمانهم المذكور ههنا إصرارهم على ذلك بعد اللتيا و التى و بما أشير اليه بقوله تعالى (بما كذبوا من قبل) تكذيبهم من لدن مجيء الرسل الى وقت الاصرار والعناد و انما لم يجعل ذلك مقصودا بالذات كالاول بل جعل صلة للموصول إيذانا بأنه بين بنفسه وانما المحتاج الى البيان عدم ايمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة و تظاهر المعجزات الباهرة التى كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من أصحاب العقول و الموصول الذى تعلق به الايمان والتكذيب سلبا و ايجابا عبارة عن جميع الشرائع التى جاء بها كل رسول أصولها وفروعها وان كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر أولا كفرهم المستمر من حين مجيء الرسل الخ و بما أشير اليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من جعل الموصول المذكور عبارة عن أصول الشرائع التى أجمعت عليها الرسل قاطبة و دعوا أممهم اليها آثر ذى أثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجيء رسلهم أنهم ما كانوا فى زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا كلمة التوحيد قط بل كانت كل أمة من أولئك الأمم يتسامعون بها من بقايا من قبلهم فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجيء رسلهم كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث اليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الأيمان بما ذكر من الأصول لظهور حال الباقى بدلالة النص فانهم حين لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافة الرسل فلأن لا يؤمنوا بما تفرد به بعضهم أولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما أن ما عليه يدور فلك العذاب والعقاب هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى « و ما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وانما ذكر ما وقع قبلها بيانا لعراقتهم فى الكفر والتكذيب وعلى كلا التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة فى المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع الى أسلافهم والمعنى فما كان الأبناء ليؤمنوا بما كذب به الآباء ولايخفى ما فيه من التعسف. وقيل المراد ما كانوا ليؤمنوا لو أحييناهم بعد أهلاكهم ورددناهم الى دار التكليف بما كذبوا من قبل كقوله تعالى « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » وقيل الباء للسببية وما مصدرية أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولا يرد عليه ههنا ما ورد فى سورة يونس من مخالفة الجمهور بجعل ما المصدرية من قبيل الاسماء كما هو رأى الاخفش وابن السراج ليرجع اليه الضمير فى به (كذلك) أي مثل ذلك الطبع الشديد المحكم (يطبع الله على قلوب الكافرين) أى من المذكورين وغيرهم فلا يكاد يؤثر فيها الآيات والنذر وفيه تحذير للسامعين . واظهار الاسم الجليل

بطريق الالتفات لتربية المهابة وأدخال الروعة (وما وجدنا لأكثرهم) أى أكثر الأمم المذكورين واللام متعلقة بالوجدان كما فى قولك ما وجدت له مالا أى ماصادفت له مالا ولا لقيته أو بمحذوف وقع حالا من قوله تعالى (من عهد) لانه فى الاصل صفة للنكرة فلما قدمت عليها انتصبت حالا والاصل وما وجدنا عهدا كائنا لأكثرهم ومن مزيدة للاستغراق أى وما وجدنا لأكثرهم من وفاء عهد فانهم نقضوا ماعاهدوا الله عليه عند مساس البأساء والضراء قائلين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. فتخصيص هذا الشأن بأكثرهم ليس لان بعضهم كانوا يوفون بعهودهم بل لان بعضهم كانوا لا يعهدون ولا يوفون. وقيل المراد بالعهد ماعهد الله تعالى اليهم من الايمان والتقوى بنصب الآيات وانزال الحجج. وقيل ما عهدوا عند خطاب «ألست بربكم» فالمراد بأكثرهم كلهم وقيل الضمير للناس والجملة اعتراض فان أكثرهم لا يوفون بالعهود بأى معنى كان (وان وجدنا أكثرهم) أي أكثر الامم أى علمناهم كما فى قولك وجدت زيدا ذا حفاظ وقيل الاول أيضا كذلك وان مخففة من أن وضمير الشان محذوف أى ان الشأن وجدناهم (لفاسقين) خارجين عن الطاعة ناقضين للعهود وعند الكوفيين أن ان نافية واللام بمعنى الا أى ما وجدناهم الا فاسقين (ثم بعثنا من بعدهم موسى) أى أرسلناه من بعد انقضاء وقائع الرسل المذكورين أو من بعد هلاك الامم المحكية والتصريح بذلك مع دلالة ثم على التراخى للايذان بان بعثه عليه الصلاة والسلام جرى على سنن السنة الالهية من أرسال الرسل تترى وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر (بآياتنا) متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعول بعثنا أو صفة لمصدره أى بعثناه عليه الصلاة والسلام ملتبسا بآياتنا أو بعثناه بعثا ملتبسا بها وهى الآيات التسع المفصلات التى هى العصا واليد البيضاء والسنون ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم حسبما سيأتى على التفصيل (الى فرعون) هو لقب لكل من ملك مصر من العمالقة. كما أن كسرى لقب لكل من ملك فارس. وقيصر لكل من ملك الروم. واسمه قابوس. وقيل الوليد بن مصعب بن الريان (وملئه) أي أشراف قومه. وتخصيصهم بالذكر مع عموم رسالته عليه الصلاة والسلام لقومه كافة حيث كانوا جميعا مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية لأصالتهم فى تدبير الامور واتباع غيرهم لهم فى الورود والصدور (فظلموا بها) أي كفروا بها أجرى الظلم مجرى الكفر لكونهما من واد واحد أو ضمن معنى الكفر أو التكذيب أى ظلموا كافرين بها

أو مكذبين بها أو كفروا بها مكان الأيمان الذى هو من حقها لوضوحها ولهذا المعنى وضع ظلموا موضع كفروا وقيل ظلموا أنفسهم بسببها بأن عرضوها للعذاب الخالد أوظلموا الناس لصدهم عن الايمان بها والمراد به الاستمرار على الكفر بهاالى أن لقوا من العذاب مالقوا ألا يرى الى قوله تعالى (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) فكما أن ظلمهم بها مستتبع لتلك العاقبة الهائلة كذلك حكاية ظلمهم بها مستتبع للأمر بالنظر اليها وكيف خبر كان قدم على اسمها لاقتضائه الصدارة والجملة فى حيز النصب بأسقاط الخافض أي فانظر بعين عقلك الى كيفية مافعلنا بهم ووضع المفسدين موضع ضميرهم للأيذان بأن الظلم مستلزم للأفساد (وقال موسى) كلام مبتدأ مسوق لتفصيل ما أجمل فيما قبله من كيفية أظهار الآيات وكيفية عاقبة المفسدين (يافرعون انى رسول) أى اليك (من رب العالمين) على الوجه الذى مر بيانه (حقيق على أن لاأقول على الله الا الحق) جواب عما ينساق اليه الذهن من حكاية ظلمهم بالآيات من تكذيبه اياه عليه الصلاة والسلام فى دعوى الرسالة وكان أصله حقيق على أن لاأقول الخ كما هو قراءة نافع فقلب للأمن من الألباس كما فى قول من قال . وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر . أو لان مالزمك فقد لزمته أو للأغراق فى الوصف بالصدق والمعنى واجب على القول الحق أن أكون أنا قائله لايرضى الا بمثلى ناطقا به أو ضمن حقيق معنى حريص أو وضع على موضع الباء لافادة التمكن كقولهم رميت على القوس وجئت على حال حسنة ويؤيده قراءة أبى بالباء وقرىء حقيق أن لاأقول وقوله تعالى (قد جئتكم ببينة من ربكم) استئناف مقرر لما قبله من كونه رسولا من رب العالمين وكونه حقيقا بقول الحق ولم يكن هذا القول منه عليه الصلاة والسلام ومابعده من جواب فرعون أثر ماذكرههنا بل بعد ماجرى بينهما من المحاورة المحكية بقوله تعالى قال « فمن ربكما » الآيات وقوله تعالى وما رب العالمين الآيات وقدطوى ههنا ذكره للأيجاز ومن متعلقة اما بجئتكم على أنها لابتداء الغاية مجازا و إما بمحذوف وقع صفة لبينة مفيدة لفخامتها الأضافية المؤكدة لفخامتها الذاتية المستفادة من التنوين التفخيمى أضافة اسم الرب الى المخاطبين بعد اضافته فيما قبله الى العالمين لتأكيد وجوب الايمان بها (فأرسل معى بنى أسرائيل) أى فخلهم حتى يذهبوا معى الى الارض المقدسة التى هى وطن آبائهم وكان قد استعبدهم بعد انقراض الاسباط يستعملهم ويكلفهم الأفاعيل الشاقة فأنقذهم الله تعالى بموسى عليه الصلاة والسلام وكان بين اليوم الذى دخل يوسف مصر واليوم الذى دخله موسى عليهما السلام أربعمائة عام. والفاء لترتيب الأرسال أو الامر به على ماقبله من

رسالته عليه السلام ومجيئه بالبينة (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الكلام كانه قيل فماذا قال فرعون له عليه الصلاة والسلام حين قال له ماقال فقيل قال (ان كنت جئت بآية) أى من عند من أرسلك كما تدعيه (فأت بها) أى فأحضرها حتى تثبت بها رسالتك (ان كنت من الصادقين) فى دعواك فان كونك من جملة المعروفين بالصدق يقتضى أظهار الآية لامحالة (فألقى عصاه فاذاهى ثعبان مبين) أى ظاهر أمره لايشك فى كونه ثعبانا وهوالحية العظيمة . وايثار الجملة الاسمية للدلالة على كمالسرعة الانقلاب وثبات وصف الثعبانية فيها كأنها فى الاصل كذلك . روى أنه لما ألقاها صارت ثعبانا أشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الاسفل على الأرض والاعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث فانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذى أرسلك خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بنى اسرائيل فأخذه فعاد عصا (ونزع يده) أى من جيبه أو من تحت أبطه (فاذا هى بيضاء للناظرين) أى بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن العادة يجتمع عليه النظارة تعجبا من أمرها وذلك ماروى أنه أرى فرعون يده وقال ماهذه فقال يدك ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها فاذا هى بيضاء بياضا نورانيا غلب شعاعه شعاع الشمس وكان عليه السلام آدم شديد الأدمة وقيل بيضاء للناظرين لأنها كانت بيضاء فى جبلتها (قال الملأ من قوم فرعون) أى الاشراف منهم وهم أصحاب مشورته (ان هذا لساحر عليم) أى مبالغ فى علم السحر ماهر فيه قالوه تصديقا لفرعون وتقريراً لكلامه فان هذا القول بعينه معزى فى سورة الشعراء إليه (يريد أن يخرجكم من أرضكم) أى من أرض مصر (فماذا تأمرون) بفتح النون وما فى ماذا فى محل النصب على أنه مفعول ثان لتأمرون بحذف الجار والاول محذوف والتقدير بأى شئ تأمرونى وهذا من كلام فرعون كما فى قوله تعالى « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب » أى فاذا كان كذلك فماذا تشيرون على فى أمره وقيل قاله الملأ من قبله بطريق التبليغ الى العامة فقوله تعالى (قالوا أرجه وأخاه) على الأول وهو الأظهر حكاية لكلام الملأ الذين شاورهم فرعون وعلى الثانى لكلام العامة الذين خاطبهم الملأ ويأباه أن الخطاب لفرعون وأن المشاورة ليست من وظائفهم أى أخره وأخاه وعدم التعرض لذكره لظهور كونه معه حسبما تنادى به الآيات الأخر والمعنى أخر أمرهما وأصدرهما عنك حتى ترى رأيك فيهما وتدبر شأنهما . وقرئ أرجئه وأرجه من أرجأه وأرجاه (وأرسل فى المدائن حاشرين)

قيل هى مدائن صعيد مصر وكان رؤساء السحرة ومهرتهم بأقصى مدائن الصعيد وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم كانوا سبعين ساحراً أخذوا السحر من رجلين مجوسيين من أهل نينوى مدينة يونس عليه السلام بالموصل ورد ذلك بأن المجوسية ظهرت بزرادشت وهو انما جاء بعد موسى عليه الصلاة والسلام (يأتوك بكل ساحر عليم) أى ماهر فى السحر . وقرىء بكل سحار عليم والجملة جواب الامر (وجاء السحرة فرعون) بعدما أرسل اليهم الحاشرين وانما لم يصرح به حسبما فى قوله تعالى « فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين » للايذان بمسارعة فرعون الى الارسال ومبادرة الحاشرين والسحرة الى الامتثال (قالوا) استئناف منوط بسؤال نشأ من حكاية مجيء السحرة كانه قيل فماذا قالوا له عند مجيئهم اياه فقيل قالوا مدلين بما عندهم واثقين بغلبتهم (ان لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين) بطريق الأخبار بثبوت الأجر وايجابه كانهم قالوا لابدلنا من أجر عظيم حينئذ أو بطريق الاستفهام التقريرى بحذف الهمزة وقرىء باثباتها وقولهم ان كنا لمجرد تعيين مناط ثبوت الاجر لا لترددهم فى الغلبة وتوسيط الضمير وتحلية الخبر باللام للقصر أى إن كنا نحن الغالبين لاموسى (قال نعم) وقوله تعالى (وانكم لمن المقربين) عطف على محذوف سد مسده حرف الايجاب كانه قال ان لكم لاجرا وانكم مع ذلك لمن المقربين للمبالغة فى الترغيب . روى أنه قال لهم تكونون أول من يدخل مجلسى وآخر من يخرج منه (قالوا) استئناف كما مركانه قيل فماذا فعلوا بعد ذلك فقيل قالوا متصدين لشأنهم مخاطبين لموسى عليه السلام (ياموسى اما ان تلقى) ماتلقى أولا (واما أن نكون نحن الملقين) أى لما نلقى أولا أو الفاعلين للالقاء أولا خيروه عليه السلام بالبدء بالالقاء مراعاة للادب واظهارا للجلادة وأنه لايختلف حالهم بالتقديم والتأخير ولكن كانت رغبتهم فى التقديم كما ينبئ عنه تغييرهم للنظم بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل وتأكيد الضمير المتصل (قال ألقوا) غير مبال بأمرهم أى القوا ماتلقون (فلما ألقوا) ماألقوا (سحروا أعين الناس) بأن خيلوا اليهم مالا حقيقة له (واسترهبوهم) أي بالغوا فى أرهابهم (وجاؤا بسحر عظيم) فى بابه روى أنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا كانها حيات ملأت الوادى وركب بعضها بعضا (وأوحينا الى موسى أن الق عصاك فاذا هى تلقف مايأفكون) الفاء فصيحة أى فألقاها فصارت حية فاذا هى الآية وانما حذف للاشعار بمسارعة موسى عليه السلام الى الالقاء وبغاية سرعة الانقلاب كأن لقفها لما يأفكون قد حصل متصلا بالأمر بالالقاء وصيغة المضارع لاستحضار صورة اللقف الهائلة والأفك الصرف والقلب عن الوجه

المعتاد وماموصولة أوموصوفة والعائد محذوف أى ماياًفكونه ويزورونه أومصدرية وهى مع الفعل بمعنى المفعول . روى أنها لماتلقفت ملء الوادى من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصا كما كانت وأعدم الله تعالى بقدرته الباهرة تلك الأجرام العظام أوفرقها أجزاء لطيفة قالت السحرة لو كان هذا سحرا لبقيت حبالنا وعصينا (فوقع الحق) أى فثبت لظهور أمره (وبطل ما كانوا يعملون) أى ظهر بطلان ما كانوا مستمرين على عمله (فغلبوا) أي فرعون وقومه (هنالك) أى فى مجلسهم (وانقلبوا صاغرين) أى صاروا أذلاء مبهوتين أو رجعوا الى المدينة أذلاء مقهورين والاول هو الظاهر لقوله تعالى (وألقى السحرة ساجدين) فان ذلك كان بمحضر من فرعون قطعا أى خروا سجدا كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم كيف لا وقد بهرهم الحق واضطرهم الى ذلك (قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) أبدلوا الثانى من الأول لئلا يتوهم أن مرادهم فرعون . عن ابن عباس رضى عنهما أنه قال لما آمنت السحرة اتبع موسى من بنى اسرائيل ستمائة ألف (قال فرعون) منكرا على السحرة موبخا لهم على ما فعلوه (آمنتم به) بهمزة واحدة اما على الأخبار المحض المتضمن للتوبيخ أو على الاستفهام التوبيخى بحذف الهمزة كما مر فى أن لنا لاجرا وقد قرئ بتحقيق الهمزتين معا وبتحقيق الأولى وتسهيل الثانية بين بين. أى آمنتم بالله تعالى (قبل أن آذن لكم) أي بغير أن آذن لكم كما فى قوله تعالى « لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى » لأن الاذن منه ممكن فى ذلك (إن هذا لمكر مكرتموه) يعنى أن ماصنعتموه ليس مما اقتضى الحال صدوره عنكم لقوة الدليل وظهور المعجزة بل هو حيلة احتلتموها مع مواطأة موسى (فى المدينة) يعنى مصر قبل أن تخرجوا الى الميعاد . روى أن موسى عليه الصلاة والسلام وأمير السحرة التقيا فقال له موسى أرأيتك أن غلبتك أتؤمن بى وتشهد أن ماجئت به الحق فقال الساحر والله لئن غلبتنى لأومنن بك وفرعون يسمعهما وهو الذى نشأ عنده هذا القول (لتخرجوا منها أهلها) أى القبط وتخلص هى لك ولبنى اسرائيل وهاتان شبهتان ألقاهما الى أسماع عوام القبط عند معاينتهم لارتفاع أعلام المعجزة ومشاهدتهم لخضوع أعناق السحرة لها وعدم تمالكهم من أن يؤمنوا بها لمنعهم بهما عن الايمان بنبوة موسى عليه الصلاة والسلام بار اءة أن ايمان السحرة مبنى على المواضعة بينهم وبين موسى وأن غرضهم بذلك اخراج القوم من المدينة وابطال ملكهم ومعلوم أن مفارقة الاوطان المألوفة والنعمة المعروفة مما لايطاق به . فجمع اللعين بين الشبهتين تثبيتا للقبط على ماهم عليه وتهييجا لعداوتهم له

عليه الصلاة و السلام ثم عقبهما بالوعيد ليريهم أن له قوة وقدرة على المدافعة فقال (فسوف تعلمون) أى عاقبة ما فعلتم وهذا وعيد ساقه بطريق الاجمال للتهويل ثم عقبه بالتفصيل فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أى من كل شق طرفا (ثم لاصلبنكم أجمعين) تفضيحا لكم و تنكيلا لأمثالكم قيل هو أول من سن ذلك فشرعه الله تعالى لقطاع الطريق تعظيما لجرمهم ولذلك سماه الله تعالى محاربة لله ورسوله (قالوا) استئناف مسوق للجواب عن سؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل فماذا قال السحرة عندما سمعوا وعيد فرعون هل تأثروا به أو تصلبوا فيما هم فيه من الدين فقيل قالوا ثابتين على ما أحدثوا من الايمان (انا الى ربنا منقلبون) أى بالموت لا محالة فسواء كان ذلك من قبلك أولا فلا نبالى بوعيدك أو انا الى رحمة ربنا وثوابه منقلبون ان فعلت بنا ذلك كأنهم استطابوه شغفا على لقاء الله تعالى أو انا جميعا الى ربنا منقلبون فيحكم بيننا و بينك (وما تنقم منا) أي وما تنكر وتعيب منا (الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) وهو خير الاعمال وأصل المفاخر ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلبا لمرضاتك ثم أعرضوا عن مخاطبته اظهارا لما فى قلوبهم من العزيمة على ما قالوا وتقريرا له ففزعوا الى الله عز وجل وقالوا (ربنا أفرغ علينا صبرا) أى أفض علينا من الصبر ما يغمرنا كما يغمر الماء أو صب علينا ما يطهرنا من أوضار الأوزار وأدناس الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون (وتوفنا مسلمين) ثابتين على ما رزقتنا من الاسلام غير مفتونين من الوعيد قيل فعل بهم ما أوعدهم به وقيل لم يقدر عليه لقوله تعالى أنتما ومن اتبعكما الغالبون (وقال الملأ من قوم فرعون) مخاطبين له بعد ما شاهدوا من أمر موسى عليه السلام (اتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الارض) أى فى أرض مصر بتغيير الناس عليه وصرفهم عن متابعتك (ويذرك) عطف على يفسدوا أو جواب الاستفهام بالواو كما فى قول الحطيئة :

ألم أك جاركم ويكون بينى و بينكم المودة والاخاء

أى أيكون منك ترك موسى ويكون تركه اياك . وقرئ بالرفع عطفا على أتذر أو استئنافا أو حالا وقرئ بالسكون كانه قيل يفسدوا ويذرك كقوله تعالى «فأصدق وأكن» (وآلهتك) ومعبوداتك قيل انه كان يعبد الكواكب وقيل صنع لقومه أصناما وأمرهم بان يعبدوها تقربا اليه ولذلك قال أنا ربكم الاعلى وقرئ وآلهتك أى عبادتك (قال) مجيبا لهم (سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم) كما كنا نفعل بهم ذلك من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ولا يتوهم أنه المولود الذى حكم المنجمون

والكهنة بذهاب ملكنا على يديه وقرئ سنقتل بالتخفيف (وانا فوقهم قاهرون) كما كنا لم يتغير حالنا أصلا وهم مقهورون تحت أيدينا كذلك (قال موسى لقومه) تسلية لهم وعدة بحسن العاقبة حين سمعوا قول فرعون وتضجروا منه (استعينوا بالله واصبروا) على ماسمعتم من أقاويله الباطلة (ان الارض لله) أى أرض مصر أو جنس الارض وهى داخلة فيها دخولا أوليا (يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) الذين أنتم منهم وفيه أيذان بأن الاستعانة بالله تعالى والصبر من باب التقوى وقرئ والعاقبة بالنصب عطفا على اسم ان (قالوا) أى بنو اسرائيل (أوذينا) أى من جهة فرعون (من قبل أن تأتينا) أى بالرسالة يعنون بذلك قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه الصلاة والسلام وبعده (ومن بعد ماجئتنا) أى رسولا يعنون به ما توعدهم به من اعادة قتل الابناء وسائر ماكان يفعل بهم لعدواة موسى عليه السلام من فنون الجور والظلم والعذاب وأما ما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن كما قيل فليس مما يلحقهم بواسطته عليه السلام فليس لذكره كثير ملابسة بالمقام (قال) أى موسى عليه الصلاة والسلام لما رأى شدة جزعهم مما شاهدوه مسليا لهم بالتصريح بما لوح به فى قوله ان الارض لله الخ (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) الذى فعل بكم مافعل وتوعدكم بأعادته (ويستخلفكم فى الارض) أى يجعلكم خلفاء فى أرض مصر (فينظر كيف تعملون) احسنا أم قبيحا فيجازيكم حسبما يظهر منكم من الاعمال وفيه تأكيد للتسلية وتحقيق للامر قيل لعل الاتيان بفعل الطمع لعدم الجزم منه عليه السلام بأنهم هم المستخلفون باعيانهم أو أولادهم فقد روى ان مصر انما فتحت فى زمن داود عليه السلام ولا يساعده قوله تعالى« وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها » فان المتبادر استخلاف أنفس المستضعفين لاستخلاف أولادهم وانما مجىء فعل الطمع للجرى على سنن الكبرياء (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) شروع فى تفصيل مبادى الهلاك الموعود وايذان بأنه تعالى لم يمهلهم بعد ذلك ولم يكونوا فى خفض ودعة بل رتبت أسباب هلاكهم فتحولوا من حال الى حال الى أن حل بهم عذاب الاستئصال . وتصدير الجملة بالقسم لأظهار الاعتناء بمضمونها والسنون جمع سنة والمراد بها عام القحط وفيها لغتان اشهرهما اجراؤها مجرى المذكر السالم فيرفع بالواو وينصب ويجر بالياء وتحذف نونه بالاضافة واللغة الثانية أجراء الاعراب على النون ولكن مع الياء خاصة أما بأثبات تنوينها أو بحذفه قال الفراء هى فى هذه اللغة مصروفة عند بنى عامر وغير مصروفة عند بنى تميم ووجه

حذف التنوين التخفيف وحينئذ لا تحذف النون للاضافة وعلى ذلك جاء قول الشاعر:

دعاني من نجد فأن سنينه * لعبن بنا شيبا وشيبننا مردا

وجاء الحديث «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف وسنينا كسنين يوسف» باللغتين (ونقص من الثمرات) بأصابة العاهات. عن كعب يأتى على الناس زمان لاتحمل النخلة الا ثمرة. قال ابن عباس رضى الله عنهما أما السنون فكانت لباديتهم وأهل ماشيتهم وأما نقص الثمرات فكان فى أمصارهم (لعلهم يذكرون) كى يتذكروا ويتعظوا بذلك ويقفوا على أن ذلك لأجل معاصيهم وينزجروا عماهم عليه من العتو والعناد قال الزجاج إن أحوال الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله عز وجل وفى الرجوع إليه تعالى ألا يرى الى قوله تعالى «واذا مسه الشر فذو دعاء عريض» وقد مر تحقيق القول فى لعل وفى محلها فى تفسير قوله تعالى لعلكم تتقون فى أوائل سورة البقرة وقوله تعالى (فاذا جاءتهم الحسنة) الخ بيان لعدم تذكرهم وتماديهم فى الغى أي فاذا جاءتهم السعة والخصب وغيرهما من الخيرات (قالوا لنا هذه) أى لأجلنا واستحقاقنا لها (وان تصبهم سيئة) أي جدب وبلاء (يطيروا بموسى ومن معه) أى يتشاءموا بهم ويقولوا ما أصابتنا الا بشؤمهم وهذا كما ترى شاهد بكمال قساوة قلوبهم ونهاية جهلهم وغباوتهم فان الشدائد ترقق القلوب وتلين العرائك لاسيما بعد مشاهدة الآية وقد كانوا بحيث لم يؤثر فيهم شيء منها بل ازدادوا عتوا وعنادا وتعريف الحسنة وذكرها بأداة التحقيق للايذان بكثرة وقوعها وتعلق الارادة بها بالذات كما أن تنكير السيئة وايرادها بحرف الشك للأشعار بندرة وقوعها وعدم تعلق الأرادة بها الا بالعرض وقوله تعالى (ألا انما طائرهم عند الله) استئناف مسوق من قبله تعالى لرد مقالتهم الباطلة وتحقيق الحق فى ذلك وتصديره بكلمة التنبيه لأبراز كمال العناية بمضمونه أي ليس سبب خيرهم الا عنده تعالى وهو حكمه ومشيئته المتضمنة للحكم والمصالح أو ليس سبب شؤمهم وهو أعمالهم السيئة الا عنده تعالى أى مكتوبة لديه فانها التى ساقت اليهم ما يسوءهم الا ماعداها وقرىء انما طيرهم وهو اسم جمع طائر وقيل جمع له (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك فيقولون مايقولون مما حكى عنهم. واسناد عدم العلم الى أكثرهم للاشعار بأن بعضهم يعلمون أن ما أصابهم من الخير والشر من جهة الله تعالى أو يعلمون أن ما أصابهم من المصائب والبلايا ليس الا بما كسبت أيديهم ولكن لايعلمون بمقتضاه عنادا واستكبارا (وقالوا) شروع فى بيان بعض آخر مما أخذ به آل فرعون من فنون العذاب التي هى فى أنفسها آيات بينات وعدم ارعوائهم مع ذلك عما كانوا عليه من

الكفر والعناد أى قالوا بعد ما رأوا ما رأوا من شأن العصا والسنين ونقص الثمرات (مهما تأتنا به) كلمة مهما تستعمل للشرط والجزاء وأصلها ما الجزائية ضمت اليها ما المزيدة للتأكيد كما ضمت الى أين وأن فى أينما تكونوا فأما نذهبن بك خلا أن ألف الاولى قلبت هاء حذرا من تكرير المتجانسين هذا هو الرأى السديد وقيل مه كلمة يصوت بها الناهى ضمت اليها ما الشرطية ومحلها الرفع بالابتداء أو النصب بفعل يفسره مابعدها أى أى شيء تظهره لدينا وقوله تعالى (من آية) بيان لمهما وتسميتهم اياها آية لمجاراتهم على رأى موسى عليه السلام واستهزائهم بها وللاشعار بأن عنوان كونها آية لا يؤثر فيهم وقوله تعالى (لتسحرنا بها) اظهار لكمال الطغيان والغلو فيه وتسمية للارشاد الى الحق بالسحر وتكبير للابصار والضميران المجروران راجعان الى مهما وتذكير الاول لمراعاة جانب اللفظ لابهامه وتأنيث الثانى للمحافظة على جانب المعنى لتبينه بآية كما فى قوله تعالى «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له» (فما نحن لك بمؤمنين) بمصدقين لك ومؤمنين لنبوتك (فأرسلنا عليهم) عقوبة لجرائمهم لاسيما لقولهم هذا (الطوفان) أى الماء الذى طاف بهم وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل وقيل هو الجدرى وقيل الموتان وقيل الطاعون (والجراد والقمل) قيل هو كبار القردان وقيل أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها (والضفادع والدم) روى أنهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لا يستطيع أن يخرج أحد من بيته ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه الى تراقيهم ولم يدخل بيوت بنى إسرائيل منه قطرة وهى فى خلال بيوتهم وفاض الماء على أرضهم وركد . فمنعهم من الحرث والتصرف ودام ذلك سبعة أيام فقالوا له عليه الصلاة والسلام ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك فدعا فكشف عنهم فنبت من العشب والكلأ مالم يعهد قبله ولم يؤمنوا فبعث الله عليهم الجراد فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم . ففزعوا اليه عليه الصلاة والسلام لما ذكر فخرج الى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الى النواحى التى جاءت منها فلم يؤمنوا فسلط الله تعالى عليهم القمل فاكل ما أبقته الجراد وكان يقع فى أطعمتهم ويدخل بين ثيابهم وجلودهم فيمصها ففزعوا اليه ثالثا فرفع عنهم . فقالوا قد تحققنا الآن أنك ساحر . ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام الا وجدت فيه وكانت تمتلىء منها مضاجعهم وتثب الى قدورهم وهى تغلى والى أفواههم عند التكلم ففزعوا اليه رابعا وتضرعوا فأخذ عليهم العهود . فدعا فكشف الله عنهم فنقضوا العهد . فارسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماء حتى كان يجتمع القبطى والاسرائيلى على أناء فيكون مايليه دما وما يلى الاسرائيلى

ماء على حاله ويمص من فم الاسرائيلى فيصير دما فى فيه . وقيل سلط الله عليهم الرعاف (آيات) حال من المنصوبات المذكورة (مفصلات) مبينات لايشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته . وقيل مفرقات بعضها من بعض لامتحان أحوالهم وكان بين كل آيتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة منها أسبوعا وقيل انه عليه السلام لبث فيهم بعد ماغلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل (فاستكبروا) أى عن الايمان بها (وكانوا قوما مجرمين) جملة معترضة مقررة لمضمون ماقبلها (ولما وقع عليهم الرجز)) أى العذاب المذكور على التفصيل فاللام للجنس المنتظم لكل واحدة من الآيات المفصلة أى كلما وقع عليهم عقوبة من تلك العقوبات (قالوا) فى كل مرة (ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) أى بعهده عندك وهو النبوة أو بالذى عهد اليك أن تدعوه فيجيبك كما أجابك فى آياتك وهو صلة لادع أو حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلا اليه بما عهد عندك أو متعلق بمحذوف دل عليه التماسهم مثل أسعفنا الى مانطلب بحق ماعندك أو قسم أجيب بقوله تعالى (لئن كشفت عنا الرجز) الذى وقع علينا (لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل) أي أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت الخ (فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه) أى الى حد من الزمان هم بالغوه فمعذبون بعده أو ملكهون (اذا هم ينكثون) جواب لما أى فلما كشفنا عنهم فاجؤا النكث من غير تأمل وتوقف (فانتقمنا منهم) أى فأردنا أن ننتقم منهم لما أسلفوا من المعاصى والجرائم فان قوله تعالى (فاغرقناهم) عين الانتقام منهم فلا يصح دخول الفاء بينهما ويجوز أن يكون المراد مطلق الانتقام منهم والفاء تفسيرية كما فى قوله تعالى «ونادى نوح ربه فقال رب» الخ (فى اليم) فى البحر الذى لايدرك قعره وقيل فى لجته (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) تعليل للاغراق أى كان اغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى واعراضهم عنها وعدم تفكرهم فيها بحيث صاروا كالغافلين عنها بالكلية والفاء وان دلت على ترتب الاغراق على ماقبله من النكث لكنه صرح بالتعليل ايذانا بأن مدار جميع ذلك تكذيب آيات الله تعالى والاعراض عنها ليكون ذلك مزجرة للسامعين عن تكذيب الآيات الظاهرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والاعراض عنها (واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) أي بالاستعباد وذبح الابناء والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده وهم بنو اسرائيل ذكروا بهذا العنوان اظهارا لكمال لطفه تعالى بهم وعظيم احسانه اليهم فى رفعهم من حضيض المذلة الى أوج العزة (مشارق الارض

ومغاربها) أى جانبها الشرقى والغربى حيث ملكها بنو اسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتصرفوا فى أكنافها الشرقية والغربية كيف شاءوا وقوله تعالى (التى باركنا فيها) أى بالخصب وسعة الارزاق صفة للمشارق والمغارب وقيل للارض وفيه ضعف للفصل بين الصفة والموصوف بالمعطوف كما فى قولك قامت أم هند وأبوها العاقلة (وتمت كلمة ربك الحسنى) وهى وعده تعالى اياهم بالنصر والتمكين كما ينبىء عنه قوله تعالى «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» وقرىء كلمات لتعدد المواعيد ومعنى تمت مضت واستمرت (على بنى اسرائيل بما صبروا) أى بسبب صبرهم على الشدائد التى كابدوها من جهة فرعون وقومه (ودمرنا) أى خربنا وأهلكنا (ما كان يصنع فرعون وقومه) من العمارات والقصور أى ودمرنا الذى كان فرعون يصنعه على أن فرعون اسم كان ويصنع خبر مقدم والجملة الكونية صلة ما والعائد محذوف وقيل اسم كان ضمير عائد الى ما الموصولة ويصنع مسند الى فرعون والجملة خبر كان والعائد محذوف أيضا والتقدير ودمرنا الذى كان هو يصنعه فرعون الخ وقيل كان زائدة وما مصدرية والتقدير مايصنع فرعون الخ وقيل كان زائدة كما ذكر وما موصولة اسمية والعائد محذوف تقديره ودمرنا الذى يصنعه فرعون الخ أى صنعه والعدول الى صيغة المضارع على هذين القولين لاستحضار الصورة (وما كانوا يعرشون) من الجنات أو ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان وقرىء يعرشون بضم الراء والكسر أفصح وهذا آخر قصة فرعون وقومه وقوله عز وجل (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) شروع فى قصة بنى اسرائيل وشرح ما أحدثوه من الامور الشنيعة بعد أن أنقذهم الله عز وجل من ملكة فرعون ومن عليهم من النعم العظام الموجبة للشكر وأراهم من الآيات الكبار ماتخر له صم الجبال تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وايقاظا للمؤمنين حتى لايغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم وجاوز بمعنى جاز وقرىء جوزنا بالتشديد وهو أيضا بمعنى جاز فعدى بالباء أى قطعنا بهم البحر روى أنه عبر بهم موسى عليه السلام يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله تعالى فرعون فصاموه شكرا لله عز وجل (فأتوا) أى مروا (على قوم) قيل كانوا من لخم وقيل من العمالقة الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم (يعكفون على أصنام لهم) أى يواظبون على عبادتها ويلازمونها وقرىء بكسر الكاف قال ابن جريج كانت أصنامهم تماثيل بقر وهو أول شأن العجل (قالوا) عند ماشاهدوا أحوالهم (ياموسى اجعل لنا الها) مثالا نعبده (كما لهم آلهة) الكاف متعلقة بمحذوف وقع صفة لالها وما موصولة ولهم صلتها وآلهة بدل من ما

والتقدير اجعل لنا الها كائنا كالذى استقر هو لهم (قال انكم قوم تجهلون) تعجب عليه السلام من قولهم هذا أثر ماشاهدوا من الآية الكبرى والمعجزة العظمى فوصفهم بالجهل المطلق اذ لاجهل أعظم مما ظهر منهم وأكده بقوله (ان هؤلاء) يعنى القوم الذين يعبدون تلك التماثيل (متبر) أى مدمر مكسر (ماهم فيه) أى من الدين الباطل أى يتبر الله تعالى و يهدم دينهم الذى هم عليه عن قريب و يحطم أصنامهم و يتركها رضاضا وانما جيء بالجملة الاسمية للدلالة على التحقق (و باطل) أى مضمحل بالكلية (ما كانوا يعملون) من عبادتها و ان كان قصدهم بذلك التقرب الى الله تعالى فانه كفر محض وليس هذا كما فى قوله تعالى «وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا» كما توهم فان المراد به أعمال البر التى عملوها فى الجاهلية فانها فى أنفسها حسنات لو قارنت الايمان لاستتبعت أجورها وانما بطلت لمقارنتها الكفر وفى ايقاع هؤلاء اسما لأن و تقديم الخبر من الجملة الواقعة خبرا لها وسم لعبدة الاصنام بأنهم هم المعرضون للتبار و أنه لا يعدوهم ألبتة و أنه لهم ضربة لازب ليحذرهم عاقبة ماطلبوا و يبغض اليهم ما أحبوا (قال أغير الله أبغيكم آلها) شروع فى بيان شئون الله تعالى الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى بعد بيان أن ماطلبوا عبادته مما لايمكن طلبه أصلا لكونه هالكا باطلا ولذلك وسط بينهما قال مع كون كل منهما كلام موسى عليه الصلاة والسلام والاستفهام للانكار والتعجب والتوبيخ وادخال الهمزة على غير للايذان بأن المنكر هو كون المبغى غيره تعالى لما أنه لاختصاص الانكار بغيره تعالى دون انكار الاختصاص بغيره تعالى وانتصاب غير على أنه مفعول أبغى بحذف اللام أى أبغى لكم أى أطلب لكم غير الله تعالى وآلها أما تمييز أوحال أوعلى الحالية من الها وهو المفعول لابغى على أن الاصل ابغى لكم الها غير الله فغير الله صفة لآلها. فلما قدمت صفة النكرة انتصبت حالا (وهو فضلكم على العالمين) أى والحال انه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم وفيه تنبيه على ماصنعوا من سوء المعاملة حيث قابلوا تخصيص الله تعالى اياهم من بين أمثالهم بما لم يستحقوه تفضلا بأن عمدوا الى أخس شيء من مخلوقاته تعالى فجعلوه شريكا له تعالى تبالهم ولما يعبدون (واذ أنجيناكم) تذكير لهم من جهته سبحانه بنعمة الانجاء من ملكة فرعون. وقرئ نجيناكم من التنجية وقرئ أنجيناكم فيكون مسوقا من جهة موسى عليه الصلاة والسلام أى واذكروا وقت إنجائنا أياكم (من آل فرعون) من ملكتهم لا بمجرد تخليصكم من أيديهم وهم على حالهم فى المكنة والقدرة بل بأهلاكهم بالكلية وقوله تعالى (يسومونكم سوء العذاب) من سامه خسفا أى أولاه إياه أوكلفه

إياه وهو إما استئناف لبيان ما أنجاهم منه أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما معا لاشتماله على ضمير يهما وقوله تعالى (يقتلون ابناءكم ويستحيون نساءكم) بدل من يسومونكم مبين أو مفسر له (وفى ذلكم) الأنجاء أو سوء العذاب (بلاء) أى نعمة أو محنة (من ربكم) من مالك أمركم فان النعمة والنقمة كلتاهما منه سبحانه وتعالى (عظيم) لايقادر قدره (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) روى ان موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون سأل موسى عليه السلام ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة فلما تم الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك . فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك . وقيل أوحى الله تعالى اليه أما علمت ان ريح فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك . فأمره الله تعالى بأن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك وذلك قوله تعالى (وأتممناها بعشر) والتعبير عنها بالليالى لأنها غرر الشهور وقيل أمره تعالى بأن يصوم ثلاثين يوما وأن يعمل فيها بما يقربه من الله تعالى ثم أنزلت عليه التوراة فى العشر وكلم فيها وقد أجمل ذكر الاربعين فى سورة البقرة وفصل ههنا وواعدنا بمعنى وعدنا وقد قرىء كذلك وقيل الصيغة على بابها بناء على تنزيل قبول موسى عليه السلام منزلة الوعد وثلاثين مفعول ثان لوعدنا بحذف المضاف أى إتمام ثلاثين ليلة (فتم ميقات ربه أربعين ليلة) أي بالغا أربعين ليلة (وقال موسى لأخيه هرون) حين توجه الى المناجاة حسبما أمر به (اخلفنى) أي كن خليفتى (فى قومى) وراقبهم فيما يأتون وما يذرون (وأصلح) ما يحتاج الى الاصلاح من أمورهم أو كن مصلحا (ولا تتبع سبيل المفسدين) أى لاتتبع من سلك الافساد ولا تطع من دعاك اليه (ولما جاء موسى لميقاتنا) لوقتنا الذي وقتناه واللام للاختصاص أي اختص مجيئه بميقاتنا (وكلمه ربه) من غير واسطة كما يكلم الملائكة عليهم السلام وفيما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه عز وجل ليس من جنس سماع كلام المحدثين (قال رب أرنى أنظر اليك) أى أرنى ذاتك بأن تمكننى من رؤيتك أو تتجلى لي فأنظر اليك وأراك وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة فى الجملة لما أن طلب المستحيل مستحيل من الأنبياء لاسيما ما يقتضى الجهل بشئون الله تعالى وذلك رده بقوله لن ترانى دون لن أرى ولن أريك ولن تنظر الى تنبيها على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على معد فى الرائى ولم يوجد فيه ذلك بعد وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا أرنا الله

جهرة خطأ إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبهتهم كما فعل ذلك حين قالوا «اجعل لنا إلـها» وأن لا يتبع سبيلهم كما قال لأخيه «ولا تتبع سبيل المفسدين» والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ إذ لا يدل الأخبار بعدم رؤيته اياه على أنه لا يراه أبدا وأن لا يراه غيره أصلا فضلا عن أن يدل على استحالتها. ودعوى الضرورة مكابرة أو جهل لحقيقة الرؤية (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا قال رب العزة حين قال موسى عليه السلام ماقال فقيل قال (لن تراني ولكن انظر الى الجبل فأن استقر مكانه فسوف تراني) استدراك لبيان أنه لا يطيق بها وفى تعليقها باستقرار الجبل أيضا دليل على الجواز ضرورة أن المعلق بالممكن ممكن والجبل قيل هو جبل أردن (فلما تجلى ربه للجبل) أي ظهرت له عظمته وتصدى له اقتداره وأمره وقيل أعطى الجبل حياة ورؤية حتى رآه (جعله دكا) مدكوكا مفتتا والدك والدق أخوان كالشك والشق. وقرىء دكاء أي أرضا مستوية ومنه ناقة دكاء للتى لاسنام لها وقرىء دكا جمع دكاء أي قطعا (وخر موسى صعقا) مغشيا عليه من هول مارآه (فلما أفاق) الأفاقة رجوع العقل والفهم الى الانسان بعد ذهابهما بسبب من الاسباب (قال) تعظيما لما شاهده (سبحانك) أى تنزيها لك من أن أسألك شيئا بغير إذن منك (تبت اليك) أي من الجراءة والأقدام على السؤال بغير إذن (وأنا أول المؤمنين) أى بعظمتك وجلالك. وقيل أول من آمن بأنك لاترى فى الدنيا وقيل بأنه لا يجوز السؤال بغير إذن منك (قال ياموسى) استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام من عدم الأجابة الى سؤال الرؤية كأنه قيل ان منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام مالم أعط أحدا من العالمين فاغتنمها وثابر على شكرها (إنى اصطفيتك) أى اخترتك واتخذتك صفوة وآثرتك (على الناس) أى المعاصرين لك وهرون وان كان نبيا كان مأمورا باتباعه وما كان كليما ولا صاحب شرع (برسالاتى) أى بأسفار التوراة وقرىء برسالتى (وبكلامى) وبتكليمى إياك بغير واسطة (فخذ ما آتيتك) أى أعطيتك من شرف النبوة والحكمة (وكن من الشاكرين) على ما أعطيت من جلائل النعم قيل كان سؤال الرؤية يوم عرفة واعطاء التوراة يوم النحر (وكتبنا له فى الألواح من كل شيء) أى مما يحتاجون اليه من أمور دينهم (موعظة وتفصيلا لكل شيء) بدل من الجار والمجرور أى كتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام. واختلف فى عدد الألواح وفى جوهرها ومقدارها فقيل إنها كانت عشرة ألواح وقيل سبعة وقيل لوحين وأنها كانت من زمردة جاء بها جبريل عليه السلام. وقيل من زبرجدة خضراء أو ياقوتة حمراء

وقيل أمر الله تعالى موسى يقطعها من صخرة صماء لينها له فقطعها بيده وشققها بأصابعه وعن الحسن رضي الله عنه كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة وان طولها كان عشرة أذرع وقيل أنزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منه في سنة لم يقرأها الا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام وعن مقاتل رضي الله عنه كتب في الألواح « إني أنا الله الرحمن الرحيم لا تشركوا بي شيئا ولا تقطعوا السبيل ولا تزنوا ولا تعقوا الوالدين » (فخذها) على اضمار قول معطوف على كتبنا أي فقلنا خذها (بقوة) بجد وعزيمة وقيل هو بدل من قوله فخذ ما آتيتك والضمير للألواح أو لكل شيء لأنه بمعنى الأشياء أو للرسالة أو للتوراة (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) أي بأحسن ما فيها كالعفو والصبر بالاضافة الى الاقتصاص و الانتصار على طريقة الندب والحث على اختيار الافضل كما في قوله تعالى « واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم » أو بواجباتها فانها أحسن من المباح وقيل المعنى يأخذوا بها وأحسن صلة قال قطرب أي بحسنها وكلها حسن كقوله تعالى « ولذكر الله أكبر » وقيل هو أن تحمل الكلمة المحتملة لمعنيين أو لمعان على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها الى الصواب (سأريكم دار الفاسقين) تلوين للخطاب وتوجيه له الى قومه عليه الصلاة والسلام بطريق الالتفات حملا لهم على الجد في الامتثال بما أمروا به إما على نهج الوعيد والترهيب على أن المراد بدار الفاسقين أرض مصر ودبار عاد وثمود وأضرابهم فان رؤيتها وهي خاوية عن أهلها خاوية على عروشها موجبة للاعتبار والانزجار عن مثل أعمال أهلها كيلا يحل بهم ما حل بأولئك وأما على نهج الوعد والترغيب على ان المراد بدار الفاسقين اما أرض مصر خاصة أو مع أرض الجبابرة والعمالقة بالشام فانها أيضا مما أتيح لبني أسرائيل وكتب لهم حسبما ينطق به قوله عز وجل «ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم» ومعنى الأراءة الأدخال بطريق الايراث ويؤيده قراءة من قرأ سأورثكم بالثاء المثلثة كما في قوله تعالى «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها» وقرىء سأوريكم ولعله من أوريت الزند أي سأبينها لكم وقوله تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض) استئناف مسوق لتحذيرهم عن التكبر الموجب لعدم التفكر في الآيات التي هي ما كتب في ألواح التوراة من المواعظ والاحكام أو ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية التي من جملتها ما وعد أرادته من دار الفاسقين ومعنى صرفهم عنها الطبع على قلوبهم بحيث لايكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لاصرارهم على ماهم عليه من التكبر و التجبر كقوله تعالى «فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم» وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح

لأظهار الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع أن فى المؤخر نوع طويل يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الجليل أي سأطبع على قلوب الذين يعدون أنفسهم كبراء و يرون لهم على الخلق مزية وفضلا فلا ينتفعون بآياتي التنزيلية والتكوينية ولا يغتنمون مغانم آثارها فلا تسلكوا مسلكهم لتكونوا أمثالهم. وقيل المعنى سأصرفهم عن أبطالها وان اجتهدوا كما اجتهد فرعون فى إبطال ما رآه من الآيات فابى الله تعالى إلا احقاق الحق وازهاق الباطل وعلى هذا فالانسب أن يراد بدار الفاسقين ارض الجبابرة والعمالقة المشهورين بالفسق والتكبر فى الارض وبأراءتها للمخاطبين ادخالهم الشام واسكانهم فى مساكنهم ومنازلهم حسبما نطق به قوله تعالى «ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم» ويكون قوله تعالى سأصرف عن آياتي الخ جوابا عن سؤال مقدر ناشيء من الوعد بادخال الشام على ان المراد بالآية ما تلي آنفا ونظائره و بصرفهم عنها ازالتهم عن مقام معارضتها وممانعتها لوقوع أخبارها وظهور أحكامها وآثارها بأهلاكهم على يد موسى عليه الصلاة والسلام حين سار بعد التيه بمن بقى من بنى اسرائيل أو بذرياتهم على اختلاف الروايتين الى أريحا ويوشع بن نون فى مقدمته ففتحها واستقر بنو اسرائيل بالشام وملكوا مشارقها ومغاربها كأنه قيل كيف يرون دارهم وهم فيها فقيل سأهلكهم وانما عدل الى الصرف ليزدادوا ثقة بالآيات واطمئنانا بها وقوله تعالى (بغير الحق) اماصلة للتكبر أى يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل وظلمهم المفرط أو متعلق بمحذوف هو حال من فاعله أى يتكبرون ملتبسين بغير الحق وقوله تعالى (وان يروا كل آية لايؤمنوا بها) عطف على يتكبرون داخل معه فى حكم الصلة والمراد بالآية أما المنزلة فالمراد برؤيتها مشاهدتها بسماعها أو مايعمها وغيرها من المعجزات فالمراد برؤيتها مطلق المشاهدة المنتظمة للسماع والابصار أى وان يشاهدوا كل آية من الآيات لايؤمنوا بها على عموم النفى لا على نفى العموم أى كفروا بكل واحدة منها لعدم اجتلائهم اياها كما هي وهذا كما ترى يؤيد كون الصرف بمعنى الطبع وقوله تعالى (وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا) عطف على ما قبله داخل فى حكمه أي لايتوجهون الى الحق ولا يسلكون سبيله أصلا لاستيلاء الشيطنة عليهم ومطبوعيتهم على الانحراف والزيغ وقرىء بفتحتين وقريء الرشاد وثلاثتها لغات كالسقم والسقم والسقام (وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا) أى يختارونه لأنفسهم مسلكا مستمرا لايكادون يعدلون عنه لموافقته لأهوائهم الباطلة وأفضائه بهم الى شهواتهم (ذلك) اشارة الى ماذكر من تكبرهم وعدم ايمانهم بشيء من الآيات واعراضهم عن سبيل الرشد واقبالهم التام الى سبيل الغى وهو مبتدأ خبره قوله تعالى

(بأنهم) أى حاصل بسبب أنهم (كذبوا بآياتنا) الدالة على بطلان مااتصفوا به من القبائح وعلى حقية أضدادها (وكانوا عنها غافلين) لا يتفكرون فيها والا لما فعلوا مافعلوا من الأباطيل . ويجوز أن يكون اشارة الى ماذكر من الصرف ولا يمنعه الاشعار بعلية ما فى حيز الصلة كيف لا وقد مر أن ذلك فى قوله تعالى ذلك بما عصوا الآية يجوز أن يكون اشارة الى ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب العظيم مع كون ذلك معللا بالكفر بآيات الله صريحا وقيل محل اسم الاشارة النصب على المصدر أى سأصرفهم ذلك الصرف بسبب تكذيبهم بآياتنا وغفلتهم عنها (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) أى وبلقائهم الدار الآخرة أو لقائهم ماوعده الله تعالى فى الآخرة من الجزاء ومحل الموصول الرفع على الابتداء وقوله تعالى (حبطت أعمالهم) خبره أى ظهر بطلان أعمالهم التى كانوا عملوها من صلة الارحام واغاثة الملهوفين ونحو ذلك أو حبطت بعد ما كانت مرجوة النفع على تقدير ايمانهم بها (هل يجزون) أي لا يجزون (الا ما كانوا يعملون) أى الاجزاء ما كانوا يعملونه من الكفر والمعاصى (واتخذ قوم موسى من بعده) أى من بعد ذهابه الى الطور (من حليهم) متعلق باتخذ كالجار الاول لاختلاف معنييهما فان الاول للابتداء والثانى للتبعيض أو للبيان أو الثانى متعلق بمحذوف وقع حالا مما بعده اذ لو تأخر لكان صفة له وأضافة الحلى اليهم مع أنها كانت للقبط لأدنى الملابسة حيث كانوا استعاروها من أربابها قبيل الغرق فبقيت فى أيديهم وأما انهم ملكوها بعد الغرق فذلك منوط بتملك بنى أسرائيل غنائم القبط وهم مستأمنون فيما بينهم فلا يساعده قولهم « حملنا أوزارا من زينة القوم» والحلى بضم الحاء وكسر اللام جمع حلى كثدى وثدى وقرئ بكسر الحاء بالاتباع كدلى وقرئ حليهم على الافراد وقوله تعالى (عجلا) مفعول اتخذ أخر عن المجرور لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع مافيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم وقيل هو متعد الى اثنين بمعنى التصيير والمفعول الثانى محذوف أى الها وقوله تعالي (جسدا) بدل من عجلا أى جثة ذا دم ولحم أو جسدا من ذهب لاروح معه وقوله تعالى (له خوار) أي صوت بقر وقرئ بالجيم والهمزة وهو الصياح نعت لعجلا . روى أن السامرى لما صاغ العجل ألقى فى فمه ترابا من أثر فرس جبريل عليه الصلاة والسلام وقد كان أخذه عند فلق البحر أو عند توجهه الى الطور فصار حيا. وقيل صاغه بنوع من الحيل فيدخل الريح فى جوفه فيصوت والانسب بما فى سورة طه هو الاول وانما نسب اتخاذه اليهم وهو فعله اما لانه واحد منهم واما لانهم رضوا به فكأنهم فعلوه واما لان المراد بالاتخاذ

اتخاذهم اياه الها لاصنعه وأحداثه (ألم يروا أنه لا يكلمهم)استئناف مسوق لتقريعهم وتشنيعهم وتركيك عقولهم وتسفيههم فيما أقدموا عليه من المنكر الذي هو اتخاذه الها أى ألم يروا انه ليس فيه شيء من أحكام الالوهية حيث لا يكلمهم (ولا يهديهم سبيلا) بوجه من الوجوه فكيف اتخذوه آلها وقوله تعالى (اتخذوه) أى فعلوا ذلك (وكانوا ظالمين) أى واضعين الاشياء فى غير موضعها فلم يكن هذا أول منكر فعلوه والجملة اعتراض تذييلى وتكرير اتخذوه لتثنية التشنيع وترتيب الاعتراض عليه (ولما سقط فى أيديهم) أى ندموا على مافعلوا غاية الندم فان ذلك كناية عنه لان النادم المتحسر يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها وقرىء سقط على البناء للفاعل بمعنى وقع العض فيها فاليد حقيقة وقال الزجاج معناه مسقط الندم فى أنفسهم اما بطريق الاستعارة بالكناية أو بطريق التمثيل (ورأوا أنهم قد ضلوا) باتخاذ العجل أى تبينوا بحيث تيقنوا بذلك حتى كأنهم رأوه بأعينهم وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية مع كونه متأخرا عنها للمسارعة الى بيانه والاشعار بغاية سرعته كأنه سابق على الرؤية (قالوا) والله (لئن لم يرحمنا ربنا) بانزال التوبة المكفرة (ويغفر لنا) ذنوبنا بالتجاوز عن خطيئتنا وتقديم الرحمة على المغفرة مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية اما للمسارعة الى ماهو المقصود الاصلى واما لان المراد بالرحمة مطلق ارادة الخير بهم وهو مبتدأ لانزال التوبة المكفرة لذنوبهم واللام فى لئن موطئة للقسم كما أشير اليه وفى قوله تعالى (لنكونن من الخاسرين) لجواب القسم وما حكى عنهم من الندامة والرؤية والقول وان كان بعد مارجع موسى عليه الصلاة والسلام اليهم كما ينطق به الآيات الواردة فى سورة طه لكن أريد بتقديمه عليه حكاية ماصدر عنهم من القول والفعل فى موضع واحد (ولما رجع موسى الى قومه) شروع فى بيان ماجرى من موسى عليه السلام بعد رجوعه من الميقات اثر بيان ماوقع من قومه بعده وقوله تعالى (غضبان أسفا) حالان من موسى عليه السلام أو الثانى من المستكن فى غضبان والأسف الشديد الغضب وقيل الحزين (قال بئسما خلفتمونى من بعدى) أي بئسما فعلتم من بعد غيبتى حيث عبدتم العجل بعدما رأيتم فعلى من توحيد الله تعالى ونفى الشركاء عنه واخلاص العبادة له أومن حملكم على ذلك وكفكم عما طمحت نحوه أبصاركم حيث قلتم «اجعل لنا آلها كما لهم آلهة» ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف فالخطاب للعبدة من السامرى وأشياعه أو بئسما قمتم مقامى ولم تراعوا عهدى حيث لم تكفوا العبدة عما فعلوا فالخطاب لهرون ومن معه من المؤمنين كما ينبىء عنه قوله تعالى «قال ياهرون مامنعك اذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمرى» ويجوز

أن يكون الخطاب للكل على أن المراد بالخليفة مايعم الامرين المذكورين وما نكرة موصوفة مفسرة لفاعل بئس المستكن فيه والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم (أعجلتم أمر ربكم) أى تركتموه غير تام على تضمين عجل معنى سبق يقال عجل عن الامر اذا تركه غير تام أو أعجلتم وعد ربكم الذى وعدنيه من الاربعين وقدرتم موتى وغيرتم بعدى كما غيرت الامم بعد أنبيائهم (وألقى الالواح) طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حمية للدين روى أن التوراة كانت سبعة أسباع فى سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفعت ستة أسباعها التى كان فيها تفصيل كل شيء وبقى سبع كان فيه المواعظ والاحكام (وأخذ برأس أخيه) بشعر رأسه عليهما السلام (يجره اليه) حال من ضمير أخذ . فعله عليه السلام توهما أنه قصر فى كفهم وهرون كان أكبر منه عليهما السلام بثلاث سنين وكان حمولا ولذلك كان أحب الى بنى اسرائيل (قال) أى هرون مخاطبا لموسى عليهما السلام (ابن أم) بحذف حرف النداء وتخصيص الام بالذكر مع كونهما شقيقين لما أن حق الأم أعظم وأحق بالمراعاة مع أنها كانت مؤمنة وقد قاست فيه المخاوف والشدائد وقرئ بكسر الميم باسقاط الياء تخفيفا كالمنادى المضاف الى الياء وقراءة الفتح لزيادة التخفيف أو لتشبيهه بخمسة عشر (ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى) ازاحة لتوهم التقصير فى حقه والمعنى بذلت جهدى فى كفهم حتى قهرونى واستضعفونى وقاربوا قتلى (فلا تشمت بى الأعداء) أى فلا تفعل بى ما يكون سببا لشماتتهم بى (ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) أى معدودا فى عدادهم بالمؤاخذة أو النسبة الى التقصير وهذا يؤيد كون الخطاب للكل أو لاتعتقد أنى واحد من الظالمين مع براءتى منهم ومن ظلمهم (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية اعتذار هرون عليه السلام كانه قيل فما ذا قال موسى عند ذلك فقيل قال (رب اغفر لى) أى مافعلت بأخى من غير ذنب مقرر من قبله (ولأخى) ان فرط منه تقصير ما فى كفهم عما فعلوه من العظيمة استغفر عليه السلام لنفسه ليرضى أخاه ويظهر للشامتين رضاه لئلا تتم شماتتهم به ولأخيه للايذان بأنه محتاج الى استغفار حيث كان يجب عليه ان يقاتلهم (وأدخلنا فى رحمتك) بمزيد الانعام بعد غفران ماسلف منا (وأنت أرحم الراحمين) فلا غرو فى انتظامنا فى سلك رحمتك الواسعة فى الدنيا والآخرة والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله (ان الذين اتخذوا العجل) أى تموا على اتخاذه واستمروا على عبادته كالسامرى وأشياعه من الذين أشربوه فى قلوبهم كما يفصح عنه كون الموصول الثانى عبارة عن التائبين فان ذلك صريح فى ان الموصول

الاول عبارة عن المصرين (سينالهم) أى فى الآخرة (غضب) أى عظيم لا يقدر قدره مستتبع لفنون العقوبات لما ان جريمتهم أعظم الجرائم وأقبح الجرائر وقوله تعالى (من ربهم) أى مالكهم متعلق بينالهم أو بمحذوف هو نعت لغضب مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائن من ربهم (وذلة فى الحيوة الدنيا) هى ذلة الاغتراب التى تضرب بها الامثال والمسكنة المنتظمة لهم ولأولادهم جميعا والذلة التى اختص بها السامرى من الانفراد عن الناس والابتلاء بالأمساس يروى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك واذا مس أحدهم أحد غيرهم حما جميعا فى الوقت. وايراد منالهم فى حيز السين مع مضيه بطريق تغليب حال الأخلاف على حال الأسلاف. وقيل المراد بهم التائبون وبالغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم واعتزر عن السين بأن ذلك حكاية عما أخبر الله تعالى به موسى عليه الصلاة والسلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل بانه سينالهم غضب من ربهم وذلة فيكون سابقا على الغضب وأنت خبير بأن سياق النظم الكريم وسياقه نابيان عن ذلك نبوا ظاهرا كيف لا وقوله تعالى (وكذلك نجزى المفترين) ينادي على خلافه فانهم شهداء تائبون فكيف يمكن وصفهم بعد ذلك بالافتراء وأيضا ليس يجزى الله تعالى كل المفترين بهذا الجزاء الذى ظاهره قهر وباطنه لطف ورحمة. وقيل المراد بهم أبناؤهم المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فان تعيير الابناء بأفاعيل الآباء مشهور معروف منه قوله تعالى «وأذقتلتم نفسا» الآية وقوله تعالى «واذقلتم ياموسى» الآية والمراد بالغضب الغضب الأخروى وبالذلة ما أصابهم من القتل والأجلاء وضرب الجزية عليهم. وقيل المراد بالموصول المتخذون حقيقة وبالضمير فى ينالهم أخلافهم ولا ريب فى أن توسيط حال هؤلاء فى تضاعيف بيان حال المتخذين من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه (والذين عملوا السيآت) أى سيئة كانت (ثم تابوا) عن تلك السيئات (من بعدها) أى من بعد عملها (وامنوا) ايمانا صحيحا خالصا واشتغلوا باقامة ماهو من مقتضياته من الاعمال الصالحة ولم يصروا على مافعلوا كالطائفة الاولى (ان ربك من بعدها) أى من بعد تلك التوبة المقرونة بالايمان (لغفور) الذنوب وان عظمت وكثرت (رحيم) مبالغ فى افاضة فنون الرحمة الدنيوية والاخروية والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام للتشريف (ولما سكت عن موسى الغضب) شروع فى بيان بقية الحكاية اثر مابين تحزب القوم الى مصر وتائب والاشارة الى مآل كل منهما اجمالا أى لما سكن عنه الغضب باعتذار أخيه وتوبة القوم وهذا صريح فى أن ماحكى عنهم

من الندم ومايتفرع عليه كان بعد مجيء موسى عليه الصلاة والسلام وفي هذا النظم الكريم من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول منزلة الآمر بذلك المغرى عليه بالتحكم والتشديد والتعبير عن سكونه بالسكوت مالايخفى. وقرىء سكن وسكت وأسكت على أن الفاعل هو الله تعالى أو أخوه أو التائبون (أخذ الالواح) التي ألقاها (وفى نسختها) أى فيما نسخ فيها وكتب فعلة بمعنى مفعول كالخطبة. وقيل فيما نسخ منها أي من الألواح المنكسرة (هدى) أى بيان للحق (ورحمة) للخلق بأرشادهم الى مافيه الخير والصلاح (للذين هم لربهم يرهبون) اللام الاولى متعلقة بمحذوف هو صفة لرحمة أى كائنة لهم أو هى لام الاجل أى هدى ورحمة لاجلهم والثانية لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى قوله تعالى « ان كنتم للرؤيا تعبرون » أو هي أيضا لام العلة والمفعول محذوف أى يرهبون المعاصى لاجل ربهم لا للرياء والسمعة (واختار موسى قومه) شروع فى بيان كيفية استدعاء التوبة وكيفية وقوعها واختار يتعدى الى اثنين ثانيهما مجرور بمن أي اختار من قومه بحذف الجار وايصال الفعل الى المجرور كما فى قوله: اختارك الناس اذرثت خلائقهم و اعتل من كان يرجي عنده السول أى اختارك من الناس (سبعين رجلا) مفعول لاختار أخر عن الثانى لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر (لميقاتنا) الذى وقتناه بعد ما وقع من قومه ماوقع لا لميقات الكلام الذى ذكر قبل ذلك كما قيل . قال السدي أمره الله تعالى بأن يأتيه فى ناس من بنى اسرائيل يعتذرون اليه تعالى من عبادة العجل ووعدهم موعدا فاختار عليه السلام من قومه سبعين رجلا وقال محمد بن اسحق اختارهم ليتوبوا اليه تعالى مما صنعوه ويسألوه التوبة على من تركوهم وراءهم من قومهم قالوا اختار عليه الصلاة والسلام من كل سبط ستة فزاد اثنان فقال ليتخلف منكم رجلان فتشاحوا فقال عليه الصلاة والسلام «ان لمن قعد مثل أجر من خرج » فقعد كالب ويوشع وذهب مع الباقين وامرهم ان يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم فخرج بهم الى طور سيناء فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجدا فسمعوه تعالى يكلم موسى يأمره وينهاه حسبما يشاء وهو الآمر بقتل انفسهم توبة (فلما أخذتهم الرجفة) مما اجترءوا عليه من طلب الرؤية فأنه يروى انه لما انكشف الغمام أقبلوا الى موسى عليه السلام وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة أى الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها أى ماتوا ولعلهم أرادوا بقولهم لن نؤمن لك لن نصدقك فى أن الآمر بما سمعنا من الأمر بقتل أنفسهم هو الله تعالى حتى نراه حيث قاسوا رؤيته تعالى على سماع كلامه قياسا فاسدا لحين

شاهد موسى تلك الحالة الهائلة (قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل) أى حين فرطوا فى النهى عن عبادة العجل وما فارقوا عبدته حين شاهدوا اصرارهم عليها (وأياى) أيضا حين طلبت منك الرؤية أى لو شئت اهلاكنا بذنوبنا لأهلكتنا حينئذ أراد بهعليه السلام تذكير العفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق . فان الاعتراف بالذنب والشكر على النعمة مما يربط العتيد ويستجلب المزيد يعنى انا كنا مستحقين للاهلاك ولم يكن من موانعه الا عدم مشيئتك اياه فحيث لطفت بنا وعفوت عنا تلك الجرائم فلا غرو فى أن تعفوا عنا هذه الجريمة أيضا . وحمل الكلام على التمنى يأباه قوله تعالى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) أى الذين لايعلمون تفاصيل شئونك ولا يتثبتون فى المداحض والهمزة أما لانكار وقوع الاهلاك ثقة بلطف الله عزوجل كما قاله ابن الانبارى أو للاستعطاف كما قاله المبرد أى لاتهلكنا (ان هى الافتنتك) استئناف مقرر لما قبله واعتذار عما صنعوا ببيان منشأ غلطهم أى ماالفتنة التى وقع فيها السفهاء وقالوا بسببها ماقالوا من العظيمة الا فتنتك أى محنتك وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامك فافتتنوا بذلك ولم يتثبتوا فطمعوا فيما فوق ذلك تابعين للقياس الفاسد وقوله تعالى (تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء) اما استئناف مبين لحكم الفتنة أو حال من فتنتك أي حال كونها مضلا بها الخ أى تضل بسببها من تشاء أضلاله فلا يهتدى إلى التثبت وتهدى من تشاء هدايته الى الحق فلا يتزلزل فى أمثالها فيقوى بها أيمانه (أنت ولينا) أي القائم بأمورنا الدنيوية والأخروية وناصرنا وحافظنا لاغيرك (فاغفر لنا) ماقارفناه من المعاصى . والفاء لترتيب الدعاء على ماقبله من الولاية كأنه قيل فمن شأن الولى المغفرة والرحمة وقيل أن أقدامه عليه الصلاة والسلام على أن يقول ان هى الا فتنتك الخ جراءة عظيمة فطلب من الله تعالى غفرانها والتجاوز عنها (وارحمنا) بأفاضة آثار الرحمة الدنيوية والأخروية علينا (وأنت خيرالغافرين) اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من الدعاء وتخصيص المغفرة بالذكر لأنها الأهم بحسب المقام (واكتب لنا) أى عين لنا وقيل أوجب وحقق وأثبت (فى هذه الدنيا حسنة) أى نعمة وعافية أو خصلة حسنة قال ابن عباس رضى الله عنهما اقبل وفادتنا وردنا بالمغفرة والرحمة (وفى الآخرة) أى واكتب لنا فيها أيضا حسنة وهى المثوبة الحسنى والجنة (أنا هدنا اليك) أى تبنا وأنبنا اليك من هاد يهود اذا رجع وقرئ بكسر الهاء من هاده يهيده اذا حركه وأماله ويحتمل ان يكون مبنيا للفاعل أو للمفعول بمعنى أملنا أنفسنا او أملنا اليك وتجويز أن تكون القراءة المشهورة

على بناء المفعول على لغة من يقول عود المريض مع كونها لغة ضعيفة مما لايليق بشأن التنزيل الجليل. والجملة استئناف مسوق لتعليل الدعاء فان التوبة مما يوجب قبوله بموجب الوعد المحتوم. وتصديرها بحرف التحقيق لاظهار كمال النشاط والرغبة فى التوبة والمعنى انا تبنا ورجعنا عما صنعنا من المعصية العظيمة التى جئناك للاعتذار عنها وعما وقع ههنا من طلب الرؤية فبعيد من لطفك وفضلك أن لاتقبل توبة التائبين . قيل لما أخذتهم الرجفة ماتوا جميعا فاخذ موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع الى الله تعالى حتى أحياهم . وقيل رجفوا وكادت تبين مفاصلهم وأشرفوا على الهلاك فخاف موسى عليه الصلاة والسلام فبكى فكشفها الله تعالى عنهم (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق اليه الكلام كأنه قيل فماذا قال الله تعالى عند دعاء موسى عليه السلام فقيل قال (عذابى أصيب به من أشاء) لعله عز وجل حين جعل توبة عبدة العجل بقتلهم أنفسهم ضمن موسى عليه السلام دعاءه التخفيف والتيسير حيث قال واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة أي خصلة حسنة عارية عن المشقة والشدة فان فى قتل أنفسهم من العذاب والتشديد مالا يخفى . فاجاب الله تعالى بأن عذابى شأنه أن أصيب به من أشاء تعذيبه من غير دخل لغيري فيه وهم ممن تناولته مشيئتى ولذلك جعلت توبتهم مشوبة بالعذاب الدنيوى (ورحمتى وسعت كل شئ) أى شأنها أن تسع فى الدنيا المؤمن والكافر بل كل مايدخل تحت المشيئة من المكلفين وغيرهم وقد نال قومك نصيب منها فى ضمن العذاب الدنيوى وفى نسبة الاصابة الى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة الى الرحمة بصيغة الماضى ايذان بأن الرحمة مقتضى الذات وأما العذاب فبمقتضى معاصى العباد . والمشيئة معتبرة فى جانب الرحمة أيضا وعدم التصريح بها للاشعار بغاية الظهور ألا يرى الى قوله تعالى (فسأكتبها) أى أثبتها وأعينها فانه متفرع على اعتبار المشيئة كأنه قيل فاذا كان الامر كذلك أى كما ذكر من اصابة عذابى وسعة رحمتى لكل من أشاء فسأكتبها كتبة كائنة كما دعوت بقولك واكتب لنا فى هذه الخ أى سأكتبها خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوى (للذين يتقون) اى الكفر والمعاصى أما ابتداء أو بعد ملابستهما وفيه تعريض بقومه كأنه قيل لا لقومك لانهم غير متقين فيكفيهم ماقدر لهم من الرحمة وان كانت مقارنة للعذاب الدنيوى (ويؤتون الزكاة) وفيه أيضا تعريض بهم . حيث الزكاة شاقة عليهم ولعل الصلاة انما لم تذكر مع انافتها على سائر العبادات اكتفاء عنها بالاتقاء الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك المنكرات عن آخرها وايراد ايتاء الزكاة لما مر من التعريض (والذين هم بآياتنا) جميعا (يؤمنون) ايمانا

مستمرا من غير أخلال بشيء منها وفيه تعريض بهم وبكفرهم بالآيات العظام التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام وبما سيجيء بعد ذلك من الآيات البينات كتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغير ذلك وتكرير الموصول مع أن المراد به عين ما أريد بالموصول الاول دون أن يقال ويؤمنون بآياتنا عطفا على يؤتون الزكاة كما عطف هو على يتقون لما أشير اليه من القصر بتقديم الجار والمجرور أي هم بجميع آياتنا يؤمنون لا ببعضها دون بعض (الذين يتبعون الرسول) الذي نوحي اليه كتابا مختصا به (النبي) أي صاحب المعجزة وقيل عنوان الرسالة بالنسبة اليه تعالى وعنوان النبوة بالنسبة الى الامة (الامي) بضم الهمزة نسبة الى الأم كأنه باق على حالته التي ولد عليها من أمه أو الى أمة العرب كما قال عليه الصلاة والسلام «انا أمة لا نحسب ولا نكتب» أو الى أم القرى وقرىء بفتح الهمزة أي الذي لم يمارس القراءة والكتابة وقد جمع مع ذلك علوم الأولين والآخرين والموصول بدل من الموصول الاول بدل الكل أو منصوب على المدح أو مرفوع عليه أي أعني الذين أو هم الذين وأما جعله مبتدأ على أن خبره يأمرهم أو أولئك هم المفلحون فغير سديد (الذي يجدونه مكتوبا) باسمه ونعوته بحيث لا يشكون أنه هو ولذلك عدل عن أن يقال يجدون اسمه أو وصفه مكتوبا (عندهم) زيد هذا لزيادة التقرير وان شأنه عليه الصلاة والسلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلا (في التوراة والأنجيل) اللذين تعبد بهما بنو اسرائيل سابقا ولاحقا والظرفان متعلقان بيجدونه أو بمكتوبا وذكر الانجيل قبل نزوله من قبيل ما نحن فيه من ذكر النبي عليه الصلاة والسلام والقرآن الكريم قبل مجيئهما (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) كلام مستأنف لا محل له من الاعراب قاله الزجاج متضمن لتفصيل بعض أحكام الرحمة التي وعد فيما سبق بكتبها اجمالا فان ما بين فيه من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واحلال الطيبات وتحريم الخبائث واسقاط التكاليف الشاقة كلها من آثار رحمته الواسعة وقيل في محل النصب على أنه حال مقدرة مفعول يجدونه أو من النبي أو من المستكن في مكتوبا أومفسر لمكتوبا أي لما كتب (ويحل لهم الطيبات) التي حرمت عليهم بشؤم ظلمهم (ويحرم عليهم الخبائث) كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة (ويضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم) أي يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التي هي من قبيل ما كتب عليهم حينئذ من كون التوبة بقتل النفس كتعيين القصاص في العمد والخطأ من غير شرع الدية وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة من الجلد

والثوب وأحراق الغنائم وتحريم السبت.وعن عطاء أنه كانت بنو اسرائيل اذا قاموا يصلون لبسوا المسوح وغلوا أيديهم الى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها الى السارية يحبس نفسه على العبادة . وقرئ آصارهم أصل الاصر الثقل الذى يأصر صاحبه من الحراك (فالذين آمنوا به) تعليم لكيفية اتباعه عليه الصلاة والسلام وبيان لعلو رتبة متبعيه واغتنامهم مغانم الرحمة الواسعة فى الدارين أثر بيان نعوته الجليلة والاشارة الى ارشاده عليه الصلاة والسلام اياهم بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر واحلال الطيبات وتحريم الخبائث أى فالذين آمنوا بنبوته وأطاعوه فى أوامره ونواهيه (وعزروه) أى عظموه ووقروه وأعانوه بمنع أعدائه عنه وقرىء بالتخفيف وأصله المنع ومنه التعزير (ونصروه) على أعدائه فى الدين (واتبعوا النور الذى أنزل معه) أي مع نبوته وهو القرآن عبر عنه بالنور المنبئ عن كونه ظاهرا بنفسه ومظهرا لغيره أومظهرا للحقائق كاشفا عنها لمناسبة الاتباع ويجوز أن يكون معه متعلقا باتبعوا اى واتبعوا القرآن المنزل مع اتباعه عليه الصلاة والسلام بالعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه او اتبعوا القرآن مصاحبين له فى اتباعه (أولئك) إشارة الى المذكورين من حيث اتصافهم بما فصل من الصفات الفاضلة للاشعار بعليتها للحكم وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم فى الفضل والشرف أى أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة (هم المفلحون) اى هم الفائزون بالمطلوب الناجون عن المكروب لاغيرهم من الامم فيدخل فيهم قوم موسى عليه الصلاة والسلام دخولا اوليا حيث لم ينجوا عما فى توبتهم من المشقة الهائلة وبه يتحقق التحقيق ويتأتى التوفيق والتطبيق بين دعائه عليه الصلاة والسلام وبين الجواب لابمجرد ماقيل من انه لما دعا لنفسه ولبنى اسرائيل اجيب بماهو منطو على توبيخ بنى اسرائيل على استجازتهم الرؤية على الله عز وجل وعلى كفرهم بآياته العظام التى أجراها على يد موسى عليه الصلاة والسلام وعرض بذلك فى قوله تعالى «والذين هم بآياتنا يؤمنون» وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به كعبد الله بن سلام وغيره من اهل الكتابين لطفا بهم وترغيبا فى اخلاص الايمان والعمل الصالح (قل ياأيها الناس إنى رسول الله أليكم) لما حكى مافى الكتابين من نعوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف من يتبعه من أهلها ونيلهم لسعادة الدارين امر عليه الصلاة والسلام ببيان ان تلك السعادة غير مختصة بهم بل شاملة لكل من يتبعه كائنا من كان ببيان عموم رسالته للثقلين مع اختصاص رسالة سائر الرسل عليهم السلام

بأقوامهم وارسال موسى عليه السلام الى فرعون وملئه بالآيات التسع انما كان لامرهم بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة التى كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية وبارسال بنى اسرائيل من الاسر والقسر وأما العمل بأحكام التوراة فمختص ببني اسرائيل (جميعا) حال من الضمير فى اليكم (الذى له ملك السموات والارض) منصوب او مرفوع على المدح او مجرور على انه صفة للجلالة وان حيل بينهما بما هو متعلق بما اضيف اليه المتقدم فانه فى حكم المتقدم عليه وقوله تعالى (لا إله إلا هو) بيان لما قبله فان من ملك العالم كان هو الاله لا غيره وقوله تعالى (يحيي ويميت) لزيادة تقرير ألوهيته والفاء فى قوله (فآمنوا بالله ورسوله) لتفريع الامر على ما تمهد وتقرر من رسالته عليه الصلاة والسلام وايراد نفسه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة على طريقة الالتفات الى الغيبة للمبالغة فى إيجاب الامتثال بأمره ووصف الرسول بقوله (النبي الأمى) لمدحه عليه الصلاة والسلام بهما ولزيادة تقريرامره وتحقيق انه المكتوب فى الكتابين ووصفه بقوله تعالى (الذى يؤمن بالله وكلماته) اى ما انزل اليه والى سائر الرسل عليهم السلام من كتبه ووحيه لحمل اهل الكتابين على الامتثال بما امروا به والتصريح بايمانه بالله تعالى للتنبيه على أن الايمان به تعالى لا ينفك عن الايمان بكلماته ولا يتحقق الا به . وقرى وكلمته على ارادة الجنس أو القرآن تنبيها على أن المأمور به هو الايمان به عليه الصلاة والسلام من حيث أنزل عليه القرآن لا من حيثية أخرى أو على أن المراد بها عيسى عليه الصلاة والسلام تعريضا باليهود وتنبيها على أن من لم يؤمن به لم يعتد بايمانه (واتبعوه) أى فى كل ما يأتى وما يذر من أمور الدين (لعلكم تهتدون) علة للفعلين أو حال من فاعليهما أى رجاء لاهتدائكم الى المطلوب أو راجين له وفى تعليقه بهما ايذان بان من صدقه ولم يتبعه بالتزام أحكام شريعته فهو بمعزل من الاهتداء مستمر على الغى والضلالة (ومن قوم موسى) كلام مبتدأ مسوق لدفع ماعسى يوهمه تخصيص كتب الرحمة والتقوى والايمان بالآيات بمتبعي رسول الله صلى الله عليه وسلم من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام من كل خير وبيان أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم بل منهم (أمة يهدون) أى الناس (بالحق) أى ملتبسين به أو يهدونهم بكلمة الحق (وبه) أى بالحق (يعدلون) أى فى الاحكام الجارية فيما بينهم وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية وقيل هم الذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ويأباه أنه قد مر ذكرهم فيما سلف. وقيل ان بنى اسرائيل لما بالغوا فى العتو والطغيان حتى اجترءوا على قتل الأنبياء عليهم السلام تبرأ سبط منهم عما صنعوا واعتذروا وسألوا الله تعالى

أن يفرق بينهم و بين أولئك الطاغين ففتح الله تعالى لهم نفقا فى الارض فساروا فيه سنة ونصفا حتى خرجوا من وراء الصين وهم اليوم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا . وقد ذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم ان جبريل عليه السلام ذهب به ليلة الاسراء نحوهم فكلمهم فقال جبريل عليه السلام هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا محمد النبى الامى فآمنوا به وقالوا يارسول الله ان موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد فليقرأ منى عليه السلام فرد محمد على موسى السلام عليهما السلام ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ولم يكن نزلت يومئذ فريضة غير الصلاة والزكاة وأمرهم أن يقيموا مكانهم وكانوا يسبتون فامرهم أن يجمعوا و يتركوا السبت هذا وأنت خبير بأن تخصيصهم بالهداية من بين قومه عليه السلام مع أن منهم من آمن بجميع الشرائع لا يخلوا عن بعد (وقطعناهم) أى قوم موسى لا الامة المذكورة منهم وقرىء بالتخفيف وقوله تعالى (اثنتى عشرة) ثانى مفعولى قطع لتضمنه معنى التصيير والتأنيث للحمل على الامة أو القطعة أى صيرناهم اثنتى عشرة أمة أو قطعة متميزا بعضها من بعض أو حال من مفعوله أى فرقناهم معدودين هذا العدد وقوله تعالى (أسباطا) بدل منه ولذلك جمع . أو مميز له على أن كل واحدة من اثنتي عشرة قطعة أسباط لا سبط . وقرىء عشرة بكسر الشين وقوله تعالى (أمما) على الاول بدل بعد بدل أو نعت لأسباطا وعلى الثانى بدل من أسباطا (وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه) حين استولى عليهم العطش فى التيه الذي وقعوا فيه بسوء صنيعهم لا بمجرد استسقائهم اياه عليه الصلاة والسلام بل باستسقائه لهم لقوله تعالى « وأذ استسقى موسي لقومه » وقوله تعالى (أن اضرب بعصاك الحجر) مفسر لفعل الايحاء وقد مر بيان شأن الحجر فى تفسير سورة البقرة (فانبجست) عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام قد حذف تعويلا على كمال الظهور وايذانا بغاية مسارعته عليه السلام الى الامتثال وأشعارا بعدم تأثير الضرب حقيقة وتنبيها على كمال سرعة الانبجاس وهو الانفجار كانه حصل اثر الامر قبل تحقق الضرب كما فى قوله تعالى « اضرب بعصاك البحر فانفلق » أى فضرب فانبجست (منه اثنتا عشرة عينا) بعدد الاسباط وأما ماقيل من أن التقدير فان ضربت فقد انبجست فغير حقيق بجزالة النظم التنزيلى وقرىء عشرة بكسر الشين وفتحها (قد علم كل أناس) كل سبط عبر عنهم بذلك ايذانا بكثرة كل واحد من الاسباط (مشربهم) أى عينهم الخاصة بهم (وظللنا عليهم الغمام) أى جعلناها بحيث تلقى عليهم ظلها تسير فى التيه بسيرهم وتسكن بأقامتهم وكان ينزل بالليل عمود من نار يسيرون بضوئه (وأنزلنا عليهم المن

والسلوى) أى الترنجبين والسمانى قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر الى الطلوع لكل انسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه مايكفيه (كلوا) أى وقلنا لهم كلوا (من طيبات مارزقناكم) مستلذاته وما موصولة كانت أو موصوفة عبارة عن المن والسلوى (وما ظلمونا) رجوع الى سنن الكلام الاول بعد حكاية خطابهم وهو معطوف على جملة محذوفة للايجاز والاشعار بأنه أمر محقق غني عن التصريح به أى فظلموا بأن كفروا بتلك النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) إذ لايتخطاهم ضرره وتقديم المفعول لافادة القصر الذى يقتضيه النفي السابق وفيه ضرب من التهكم بهم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على تماديهم فيما هم فيه من الظلم والكفر (واذ قيل لهم) منصوب بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام وايراد الفعل على البناء للمفعول مع اسناده اليه تعالى كما يفصح عنه ماوقع فى سورة البقرة من قوله تعالى «واذ قلنا» للجرى على سنن الكبرياء والايذان بالغنى عن التصريح به لتعين الفاعل وتغيير النظم بالأمر بالذكر للتشديد فى التوبيخ اي اذكر لهم وقت قوله تعالى لأسلافهم (اسكنوا هذه القرية) منصوب على المفعولية يقال سكنت الدار وقيل على الظرفية اتساعا وهى بيت المقدس وقيل اريحا وهي قرية الجبارين وكان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة رأسهم عوج بن عنق وفى قوله تعالى اسكنوا إيذان بأن المأمور به فى سورة البقرة هو الدخول على وجه السكنى والاقامة ولذلك اكتفى به عن ذكر رغدا فى قوله تعالى (وكلوا منها) اى من مطاعمها وثمارها على ان من تبعيضية او منها على انها ابتدائية (حيث شئتم) اى من نواحيها من غير ان يزاحمكم فيها احد فان الأكل المستمر على هذا الوجه لايكون الا رغدا واسعا وعطف كلوا على اسكنوا بالواو لمقارنتهما زمانا بخلاف الدخول فانه مقدم على الأكل ولذلك قيل هناك فكلوا (وقولوا حطة) اى مسألتنا او امرك حطة لذنوبنا وهى فعلة من الحط كالجلسة (وادخلوا الباب) أى باب القرية (سجدا) أى متطامنين مخبتين أو ساجدين شكرا على إخراجهم من التيه و تقديم الأمر بالدخول على الأمر بالقول المذكور فى سورة البقرة غير مخل بهذا الترتيب لأن المأمور به هو الجمع بين الفعلين من غير اعتبار الترتيب بينهما ثم إن كان المراد بالقرية أريحاء فقد روى أنهم دخلوها حيث سار اليها موسى عليه السلام بمن بقى من بنى اسرائيل أو بذراريهم على اختلاف الروايتين ففتحها كما مر فى سورة المائدة و أما إن كان بيت المقدس فقد روى أنهم لم يدخلوها فى حياة موسى عليه السلام فقيل المراد بالباب باب القبة التى كانوا يصلون اليها (نغفر لكم

خطيآتكم) وقرىء خطاياكم كما فى سورة البقرة ونغفرلكم خطيآتكم وخطاياكم وخطيئتكم على البناء للمفعول (سنزيد المحسنين) عدة بشيئين بالمغفرة وبالزيادة وطرح الواو ههنا لايخل بذلك لأنه استئناف مترتب على تقدير سؤال نشأ من الأخبار بالغفران كأنه قيل فماذا لهم بعد الغفران فقيل سنزيد وكذلك زيادة منهم زيادة بيان (فبدل الذين ظلموا منهم)بما أمروا به من التوبة والاستغفار حيث أعرضوا عنه ووضعوا موضعه (قولا) آخر مما لاخير فيه روى أنهم دخلوه زاحفين على أستاههم وقالوا مكان حطة حنطة وقيل قالوا بالنبطية حطا شمقاثا يعنون حنطة حمراء استخفافا بأمر الله تعالى واستهزاء بموسى عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (غير الذى قيل لهم)نعت لقولا صرح بالمغايرة مع دلالة التبديل عليها قطعا تحقيقا للمخالفة وتنصيصا على المغايرة من كل وجه (فأرسلنا عليهم) أثر مافعلوا مافعلوا من غير تأخير وفى سورة البقرة على الذين ظلموا والمعنى واحد والارسال من فوق فيكون كالانزال (رجزا من السماء) عذابا كائنا منها والمراد الطاعون .روى أنه مات منهم فى ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفا (بما كانوا يظلمون) بسبب ظلمهم المستمر السابق واللاحق حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لابسبب التبديل فقط كما يشعر به ترتيب الارسال عليه بالفاء والتصريح بهذا التعليل لما أن الحكم ههنا مترتب على المضمر دون الموصول بالظلم كما فى سورة البقرة وأما التعليل بالفسق بعد الاشعار بعلية الظلم فقد مر وجهه هناك والله تعالى أعلم (واسألهم) عطف على المقدر فى إذ قيل أي واسأل اليهود المعاصرين لك سؤال تقريع وتقرير بقديم كفرهم وتجاوزهم لحدود الله تعالى واعلاما لهم بأن ذلك مع كونه من علومهم الخفية التي لايقف عليها إلا من مارس كتبهم قد أحاط به النبى عليه الصلاة والسلام خبرا وإذ ليس ذلك بالتلقى من كتبهم لأنه عليه الصلاة والسلام بمعزل من ذلك تعين أنه من جهة الوحى الصريح (عن القرية)أى عن حالها وخبرها وما جرى على أهلها من الداهية الدهياء وهى أيلة قرية بين مدين والطور .وقيل هى مدين وقيل طبرية والعرب تسمى المدينة قرية التى كانت حاضرة البحر أى قريبة منه مشرفة على شاطئه (إذ يعدون فى السبت) أى يتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد يوم السبت واذ ظرف للمضاف المحذوف أو بدل منه وقيل ظرف لكانت أو حاضرة وليس بذلك إذ لافائدة فى تقييد الكون أو الحضور بوقت العدوان. وقرىء يعدون وأصله يعتدون ويعدون من الأعداد حيث كانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت وهم منهيون عن الاشتغال فيه بغير العبادة (إذ تأتيهم حيتانهم) ظرف ليعدون أو بدل بعد بدل والاول هو الأولى لأن السؤال

عن عدوانهم أدخل فى التقريع و الحيتان جمع حوت قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها كنون ونينان لفظا و معنى و إضافتها اليهم للاشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لايكاد يوجد فى سائر أفراد الجنس من الخواص الخارقة للعادة أو لان المراد بها الحيتان الكائنة فى تلك الناحية و ان ما ذكر من الاتيان و عدمه لاعتيادها أحوالهم فى عدم التعرض يوم السبت (يوم سبتهم) ظرف لتأتيهم أى تأتيهم يوم تعظيمهم لأمر السبت و هو مصدر سبتت اليهود إذا عظمت السبت بالتجرد للعبادة وقيل اسم لليوم و الاضافة لاختصاصهم بأحكام فيه و يؤيد الأول قراءة من قرأ يوم أسباتهم و قوله تعالى (شرعا) جمع شارع من شرع عليه إذ دنا وأشرف و هو حال من حيتانهم أى تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء قريبة من الساحل (و يوم لايسبتون) أى لا يراعون أمر السبت لكن لا بمجرد عدم المراعاة مع تحقق يوم السبت كما هو المتبادر بل مع انتفائهما معا أى لاسبت و لا مراعاة كما فى قوله . ولا ترى الضب بها ينجحر . وقرىء لايسبتون من أسبت و لا يسبتون على البناء للمفعول بمعنى لايدخلون فى السبت ولا يدار عليهم حكم السبت ولا يؤمرون فيه بما أمروا به يوم السبت (لاتأتيهم) كما كانت تأتيهم يوم السبت حذارا من صيدهم . وتغيير السبك حيث لم يقل ولاتأتيهم يوم لايسبتون لما أن الاخبار باتيانها يوم سبتهم مظنة أن يقال فماذا حالها يوم لايسبتون فقيل يوم لا يسبتون لاتأتيهم (كذلك نبلوهم) أى مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع نعاملهم معاملة من يختبرهم ليظهر عداوتهم ونؤاخذهم به . وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها والتعجيب منها (بما كانوا يفسقون) أى بسبب فسقهم المستمر المدلول عليه بالجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل لكن لا فى تلك المادة فان فسقهم فيها لا يكون سببا للبلوى بل بسبب فسقهم المستمر فى كل ما يأتون وما يذرون وقيل كذلك متصل بما قبله أى لاتأتيهم مثل ما تأتيهم يوم سبتهم فالجملة بعده حينئذ استئناف مبنى على السؤال عن حكمة اختلاف حال الحيتان بالاتيان تارة وعدمه أخرى (وأذ قالت) عطف على اذ يعدون مسوق لتماديهم فى العدوان وعدم انزجارهم عنه بعد العظات والانذارات (أمة منهم) أى جماعة من صلحائهم الذين ركبوا فى عظتهم متن كل صعب وذلول حتى يئسوا من احتمال القبول لآخرين لا يقلعون عن التذكير رجاء النفع والتأثير مبالغة فى الاعذار وطمعا فى فائدة الانذار (لم تعظون قوما الله مهلكهم) أي مخترمهم بالكلية و مطهر الارض منهم (أو معذبهم عذابا شديدا) دون الاستئصال بالمرة وقيل مهلكهم مخزيهم فى الدنيا أو معذبهم فى الآخرة لعدم أقلاعهم عما كانوا عليه من الفسق والطغيان

والترديد لمنع الخلو دون منع الجمع فأنهم مهلكون فى الدنيا ومعذبون فى الآخرة. وايثار صيغة اسم الفاعل مع أن كلا من الاهلاك والتعذيب مترقب للدلالة على تحققهما وتقررهما ألبتة كانهما واقعان وانما قالوه مبالغة فى أن الوعظ لاينجع فيهم أو ترهيباللقوم أو سؤالا عن حكمة الوعظ ونفعه ولعلهم انما قالوه بمحضر من القوم حثالهم على الاتعاظ فان بت القول بهلاكهم وعذابهم مما يلقي فى قلوبهم الخوف والخشية وقيل المراد طائفة من الفرقة الهالكة أجابوا به وعاظهم ردا عليهم وتهكما بهم وليس بذاك كما ستقف عليه (قالوا) أى الوعاظ (معذرة الى ربكم) أى نعظهم معذرة اليه تعالى على انه مفعول له وهو الانسب بظاهر قولهم لم تعظون أو نعتذر معذرة على انه مصدر لفعل محذوف . وقرىء بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف أى موعظتنا معذرة اليه تعالى حتى لانسب الى نوع تفريط فى النهى عن المنكر و فى اضافة الرب الى ضمير المخاطبين نوع تعريض بالسائلين (ولعلهم يتقون) عطف على معذرة أى ورجاء لان يتقوا بعض التقاة وهذا صريح فى أن القائلين لم تعظون الخ ليسوا من الفرقة الهالكة والالوجب الخطاب (فلما نسوا ماذكروا به) أي تركوا ماذكرهم به صلحاؤهم ترك الناسى للشىء وأعرضوا عنه اعراضا كليا بحيث لم يخطر ببالهم شىء من تلك المواعظ أصلا (أنجينا الذين ينهون عن السوء)وهم الفريقان المذكوران واخراج انجائهم مخرج الجواب الذى حقه الترتب على الشرط وهو نسيان المعتدين المستتبع لاهلاكهم لما أن مافى حيز الشرط شيئآن النسيان والتذكير كانه قيل فلما ذكر المذكورون ولم يتذكر المعتدون أنجينا الاولين وأخذنا الآخرين وأما تصدير الجواب بانجائهم فلما مر مرارا من المسارعة الى بيان نجاتهم من أول الامر مع مافى المؤخر من نوع طول (وأخذنا الذين ظلموا) بالاعتداء ومخالفة الامر (بعذاب بئيس) أى شديد وزنا ومعنى من بؤس يبؤس بأسا اذا اشتد . وقرىء بيئس على وزن فيعل بفتح العين وكسرها وبئس كحذر وبئس على تخفيف العين ونقل حركتها الى الفاء ككبد فى كبد و بيس بقلب الهمزة ياء كذيب فى ذئب و بيس كريس بقلب همزة بئيس ياء وادغام الياء فيها و بيس على تخفيف بيس كهين فى هين وتنكير العذاب للتفخيم والتهويل (بما كانوا يفسقون) متعلق باخذنا كالباء الاولى ولاضير فيه لاختلافهما معنى أى أخذناهم بما ذكر من العذاب بسبب تماديهم فى الفسق الذى هو الخروج عن الطاعة وهو الظلم والعدوان أيضا واجراء الحكم على الموصول وان أشعر بعلية مافى حيز الصلة له لكنه صرح بالتعليل المذكور ايذانا بان العلة هو الاستمرار على الظلم والعدوان مع اعتبار كون ذلك خروجا عن طاعة الله عز وجل لانفس الظلم والعدوان والالما أخروا عن ابتداء المباشرة ساعة ولعله تعالى

قد عذبهم بعذاب شديد دون الاستئصال فلم يقلعوا عما كانوا عليه بل ازدادوا فى الغى فمسخهم بعد ذلك لقوله تعالى (فلما عتوا عما نهوا عنه) أى تمردوا وتكبروا وأبوا أن يتركوا ما نهوا عنه (قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) صاغرين أذلاء بعداء عن الناس والمراد بالامر التكوينى لا القولى. وترتيب المسخ على العتو عن الانتهاء عما نهوا عنه للايذان بانه ليس لخصوصية الحوت بل العمدة فى ذلك هو مخالفة الأمر والاستعصاء عليه تعالى. وقيل المراد بالعذاب البئيس هو المسخ والجملة الثانية تقرير للأولى. روى أن اليهود أمروا باليوم الذى أمرنا به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت وهو المعني بقوله تعالى «انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه» فابتلوا به وحرم عليهم الصيد فيه وأمروا بتعظيمه فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت كأنها المخاض لا يرى وجه الماء لكثرتها ولا تأتيهم فى سائر الأيام فكانوا على ذلك برهة من الدهر ثم جاءهم ابليس فقال لهم انما نهيتم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضا سهلة الورود صعبة الصدور ففعلوا فجعلوا يسوقون الحيتان اليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها ويأخذونها يوم الأحد. وأخذ رجل منهم حوتا وربط فى ذنبه خيطا الى خشبة فى الساحل ثم شواه يوم الأحد فوجد جاره ريح السمك فطلع فى تنوره فقال له أنى أرى الله سيعذبك فلما لم يره عذب أخذ فى يوم السبت القابل حوتين فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم استمروا على ذلك فصادوا وأكلوا وملحوا وباعوا وكانوا نحوا من سبعين ألفا فصار أهل القرية أثلاثا ثلث استمروا على النهى وثلث ملوا التذكير وسئموه وقالوا للواعظين لم تعظون الخ وثلث باشروا الخطيئة فلما لم ينتهوا قال المسلمون نحن لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار للمسلمين باب وللمعتدين باب ولعنهم داود عليه السلام فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد فقالوا ان لهم لشأنا فعلوا الجدار فنظروا فأذاهم قردة ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة انسباءهم من الأنس وهم لا يعرفونها فجعل القرد يأتى نسيبه فيشم ثيابه فيبكى فيقول له نسيبه ألم ننهكم فيقول القرد برأسه بلى ثم ماتوا عن ثلاث. وقيل صار الشبان قردة والشيوخ خنازير وعن مجاهد رضى الله عنه مسخت قلوبهم وقال الحسن البصرى أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها أثقلها خزيا فى الدنيا وأطولها عذابا فى الآخرة هاه وأيم الله ماحوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله تعالى جعل موعدا والساعة أدهى وأمر (وإذ تأذن ربك) منصوب على المفعولية بمضمر معطوف على قوله تعالى واسألهم وتأذن بمعني آذن كما أن توعد بمعنى أوعد أو بمعنى عزم فان

العازم على الأمر يحدث به نفسه وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله فلذلك أجيب بجوابه حيث قيل (ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة) أى واذكر لهم وقت أيجابه تعالي على نفسه أن يسلط على اليهود ألبتة (من يسومهم سوء العذاب) كالأزلال وضرب الجزية وغير ذلك من فنون العذاب وقد بعث الله تعالى عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر فخرب ديارهم وقتل مقاتلتهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقى منهم وكانوا يؤدونها الى المجوس حتى بعث النبى عليه الصلاة والسلام ففعل مافعل ثم ضرب الجزية عليهم فلا تزال مضروبة الى آخر الدهر (أن ربك لسريع العقاب) يعاقبهم فى الدنيا (وانه لغفور رحيم) لمن تاب وآمن منهم (وقطعناهم) أى فرقنا بنى اسرائيل (فى الأرض) وجعلنا كل فرقة منهم فى قطر من أقطارها بحيث لاتخلو ناحية منها منهم تكملة لأدبارهم حتى لاتكون لهم شوكة وقوله تعالى (أمما) أما مفعول ثان لقطعنا أو حال من مفعوله (منهم الصالحون) صفة لأمما أو بدل منه وهم الذين آمنوا بالمدينة ومن يسير بسيرتهم (ومنهم دون ذلك) أى ناس دون ذلك الوصف أى منحطون عن الصلاح وهم كفرتهم وفسقتهم (وبلوناهم بالحسنات والسيئات) بالنعم والنقم (لعلهم يرجعون) عما كانوا فيه من الكفر والمعاصى (فخلف من بعدهم) أى من بعد المذكورين (خلف) أى بدل سوء مصدر نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع . وقيل جمع وهو شائع فى الشر والخلف بفتح اللام فى الخير والمراد به الذين كانوا فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم (ورثوا الكتاب) أى التوراة من اسلافهم يقرءونها ويقفون على مافيها (يأخذون عرض هذا الأدنى) استئناف مسوق لبيان مايصنعون بالكتاب بعد وراثتهم اياه أى يأخذون حطام هذا الشئ الأدنى أى الدنيا وهو من الدنو أو الدناءة والمراد به ما كانوا يأخذونه من الرشا فى الحكومات وعلى تحريف الكلام وقيل حال من واو ورثوا (ويقولون سيغفر لنا) ولا يؤاخذنا الله تعالى بذلك ويتجاوز عنه والجملة تحتمل العطف والحالية والفعل مسند الى الجار والمجرور أو مصدر يأخذون (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) حال من الضمير فى لنا أى يرجون المغفرة والحال أنهم مصرون على الذنب عائدون الى مثله غير تائبين عنه (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) أي الميثاق الوارد فى الكتاب (أن لايقولوا على الله الا الحق) عطف بيان للميثاق أو متعلق به أى بأن لايقولوا الخ والمراد به الرد عليهم والتوبيخ على بتهم القول بالمغفرة بلا توبة والدلالة على أنها افتراء على الله تعالى وخروج عن ميثاق الكتاب

(ودرسوا مافيه) عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فانه تقرير أو على ورثوا وهو اعتراض (والدار الآخرة خير للذين يتقون) ما فعل هؤلاء (أفلا تعقلون) فتعلموا ذلك فلا تستبدلوا الأدنى المؤدى الى العقاب بالنعيم المخلد . وقرىء بالياء وفى الالتفات تشديد للتوبيخ (والذين يمسكون بالكتاب) أى يتمسكون فى أمور دينهم يقال مسك بالشيء وتمسك به قال مجاهد هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذى جاء به موسى عليه السلام . فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة وقال عطاء هم أمة محمد عليه الصلاة والسلام . وقرئ يمسكون من الامساك وقرئ تمسكوا واستمسكوا موافقا لقوله تعالى (وأقاموا الصلاة) ولعل التغيير فى المشهورة للدلالة على أن التمسك بالكتاب أمر مستمر فى جميع الازمنة بخلاف اقامة الصلاة فانها مختصة بأوقاتها وتخصيصها بالذكر من بين سائر العبادات لانافتها عليها ومحل الموصول اما الجر نسقا على الذين يتقون وقوله أفلا تعقلون اعتراض مقرر لما قبله واما الرفع على الابتداء والخبر قوله تعالى (انا لانضيع أجر المصلحين) والرابط اما الضمير المحذوف كما هو رأى جمهور البصريين والتقدير أجر المصلحين منهم واما الالف واللام كما هو رأى الكوفيين فانه فى حكم مصلحيهم كما فى قوله تعالى « فان الجنة هى المأوى » أى مأواهم وقوله تعالى « مفتحة لهم الابواب » أى أبوابها وأما العموم فى مصلحين فانه من الروابط ومنه نعم الرجل زيد على أحد الوجوه وقيل الخبر محذوف والتقدير والذين يمسكون بالكتاب مأجورون أو مثابون وقوله تعالى انا لا نضيع أجر الخ اعتراض مقرر لما قبله (واذ نتقنا الجبل فوقهم) أى قلعناه من مكانه ورفعناه عليهم (كأنه ظلة) أى سقيفة وهى كل ماأظلك (وظنوا) أى تيقنوا (أنه واقع بهم) ساقط عليهم لان الجبل لايثبت فى الجو ولأنهم كانوا يوعدون به واطلاق الظن فى الحكاية لعدم وقوع متعلقه وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله تعالى عليهم الطور وقيل لهم ان قبلتم مافيها فبها والا ليقعن عليكم (خذوا ما آتيناكم) أى وقلنا أو قائلين خذوا ما آتيناكم من الكتاب (بقوة) بجد وعزيمة على تحمل مشاقه وهو حال من الواو (واذكروا مافيه) بالعمل ولا تتركوه كالمنسى (لعلكم تتقون) بذلك قبائح الأعمال ورذائل الاخلاق أو راجين أن تنتظموا فى سلك المتقين (واذ أخذ ربك) منصوب بمضمر معطوف ما انتصب به اذ نتقنا مسوق للاحتجاج على اليهود بتذكير الميثاق العام المنتظم للناس قاطبة وتوبيخهم بنقضه أثر الاحتجاج عليهم بتذكير ميثاق الطور وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود

تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيانه مرارا أي واذكر لهم أخذ ربك (من بنى آدم) المرد بهم الذين ولدهم كائنة من كان نسلا بعد نسل سوى من لم يولد له بسبب من الأسباب كالعقم وعدم التزوج والموت صغيرا . وايثار الاخذ على الاخراج للايذان بالاعتناء بشأن المأخوذ لما فيه من الانباء عن الاجتباء والاصطفاء وهو السبب فى اسناده الى اسم الرب بطريق الالتفات مع مافيه من التمهيد للاستفهام الآتى واضافته الى ضميره عليه الصلاة والسلام للتشريف وقوله تعالى (من ظهورهم) بدل من بنى آدم بدل البعض بتكرير الجار كما فى قوله تعالى «للذين استضعفوا لمن آمن منهم» ومن فى الموضعين ابتدائية وفيه مزيد تقرير لابتنائه على البيان بعد الابهام والتفصيل غب الاجمال وتنبيه على أن الميثاق قد أخذ منهم وهم فى أصلاب الآباء ولم يستودعوا فى أرحام الامهات وقوله تعالى (ذريتهم) مفعول أخذ أخر عن المفعول بواسطة الجار لاشتماله على ضمير راجع اليه ولمراعاة أصالته ومنشئيته ولما مر مرارا من التشويق الى المؤخر . وقرئ ذرياتهم والمراد بهم أولادهم على العموم فيندرج فيهم اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم اندراجا أوليا كما اندرج أسلافهم فى بنى آدم كذلك . وتخصيصهما باليهود سلفا وخلفا مع أن ماأريد بيانه من بديع صنع الله تعالى عز وجل شامل للكل كافة مخل بفخامة التنزيل وجزالة التمثيل (وأشهدهم على أنفسهم) أى أشهد كل واحدة من أولئك الذريات المأخوذين من ظهور آبائهم على نفسها لا على غيرها تقريرا لهم بربوبيته التامة وما تستتبعه من المعبودية على الاختصاص وغير ذلك من أحكامها وقوله تعالى (ألست بربكم) على إرادة القول أى قائلا ألست بربكم ومالك أمركم ومربيكم على الاطلاق من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شئونكم فينتظم استحقاق المعبودية ويستلزم اختصاصه به تعالى (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل فماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا (بلى شهدنا) أى على أنفسنا بأنك ربنا وآلهنا لا رب لنا غيرك كما ورد فى الحديث الشريف وهذا تمثيل لخلقه تعالى اياهم جميعا فى مبدأ الفطرة مستعدين للاستدلال بالدلائل المنصوبة فى الآفاق والأنفس المؤدية إلى التوحيد والاسلام كما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام «كل مولود يولد على الفطرة» الحديث مبنى على تشبيه الهيئة المنتزعة من تعريضه تعالى اياهم لمعرفة ربوبيته بعد تمكينهم منها بما ركز فيهم من العقول والبصائر ونصب لهم فى الآفاق والانفس من الدلائل تمكينا تاما ومن تمكنهم منها تمكنا كاملا وتعرضهم لها تعرضا قويا بهيئة منتزعة من حمله تعالى اياهم على الاعتراف بها بطريق الأمر ومن

مسارعتهم إلى ذلك من غير تلعثم أصلا من غير أن يكون هناك أخذ وأشهاد وسؤال وجواب كما في قوله تعالى «فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين» وقوله تعالى (أن تقولوا) بالتاء على تلوين الخطاب وصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى معاصريه من اليهود تشديدا في الالزام أو اليهم والى متقدميهم بطريق التغليب لكن لا من حيث أنهم مخاطبون بقوله تعالى ألست بربكم فانه ليس من الكلام المحكي وقرئ بالياء على أن الضمير للذرية وأياما كان فهو مفعول له لما قبله من الاخذ والاشهاد أي فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا أولئلا تقولوا أيها الكفرة أو يقولوا هم (يوم القيامة) عند ظهور الامر (انا كنا عن هذا) عن وحدانية الربوبية وأحكامها (غافلين) لم ننبه عليه فانهم حيث جبلوا على ما ذكر من التهيؤ التام لتحقيق الحق والقوة القريبة من الفعل صاروا محجوجين عاجزين عن الاعتذار بذلك اذ لا سبيل لاحد الى انكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة وقوله تعالى (أو تقولوا انما أشرك آباؤنا) عطف على تقولوا وأو لمنع الخلو دون الجمع أي هم اخترعوا الاشراك وهم سنوه (من قبل) أي من قبل زماننا (وكنا) نحن (ذرية من بعدهم) لانهتدي الى السبيل ولا نقدر على الاستدلال بالدليل (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) من آبائنا المضلين بعد ظهور أنهم المجرمون ونحن عاجزون عن التدبير والاستبداد بالرأي أو أتؤاخذنا فتهلكنا الخ فان ما ذكر من استعدادهم الكامل يسد عليهم باب الاعتذار بهذا أيضا فان التقليد عند قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها مما لا مساغ له أصلا هذا وقد حملت هذه المقاولة على الحقيقة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنه لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام مسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فقال ألست بربكم قالوا بلى فنودي يومئذ جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة . وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن الآية الكريمة فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال « ان الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون » ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون وليس المعنى أنه تعالى أخرج الكل من ظهره عليه الصلاة والسلام بالذات بل أخرج من ظهره عليه السلام أبناءه الصلبية ومن ظهورهم أبناءهم الصلبية وهكذا إلى آخر السلسلة لكن لما كان المظهر الاصلي ظهره عليه الصلاة والسلام وكان مساق الحديثين الشريفين بيان حال الفريقين اجمالا من غير أن يتعلق بذكر الوسائط غرض علمي

نسب أخراج الكل اليه وأما الآية الكريمة فحيث كانت مسوقة للاحتجاج على الكفرة المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان عدم أفادة الاعتذار بأسناد الاشراك إلى آبائهم اقتضى الحال نسبة اخراج كل واحد منهم إلى ظهر أبيهم من غير تعرض لاخراج الابناء الصلبية لآدم عليه السلام من ظهره قطعا وعدم بيان الميثاق فى حديث عمر رضى الله تعالى عنه ليس بيانا لعدمه ولا مستلزما له وأما ما قالوا من أن أخذ الميثاق لاسقاط عذر الغفلة حسبما ينطق به قوله تعالى «أن تقولوا يوم القيامة أنا كنا عن هذا غافلين» ومعلوم أنه غير دافع لغفلتهم فى دار التكليف اذلا فرد من أفراد البشر يذكر ذلك فمردود لكن لا بما قيل من أن الله عز وجل قد أوضح الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمته الحجة ونسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاج بعد اخبار المخبر الصادق بل بأن قوله تعالى أن تقولوا الخ ليس مفعولا له لقوله تعالى وأشهدهم وما يتفرع عليه من قولهم بلى شهدنا حتى يجب كون ذلك الاشهاد والشهادة محفوظا لهم فى الزامهم بل لفعل مضمر ينسحب عليه الكلام والمعنى فعلنا ما فعلنا من الامر بذكر الميثاق وبيانه كراهة أن تقولوا أو لئلا تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة انا كنا غافلين عن ذلك الميثاق لم ننبه عليه فى دار التكليف والا لعملنا بموجبه هذا على قراءة الجمهور وأما على القراءة بالياء فهو مفعول له لنفس الامر المضمر العامل فى اذ أخذ والمعنى اذكر لهم الميثاق المأخوذ منهم فيما مضى لئلا يعتذروا يوم القيامة بالغفلة عنه أو بتقليد الآباء هذا على تقدير كون قوله تعالى شهدنا من كلام الذرية وهو الظاهر فأما على تقدير كونه من كلامه تعالى فهو العامل فى أن تقولوا ولا محذور أصلا اذ المعنى شهدنا قولكم هذا لئلا تقولوا يوم القيامة الخ لانا نردكم ونكذبكم حينئذ (وكذلك) اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو شأن المشار اليه وبعد منزلته والكاف مقحمة مؤكدة لما أفاده اسم الاشارة من الفخامة والتقديم على الفعل لافادة القصر ومحله النصب على المصدرية أى ذلك التفصيل البليغ المستتبع للمنافع الجليلة (نفصل الآيات) المذكورة لا غير ذلك (ولعلهم يرجعون) وليرجعوا عما هم عليه من الاصرار على الباطل وتقليد الآباء نفعل التفصيل المذكور فالواوان ابتدائيتان ويجوز أن تكون الثانية عاطفة على مقدر مترتب على التفصيل أى وكذلك نفصل الآيات ليقفوا على ما فيها من المرغبات والزواجر وليرجعوا الخ (واتل عليهم) عطف على المضمر العامل فى اذ أخذ وارد على نمطه فى الأنباء عن الحور بعد الكور والضلالة بعد الهدى أى واتل على اليهود (نبأ الذى آتيناه آياتنا)

أى خبره الذى له شأن وخطر وهو أحد علماء بنى اسرائيل وقيل هو بلعم بن باعوراء أو بلعام بن باعر من الكنعانيين أوتى علم بعض كتب الله تعالى . وقيل هو أمية بن أبى الصلت . وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسل فى ذلك الزمان رسولا ورجا أن يكون هو الرسول . فلما بعث الله تعالى النبى صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به والاول هو الانسب بمقام توبيخ اليهود بهناتهم (فانسلخ منها) أى من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة ولم يخطرها بباله أصلا أو خرج منها بالكلية بان كفر بها ونبذها وراء ظهره وأياما كان فالتعبير عنه بالانسلاخ المنبئ عن اتصال المحيط بالمحاط خلقة وعن عدم الملاقاة بينهما أبدا للايذان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال (فأتبعه الشيطان) أي تبعه حتى لحقه وأدركه فصار قرينا له وهو المعنى على قراءة فاتبعه من الافتعال وفيه تلويح بأنه أشد من الشيطان غواية أو أتبعه خطواته (فكان من الغاوين) فصار من زمرة الضالين الراسخين فى الغواية بعد أن كان من المهتدين وروى أن قومه طلبوا اليه أن يدعو على موسى عليه السلام فقال كيف أدعو على من معه الملائكة فلم يزالوا به حتى فعل فبقوا فى التيه ويرده أن التيه كان لموسى عليه السلام روحا وراحة وانما عذب به بنو اسرائيل وقد كان ذلك بدعائه عليه السلام عليهم كما مر فى سورة المائدة (ولو شئنا) كلام مستأنف مسوق لبيان مناط ماذكر من انسلاخه من الآيات ووقوعه فى مهاوى الغواية ومفعول المشيئة محذوف لوقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء على القاعدة المستمرة أى ولو شئنا رفعه (لرفعناه) أى الى المنازل العالية للأبرار العالمين بتلك الآيات العاملين بموجبها لكن لا بمحض مشيئتنا من غير أن يكون له دخل فى ذلك أصلا فانه مناف للحكمة التشريعية المؤسسة على تعليق الاجزية بالافعال الاختيارية للعباد بل مع مباشرته للعمل المؤدى الى الرفع بصرف اختياره الى تحصيله كما ينبئ عنه قوله تعالى (بها) أى بسبب تلك الآيات بان عمل بموجبها فان اختياره وان لم يكن مؤثرا فى حصوله ولا فى ترتب الرفع عليه بل كلاهما بخلق الله تعالى لكن خلقه تعالى منوط بذلك ألبتة حسب جريان العادة الالهية وقد أشير الى ذلك فى الاستدراك بأن أسند مايؤدى الى نقض التالى اليه حيث قيل (ولكنه أخلد الى الارض) مع أن الاخلاد اليها أيضا مما لا يتحقق عند صرف اختياره اليه الا بخلقه تعالى كأنه قيل ولو شئنا رفعه بمباشرته لسببه لرفعناه بسبب تلك الآيات التى هى أقوى أسباب الرفع ولكن لم نشأ لمباشرته لسبب نقيضه فترك فى كل من المقامين ما ذكر فى الآخر تعويلا

على اشعار المذكور بالمطوى كما فى قوله تعالى «وان يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله» وتخصيص كل من المذكورين بمقامه للايذان بان الرفع مراد له تعالى بالذات وتفضل محض عليه لادخل فيه لفعله حقيقة كيف لا وجميع أفعاله ومباديها من نعمه تعالى وتفضلاته وان نقيضه انما أصابه بسوء اختياره على موجب الوعيد لابالارادة الذاتية له سبحانه كما قيل فى وجه ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر فى الآية المذكورة وهو السر فى جريان السنة القرآنية على اسناد الخير اليه تعالى واضافة الشر الى الغير كما فى قوله تعالى «واذا مرضت فهو يشفين» ونظائره . والاخلاد الى الشيء الميل اليه مع الاطمئنان به والمراد بالارض الدنيا وقيل السفالة والمعنى ولكنه آثر الدنيا الدنية على المنازل السنية أو الضعة والسفالة على الرفعة والجلالة (واتبع هواه) معرضا عن تلك الآيات الجليلة فانحط أبلغ انحطاط وارتد أسفل سافلين والى ذلك أشير بقوله تعالى (فمثله كمثل الكلب) لما أنه أخس الحيوانات وأسفلها وقد مثل حاله باخس أحواله وأذلها حيث قيل (ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) أى فحاله التى هى مثل فى السوء كصفته فى أرذل أحواله وهى حالة دوام اللهث به فى حالتى التعب والراحة فكأنه قيل فتردى الى مالا غاية وراءه فى الخسة والدناءة وايثار الجملة الاسمية على الفعلية بان يقال فصار مثله كمثل الكلب الخ للايذان بدوام اتصافه بتلك الحالة الخسيسة وكمال استقراره واستمراره عليها والخطاب فى فعلى الشرط لكل أحد ممن له حظ من الخطاب فانه أدخل فى أشاعة فظاعة حاله واللهث ادلاع اللسان بالتنفس الشديد أى هو ضيق الحال مكروب دائم اللهث سواء هيجته وأزعجته بالطرد العنيف أو تركته على حاله فانه فى الكلاب طبع لا تقدر على نفض الهواء المتسخن وجلب الهواء البارد بسهولة لضعف قلبها وانقطاع فؤادها بخلاف سائر الحيوانات فانها لا تحتاج الى التنفس الشديد ولا يلحقها الكرب والمضايقة الا عند التعب والأعياء والشرطية مع أختها تفسير لما أبهم فى المثل وتفصيل لما أجمل فيه وتوضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه لا محل له من الاعراب على منهاج قوله تعالى «خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون» اثر قوله تعالى «ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم» وقيل هى فى محل النصب على الحالية من الكلب بناء على خروجهما من حقيقة الشرط وتحولهما الى معنى التسوية حسب تحول الاستفهامين المتناقضين اليه فى مثل قوله تعالى «أأنذرتهم أم لم تنذرهم» كأنه قيل لاهثا فى الحالتين وأيا ما كان فالاظهر أنه تشبيه للهيئة المنتزعة مما اعتراه بعد الانسلاخ من سوء الحال واضطرام القلب ودوام القلق

والاضطراب وعدم الاستراحة بحال من الاحوال بالهيئة المنتزعة مما ذكر من حال الكلب. وقيل لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فتدلى على صدره وجعل يلهث كالكلب الى أن هلك (ذلك) اشارة الى ما ذكر من الحالة الخسيسة منسوبة الى الكلب أو الى المنسلخ وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها فى الخسة والدناءة أى ذلك المثل السيء (مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) وهم اليهود حيث أوتوا فى التوراة ماأوتوا من نعوت النبي عليه الصلاة والسلام وذكر القرآن المعجز ومافيه فصدقوه و بشروا الناس باقتراب مبعثه وكانوا يستفتحون به فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به و انسلخوا من حكم التوراة (فاقصص القصص) القصص مصدر سمى به المفعول كالسلب واللام للعهد و الفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها أى اذا تحقق أن المثل المذكور مثل هؤلاء المكذبين فاقصصه عليهم حسبما أوحى اليك (لعلهم يتفكرون) فيقفون على جلية الحال و ينزجرون عماهم عليه من الكفر والضلال و يعلمون أنك قد علمته من جهة الوحى فيزدادون ايقانا بك والجملة فى محل النصب على أنها حال من ضمير المخاطب أو على أنها مفعول له أى فاقصص القصص راجيا لتفكرهم أي أو رجاء لتفكرهم (ساء مثلا) استئناف مسوق لبيان كمال قبح حال المكذبين بعد بيان كونه كحال الكلب أو المنسلخ و ساء بمعنى بئس وفاعلها مضمر فيها و مثلا تمييز مفسر له والمخصوص بالذم قوله تعالى (القوم الذين كذبوا بآياتنا) و حيث وجب التصادق بينه و بين الفاعل و التمييز وجب المصير الى تقدير مضاف اما اليه وهو الظاهر أي ساء مثلا مثل القوم الخ أو الى التمييز أي ساء أصحاب مثل القوم الخ وقرئ ساء مثل القوم و اعادة القوم موصوفا بالموصول مع كفاية الضمير بان يقال ساء مثلا مثلهم للايذان بان مدار السوء ما فى حيز الصلة ولربط قوله تعالى (وأنفسهم كانوا يظلمون) به فانه اما معطوف على كذبوا داخل معه فى حكم الصلة بمعنى جمعوا بين تكذيب آيات الله بعد قيام الحجة عليها وعلمهم بها و بين ظلمهم لانفسهم خاصة أو منقطع عنه بمعنى وماظلموا بالتكذيب الا أنفسهم فان وباله لايتخطاها وأياما كان ففى يظلمون لمح الى أن تكذيبهم بالآيات متضمن للظلم بها وان ذلك أيضا معتبر فى القصر المستفاد من تقديم المفعول (من يهدى الله فهوا المهتدى) لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بان يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثله ليتفكروا فيه و يتركوا ماهم عليه من الاخلاد الى الضلالة و يهتدوا الى الحق عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل وانما العظة والتذكير من قبيل الوسايط العادية فى حصول

الاهتداء من غير تأثير لها فيه سوى كونها دواعي الى صرف العبد اختياره نحو تحصيله حسبما نيط به خلق الله تعالى اياه كسائر أفعال العباد فالمراد بهذه الهداية ما يوجب الاهتداء قطعا لكن لا لأن حقيقتها الدلالة الموصلة الى البغية ألبتة بل لأنها الفرد الكامل من حقيقة الهداية التي هي الدلالة الى مايوصل الى البغية أي مامن شأنه الايصال اليها كما سبق تحقيقه في تفسير قوله تعالى « هدى للمتقين » وليس المراد مجرد الأخبار باهتداء من هداه الله تعالى حتى يتوهم عدم الافادة بحسب الظاهر لظهور استلزام هدايته تعالى للاهتداء ويحمل النظم الكريم على تعظيم شأن الاهتداء والتنبيه على أنه في نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه بل هو قصر الاهتداء على من هداه الله تعالى حسبما يقضي به تعريف الخبر فالمعنى من يهد الله أي يخلق فيه الاهتداء على الوجه المذكور فهو المهتدي لا غير كائنا من كان (ومن يضلل) بأن لم يخلق فيه الاهتداء بل خلق فيه الضلالة لصرف اختياره نحوها (فأولئك) الموصوفون بالضلالة على الوجه المذكور (هم الخاسرون) أي الكاملون في الخسران لا غير. وافراد المهتدي نظرا الى لفظ من وجمع الخاسرين نظرا الى معناها للايذان باتحاد منهاج الهدى وتفرق طرق الضلال (ولقد ذرأنا) كلام مستأنف مقرر لمضمون ماقبله بطريق التذييل أي خلقنا (لجهنم) أي لدخولها والتعذيب بها وتقديمه على قوله تعالى (كثيرا) أي خلقا كثيرا مع كونه مفعولا به لما في توابعه من نوع طول يؤدي توسيطه بينهما وتأخيره عنهما الى الاخلال بجزالة النظم الكريم وقوله تعالى (من الجن والانس) متعلق بمحذوف هو صفة لكثيرا أي كائنا منهما وتقديم الجن لانهم أعرق من الانس في الاتصاف بما نحن فيه من الصفات وأكثر عدداً وأقدم خلقا والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم مايؤدي الى ذلك بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبدا بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر فبهذا الاعتبار جعل خلقهم مغيا بها كما أن جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطري للعبادة وتمكنهم التام منها جعل خلقهم مغيا بها كما نطق به قوله تعالى «وماخلقت الجن والانس الاليعبدون» وقوله تعالى (لهم قلوب) في محل النصب على أنه صفة أخرى لكثيرا وقوله تعالى (لايفقهون بها) في محل الرفع على أنه صفة لقلوب مؤكدة لمايفيده تنكيرها وإبهامها من كونها غير معهودة مخالفة لسائر أفراد الجنس فاقدة لكماله بالكلية لكن لابحسب الفطرة حقيقة بل بسبب امتناعهم عن صرفها الى تحصيله وهذا وصف لها بكمال الاغراق

فى القساوة فانها حيث لم يتأت منها الفقه بحال فكأنها غير قابلة له رأسا وكذا الحال فى أعينهم وآذانهم وحذف المفعول للتعميم أى لهم قلوب ليس من شأنها أن يفقهوا بها شيئا مما من شأنه أن يفقه فيدخل فيه ما يليق بالمقام من الحق ودلائله دخولا أوليا وتخصيصه بذلك مخل بالافصاح عن كنه حالهم (ولهم أعين لا يبصرون بها) الكلام فيه كما فيما عطف هو عليه والمراد بالابصار والسمع المنفيين ما يختص بالعقلاء من الادراك على ما هو وظيفة الثقلين لا ما يتناول مجرد الاحساس بالشبح والصوت كما هو وظيفة الأنعام أى لا يبصرون بها شيئا من المبصرات فيندرج فيه الشواهد التكوينية الدالة على الحق اندراجا أوليا (ولهم آذان لا يسمعون بها) أى شيئا من المسموعات فيتناول الآيات التنزيلية تناولا أوليا وأعادة الخبر فى الجملتين المعطوفتين مع انتظام الكلام بأن يقال وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها لتقرير سوء حالهم وفى إثبات المشاعر الثلاثة لهم ثم وصفها بعدم الشعور دون سلبها عنهم ابتداء بأن يقال ليس لهم قلوب يفقهون بها ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها من الشهادة بكمال رسوخهم فى الجهل والغواية ما لا يخفى (أولئك) اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الضلال أى أولئك الموصوفون بالأوصاف المذكورة (كالأنعام) أى فى انتفاء الشعور على الوجه المذكور أو فى أن مشاعرهم متوجهة الى أسباب التعيش مقصورة عليها (بل هم أضل) فانها تدرك ما من شأنها أن تدركه من المنافع والمضار فتجتهد فى جلبها وسلبها غاية جهدها مع كونها بمعزل من الخلود وهؤلاء ليسوا كذلك حيث لا يميزون بين المنافع والمضار بل يعكسون الأمر فيتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد. وقيل لأنها تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه وفى الخبر «كل شىء أطوع لله من ابن آدم» (أولئك) المنعوتون بما مر من مثلية الأنعام والشرية منها (هم الغافلون) الكاملون فى الغفلة المستحقون لأن يخص بهم الاسم ولا يطلق على غيرهم كيف لا وأنهم لا يعرفون من شئون الله عز وجل ولا من شئون ما سواه شيئا فيشركون به سبحانه وليس كمثله شىء وهو السميع البصير أصنامهم التى هى من أحسن مخلوقاته تعالى (ولله الأسماء الحسنى) تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع المخلين بذلك الغافلين عنه سبحانه وعما يليق به من الامور وما لا يليق به أثر بيان غفلتهم التامة وضلالتهم الطامة . والحسنى تأنيث الأحسن أى الاسماء التى هى أحسن الاسماء وأجلها لأنبائها عن أحسن المعانى وأشرفها (فادعوه بها) أى فسموه بتلك الاسماء (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) الالحاد

واللحد الميل والانحراف يقال لحد وألحد اذا مال عن القصد . وقرىء يلحدون من الثلاثى أى يميلون فى شأنها عن الحق الى الباطل اما بأن يسموه تعالى بما لا توقيف فيه أو بما يوهم معنى فاسدا كما فى قول أهل البدو ياأبا المكارم باأبيض الوجه يانجى ونحو ذلك فالمرا بالترك المأمور به الاجتناب عن ذلك وبأسمائه ما أطلقوه عليه تعالى وسموه به على زعمهم لا أسماؤه تعالى حقيقة وعلى ذلك يحمل ترك الاضمار بأن يقال يلحدون فيها وأما بأن يعدلوا عن تسميته تعالى ببعض أسمائه الكريمة كما قالوا وما الرحمن ما نعرف سوى رحمان اليمامة فالمراد بالترك الاجتناب أيضا وبالأسماء أسماؤه تعالى حقيقة فالمعنى سموه تعالى بجميع أسمائه الحسنى واجتنبوا اخراج بعضها من البين وإما بأن يطلقوها على غيره تعالى كما سموا أصنامهم آلهة وإما بأن يشتقوا من بعضها أسماء أصنامهم كما اشتقوا اللات من الله تعالى والعزى من العزيز فالمراد بالاسماء أسماؤه تعالى حقيقة كما فى الوجه الثانى والاظهار فى موقع الاضمار مع التجريد عن الوصف فى الكل للايذان بأن الحادهم فى نفس الاسماء من غير اعتبار الوصف وليس المراد بالترك حينئذ الاجتناب عن ذلك اذلا يتوهم صدور مثل هذا الالحاد عن المؤمنين ليؤمروا بتركه بل هو الاعراض عنهم وعدم المبالاة بما فعلوا ترقبا لنزول العقوبة بهم عن قريب كما هو المتبادر من قوله تعالى (سيجزون ما كانوا يعملون) فأنه استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الامر بعدم المبالاة والاعراض عن المجازاة كانه قيل لم لانبالى بالحادهم ولاتتصدى لمجازاتهم فقيل لأنه سينزل بهم عقوبة وتتشفون بذلك عن قريب وأما على الوجهين الاولين فالمعنى اجتنبوا إلحادهم كى لايصيبكم ما أصابهم فانه سينزل بهم عقوبة الحادهم (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) بيان أجمالى لحال من عدا المذكورين من الثقلين الموصوفين بما ذكر من الضلال والألحاد عن الحق ومحل الظرف الرفع على أنه مبتدأ إما باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف وما بعده خبره كما مر فى تفسير قوله تعالى ومن الناس الخ أى وبعض من خلقنا أو وبعض ممن خلقنا أمة أى طائفة كثيرة يهدون الناس ملتبسين بالحق أو يهدونهم بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة وبالحق يحكمون فى الحكومات الجارية فيما بينهم ولا يجورون فيها . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا قرأها «هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ومن قوم موسى أمة» الآية وعنه عليه الصلاة والسلام «ان من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى» وروى «لا تزال من أمتى طائفة على الحق الى أن يأتى أمر الله» وروى «لا تزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون» وفيه من

الدلالة على صحة الاجماع مالا يخفى. و الاقتصار على نعتهم بهداية الناس للايذان بأن اهتداءهم فى أنفسهم أمر محقق غنى عن التصريح به (و الذين كذبوا بآياتنا) شروع فى تحقيق الحق الذى به يهدى الهادون وبه يعدل العادلون وحمل الناس على الاهتداء به على وجه الترهيب ومحل الموصول الرفع على أنه مبتدأ خبره مابعده من الجملة الاستقبالية و إضافة الآيات الى نون العظمة لتشريفها واستعظام الاقدام على تكذيبها أى والذين كذبوا بآياتنا التي هى معيار الحق ومصداق الصدق و العدل (سنستدرجهم) أى نستدنيهم ألبتة الى الهلاك شيئا فشيئا والاستدراج استفعال من درج اما بمعنى صعد ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل نقل تدريجى سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط أو الاستقامة واما بمعنى مشى مشيا ضعيفا واما بمعنى طوى والأول هو الأنسب بالمعنى المراد الذى هو النقل الى أعلى درجات المهالك ليبلغ أقصى مراتب العقوبة و العذاب ثم استعير لطلب كل نقل تدريجى من حال الى حال من الأحوال الملائمة للمنتقل الموافقة لهواه بحيث يزعم أن ذلك ترق فى مراقى منافعه مع أنه فى الحقيقة ترد فى مهاوى مصارعه فاستدراجه سبحانه اياهم أن يواتر عليهم النعم مع انهماكهم فى الغى فيحسبوا أنها لطف لهم منه تعالى فيزدادوا بطرا و طغيانا لكن لا على أن المطلوب تدرجهم فى مراتب النعم بل هو تدرجهم فى مدارج المعاصى الى أن يحق عليهم كلمة العذاب على أفظع حال و أشنعها والأول وسيلة اليه وقوله تعالى (من حيث لايعلمون) متعلق بمضمر وقع صفة لمصدر الفعل المذكور أى سنستدرجهم استدراجا كائنا من حيث لايعلمون أنه كذلك بل يحسبون أنه أثرة من الله عز وجل وتقريب منه وقيل لايعلمون ما يراد بهم (وأملى لهم) عطف على سنستدرجهم غير داخل فى حكم السين لما أن الاملاء الذي هو عبارة عن الامهال والاطالة ليس من الأمور التدريجية كالاستدراج الحاصل فى نفسه شيئا فشيئا بل هو فعل يحصل دفعة و انما الحاصل بطريق التدريج آثاره وأحكامه لا نفسه كما يلوح به تغيير التعبير بتوحيد الضمير مع مافيه من الافتنان المنبىء عن مزيد الاعتناء بمضمون الكلام لابتنائه على تجديد القصد والعزيمة واماان ذلك للاشعار بأنه بمحض التقدير الالهي والاستدراج بتوسط المدبرات فمبناه دلالة نون العظمة على الشركة و أنى ذلك والا لاحترز عن إيرادها فى قوله تعالى «لايحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم» الآية بل إنما إيرادها فى أمثال هذه الموارد بطريق الجريان على سنن الكبرياء (إن كيدى متين) تقرير للوعيد وتأكيد له أى قوى لايدافع بقوة و لا بحيلة والمراد به أما الاستدراج والاملاء مع نتيجتهما التى هى الأخذ الشديد على غرة فتسميته كيدا لما أن ظاهره لطف وباطنه قهر

وأما نفس ذلك الأخذ فقط فالتسمية لكون مقدماته كذلك وأما أن حقيقة الكيد هو الأخذ على خفاء من غير أن يعتبر فيه إظهار خلاف ماأبطنه فما لاتعويل عليه مع عدم مناسبته للمقام ضرورة استدعائه لاعتبار القيد المذكور حتما (أولم يتفكروا مابصاحبهم من جنة) كلام مبتدأ مسوق لانكار عدم تفكرهم في شأنه عليه الصلاة والسلام وجهلهم بحقيقة حاله الموجبة للايمان به وبما أنزل عليه من الآيات التي كذبوا بها والهمزة للانكار والتعجيب والتوبيخ والواو للعطف على مقدر يستدعيه سياق النظم الكريم وسياقه وما اما استفهامية إنكارية في محل الرفع بالابتداء والخبر بصاحبهم وأما نافية اسمها جنة وخبرها بصاحبهم والجنة من المصادر التي يراد بها الهيئة كالركبة والجلسة وتنكيرها للتقليل والتحقير والجملة معلقة لفعل التفكر لكونه من أفعال القلوب ومحلها على الوجهين النصب على نزع الجار أي كذبوا بها ولم يتفكروا في أي شيء من جنون ما كائن بصاحبهم الذي هو أعظم الأمة الهادية بالحق وعليه أنزلت تلك الآيات أو في أنه ليس بصاحبهم شيء من جنة حتى يؤديهم التفكر في ذلك الى الوقوف على صدقه وصحة نبوته فيؤمنوا به وبما أنزل عليه من الآيات وقيل قد تم الكلام عند قوله تعالى أولم يتفكروا أي أكذبوا بها ولم يفعلوا التفكر ثم ابتدئ فقيل أي شيء بصاحبهم من جنة ما على طريقة الانكار والتعجيب والتبكيت أو قيل ليس بصاحبهم شيء منها والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبهم للايذان بأن طول مصاحبتهم له عليه الصلاة والسلام مما يطلعهم على نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبة ماذكر ففيه تأكيد للنكير وتشديد له والتعرض لنفي الجنون عنه عليه الصلاة والسلام مع وضوح استحالة ثبوته له عليه الصلاة والسلام لما أن التكلم بما هو خارق لقضية العقول والعادات لايصدر الا عمن به مس من الجنون كيفما اتفق من غير أن يكون له أصل ومعنى أو عمن له تأييد الهي يخبر به عن الأمور الغيبية واذ ليس به عليه السلام شائبة الأول تعين أنه عليه الصلاة والسلام مؤيد من عند الله تعالى . وقيل انه عليه الصلاة والسلام علا الصفا ليلا فجعل يدعو قريشا فخذا فخذا يحذرهم بأس بالله تعالى فقال قائلهم ان صاحبكم هذا لمجنون بات يهوت الى الصباح فنزلت فالتصريح بنفي الجنون حينئذ للرد على عظيمتهم الشنعاء والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بصاحبهم وارد على شاكلة كلامهم مع مافيه من النكتة المذكورة وقوله تعالى (ان هو الا نذير مبين) جملة مقررة لمضمون ماقبلها ومبينة لحقيقة حاله عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى «ان هذا الا ملك كريم» بعد قوله تعالى «ماهذا بشرا» أي

ماهو عليه الصلاة والسلام الا مبالغ فى الأنذار مظهر له غاية الاظهار ابراز الكمال الرأفة ومبالغة فى الأعذار وقوله تعالى (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض) استئناف آخر مسوق للانكار والتوبيخ باخلالهم بالتأمل فى الآيات التكوينية المنصوبة فى الآفاق والأنفس الشاهدة بصحة مضمون الآيات المنزلة اثر مانعى عليهم اخلالهم بالتفكر فى شأنه عليه الصلاة والسلام والهمزة لما ذكر من الانكار والتعجيب والتوبيخ والواو للعطف على المقدر المذكور أو على الجملة المنفية بلم والملكوت الملك العظيم أي أكذبوا بها أو ألم يتفكروا فيما ذكر ولم ينظروا نظر تأمل فيما يدل عليه السموات والأرض من عظم الملك وكمال القدرة (وما خلق الله) أى وفيما خلق فيهما على أنه عطف على ملكوت وتخصيصه بهما لكمال ظهور عظم الملك فيهما أو وفى ملكوت ماخلق على أنه عطف على السموات والارض والتعميم لاشتراك الكل فى الدلالة على عظم الملك فى الحقيقة وعليه قوله تعالى «فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء» وقوله تعالى (من شيء) بيان لما خلق مفيد لعدم اختصاص الدلالة المذكورة بجلائل المصنوعات دون دقائقها والمعنى أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق فيهما من جليل ودقيق مما ينطلق عليه اسم الشيء ليدلهم ذلك على العلم بوحدانيته تعالى وبسائر شئونه التى تنطق بها تلك الآيات فيؤمنوا بها لاتحادهما فى المدلول فان كل فرد من أفراد الأكوان مما عز وهان دليل لائح على الصانع المجيد وسبيل واضح الى عالم التوحيد وقوله تعالى (وان عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) عطف على ملكوت وان مخففة من ان واسمها ضمير الشأن وخبرها عسى مع فاعلها الذى هو أن يكون واسم يكون أيضا ضمير الشأن والخبر قد اقترب أجلهم والمعنى أولم ينظروا فى أن الشأن عسى ان يكون الشأن قد اقترب أجلهم وقد جوز أن يكون اسم يكون أجلهم وخبرها قد اقترب على انها جملة من فعل وفاعل هو ضمير أجلهم لتقدمه حكما وأياما كان فمناط الانكار والتوبيخ تأخيرهم للنظر والتأمل أى لعلهم يموتون عما قريب فما لهم لايسارعون الى التدبر فى الآيات التكوينية الشاهدة بما كذبوه من الآيات القرآنية وقد جوز أن يكون الأجل عبارة عن الساعة والاضافة الى ضميرهم لملابستهم لها من جهة انكارهم لها وبحثهم عنها وقوله تعالى (فبأى حديث بعده يؤمنون) قطع لاحتمال ايمانهم رأسا ونفي له بالكلية مترتب على ماذكر من تكذيبهم بالآيات وإخلالهم بالتفكر والنظر والباء متعلقة بيؤمنون وضمير بعده للآيات على حذف المضاف المفهوم من كذبوا والتذكير باعتبار كونها قرآنا أو بتأويلها

بالمذكور وأجراء الضمير مجرى اسم الاشارة والمعنى أكذبوا بها ولم يتفكروا فيما يوجب تصديقها من أحواله عليه الصلاة والسلام واحوال المصنوعات فبأي حديث يؤمنون بعد تكذيبه ومعه مثل هذه الشواهد القوية كلا وهيهات وقيل الضمير للقرآن والمعنى فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون اذا لم يؤمنوا به وهو النهاية فى البيان. وقيل هو انكار وتبكيت لهم مترتب على اخلالهم بالمسارعة الى التأمل فيما ذكر كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فمالهم لا يبادرون الى الايمان بالقرآن قبل الفوت وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق وبأي حديث أحق منه يريدون ان يؤمنوا وقيل الضمير لاجلهم والمعنى فبأى حديث بعد انقضاء أجلهم يؤمنون وقيل للرسول عليه الصلاة والسلام على حذف مضاف أى فبأى حديث بعد حديثه يؤمنون وهو أصدق الناس وقوله تعالى (من يضلل الله فلا هادى له) استئناف مقرر لما قبله منبىء عن الطبع على قلوبهم وقوله تعالى (ويذرهم فى طغيانهم) بالياء والرفع على الاستئناف أى وهو يذرهم وقرىء بنون العظمة على طريقة الالتفات أي ونحن نذرهم وقرىء بالياء والجزم عطفا على محل فلا هادى له كأنه قيل من يضلل الله لا يهده أحد ويذرهم وقد روى الجزم بالنون عن نافع وأبى عمرو فى الشواذ وقوله تعالى (يعمهون) أى يترددون ويتحيرون حال من مفعول يذرهم وتوحيد الضمير فى حيز النفى نظرا الى لفظ من وجمعه فى حيز الاثبات نظرا الى معناها للتنصيص على شمول النفى والاثبات للكل (يسئلونك عن الساعة) استئناف مسوق لبيان بعض أحكام ضلالهم وطغيانهم أى عن القيامة وهى من الاسماء الغالبة واطلاقها عليها اما لوقوعها بغتة أو لسرعة مافيها من الحساب أو لانها ساعة عند الله تعالى مع طولها فى نفسها قيل ان قوما من اليهود قالوا يامحمد أخبرنا متى الساعة ان كنت نبيا فانا نعلم متى هى وكان ذلك امتحانا منهم مع علمهم أنه تعالى قد استأثر بعلمها وقيل السائلون قريش وقوله تعالى (أيان مرساها) بفتح الهمزة وقد قرىء بكسرها وهو ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام ويليه المبتدا والفعل المضارع دون الماضى بخلاف متى حيث يليها كلاهما . قيل اشتقاقه من أى فعلان منه لان معناه أى وقت وهو من أويت الى الشيء لان البعض آو الى الكل متساند اليه ومحله الرفع على أنه خبر مقدم ومرساها مبتدا مؤخر أى متى ارساؤها أى اثباتها وتقريرها فانه مصدر ميمي من ارساه اذا أثبته وأقره ولا يكاد يستعمل الا فى الشيء الثقيل كما فى قوله تعالى « والجبال أرساها » ومنه مرساة السفن ومحل الجملة قيل الجر على البدلية من الساعة والتحقيق أن محلها النصب بنزع الخافض لانها بدل من الجار والمجرور لامن المجرور فقط كأنه قيل يسألونك عن الساعة عن أيان مرساها وفى تعليق السؤال بنفس الساعة أولا وبوقت

وقوعها ثانيا تنبيه على أن المقصد الاصلى من السؤال نفسها باعتبار حاولها فى وقتها المعين لاوقتها باعتبار كونه محلا لها وقد سلك هذا المسلك فى الجواب الملقن أيضا حيث أضيف العلم المطلوب بالسؤال الى ضميرها فاخبر باختصاصه به عز وجل حيث قيل (قل انما علمها) أى علمها بالاعتبار المذكور (عند ربى) ولم يقل انما علم وقت ارسائها ومن لم يتنبه لهذه النكتة حمل النظم الكريم على حذف المضاف والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام للايذان بأن توفيقه عليه الصلاة والسلام للجواب على الوجه المذكور من باب التربية والارشاد . ومعنى كونه عنده تعالى خاصة أنه تعالى قد استأثر به بحيث لم يخبر به أحدا من ملك مقرب أو نبى مرسل وقوله تعالى (لايجليها لوقتها الا هو) بيان لاستمرار تلك الحالة الى حين قيامها واقناط كلى من اظهار أمرها بطريق الاخبار من جهته تعالى أو من جهة غيره لاقتضاء الحكمة التشريعية اياه فانه أدعى الى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أن اخفاء الأجل الخاص للانسان كذلك . والمعنى لا يكشف عنها ولا يظهر للناس أمرها الذى تسألوننى عنه الا هو بالذات من غير أن يشعر به أحد من المخلوقين فيتوسط فى اظهاره لهم لكن لا بأن يخبرهم بوقتها قبل مجيئه كما هو المسئول بل بأن يقيمها فيشاهدوها عيانا كما يصح عنه التجلية المنبئة عن الكشف التام المزيل للابهام بالكلية وقوله تعالى لوقتها أى فى وقتها قيد للتجلية بعد ورود الاستثناء عليها لاقبله كأنه قيل لايجليها الا هو فى وقتها الا أنه قدم على الاستثناء للتنبيه من أول الامر على أن تجليتها ليست بطريق الاخبار بوقتها بل بأظهار عينها فى وقتها الذى يسألون عنه وقوله تعالى (ثقلت فى السموات والأرض) استئناف كما قبله مقرر لمضمون ما قبله أى كبرت وشقت على أهلهما من الملائكة والثقلين كل منهم أهمه خفاؤها وخروجها عن دائرة العقول. وقيل عظمت عليهم حيث يشفقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها وقيل ثقلت فيهما اذ لا يطيقها منهما وما فيهما شىء أصلا والاول هو الانسب بما قبله و بما بعده من قوله تعالى (لاتأتيكم الا بغتة) فانه أيضا استئناف مقرر لمضمون ماقبله فلا بد من اعتبار الثقل من حيث الخفاء أى لاتأتيكم الا فجأة على غفلة كما قال عليه الصلاة والسلام «ان الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقوم سلعته فى سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه» (يسئلونك كأنك حفى عنها) استئناف مسوق لبيان خطئهم فى توجيه السؤال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء على زعمهم أنه عليه الصلاة والسلام عالم بالمسئول عنه أو أن العلم بذلك من مواجب الرسالة أثر بيان خطئهم فى أصل السؤال بأعلام شأن المسئول عنه والجملة التشبيهية فى محل النصب على

أنها حال من الكاف جيء بها بيانا لما يدعوهم الى السؤال على زعمهم واشعارا بخطئهم فى ذلك أي يسألونك مشبها حالك عندهم بحال من هو حفى عنها أى بالغ فى العلم بها فعيل من حفى وحقيقته كأنك مبالغ فى السؤال عنها فان ذلك فى حكم المبالغة فى العلم بها لما أن من بالغ فى السؤال عن الشيء و البحث عنه استحكم علمه به ومبنى التركيب على المبالغة و الاستقصاء ومنه أحفاء الشارب واحتفاء البقل أى استئصاله والاحفاء فى المسألة أى الالحاف فيها. وقيل عن متعلقة بيسئلونك وقوله تعالى كأنك حفى معترض وصلة حفى محذوفة أى حفى بها وقد قرئ كذلك وقيل هو من الحفاوة بمعنى البر والشفقة فان قريشا قالوا له عليه الصلاة والسلام ان بيننا و بينك قرابة فقل لنا متى الساعة والمعنى يسئلونك كأنك حفى تتحفى بهم فتخصهم بتعليم وقتها لاجل القرابة وتزوى أمرها عن غيرهم ففيه تخطئة لهم من جهتين وقيل هو من حفى بالشيء بمعنى فرح به و المعنى كأنك فرح بالسؤال عنها تحبه مع أنك كاره له لما أنه تعرض لحرم الغيب الذى استأثر الله عز وجل بعلمه (قل أنما علمها عند الله) أمر عليه الصلاة والسلام باعادة الجواب الأول تأكيدا للحكم وتقريرا له واشعارا بعلته على الطريقة البرهانية بايراد اسم الذات المنبئ عن استتباعها لصفات الكمال التى من جملتها العلم وتمهيدا للتعريض بجهلهم بقوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي لا يعلمون ماذكر من اختصاص علمها به تعالى فبعضهم ينكرونها رأسا فلا يعلمون شيئا مما ذكر قطعا و بعضهم يعلمون أنها واقعة ألبتة و يزعمون أنك واقف على وقت وقوعها فيسألونك عنها جهلا و بعضهم يدعون أن العلم بذلك من مواجب الرسالة فيتخذون السؤال عنه ذريعة الى القدح فى رسالته و المستثنى من هؤلاء هم الواقفون على جلية الحال من المؤمنين وأما السائلون عنها من اليهود بطريق الامتحان فهم منتظمون فى سلك الجاهلين حيث لم يعملوا بعلمهم و قوله تعالى (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا) شروع فى الجواب عن السؤال ببيان عجزه عن علمها اثر بيان عجز الكل عنه وابطال زعمهم الذى بنوا عليه سؤالهم من كونه عليه الصلاة والسلام ممن يعلمها و اعادة الامر لاظهار كمال العناية بشأن الجواب و التنبيه على استقلاله ومغايرته للاول والتعرض لبيان عجزه عما ذكر من النفع و الضر لاثبات عجزه عن علمها بالطريق البرهانى واللام اما متعلق بأملك أو بمحذوف وقع حالا من نفعا أي لا أقدر لاجل نفسى على جلب نفع ما ولا على دفع ضر ما (الا ماشاء الله) أن أملكه من ذلك بأن يلهمنيه فيمكننى منه و يقدرنى عليه أولكن ماشاء الله من ذلك كائن فالاستثناء منقطع وهذا أبلغ فى اظهار العجز (و لو كنت أعلم

الغيب) أى جنس الغيب الذي من جملته مابين الاشياء من المناسبات المصححة عادة للسببية و المسببية و من المباينات المستتبعة للمانعة و المدافعة (لاستكثرت من الخير) أي لحصلت كثيرا من الخير الذى نيط تحصيله بالأفعال الاختيارية للبشر بترتيب أسبابه ودفع موانعه (وما مسنى السوء) أي السوء الذى يمكن التفصى عنه بالتوقى عن موجباته والمدافعة بموانعه لاسوء ما فان منه مالامدفع له (ان أنا الا نذير وبشير) أى ما أنا الا عبد مرسل للانذار و البشارة شأنى حيازة مايتعلق بهمامن العلوم الدينية والدنيوية لا الوقوف على الغيوب التى لا علاقة بينها و بين الاحكام و الشرائع وقد كشفت من أمر الساعة ما يتعلق به الانذار من مجيئها لا محالة واقترابها وأما تعيين وقتها فليس مما يستدعيه الانذار بل هو مما يقدح فيه لمامر من أن ابهامه أدعى الى الانزجار عن المعاصى وتقديم النذير على البشير لما أن المقام مقام الانذار وقوله تعالى (لقوم يؤمنون) اما متعلق بهما جميعا لانهم ينتفعون بالانذار كما ينتفعون بالبشارة واما بالبشير فقط ومايتعلق بالنذير محذوف أى نذير للكافرين أى الباقين على الكفر وبشير لقوم يؤمنون أى فى أى وقت كان ففيه ترغيب للكفرة فى أحداث الايمان وتحذير عن الاصرار على الكفر والطغيان (هو الذى خلقكم) استئناف سيق لبيان كمال عظم جناية الكفرة فى جراءتهم على الاشراك بتذكير مبادى أحوالهم المنافية له وايقاع الموصول خبرا لتفخيم شأن المبتدا أى هو ذلك العظيم الشأن الذى خلقكم جميعا وحده من غير أن يكون لغيره مدخل فى ذلك بوجه من الوجوه (من نفس واحدة) هو آدم عليه الصلاة والسلام وهذا نوع تفصيل لما أشير اليه فى مطلع السورة الكريمة اشارة اجمالية من خلقهم وتصويرهم فى ضمن خلق آدم و تصويره و بيان لكيفيته (وجعل) عطف على خلقكم داخل فى حكم الصلة ولا ضير فى تقدمه عليه وجود الما ان الواو لاتستدعى الترتيب فى الوجود (منها) أي من جنسها كما فى قوله تعالى «جعل لكم من أنفسكم أزواجا» أو من جسدها لما يروى أنه تعالى خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم عليه الصلاة والسلام والاول هو الانسب اذ الجنسية هى المؤدية الى الغاية الآتية لا الجزئية والجعل اما بمعنى التصيير فقوله تعالى (زوجها) مفعوله الاول والثانى هو الظرف المقدم واما بمعنى الانشاء و الظرف متعلق بجعل قدم على المفعول الصريح لمامر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف هو حال من المفعول والاول هو الاولى وقوله تعالى (ليسكن اليها) علة غائية للجعل باعتبار تعلقه بمفعوله الثانى أى ليستأنس بها و يطمئن اليها اطمئنانا مصححا للازدواج كما يلوح به تذكير الضمير و يفصح عنه قوله

تعالى (فلما تغشاها) أي جامعها (حملت حملا خفيفا) في مبادي الامر فانه عند كونه نطفة أو علقة أو مضغة أخف عليها بالنسبة الى مابعد ذلك من المراتب والتعرض لذكر خفته للاشارة الى نعمته تعالى عليهم في انشائه تعالى اياهم متدرجين في أطوار الخلق من العدم الى الوجود ومن الضعف الى القوة (فمرت به) أي فاستمرت به كما كانت قبل حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت وعليه قراءة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقرىء فمرت بالتخفيف وفارت من المور وهوالمجيء والذهاب اومن المرية أي فظنت الحمل وارتابت به. وأما ماقيل من أن المعنى حملت حملا خف عليها ولم تلق منه مايلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذية ولم تستثقله كما يستثقلنه فمرت به أي فمضت به الى ميلاده من غير اخراج ولا ازلاق فيرده قوله تعالى (فلما أثقلت) اذ معناه فلما صارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها ولا ريب في أن الثقل بهذا المعنى ليس مقابلا للخفة بالمعنى المذكور انما يقابلها الكرب الذي يعتري بعضهن من أول الحمل الى آخره دون بعض أصلا وقرىء أثقلت على البناء للمفعول أي أثقلها حملها (دعوا الله) أي آدم وحواء عليهما السلام لما دهمهما أمر لم يعهداه ولم يعرفا مآله فاهتما به وتضرعا اليه عز وجل وقوله تعالى (ربهما) أي مالك أمرهما الحقيق بأن يخص به الدعاء اشارة الى أنهما قد صدرا به دعاءهما كما في قولهما « ربنا ظلمنا أنفسنا » الآية ومتعلق الدعاء محذوف تعويلا على شهادة الجملة القسمية به أي دعواه تعالى ان يؤتيهما صالحا ووعدا بمقابلته الشكر على سبيل التوكيد القسمي وقالا أو قائلين (لئن آتيتنا صالحا) أي ولدا من جنسنا سويا (لنكونن) نحن ومن يتناسل من ذريتنا (من الشاكرين) الراسخين في الشكر على نعمائك التي من جملتها هذه النعمة وترتيب هذا الجواب على الشرط المذكور لما أنهما قد علما أن ما علقا به دعاءهما انموذج لسائر أفراد الجنس ومعيار لها ذاتا وصفة وجوده مستتبع لوجودها وصلاحه مستلزم لصلاحها فالدعاء في حق الكل مستتبع له كأنهما قالا لئن آتيتنا وذريتنا أولادا صالحة. وقيل ان ضمير آتيتنا أيضا لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما فالوجه ظاهر وأنت خبير بأن نظم الكل في سلك الدعاء اصالة يأباه مقام المبالغة في الاعتناء بشأن ماهما بصدده وأما جعل ضمير لنكونن للكل فلا محذور فيه لان توسيع دائرة الشكر غير مخل بالاعتناء المذكور بل مؤكد له وأياما كان فمعنى قوله تعالى (فلما آتاهما صالحا) لما آتاهما ماطلباه اصالة واستتباعا من الولد وولد الولد ماتناسلوا فقوله تعالى (جعلا) أي جعل أولادهما (له) تعالى (شركاء) على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ثقة بوضوح الامر وتعويلا على مايعقبه من البيان وكذا الحال في

قوله تعالى (فيما آتاهما) أى فيما آتى أولادهما من الاولاد حيث سموهم بعبدمناف وعبد العزى ونحو ذلك وتخصيص اشراكهم هذا بالذكر فى مقام التوبيخ مع أن اشراكهم بالعبادة اغلظ منه جناية وأقدم وقوعا لما ان مساق النظم الكريم لبيان اخلالهم بالشكر فى مقابلة نعمة الولد الصالح وأول كفرهم فى حقه انما هو تسميتهم اياه بما ذكر وقرىء شركا أى شركة أو ذوى شركة أى شركاء . ان قيل ماذكر من حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه انما يصار اليه فيما يكون للفعل ملابسة ما بالمضاف اليه أيضا بسرايته اليه حقيقة أو حكما وتتضمن نسبته اليه صورة مزينة يقتضيها المقام كما فى مثل قوله تعالى «وإذ أنجيناكم من آل فرعون» الآية فان الانجاء منهم مع أن تعلقه حقيقة ليس الا بأسلاف اليهود قد نسب الى أخلافهم بحكم سرايته اليهم توفية لمقام الامتنان حقه وكذا فى قوله تعالى «قل فلم تقتلون أنبياء الله» الآية فان القتل حقيقة مع كونه من جناية آبائهم قد أسند اليهم بحكم رضاهم به أداء لحق مقام التوبيخ والتبكيت ولا ريب فى أنهما عليهما الصلاة والسلام بريآن من سراية الجعل المذكور اليهما بوجه من الوجوه فما وجه اسناده اليهما صورة قلنا وجهه الأيذان بتركهما الأولى حيث أقدما على نظم أولادهما فى سلك أنفسهما والتزما شكرهم فى ضمن شكرهما وأقسما على ذلك قبل تعرف أحوالهم ببيان أن اخلالهم بالشكر الذى وعداه وعدا مؤكدا باليمين بمنزلة أخلالهما به بالذات فى استيجاب الحنث والخلف مع ما فيه من الاشعار بتضاعيف جنايتهم ببيان أنهم بجعلهم المذكور أوقعوهما فى ورطة الحنث والخلف وجعلوهما كأنهما باشراه بالذات فجمعوا بين الجناية على الله تعالى والجناية عليهما عليهما السلام (فتعالى الله عما يشركون) تنزيه فيه معنى التعجيب والفاء لترتيبه على مافصل من أحكام قدرته تعالى وآثار نعمته الزاجرة عن الشرك الداعية الى التوحيد وصيغة الجمع لما أشير اليه من تعين الفاعل وتنزيه آدم وحواء عن ذلك وما فى «عما» إما مصدرية أى عن اشراكهم أو موصولة أو موصوفة أى عما يشركونه به سبحانه والمراد باشراكهم إما تسميتهم المذكورة أو مطلق اشراكهم المنتظم لها انتظاما أوليا وقرىء تشركون بتاء الخطاب بطريق الالتفات وقيل الخطاب لآل قصى من قريش والمراد بالنفس الواحدة نفس قصى فانهم خلقوا منه وكان له زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله تعالى ولدا صالحا فأعطاهما أربعة بنين فسمياهم عبد مناف وعبد شمس وعبد قصى وعبد الدار وضمير يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما . وأما ماقيل من أنه لما حملت حواء أتاها ابليس فى صورة رجل فقال لها مايدريك مافى بطنك لعله بهيمة أو كلب

أوخنزير ومايدريك من أين يخرج فخافت من ذلك فذكرته لآدم فأهمهما ذلك ثم عاد اليها وقال إنى من الله تعالى بمنزلة فان دعوته أن يجعله خلقا مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحرث وكان اسمه حارثا فى الملائكة فقبلت فلما ولدته سمته عبد الحرث فما لاتعويل عليه . كيف لاوأنه عليه الصلاة والسلام كان علما فى علم الأسماء والمسميات فعدم علمه بابليس واسمه واتباعه اياه فى مثل هذا الشأن الخطير أمر قريب من المحال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال (أيشركون) استئناف مسوق لتوبيخ كافة المشركين واستقباح اشراكهم على الاطلاق وابطاله بالكلية ببيان شأن ماأشركوه به سبحانه وتفصيل أحواله القاضية ببطلان مااعتقدوه فى حقه أى يشركون به تعالى (مالايخلق شيأ) أى لايقدر على أن يخلق شيئا من الاشياء أصلا ومن حق المعبود أن يكون خالقا لعابده لامحالة وقوله تعالى (وهم يخلقون) عطف على لايخلق . وإيراد الضميرين بجمع العقلاء مع رجوعهما الى ماالمعبر بها عن الاصنام انما هو بحسب اعتقادهم فيها واجرائهم لها مجرى العقلاء وتسميتهم لها آلهة وكذا حال سائر الضمائر الآتية ووصفها بالمخلوقية بعد وصفها بنفى الخالقية لابانة كمال منافاة حالها لما اعتقدوه فى حقها واظهار غاية جهلهم فان أشراك مالايقدر على خلق شىء ما بخالقه وخالق جميع الاشياء ممالا يمكن ان يسوغه من له عقل فى الجملة وعدم التعرض لخالقها للايذان بتعينه والاستغناء عن ذكره (ولا يستطيعون لهم) أي لعبدتهم اذا حزبهم أمرهم وخطب ملم (نصرا) أى نصرا ما بجلب منفعة أودفع مضرة (ولاأنفسهم ينصرون) اذا اعتراهم حادثة من الحوادث أى لايدفعونها عن أنفسهم . وايراد النصر للمشاكلة وهذا بيان لعجزهم عن إيصال منفعة ما من المنافع الوجوديه والعدمية الى عبدتهم وأنفسهم بعد بيان عجزهم عن إيصال منفعة الوجود اليهم والى أنفسهم خلا أنهم وصفوا هناك بالمخلوقية لكونهم أهلا لها وههنا لم يوصفوا بالمنصورية لانهم ليسوا أهلا لها وقوله تعالى (وان تدعوهم الى الهدى) بيان لعجزهم عماهو ادنى من النصر المنفى عنهم وأيسر وهو مجرد الدلالة على المطلوب والارشاد إلى طريق حصوله من غير أن يحصله الطالب والخطاب للمشركين بطريق الالتفات المنبئ عن مزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت أي ان تدعوهم ايها المشركون الى ان يهدوكم الى ماتحصلون به المطالب أو تنجون به عن المكاره (لايتبعوكم) الى مرادكم وطلبتكم وقرئ بالتخفيف وقوله تعالى (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) استئناف مقرر لمضمون ما قبله ومبين لكيفية عدم الاتباع أى مستو عليكم فى عدم الافادة دعاؤكم لهم وسكوتكم البحت فانه لايتغير حالكم فى الحالين كما لا يتغير حالهم بحكم الجمادية

وقوله تعالى أم أنتم صامتون جملة اسمية فى معنى الفعلية معطوفة على الفعلية لانها فى قوة أم صمتم عدل عنها للمبالغة فى عدم افادة الدعاء ببيان مساواته للسكوت الدائم المستمر . وماقيل من أن الخطاب للمسلمين والمعنى وان تدعوا المشركين الى الهدى أى الاسلام لايتبعوكم الخ مما لايساعده سباق النظم الكريم وسياقه أصلا على أنه لو كان كذلك لقيل عليهم مكان عليكم كما فى قوله تعالى «سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم» فان استواء الدعاء وعدمه انما هو بالنسبة الى المشركين لا بالنسبة الى الداعين فانهم فائزون بفضل الدعوة (ان الذين تدعون من دون الله) تقرير لما قبله من عدم اتباعهم لهم أى ان الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الاصنام وتسمونهم آلهة (عباد أمثالكم) أى مماثلة لكم لكن لامن كل وجه بل من حيث انها مملوكة لله عز وجل مسخرة لامره عاجزة عن النفع والضرر وتشبيهها بهم فى ذلك مع كون عجزها عنهما أظهر وأقوى من عجزهم انما هو لاعترافهم بعجز أنفسهم وادعائهم لقدرتها عليهما اذ هو الذى يدعوهم الى عبادتها والاستعانة بها وقوله تعالى (فادعوهم فليستجيبوا لكم) تحقيق لمضمون ماقبله بتعجيزهم وتبكيتهم أى فادعوهم فى جلب نفع أو كشف ضر (ان كنتم صادقين) فى زعمكم أنهم قادرون على ماأنتم عاجزون عنه وقوله تعالى (ألهم أرجل يمشون بها) الخ تبكيت اثر تبكيت مؤكد لما يفيده الامر التعجيزى من عدم الاستجابة ببيان فقدان آلاتها بالكلية فان الاستجابة من الهياكل الجسمانية انما تتصور اذا كان لها حياة وقوى محركة ومدركة وما ليس له شىء من ذلك فهو بمعزل من الافاعيل بالمرة كأنه قيل ألهم هذه الآلات التى بها تتحقق الاستجابة حتى يمكن استجابتهم لكم وقد وجه الانكار الى كل واحدة من هذه الآلات الاربع على حدة تكريرا للتبكيت وتثنية للتقريع واشعارا بان انتفاء كل واحدة منها بحيالها كاف فى الدلالة على استحالة الاستجابة ووصف الأرجل بالمشى بها للايذان بأن مدار الانكار هو الوصف وانما وجه الى الأرجل لا الى الوصف بأن يقال أيمشون بأرجلهم لتحقيق أنها حيث لم يظهر منها مايظهر من سائر الأرجل فهى ليست بأرجل فى الحقيقة وكذا الكلام فيما بعده من الجوارح الثلاث الباقية وكلمة أم فى قوله تعالى (أم لهم أيد يبطشون بها) منقطعة وما فيها من الهمزة لما مر من التبكيت والالزام وبل للاضراب المفيد للانتقال من فن من التبكيت بعد تمامه الى فن آخر منه لما ذكر من المزايا والبطش الأخذ بقوة وقرئ يبطشون بضم الطاء وهى لغة فيه والمعنى بل ألهم أيد يأخذون بها ما يريدون أخذه وتأخير هذا عما قبله لما أن المشى حالهم فى أنفسهم والبطش حالهم بالنسبة الى الغير

وأما تقديمه على قوله تعالى (أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها) مع أن الكل سواء فى أنها من أحوالهم بالنسبة الى الغير فلمراعاة المقابلة بين الايدى والارجل ولان انتفاء المشى والبطش أظهر والتبكيت بذلك أقوى وأما تقديم الاعين فلما أنها أشهر من الآذان وأظهر عينا وأثرا هذا وقد قرئ « ان الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم » على اعمال ان النافية عمل ما الحجازية أى ما الذين تدعون من دونه تعالى عبادا أمثالكم بل أدنى منكم فيكون قوله تعالى ألهم الخ تقريرا لنفى المماثلة باثبات القصور والنقصان (قل ادعوا شركاءكم) بعد ما بين أن شركاءهم لا يقدرون على شيء ما أصلا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يناصبهم للمحاجة ويكرر عليهم التبكيت والقام الحجر أى ادعوا شركاءكم واستعينوا بهم على (ثم كيدون) جميعا أنتم وشركاؤكم وبالغوا فى ترتيب ماتقدرون عليه من مبادي الكيد والمكر (فلا تنظرون) أى فلا تمهلونى ساعة بعد ترتيب مقدمات الكيد فانى لا أبالي بكم أصلا (ان وليى الله الذى نزل الكتاب) تعليل لعدم المبالاة المنفهم من السوق انفهاما جليا ووصفه تعالى بتنزيل الكتاب للاشعار بدليل الولاية والاشارة الي علة أخرى لعدم المبالاة كأنه قيل لا أبالى بكم وبشركائكم لان وليى هو الله الذي نزل الكتاب الناطق بأنه وليي وناصرى وبان شركاءكم لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن نصركم وقوله تعالى (وهو يتولى الصالحين) تذييل مقرر لمضمون ما قبله أى ومن عادته أن يتولى الصالحين من عباده وينصرهم ولا يخذلهم (والذين تدعون) أى تعبدونهم (من دونه) تعالى أو تدعونهم للاستعانة بهم على حسبما أمرتكم به (لا يستطيعون نصركم) أي فى أمر من الأمور أو فى خصوص الامر المذكور (ولا أنفسهم ينصرون) اذا نابتهم نائبة (وان تدعوهم الى الهدى) الى أن يهدوكم الى ماتحصلون به مقاصدكم على الاطلاق أو فى خصوص الكيد المعهود (لا يسمعوا) أي دعاءكم فضلا عن المساعدة والامداد وهذا أبلغ من نفى الاتباع وقوله تعالى (وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) بيان لعجزهم عن الابصار بعد بيان عجزهم عن السمع وبه يتم التعليل فلا تكرار أصلا والرؤية بصرية وقوله تعالى ينظرون اليك حال من المفعول والجملة الاسمية حال من فاعل ينظرون أى وترى الاصنام رأى العين يشبهون الناظرين اليك ويخيل اليك أنهم يبصرونك لما أنهم صنعوا لها أعينا مركبة بالجواهر المضيئة المتلألئة وصوروها بصورة من قلب حدقته الى الشيء ينظر اليه والحال أنهم غير قادرين على الابصار . وتوحيد الضمير فى تراهم مع رجوعه الى المشركين لتوجيه الخطاب الى كل واحد واحد منهم

لا إلى الكل من حيث هو كل كالخطابات السابقة تنبيهاً على أن رؤية الأصنام على الهيئة المذكورة لاتتسنى للكل معا بل لكل من يواجهها وقيل ضمير الفاعل فى تراهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وضمير المفعول على حاله. وقيل للمشركين على أن التعليل قد تم عند قوله تعالى «لا يسمعوا» أى وترى المشركين ينظرون اليك والحال أنهم لا يبصرونك كما أنت عليه. وعن الحسن أن الخطاب فى قوله تعالى «وأن تدعوا للمؤمنين» على أن التعليل قد تم عند قوله تعالى ينصرون أى وان تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الاسلام لا يلتفتوا اليكم ثم خوطب عليه السلام بطريق التجريد بأنك تراهم ينظرون والحال أنهم لا يبصرونك حق الابصار تنبيها على أن مافيه عليه السلام من شواهد النبوة ودلائل الرسالة من الجلاء بحيث لا يكاد يخفى على الناظرين (خذ العفو) بعد ماعد من أباطيل المشركين وقبائحهم مالا يطاق تحمله أمر عليه الصلاة والسلام بمجامع مكارم الاخلاق التى من جملتها الاغضاء عنهم أى خذ ماعفا لك من أفعال الناس وتسهل ولا تكلفهم مايشق عليهم من العفو الذى هو ضد الجهد أو خذ العفو من المذنبين أو الفضل من صدقاتهم وذلك قبل وجوب الزكاة (وأمر بالعرف) بالجميل المستحسن من الأفعال فانها قريبة من قبول الناس من غير نكير (وأعرض عن الجاهلين) من غير مماراة ولا مكافأة. قيل لما نزلت سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فقال لا أدرى حتى أسأل ثم رجع فقال له يا محمد ان ربك أمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك. وعن جعفر الصادق أمر الله تعالى نبيه بمكارم الاخلاق. وروى أنه لما نزلت الآية الكريمة قال عليه الصلاة والسلام «كيف يارب والغضب متحقق» فنزل قوله تعالى (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ) النزغ والنسغ والنخس الغرز شبهت وسوسته للناس واغراؤه لهم على المعاصى بغرز السائق لما يسوقه واسناده الى النزغ من قبيل جد جده أى وأما يحملنك من جهته وسوسة ما على خلاف ماأمرت به من اعتراء غضب أو نحوه (فاستعذ بالله) فالتجىء اليه تعالى من شره (إنه سميع) يسمع استعاذتك بقولا (عليم) يعلم تضرعك اليه قلبا فى ضمن القول أو بدونه فيعصمك من شره وقد جوز أن يراد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب على نهج الاستعارة كما فى قول الصديق رضى الله عنه: أن لى شيطانا يعترينى ففيه زيادة تنفير عنه وفرط تحذير عن العمل بموجبه وفى الامر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لامره وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة التى لا يتخلص من مضرتها الا بالالتجاء الى حرم عصمته عز وجل. وقيل يعلم مافيه صلاح أمرك فيحملك عليه أو سميع باقوال من

آذاك عليم بأفعاله فيجازيه عليها (ان الذين اتقوا) استئناف مقرر لما قبله ببيان أن ماأمر به عليه الصلاة والسلام من الاستعاذة بالله تعالى سنة مسلوكة للمتقين والاخلال بها ديدن الغاوين أي ان الذين اتصفوا بوقاية أنفسهم عما يضرها (إذا مسهم طائف من الشيطان) أدنى لمة منه على أن تنوينه للتحقير و هو اسم فاعل من طاف يطوف كانها تطوف بهم وتدور حولهم لتوقع بهم أو من طاف به الخيال يطيف طيفاً أي ألم. وقرىء طيف على أنه مصدر أو تخفيف من طيف من الواوى أواليائى كهين ولين والمراد بالشيطان الجنس ولذلك جمع ضميره فيما سيأتى (تذكروا) أي الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه (فاذاهم) بسبب ذلك التذكر (مبصرون) مواقع الخطأ ومكايد الشيطان فيحترزون عنها ولايتبعونه (وأخوانهم) أى اخوان الشياطين وهم المنهمكون فى الغى المعرضون عن وقاية أنفسهم عن المضار (يمدونهم فى الغى) أي يكون الشياطين مددا لهم فيه ويعضدونهم بالتزيين والحمل عليه وقرىء يمدونهم من الامداد ويمادونهم كأنهم يعينونهم بالتسهيل والاغراء وهؤلاء بالاتباع والامتثال (ثم لايقصرون) أى لايمسكون عن الاغواء حتى يردوهم بالكلية ويجوز أن يكون الضمير للاخوان أى لايرعوون عن الغى ولا يقصرون كالمتقين ويجوز أن يراد بالاخوان الشياطين ويرجع الضمير الى الجاهلين فيكون الخبر جاريا على من هوله (واذ لم تأتهم بآية) من القرآن عند تراخى الوحى أو بآية مما اقترحوه (قالوا لولا اجتبيتها) اجتبى الشيء بمعنى جباه لنفسه أى هلا جمعتها من تلقاء نفسك تقولا يرون بذلك أن سائر الآيات أيضا كذلك أو هلا تلقيتها من ربك استدعاء (قل) ردا عليهم (انما أتبع مايوحى إلى من ربى) من غير أن يكون لى دخل مافى ذلك أصلا على معنى تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام باتباع مايوحى اليه بتوجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى نفس الفعل بالنسبة الى مقابله الذي كلفوه اياه عليه الصلاة والسلام لا على معني تخصيص اتباعه عليه الصلاة والسلام بمايوحى اليه بتوجيه القصر الى المفعول بالقياس الى مفعول آخر كما هو الشائع فى موارد الاستعمال وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى «إن أتبع الا مايوحى إلى» كأنه قيل ماأفعل الا اتباع مايوحى الى منه تعالى وفى التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية والتبليغ الى الكمال اللائق مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه عليه الصلاة والسلام والتنبيه على تأييده مالايخفى (هذا) اشارة إلى القرآن الكريم المدلول عليه بما يوحى الى (بصائر من ربكم) بمنزلة البصائر للقلوب بها تبصر الحق وتدرك الصواب وقيل حجج بينة وبراهين نيرة ومن متعلقة بمحذوف هو صفة لبصائر مفيدة لفخامتها أى بصائر كائنة

منه تعالى والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم لتأكيد وجوب الايمان بها وقوله تعالى (وهدى ورحمة) عطف على بصائر . وتقديم الظرف عليهما وتعقيبهما بقوله تعالى (لقوم يؤمنون) للايذان بأن كون القرآن بمنزلة البصائر للقلوب متحقق بالنسبة الى الكل وبه تقوم الحجة على الجميع وأما كونه هدى ورحمة فمختص بالمؤمنين به إذ هم المقتبسون من أنواره والمغتنمون بآثاره والجملة من تمام القول المأمور به (واذا قرىء القرآن فاستمعوا له) ارشاد الى طريق الفوز بما أشير اليه من المنافع الجليلة التي ينطوى عليها القرآن أي واذا قرىء القرآن الذي ذكرت شئونه العظيمة فاستمعوا له استماع تحقيق وقبول (وأنصتوا) أي واسكتوا فى خلال القراءة وراعوها الى انقضائها تعظيما له وتكميلا للاستماع (لعلكم ترحمون) أي تفوزون بالرحمة التي هى أقصى ثمراته وظاهر النظم الكريم يقتضى وجوب الاستماع والانصات عند قراءة القرآن فى الصلاة وغيرها وقيل معناه اذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وجمهور الصحابة رضى الله تعالى عنهم على أنه فى استماع المؤتم وقد روى أنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة فأمروا باستماع قراءة الامام والانصات له . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ فى المكتوبة وقرأ أصحابه خلفه فنزلت . وأما خارج الصلاة فعامة العلماء على استحبابهما والآية إما من تمام القول المأمور به أو استئناف من جهته تعالى فقوله تعالى (واذكر ربك فى نفسك) على الأول عطف على قل وعلى الثانى فيه تجريد للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عام فى الاذكار كافة فان الأخفاء أدخل فى الاخلاص وأقرب من الاجابة (تضرعا وخفية) أى متضرعا وخائفا (ودون الجهر من القول) أي ومتكلما كلاما دون الجهر فانه أقرب الى حسن التفكر (بالغدو والآصال) متعلق باذكر أي اذكره فى وقت الغدوات والعشيات وقرىء والأيصال وهو مصدر آصل أى دخل فى الاصيل موافق للغدو (ولا تكن من الغافلين) عن ذكر الله تعالى (ان الذين عند ربك) وهم الملائكة عليهم السلام ومعنى كونهم عنده سبحانه وتعالى قربهم من رحمته وفضله لتوفرهم على طاعته تعالى (لا يستكبرون عن عبادته) بل يؤدونها حسبما أمروا به (ويسبحونه) أي ينزهونه عن كل مالا يليق بجناب كبريائه (وله يسجدون) أي يخصونه بغاية العبودية والتذلل لايشركون به شيئا وهو تعريض بسائر المكلفين ولذلك شرع السجود عند قراءته عن النبى صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم آية السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى فيقول ياويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار وعنه عليه الصلاة

والسلام «من قرأ سورة الاعراف جعل الله تعالى يوم القيامة بينه و بين ابليس سترا وكان آدم عليه السلام شفيعا له يوم القيامة».

﴿سورة الأنفال مدنية وهى ست وسبعون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(يسألونك عن الأنفال) النفل الغنيمة سميت به لانها عطية من الله تعالى زائدة على ماهو أصل الاجر فى الجهاد من الثواب الأخروى ويطلق على مايعطى بطريق التنفيل زيادة على السهم من المغنم وقرئ علنفال بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وادغام نون عن فى اللام . روى أن المسلمين اختلفوا فى غنائم بدر وفى قسمتها فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم ولمن الحكم فيها للمهاجرين أم للانصار أم لهم جميعا وقيل ان الشباب قد أبلوا يومئذ بلاء حسنا فقتلوا سبعين وأسروا سبعين فقالوا نحن المقاتلون ولنا الغنائم وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا ردأ لكم وفئة تنحازون اليها حتى قال سعد بن معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم والله مامنعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادة فى الأجر ولاجبن من العدو ولكن كرهنا أن نعري مصافك فيعطف عليك خيل من المشركين فنزلت . وقيل كان النبى صلى الله عليه وسلم قد شرط لمن كان له بلاء أن ينفله ولذلك فعل الشبان ما فعلوا من القتل والاسر فسألوه عليه الصلاة والسلام ما شرطه لهم فقال الشيوخ المغنم قليل والناس كثير وان تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك فنزلت . والأول هو الظاهر لما أن السؤال استعلام لحكم الأنفال بقضية كلمة عن لا استعطاء لنفسها كما نطق به الوجه الأخير وادعاء زيادة عن تعسف ظاهر والاستدلال عليه بقراءة ابن مسعود وسعد بن أبى وقاص وعلى بن الحسين وزيد ومحمد الباقر وجعفر الصادق وعكرمة وعطاء يسألونك الأنفال غير منتهض فان مبناها كما قالوا على الحذف والايصال كما يعرب عنه الجواب بقوله عز وجل (قل الأنفال لله والرسول) أى حكمها مختص به تعالى يقسمها الرسول عليه الصلاة والسلام كيفما أمر به من غير أن يدخل فيه رأى أحد ولو كان السؤال استعطاء لماكان هذا جوابا له فان اختصاص حكم ما شرط لهم من الأنفال بالله والرسول لا ينافى أعطاءها اياهم بل يحققه لانهم أنما يسألونها بموجب شرط الرسول عليه الصلاة والسلام الصادر عنه باذن الله تعالى لا بحكم سبق أيديهم اليها ونحو ذلك مما يخل بالاختصاص المذكور وحمل الجواب على معنى أن الأنفال

بالمعنى المذكور مختصة برسول الله صلى الله عليه وسلم لاحق فيها المنفل كائنا من كان مما لا سبيل اليه قطعا ضرورة ثبوت الاستحقاق بالتنفيل وادعاء أن ثبوته بدليل متأخر التزام لتكرر النسخ من غير علم بالناسخ الأخير ولا مساغ للمصير إلى ماذهب اليه مجاهد وعكرمة والسدى من أن الأنفال كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ليس لأحد فيها شيء بهذه الآية فنسخت بقوله تعالى «فأن لله خمسه وللرسول» لما أن المراد بالأنفال فيما قالوا هو المعنى الأول حتما كما نطق به قوله تعالى « واعلموا أنما غنمتم من من شيء » الآية على أن الحق أنه لا نسخ حينئذ أيضا حسبما قاله عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم بل بين فى صدر السورة الكريمة اجمالا أن أمرها مفوض الى الله تعالى ورسوله ثم بين مصارفها وكيفية قسمتها على التفصيل وادعاء اقتصار هذا الحكم أعنى الاختصاص برسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنفال المشروطة يوم بدر بجعل اللام للعهد مع بقاء استحقاق المنفل فى سائر الأنفال المشروطة يأباه مقام بيان الاحكام كما ينبيء عنه أظهار الأنفال فى موقع الأضمار على أن الجواب عن سؤال الموعود ببيان كونه له عليه الصلاة والسلام خاصة مما لا يليق بشأنه الكريم أصلا. وقد روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال قتل أخى عمير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبنى فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ان الله تعالى قد شفى صدرى من المشركين فهب لى هذا السيف فقال لى عليه الصلاة والسلام ليس هذا لى ولا لك اطرحه فى القبض فطرحته وبى مالا يعلمه الا الله من قتل أخى وأخذ سلبى فما جاوزت الا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم «ياسعد أنك سألتنى السيف وليس لى وقد صار لى فاذهب فخذه» وهذا كما ترى يقتضى عدم وقوع التنفيل يومئذ والا لكان سؤال السيف من سعد بموجب شرطه ووعده عليه السلام لا بطريق الهبة المبتدأة وحمل ذلك من سعد على مراعاة الأدب مع كون سؤاله بموجب الشرط يرده رده عليه الصلاة والسلام قبل النزول وتعليله بقوله ليس هذا لى لاستحالة أن يعد عليه الصلاة والسلام بما لا يقدر على أنجازه واعطاؤه صلى الله عليه وسلم بعد النزول وترتيبه على قوله وقد صار لى ضرورة أن مناط صيرورته له عليه الصلاة والسلام قوله تعالى «الانفال لله والرسول» والفرض أنه المانع من أعطاء السؤال ومما هو نص فى الباب قوله عز وجل (فاتقوا الله) أى اذا كان أمر الغنائم لله تعالى ورسوله فاتقوه تعالى واجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف الموجب لسخط الله تعالى أو فاتقوه فى كل ماتأتون وماتذرون فيدخل فيه ماهم فيه دخولا أوليا ولو كان السؤال طلبا للمشروط لما كان فيه محذور يجب

اتقاؤه وأظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتعليل الحكم (وأصلحوا ذات بينكم) جعل ما بينهم من الحال لملابستها التامة لبينهم صاحبة له كاجعلت الأمور المضمرة فى الصدور ذات الصدور أى أصلحوا ما بينكم من الأحوال بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى ونفضل به عليكم . وعن عبادة بن الصامت نزلت فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله تعالى من أيدينا فجعله لرسوله فقسمه بين المسلمين على السواء وكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسوله واصلاح ذات البين وعن عطاء كان الاصلاح بينهم أن دعاهم وقال اقسموا غنائمكم بالعدل فقالوا قد أكلنا وأنفقنا فقال ليرد بعضكم على بعض (وأطيعوا الله ورسوله) بتسليم أمره ونهيه وتوسيط الامر بأصلاح ذات البين بين الامر بالتقوى والامر بالطاعة لأظهار كمال العناية بالاصلاح بحسب المقام وليندرج الامر به بعينه تحت الامر بالطاعة (ان كنتم مؤمنين) متعلق بالاوامر الثلاثة والجواب محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أو هو الجواب على الخلاف المشهور وأياما كان فالمقصود تحقيق المعلق بناء على تحقق المعلق به وفيه تنشيط للمخاطبين وحث لهم على المسارعة الى الامتثال والمراد بالايمان كماله أى ان كنتم كاملى الايمان فان كمال الايمان يدور على هذه الخصال الثلاث : طاعة الاوامر . واتقاء المعاصى . وأصلاح ذات البين بالعدل والاحسان (انما المؤمنون) جملة مستأنفة مسوقة لبيان من أريد بالمؤمنين بذكر أوصافهم الجليلة المستتبعة لما ذكر من الخصال الثلاث وفيه مزيد ترغيب لهم فى الامتثال بالاوامر المذكورة أى انما الكاملون فى الايمان المخلصون فيه (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أى فزعت لمجرد ذكره من غير أن يذكر هناك مايوجب الفزع من صفاته وأفعاله استعظاما لشأنه الجليل وتهيبا منه . وقيل هو الرجل يهم بمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفا من عقابه . وقرىء وجلت بفتح الجيم وهى لغة . وقرىء فرقت أى خافت (واذا تليت عليهم آياته) أى آية كانت (زادتهم أيمانا) أى يقينا وطمأنينة نفس فأن تظاهر الادلة وتعاضد الحجج والبراهين موجب لزيادة الاطمئنان وقوة اليقين وقيل . أن نفس الايمان لايقبل الزيادة والنقصان وانما زيادته باعتبار زيادة المؤمن به فانه كلما نزلت آية صدق بها المؤمن فزاد أيمانه عددا . وأما نفس الايمان فهو بحاله . وقيل باعتبار أن الاعمال تجعل من الايمان فيزيد بزيادتها والأصوب أن نفس التصديق يقبل القوة وهى التى عبر عنها بالزيادة للتفرق النير بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات ويقين آحاد الأمة وعليه مبنى ماقال على رضى الله عنه : لوكشف الغطاء ماازددت يقينا . وكذا بين ماقام عليه

دليل واحد وما قامت عليه أدلة كثيرة (وعلى ربهم) مالكهم ومدبر أمورهم خاصة (يتوكلون) يفوضون أمورهم لا إلى أحد سواه والجملة معطوفة على الصلة وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) مرفوع على أنه نعت للموصول الأول أو بدل منه أو بيان له أو منصوب على القطع المنبئ عن المدح ذكر أولا من أعمالهم الحسنة أعمال القلوب من الخشية والاخلاص والتوكل ثم عقب بأعمال الجوارح من الصلاة والصدقة (أولئك) أشارة الى من ذكرت صفاتهم الحميدة من أنهم متصفون بها وفيه دلالة على أنهم متميزون بذلك عمن عداهم أكمل تميز منتظمون بسببه فى سلك الامور المشاهدة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الشرف (هم المؤمنون حقا) لانهم حققوا أيمانهم بأن ضموا اليه ما فصل من أفاضل الاعمال القلبية والقالبية وحقا صفة لمصدر محذوف أى أولئك هم المؤمنون إيمانا حقا أو مصدر مؤكد للجملة أى حق ذلك حقا كقولك هو عبدالله حقا (لهم درجات) من الكرامة والزلفى وقيل درجات عالية فى الجنة وهو اما جملة مبتدأة مبنية على سؤال نشأ من تعداد مناقبهم كأنه قيل مالهم بمقابلة هذه الخصال فقيل لهم كيت وكيت أو خبر ثان لأولئك وقوله تعالى (عند ربهم) اما متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائنة عنده تعالى أو بما تعلق به الخبر أعنى لهم من الاستقرار وفى أضافة الظرف الى الرب المضاف الى ضميرهم مزيد تشريف ولطف لهم وأيذان بأن ماوعد لهم متيقن الثبوت والحصول مأمون الفوات (ومغفرة) لما فرط منهم (ورزق كريم) لا ينقضى أمده ولا ينتهى عدده وهو ما أعدلهم من نعيم الجنة (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) الكاف فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه الحال كحال أخراجك يعنى أن حالهم فى كراهتهم لما رأيت مع كونه حقا كحالهم فى كراهتهم لخروجك للحرب وهو حق أو فى محل النصب على أنه صفة لمصدر مقدر فى قوله تعالى «الانفال لله» أي الانفال ثبتت لله والرسول مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات اخراج ربك اياك من بيتك فى المدينة أو من المدينة اخراجا ملتبسا بالحق (وأن فريقا من المؤمنين لكارهون) أى والحال أن فريقا منهم كارهون للخروج أما لنفرة الطبع عن القتال أو لعدم الاستعداد وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعهم أربعون راكبا منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم فنادى أبو جهل فوق

الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول عيركم أموالكم ان أصابها محمد لم تفلحوا بعدها أبدا وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه رؤيا فقالت لأخيها أني رأيت عجبا رأيت كأن ملكا نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة الا أصابه حجر من تلك الصخرة فحدث بها العباس رضي الله عنه فقال أبو جهل ما يرضى رجالهم أن يتنبئوا حتى تتنبأ نساؤهم فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير فقيل له ان العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس الى مكة فقال لا واللات لا يكون ذلك أبدا حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم القينات والمعازف ببدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا وان محمدا لم يصب العير وانا قد أعضضناه فمضى بهم الى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما في السنة فنزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير واما قريشا فاستشار النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه فقال: ما تقولون ان القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب اليكم أم النفير فقالوا بل العير أحب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردد عليهم فقال «ان العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل» فقالوا يارسول الله عليك بالعير ودع العدو فقام عند ما غضب النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا ثم قام سعد بن عبادة فقال انظر أمرك فامض فوالله لو سرت الى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار ثم قال المقداد بن عمرو رضي الله عنه يارسول الله امض لما أمرك الله فانا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون مادامت عين منا تطرف فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال «أشيروا على أيها الناس» وهو يريد الانصار لانهم قالوا له حين بايعوه على العقبة أنا برآء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا فاذا وصلت الينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان النبي عليه الصلاة والسلام يتخوف أن تكون الأنصار لا ترى عليهم نصرته الا على عدو دهمه بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال لكأنك تريدنا يارسول الله قال أجل قال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ومانكره أن تلقى بنا عدونا وانا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقربه عينك فسربنا على بركة

الله ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه قول سعد ثم قال سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله قد وعدنى أحدى الطائفتين والله لكأنى الآن أنظر الى مصارع القوم» وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر عليك بالعير ليس دونها شيء فناداه العباس رضى الله عنه وهو فى وثاقه لا يصلح فقال النبى صلى الله عليه وسلم لم قال لان الله وعدك أحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك (يجادلونك فى الحق) الذى هو تلقى النفير لأيثارهم عليه تلقى العير والجملة استئناف أو حال ثانية أى أخرجك فى حال مجادلتهم إياك ويجوز أن يكون حالا من الضمير فى لكارهون وقوله تعالى (بعد ما تبين) منصوب بيجادلونك وما مصدرية أى بعد تبين الحق لهم بأعلامك أنهم ينصرون أينما توجهوا ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب وكان ذلك لكراهتهم القتال (كأنما يساقون إلى الموت) الكاف فى محل النصب على الحالية من الضمير فى لكارهون أى مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار إلى القتل (وهم ينظرون) حال من ضمير يساقون أى والحال أنهم ينظرون إلى أسباب الموت ويشاهدونها عياناً وما كانت هذه المرتبة من الخوف والجزع إلا لقلة عددهم وعدم تأهبهم وكونهم رجالة روى أنه لم يكن فيهم إلا فارسان (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين) كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله عز وجل بالمؤمنين مع ما بهم من قلة الحزم ودناءة المهمة وقصور الرأى والخوف والجزع وإذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به المؤمنون بطريق التلوين والالتفات وإحدي الطائفتين مفعول ثان ليعدكم أى اذكروا وقت وعد الله إياكم إحدى الطائفتين وتذكير الوقت مع أن المقصود تذكير مافيه من الحوادث لما مر مراراً من المبالغة فى إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهانى ولأن الوقت مشتمل على ماوقع فيه من الحوادث بتفاصيلها فاذا استحضر كان ما وقع فيه حاضراً مفصلا كأنه مشاهد عياناً وقرىء يعدكم بسكون الدال تخفيفاً وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها وقوله تعالى (أنها لكم) بدل اشتمال من إحدى الطائفتين مبين لكيفية الوعد أى يعدكم أن إحدى الطائفتين كائنة لكم مختصة بكم مسخرة لكم تتسلطون عليها تسلط الملاك وتتصرفون فيهم كيف شئتم (وتودون) عطف على يعدكم داخل تحت الامر بالذكر أى تحبون (أن غير ذات الشوكة تكون لكم) من الطائفتين لا ذات الشوكة وهى النفير ورئيسهم أبو جهل وهم ألف مقاتل وغير ذات الشوكة هى

العير إذ لم يكن فيها إلا أربعون فارساً ورأسهم أبو سفيان والتعبير عنهم بهذا العنوان للتنبيه على سبب ودادتهم لملاقاتهم وموجب كراهتهم ونفرتهم عن موافاة النفير والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك وشوك القنا شباها (ويريد الله) عطف على تودون منتظم معه فى سلك التذكير ليظهر لهم عظيم لطف الله بهم مع دناءة هممهم وقصور آرائهم أى اذكروا وقت وعده تعالى إياكم إحدى الطائفتين وودادتكم لأدناهما وإرادته تعالى لاعلاهما وذلك قوله تعالى (أن يحق الحق) أى يثبته ويعليه (بكلماته) أى بآياته المنزلة فى هذا الشأن أو بأوامره للملائكة بالأمداد وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم فى قليب بدر وقرئ بكلمته (ويقطع دابر الكافرين) أى آخرهم ويستأصلهم بالمرة والمعنى أنتم تريدون سفساف الامور والله عز وعلا يريد معاليها وما يرجع إلى علو كلمة الحق وسمو رتبة الدين وشتان بين المرادين وقوله تعالى (ليحق الحق ويبطل الباطل) جملة مستأنفة سيقت لبيان الحكمة الداعية الى اختيار ذات الشوكة ونصرهم عليها مع ارادتهم لغيرها واللام متعلقة بفعل مقدر مؤخر عنها أى لهذه الغاية الجليلة فعل ما فعل لا لشيء آخر وليس فيه تكرار اذ الاول لبيان تفاوت مابين الارادتين وهذا لبيان الحكمة الداعية الى ما ذكر ومعنى أحقاق الحق اظهار حقيقته لاجعله حقا بعد أن لم يكن كذلك وكذا حال أبطال الباطل (ولو كره المجرمون) أى المشركون ذلك أى احقاق الحق وابطال الباطل (اذ تستغيثون ربكم) بدل من اذ يعدكم معمول لعامله فالمراد تذكير استمدادهم اليه سبحانه والتجائهم اليه تعالى حين ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وامداده تعالى حينئذ وقيل متعلق بقوله تعالى ليحق الحق على الظرفية وما قيل من أن قوله تعالى ليحق مستقبل لانه منصوب بأن فلا يمكن عمله فى اذ لانه ظرف لما مضى ليس بشيء لان كونه مستقبلا انما هو بالنسبة الى زمان ماهو غاية له من الفعل المقدر لابالنسبة الى زمان الاستغاثة حتى لايعمل فيه بل هما فى وقت واحد وانما عبر عن زمانها بالنظر الى زمان النزول وصيغة الاستقبال فى تستغيثون لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل متعلق بمضمر مستأنف أى اذ كروا وقت استغاثتكم وذلك أنهم لما علموا أنه لابد من القتال جعلوا يدعون الله تعالى قائلين أى رب انصرنا على عدوك ياغياث المستغيثين أغثنا . وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر الى المشركين وهم ألف والى أصحابه وهم ثلثمائة وبضعة عشر فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو « اللهم أنجزلى ماوعدتنى اللهم أن تهلك هذه العصابة لا تعبد

فى الارض» فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذ أبو بكر رضى عنه فالقاه على منكبه والتزمه من ورائه وقال يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك (فاستجاب لكم) عطف على تستغيثون داخل معه فى حكم التذكير لما عرفت أنه ماض وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة (أنى ممدكم) أى بأنى فحذف الجار وسلط عليه الفعل فنصب محله . وقرىء بكسر الهمزة على ارادة القول أو على اجراء استجاب مجرى قال لان الاستجابة من مقولة القول (بألف من الملائكة مردفين) أى جاعلين غيرهم من الملائكة رديفا لانفسهم فالمراد بهم رؤساؤهم المستتبعون لغيرهم وقد اكتفى ههنا بهذا البيان الاجمالى وبين فى سورة آل عمران مقدار عددهم وقيل معناه متبعين أنفسهم ملائكة آخرين أو متبعين المؤمنين أو بعضهم بعضا من أردفته اذا جئت بعده أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين أو أنفسهم المؤمنين من أردفته اياه فردفه وقرىء مردفين بفتح الدال أى متبعين أو متبعين بمعنى أنهم كانوا مقدمة الجيش أوساقتهم وقرىء مردفين بكسر الراء وضمها وتشديد الدال وأصلهما مرتدفين بمعنى مترادفين فأدغمت التاء فى الدال فالتقى الساكنان فحركت الراء بالكسر على الاصل أو بالضم على الاتباع وقرىء بآلاف ليوافق مافى سورة آل عمران ووجه التوفيق بينه وبين المشهور أن المراد بالألف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة أو وجوههم وأعيانهم أو من قاتل منهم واختلف فى مقاتلتهم وقد روى أخبار تدل على وقوعها (وما جعله الله) كلام مستأنف سيق لبيان أن الاسباب الظاهرة بمعزل من التأثير وانما التأثير مختص به عز وجل ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا من النصر عند فقدان أسبابه . والجعل متعد الى مفعول واحد هو الضمير العائد الى مصدر فقيل مقدر يقتضيه المقام اقتضاء ظاهرا مغنيا عن التصريح به كأنه قيل فأمدكم بهم وما جعل أمدادكم بهم (الا بشرى) وهو استثناء مفرغ من أعم العلل أى وما جعل امدادكم بانزال الملائكة عيانا لشىء من الأشياء الا للبشرى لكم بأنكم تنصرون (ولتطمئن به) أى بالامداد (قلوبكم) وتسكن اليه نفوسكم كما كانت السكينة لبنى اسرائيل كذلك فكلاهما مفعول له للجعل وقد نصب الاول لاجتماع شرائطه وبقى الثانى على حاله لفقدانها وقيل للاشارة الى أصالته فى العلية وأهميته فى نفسه كما قيل فى قوله تعالى « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة» وفى قصر الامداد عليهما اشعار بعدم مباشرة الملائكة للقتال وانما كان امدادهم بتقوية قلوب المباشرين وتكثير سوادهم ونحوه كما هو رأي بعض السلف . وقيل الجعل متعد الى اثنين ثانيهما الابشرى على أنه استثناء من أعم المفاعيل

أي وما جعله الله شيئا من الأشياء الا البشارة لكم فاللام فى ولتطمئن متعلقة بمحذوف مؤخر تقديره ولتطمئن به قلوبكم فعل ذلك لالشئ آخر (وما النصر) أى حقيقة النصر على الاطلاق (الا من عند الله) أى الا الكائن من عنده عز وجل من غير أن يكون فيه شركة من جهة الاسباب والعدد وانما هى مظاهر له بطريق جريان السنة الالهية (ان الله عزيز) لايغالب فى حكمه ولا ينازع فى أقضيته (حكيم) يفعل كل مايفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تعليل لما قبلها متضمن للاشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات الحكم البالغة (اذ يغشيكم النعاس) أى يجعله غاشيا لكم ومحيطا بكم وهو بدل ثان من اذ يعدكم لاظهار نعمة أخرى . وصيغة الاستقبال فيه وفيما عطف عليه لحكاية الحال الماضية كما فى تستغيثون أو منصوب باضمار اذكروا وقيل هو متعلق بالنصر أو بما فى عند الله من معنى الفعل . أو الجعل وليس بواضح وقرئ يغشيكم من الأغشاء بمعنى التغشية والفاعل فى الوجهين هو البارى تعالى وقرىء يغشاكم على اسناد الفعل إلى النعاس وقوله تعالى (أمنة منه) على القراءتين الأوليين منصوب على العلية بفعل مترتب على الفعل المذكور أي يغشيكم النعاس فتنعسون أمنا كائنا من الله تعالى لا كلالا وأعياء أو على أنه مصدر لفعل آخر كذلك أى فتأمنون أمنا كما فى قوله تعالى «وأنبتها نباتا حسنا» على أحد الوجهين . وقيل منصوب بنفس الفعل المذكور والامنة بمعنى الايمان وعلى القراءة الاخيرة منصوب على العلية بيغشاكم باعتبار المعنى فانه فى حكم تنعسون أو على أنه مصدر لفعل مترتب عليه كما مر وقرئ أمنة كرحمة (وينزل عليكم من السماء ماء) تقديم الجار والمجرور على المفعول به لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة له فعند وروده يتمكن عندها فضل تمكن وتقديم عليكم لما أن بيان كون التنزيل عليهم أهم من بيان كونه من السماء وقرىء بالتخفيف من الانزال (ليطهركم به) أى من الحدث الاصغر والأكبر (ويذهب عنكم رجز الشيطان) الكلام فى تقديم الجار والمجرور كما مر آنفا والمراد برجز الشيطان وسوسته وتخويفه اياهم من العطش روى أنهم نزلوا فى كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء فتمثل لهم الشيطان فوسوس اليهم وقال أنتم ياأصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وانكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة وقد عطشتم ولو كنتم على الحق ماغلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم الا أن يجهدكم العطش فاذا قطع أعناقكم مشوا اليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم الى مكة فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا فانزل الله عز وجل

المطر فمطروا ليلا حتي جرى الوادى فاغتسلوا وتوضؤا وسقوا الركاب وتلبد الرمل الذى كان بينهم وبين العدو حتي ثبتت عليه الاقدام و زالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس وقويت القلوب وذلك قوله تعالى (وليربط على قلوبكم) أى يقويها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعد بمشاهدة طلائعه (ويثبت به الاقدام) فلا تسوخ فى الرمل فالضمير للماء كالاول و يجوز أن يكون للربط فان القلب اذا قوى وتمكن فيه الصبر والجراءة لا تكاد تزل القدم فى معارك الحروب وقوله تعالى (اذ يوحى ربك الى الملائكة) منصوب بمضمر مستأنف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام بطريق التجريد حسبما تنطق به الكاف لما أن المأمور به مما لا يستطيعه غيره عليه الصلاة والسلام فان الوحى المذكور قبل ظهوره بالوحى المتلو على لسانه عليه الصلاة والسلام ليس من النعم التي يقف عليها عامة الامة كسائر النعم السابقة التى أمروا بذكر وقتها بطريق الشكر . وقيل منصوب بقوله تعالى «ويثبت به الأقدام» فلا بد حينئذ من عود الضمير المجرور فى به الى الربط على القلوب ليكون المعنى ويثبت أقدامكم بتقوية قلوبكم وقت ايحائه الى الملائكة وأمره بتثبيتهم اياكم وهو وقت القتال ولا يخفى أن تقييد التثبيت المذكور بوقت مبهم عندهم ليس فيه مزيد فائدة وأما انتصابه على أنه بدل ثالث من اذ يعدكم كما قيل فيأباه تخصيص الخطاب به عليه الصلاة والسلام مع ما عرفت من أن المأمور به ليس من الوظائف العامة للكل كسائر اخواته وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من النبوة والتشريف مالا يخفى والمعنى اذكر وقت ايحائه تعالى الى الملائكة (أنى معكم) أى بالامداد والتوفيق فى أمر التثبيت فهو مفعول يوحى وقرىء بالكسر على ارادة القول أو اجراء الوحى مجراه ومايشعر به دخول كلمة مع من متبوعية الملائكة انما هى من حيث انهم المباشرون للتثبيت صورة فلهم الاصالة من تلك الحيثية كما فى أمثال قوله تعالى «ان الله مع الصابرين» والفاء فى قوله تعالى (فثبتوا الذين منوا) لترتيب مابعدها على ماقبلها فان أمداده تعالى إياهم من أقوى موجبات التثبيت واختلفوا فى كيفية التثبيت فقالت جماعة انما أمروا بتثبيتهم بالبشارة وتكثير السواد ونحوهما مما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم ويتأكد جدهم فى القتال وهو الانسب بمعنى التثبيت وحقيقته التى هى عبارة عن الحمل على الثبات فى موطن الحراب والجد فى مقاساة شدائد القتال وقد روى أنه كان الملك يتشبه بالرجل الذى يعرفونه بوجهه فيأتى ويقول إنى سمعت المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن ويمشى بين الصفين فيقول أبشروا فان الله تعالى ناصركم وقال آخرون أمروا بمحاربة أعدائهم وجعلوا قوله تعالى

(سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) تفسيرا لقوله تعالى انى معكم وقوله تعالى (فاضربوا) الخ تفسيرا لقوله تعالي فثبتوا مبينا لكيفية التثبيت . وقد روى عن أبى داود المازنى رضى الله عنه وكان ممن شهد بدرا أنه قال اتبعت رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه فوقعت رأسه بين يدى قبل أن يصل اليه سيفى . وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه أنه قال لقد رأيتنا يوم بدر وأن أحدنا يشير بسيفه الى المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل اليه السيف . وأنت خبير بأن قتلهم للكفرة مع عدم ملاءمته لمعنى تثبيت المؤمنين مما لا يتوقف على الأمداد بألقاء الرعب فلا يتجه ترتيب الامر به عليه بالفاء وقد اعتذر الاولون بأن قوله تعالى سألقى الخ ليس بنص فيما ذكر بل يجوز أن يكون ذلك أثر قوله تعالى «فثبتوا الذين آمنوا» تلقينا للملائكة مايثبتونهم به كأنه قيل قولوا لهم قولى سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا الخ فالضاربون هم المؤمنون وأما ماقيل من أن ذلك خطاب منه تعالى للمؤمنين بالذات على طريق التلوين فمبناه توهم وروده قبل القتال وأنى ذلك والسورة الكريمة انما نزلت بعد تمام الوقعة وقوله تعالى (فوق الأعناق) أى أعاليها التى هى المذابح أوالهامات (واضربوا منهم كل بنان) قيل البنان أطراف الاصابع من اليدين والرجلين وقيل هي الاصابع من اليدين والرجلين وقال أبو الهيثم البنان المفاصل وكل مفصل بنانة وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك يعنى الاطراف أى اضربوهم فى جميع الأعضاء من أعاليها الى أسافلها وقيل المراد بالبنان الاداني وبفوق الاعناق الاعالي والمعنى فاضربوا الصناديد والسفلة وتكرير الامر بالضرب لمزيد التشديد والاعتناء بأمره ومنهم متعلق به أو بمحذوف وقع حالا مما بعده (ذلك) أشارة الى ماأصابهم من العقاب ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد درجته فى الشدة والفظاعة والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يليق بالخطاب ومحله الرفع على الابتداء وخبره قوله تعالى (بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى ذلك العقاب الفظيع واقع عليهم بسبب مشاقتهم ومغالبتهم من لاسبيل الى مغالبته أصلا . واشتقاق المشاقة من الشق لما أن كلا من المشاقين فى شق خلاف شق الآخر كما أن اشتقاق المعاداة والمخاصمة من العدوة والخصم أى الجانب لان كلا من المتعاديين والمتخاصمين فى عدوة وخصم غير عدوة الآخرين وخصمه (ومن يشاقق الله ورسوله) الاظهار فى موضع الاضمار لتربية المهابة واظهار كمال شناعة ما اجترءوا عليه والاشعار بعلة الحكم وقوله تعالى (فان الله شديد العقاب) أمانفس الجزاء قد حذف منه العائد الى من عند من يلتزمه أى شديد العقاب له أو تعليل للجزاء المحذوف أى يعاقبه الله فان الله شديد العقاب وأياما كان فالشرطية تكملة لما

قبلها وتقرير لمضمونه وتحقيق للسببية بالطريق البرهانى كأنه قيل ذلك العقاب الشديد بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله وكل من يشاقق الله ورسوله كائنا من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد فأذن لهم بسبب مشاقتهم لها عقاب شديد وأما انه وعيد لهم بما أعد لهم فى الآخرة بعد ماحاق بهم فى الدنيا كما قيل فيرده ما بعده من قوله تعالى (ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) فانه مع كونه هو المسوق للوعيد بما ذكر ناطق بكون المراد بالعقاب المذكور ماأصابهم عاجلا سواء جعل ذلكم اشارة الى نفس العقاب أو الى ماتفيده الشرطية من ثبوت العقاب لهم أما على الاول فلأن الاظهر أن محله النصب بمضمر يستدعيه قوله تعالى فذوقوه والواو فى قوله تعالى وأن للكافرين الخ بمعنى مع فالمعنى باشروا ذلكم العقاب الذى أصابكم فذوقوه عاجلا مع أن لكم عذاب النار آجلا فوضع الظاهر موضع الضمير لتوبيخهم بالكفر وتعليل الحكم به وأما على الثانى فلأن الأقرب أن محله الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وقوله تعالى وأن للكافرين الخ معطوف عليه والمعنى حكم الله ذلكم أى ثبوت هذا العقاب لكم عاجلا وثبوت عذاب النار آجلا وقوله تعالى فذوقوه اعتراض وسط بين المعطوفين للتهديد والضمير على الأول لنفس المشار اليه وعلى الثانى لما فى ضمنه وقد ذكر فى اعراب الآية الكريمة وجوه أخر مدار الكل على أن المراد بالعقاب ماأصابهم عاجلا والله تعالى أعلم . وقرىء بكسر أن على الاستئناف (ياأيها الذين آمنوا) خطاب للمؤمنين بحكم كلى جار فيما سيقع من الوقائع والحروب جيء به فى تضاعيف القصة اظهارا للاعتناء بشأنه ومبالغة فى حثهم على المحافظة عليه (اذا لقيتم الذين كفروا زحفا) الزحف الدبيب يقال زحف الصبى زحفا اذا دب على أسته قليلا قليلا سمى به الجيش الداهم المتوجه الى العدو لانه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه يزحف وذلك لان الكل يرى كجسم واحد متصل فيحسن حركته فالقياس اليه فى غاية البطء وان كانت فى نفس الامر على غاية السرعة قال قائلهم:

وأرعن مثل الطود تحسب أنهم ... وقوف لحاج والركاب تهملج

ونصبه أما على أنه حال من مفعول لقيتم أى زاحفين نحوكم وأما على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر هو الحال منه أى يزحفون زحفا وأما كونه حالا من فاعله أو منه ومن مفعوله معا كما قيل فيأباه قوله تعالى (فلا تولوهم الأدبار) اذ لامعنى لتقييد النهى عن الادبار بتوجههم السابق الى العدو أو بكثرتهم بل توجه العدو اليهم وكثرتهم هو الداعى الى الادبار عادة والمحوج الى النهى عنه وحمله على الاشعار بما سيكون منهم يوم حنين حيث تولوا مدبرين وهم زحف من الزحوف اثنا عشر ألفا بعيد والمعنى

اذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تولوهم أدباركم فضلا عن الفرار بل قابلوهم وقاتلوهم مع قتلكم فضلا عن أن تدانوهم فى العدد أو تساووهم (ومن يولهم يومئذ) أى يوم اللقاء (دبره) فضلا عن الفرار وقرئ بسكون الباء (الامتحرفا لقتال) اما بالتوجه الى قتال طائفة أخرى أهم من هؤلاء وأما بالفر للكر بأن يخيل عدوه أنه منهزم ليغره و يخرجه من بين أعوانه ثم يعطف عليه وحده أو مع من فى الكمين من أصحابه وهو باب من خدع الحرب ومكايدها (أو متحيزا الى فئة) أى منحازا إلى جماعة أخرى من المؤمنين لينضم اليهم ثم يقاتل معهم العدو عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ان سرية فروا وأنا معهم فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا ودخلوا البيوت فقلت يا رسول الله نحن الفرارون فقال صلى الله عليه وسلم «بل أنتم العكارون» أى الكرارون من عكر أى رجع وأنا فئتكم . وانهزم رجل من القادسية فأتى المدينة الى عمر رضى الله عنه فقال يا أمير المؤمنين هلكت ففررت من الزحف فقال رضى الله عنه أنا فئتك ووزن متحيز متفيعل لا متفعل والا لكان متحوزا لانه من حاز يحوز وانتصابهما اما على الحالية والا لغو لا عمل لها واما على الاستثناء من المولين أي ومن يولهم دبره الا رجلا منهم متحرفا أو متحيزا (فقد باء) أى رجع (بغضب) عظيم لا يقادر قدره ومن فى قوله تعالى (من الله) متعلقة بمحذوف هو صفة لغضب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة والهول بالفخامة الاضافية أى بغضب كائن منه تعالى (ومأواه جهنم) أى بدل ما أراد بفراره أن يأوى اليه من مأوى ينجيه من القتل (وبئس المصير) فى ايقاع البوء فى موقع جواب الشرط الذى هو التولية مقرونا بذكر المأوى والمصير من الجزالة مالامزيد عليه . عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر وهذا اذا لم يكن العدو أكثر من الضعف لقوله تعالى «الآن خفف الله عنكم» الآية وقيل الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه فى الحرب (فلم تقتلوهم) رجوع الى بيان بقية أحكام الوقعة وأحوالها وتقرير ما سبق منها والفاء جواب شرط مقدر يستدعيه ما مر من ذكر امداده تعالى وأمره بالتثبيت وغير ذلك كأنه قيل اذا كان الامر كذلك فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم وقدرتكم (ولكن الله قتلهم) بنصركم وتسليطكم عليهم وألقاء الرعب فى قلوبهم ويجوز أن يكون التقدير اذا علمتم ذلك فلم تقتلوهم أى فاعلموا أو فأخبركم أنكم لم تقتلوهم وقيل التقدير ان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم على أحد التأويلين لما روى أنهم لما انصرفوا من المعركة غالبين غانمين أقبلوا يتفاخرون يقولون قتلت وأسرت وفعلت وتركت فنزلت وقد كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم حين طلعت قريش من العقنقل قال «هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم انى أسألك ما وعدتنى » فأتاه جبريل عليه السلام فقال خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقى الجمعان قال « لعلى رضى الله تعالى عنه » أعطنى قبضة من حصباء الوادى فرمى بها فى وجوههم وقال « شاهت الوجوه » فلم يبق مشرك الا شغل بعينيه فانهزموا وذلك قوله عز وجل بطريق تلوين الخطاب (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) تحقيقا لكون الرمى الظاهر على يده عليه الصلاة والسلام حينئذ من أفعاله عز وجل وتجريد الفعل عن المفعول به لما أن المقصود الأصلى بيان حال الرمى نفيا واثباتا إذ هو الذى ظهر منه ما ظهر وهو المنشأ لتغير المرمى به فى نفسه وتكثره الى حيث أصاب عينى كل واحد من أولئك الائمة الجمة شيء من ذلك أى وما فعلت أنا يا محمد تلك الرمية المستتبعة لهذه الآثار العظيمة حقيقة حين فعلتها صورة والا لكان أثرها من جنس آثار الأفاعيل البشرية ولكن الله فعلها أى خلقها حين باشرتها لكن لا على نهج عادته تعالى فى خلق أفعال العباد بل على وجه غير معتاد ولذلك أثرت هذا التأثير الخارج عن طوق البشر ودائرة القوى والقدر فمدار أثباتها لله تعالى ونفيها عنه عليه الصلاة والسلام كون أثرها من أفعاله سبحانه لا من أفعاله عليه الصلاة والسلام . وقرىء ولكن الله بالتخفيف والرفع فى المحلين واللام فى قوله تعالى (وليبلى المؤمنين منه) أى ليعطيهم من عنده تعالى (بلاء حسنا) أى عطاء جميلا غير مشوب بمقاساة الشدائد والمكاره أما متعلقة بمحذوف متأخر فالواو اعتراضية أى وللاحسان اليهم بالنصر والغنيمة فعل ما فعل لا لشيء غير ذلك مما لا يجديهم نفعا وأما برمى فالواو للعطف على علة محذوفة أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى الخ وقوله تعالى (إن الله سميع) أى لدعائهم واستغاثتهم (عليم) أى بنياتهم وأحوالهم الداعية الى الاجابة تعليل للحكم (ذلكم) اشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع على انه خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (وأن الله موهن كيد الكافرين) بالاضافة معطوف عليه أى المقصد أبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وأبطال حيلهم وقيل المشار اليه القتل والرمى والمبتدأ الأمر أى الأمر ذلكم أى القتل فيكون قوله تعالى وأن الله الآية من قبيل عطف البيان وقرىء موهن بالتنوين مخففا ومشددا ونصب كيد الكافرين (ان تستفتحوا)خطاب لاهل مكة على سبيل التهكم بهم وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين اى أن تستنصروا لأعلى الجندين (فقد جاءكم الفتح) حيث نصر أعلاهما وقد زعمتم أنكم الأعلى فالتهكم فى المجيء أو

فقد جاءكم الهزيمة والقهر فالتهكم فى نفس الفتح حيث وضع موضع ما يقابله (وأن تنتهوا) عما كنتم عليه من الحراب ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم (فهو) أى الانتهاء خير لكم) أى من الحراب الذى ذقتم غائلته لما فيه من السلامة من القتل والاسر ومبنى اعتبار أصل الخيرية فى المفضل عليه هو التهكم (وان تعودوا) أى إلى حرابه عليه الصلاة والسلام (نعد) لما شاهدتموه من الفتح (ولن تغنى) بالتاء الفوقانية وقرىء بالياء التحتانية لان تأنيث الفئة غير حقيقى وللفصل أى لن تدفع أبدا (عنكم فئتكم) جماعتكم التى تجمعونهم وتستعينون بهم (شيئا) أى من الاغناء أو من المضار وقوله تعالى (ولو كثرت) جملة حالية وقد مر التحقيق (وان الله مع المؤمنين) أى ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك أو والامر أن الله مع المومنين ويقرب منه بحسب المعنى قراءة الكسر على الاستئناف وقيل الخطاب للمؤمنين والمعنى أن تستنصروا فقد جاءكم النصر وأن تنتهوا عن التكاسل والرغبة عما يرغب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو خير لكم من كل شيء لما أنه مناط لنيل سعادة الدارين وان تعودوا اليه نعد عليكم بالانكار وتهييج العدو ولن تغنى حينئذ كثرتكم اذا لم يكن الله معكم بالنصر والامر أن الله مع الكاملين فى الايمان (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا) بطرح احدى التاءين وقرىء بادغامها (عنه) أى لا تتولوا عن الرسول فان المراد هو الامر بطاعته والنهى عن الاعراض عنه وذكر طاعته تعالى للتمهيد والتنبيه على أن طاعته تعالى فى طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام من يطع الرسول فقد أطاع الله وقيل الضمير للجهاد وقيل للامر الذى دل عليه الطاعة وقوله تعالى (وأنتم تسمعون) جملة حالية واردة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولى مطلقا كما فى قوله تعالى «فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون» لا لتقييد النهى عنه بحال السماع كما فى قوله تعالى «ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى» أى لا تتولوا عنه والحال انكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته والمواعظ الزاجرة عن مخالفته سماع فهم وأذعان (ولا تكونوا) تقرير للنهى السابق وتحذير عن مخالفته بالتنبيه على أنها مؤدية الى انتظامهم فى سلك الكفرة بكون سماعهم كلاسماع أى لا تكونوا بمخالفة الامر والنهى (كالذين قالوا سمعنا) بمجرد الادعاء من غير فهم واذعان كالكفرة والمنافقين الذين يدعون السماع (وهم لا يسمعون) حال من ضمير قالوا أى قالوا ذلك والحال أنهم لا يسمعون حيث لا يصدقون ما سمعوه ولا يفهمونه حق فهمه فكأنهم لا يسمعونه رأسا (أن شر الدواب) استئناف مسوق لبيان كمال سوء حال المشبه بهم مبالغة فى التحذير وتقريرا للنهى اثر تقرير أى أن شر ما يدب على الارض أو شر البهائم (عند الله) أى فى حكمه وقضائه (الصم) الذين لا يسمعون الحق

(البكم) الذين لا ينطقون به . وصفوا بالصمم والبكم لان ما خلق له الأذن واللسان سماع الحق والنطق به وحيث لم يوجد فيهم شيء من ذلك صاروا كأنهم فاقدون للجارحتين رأسا وتقديم الصم على البكم لما أن صممهم متقدم على بكمهم فان السكوت عن النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له كما أن النطق به من فروع سماعه ثم وصفوا بعدم التعقل فقيل (الذين لا يعقلون) تحقيقا لكمال سوء حالهم فان الأصم الا بكم اذا كان له عقل ربما يفهم بعض الامور ويفهمه غيره بالاشارة ويهتدى بذلك الى بعض مطالبه وأما اذا كان فاقدا للعقل أيضا فهو الغاية فى الشرية وسوء الحال وبذلك يظهر كونهم شرا من البهائم حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها وبه يفضلون على كثير من خلق الله عز وجل فصاروا أخس من كل خسيس (ولو علم الله فيهم خيرا) شيئا من جنس الخير الذى من جملته صرف قواهم الى تحرى الحق واتباع الهدى (لأسمعهم) سماع تفهم وتدبر ولوقفوا على حقية الرسول عليه الصلاة والسلام وأطاعوه وآمنوا به ولكن لم يعلم فيهم شيئا من ذلك لخلوهم عنه بالمرة فلم يسمعهم كذلك لخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة واليه أشير بقوله تعالى (ولو أسمعهم لتولوا) أى لو أسمعهم سماع تفهم وهم على هذه الحالة العارية عن الخير بالكلية لتولوا عما سمعوه من الحق ولم ينتفعوا به قط أو ارتدوا بعد ما صدقوه وصاروا كأن لم يسمعوه أصلا وقوله تعالى (وهم معرضون) أما حال من ضمير تولوا أى لتولوا على أدبارهم والحال أنهم معرضون عما سمعوه بقلوبهم وأما اعتراض تذييلى أى وهم قوم عادتهم الاعراض. وقيل كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحى قصيا فانه كان شيخا مباركا حتى يشهد لك ونؤمن بك فالمعنى ولو أسمعهم كلام قصى الخ وقيل هم بنو عبد الدار بن قصى لم يسلم منهم الا مصعب بن عمير وسويد بن حرملة كانوا يقولون نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه قاتلهم الله تعالى فقتلوا جميعا بأحد وكانوا أصحاب اللواء وعن ابن جريج أنهم المنافقون وعن الحسن رضى الله عنه أنهم أهل الكتاب (يا أيها الذين آمنوا) تكرير النداء مع وصفهم بنعت الايمان لتنشطهم الى الاقبال على الامتثال بما يرد بعده من الاوامر وتنبيههم على أن فيهم ما يوجب ذلك (استجيبوا لله وللرسول) بحسن الطاعة (اذا دعاكم) أى الرسول اذ هو المباشر لدعوة الله تعالى (لما يحييكم) من العلوم الدينية التى هى مناط الحياة الأبدية كما أن الجهل مدار الموت الحقيقي أو هى ماء حياة القلب كما أن الجهل موجب موته وقيل لمجاهدة الكفار لانهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم كما فى قوله تعالى «ولكم فى القصاص حياة» . روى أنه عليه الصلاة والسلام مر على أبى بن كعب وهو يصلى فدعاه

فعجل فى صلاته ثم جاء فقال عليه الصلاة والسلام «ما منعك من أجابتى قال كنت فى الصلاة قال ألم تخبر فيما أوحى الى استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم » الخ واختلف فيه فقيل هذا من خصائص دعائه عليه الصلاة والسلام وقيل لان اجابته عليه الصلاة والسلام لا تقطع الصلاة . وقيل كان ذلك الدعاء لامر مهم لايحتمل التأخير والمصلى أن يقطع الصلاة لمثله (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) تمثيل لغاية قربه تعالى من العبد كقوله تعالى ونحن أقرب اليه من حبل الوريد وتنبيه على انه تعالى مطلع من مكنونات القلوب على ماعسى يغفل عنه صاحبها أو حث على المبادرة الى اخلاص القلوب وتصفيتها قبل ادراك المنية فانها حائلة بين المرء وقلبه أو تصوير وتخييل لتملكه على العبد قلبه بحيث يفسخ عزائمه ويغير نياته ومقاصده ويحول بينه وبين الكفر ان أراد سعادته ويبدله بالامن خوفا وبالذكر نسيانا وما أشبه ذلك من الامور المعترضة المفوتة للفرصة وقرىء بين المر بتشديد الراء على حذف الهمزة والقاء حركتها على الراء واجراء الوصل مجرى الوقف (وأنه) أى الله عز وجل أو الشأن (اليه تحشرون) لا الى غيره فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم فسارعوا الى طاعته تعالى وطاعة رسوله وبالغوا فى الاستجابة لها (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) أي لا تختص اصابتها بمن يباشر الظلم منكم بل يعمه وغيره كاقرار المنكرين أظهرهم والمداهنة فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل فى الجهاد على أن قوله لا تصيبن الخ اما جواب الأمر على معنى إن أصابتكم لا تصيبن الخ وفيه أن جواب الشرط متردد فلا يليق به النون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهى ساغ فيه كقوله تعالى «ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم» وأما صفة لفتنة ولا للنفى وفيه شذوذ لأن النون لا تدخل المنفى فى غير القسم أو للنهى على إرادة القول كقول من قال :

حتى إذا جن الظلام واختلط جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط

واما جواب قسم محذوف كقراءة من قرأ لتصيبن وإن اختلف المعنى فيهما وقد جوز أن يكون نهياً عن التعرض للظلم بعد الامر باتقاء الذنب فان وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه ومن فى منكم على الوجوه الاول للتبعيض وعلى الآخرين للتبيين وفائدته التنبيه على أن الظلم منكم أقبح منه من غيركم (واعلموا أن الله شديد العقاب) ولذلك يصيب بالعذاب من لم يباشر سببه (واذكروا إذ أنتم قليل) أى وقت كونكم قليلا فى العدد . وإيثار الجملة الاسمية للايذان باستمرار ما كانوا فيه من

القلة وما يتبعها من الضعف والخوف وقوله تعالى (مستضعفون) خبر ثان أو صفة لقليل وقوله تعالى (فى الأرض) أى فى أرض مكة تحت أيدى قريش والخطاب للمهاجرين أو تحت أيدى فارس والروم والخطاب للعرب كافة فانهم كانوا أذلاء تحت أيدى الطائفتين وقوله تعالى «تخافون أن يتخطفكم الناس» خبر ثالث أو صفة ثانية لقليل وصف بالجملة بعد ما وصف بالمفرد أو حال من المستكن فى مستضعفون والمراد بالناس على الأول وهو الاظهر اما كفار قريش واما كفار العرب لقربهم منهم وشدة عداوتهم لهم وعلى الثانى فارس والروم أى واذكروا وقت قلتكم وذلتكم وهوانكم على الناس وخوفكم من اختطافهم (فآواكم) إلى المدينة أوجعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم (وأيدكم بنصره) على الكفار أو بمظاهرة الانصار أو بأمداد الملائكة (ورزقكم من الطيبات) من الغنائم (لعلكم تشكرون) هذه النعم الجليلة (يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول) أصل الخون النقص كما أن أصل الوفاء التمام واستعماله فى ضد الامانة لتضمنه إياه أى لا تخونوهما بتعطيل الفرائض والسنن أو بأن تضمروا خلاف ماتظهرون أو فى الغلول فى الغنائم . روى أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بنى قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح كما صالح بني النضير على أن يسيروا إلى اخوانهم بأذرعات وأريحاء من الشام فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه فأبوا وقالوا أرسل الينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لما أن ماله وعياله كانا فى أيديهم فبعثه إليهم فقالوا ماترى هل ننزل على حكم سعد فأشار إلى حلقه انه الذبح قال أبو لبابة فما زالت قدماي حتى علمت أنى خنت الله ورسوله فنزلت فشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لاأذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله على فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له قد تيب عليك فحل نفسك قال لا والله لاأحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى فجاءه عليه الصلاة والسلام فحله فقال إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالى فقال عليه الصلاة والسلام «يجزئك الثلث أن تتصدق به» (وتخونوا أماناتكم) فيما بينكم وهو مجزوم معطوف على الاول أومنصوب على الجواب بالواو (وأنتم تعلمون) أنكم تخونون أو وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) لانها سبب الوقوع فى الاثم والعقاب أومحنة من الله عز وجل ليبلوكم فى ذلك فلايحملنكم حبهما على الخيانة كأبى لبابة (وأن الله عنده أجر عظيم) لمن آثر رضاه تعالى عليهما وراعى

حدوده فيهما فنيطوا هممكم بما يؤديكم اليه (ياأيها الذين آمنوا) تكرير الخطاب والوصف بالايمان لاظهار كمال العناية بمابعده والايذان بأنه ممايقتضى الايمان مراعاته والمحافظة عليه كما فى الخطابين السابقين (ان تتقوا الله) أى فى كل ماتأتون وماتذرون (يجعل لكم) بسبب ذلك (فرقانا) هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل أونصرا يفرق بين المحق والمبطل باعزاز المؤمنين وأذلال الكافرين أومخرجا من الشبهات أو نجاة عما تحذرون فى الدارين أوظهورا يشهر أمركم وينشر صيتكم من قولهم بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان أى الصبح (ويكفر عنكم سيآتكم) أي يسترها (ويغفر لكم) ذنوبكم بالعفو والتجاوز عنها وقيل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر وقيل المراد ماتقدم وماتأخر لانها فى أهل بدر وقد غفرهما الله تعالى لهم وقوله تعالى (والله ذو الفضل العظيم) تعليل لما قبله وتنبيه على أن ماوعده الله تعالى لهم على التقوى تفضل منه واحسان لا أنه ممايوجبه التقوى كما اذا وعد السيد عبده أنعاما على عمل (وإذ يمكر بك الذين كفروا) منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم معطوف على قوله تعالى « واذكروا اذ أنتم » الخ مسوق لتذكير النعمة الخاصة به صلى الله عليه وسلم بعد تذكير النعمة العامة للكل أى واذكر وقت مكرهم بك (ليثبتوك) بالوثاق ويعضده قراءة من قرأ ليقيدوك أو الاثخان بالجرح من قولهم ضربه حتى أثبته لاحراك به ولابراح . وقرىء ليثبتوك بالتشديد وليبيتوك من البيات (أو يقتلوك)أى بسيوفهم (أو يخرجوك) أى من مكة وذلك أنهم لما سمعوا بأسلام الانصار ومبايعتهم له عليه الصلاة والسلام فرقوا واجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فى أمره صلى الله عليه وسلم فدخل أبليس عليهم فى صورة شيخ وقال أنا من نجد سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا فقال أبو البخترى رأيى أن تحبسوه فى بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون اليه طعامه وشرابه منها حتى يموت فقال الشيخ بئس الرأى يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم فقال هشام بن عمرو رأيى أن تحملوه على جمل وتخرجوه من أرضكم فلايضركم ماصنع فقال وبئس الرأي يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم فقال أبو جهل أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه فى القبائل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل عقلناه فقال صدق هذا الفتى فتفرقوا على رأيه فأتى جبريل النبي عليهما الصلاة والسلام وأخبره بالخبر وأمره بالهجرة فبيت عليا رضى الله تعالى عنه على مضجعه وخرج هو مع أبي بكر رضى الله عنه الى الغار

(ويمكرون ويمكر الله) أى يرد مكرهم عليهم أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملة الماكرين وذلك بأن أخرجهم الى بدر وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فلقوا منهم مالقوا (والله خير الماكرين) لايعبأ بمكرهم عند مكره وأسناد أمثال هذا اليه سبحانه مما يحسن للمشاكلة ولا مساغ له ابتداء لما فيه من ايهام مالا يليق به سبحانه (واذا تتلى عليهم آياتنا) التى حقها أن يخر لها صم الجبال (قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) قاله اللعين النضر بن الحرث واسناده الى الكل لما أنه كان رئيسهم وقاضيهم الذى يقولون بقوله ويأخذون برأيه وقيل قاله الذين ائتمروا فى أمره صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة وهذا كما ترى غاية المكابرة ونهاية العناد كيف لا ولو استطاعوا شيئا من ذلك فما الذى كان يمنعهم من المشيئة وقد تحدوا عشر سنين وقرعوا على العجز وذاقوا من ذلك الأمرين ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوا بما سواه مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا لاسيما فى باب البيان (ان هذا الا أساطير الأولين) أى مايسطرونه من القصص (واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) هذا أيضا من أباطيل ذلك اللعين روى انه لما قال ان هذا الا أساطير الاولين قال له النبي صلى الله عليه وسلم « ويلك انه كلام الله تعالى » فقال ذلك والمعنى ان القرآن ان كان حقا منزلا من عندك فأمطر علينا الحجارة عقوبة على انكارنا أو ائتنا بعذاب أليم سواه . والمراد منه التهكم واظهار اليقين والجزم التام على أنه ليس كذلك وحاشاه وقرئ الحق بالرفع على أن هو مبتدأ لا فصل وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقا على الوجه الذي يدعيه صلى الله عليه وسلم وهو تنزيله لا الحق مطلقا لتجويزهم أن يكون مطابقا للواقع غير منزل كالاساطير (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للموجب لامهالهم والتوقف فى اجابة دعائهم واللام لتأكيد النفى والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبى عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم خارج عن عادته تعالى غير مستقيم فى حكمه وقضائه والمراد باستغفارهم فى قوله تعالى (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) اما استغفار من بقى منهم من المؤمنين أو قولهم اللهم اغفر أو فرضه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله تعالى « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (ومالهم أن لا يعذبهم الله) بيان لاستحقاقهم العذاب بعد بيان أن المانع ليس من قبلهم أى ومالهم مما يمنع تعذيبه متى زال ذلك وكيف لا يعذبون (وهم يصدون عن المسجد الحرام) أي وحالهم ذلك ومن صدهم عنه ألجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الهجرة واحصارهم عام الحديبية

(وما كانوا أولياءه) حال من ضمير يصدون مفيدة لكمال قبح ماصنعوا من الصد فأن مباشرتهم للصد عنه مع عدم استحقاقهم لولاية أمره فى غاية القبح وهو رد لما كانوا يقولون نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء (أن أولياؤه إلا المتقون) من الشرك الذين لايعبدون فيه غيره تعالى (ولكن أكثرهم لايعلمون) أنه لا ولاية لهم عليه وفيه اشعار بأن منهم من يعلم ذلك ولكنه يعاند وقيل أريد بأكثرهم كلهم كما يراد بالقلة العدم (وما كان صلاتهم عند البيت) أى دعاؤهم أو مايسمونه صلاة أو مايضعون موضعها (الامكاء) أى صفيراً فعال من مكا يمكو اذا صفر وقرئ بالقصر كالبكى (وتصدية) أى تصفيقاً تفعلة من الصدى أو من الصد على أبدال أحد حرفى التضعيف بالياء وقرئ صلاتهم بالنصب على أنه الخبر لكان ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب أو عدم ولايتهم المسجد فانها لاتليق بمن هذه صلاته . روى أنهم كانوا يطوفون عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون وقيل كانوا يفعلون ذلك إذ أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلى يخلطون عليه ويرون أنهم يصلون أيضاً (فذوقوا العذاب) أى القتل والاسر يوم بدر وقيل عذاب الآخرة واللام يحتمل أن تكون للعهد والمعهود إئتنا بعذاب أليم (بما كنتم تكفرون) اعتقاداً وعملا (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله) نزلت فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر أوفى أبى سفيان استأجر ليوم أحد ألفين سوى من استجاش من العرب وأنفق فيهم أربعين أوقية أو فى أصحاب العير فانه لما اصيب قريش يوم بدر قيل لهم اعينوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك ثأرنا منه ففعلوا والمراد بسبيل الله دينه واتباع رسوله (فسينفقونها) بتمامها ولعل الاول أخبار عن أنفاقهم فى تلك الحال وهو انفاق يوم بدر والثانى اخبار عن انفاقهم فيما يستقبل وهو انفاق يوم أحد ويحتمل أن يراد بهما واحد على أن مساق الاول لبيان الغرض من الانفاق ومساق الثانى لبيان عاقبته وأنه لم يقع بعد (ثم تكون عليهم حسرة) ندما وغما لفواتها من غير حصول المقصود جعل ذاتها حسرة وهى عاقبة انفاقها مبالغة (ثم يغلبون) آخر الامر وان كان الحرب بينهم سجالا قبل ذلك (والذين كفروا) أي تموا على الكفر وأصروا عليه (ألى جهنم يحشرون) أى يساقون لا ألى غيرها (ليميز الله الخبيث من الطيب) أى الكافر من المؤمن أو الفساد من الصلاح واللام متعلقة بيحشرون أو بيغلبون أو ما أنفقه المشركون فى عداوته صلى الله عليه وسلم مما أنفقه المسلمون

فى نصرته واللام متعلقة بقوله ثم تكون عليهم حسرة وقرىء ليميز بالتشديد للمبالغة (ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا) أى يضم بعضه الى بعض حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم فيجمعه أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كما للكافرين (فيجعله فى جهنم) كله (أولئك) اشارة الى الخبيث اذ هو عبارة عن الفريق أو الى المنفقين وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتهم فى الخبث (هم الخاسرون) الكاملون فى الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم (قل للذين كفروا) هم أبو سفيان وأصحابه أى قل لأجلهم (أن ينتهوا) عماهم فيه من معاداة النبى صلى الله عليه وسلم بالدخول فى الاسلام (يغفر لهم ما قد سلف) من الذنوب وقرىء ان تنتهوا يغفر لكم و يغفر لكم على البناء للفاعل وهو الله تعالى (وأن يعودوا) الى قتاله (فقد مضت سنة الاولين) الذين تحزبوا على الانبياء عليهم السلام بالتدمير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك (وقاتلوهم) عطف على قل وقد عم الخطاب لزيادة ترغيب المؤمنين فى القتال لتحقيق ما يتضمنه قوله تعالى «فقد مضت سنة الأولين» من الوعيد (حتى لا تكون فتنة) أى لا يوجد منهم شرك (ويكون الدين كله لله) وتضمحل الأديان الباطلة اما بأهلاك أهلها جميعا أو برجوعهم عنها خشية القتل (فان انتهوا) عن الكفر بقتالكم (فأن الله بما يعملون بصير) فيجازيهم على انتهائهم عنه واسلامهم. وقرىء بتاء الخطاب أى بما تعملون من الجهاد المخرج لهم الى الاسلام. وتعليقه بانتهائهم للدلالة على انهم يثابون بالسببية كما يثاب المباشرون بالمباشرة (وان تولوا) ولم ينتهوا عن ذلك (فاعلموا أن الله مولاكم) ناصركم فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم (نعم المولى) لايضيع من تولاه (ونعم النصير) لايغلب من نصره (واعلموا أنما غنمتم) عن الكلبى أنها نزلت ببدر وقال الواقدى كان الخمس فى غزوة بنى قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة وما موصولة وعائدها محذوف أى الذى أصبتموه من الكفار عنوة وأصل الغنيمة اصابة الغنم من العدو ثم اتسع وأطلق على كل ما أصيب منهم كائنا ما كان وقوله تعالى (من شيء) بيان للموصول محله النصب على انه حال من عائد الموصول قصد به الاعتناء بشأن الغنيمة وان لايشذ عنها شيء أى ماغنمتموه كائنا مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط والمخيط خلا أن سلب المقتول للقاتل إذا نفله الامام وان الأسارى يخير فيها الامام وكذا الاراضى المغنومة وقوله تعالى (فأن لله خمسه) مبتدأ خبره محذوف أى فحق أو واجب أن لله تعالى خمسه وهذه الجملة خبر لأنما الخ وقرىء بالكسر والاولى آكد وأقوى فى الايجاب لما فيه من تكرر

الأسناد كأنه قيل فلا بد من ثبات الخمس ولا سبيل الى الاخلال به وقرىء خمسه بسكون الميم والجمهور على أن ذكر الله تعالى للتعظيم كما فى قوله تعالى «والله ورسوله أحق أن يرضوه» وأن المراد قسمة الخمس على المعطوفين عليه بقوله تعالى (وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) وأعادة اللام فى ذى القربى دون غيرهم من أصناف الثلاثة لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى صلى الله عليه وسلم لمزيد اتصالهم به عليه الصلاة والسلام وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون بنى عبد شمس وبنى نوفل لما روي عن عثمان وجبير بن مطعم رضى الله عنهما أنهما قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء أخوتك بنو هاشم لاننكر فضلهم لمكانك الذى جعلك الله منهم أرأيت اخواننا بنى المطلب أعطيتهم وحرمتنا وانما نحن وهم بمنزلة واحدة فقال صلى الله عليه وسلم «أنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا اسلام انما بنوهاشم وبنو المطلب شيء واحد وشبك بين أصابعه وكيفية قسمتها عندنا أنها كانت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم: سهم له عليه الصلاة والسلام. وسهم للمذكورين من ذوى قرباه. وثلاثة أسهم للأصناف الثلاثة الباقية. وأما بعده صلى الله عليه وسلم فسهمه ساقط وكذا سهم ذوى القربى وانما يعطون لفقرهم فهم أسوة لسائر الفقراء ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على الاصناف الثلاثة ويؤيده ماروى عن أبى بكر رضى الله عنه أنه منع بنى هاشم الخمس وقال انما لكم أن يعطى فقيركم وتزوج أيمكم ويخدم من لا خادم له منكم ومن عداهم فهو بمنزلة ابن السبيل الغنى لايعطى من الصدقة شيئا. وعن زيد بن على مثله قال ليس لنا أن نبنى منه قصورا ولا نركب منه البراذين. وقيل سهم الرسول صلى الله عليه وسلم لولى الامر بعده. وأما عند الشافعى رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف الى ماكان يصرفه عليه الصلاة والسلام من مصالح المسلمين كعدة الغزاة من الكراع والسلاح ونحو ذلك. وسهم لذوى القربى من أغنيائهم وفقرائهم يقسم بينهم للذكر مثل حظ الانثيين والباقي للفرق الثلاث. وعند مالك رحمه الله الأمر فيه مفوض الى اجتهاد الامام ان رأى قسمه بين هؤلاء وان رأى أعطاه بعضا منهم دون بعض وان رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم وتعلق أبو العالية بظاهر الآية الكريمة فقال يقسم ستة أسهم ويصرف سهم الله تعالى الى رتاج الكعبة لما روى انه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ منه قبضة فيجعلها لمصالح الكعبة ثم يقسم مابقى على خمسة أسهم وقيل سهم الله لبيت المال وقيل هو مضموم الى سهم الرسول عليه الصلاة والسلام هذا شأن الخمس وأما الاخماس الاربعة فتقسم بين الغانمين للراجل سهم وللفارس سهمان عند أبى حنيفة رضى الله عنه وثلاثة أسهم عندهما رحمهما

الله قال القرطبي لما بين الله تعالى حكم الخمس وسكت عن الباقي دل ذلك على أنه ملك للغانمين وقوله تعالى (ان كنتم آمنتم بالله) متعلق بمحذوف ينبيء عنه المذكور أي ان كنتم آمنتم به تعالى فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به الى الله تعالى فاقطعوا أطماعكم منه واقتنعوا بالاخماس الاربعة وليس المراد به مجرد العلم بذلك بل العلم المشفوع بالعمل والطاعة لامره تعالى (وما أنزلنا) عطف على الاسم الجليل أي ان كنتم آمنتم بالله وبما أنزلناه (على عبدنا) وقريء عبدنا وهو اسم جمع أريد به الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين فان بعض ما نزل نازل عليهم بالذات كما ستعرفه (يوم الفرقان) يوم بدر سمي به لفرقه بين الحق والباطل وهو منصوب بأنزلنا أو بآمنتم (يوم التقى الجمعان) أي الفريقان من المؤمنين والكافرين وهو بدل من يوم الفرقان أو منصوب بالفرقان والمراد ما أنزل عليه عليه الصلاة والسلام يومئذ من الوحي والملائكة والفتح على أن المراد بالانزال مجرد الايصال والتيسير فينتظم الكل انتظاما حقيقيا وجعل الايمان بانزال هذه الاشياء من موجبات العلم بكون الخمس لله تعالى على الوجه المذكور من حيث ان الوحي ناطق بذلك وان الملائكة والفتح لما كانا من جهته تعالى وجب أن يكون ما حصل بسببهما من الغنيمة مصروفة الى الجهات التي عينها الله تعالى (والله على كل شيء قدير) يقدر على نصر القليل على الكثير والذليل على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم (اذ أنتم بالعدوة الدنيا) بدل ثان من يوم الفرقان والعدوة بالضم شط الوادي وكذا بالفتح والكسر وقد قريء بهما أيضا (وهم بالعدوة القصوى) أي البعدى من المدينة وهي تأنيث الاقصى وكان القياس قلب الواو ياء كالدنيا والعليا مع كونهما من بنات الواو لكنها جاءت على الاصل كالقود واستصوب وهو أكثر استعمالا من القصيا (والركب) أي العير أو قوادها (أسفل منكم) أي في مكان أسفل من مكانكم يعني الساحل وهو نصب على الظرفية واقع موقع الخبر والجملة حال من الظرف قبله وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم على المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على أن لا يخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى جهدهم وضعف شأن المسلمين والتباث أمرهم واستبعاد غلبتهم عادة وكذا ذكر مراكز الفريقين فان العدوة الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا يمشي فيها الا بتعب ولم يكن فيها ماء بخلاف العدوة القصوى وكذا قوله تعالى (ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد) أي لو تواعدتم أنتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم أنتم في الميعاد هيبة منهم ويأسا من الظفر عليهم ليتحققوا ان ما اتفق لهم من الفتح ليس الا صنعا من الله عز وجل خارقا للعادات فيزدادوا ايمانا وشكرا

وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس (ولكن) جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) حقيقا بأن يفعل من نصر أوليائه وقهر أعدائه أو مقدرا فى الازل وقوله تعالى (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) بدل منه أو متعلق بمفعولا أى ليموت من يموت عن بينة عاينها ويعيش من يعيش عن بينة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعذرة فان وقعة بدر من الآيات الواضحة أو ليصدر كفر من كفر وايمان من آمن عن وضوح بينة على استعارة الهلاك والحياة الكفر والايمان والمراد بمن هلك ومن حى المشارف للهلاك والحياة أو من حاله فى علم الله تعالى الهلاك والحياة وقرىء ليهلك بالفتح وحيي بفك الادغام حملا على المستقبل (وإن الله لسميع عليم) أى بكفر من كفر وعقابه وايمان من آمن وثوابه ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الامرين على القول والاعتقاد (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا) منصوب بأذكر أو بدل آخر من يوم الفرقان أو متعلق بعليم أى يعلم المصالح اذ يقللهم فى عينك فى رؤياك وهو أن تخبر به أصحابك فيكون تثبيتا لهم وتشجيعا على عدوهم (ولو أراكهم كثيرا لفشلتم) أى لجبنتم وهبتم الأقدام (ولتنازعتم فى الأمر) أى أمر القتال وتفرقت آراؤكم فى الثبات والفرار (ولكن الله سلم) أى أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع (انه عليم بذات الصدور) يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع ولذلك دبر ما دبر (وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا) منصوب بمضمر خوطب به الكل بطريق التلوين والتعميم معطوف على المضمر السابق والضميران مفعولا يرى وقليلا حال من الثانى وانما قللهم فى أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضى الله عنه لمن الى جنبه أتراهم سبعين فقال أراهم مائة تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم (ويقللكم فى أعينهم) حتى قال أبو جهل إنما أصحاب محمد أكلة جزور قللهم فى أعينهم قبل التحام القتال ليجترءوا عليهم ولا يستعدوا لهم ثم كثرهم حتى رأوهم مثليهم لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا وهذه من عظائم آيات تلك الوقعة فان البصر قد يرى الكثير قليلا والقليل كثيراً لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد وإنما ذلك بصد الله تعالى الابصار عن أبصار بعض دون بعض مع التساوى فى الشرائط (ليقضى الله أمراً كان مفعولا) كرر لاختلاف الفعل المعلل به أو لأن المراد بالأمر ثمة الالتقاء على الوجه المذكور وههنا أعزاز الاسلام وأهله وإذلال الكفر وحزبه (وإلى الله ترجع الأمور) كلها يصرفها كيفما يريد لاراد لأمره ولا معقب لحكمه وهو الحكيم الحميد (يا أيها الذين آمنوا) صدر الخطاب بحرف النداء

والتنبيه إظهار لكمال الاعتناء بمضمون مابعده (إذا لقيتم فئة) أي حاربتم جماعة من الكفرة وإنما لم يوصفوا بالكفر لظهور أن المؤمنين لا يحاربون إلا الكفرة واللقاء مما غلب فى القتال (فاثبتوا) أى للقائهم فى مواطن الحرب (واذكروا الله كثيراً) أى فى تضاعيف القتال مستمدين منه مستعينين به مستظهرين بذكره مترقبين لنصره (لعلكم تفلحون) أى تفوزون بمرامكم وتظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة وفيه تنبيه على أن العبد ينبغى أن لا يشغله شيء عن ذكر الله تعالى وأن يلتجيء اليه عند الشدائد ويقبل اليه بكليته فارغ البال واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه فى حال من الأحوال (وأطيعوا الله ورسوله) فى كل ماتأتون وما تذرون فيندرج فيه ما أمروا به ههنا اندراجاً أولياً (ولا تنازعوا) باختلاف الآراء كما فعلتم ببدر أو أحد (فتفشلوا) جواب للنهى وقيل عطف عليه (وتذهب ريحكم) بالنصب عطف على جواب النهى وقرئ بالجزم على تقدير عطف فتفشلوا على النهى أى تذهب دولتكم وشوكتكم فانها مستعارة للدولة من حيث أنها فى تمشى أمرها ونفاذه مشبهة فى هبوبها وجريانها. وقيل المراد بها الحقيقة فان النصرة لا تكون إلا بريح يبعثها الله تعالى وفى الحديث «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» (واصبروا) على شدائد الحرب (إن الله مع الصابرين) بالنصرة والكلاءة وما يفهم من كلمة مع من أصالتهم إنما هى من حيث أنهم المباشرون للصبر فهم متبعون من تلك الحيثية ومعيته تعالى إنما هى من حيث الامداد والاعانة (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم) بعدما أمروا بما أمروا به من أحاسن الأعمال ونهوا عما يقابلها من قبائحها والمراد بهم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير (بطراً) أي فخراً وأشراً (ورئاء الناس) ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة وذلك أنهم لما بلغوا جحفة أتاهم رسول أبى سفيان وقال ارجعوا فقد سلمت عيركم فأبوا إلا إظهار آثار الجلادة فلقوا مالقوا حسبما ذكر فى أوائل السورة الكريمة فنهى المؤمنون أن يكونوا أمثالهم مرائين بطرين وأمروا بالتقوى والاخلاص من حيث أن النهى عن الشيء مستلزم للأمر بضده (ويصدون عن سبيل الله) عطف على بطرا أن جعل مصدرا فى موضع الحال وكذا ان جعل مفعولا له لكن على تأويل المصدر (والله بما يعملون محيط) فيجازيهم عليه (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم) منصوب بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين أى واذكر وقت تزيين الشيطان أعمالهم فى معاداة المؤمنين وغيرها بأن وسوس اليهم (وقال لا غالب لكم اليوم من

الناس وانى جار لكم) أى ألقى فى روعهم وخيل اليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعددهم وأوهمهم أن اتباعهم اياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم حتى قالوا اللهم انصر احدى الفئتين وأفضل الدينين ولكم خبر لا غالب أو صفته وليس صلته والا لانتصب كقولك لاضاربا زيدا عندنا (فلما تراءت الفئتان) أى تلاقى الفريقان (نكص على عقبيه) رجع القهقرى بطل كيده وعاد ما خيل اليهم أنه مجيرهم سببا لهلاكهم (وقال انى برىء منكم انى أرى مالا ترون إنى أخاف الله) أى تبرأ منهم وخاف عليهم ويئس من حالهم لما رأى امداد الله تعالى المسلمين بالملائكة . وقيل لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الأحنة فكاد ذلك يثنيهم فتمثل لهم ابليس فى صورة سراقة بن مالك الكنانى وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى مجيركم من كنانة فلما رأى الملائكة تنزل نكص وكان يده فى يد الحرث ابن هشام فقال له إلى أين أتخذ لنا فى هذه الحالة قال انى أرى مالا ترون ودفع فى صدر الحرث وانطلق فانهزموا فلما بلغوا مكة قالوا اهزم الناس سراقة فبلغه ذلك فقال والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله انى أخاف الله أخافه أن يصيبنى بمكروه من الملائكة أو يهلكنى ويكون الوقت هو الوقت الموعود اذ رأى فيه مالم يره قبله والأول ما قاله الحسن واختاره ابن بحر (والله شديد العقاب) يجوز أن يكون من كلامه أو مستأنفا من جهة الله عز وجل (اذ يقول المنافقون) منصوب بزين أو بنكص أو بشديد العقاب (والذين فى قلوبهم مرض) أى الذين لم تطمئن قلوبهم بالايمان بعد وبقى فيها نوع شبهة وقيل هم المشركون وقيل هم المنافقون فى المدينة والعطف لتغاير الوصفين كما فى قوله:

يالهف زيابة للحرث الـ صابح فالغانم فالآيب

(غر هؤلاء) يعنون المؤمنين (دينهم) حتى تعرضوا لما لا طاقة لهم به فخرجوا وهم ثلثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف (ومن يتوكل على الله) جواب لهم من جهته تعالى ورد لمقالتهم (فان الله عزيز) غالب لا يذل من توكل عليه واستجار به وان قل (حكيم) يفعل بحكمته البالغة ما تستبعده العقول وتحار فى فهمه ألباب الفحول وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه (ولو ترى) أى ولو رأيت فان لو الامتناعية ترد المضارع ماضيا كما أن ان ترد الماضى مضارعا والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب وقد مر تحقيقه فى قوله تعالى « ولو ترى أذ وقفوا على النار » وكلمة اذ فى قوله تعالى (إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) ظرف لترى والمفعول محذوف أى

ولو ترى الكفرة أو حال الكفرة حين يتوفاهم الملائكة ببدر و تقديم المفعول للاهتمام به وقيل الفاعل ضمير عائد الى الله عز و جل و الملائكة مبتدأ و قوله تعالى (يضربون وجوههم) خبره والجملة حال من الموصول قد استغنى فيها بالضمير عن الواو وهو على الأول حال منه أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على ضميريهما (وأدبارهم) أى وأستاههم أو ما أقبل منهم و ما أدبر من الاعضاء (وذوقوا عذاب الحريق) على ارادة القول معطوفا على يضربون أو حالا من فاعله أى و يقولون أو قائلين ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا التهبت النار منها و جواب لو محذوف للايذان بخروجه عن حدود البيان أى لرأيت أمرا فظيعا لا يكاد يوصف (ذلك) اشارة الى ما ذكر من الضرب والعذاب وما فيه من معنى البعد للاشعار بكونهما فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره (بما قدمت أيديكم) أي ذلك الضرب و العذاب واقع بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصى ومحل أن فى قوله (وأن الله ليس بظلام للعبيد) الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى والامر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعا على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا قدمر تحقيقه فى سورة آل عمران والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبلها وأما ما قيل من أنها معطوفة على ما للدلالة على أن سببيته مقيدة بانضمامه اليه اذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم فليس بسديد لما أن امكان تعذيبه تعالى لعبيده بغير ذنب بل وقوعه لا ينافى كون تعذيب هؤلاء الكفرة المعينة بسبب ذنوبهم حتى يحتاج الى اعتبار عدمه معه نعم لو كان المدعى كون جميع تعذيب بيانه تعالى بسبب ذنوب المعذبين لاحتيج الى ذلك (كدأب آل فرعون) فى محل الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف والجملة استئناف مسوق لبيان أن ما حل بهم من العذاب بسبب كفرهم لا بشىء آخر من جهة غيرهم بتشبيه حالهم بحال المعروفين بالاهلاك بسبب جرائمهم لزيادة تقبيح حالهم و للتنبيه على أن ذلك سنة مطردة فيما بين الامم المهلكة أى شأنهم الذى استمروا عليه مما فعلوا وفعل بهم من الاخذ كدأب آل فرعون المشهورين بقباحة الأعمال وفظاعة العذاب والنكال (والذين من قبلهم) أى من قبل آل فرعون من الامم التى فعلوا من المعاصى ما فعلوا ولقوا من العقاب ما لقوا كقوم نوح وعاد واضرابهم من أهل الكفر والعناد وقوله تعالى (كفروا بآيات الله) تفسير لدأبهم الذى فعلوه لا لدأب آل فرعون ونحوهم كما قيل فان ذلك معلوم منه بقضية التشبيه و قوله تعالى (فأخذهم الله) تفسير لدأبهم الذى فعل بهم

والفاء لبيان كونه من لوازم جناياتهم وتبعاتها المتفرعة عليها وقوله تعالى بذنوبهم لتأكيد ما أفادته الفاء من السببية مع الاشارة الى أن لهم مع كفرهم ذنوبا أخر لها دخل فى استتباع العقاب ويجوز أن يكون المرادبذنوبهم معاصيهم المتفرعة على كفرهم فتكون الباء للملابسة أى فأخذهم ملتبسين بذنوبهم غير تائبين عنها فدأبهم مجموع مافعلوا وفعل بهم لا مافعلوه فقط كما قيل قال ابن عباس رضى الله عنهما أن آل فرعون أيقنوا أن موسى عليه السلام نبي الله فكذبوه كذلك هؤلاء جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالصدق فكذبوه فانزل الله تعالى بهم عقوبته كما أنزل بآل فرعون وجعل العذاب من جملة دأبهم مع أنه ليس مما يتصور مداومتهم عليه واعتيادهم اياه كما هو المعتبر فى مدلول الدأب اما لتغليب مافعلوه على مافعل بهم أو لتنزيل مداومتهم على مايوجبه من الكفر والمعاصى منزلة مداومتهم عليه لما بينهما من الملابسة التامة وقوله تعالى (ان الله قوى شديد العقاب) اعتراض مقرر لمضمون ماقبله من الاخذ وقوله تعالى (ذلك) الخ استئناف مسوق لتعليل مايفيده النظم الكريم من كون ماحل بهم من العذاب منوطا بأعمالهم السيئة غير واقع بلاسابقة مايقتضيه وهو المشار اليه لانفس ماحل بهم من العذاب والانتقام كما قيل فانه مع كونه معللا بماذكر من كفرهم وذنوبهم لايتصور تعليله بجريان عادته تعالى على عدم تغيير نعمته على قوم قبل تغييرهم لحالهم وتوهم أن السبب ليس ماذكر كما هو منطوق النظم الكريم بل مايستفاد من مفهوم الغاية من جريان عادته تعالى على تغيير نعمتهم عند تغيير حالهم بناء على تخيل أن المعلل ترتب عقابهم على كفرهم من غير تخلف عنه ركوب شطط هائل وابعاد عن الحق بمراحل وتهوين لأمر الكفر بآيات الله واسقاط له عن رتبة إيجاب العقاب فى مقام تهويله والتحذير منه فالمعنى ذلك أى ترتب العقاب على أعمالهم السيئة دون أن يقع ابتداء مع قدرته تعالى على ذلك (بأن الله) أى بسبب أنه تعالى (لم يك) فى حدذاته (مغيرا نعمة أنعمها) أى لم ينبغ له سبحانه ولم يصح فى حكمته أن يكون بحيث يغير نعمة أنعم بها (على قوم) من الاقوام أى نعمة كانت جلت أوهانت (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من الاعمال والاحوال التى كانوا عليها وقت ملابستهم بالنعمة ويتصفوا بما ينافيها سواء كانت أحوالهم السابقة مرضية صالحة أوقريبة من الصلاح بالنسبة إلى الحادثة كدأب هؤلاء الكفرة حيث كانوا قبل البعثة كفرة عبدة أصنام مستمرين على حالة مصححة لافاضة نعمة الأمهال وسائر النعم الدنيوية عليهم فلما بعث اليهم النبي صلى الله عليه وسلم بالبينات غيروها إلى أسوأ منها وأسخط حيث كذبوه عليه الصلاة والسلام وعادوه ومن تبعه

من المؤمنين وتحزبوا عليهم يبغونهم الغوائل فغير الله تعالى ماأنعم به عليهم من نعمة الأمهال وعاجلهم بالعذاب والنكال وأصل يك يكن فحذفت النون تخفيفا لشبهها بالحروف اللينة (وان الله سميع عليم) عطف على ان الله الخ داخل معه فى حيز التعليل اى وبسبب أنه تعالى سميع عليم يسمع ويعلم جميع مايأتون ومايذرون من الاقوال والافعال السابقة واللاحقة فيرتب على كل منها مايليق بها من ابقاء النعمة وتغييرها وقرىء وان الله بكسر الهمزة فالجملة حينئذ استئناف مقرر لمضمون ماقبلها وقوله تعالى (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم) فى محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أى حتى يغيروا مابأنفسهم تغييرا كائنا كدأب آل فرعون أى كتغييرهم على أن دأبهم عبارة عما فعلوه فقط كما هو الانسب بمفهوم الدأب وقوله تعالى (كذبوا بآيات ربهم) تفسير له بتمامه وقوله تعالى (فأهلكناهم) أخبار بترتب العقوبة عليه لأنه من تمام تفسيره ولا ضير فى توسط قوله تعالى وان الله سميع عليم بينهما كما مر نظيره فى سورة آل عمران حيث جوزوا انتصاب محل الكاف بلن تغنى مع ماينهما من قوله تعالى « وأولئك هم وقود النار » وهذا على تقدير عطف الجملة على ماقبلها . وأما على تقدير كونها اعتراضا فلا غبار فى توسطها قطعا وقيل فى محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كما قبله فالجملة حينئذ استئناف آخر مسوق لتقرير ماسبق له الاستئناف الاول بتشبيه دأبهم بدأب المذكورين لكن لا بطريق التكرير المحض بل بتغيير العنوان وجعل الدأب فى الجانبين عبارة عما يلازم معناه الاول من تغيير الحال وتغيير النعمة أخذا مما نطق به قوله تعالى « ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة » الآية أى دأب هؤلاء وشأنهم الذى هو عبارة عن التغييرين المذكورين كدأب أولئك حيث غيروا حالهم فغير الله تعالى نعمته عليهم فقوله تعالى « كذبوا بآيات ربهم » تفسير لدأبهم الذى فعلوه من تغييرهم لحالهم وقوله تعالى فاهلكناهم تفسير لدأبهم الذي فعل بهم من تغييره تعالى ما بهم من نعمته وأما دأب قريش فستفاد منه بحكم التشبيه . فالله در شأن التنزيل حيث اكتفى فى كل من التشبيهين بتفسير أحد الطرفين وأضافة الآيات الى الرب المضاف الى ضميرهم لزيادة تقبيح مافعلوا بها من التكذيب والالتفات الى نون العظمة فى أهلكنا جريا على سنن الكبرياء لتهويل الخطب والكلام فى الفاء وفى قوله تعالى (بذنوبهم) كالذى مر وعطف قوله تعالى (وأغرقنا آل فرعون) على أهلكنا مع اندراجه تحته للأيذان بكمال هول الاغراق وفظاعته كعطف جبريل عليه السلام على الملائكة (وكل) أى وكل من الفرق المذكورين أوكل من هؤلاء وأولئك أوكل من غرقى القبط وقتلى

قريش (كانوا ظالمين) أي أنفسهم بالكفر والمعاصى حيث عرضوها للهلاك أو واضعين للكفر والتكذيب مكان الايمان والتصديق ولذلك أصابهم ما أصابهم (أن شر الدواب) بعد ماشرح أحوال المهلكين من شرار الكفرة شرع فى بيان أحوال الباقين منهم وتفصيل أحكامهم وقوله تعالى (عند الله) أى فى حكمه وقضائه (الذين كفروا) أى أصروا على الكفر ولجوا فيه جعلوا شر الدواب لاشر الناس ايماء الى أنهم بمعزل من مجانستهم وانما هم من جنس الدواب ومع ذلك شر من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى «ان هم الا كالأنعام بل هم أضل» وقوله تعالى (فهم لايؤمنون) حكم مترتب على تماديهم فى الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من أصل الطبع لايلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف أصلا جيء به على وجه الاعتراض لا أنه عطف على كفروا داخل معه فى حيز الصلة التى لا حكم فيها بالفعل وقوله تعالى (الذين عاهدت منهم) بدل من الموصول الاول أو عطف بيان له أو نصب على الذم أى عاهدتهم ومن للايذان بأن المعاهدة التى هى عبارة عن اعطاء العهد وأخذه من الجانبين معتبرة ههنا من حيث أخذه عليه الصلاة والسلام عهدهم اذ هو المناط لتباحة مانعى عليهم من النقض لا اعطاؤه عليه الصلاة والسلام اياهم عهده كانه قيل الذين أخذت منهم عهدهم وقيل هى للتبعيض لان المباشر بالذات للعهد بعضهم لا كلهم (ثم ينقضون عهدهم) عطف على عاهدت داخل معه فى حكم الصلة وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد النقض وتعدده وكونهم على نيته فى كل حال أي ينقضون عهدهم الذى أخذته منهم (فى كل مرة) أى من مرات المعاهدة اذ هى التى يتوقع فيها عدم النقض ويستقبح وجوده لامن مرات المحاربة كما قيل اذ لايتوقع فيها عدم النقض بل لايتصور أصلا حتى يستقبح فيها وجوده لكونها مظنة لعدمه فلا فائدة فى تقييد النقض بالوقوع فى كل مرة من مراتها بل لاصحة له قطعا لان النقض لايتحقق الا فى المرة الواردة على المعاهدة لافى المرات الواقعة بعدها بلا معاهدة ولئن سلم أن المراد هى المرات الواقعة أثر المعاهدة يبقى النقض الواقع بلا محاربة كبيع السلاح ونحوه خارجا من البيان ولئن عد ذلك من المحاربة فلا محيص من لزوم خلو الكلام عن الفائدة بالمرة لان المحاربة بهذا المعنى عين النقض فيؤول الامر الى أن يقال ينقضون عهدهم فى كل مرة من مرات النقض وحمل المحاربة على محاربة غيرهم ليكون المعنى ينقضون عهدهم فى كل مرة من مرات محاربة الاعداء مع كونه فى غاية البعد والركاكة يستلزم خروج بدئهم بالنقض من البيان (وهم لا يتقون) حال من فاعل ينقضون أى يستمرون على

النقض والحال أنهم لايتقون سبة الغدر ولا يبالون بمافيه من العار والنار وقوله تعالى (فأما تثقفنهم) شروع فى بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها أى فاذا كان حالهم كما ذكر فاما تصادفنهم وتظفرن بهم (فى الحرب) أى فى تضاعيفها (فشرد بهم) أى ففرق عن مناصبتك تفريقا عنيفا موجبا للاضطرار والاضطراب ونكل عنها بان تفعل بهم من النكاية والتعذيب مايوجب أن تنكل (من خلفهم) أى من وراءهم من الكفرة وفيه ايماء الى أنهم بصدد الحرب قريب من هؤلاء وقرىء شرذ بالذال المعجمة ولعله مقلوب شذر بمعنى فرق وقرىء من خلفهم أى افعل التشريد من ورائهم والمعنى واحد لان ايقاع التشريد فى الوراء لايتحقق الا بتشريد من وراءهم (لعلهم يذكرون) يتعظون بما شاهدوا مما نزل بالناقضين فيرتدعوا عن النقض أوعن الكفر وقوله تعالى (واما تخافن من قوم خيانة) بيان لأحكام المشرفين الى نقض العهد اثر بيان أحكام الناقضين له بالفعل والخوف مستعار للعلم أى وأما تعلمن من قوم من المعاهدين نقض عهد فيما سيأتى بما لاح لك منهم من دلائل الغدر ومخايل الشر (فانبذ أليهم) أى فاطرح اليهم عهدهم (على سواء) على طريق مستوقصد بأن تظهر لهم النقض وتخبرهم اخبارا مكشوفا بأنك قدقطعت مابينك وبينهم من الوصلة ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد كى لا يكون من قبلك شائبة خيانة أصلا فالجار متعلق بمحذوف هو حال من النابذ أي فانبذ اليهم ثابتا على سواء وقيل على استواء فى العلم بنقض العهد بحيث يستوى فيه أقصاهم وأدناهم أو تستوى فيه أنت وهم فهو على الأول حال من المنبوذ اليهم وعلى الثانى من الجانبين (ان الله لايحب الخائنين) تعليل للامر بالنبذ اما باعتبار استلزامه النهى عن المنابذة التى هى خيانة فيكون تحذيرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم منها واما باعتبار استتباعه للقتال بالآخرة فيكون حثا له عليه الصلاة والسلام على النبذ أولا وعلى قتالهم ثانيا كانه قيل واما تعلمن من قوم خيانة فانبذ اليهم ثم قاتلهم ان الله لا يحب الخائنين وهم من جملتهم لما علمت من حالهم (ولا يحسبن الذين كفروا) أى أنفسهم فحذف للتكرار وقوله تعالى (سبقوا) أى فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم مفعول ثان ليحسبن والمراد اقناطهم من الخلاص وقطع أطماعهم الفارغة من الانتفاع بالنبذ والاقتصار على دفع هذا التوهم مع أن مقاومة المؤمنين بل الغلبة عليهم أيضا مما تتعلق به أمانيهم الباطلة للتنبيه على أن ذلك مما لا يحوم حوله وهمهم وحسبانهم وانما الذى يمكن أن يدور فى خلدهم حسبان المناص فقط . وقيل الفعل مسند الى أحد أو الى من خلفهم والمفعول

الاول الموصول المتناول لهم أيضا وقيل هو الفاعل وأن محذوفة من سبقوا وهى مع مافى حيزها سادة مسد المفعولين والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا ان سبقوا ويعضده قراءة من قرأ أنهم سبقوا ونظيره فى الحذف قوله تعالى « ومن اياته يريكم البرق خوفا » وقوله تعالى « أغير الله تأمرونى أعبد » الآية قاله الزجاج وقرىء بالتاء على خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى قراءة واضحة . وقرىء ولا تحسب الذين بكسر الباء وبفتحها على حذف النون الخفيفة وقوله تعالى (انهم لايعجزون) أى لايفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن أدراكهم تعليل للنهى على طريقة الاستئناف وقرىء بفتح الهمزة على حذف لام التعليل وقيل الفعل واقع عليه ولا زائدة وسبقوا حال بمعنى سابقين أى مفلتين هاربين وهذا على قراءة الخطاب لازاحة ماعسى يحذر من عاقبة النبذ لما انه أيقاظ للعدو وتمكين لهم من الهرب والخلاص من أيدى المؤمنين وفيه نفى لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على أبلغ وجه وآكده كما أشير اليه. وقيل نزلت فيمن أفلت من فل المشركين وقرىء لايعجزون بكسر النون ولا يعجزون بالتشديد (وأعدوا لهم) توجيه الخطاب الى كافة المؤمنين لما أن المأمور به من وظائف الكل كما أن توجيهه فيما سبق وما لحق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكون مافى حيزه من وظائفه عليه الصلاة والسلام أى أعدوا لقتال الذين نبذ اليهم العهد وهيئوا لحرابهم أو لقتال الكفار على الاطلاق وهو الانسب بسياق النظم الكريم (ماستطعتم من قوة) من كل مايتقوى به فى الحرب كائنا ما كان وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر الا أن القوة الرمى قالها ثلاثا ولعل تخصيصه عليه الصلاة والسلام اياه بالذكر لأنافته عن نظائره من القوي (ومن رباط الخيل) الرباط اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله تعالى فعال بمعنى مفعول أو مصدر سميت هى به يقال ربط ربطا ورباطا ورابط مرابطة ورباطا أو جمع ربيط كفصيل وفصال أو جمع ربط ككعب وكعاب وكلب وكلاب وقرىء ربط الخيل بضم الباء وسكونها جمع رباط وعطفها على القوة مع كونها من جملتها للايذان بفضلها على بقية أفرادها كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة (ترهبون به) أى تخوفون وقرىء ترهبون بالتشديد . وقرىء تخزون به والضمير لما استطعتم أو للأعداد وهو الأنسب ومحل الجملة النصب على الحالية من فاعل أعدوا أى أعدوا مرهبين به أو من الموصول أو من عائده المحذوف أى أعدوا ما استطعتموه مرهبا به (عدو الله وعدوكم) وهم كفار مكة خصوا بذلك من بين الكفار مع كون الكل كذلك لغاية عتوهم ومجاوزتهم الحد فى العداوة (وأخرين من دونهم) من غيرهم

من الكفرة وقيل اليهود وقيل المنافقون وقيل الفرس (لا تعلمونهم) أى لا تعرفونهم بأعيانهم أو لا تعلمونهم كما هم عليه من العداوة و هو الأنسب بقوله تعالى (الله يعلمهم) أى لاغيره فان أعيانهم معلومة لغيره تعالى ايضاً (و ما تنفقوا من شىء) لاعداد العتاد قل أو جل (فى سبيل الله) الذى أوضحه الجهاد (يوف اليكم) أى جزاؤه كاملا (و أنتم لا تظلمون) بترك الاثابة أو بنقص الثواب و التعبير عن تركها بالظلم مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلما لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك بتصويره بصورة مايستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح و إبراز الاثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه تعالى كما مر فى تفسير قوله تعالى « فاستجاب لهم ربهم انى لا أضيع عمل عامل منكم » (وأن جنحوا) الجنوح الميل ومنه الجناح و يعدى باللام وبالى أى ان مالوا (للسلم) أى للصلح بوقوع الرهبة فى قلوبهم بمشاهدة مابكم من الاستعداد وأعتاد العتاد (فاجنح لها) أى للسلم والتأنيث لحمله على نقيضه قال :

السلم تأخذ منها ما رضيت به .. والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وقرىء فاجنح بضم النون (و توكل على الله) ولا تخف أن يظهروا لك السلم و جوانحهم مطوية على المكر والكيد (انه) تعالى (هو السميع) فيسمع مايقولون فى خلواتهم من مقالات الخداع (العليم) فيعلم نياتهم فيؤاخذهم بما يستحقونه و يرد كيدهم فى نحرهم والآية خاصة باليهود وقيل عامة نسختها آية السيف (وان يريدوا أن يخدعوك) بأظهار السلم و ابطال الحراب (فان حسبك الله) أى فاعلم بأن محسبك الله من شرورهم وناصرك عليهم (هو الذى أيدك بنصره) تعليل لكفايته تعالى اياه عليه الصلاة والسلام بطريق الاستئناف فان تأييده تعالى اياه عليه الصلاة والسلام فيما سلف على ماذكر من الوجه البعيد من الوقوع من دلائل تأييده تعالى فيما سيأتى أي هو الذى أيدك بأمداد من عنده بلا واسطة كقوله تعالى «وما النصر الا من عند الله» أو بالملائكة مع خرقه للعادات (وبالمؤمنين) من المهاجرين و الانصار (وألف بين قلوبهم) مع ما كان بينهم قبل ذلك من العصبية والضغينة والتهالك على الانتقام بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان حتى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة وهذا من أبهر معجزاته عليه الصلاة والسلام (لو أنفقت ما فى الارض جميعا) أى لتأليف مابينهم (ما ألفت بين قلوبهم) استئناف مقرر لما قبله ومبين لعزة المطلب وصعوبة المأخذ أى تناهى التعادى فيما بينهم الى حد لو أنفق منفق فى اصلاح ذات البين جميع مافى الارض من الاموال و الذخائر لم يقدر على التأليف و الاصلاح وذكر القلوب للاشعار بأن

التأليف بينهما لايتسنى وان أمكن التأليف ظاهرا (ولكن الله ألف بينهم) قلبا وقالبا بقدرته الباهرة (انه عزيز) كامل القدرة والغلبة لايستعصى عليه شيء مما يريده (حكيم) يعلم كيفية تسخير مايريده وقيل الآية فى الاوس والخزرج كان بينهم أحن لا أمد لها ووقائع أفنت ساداتهم وأعاظمهم ودقت أعناقهم وجماجمهم فأنسى الله عزوجل جميع ذلك وألف بينهم بالاسلام حتى تصافوا وأصبحوا يرمون عن قوس واحدة وصاروا أنصارا (يا أيها النبى) شروع فى بيان كفايته تعالى اياه عليه الصلاة والسلام فى جميع أموره وأمور المؤمنين أو فى الأمور الواقعة بينهم وبين الكفرة كافة أثر بيان كفايته تعالى اياه عليه الصلاة والسلام فى مادة خاصة وتصدير الجملة بحرفى النداء والتنبيه للتنبيه على مزيد الاعتناء بمضمونها وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان النبوة للاشعار بعليتها للحكم (حسبك الله) أى كافيك فى جميع أمورك أو فيما بينك وبين الكفرة من الحراب (ومن اتبعك من المؤمنين) فى محل النصب على أنه مفعول معه أى كفاك وكفى أتباعك الله ناصرا كما فى قول من قال . فحسبك والضحاك سيف مهند . وقيل فى موضع الجر عطفا على الضمير كما هو رأى الكوفيين أى كافيك وكافيهم أو فى محل الرفع عطفا على اسم الله تعالى أى كفاك الله والمؤمنون والآية نزلت فى البيداء فى غزوة بدر قبل القتال وقيل أسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر رضى الله عنه فنزلت ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى إسلام عمر رضى الله عنه (يا أيها النبى) بعد مابين كفايته اياهم بالنصر والامداد أمر عليه الصلاة والسلام بترتيب مبادي نصره وأمداده وتكرير الخطاب على الوجه المذكور لاظهار كمال الاعتناء بشأن المأمور به (حرض المؤمنين على القتال) أي بالغ فى حثهم عليه وترغيبهم فيه بكل ما أمكن من الأمور المرغبة التى أعظمها تذكير وعده تعالى بالنصر وحكمه بكفايته تعالى أو بكفايتهم وأصل التحريض الحرض وهو أن ينهكه المرض حتى يشرف على الموت وقال الراغب كأنه فى الاصل ازالة الحرض وهو ما لا خير فيه ولا يعتد به قلت فلا وجه حينئذ أن يجعل الحرض عبارة عن ضعف القلب الذى هو من باب نهك المرض وقيل معنى تحريضهم تسميتهم حرضا بأن يقال انى أراك فى هذا الامر حرضا أى محرضا فيه لتهييجه الى الاقدام وقريء حرص بالصاد المهملة وهو واضح (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) وعد كريم منه تعالى بتغليب كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم بطريق الاستئناف بعد الامر بتحريضهم وقوله تعالى (وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا) مع انفهام مضمونه مما

قبله لكون كل منهما عدة بتأييد الواحد على العشرة لزيادة التقرير المفيدة لزيادة الاطمئنان على أنه قد يجري بين الجمعين القليلين مالا يجرى بين الجمعين الكثيرين مع أن التفاوت فيما بين كل من الجمعين القليلين والكثيرين على نسبة واحدة فبين أن ذلك لا يتفاوت فى الصورتين وقوله تعالى (من الذين كفروا) بيان للألف وهذا القيد معتبر فى المائتين أيضا وقد ترك ذكره تعويلا على ذكره ههنا كما ترك قيد الصبر ههنا مع كونه معتبرا حتما ثقة بذكره هناك (بأنهم قوم لا يفقهون) متعلق بيغلبوا أى بسبب أنهم قوم جهلة بالله تعالى و باليوم الآخر لا يقاتلون احتسابا وامتثالا بأمر الله تعالى واعلاء لكلمته وابتغاء لرضوانه كما يفعله المؤمنون وانما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع خطوات الشيطان واثارة ثائرة البغى والعدوان فلا يستحقون الا القهر والخذلان وأما ماقيل من أن من لا يؤمن بالله واليوم الآخر لا يؤمن بالميعاد فالسعادة عنده ليست الا هذه الحياة الدنيوية فيشح بها ولا يعرضها للزوال بمزاولة الحراب واقتحام موارد الخطوب فيميل الى مافيه السلامة فيفر فيغلب . وأما من اعتقد أن لا سعادة فى هذه الحياة الفانية وانما السعادة هى الحياة الباقية فلا يبالى بهذه الحياة الدنيا ولا يقيم لها وزنا فيقدم على الجهاد بقلب قوى وعزم صحيح فيقوم الواحد من مثله مقام الكثير فكلام حق لكنه لا يلائم المقام (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) لما كان الوعد السابق متضمنا لايجاب مقاومة الواحد للعشرة وثباته لهم كما نقل عن ابن جريج أنه كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد للعشرة وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة فى ثلاثين راكبا فلقى أبا جهل فى ثلاثمائة راكب فهزمهم . ثقل عليهم ذلك وضجوا منه بعد مدة فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد للاثنين. وقيل كان فيهم قلة فى الاقتداء ثم لما كثروا أنزل التخفيف والمراد بالضعف ضعف البدن وقيل ضعف البصيرة وكانوا متفاوتين فى الاهتداء الى القتال لا الضعف فى الدين كما قيل وقرىء ضعفا بضم الضاد وهى لغة فيه كالفقر والفقر و المكث والمكث وقيل الضعف بالفتح ما فى الرأى والعقل وبالضم مافى البدن وقرئ ضعفاء جمع ضعيف والمراد بعلمه تعالى بضعفهم علمه تعالى به من حيث هو متحقق بالفعل لا علمه تعالى به مطلقا كيف لا وهو ثابت فى الأزل وقوله تعالى (فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) تفسير للتخفيف وبيان لكيفيته وقرىء تكن ههنا وفيما سبق بالتاء الفوقانية (وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله) أى بتيسيره وتسهيله وهذا القيد معتبر فيما سبق من غلبة المائة المائتين و الألف وغلبة العشرين المائتين كما أن قيد الصبر معتبر ههنا وانما ترك ذكره ثقة بما مر

وبقوله تعالى (والله مع الصابرين) فانه اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ماقبله والمراد بالمعية معية نصره وتأييده ولم يتعرض ههنا لحال الكفرة من الخذلان كما لم يتعرض هناك لحال المؤمنين مع أن مدار الغلبة في الصورتين مجموع الأمرين أعني نصر المؤمنين وخذلان الكفرة اكتفاء بما ذكر في كل مقام عما ترك في المقام الآخر وما تشعر به كلمة مع من متبوعية مدخولها لاصالتهم من حيث أنهم المباشرون للصبر كما مر مرارا (ما كان لنبي) وقرئ للنبي على العهد والأول أبلغ لما فيه من بيان أن ما يذكر سنة مطردة فيما بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أي ماصح وما استقام لنبي من الانبياء عليهم السلام (أن يكون له أسرى) وقرىء بتأنيث الفعل وأساري أيضا (حتى يثخن في الارض) أي يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفرة ويقل حزبه ويعز الاسلام ويستولي أهله من أثخنه المرض والجرح إذا أثقله وجعله بحيث لاحراك به ولا براح وأصله الثخانة التي هي الغلظ والكثافة وقرىء بالتشديد للمبالغة (تريدون عرض الدنيا) استئناف مسوق للعتاب أي تريدون حطامها بأخذكم الفداء وقرىء يريدون بالياء (والله يريد الآخرة) أي يريد لكم ثواب الآخرة الذي لا مقدار عنده للدنيا ومافيها أو يريد سبب نيل الآخرة من أعزاز دينه وقمع أعدائه وقرىء بجر الآخرة على إضمار المضاف كما في قوله:

أكل امرىء تحسبين امرأ . ونار توقد بالليل نارا

(والله عزيز) يغلب أولياءه على أعدائه (حكيم) يعلم مايليق بكل حال ويخصصها كما أمر بالاثخان ونهى عن أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين وخير بينه وبين المن بقوله تعالى فاما منا بعد وأما فداء لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بسبعين أسيرا فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب فاستشار فيهم فقال أبو بكر قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك . وقال عمر اضرب أعناقهم فانهم أئمة الكفر والله أغناك عن الفداء . مكن عليا من عقيل وحمزة من العباس ومكني من فلان نسيب له فلنضرب أعناقهم فقال عليه الصلاة والسلام «ان الله لايلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن . وان الله لايشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة . وان مثلك ياأبا بكر مثل ابراهيم قال «فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم» ومثلك ياعمر مثل نوح قال رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا» فخير أصحابه فاخذوا الفداء فنزلت فدخل عمر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو وأبو بكر يبكيان فقال يارسول الله أخبرني فان وجدت بكاء بكيت والا تباكيت فقال «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء

ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة » لشجرة قريبة منه وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال «لو نزل عذاب من السماء لما نجا غير عمر وسعد بن معاذ» وكان هو أيضا ممن أشار بالاثخان (لولا كتاب من الله سبق) أى لولا حكم منه تعالى سبق اثباته فى اللوح المحفوظ وهو أن لا يعاقب المخطىء فى اجتهاده أو أن لا يعذب أهل بدر أو قوما لم يصرح لهم بالنهى وأما أن الفدية التى أخذوها ستحل لهم فلا يصلح أن يعد من موانع مساس العذاب فان الحل اللاحق لا يرفع حكم الحرمة السابقة كما أن الحرمة اللاحقة كما فى الخمر مثلا لا ترفع حكم الاباحة السابقة على انه قادح فى تهويل ما نعى عليهم من أخذ الفداء (لمسكم) أى لأصابكم (فيما أخذتم) أى لأجل ما أخذتم من الفداء (عذاب عظيم) لا يقادر قدره (فكلوا مما غنمتم) روى أنهم أمسكوا عن الغنائم فنزلت قالوا الفاء لترتيب ما بعدها على سبب محذوف أى قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم والاظهر أنها للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى دعوه فكلوا مما غنمتم وقيل ما عبارة عن الفدية فانها من جملة الغنائم ويأباه سياق النظم الكريم وسياقه (حلالا) حال من المغنوم أو صفة للمصدر أى أكلا حلالا وفائدته الترغيب فى أكلها وقوله تعالى (طيبا) صفة لحلالا مفيدة لتأكيد الترغيب (واتقوا الله) أى فى مخالفة أمره ونهيه (ان الله غفور رحيم) فيغفر لكم ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل ورود الأذن فيه ويرحمكم ويتوب عليكم اذا اتقيتموه (يأيها النبى قل لمن فى أيديكم) أى فى ملكتكم كأن أيديكم قابضة عليهم (من الأسرى) وقرىء من الاسارى (ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا) خلوص ايمان وصحة نية (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) من الفداء وقرىء أخذ على البناء للفاعل . روى أنها نزلت فى العباس كلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفدى ابنى أخيه عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث فقال يا محمد تركتنى أتكفف قريشا ما بقيت فقال له عليه الصلاة والسلام « فأين الذهب الذى دفعته الى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها ما أدرى ما يصيبنى فى وجهى هذا فان حدث بى حدث فهولك ولعبد الله وعبيد الله والفضل فقال العباس ما يدريك فقال أخبرنى به ربى » قال العباس فأنا أشهد أنك صادق وأن لا اله الا الله وانك عبده ورسوله والله لم يطلع عليه أحد الا الله ولقد دفعته اليها فى سواد الليل ولقد كنت مرتابا فى أمرك فاما اذا أخبرتنى بذلك فلا ريب قال العباس بعد حين فأبدلنى الله خيرا من ذلك لى الآن عشرون عبدا وان أدناهم ليضرب فى عشرين ألفا وأعطانى زمزم ما أحب أن لى بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربى يتأول به ما فى قوله تعالى (ويغفر لكم والله غفور رحيم) فانه وعد بالمغفرة مؤكد بما بعده من الاعتراض التذييلى (وان يريدوا خيانتك) أى نكث ما بايعوك

عليه من الاسلام وهذا كلام مسوق من جهته تعالى لتسليته عليه الصلاة والسلام بطريق الوعد له والوعيد لهم (فقد خانوا الله من قبل) بكفرهم ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه (فأمكن منهم) أى أقدرك عليهم حسبما رأيت يوم بدر فان أعادوا الخيانة فاعلم انه سيمكنك منهم أيضا وقيل المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الفداء وهو بعيد (والله عليم) فيعلم ما فى نياتهم وما يستحقونه من العقاب (حكيم) يفعل كل ما يفعله حسبما تقتضيه حكمته البالغة (ان الذين آمنوا وهاجروا) هم المهاجرون هاجروا أوطانهم حبا لله تعالى ولرسوله (وجاهدوا بأموالهم) بأن صرفوها الى الكراع والسلاح وأنفقوها على المحاويج (وأنفسهم) بمباشرة القتال واقتحام المعارك والخوض فى المهالك (فى سبيل الله) متعلق بجاهدوا قيد لنوعى الجهاد ولعل تقديم الاموال على الانفس لما أن المجاهدة بالاموال أكثر وقوعا وأتم دفعا للحاجة حيث لا يتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال (والذين آووا ونصروا) هم الانصار آووا المهاجرين وأنزلوهم منازلهم وبذلوا اليهم أموالهم وآثروهم على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ونصروهم على أعدائهم (أولئك) اشارة الى الموصوفين بما ذكر من النعوت الفاضلة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضيلة وهو مبتدأ وقوله تعالى (بعضهم) اما بدل منه وقوله تعالى (أولياء بعض) خبره واما مبتدأ ثان وأولياء بعض خبره والجملة خبر للمبتدا الاول أى بعضهم أولياء بعض فى الميراث وقد كان المهاجرون والانصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الاقارب حتى نسخ بقوله تعالى «وأولو الارحام» الآية وقيل فى النصرة والمظاهرة ويرده قوله تعالى فعليكم النصر بعد نفى موالاتهم (والذين آمنوا ولم يهاجروا) كسائر المؤمنين (ما لكم من ولايتهم من شىء) أى من توليهم فى الميراث وان كانوا من أقرب أقاربكم (حتى يهاجروا) وقرىء بكسر الواو تشبيها بالعمل والصناعة كالكتابة والامارة (وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر) فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين (الا على قوم) منهم (بينكم وبينهم ميثاق) معاهدة فانه لا يجوز نقض عهدهم بنصرهم عليهم (والله بما تعملون بصير) فلا تخالفوا أمره كى لا يحل بكم عقابه (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) آخر منهم أي فى الميراث أو فى الموازرة وهذا بمفهومه مفيد لنفى الموارثة والموازرة بينهم وبين المسلمين وايجاب المباعدة والمصارمة وان كانوا أقارب (الا تفعلوه) أى ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم بعضا حتى التوارث ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار (تكن فتنة فى الأرض) أى تحصل فتنة عظيمة فيها هى ضعف الايمان وظهور الكفر (وفساد

كبير) فى الدارين وقرىء كثير (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) كلام مسوق للثناء عليهم والشهادة لهم بفوزهم بالقدح المعلى من الايمان مع الوعد الكريم بقوله تعالى (لهم مغفرة ورزق كريم) لاتبعة له ولامنة فيه فلا تكرار لما أن مساق الاول لايجاب التواصل بينهم (والذين آمنوا من بعد وهاجروا) بعد هجرتكم (وجاهدوا معكم) فى بعض مغازيكم (فأولئك منكم) أي من جملتكم أيها المهاجرون والانصار وهم الذين جاءوا من بعدهم يقولون « ربنا اغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا بالايمان » ألحقهم الله تعالى بالسابقين وجعلهم منهم تفضلا منه وترغيبا فى الايمان والهجرة وفى توجيه الخطاب اليهم بطريق الالتفات من تشريفهم ورفع محلهم مالا يخفى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) آخر منهم فى التوارث من الاجانب (فى كتاب الله) أى فى حكمه أو فى اللوح أو فى القرآن واستدل به على توريث ذوى الارحام (ان الله بكل شيء عليم) ومن جملته مافى تعليق التوارث بالقرابة الدينية أولا وبالقرابة النسبية آخرا من الحكم البالغة عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الانفال وبراءة فأنا شفيع له يوم القيامة وشاهد أنه برىء من النفاق واعطي عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته والله تعالى أعلم

﴿ سورة براءة مدنية وهى مائة وثلاثون آية ﴾

ولها أسماء أخر سورة التوبة والمقشقشة والبحوث والمنقرة والمبعثرة والمثيرة والحافرة والمخزية والفاضحة والمنكلة والمشردة والمدمدمة وسورة العذاب لمافيها من ذكر التوبة ومن التبرئة من النفاق والبحث والتنقير عن حال المنافقين واثارتها والحفر عنها وما يخزيهم ويشردهم ويدمدم عليهم واشتهارها بهذه الاسماء يقضى بأنها سورة مستقلة وليست بعضا من سورة الأنفال وادعاء اختصاص الاشتهار بالقائلين باستقلالها خلاف الظاهر فيكون حكمة ترك التسمية عند النزول نزولها فى رفع الأمان الذى يأبى مقامه التصدير بما يشعر ببقائه من ذكر اسمه تعالى مشفوعا بوصف الرحمة كما روى عن ابن عيينة رضى الله عنه لا الاشتباه فى استقلالها وعدمه كما يحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما ولا رعاية ماوقع بين الصحابة رضى الله عنهم من الاختلاف فى ذلك على أن ذلك ينزع الى القول بأن التسمية ليست من القرآن وانما كتبت للفصل بين السور كما نقل عن قدماء الحنفية وأن مناط اثباتها فى المصاحف وتركها انما هو رأي من تصدى لجمع القرآن دون التوقيف ولاريب فى أن الصحيح من المذهب أنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك

بها وأن لا مدخل لرأى أحد فى الاثبات والترك وانما المتبع فى ذلك هو الوحى والتوقيف ولا مرية فى عدم نزولها ههنا والا لامتنع أن يقع فى الاستقلال اشتباه أو اختلاف فهو اما لاتحاد السورتين أو لما ذكرنا لا سبيل الى الاول والا لبينه عليه الصلاة والسلام لتحقق مزيد الحاجة الى البيان لتعاضد أدلة الاستقلال من كثرة الآيات وطول المدة فيما بين نزولها فحيث لم يبينه عليه الصلاة والسلام تعين الثانى لان عدم البيان من الشارع فى موضع البيان بيان للعدم (براءة) خبر مبتدأ محذوف وتنوينه للتفخيم وقرىء بالنصب أى اسمعوا براءة ومن فى قوله تعالى (من الله ورسوله) ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع صفة لها ليفيدها زيادة تفخيم وتهويل أى هذه براءة مبتدأة من جهة الله تعالى ورسوله واصلة (الى الذين عاهدتم من المشركين) وانما لم يذكر ما تعلق به البراءة حسبما ذكر فى قوله تعالى « إن الله برىء من المشركين » اكتفاء بما فى حيز الصلة فانه منبىء عنه انباء ظاهرا واحترازاً عن تكرير لفظة من وقيل هى مبتدأ لتخصصها بالصفة وخبره الى الذين الخ والذى تقتضيه جزالة النظم هو الاول لان هذه البراءة أمر حادث لم يعهد عند المخاطبين ذاتها ولا عنوان ابتدائها من الله تعالى ورسوله حتى يخرج ذلك العنوان مخرج الصفة لها ويجعل المقصود بالذات والعمدة فى الاخبار شيئا آخر هو وصولها الى المعاهدين وانما الحقيق بأن يعتنى بأفادته حدوث تلك البراءة من جهته تعالى ووصولها اليهم فان حق الصفات قبل علم المخاطب بثبوتها لموصوفاتها أن تكون أخباراً وحق الأخبار بعد العلم بثبوتها لما هي له أن تكون صفات كما حقق فى موضعه وقرىء من الله بكسر النون على أن الأصل فى تحريك الساكن الكسر ولكن الوجه هو الفتح فى لام التعريف خاصة لكثرة الوقوع والعهد العقد الموثق باليمين والخطاب فى عاهدتم للمسلمين وقد كانوا عاهدوا مشركى العرب من أهل مكة وغيرهم باذن الله تعالى واتفاق الرسول صلى الله عليه وسلم فنكثوا الا بنى ضمرة وبنى كنانة فأمر المسلمون بنبذ العهد الى الناكثين وأمهلوا أربعة أشهر ليسيروا أين شاءوا وانما نسبت البراءة الى الله ورسوله مع شمولها للمسلمين واشتراكهم فى حكمها ووجوب العمل بموجبها. وعلقت المعاهدة بالمسلمين خاصة مع كونها بأذن الله تعالى واتفاق الرسول صلى الله عليه وسلم للانباء عن تنجزها وتحتمهما من غير توقف على رأى المخاطبين لانها عبارة عن انهاء حكم الأمان ورفع الخطر المترتب على العهد السابق عن التعرض للكفرة وذلك منوط بجناب الله عز وجل لانه أمر كسائر الاوامر الجارية على حسب حكمة تقتضيها وداعية تستدعيها تترتب عليها آثارها من غير توقف على شيء أصلا واشتراك المسلمين فى حكمها ووجوب

العمل بموجبها انما هو على طريقة الامتثال بالامر لا على أن يكون لهم مدخل فى اتمامها أو فى ترتب احكامها عليها واما المعاهدة فحيث كانت عقدا كسائر العقود الشرعية لا تتحصل فى نفسها ولا تترتب عليها أحكامها إلا بمباشرة المتعاقدين على وجوه مخصوصة اعتبرها الشرع لم يتصور صدورها عنه سبحانه ، انما الصادر عنه وفى شأنها هو الاذن فيها وانما الذى يباشرها ويتولى أمرها المسلمون ولا يخفى ان البراءة انما تتعلق بالعهد لا بالاذن فيه فنسبت كل واحدة منهما الى من هو اصل فيها على أن فى ذلك تفخيما لشأن البراءة وتهويلا لامرها وتسجيلا على الكفرة بغاية الذل والهوان ونهاية الخزى والخزلان وتنزيها لساحة السبحان والكبرياء عما يوهم شائبة النقص والبداء تعالى عن ذلك علوا كبيرا وأدراجه عليه الصلاة والسلام فى النسبة الاولى واخراجه عن الثانية لتنويه شأنه الرفيع واجلال قدره المنيع فى كلا المقامين صلى الله عليه وسلم. وايثار الجملة الاسمية على الفعلية كان يقال قد برىء الله ورسوله من الذين أو نحو ذلك للدلالة على دوامها واستمرارها وللتوسل الى تهويلها بالتنوين التفخيمي كما أشير اليه (فسيحوا) السياحة والسيح الذهاب فى الارض والسير فيها بسهولة على مقتضى المشيئة كسيح الماء على موجب الطبيعة ففيه من الدلالة على كمال التوسعة والترفيه ماليس فى سيروا ونظائره وزيادة قوله عز وجل (فى الأرض) القصد التعميم لاقطارها من دار الاسلام وغيرها والمراد أباحة ذلك لهم وتخليتهم وشأنهم من الاستعداد للحرب او تحصين الاهل والمال وتحصيل المهرب او غير ذلك لا تكليفهم بالسياحة فيها . وتلوين الخطاب بصرفه عن المسلمين وتوجيهه اليهم مع حصول المقصود بصيغة امر الغائب ايضا للمبالغة فى الاعلام بالامهال حسما لمادة تعللهم بالغفلة وقطعا لشأفة اعتذارهم بعدم الاستعداد . وايثار صيغة الامر مع تسنى إفادة ذلك المعنى بطريق الاخبار ايضا كأن يقال مثلا فلكم ان تسيحوا أو نحو ذلك لاظهار كمال القوة والغلبة وعدم الاكتراث لهم ولاستعدادهم فكأن ذلك أمر مطلوب منهم والفاء لترتيب الأمر بالسياحة وما يعقبه على ما تؤذن به البراءة المذكورة من الحراب على أن الاول مترتب على نفسه والثانى بكلا متعلقيه على عنوان كونه من الله العزيز لا لترتيب الأول عليه والثانى على الأول كما فى قوله تعالى «قل سيروا فى الأرض فانظروا » الخ كأنه قيل هذه براءة موجبة لقتالكم فاسعوا فى تحصيل العدد والأسباب وبالغوا فى إعتاد العتاد من كل باب (أربعة أشهر واعلموا أنكم) بسياحتكم فى أقطار الارض فى العرض والطول وإن ركبتم متن كل صعب وذلول (غير معجزى الله) أي لا تفوتونه بالهرب والتحصن (وأن الله) وضع الاسم

الجليل موضع المضمر لتربية المهابة وتهويل أمر الاخزاء وهو الاذلال بما فيه فضيحة وعار (مخزي الكافرين) أي مخزيكم ومذلكم في الدنيا بالقتل والأسر وفي الآخرة بالعذاب وإيثار الاظهار على الاضمار لذمهم بالكفر بعد وصفهم بالاشراك وللاشعار بأن علة الاخزاء هي كفرهم ويجوز أن يكون المراد جنس الكافرين فيدخل فيه المخاطبون دخولا أوليا والمراد بالأشهر الأربعة هي الأشهر الحرم التي علق القتال بانسلاخها فقيل هي شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وقيل عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من شهر ربيع الآخر وجعلت حرماً لحرمة قتالهم فيها أو لتغليب ذي الحجة والمحرم على البقية وقيل من عشر ذي القعدة إلى عشر من شهر ربيع الأول لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنسيء الذي كان فيهم ثم صار في العام القابل في ذي الحجة وذلك قوله عليه الصلاة والسلام «ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» روى أنه عليه الصلاة والسلام أمر أبا بكر رضي الله تعالى عنه على موسم سنة تسع ثم أتبعه عليا رضي الله عنه على العضباء ليقرأها على أهل الموسم فقيل له عليه الصلاة والسلام لو بعث بها إلى أبي بكر فقال صلى الله علية وسلم «لا يؤدي عني إلا رجل مني» وذلك لأن عادة العرب أن لا يتولى أمر العهد والنقض على القبيلة إلا رجل منها فلما دنا علي سمع أبو بكر الرغاء فوقف فقال هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لحقه قال أمير أو مأمور قال مأمور فمضيا فلما كان قبل يوم التروية خطب أبو بكر رضي الله عنه وحدثهم عن مناسكهم وقام علي رضي الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال يا أيها الناس أني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكم فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال: أمرت بأربع أن لا يقرب البيت بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده (وأذان من الله ورسوله) أي اعلام منهما فعال بمعنى الأفعال كالعطاء بمعنى الاعطاء ورفعه كرفع براءة والجملة معطوفة على مثلها وإنما قيل (إلى الناس) أي كافة لأن الأذان غير مختص بقوم دون آخرين كالبراءة الخاصة بالناكثين بل هو شامل لعامة الكفرة وللمؤمنين أيضا (يوم الحج الأكبر) هو يوم العيد لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله ولأن الأعلام كان فيه ولما روى أنه عليه الصلاة والسلام وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال هذا يوم الحج الاكبر وقيل يوم عرفة لقوله عليه الصلاة والسلام الحج عرفة ووصف الحج بالاكبر لان العمرة تسمى الحج الاصغر

أو لان المراد بالحج مايقع فى ذلك اليوم من أعماله فانه أ كبر من باقى الاعمال أو لان ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون أو لانه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين (ان الله) أى بان الله وقرئ بالكسر لما أن الأذان فيه معنى القول (برئ من المشركين) أى المعاهدين الناكثين (ورسوله) عطف على المستكن فى برىء أو على محل ان واسمها على قراءة الكسر وقرئ بالنصب عطفا على اسم ان أو لان الواو بمعنى مع أى برىء معه منهم و بالجر على الجوار وقيل على القسم (فأن تبتم) من الشرك والغدر التفات من الغيبة الى الخطاب لزيادة التهديد والتشديد والفاء لترتيب مقدم الشرطية على الاذان بالبراءة المذيلة بالوعيد الشديد المؤذن بلين عريكتهم وانكسار شدة شكيمتهم (فهو) أى فالتوب (خير لكم) فى الدارين (وان توليتم) عن التوبة أو ثبتم على التولى عن الاسلام والوفاء (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) غير سابقين ولا فائتين (وبشر الذين كفروا) تلوين للخطاب وصرف له عنهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لان البشارة (بعذاب أليم) وان كانت بطريق التهكم انما تليق بمن يقف على الاسرار الالهية (الا الذين عاهدتم من المشركين) استدراك من النبذ السابق الذى أخر فيه القتال أربعة أشهر كأنه قيل لاتمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر لكن الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين فى المسارعة الى قتالهم بل أتموا اليهم عهدهم ولا يضر فى ذلك تخلل الفاصل بقوله تعالى « وأذان من الله ورسوله » الخ لانه ليس بأجنبى بالكلية بل هو أمر باعلام تلك البراءة كأنه قيل واعلموها وقيل هو استثناء متصل من المشركين الأول ويرده بقاء الثانى على العموم مع كونهما عبارة عن فريق واحد وجعله استثناء من الثانى يأباه بقاء الأول كذلك وقيل هو استدراك من المقدر فى فسيحوا أى قولوا لهم سيحوا أربعة أشهر لكن الذين عاهدتم منهم (ثم لم ينقصوكم شيئا) من شروط الميثاق ولم يقتلوا منكم أحدا ولم يضروكم قط وقرئ بالمعجمة أى لم ينقضوا عهدكم شيئا من النقض وكلمة ثم للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة (ولم يظاهروا) أى لم يعاونوا (عليكم أحدا) من أعدائكم كما عدت بنو بكر على خزاعة فى غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فظاهرتهم قريش بالسلاح (فأتموا اليهم عهدهم) أى أدوه اليهم كملا (الى مدتهم) ولا تفاجئوهم بالقتال عند مضى الاجل المضروب للناكثين ولا تعاملوهم معاملتهم قال ابن عباس رضى الله عنهما بقى لحي من بنى كنانة من عهدهم تسعة اشهر فأتم اليهم عهدهم (ان الله يحب المتقين) تعليل لوجوب الامتثال وتنبيه على ان

مراعاة حقوق العهد من باب التقوى وان التسوية بين الوفى والغادر منافية لذلك وان كان المعاهد مشركا (فاذا انسلخ) أى انقضى استعير له من الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده والاغلب اسناده الى الجلد والمعنى اذا انقضى (الأشهر الحرم) وانفصلت عما كانت مشتملة عليه سائرة له انفصال الجلد عن الشاة وانكشفت عنه انكشاف الحجاب عما وراءه كما ذكره أبو الهيثم من أنه يقال أهللنا شهر كذا أى دخلنا فيه ولبسناه فنحن نزداد كل ليلة لباسا منه إلى مضى نصفه ثم نسلخه عن أنفسنا جزأ فجزأ حتى نسلخه عن أنفسنا كله فينسلخ وأنشد :

اذا ما سلخت الشهر أهللت مثله . كفى قاتلا سلخى الشهور وأهلالى

وتحقيقه أن الزمان محيط بما فيه من الزمانيات مشتمل عليه اشتمال الجلد للحيوان وكذا كل جزء من أجزائه الممتد من الأيام والشهور والسنين فاذا مضى فكأنه انسلخ عما فيه وفيه مزيد لطف لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهر كانت حرزاً لأولئك المعاهدين عن غوائل أيدى المسلمين فنيط قتالهم بزوالها والمراد بها اما مامر من الاشهر الاربعة فقط ووضع المظهر موضع المضمر ليكون ذريعة إلى وصفها بالحرمة تأكيدا لما ينبئ عنه اباحة السياحة من حرمة التعرض لهم مع ما فيه من مزيد الاعتناء بشأنها أو هى مع ما فهم من قوله تعالى «فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم» من تتمة مدة بقيت لغير الناكثين فعلى الأول يكون المراد بالمشركين فى قوله تعالى (فاقتلوا المشركين) الناكثين خاصة فلا يكون قتال الباقين مفهوما من عبارة النص بل من دلالته وعلى الثانى مفهوما من العبارة الا أنه يكون الانسلاخ وما نيط به من القتال حينئذ شيئاً فشيئاً لا دفعة واحدة كأنه قيل فاذا تم ميقات كل طائفة فاقتلوهم وحملها على الاشهر المعهودة الدائرة فى كل سنة لا يساعده النظم الكريم . وأما أنه يستدعى بقاء حرمة القتال فيها اذ ليس فيما نزل بعد ما ينسخها فلا اعتداد به لا لانها نسخت بقوله تعالى «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة» كما توهم فانه رجم بالغيب لانه ان أريد به ما فى سورة الانفال فانه نزل عقيب غزوة بدر وقد صح أن المراد بالذين كفروا فى قوله تعالى قل للذين كفروا الخ أبو سفيان وأصحابه وقد أسلم فى أواسط رمضان عام الفتح سنة ثمان وسورة التوبة انما نزلت فى شوال سنة تسع وان أريد ما فى سورة البقرة فانه أيضا نزل قبل الفتح كما يعرب عنه ماقبله من قوله تعالى «وأخرجوهم من حيث أخرجوكم» أى من مكة وقد فعل ذلك يوم الفتح فكيف ينسخ به ما ينزل بعده بل لان انعقاد الاجماع على انتساخها كاف فى الباب من غير حاجة الى كون سنده منقولا الينا وقد

صح ان النبي صلى الله عليه و سلم حاصر الطائف لعشر بقين من المحرم (حيث وجدتموهم) من حل وحرم (وخذوهم) أى أيسروهم والأخيذ الاسير (واحصروهم) أى قيدوهم أو امنعوهم من التقلب فى البلاد قال ابن عباس رضى الله عنهما حيلوا بينهم و بين المسجد الحرام (واقعدوا لهم كل مرصد) اى ان كل ممر ومجتاز يجتازون منه فى أسفارهم وانتصابه على الظرفية أى أرصدوهم وارقبوهم حتى لا يمروا به وفائدته على التفسير الثانى دفع احتمال أن يراد بالحصر المحاصرة المعهودة (فأن تابوا) عن الشرك بالايمان بعد ما اضطروا بما ذكر من القتل والاسر والحصر (وأقاموا الصلوة و آتوا الزكوة) تصديقا لتوبتهم وايمانهم واكتفى بذكرهما عن ذكر بقية العبادات لكونهما رأسى العبادات البدنية والمالية (فخلوا سبيلهم) فدعوهم وشأنهم ولا تتعرضوا لهم بشىء مما ذكر (ان الله غفور رحيم) يغفر لهم ماسلف من الكفر والغدر ويثيبهم بايمانهم وطاعاتهم وهو تعليل للامر بتخلية السبيل (وان أحد) شروع فى بيان حكم المتصدين لمبادىء التوبة من سماع كلام الله تعالى والوقوف على شعائر الدين أثر بيان حكم التائبين عن الكفر والمصرين عليه وهو مرتفع بشرط مضمر يفسره الظاهر لا بالابتداء لأن أن لا تدخل إلا على الفعل (من المشركين استجارك) بعد انقضاء الأجل المضروب أى سألك أن تأمنه وتكون له جاراً (فأجره) أى أمنه (حتى يسمع كلام الله) ويتدبره ويطلع على حقيقة ما تدعو اليه والاقتصار على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شىء آخر فى الفهم لكونهم من أهل اللسن والفصاحة . وحتى سواء كانت للغاية أو للتعليل متعلقة بما بعدها لا بقوله تعالى استجارك لأنه يؤدى إلى أعمال حتى فى المضمر وذلك مما لا يكاد يرتكب فى غير ضرورة الشعر كما فى قوله :

فلا والله لا يلفى أناس فتى حتاك يا ابن أبى يزيد

كذا قيل إلا أن تعلق الاجارة بسماع كلام الله تعالى بأحد الوجهين يستلزم تعلق الاستجارة أيضا بذلك أو بما فى معناه من أمور الدين وما روى عن على رضى الله عنه أنه أتاه رجل من المشركين فقال إن أراد الرجل منا أن يأتى محمداً بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله تعالى أو لحاجة قتل قال لا لأن الله تعالى يقول « وان أحد من المشركين استجارك فأجره » الخ فالمراد بما فيه من الحاجة هى الحاجة المتعلقة بالدين لا ما يعمها وغيرها من الحاجات الدنيوية كما ينبىء عنه قوله : أن يأتى محمداً : فان من يأتيه عليه السلام انما يأتيه للامور المتعلقة بالدين (ثم أبلغه) بعد استماعه له أن لم يؤمن (مأمنه) أى مسكنه الذى يأمن فيه وهو دار قومه (ذلك) يعنى الأمر

بالاجارة وابلاغ المأمن (بأنهم) بسبب أنهم (قوم لا يعلمون) ما الاسلام وما حقيقته أو قوم جهلةفلا بد من أعطاء الأمان حتى يفهموا الحق ولا يبقى لهم معذرة أصلا (كيف يكون للمشركين عهد) شروع فى تحقيق حقية ما سبق من البراءة وأحكامها المتفرعة عليها وتبيين الحكمة الداعية إلى ذلك . والمراد بالمشركين الناكثون لأن البراءة انما هي فى شأنهم والاستفهام انكارى لا بمعنى انكار الواقع كما فى قوله تعالى« وكيف تكفرون بالله» الخ بل بمعنى انكار الوقوع ويكون من الكون التام وكيف فى محل النصب على التشبيه بالحال أو الظرف . وقيل من الكون الناقص وكيف خبر يكون قدم على اسمه وهو عهد لاقتضائه الصدارة وللمشركين متعلق بمحذوف وقع حالا من عهد ولو كان مؤخراً لكان صفة له أو بيكون عند من يجوز عمل الافعال الناقصة فى الظروف وعند متعلق بمحذوف وقع صفة لعهد أو بنفسه لانه مصدر أو بيكون كما مر ويجوز أن يكون الخبر للمشركين وعند كما ذكر أو متعلق بالاستقرار الذى تعلق به للمشركين ويجوز أن يكون الخبر عندالله وللمشركين أما تبيين وأما حال من عهد وأما متعلق بيكون أو بالاستقرار الذى تعلق به الخبر ولا يبالى بتقديم معمول الخبر على الاسم لكونه حرف جر وكيف على الوجهين الأخيرين نصب على التشبيه بالظرف أو الحال كما فى صورة الكون التام وهو الأولى لأن فى انكار ثبوت العهد فى نفسه من المبالغة ماليس فى انكار ثبوته للمشركين لان ثبوته الرابطى فرع ثبوته العيني فانتفاء الأصل يوجب انتفاء الفرع رأسا وفى توجيه الانكار الى كيفية ثبوت العهد من المبالغة ما ليس فى توجيهه الى ثبوته لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من الأحوال قطعا فاذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى أى على أى حال أو فى أى حال يوجد لهم عهد معتد به (عندالله وعند رسوله) يستحق أن يراعى حقوقه ويحافظ عليه الى اتمام المدة ولا يتعرض لهم بحسبه قتلا ولا أخذا وأماأن يؤمنوا به من عذاب الآخرة كما قيل فلا سبيل الى اعتباره أصلا إذ لادخل لعهدهم فى ذلك الأمن قطعا وأن كان مرعيا عند الله تعالى وعند رسوله كعهد غير الناكثين وتكرير كلمة عند للايذان بعدم الاعتداد به عند كل منهما على حدة (الا الذين) استدراك من النفى المفهوم من الاستفهام المتبادر شموله لجميع المعاهدين أى لكن الذين (عاهدتم عند المسجد الحرام) وهم المستثنون فيماسلف. والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أصحابها والأشعار بسبب وكادتها ومحله الرفع على الأبتداء خبره قوله تعالى(فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) والفاء لتضمنه معنى الشرط

وما أما مصدرية منصوبة المحل على الظرفية بتقدير المضاف أى فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم وأما شرطية منصوبة المحل على الظرفية الزمانية أى أى زمان استقاموا لكم فاستقيموا لهم أو مرفوعة على الابتداء والعائد محذوف أى أى زمان استقاموا لكم فيه فاستقيموا لهم فيه وقيل الاستثناء متصل محله النصب على الأصل أو الجر على البدل من المشركين والمراد بهم الجنس لا المعهود وأياما كان فحكم الأمر بالاستقامة ينتهى بانتهاء مدة العهد لان استقامتهم التى وقت بوقتها الاستقامة المأمور بها عبارة عن مراعاة حقوق العهد وبعد انقضاء مدته لاعهد ولا استقامة فصار عين الأمر الوارد فيما سلف حيث قيل فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم خلا أنه قد صرح ههنا بما لم يصرح به هناك مع كونه معتبرا قطعا وهو تقييد الاتمام المأمور به ببقائهم على ما كانوا عليه من الوفاء (ان الله يحب المتقين) تعليل للامر بالاستقامة واشعار بان القيام بموجب العهد من أحكام التقوى كما مر (كيف) تكرير لاستنكار ما مر من أن يكون للمشركين عهد حقيق بالمراعاة عند الله سبحانه وعند رسوله صلى الله عليه وسلم وأما ماقيل من أنه لاستبعاد ثباتهم على العهد فكماترى لأن مايذكر بصدد التعليل للاستبعاد عين عدم ثباتهم على العهد لأأنه شيء يستدعيه وانما أعيد الاستنكار والاستبعاد تأكيدا لهما وتمهيدا لتعداد العلل الموجبة لهما لأخلال تخلل مافى البين من الارتباط والتقريب وحذف الفعل المستنكر للايذان بأن النفس مستحضرة له مترقبة لورود ما يوجب استنكاره لالمجرد كونه معلوما كما فى قوله:

وخبرتمانى أنما الموت بالقرى . فكيف وهاتا هضبة وقليب

فانه علة مصححة لامرجحة أى كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وسلم (وأن يظهروا عليكم) أى وحالهم أنهم ان يظهروا عليكم أى يظفروا بكم (لا يرقبوا فيكم) أى لايراعوا فى شأنكم وأصل الرقوب النظر بطريق الحفظ والرعاية ومنه الرقيب ثم استعمل فى مطلق الرعاية والمراقبة أبلغ منه كالمراعاة وفى نفى الرقوب من المبالغة ماليس فى نفيها (الا ولا ذمة) أى حلفا وقيل قرابة ولا عهدا أو حقا يعاب على اغفاله مع ماسبق لهم من تأكيد الايمان والمواثيق يعنى أن وجوب مراعاة حقوق العهد على كل من المتعاهدين مشروط بمراعاة الآخر لها فاذا لم يراعها المشركون فكيف تراعونها على منوال قول من قال:

علام تقبل منهم فدية وهم . لافضة قبلوا منا ولا ذهبا

وقيل الأل من أسماء الله عز وجل أى لا يراعوا حق الله تعالى وقيل الجوار ومآله

الحلف لانهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم لتشهيره ولما كان تعليق عدم رعاية العهد بالظفر موهما للرعاية عند عدمه كشف عن حقيقة شؤنهم الجلية والخفية بطريق الاستئناف وبين أنهم فى حالة العجز أيضا ليسوا من الوفاء فى شيء وان مايظهرونه مداهنة لامهادنة فقيل (يرضونكم بأفواهكم) حيث يظهرون الوفاء والمصافاة ويعدون لكم بالأيمان والطاعة ويؤكدون ذلك بالأيمان الفاجرة ويتعللون عند ظهور خلافه بالمعاذير الكاذبة ونسبة الارضاء الى الافواه للايذان بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها من غير أن يكون لها مصداق فى قلوبهم (وتأبى قلوبهم) مايفيده كلامهم (وأكثرهم فاسقون) خارجون عن الطاعة فان مراعاة حقوق العهد من باب الطاعة متمردون ليست لهم مروءة رادعة ولا عقيدة وازعة ولا يتسترون كما يتعاطى بعضهم ممن يتفادى عن الغدر ويتعفف عما يجرأ حدوثة السوء (اشتروا بآيات الله) بآياته الآمرة بالايفاء بالعهود والاستقامة فى كل أمر أو بجميع آياته فيدخل فيها ما ذكر دخولا أوليا أى تركوها وأخذوا بدلها (ثمنا قليلا) أى شيئا حقيرا من حطام الدنيا وهو أهواؤهم وشهواتهم التى اتبعوها أوما أنفقه أبو سفيان من الطعام وصرفه الى الأعراب (فصدوا) أى عدلوا ونكبوا من صدصدودا أو صرفوا غيرهم من صدصدا والفاء للدلالة على سببية الاشتراء لذلك (عن سبيله) أى الدين الحق الذى لامحيد عنه الاضافة للتشريف أو سبيل بيته الحرام حيث كانوا يصدون الحجاج والعمار عنه (انهم ساء ما كانوا يعملون) أى بئس ما كانوا يعملونه أو عملهم المستمر والمخصوص بالذم محذوف وقد جوز أن تكون كلمة ساء على أصلها من التصرف لازمة بمعنى قبح أو متعدية والمفعول محذوف أى ساءهم الذى يعملونه أو عملهم وقوله عز وعلا (لا يرقبون فى مؤمن ألا ولاذمة) ناع عليهم عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين على الاطلاق فلا تكرار وقيل هذا فى اليهود أو فى الاعراب المذكورين ومن يحذو حذوهم وأما ما قيل من أنه تفسير لقوله تعالى يعملون أو دليل على ما هو مخصوص بالذم فمشعر باختصاص الذم والسوء بعملهم هذا دون غيره (وأولئك) الموصوفون بما عدد من الصفات السيئة (هم المعتدون) المجاوزون الغاية القصوى من الظلم والشرارة (فان تابوا) أى عماهم عليه من الكفر وسائر العظائم والفاء للايذان بأن تقريعهم بما نعى عليهم من مساوى أعمالهم مزجرة عنها ومظنة للتوبة (وأقاموا الصلوة وآتوا الزكاة) أي التزموهما وعزموا على اقامتهما (فاخوانكم) أى فهم أخوانكم وقوله تعالى (فى الدين) متعلق باخوانكم لما فيه من معنى الفعل أى لهم مالكم وعليهم ما عليكم فعاملوهم معاملة الاخوان وفيه من

استمالتهم واستجلاب قلوبهم مالا مزيد عليه والاختلاف بين جواب هذه الشرطية وجواب التي مرت من قبل مع اتحاد الشرط فيهما لما أن الأولى سيقت أثر الامر بالقتل ونظائره فوجب أن يكون جوابها أمرا بخلاف ذلك وهذه سيقت بعد الحكم عليهم بالاعتداء وأشباهه فلا بد من كون جوابها حكما بخلافه ألبتة (ونفصل الآيات) أي نبينها والمراد بها أما مامر من الآيات المتعلقة بأحوال المشركين من الناكثين وغيرهم وأحكامهم حالتي الكفر والايمان وأما جميع الآيات فيندرج فيها تلك الآيات اندراجا أوليا (لقوم يعلمون) أي ما فيها من الاحكام أو لقوم عالمين وهو اعتراض للحث على التأمل في الاحكام المندرجة في تضاعيفها والمحافظة عليها (وأن نكثوا) عطف على قوله تعالى «فان تابوا» أي وان لم يفعلوا ذلك بل نقضوا (أيمانهم من بعد عهدهم) الموثق بها وأظهروا ما في ضمائرهم من الشر وأخرجوه من القوة الى الفعل حسبما ينبيء عنه قوله تعالى « وان يظهروا عليكم لا يرقبوا » الآية أو ثبتوا على ماهم عليه من النكث لا أنهم ارتدوا بعد الايمان كما قيل (وطعنوا في دينكم) قدحوا فيه بصريح التكذيب وتقبيح الاحكام (فقاتلوا أئمة الكفر) أي فقاتلوهم وانما أوثر ما عليه النظم الكريم للايذان بأنهم صاروا بذلك ذوي رياسة وتقدم في الكفر أحقاء بالقتل والقتال . وقيل المراد بأئمتهم رؤساؤهم وصناديدهم وتخصيصهم بالذكر أما لأهمية قتلهم أو للمنع من مراقبتهم لكونهم مظنة لها أو للدلالة على استئصالهم فان قتلهم غالبا يكون بعد قتل من دونهم وقريء أئمة بتحقيق الهمزتين على الأصل والأفصح أخراج الثانية بين بين وأما التصريح بالياء فلحن ظاهر عند القراء (أنهم لا أيمان لهم) أي على الحقيقة حيث لا يراعونها ولا يعدون نقضها محذورا وأن أجروها على ألسنتهم . وانما علق النفي بها كالنكث فيما سلف لا بالعهد المؤكد بها لأنها العمدة في المواثيق وجعل الجملة تعليلا للأمر بالقتال لا يساعده تعليقه بالنكث والطعن لأن حالهم في أن لا أيمان لهم حقيقة بعد النكث والطعن كحالهم قبل ذلك وحمله على معنى عدم بقاء أيمانهم بعد النكث والطعن مع أنه لا حاجة الى بيانه خلاف الظاهر ولعل الأولى جعلها تعليلا لمضمون الشرط كأنه قيل وان نكثوا وطعنوا كما هو المتوقع منهم اذ لا أيمان لهم حقيقة حتى لا ينكثوها أو لاستمرار القتال المأمور به المستفاد من سياق الكلام كأنه قيل فقاتلوهم الى أن يؤمنوا أنهم لا أيمان لهم حتى يعقد معهم عهد آخر . وقريء بكسر الهمزة على أنه مصدر بمعنى أعطاء الأمان أي لا سبيل الى أن تعطوهم أمانا بعد ذلك أبدا . وأما العكس كما قيل فلا وجه له لأشعاره بأن معاهدتهم معنا على طريقة أن يكون أعطاء الأمان من قبلهم وذلك بين البطلان أو بمعنى الأسلام ففي كونه تعليلا للأمر

بالقتال أشكال بل استحالة لأنه أن حمل على انتفاء الأسلام مطلقا فهو بمعزل عن العلية للقتال أو للأمر به كما قبل النكث والطعن وأن حمل على انتفائه فيما سيأتى فلا يلائم جعل الانتهاء غاية للقتال فيماسيجىء فالوجه أن يجعل تعليلا لما ذكر من مضمون الشرط كأنه قيل أن نكثوا وطعنوا وهو الظاهر من حالهم لأنه لا إسلام لهم حتى يرتدعوا عن نقض جنس أيمانهم وعن الطعن فى دينكم (لعلهم ينتهون) متعلق بقوله تعالى فقاتلوهم أى قاتلوهم إرادة أن ينتهوا أى ليكن غرضكم من القتال انتهاؤهم عماهم عليه من الكفر وسائر العظائم التي يرتكبونها لا أيصال الاذية بهم كما هو ديدن المؤذين (ألا تقاتلون) الهمزة الداخلة على انتفاء مقاتلتهم للانكار و التوبيخ تدل على تحضيضهم على المقاتلة بطريق حملهم على الاقرار بانتفائها كانه أمر لا يمكن أن يعترف به طائعا لكمال شناعته فيلجؤن الى ذلك و لا يقدرون على الاقرار به فيختارون المقاتلة (قوما نكثوا أيمانهم)التى حلفوها عند المعاهدة على أن لا يعاونوا عليهم فعاونوا بنى بكر على خزاعة (وهموا بأخراج الرسول) من مكة حين تشاوروا فى أمره بدار الندوة حسبما ذكر فى قوله تعالى «وأذ يمكر بك الذين كفروا »فيكون نعيا عليهم جناياتهم القديمة وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وهموا باخراجه من المدينة (وهم بدؤكم) بالمعادات و المقاتلة (أول مرة) لان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولا بالكتاب المبين وتحداهم به فعدلوا عن المحاجة لعجزهم عنها الى المقاتلة أو بدءوا بقتال خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم لان إعانة بنى بكر عليهم قتال معهم (أتخشونهم) أى أتخشون أن ينالكم منهم مكروه حتى تتركوا قتالهم وبخهم أولا بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الرغبة فيها ويحقق أن من كان على تلك الصفات السيئة حقيق بأن لاتترك مصادمته ويوبخ من فرط فيها (فالله أحق أن تخشوه) بمخالفة أمره وترك قتال أعدائه (أن كنتم مؤمنين) فان قضية الايمان تخصيص الخشية به تعالى وعدم المبالاة بمن سواه وفيه من التشديد مالا يخفى (قاتلوهم) تجريد للامر بالقتال بعد التوبيخ على تركه و وعد بنصرهم وبتعذيب أعدائهم واخزائهم وتشجيع لهم (يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم) قتلا وأسرا (وينصركم عليهم) أى يجعلكم جميعا غالبين عليهم أجمعين ولذلك أخر عن التعذيب والاخزاء (ويشف صدور قوم مؤمنين) ممن لم يشهد القتال وهم خزاعة قال ابن عباس رضى الله عنهما هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيرا فبعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون اليه فقال عليه السلام أبشروا فان الفرج قريب (ويذهب غيظ

قلوبهم) بما كابدوا من المكارة والمكايد ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أجمل ما يكون فكان اخباره عليه السلام بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة (ويتوب الله على من يشاء) كلام مستأنف ينبيء عما سيكون من بعض أهل مكة من التوبة المقبولة بحسب مشيئته تعالى المبنية على الحكم البالغة فكان كذلك حيث أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم وقرىء بالنصب باضمار أن ودخول التوبة فى جملة ما أجيب به الامر بحسب المعنى فان القتال كما هو سبب لفل شوكتهم وألانة شكيمتهم فهو سبب للتدبر فى أمرهم وتوبتهم من الكفر والمعاصى وللاختلاف فى وجه السببية غير السبك والله تعالى أعلم (والله) أيثار أظهار الجلالة على الاضمار لتربية المهابة وادخال الروعة (عليم) لا يخفى عليه خافية (حكيم) لا يفعل ولا يأمر الا بما فيه حكمة ومصلحة (أم حسبتم) أم منقطعة جيء بها للدلالة على الانتقال من التوبيخ السابق الى آخر وما فيها من همزة الاستفهام الانكارى توبيخ لهم على الحسبان المذكور أى بل أحسبتم (أن تتركوا) على ما أنتم عليه ولا تؤمروا بالجهاد ولا تبتلوا بما يمحصكم والخطاب اما لمن شق عليهم القتال من المؤمنين أو للمنافقين (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) الواو حالية ولما للنفى مع التوقع والمراد من نفى العلم نفى المعلوم بالطريق البرهانى اذ لو شم رائحة الوجود لعلم قطعا فلما لم يعلم لزم عدمه قطعا أي أم حسبتم أن تتركوا والحال أنه لم يتبين الخلص من المجاهدين منكم من غيرهم وما فى لما من التوقع منبه على أن ذلك سيكون وفائدة التعبير عما ذكر من عدم التبين بعدم علم الله تعالى أن المقصود هو التبين من حيث كونه متعلقا للعلم ومدارا للثواب وعدم التعرض لحال المقصرين لما أن ذلك بمعزل من الاندراج تحت ارادة أكرم الأكرمين (ولم يتخذوا) عطف على جاهدوا داخل فى حيز الصلة أو حال من فاعله أى جاهدوا حال كونهم غير متخذين (من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أى بطانة وصاحب سر وهو الذى تطلعه على ما فى ضميرك من الأسرار الخفية من الولوج وهو الدخول ومن دون الله متعلق بالاتخاذ ان أبقى على حاله أو مفعول ثان له أن جعل بمعنى التصيير (والله خبير بما تعملون) أى بجميع أعمالكم وقرىء على الغيبة وهو تذييل يزيح ما يتوهم من ظاهر قوله تعالى ولما يعلم الخ أو حال متداخلة من فاعله أو من مفعوله والمعنى ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم والحال أنه يعلم جميع أعمالكم لا يخفى عليه شىء منها (ما كان للمشركين) أى ما صح وما استقام لهم على معنى نفى الوجود والتحقق لا نفى الجواز كما فى قوله تعالى « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » أى ما وقع وما تحقق لهم

(أن يعمروا) عمارة معتداً بها (مساجد الله) أى المسجد الحرام وانما جمع لانه قبلة المساجد وأمامها فعامره كعامرها أولان كل ناحية من نواحيه المختلفة الجهات مسجد على حياله بخلاف سائر المساجد اذليس فى نواحيها اختلاف الجهة ويؤيده القراءة بالتوحيد وقيل ما كان لهم أن يعمروا شيئا من المساجد فضلا عن المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس ويأباه أنهم لايتصدون لتعمير سائر المساجد ولا يفتخرون بذلك على أنه مبنى على كون النفى بمعنى نفى الجواز واللياقة دون نفى الوجود (شاهدين على أنفسهم بالكفر) أى باظهار آثار الشرك من نصب الاوثان حول البيت والعبادة لها فان ذلك شهادة صريحة على أنفسهم بالكفر وان أبوا أن يقولوا نحن كفار كما نقل عن الحسن رضى الله عنه وهو حال من الضمير فى يعمروا أى محال أن يكون ماسموه عمارة عمارة بيت الله مع ملابستهم لماينافيها ويحبطها من عبادة غيره تعالى فانها ليست من العمارة فى شىء وأما ماقيل من أن المعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة بيت الله تعالى وعبادة غيره تعالى فليس بمعرب عن كنه المرام فان عدم استقامة الجمع بين المتنافيين انمايستدعى انتفاء أحدهما لابعينه لاانتفاء العمارة الذى هو المقصود روى أن المهاجرين والانصار أقبلوا على أسارى بدر يعيرونهم بالشرك وطفق على رضى الله تعالى عنه يوبخ العباس بقتال النبى صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم وأغلظ له فى القول فقال العباس تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا فقال ولكم محاسن قالوا نعم أنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحجيج ونفك العانى فنزلت (أولئك) الذين يدعون عمارة المسجد ومايضاهيها من أعمال البر مع ماهم من الكفر (حبطت أعمالهم) التى يفتخرون بها بما قارنها من الكفر فصارت هباء منثورا (وفى النار هم خالدون) لكفرهم ومعاصيهم وايراد الجملة اسمية للمبالغة فى الدلالة على الخلود والظرف متعلق بالخبر قدم عليه للاهتمام به ومراعاة الفاصلة وكلتا الجملتين مستأنفة لتقرير النفى السابق الأولى من جهة نفى استتباع الثواب والثانية من جهة نفى استدفاع العذاب (إنما يعمر مساجد الله) الكلام فى إيراد صيغة الجمع كما مر فيما مر خلا أن ارادة جمع المساجد وادراج المسجد الحرام فى ذلك غير مخالفة لمقتضى الحال فان الايجاب ليس كالسلب وقد قرىء بالافراد أيضا والمراد ههنا أيضا قصر تحقق العمارة ووجودها على المؤمنين لاقصر جوازها ولياقتها أى انما يصح ويستقيم أن يعمرها عمارة يعتدبها (من آمن بالله) وحده (واليوم الآخر) بما فيه من البعث والحساب والجزاء حسبما نطق به الوحى (وأقام الصلوة وآتى الزكوة) على ماعلم من الدين فيندرج فيه الايمان بنبوة النبى

صلى الله عليه وسلم حتما وقيل هو مندرج تحت الايمان بالله خاصة فان أحد جزأى كلمتى الشهادة علم للكل أى انما يعمرها من جمع هذه الكمالات العلمية والعملية والمراد بالعمارة مايعم مرمة مااسترم منها وقمها وتنظيفها وتزيينها بالفرش وتنويرها بالسرج وأدامة العبادة والذكر ودراسة العلوم فيها ونحو ذلك وصيانتها مما لم تبن له كحديث الدنيا * وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش» وقال عليه الصلاة والسلام «قال الله تعالى ان بيوتى فى ارضى المساجد وان زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى فحق على المزور أن يكرم زائره» وعنه عليه الصلاة والسلام «من ألف المسجد ألفه الله تعالى» وقال عليه الصلاة والسلام «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان» وعن أنس رضى الله عنه : من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له مادام فى ذلك المسجد ضوءه (ولم يخش) فى أمور الدين (الا الله) فعمل بموجب أمره ونهيه غير آخذ له فى الله لومة لائم ولا خشية ظالم فيندرج فيه عدم الخشية عند القتال ونحو ذلك وأما الخوف الجبلى من الامور المخوفة فليس من هذا الباب ولا مما يدخل تحت التكليف والخطاب وقيل كانوا يخشون الاصنام ويرجونها فأريد نفى تلك الخشية عنهم (فعسى أولئك) المنعوتون بتلك النعوت الجميلة (أن يكونوا من المهتدين) الى مباغيهم من الجنة وما فيها من فنون المطالب العلية وابراز اهتدائهم مع ما بهم من الصفات السنية فى معرض التوقع لقطع أطماع الكفرة عن الوصول الى مواقف الاهتداء والانتفاع باعمالهم التى يحسبون أنهم فى ذلك محسنون ولتوبيخهم بقطعهم بأنهم مهتدون فان المؤمنين مع ما بهم من هذه الكمالات اذا كان أمرهم دائرا بين لعل وعسى فما بال الكفرة وهم هم وأعمالهم أعمالهم وفيه لطف للمؤمنين وترغيب لهم فى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء ورفض الاعتذار بالله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) أى فى الفضيلة وعلو الدرجة (كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله) السقاية والعمارة مصدران لايتصور تشبيههما بالاعيان فلا بد من تقدير مضاف فى أحد الجانبين أى أجعلتم أهلهما كمن آمن بالله الخ ويؤيده قراءة من قرأ سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام أو أجعلتموهما كايمان من آمن الخ وعلى التقديرين فالخطاب أما للمشركين على طريقة الالتفات وهو المتبادر من تخصيص ذكر الايمان بجانب المشبه به. وأما لبعض المؤمنين المؤثرين للسقاية والعمارة ونحوهما على الهجرة والجهاد ونظائرهما وهو المناسب للاكتفاء فى الرد عليهم ببيان عدم مساواتهم عند الله للفريق الثانى وبيان أعظمية درجتهم عند الله تعالى على وجه يشعر بعدم حرمان

الاولين بالكلية وجعل معنى التفضيل بالنسبة الى زعم الكفرة لايجدى كثير نفع لانه ان لم يشعر بعدم الحرمان فليس بمشعر بالحرمان أيضا أما على الاول فهو توبيخ للمشركين ومداره على انكار تشبيه أنفسهم من حيث اتصافهم بوصفيهم المذكورين مع قطع النظر عما هم عليه من الشرك بالمؤمنين من حيث اتصافهم بالايمان والجهاد أو على انكار تشبيه وصفيهم المذكورين فى حد ذاتهما مع الاغماض عن مقارنتهما للشرك بالايمان والجهاد وأما اعتبار مقارنتهما له كما قيل فيأباه المقام كيف لا وقد بين آنفا حبوط أعمالهم بذلك الاعتبار بالمرة وكونها بمنزلة العدم فتوبيخهم بعد ذلك على تشبيههما بالايمان والجهاد ثم رد ذلك بما يشعر بعدم حرمانهم عن أصل الفضيلة بالكلية كما أشير اليه مما لايساعده النظم التنزيلى ولو اعتبر ذلك لما احتيج الى تقرير انكار التشبيه وتأكيده بشىء آخر اذ لاشىء أظهر بطلانا من تشبيه المعدوم بالموجود فالمعنى أجعلتم أهل السقاية والعمارة فى الفضيلة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيله أو أجعلتموهما فى ذلك كالايمان والجهاد وشتان بينهما فان السقاية والعمارة وان كانتا فى أنفسهما من أعمال البر والخير لكنهما وان خلتا عن القوادح بمعزل عن صلاحية أن يشبه أهلهما بأهل الايمان والجهاد أو يشبه نفسهما بنفس الايمان والجهاد وذلك قوله عز وجل (لايستوون عند الله) أى لايساوى الفريق الاول الثانى من حيث اتصاف كل منهما بوصفيهما ومن ضرورته عدم التساوي بين الوصفين الاولين وبين الآخرين لانه المدار فى التفاوت بين الموصوفين. واسناد عدم الاستواء الى الموصوفين لان الاهم بيان تفاوتهم وتوجيه النفى ههنا والانكار فيما سلف الى الاستواء والتشبيه مع أن دعوى المفتخرين بالسقاية والعمارة من المشركين والمؤمنين أنما هى الافضلية دون التساوى والتشابه للمبالغة فى الرد عليهم فان نفى التساوى والتشابه نفى للافضلية بالطريق الاولى والجملة استئناف لتقرير الانكار المذكور وتأكيده أو حال من مفعولى الجعل والرابط هو الضمير كأنه قيل أسويتم بينهم حال كونهم متفاوتين عنده تعالى وقوله تعالى (والله لايهدى القوم الظالمين) حكم عليهم بأنهم مع ظلمهم بالاشراك ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم ضالون فى هذا الجعل غير مهتدين الى طريق معرفة الحق وتمييز الراجح من المرجوح وظالمون بوضع كل منهما موضع الآخر وفيه زيادة تقرير لعدم التساوى بينهم وقوله تعالى (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وانفسهم) استئناف لبيان مراتب فضلهم اثر بيان عدم الاستواء وضلال المشركين وظلمهم وزيادة الهجرة وتفصيل نوعى الجهاد للايذان بأن ذلك من لوازم الجهاد لانه اعتبر بطريق التدارك امر لم يعتبر فيما سلف

أى هم باعتبار اتصافهم بهذه الأوصاف الجميلة (أعظم درجة عند الله) أى أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم يتصف بها كائنا من كان وإن حاز جميع ماعداها من الكمالات التى من جملتها السقاية والعمارة (وأولئك) أى المنعوتون بتلك النعوت الفاضلة وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للدلالة على بعد منزلتهم فى الرفعة (هم الفائزون) المختصون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق كأن فوز من عداهم ليس بفوز بالنسبة الى فوزهم وأما على الثانى فهو توبيخ لمن يؤثر السقاية والعمارة من المؤمنين على الهجرة والجهاد روى أن عليا قال للعباس رضى الله عنهما بعد اسلامه ياعم ألا تهاجرون ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألست فى أفضل من الهجرة أسقى حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام فلما نزلت قال ما أرانى إلا تارك سقايتنا فقال عليه السلام أقيموا على سقايتكم فان لكم فيها خيراً . وروى النعمان بن بشير قال كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد أن أسقى الحاج وقال آخر ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر رضى الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن إذا صليتم استفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفتم فيه فدخل فانزل الله عز وجل هذه الآية والمعنى أجعلتم أهل السقاية والعمارة من المؤمنين فى الفضيلة والرفعة لمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيله أو جعلتموهما كالايمان والجهاد وإنما لم يذكر الايمان فى جانب المشبه مع كونه معتبراً فيه قطعا تعويلا على ظهور الأمر وإشعاراً بأن مدار إنكار التشبيه هو السقاية والعمارة دون الايمان وإنما لم يترك ذكره فى جانب المشبه به أيضا تقوية للانكار وتذكيراً لأسباب الرجحان ومبادىء الافضلية وايذانا بكمال التلازم بين الايمان وما تلاه ومعنى عدم الاستواء عند الله تعالى على هذا التقدير ظاهر وكذا أعظمية درجة الفريق الثانى وأما قوله تعالى «والله لا يهدى القوم الظالمين» فالمراد به عدم هدايته تعالى لهم إلى معرفة الراجح من المرجوح وظلمهم بوضع كل منهما موضع الآخر لاعدم الهداية مطلقا ولا الظلم عموما والقصر فى قوله تعالى وأولئك هم الفائزون بالنسبة الى درجة الفريق الثانى أو الى الفوز المطلق ادعاء كما مر والله أعلم (يبشرهم) وقرىء بالتخفيف (ربهم برحمة) عظيمة (منه ورضوان) كبير (وجنات) عالية (لهم فيها) فى تلك الجنات (نعيم مقيم) نعم لانفاد لها . وفى التعرض لعنوان الربوبية تأكيد للمبشر به وتربية له (خالدين

فيها) أى فى الجنات (أبداً) تأكيد للخلود لزيادة توضيح المراد به إذ قد يراد به المكث الطويل (ان الله عنده أجر عظيم) لا قدر عنده لأجور الدنيا أو للاعمال التى فى مقابلته والجملة استئناف وقع تعليلا لما سبق (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وأخوانكم أولياء) نهى لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة فرد من المشركين بقضية مقابلة الجمع بالجمع الموجبة لانقسام الآحادالى الآحاد كما فى قوله عز وجل « وما للظالمين من أنصار » لا عن موالاة طائفة منهم فان ذلك مفهوم من النظم دلالة لاعبارة والآية نزلت فى المهاجرين فانهم لما أمروا بالهجرة قالوا ان هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا وذهبت تجاراتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا وبقينا ضائعين فنزلت فهاجروا فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت اليه ولا ينزله ولا ينفق عليه ثم رخص لهم فى ذلك .وقيل نزلت فى التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة نهياعن موالاتهم . وعن النبى صلى الله عليه وسلم « لا يطعم أحدكم طعم الايمان حتى يحب فى الله و يبغض فى الله حتى يحب فى الله أبعد الناس منه و يبغض فى الله أقرب الناس اليه (ان استحبوا الكفر) أي اختاروه (على الايمان) وأصروا عليه اصراراً لا يرجى معه الاقلاع عنه أصلا وتعليق النهى عن الموالاة بذلك لما أنها قبل ذلك ربما تؤدى بهم الى الاسلام بسبب شعورهم بمحاسن الدين (ومن يتولهم) أى واحداً منهم كما أشير اليه .وأفراد الضمير فى الفعل لمراعاة لفظ الموصول وللايذان باستقلال كل واحد منهم فى الاتصاف بالظلم لا أن المراد تولى فرد واحد وكلمة من فى قوله تعالى(منكم) للجنس لا للتبعيض (فأولئك)أى أولئك المتولون (هم الظالمون) بوضعهم الموالاة فى غير موضعها كأن ظلم غيرهم كلاظلم عند ظلمهم (قل) تلوين للخطاب وأمر له عليه الصلاة والسلام بأن يثبت المؤمنين ويقوى عزائمهم على الانتهاء عما نهوا عنه من موالاة الآباء والاخوان و يزهدهم فيهم وفيمن يجرى مجراهم من الابناء والازواج ويقطع علائقهم عن زخارف الدنيا وزينتها على وجه التوبيخ والترهيب (ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم) لم يذكر الابناء والازواج فيما سلف لأن موالاة الابناء والأزواج غير معتادة بخلاف المحبة (وعشيرتكم) أى أقرباؤكم مأخوذ من العشرة أي الصحبة وقيل من العشرة فانهم جماعة ترجع الى عقد كعقد العشرة وقرىء عشيراتكم وعشائركم (وأموال اقترفتموها) أى اكتسبتموها وانما وصفت بذلك ايماء الى عزتها عندهم لحصولها بكد اليمين (وتجارة) أى أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح (تخشون كسادها)

بفوات وقت رواجها بغيبتكم عن مكة المعظمة فى أيام الموسم (ومساكن ترضونها) أى منازل تعجبكم الاقامة فيها من الدور والبساتين والتعرض للصفات المذكورة للايذان بأن اللوم على محبة ما ذكر من زينة الحياة الدنيا ليس لتناسى ما فيها من مبادى المحبة وموجبات الرغبة فيها وأنها مع مالها من فنون المحاسن بمعزل عن أن يؤثر حبها على حبه تعالى وحب رسوله عليه الصلاة والسلام كما فى قوله عز وجل «ما غرك بربك الكريم» (أحب اليكم من الله ورسوله) بالحب الاختيارى المستتبع لاثره الذى هو الملازمة وعدم المفارقة لا الحب الجبلى الذى لا يخلو عنه البشر فانه غير داخل تحت التكليف الدائر على الطاقة (وجهاد فى سبيله) نظم حبه فى سلك حب الله عز وجل وحب رسوله صلى الله عليه وسلم تنويها بشأنه وتنبيها على أنه مما يجب أن يحب فضلا عن أن يكره وأيذانا بأن محبته راجعة إلى محبتهما فان الجهاد عبارة عن قتال أعدائهما لأجل عداوتهم فمن يحبهما يجب أن يحب قتال من لا يحبهما (فتربصوا) أى انتظروا (حتى يأتى الله بأمره) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه فتح مكة وقيل هى عقوبة عاجلة أو آجلة (والله لا يهدى القوم الفاسقين) الخارجين عن الطاعة فى موالاة المشركين أو القوم الفاسقين كافة فيدخل فى زمرتهم هؤلاء دخولا أوليا أى لا يرشدهم الى ماهو خير لهم. وفى الآية الكريمة من الوعيد مالا يكاد يتخلص منه الا من تداركه لطف من ربه والله المستعان (لقد نصركم الله) الخطاب للمؤمنين خاصة (فى مواطن كثيرة) من الحروب وهى مواقعها ومقاماتها والمراد بها وقعات بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة (ويوم حنين) عطف على محل فى مواطن بحذف المضاف فى أحدهما أى وموطن يوم حنين أو فى أيام مواطن كثيرة ويوم حنين ولعل التغيير للايماء الى ما وقع فيه من قلة الثبات من أول الامر وقيل المراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين وقيل يوم حنين منصوب بمضمر معطوف على نصركم أى ونصركم يوم حنين (اذ أعجبتكم كثرتكم) بدل من يوم حنين ولا منع فيه من عطفه على محل الظرف بناء على أنه لم يكن فى المعطوف عليه كثرة ولا اعجاب اذ ليس من قضية العطف مشاركة المعطوفين فيما أضيف اليه المعطوف أو منصوب باضمار اذكر. وحنين واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفا عشرة آلاف منهم من شهد فتح مكة من المهاجرين والانصار وألفان من الطلقاء وبين هوازن وثقيف وكانوا أربعة آلاف فيمن ضامهم من امداد سائر العرب وكانوا الجم الغفير فلما التقوا قال رجل من المسلمين اسمه سلمة بن سلامة الانصارى لن نغلب اليوم من قلة فساءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم

المشركون وخلوا الذراري فأكب المسلمون على الغنائم فتنادى المشركون ياحماة السوء اذكروا الفضائح فتراجعوا فأدركت المسلمين كلمة الاعجاب فانكشفوا وذلك قوله عز وجل (فلم تغن عنكم شيئاً) والاغناء اعطاء مايدفع به الحاجة أى لم تعطكم تلك الكثرة ماتدفعون به حاجتكم شيئاً من الأغناء (وضاقت عليكم الارض بمارحبت) أي برحبها وسعتها على أن ماصدرية والباء بمعنى مع أى لاتجدون فيها مفراً تطمئن اليه نفوسكم من شدة الرعب ولا تثبتون فيها كمن لايسعه مكان (ثم وليتم مدبرين) روى أنه بلغ فلهم مكة وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ليس معه الا عمه العباس آخذاً بلجام بغلته وابن عمه أبوسفيان بن الحرث آخذاً بركابه وهو يركض البغلة نحو المشركين وهو يقول أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب. روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يحمل على الكفار فيفرون ثم يحملون عليه فيقف لهم فعل ذلك بضع عشرة مرة قال العباس كنت أكف البغلة لئلا تسرع به نحو المشركين وناهيك بهذه الواحدة شهادة صدق على أنه عليه الصلاة والسلام كان فى الشجاعة ورباطة الجأش سباقاً للغايات القاصية وماكان ذلك الا لكونه مؤيداً من عند الله العزيز الحكيم فعند ذلك قال يارب ائتنى بما وعدتنى وقال للعباس وكان صيتاً صح بالناس فنادى الانصار فخذاً فخذاً ثم نادى ياأصحاب الشجرة ياأصحاب سورة البقرة فكروا عنقاً واحداً وهم يقولون لبيك لبيك وذلك قوله تعالى (ثم أنزل الله سكينته على رسوله)أى رحمته التى تسكن بها القلوب وتطمئن اليها اطمئناناً كلياً مستتبعاً للنصر القريب وأما مطلق السكينة فقد كانت حاصلة له عليه الصلاة والسلام قبل ذلك أيضاً (وعلى المؤمنين) عطف على رسوله وتوسيط الجار بينهما للدلالة على مابينهما من التفاوت أى المؤمنين الذين انهزموا وقيل على الذين ثبتوا مع النبى صلى الله عليه وسلم أو على الكل وهو الانسب ولا ضير فى تحقق أصل السكينة فى الثابتين من قبل والتعرض لوصف الايمان للاشعار بعلية الانزال (وأنزل جنوداً لم تروها) أى بأبصاركم كما يرى بعضكم بعضاً وهم الملائكة عليهم السلام عليهم البياض على خيول بلق فنظر النبى صلى الله عليه وسلم الى قتال المسلمين فقال «هكذا حين حمى الوطيس» فأخذ كفاً من التراب فرمى به نحو المشركين وقال شاهت الوجوه» فلم يبق منهم أحد الا امتلأت به عيناه ثم قال عليه الصلاة والسلام «انهزموا ورب الكعبة» واختلفوا فى عدد الملائكة يومئذ فقيل خمسة آلاف وقيل ثمانية آلاف وقيل ستة عشر ألفاً وفى قتالهم أيضاً فقيل قاتلوا وقيل لم يقاتلوا الا يوم بدر وانما كان نزولهم لتقوية قلوب المؤمنين بالقاء الخواطر الحسنة وتأييدهم

بذلك والقاء الرعب فى قلوب المشركين قال سعيد بن المسيب حدثنى رجل كان فى المشركين يوم حنين قال لما كشفنا المسلمين جعلنا نسوقهم فلما انتهينا الى صاحب البغلة الشهباء تلقانا رجال بيض الوجوه فقالوا شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا فركبوا أكتافنا (وعذب الذين كفروا) بالقتل والاسر والسبي (وذلك) أى مافعل بهم مما ذكر (جزاء الكافرين) لكفرهم فى الدنيا (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) أن يتوب عليه منهم لحكمة تقتضيه أى يوفقه للاسلام (والله غفور) يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصى (رحيم) يتفضل عليهم ويثيبهم روى أن ناسا منهم جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الاسلام وقالوا يارسول الله أنت خير الناس وأبر الناس وقد سبى أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا قيل سبي يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الابل والغنم مالا يحصى فقال عليه الصلاة والسلام «ان عندى ماترون ان خير القول أصدقه اختاروا اماذراريكم ونساءكم واما اموالكم» قالوا ما كنا نعدل بالاحساب شيئا فقام النبي صلى الله عليه وسلم فقال «ان هؤلاء جاءونا مسلمين وانا خيرناهم بين الذرارى والاموال فلم يعدلوا بالاحساب شيئا فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرده فشأنه ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتي نصيب شيئا فنعطيه مكانه قالوا قد رضينا وسلمنا فقال عليه الصلاة والسلام انا لاندرى لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك الينا» فرفعت اليه العرفاء أنهم قد رضوا (ياأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس) وصفوا بالمصدر مبالغة كأنهم عين النجاسة أوهم ذو نجس لخبث باطنهم أولان معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس أو لأنهم لايتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير . وعن الحسن من صافح مشركا توضأ وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين وقرىء نجس بكسر النون وسكون الجيم وهو تخفيف نجس ككبد فى كبد كانه قيل انما المشركون جنس نجس أو ضرب نجس وأكثر ماجاء تابعا لرجس (فلا يقربوا المسجد الحرام) تفريع على نجاستهم وانما نهى عن القرب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم وهو مذهب عطاء وقيل المراد به النهى عن الدخول مطلقا وقيل المراد المنع عن الحج والعمرة وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله تعالى ويؤيده قوله عز وجل (بعد عامهم هذا) فأن تقييد النهى بذلك يدل على اختصاص المنهي عنه بوقت من أوقات العام أى لايحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسعة من الهجرة حين أمر أبو بكر رضى الله عنه على الموسم ويدل عليه قول على رضى الله عنه حين نادى ببراءة ألا لايحج

بعدعامناهذامشرك ولايمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عنده وعند الشافعي يمنعون من المسجد الحرام خاصة وعند مالك يمنعون من جميع المساجد ونهى المشركين أن يقربوه راجع الى نهى المسلمين عن تمكينهم من ذلك وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصالحه ويعزلوا عن ذلك (وان خفتم عيلة) أى فقرا بسبب منعهم من الحج وانقطاع ماكانوا يجلبونه اليكم من الارفاق والمكاسب. وقرىء عائلة على أنها مصدر كالعافية أو حالا عائلة (فسوف يغنيكم الله من فضله) من عطائه أو من تفضله بوجه آخر فأرسل الله تعالى السماء عليهم مدرارا أغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم وأسلم أهل تبالة وجرش فحملوا الى مكة الطعام ومايعاش به فكان ذلك أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته ثم فتح عليهم البلاد والغنائم وتوجه اليهم الناس من أقطار الارض (ان شاء) أن يغنيكم مشيئة تابعة للحكمة الداعية اليها وانما قيد ذلك بها لتنقطع الآمال الى الله تعالى ولان الاغناء ليس مطردا بحسب الافراد والاحوال والاوقات (ان الله عليم) بمصالحكم (حكيم) فيما يعطى ويمنع (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر) أمرهم بقتال أهل الكتابين أثر أمرهم بقتال المشركين وبمنعهم من أن يحوموا حول ماكانوا يفعلون من الحج والعمرة غير خائفين من الفاقة المتوهمة من انقطاعهم ونبههم فى تضاعيف ذلك على بعض طرق الأغناء الموعود على الوجه الكلى وأرشدهم الى سلوكه ابتغاء لفضله واستنجازا لوعده والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية ما فى حيز الصلة للامر بالقتال وبانتظامهم بسبب ذلك فى سلك المشركين فان اليهود مثنية والنصارى مثلثة فهم بمعزل من أن يؤمنوا بالله سبحانه ولا باليوم الآخر فان علمهم بأحوال الآخرة كلا علم فايمانهم المبنى عليه ليس بايمان به (ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله) أى ماثبت تحريمه بالوحى متلوا أو غير متلو وقيل المراد برسوله الرسول الذي يزعمون اتباعه أى يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقادا وعملا (ولايدينون دين الحق) الثابت الذى هو ناسخ لسائر الأديان وهو دين الاسلام وقيل دين الله (من الذين أوتوا الكتاب) من التوراة والانجيل فمن بيانية لاتبعيضية حتى يكون بعضهم على خلاف مانعت (حتى يعطوا) أى يقبلوا أن يعطوا (الجزية) أي ماتقرر عليهم أن يعطوه مشتق من جزى دينه أى قضاه أو لانهم يجزون بها من من عليهم بالأعفاء عن القتل (عن يد) حال من الضمير فى يعطوا أى عن يد مؤاتية مطيعة بمعنى منقادين أو من يدهم بمعنى مسلمين بأيديهم غير باعثين بايدى غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه أو عن غنى ولذلك لم تجب الجزية على الفقير العاجز أو عن يد قاهرة عليهم أي بسبب

يد بمعنى عاجزين أذلاء أو عن انعام عليهم فان ابقاء مهجتهم بما بذلوا من الجزية نعمة عظيمة عليهم أو من الجزية أي نقدا مسلمة عن يد الى يد وغاية القتال ليست نفس هذا الاعطاء بل قبوله كما أشير اليه (وهم صاغرون) أي أذلاء وذلك بأن يأتي بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس ويؤخذ بتلبيبه ويقال له أد الجزية وان كان يؤديها. وهي تؤخذ عند أبي حنيفة رضي الله عنه من أهل الكتاب مطلقا ومن مشركي العجم لا من مشركي العرب. وعند أبي يوسف رضي الله عنه لا تؤخذ من العربي كتابيا كان أو مشركا وتؤخذ من الاعجمي كتابيا كان أو مشركا. وعند الشافعي رضي الله عنه تؤخذ من أهل الكتاب عربيا أو عجميا ولا تؤخذ من أهل الأوثان مطلقا. وذهب مالك والاوزاعي الى أنها تؤخذ من جميع الكفار. وأما المجوس فقد اتفقت الصحابة رضي الله عنهم على أخذ الجزية منهم لقوله عليه الصلاة والسلام «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» وروي عن علي رضي الله عنه أنه كان لهم كتاب يدرسونه فاصبحوا وقد أسري على كتابهم فرفع من بين أظهرهم واتفقوا على تحريم ذبيحتهم ومناكحتهم لقوله عليه الصلاة والسلام في آخر ما نقل من الحديث «غير ناكحي نسائهم وآكلي ذبيحتهم» ووقت الأخذ عند أبي حنيفة رضي الله عنه أول السنة وتسقط بالموت والاسلام ومقدارها على الفقير المعتمل اثنا عشر درهما وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرون درهما وعلى الغني ثمانية وأربعون درهما ولا جزية على فقير عاجز عن الكسب ولا على شيخ فان أو زمن أو صبي أو امرأة. وعند الشافعي رضي الله عنه تؤخذ في آخر السنة من كل واحد دينار غنيا كان أو فقيرا كان له كسب أو لم يكن (وقالت اليهود) جملة مبتدأة سيقت لتقرير ما مر من عدم ايمان أهل الكتابين بالله سبحانه وانتظامهم بذلك في سلك المشركين (عزير ابن الله) مبتدأ وخبر وقرىء بغير تنوين على انه اسم أعجمي كعازر وعزار غير منصرف للعجمة والتعريف. وأما تعليله بالتقاء الساكنين أو بجعل الابن وصفا على أن الخبر محذوف فتعسف مستغنى عنه. قيل هو قول قدمائهم ثم انقطع فحكى الله تعالى ذلك عنهم ولا عبرة بانكار اليهود وقيل قول بعض ممن كان بالمدينة. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ناس منهم وهم سلام بن مشكم ونعمان ابن أوفى وشاس ابن قيس ومالك بن الصيف فقالوا ذلك وقيل قاله فنحاص بن عازوراء وهو الذي قال ان الله فقير ونحن أغنياء وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الانبياء بعد موسى عليه السلام فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم فخرج عزير وهو غلام يسيح في الأرض فأتاه جبريل عليه السلام فقال له أين تذهب قال أطلب العلم فحفظه التوراة فأملاها

عليهم عن ظهر لسانه لايخرم حرفا فقالوا ماجمع الله التوراة فى صدره وهو غلام الا انه ابنه قال الامام الكلبي لما قتل بختنصر علماءهم جميعا وكان عزير إذ ذاك صغير فاستصغره ولم يقتله فلما رجع بنوا اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله تعالى عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون آية بعدما أماته مائة عام يقال إنه أتاه ملك باناء فيه ماء فسقاه فمثلت فى صدره فلما أتاهم فقال انى عزير كذبوه فقالوا إن كنت كما تزعم فأمل علينا التوراة ففعل فقالوا ان الله تعالى لم يقذف التوراة فى قلب رجل الا لأنه ابنه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ان اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فأنساهم الله تعالى التوراة ونسخها من صدورهم ورفع التابوت فتضرع عزير الى الله تعالى وابتهل اليه فعاد حفظ التوراة الى قلبه فأنذر قومه به ثم ان التابوت نزل فعرضوا ماتلاه عزير على مافيه فوجدوه مثله فقالوا ماقالوا (وقالت النصارى المسيح ابن الله) هو أيضا قول بعضهم وانما قالوه استحالة لأن يكون ولد بغير أب أو لأن يفعل ما فعله من ابراء الأكمه والأبرص وأحياء الموتى من لم يكن الها (ذلك) اشارة الى ماصدر عنهم من العظيمتين وما فيه معنى البعد للدلالة على بعد درجة المشار اليه فى الشناعة والفظاعة (قولهم بأفواههم) إما تأكيد لنسبة القول المذكور اليهم ونفى التجوز عنها أو اشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الموجود فى الافواه من غير أن يكون له مصداق فى الخارج (يضاهئون) أي فى الكفر والشناعة وقريء بغير همزة (قول الذين كفروا) أى يشابه قولهم على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه عند انقلابه مرفوعا قول الذين كفروا (من قبل) أى من قبلهم وهم المشركون الذين يقولون الملائكة بنات الله أو اللات والعزى بنات الله لاقدماؤهم كما قيل اذ لاتعدد فى القول حتى يتأتى التشبيه وجعله بين قولى الفريقين مع اتحاد المقول ليس فيه مزيد مزية . وقيل الضمير للنصارى أى يضاهى قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير الخ لانهم أقدم منهم وهو أيضا كما ترى فانه يستدعى اختصاص الرد والابطال بقوله تعالى «ذلك قولهم بأفواههم» بقول النصارى (قاتلهم الله) دعاء عليهم جميعا بالاهلاك فان من قاتله الله هلك أو تعجب من شناعة قولهم (أنى يؤفكون) كيف يصرفون من الحق الى الباطل والحال انه لاسبيل اليه أصلا (اتخذوا) زيادة تقرير لماسلف من كفرهم بالله تعالى (أحبارهم) وهم علماء اليهود واختلف فى واحده قال الاصمعى لا أدرى أهو حبر أم حبر وقال أبوا لهيثم بالفتح لاغير وكان الليث وابن السكيت يقولان حبر وحبر للعالم ذميا كان او

مسلما بعد ان كان من اهل الكتاب (ورهبانهم) وهم علماء النصارى من اصحاب الصوامع اى اتخذ كل واحد من الفريقين علماءهم لا الكل الكل (أربابا من دون الله) بأن اطاعوهم فى تحريم ما احله الله تعالى وتحليل ماحرمه او بالسجود لهم ونحوه تسمية اتباع الشيطان عبادة له فى قوله تعالى « ياأبت لاتعبد الشيطان » وقوله تعالى « بل كانوا يعبدون الجن » قال عدى بن حاتم اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب وكان اذ ذاك على دين يسمى الركوسية فريق من النصارى وهو يقرأ سورة براءة فقال « ياعدى اطرح هذا الوثن » فطرحته فلما انتهى الى قوله تعالى « اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله » قلت يارسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه الصلاة والسلام « أليس يحرمون ما احل الله فتحرمونه ويحلون ماحرم الله فتستحلونه فقلت بلى قال ذلك عبادتهم » قال الربيع قلت لابى العالية كيف كانت تلك الربوبية فى بنى اسرائيل قال انهم ربما وجدوا فى كتاب الله تعالى مايخالف أقوال الاحبار فكانوا يأخذون بأقوالهم ويتركون حكم كتاب الله (والمسيح ابن مريم) عطف على رهبانهم أى اتخذه النصارى ربا معبودا بعد ماقالوا انه ابنه تعالى عن ذلك علوا كبيرا وتخصيص الاتخاذ به يشير الى أن اليهود مافعلوا ذلك بعزير وتأخيره فى الذكر مع ان اتخاذهم له عليه الصلاة والسلام ربا معبودا أقوى من مجرد الاطاعة فى امر التحليل والتحريم كما هو المراد باتخاذهم الاحبار والرهبان أربابا لانه مختص بالنصارى ونسبته عليه الصلاة والسلام الى أمه من حيث دلالتها على مربوبيته المنافية للربوبية للايذان بكمال ركاكة رأيهم والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة (وماأمروا) أى والحال أن أولئك الكفرة ماأمروا فى كتابيهم (الا ليعبدوا الها واحدا) عظيم الشأن هو الله سبحانه وتعالى ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه فان ذلك مخل بعبادته تعالى فان جميع الكتب السماوية متفقة على ذلك قاطبة وقد قال المسيح عليه السلام انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وأما أطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر من أمر الله تعالى بطاعته فهى فى الحقيقة اطاعة الله عز وجل أو ماأمر الذين اتخذهم الكفرة أربابا من المسيح والاحبار والرهبان الا ليوحدوا الله تعالى فكيف يصح أن يكونوا أربابا وهم مأمورون مستعبدون مثلهم ولا يقدح فى ذلك كون ربوبية الاحبار والرهبان بطريق الاطاعة فان تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق الا بتخصيص الطاعة أيضا به تعالى وحيث لم يخصوها به تعالى لم يخصوا العبادة به سبحانه (لااله الاهو) صفة ثانية لالها أو استئناف مقرر للتوحيد (سبحانه عما يشركون) عن الاشراك به فى العبادة والطاعة (يريدون ان يطفئوا نور الله)

أطفاء النار عبارة عن أزالة لهبها الموجبة لزوال نورها لاعن ازالة نورها كما قيل لكن لما كان الغرض من اطفاء نار لايراد بها الا النور كالمصباح ازالة نورها جعل اطفاؤها عبارة عنها ثم شاع ذلك حتى كان عبارة عن مطلق ازالة النور وان كان لغير النار والسر فى ذلك انحصار أمكان الازالة فى نورها. والمراد بنور الله سبحانه اما حجته النيرة الدالة على وحدانيته وتنزهه عن الشركاء والاولاد أو القرآن العظيم الناطق بذلك أى يريد أهل الكتابين أن يردوا القرآن ويكذبوه فيما نطق به من التوحيد والتنزه عن الشركاء والاولاد والشرائع التى من جملتها ما خالفوه من أمر الحل والحرمة (بأفواههم) بأقاويلهم الباطلة الخارجة منها من غير أن يكون لها مصداق تنطبق عليه أو أصل تستند اليه حسبما حكى عنهم. وقيل المراد به نبوة النبي صلى الله عليه وسلم. هذا وقد قيل مثلت حالهم فيما ذكر بحال من يريد طمس نور عظيم مثبت فى الآفاق بنفخه (ويأبى الله) أى لا يريد (الا أن يتم نوره) باعلاء كلمة التوحيد واعزاز دين الاسلام وانما صح الاستثناء المفرغ من الموجب لكونه بمعنى النفى كما أشير اليه لوقوعه فى مقابلة قوله تعالى «يريدون» وفيه من المبالغة والدلالة على الامتناع ما ليس فى نفى الارادة أى لا يريد شيئا من الاشياء الا اتمام نوره فيندرج فى المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه فضلا عن الاطفاء وفى اظهار النور فى مقام الاضمار مضافا الى ضميره عز وجل زيادة اعتناء بشأنه وتشريف له على تشريف واشعار بعلة الحكم (ولو كره الكافرون) جواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على جملة قبلها مقدرة وكلتاهما فى موقع الحال أى لا يريد الله الا اتمام نوره لو لم يكره الكافرون ذلك ولو كرهوه أى على كل حال مفروض وقد حذفت الاولى فى الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة لان الشيء اذا تحقق عند المانع فلان يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذا السر يدور مافى ان ولو الوصليتين من التأكيد وقد مر زيادة تحقيق لهذا مرارا (هو الذى أرسل رسوله) ملتبسا (بالهدى) أى القرآن الذى هو هدى للمتقين (ودين الحق) الثابت وهو دين الاسلام (ليظهره) أى رسوله (على الدين كله) أى على أهل الاديان كلهم أو ليظهر الدين الحق على سائر الاديان بنسخه اياها حسبما تقتضيه الحكمة والجملة بيان وتقرير لمضمون الجملة السابقة والكلام فى قوله عز وجل (ولو كره المشركون) كما فيما سبق خلا أن وصفهم بالشرك بعد وصفهم بالكفر للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول الى الكفر بالله (يا أيها الذين آمنوا) شروع فى بيان حال الاحبار والرهبان فى اغوائهم لاراذلهم اثر بيان سوء حال الاتباع فى اتخاذهم لهم أربابا يطيعونهم فى الاوامر والنواهى واتباعهم لهم فيما يأتون وما يذرون

(ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل) يأخذونها بطريق الرشوة لتغيير الاحكام والشرائع والتخفيف والمسامحة فيها وانما عبر عن ذلك بالاكل بناء على انه معظم الغرض منه وتقبيحا لحالهم وتنفيرا للسامعين عنهم (ويصدون) الناس (عن سبيل الله) عن دين الاسلام او عن المسلك المقرر في التوراة والانجيل الى ما افتروه وحرفوه بأخذ الرشا او يصدون عنه بانفسهم بأكلهم الاموال بالباطل (والذين يكنزون الذهب والفضة) اى يجمعونهما و يحفظونهما سواء كان ذلك بالدفن او بوجه آخر والموصول عبارة اما عن الكثير من الاحبار والرهبان فيكون مبالغة في الوصف بالحرص والضن بهما بعد وصفهم بما سبق من أخذ الرشا والبراطيل في الاباطيل واما عن المسلمين الكانزين غير المنفقين وهو الانسب بقوله عز وجل (ولا ينفقونها في سبيل الله) فيكون نظمهم في قرن المرتشين من أهل الكتاب تغليظا ودلالة على كونهم اسوة لهم في استحقاق البشارة بالعذاب الاليم فالمراد بالانفاق في سبيل الله الزكاة . لما روى انه لما نزل كبر ذلك على المسلمين فذكر عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «ان الله تعالى لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها ما بقى من اموالكم» ولقوله عليه الصلاة والسلام «ما أدى زكاته فليس بكنز» أي بكنز أوعد عليه فان الوعيد عليه مع عدم الانفاق فيما امر الله بالانفاق فيه واما قوله عليه الصلاة والسلام «من ترك صفراء او بيضاء كوى بها» ونحوه فالمراد بها مالم يؤد حقها لقوله عليه الصلاة والسلام «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره» (فبشرهم بعذاب اليم) خبر الموصول والفاء لتضمنه معنى الشرط ويجوز ان يكون الموصول منصوبا بفعل يفسره فبشرهم (يوم) منصوب بعذاب أليم أو بمضمر يدل عليه ذلك أي يعذبون او باذكر (يحمى عليها في نار جهنم) اى يوم توقد النار ذات حمى شديد عليها واصله تحمى النار فجعل الاحماء للنار مبالغة ثم حذفت النار واسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيها على المقصود فانتقل من صيغة التأنيث إلى التذكير كما تقول رفعت القصة الى الأمير فان طرحت القصة قلت رفع إلى الأمير . وانما قيل عليها والمذكور شيآن لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة كما قال على رضى الله عنه أربعة آلاف وما دونها نفقة وما فوقها كنز وكذا الكلام في قوله تعالى ولا ينفقونها وقيل الضمير للاموال والكنوز فان الحكم عام وتخصيصهما بالذكر لانهما قانون التمول أو للفضة وتخصيصها لقربها ودلالة حكمها على أن الذهب كذلك بل أولى (فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) لأن جمعهم لها وأمساكهم كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم

الشهية والملابس البهية أو لانهم ازوروا عن السائل وأعرضوا عنه وولوه ظهورهم أو لانها أشرف الاعضاء الظاهرة فانها المشتملة على الاعضاء الرئيسة التى هى الدماغ والقلب والكبد أو لانها أصول الجهات الاربعة التي هى مقاديم البدن وما آخره وجنباه (هذا ما كنزتم) على ارادة القول (لأنفسكم) لمنفعتها فكان عين مضرتها وسبب تعذيبها (فذوقوا ما كنتم تكنزون) أى وبال كنزكم أو ما تكنزونه وقرىء بضم النون (ان عدة الشهور) أى عددها (عند الله) أى فى حكمه وهو معمول لها لانها مصدر (اثنا عشر) خبر لأن (شهرا) تمييز مؤكد كما فى قولك عندي من الدنانير عشرون دينارا والمراد الشهور القمرية اذ عليها يدور فلك الاحكام الشرعية (فى كتاب الله) فى اللوح المحفوظ أو فيما أثبته وأوجبه وهو صفة اثنا عشر شهرا مثبتا فى كتاب الله وقوله عز وجل (يوم خلق السموات والارض) متعلق بما فى الجار والمجرور من معنى الاستقرار أو بالكتاب على أنه مصدر والمعنى ان هذا أمر ثابت فى نفس الامر منذ خلق الله تعالى الاجرام والحركات والازمنة (منها) أى من تلك الشهور الأثنى عشر (أربعة حرم) هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع « ألا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » والمعنى رجعت الاشهر الى ما كانت عليه من الحل والحرمة وعاد الحج الى ذى الحجة بعدما كانوا أزالوه عن محله بالنسيء الذى أحدثوه فى الجاهلية وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها فى ذى القعدة (ذلك) أى تحريم الاشهر الاربعة المعينة المعدودة وما فى ذلك من معنى البعد لتفخيم المشار اليه هو (الدين القيم) المستقيم دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما وكانوا يعظمون الاشهر الحرم ويكرهون القتال فيها حتى أنه لو لقي رجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه وسموا رجبا الاصم ومنصل الاسنة حتى أحدثوا النسيء فغيروا (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) بهتك حرمتهن وارتكاب ما حرم فيهن والجمهور على أن حرمة القتال فيهن منسوخة وأن الظلم ارتكاب المعاصى فيهن فانه أعظم وزرا كارتكابها فى الحرم وعن عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الاشهر الحرم الا أن يقاتلوا وما نسخت ويؤيد الاول أنه عليه الصلاة والسلام حصر طائفا وغزا هوازن بحنين فى شوال وذى القعدة (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) أى جميعا وهو مصدر كف عن الشيء فان الجميع مكفوف عن الزيادة

وقع موقع الحال (واعلموا أن الله مع المتقين) أى معكم بالنصر والامداد فيما تباشرونه من القتال وانما وضع المظهر موضعه مدحالهم بالتقوى وحثا القاصرين عليه وايذانا بأنه المدار فى النصر وقيل هى بشارة وضمان لهم بالنصرة بسبب تقواهم (انما النسيء) هو مصدر نسأه اذا أخره نسأ ونساء ونسيئا نحو مس مساو مساسا ومسيسا. وقرىء بهن جميعا وقرىء بقلب الهمزة ياء وتشديد الياء الاولى فيها كانوا اذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرا آخر حتى رفضوا خصوص الاشهر واعتبروا مجرد العدد وربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة اشهر من السنة حرما ولذلك نص على العدد المعين فى الكتاب والسنة اى إنما تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر (زيادة فى الكفر) لانه تحليل ما حرمه الله وتحريم ما حلله فهو كفر آخر مضموم الى كفرهم (يضل به الذين كفروا) ضلالا على ضلالهم القديم وقرىء على البناء للفاعل من الافعال على ان الفعل لله سبحانه اى يخلق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباديه وأسبابه وهو المعنى على القراءة الاولى أيضا. وقيل المضلون حينئذ رؤساؤهم والموصول عبارة عن أتباعهم ه قرىء يضل بفتح الياء والضاد من ضلل يضلل ونضل بنون العظمة (يحلونه) أى الشهر المؤخر (عاما) من الاعوام ويحرمون مكانه شهرا آخرا مما ليس بحرام (ويحرمونه) أى يحافظون على حرمته كما كانت والتعبير عن ذلك بالتحريم باعتبار احلالهم له فى العام الماضى أو لاسنادهم له الى آلهتهم كما سيجيء (عاما) آخر اذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم قال الكلبى أول من فعل ذلك رجل من كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان اذا هم الناس بالصدر من الموسم يقوم فيخطب ويقول لامرد لما قضيت وأنا الذى لا أعاب ولا أجاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه أن ينسئهم شهرا يغيرون فيه فيقول ان صفر العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الاوتار ونزعوا الاسنة والازجة وان قال حلال عقدوا الاوتار وشدوا الازجة وأغاروا وقيل هو جنادة بن عوف الكنانى وكان مطاعا فى الجاهلية كان يقول على جمل فى الموسم فينادى بأعلى صوته ان آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ثم يقوم فى العام القابل فيقول ان آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه وقيل هو رجل من كنانة يقال له القلمس قال قائلهم :

ومنا ناسيء الشهر القلمس . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أول من سن النسيء عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف والجملتان تفسير للضلال أو حال من الموصول والعامل عامله (ليواطؤا) أى ليوافقوا (عدة ماحرم الله) من الاشهر الاربعة واللام متعلقة

بالفعل الثانى أو بما يدل عليه بمجموع الفعلين (فيحلوا ماحرم الله) بخصوصه من الأشهر المعينة (زين لهم سوء أعمالهم) وقرئ على البناء للفاعل وهو الله سبحانه والمعنى جعل أعمالهم مشتهاة للطبع محبوبة للنفس وقيل خذ لهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسنا فاستمروا على ذلك (والله لايهدى القوم الكافرين) هداية موصلة الى المطلوب ألبتة وانما يهديهم الى مايوصل اليه عند سلوكه وهم قد صدوا عنه بسوء اختيارهم فتاهوا فى تيه الضلال (ياأيها الذين آمنوا) رجوع الى حث المؤمنين وتجريد عزائمهم على قتال الكفرة أثر بيان طرف من قبائحهم الموجبة لذلك (مالكم) استفهام فيه معنى الانكار والتوبيخ (اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم) تباطأتم وتقاعستم أصله تثاقلتم وقد قرئ كذلك أى أى شئ حصل أو حاصل لكم أو ماتصنعون حين قال لكم النبى صلى الله عليه وسلم انفروا أى اخرجوا الى الغزو فى سبيل الله متثاقلين على أن الفعل ماض لفظا مضارع معنى كانه قيل تتثاقلون فالعامل فى الظرف الاستقرار المقدر فى لكم أو معنى الفعل المدلول عليه بذلك ويجوز أن يعمل فيه الحال أى مالكم متثاقلين حين قيل لكم انفروا . وقرئ أثاقلتم على الاستفهام الانكارى التوبيخى فالعامل فى الظرف حينئذ انما هو الاول (الى الارض) متعلق باثاقلتم على تضمينه معنى الميل والاخلاد أى اثاقلتم مائلين الى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل وكرهتم مشاق الغزو ومتاعبه المستتبعة للراحة الخالدة كقوله تعالى« أخلد الى الارض واتبع هواه» أو الى الاقامة بأرضكم ودياركم وكان ذلك فى غزوة تبوك فى سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف استنفروا فى وقت عسرة وقحط وقيظ وقد أدركت ثمار المدينة وطابت ظلالها مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك وقيل ماخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها الا ورى بغيرها الا فى غزوة تبوك فانه عليه الصلاة والسلام بين لهم المقصد فيها ليستعدوا لها (أرضيتم بالحيوة الدنيا) وغرورها (من الآخرة) أى بدل الآخرة ونعيمها الدائم (فما متاع الحيوة الدنيا) أظهر فى مقام الاضمار لزيادة التقرير أى فما التمتع بها وبلذائذها (فى الآخرة) أى فى جنب الآخرة (الا قليل) أي مستحقر لايؤبه له وفى ترشيح الحياة الدنيا بما يؤذن بنفاستها ويستدعى الرغبة فيها وتجريد الآخرة عن مثل ذلك مبالغة فى بيان حقارة الدنيا ودناءتها وعظم شأن الآخرة وعلوها (الاتنفروا) أى الا ان تنفروا الى ما استنفرتم اليه (يعذبكم) أى الله عز وجل (عذابا أليما) أى يهلككم بسبب فظيع هائل كقحط ونحوه (ويستبدل) بكم بعد اهلاككم (قوما غيركم) وصفهم بالمغايرة لهم لتأكيد الوعيد والتشديد فى التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفية والذاتية

المستلزمة للاستئصال أى قوما مطيعين مستأثرين للآخرة على الدنيا ليسوا من أولادكم ولا أرحامكم كأهل اليمن وأبناء فارس. وفيه من الدلالة على شدة السخط مالا يخفى (ولا تضروه شيئا) أى لايقدح تثاقلكم فى نصرة دينه أصلا فانه الغنى عن كل شيء فى كل شيء. وقيل الضمير للرسول صلى الله عليه وسلم فان الله عز وجل وعده بالعصمة والنصرة وكان وعده مفعولا لامحالة (والله على كل شيء قدير) فيقدر على اهلاككم والاتيان بقوم آخرين (الا تنصروه فقد نصره الله) أى ان لم تنصروه فسينصره الله الذى قد نصره فى وقت ضرورة أشد من هذه المرة فحذف الجزاء وأقيم سببه مقامه أو ان لم تنصروه فقد أوجب له النصرة حتى نصره فى مثل ذلك الوقت فلن يخذله فى غيره (إذ أخرجه الذين كفروا) أى تسببوا لخروجه حيث أذن له عليه الصلاة والسلام فى ذلك حين هموا باخراجه (ثانى اثنين) حال من ضميره عليه الصلاة والسلام وقرىء بسكون الياء على لغة من يجرى الناقص مجرى المقصور فى الاعراب أى أحد اثنين من غير اعتبار كونه عليه الصلاة والسلام ثانيا فان معنى قولهم ثالث ثلاثة ورابع أربعة ونحو ذلك أحد هذه الأعداد مطلقا لا الثالث والرابع خاصة ولذلك منع الجمهور أن ينصب مابعده بأن يقال ثالث ثلاثة ورابع أربعة وقد مر فى قوله تعالى « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » من سورة المائدة وجعله عليه الصلاة والسلام ثانيهما لمشى الصديق أمامه ودخوله فى الغار أولا لكنسه وتسوية البساط كما ذكر فى الأخبار تمحل مستغنى عنه (إذ هما فى الغار) بدل من إذ أخرجه بدل البعض إذ المراد به زمان متسع . والغار ثقب فى أعلى ثور وهو جبل فى يمنى مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثا . (إذ يقول) بدل ثان أو ظرف لثانى (لصاحبه) أى الصديق (لا تحزن إن الله معنا) بالعون والعصمة والمراد بالمعية الولاية الدائمة التى لا تحوم حول صاحبها شائبة شيء من الحزن وما هو المشهور من اختصاص مع بالمتبوع فالمراد بما فيه من المتبوعية هو المتبوعية فى الأمر المباشر . روى أن المشركين طلعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن تصب اليوم ذهب دين الله فقال عليه الصلاة والسلام ماظنك باثنين الله ثالثهما وقيل لما دخلا الغار بعث الله تعالى حمامتين فباضتا فى أسفله والعنكبوت فنسجت عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اعم أبصارهم » فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون قد أخذ الله تعالى أبصارهم عنه وفيه من الدلالة على علو طبقة الصديق رضى الله عنه وسابقة صحبته مالا يخفى ولذلك

قالوا من أنكر صحبة أبى بكر رضى الله عنه فقد كفر لانكاره كلام الله سبحانه وتعالى (فأنزل الله سكينته) أمنته التى تسكن عندها القلوب (عليه) على النبى صلى الله عليه وسلم فالمراد بها مالا يحوم حوله شائبة الخوف أصلا أو على صاحبه إذ هو المنزعج وأما النبى صلى الله عليه وسلم فكان على طمأنينة من أمر (وأيده بجنود لم تروها) عطف على نصره الله والجنود هم الملائكة النازلون يوم بدر والأحزاب وحنين وقيل هم الملائكة أنزلهم الله ليحرسوه فى الغار ويأباه وصفهم بعدم رؤية المخاطبين لهم وقوله عز وعلا (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى) يعنى الشرك او دعوة الكفر فان ذلك الجعل لا يتحقق بمجرد الانجاء بل بالقتل والأسر ونحو ذلك (وكلمة الله) اى التوحيد او دعوة الاسلام (هى العليا) لا يدانيها شيء وتغيير الأسلوب للدلالة على انها فى نفسها كذلك لا يتبدل شأنها ولا يتغير حالها دون غيرها من الكلم ولذلك وسط ضمير الفصل وقرىء بالنصب عطفا على كلمة الذين (والله عزيز) لا يغالب (حكيم) فى حكمه وتدبيره (انفروا) تجريد للامر بالنفور بعد التوبيخ على تركه والانكار على المساهلة فيه وقوله تعالى (خفافا وثقالا) حالان من ضمير المخاطبين أى على أى حال كان من يسر وعسر حاصلين بأى سبب كان من الصحة والمرض أو الغنى والفقر أو قلة العيال وكثرتهم أو غير ذلك مما ينتظمه مساعدة الأسباب وعدمها بعد الامكان والقدرة فى الجملة. وما ذكر فى تفسيرهما من قولهم خفافا لقلة عيالكم وثقالا لكثرتها أو خفافا من السلاح وثقالا منه أو ركبانا ومشاة أو شبانا وشيوخا أو مهازيل وسمانا أو صحاحا ومراضا ليس لتخصيص الامرين المتقابلين بالارادة من غير مقارنة للباقى. وعن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلى أن أنفر قال عليه الصلاة والسلام نعم حتى نزل «ليس على الأعمى حرج» .. وعن ابن عباس رضى الله عنهما نسخت بقوله عز وجل «ليس على الضعفاء ولا على المرضى» الآية (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) إيجاب للجهاد بهما أن أمكن وبأحدهما عند امكانه واعواز الآخرين حتى أن من ساعده النفس والمال يجاهد بهما ومن ساعده المال دون النفس يغزى مكانه من حاله على عكس حاله الى هذا ذهب كثير من العلماء وقيل هو إيجاب للقسم الاول فقط (ذلكم) أى ما ذكر من النفير والجهاد . وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الشرف (خير لكم) أى خير عظيم فى نفسه أو خير مما يبتغى بتركه من الراحة والدعة وسعة العيش والتمتع بالاموال والاولاد (ان كنتم تعلمون) أى تعلمون الخير علمتم أنه خير أو ان كنتم تعلمون أنه خير اذ لا احتمال لغير الصدق فى أخبار الله تعالى فبادروا اليه

(لوكان) صرف للخطاب عنهم وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعديداً لماصدر عنهم من الهنات قولا و فعلا على طريق المباثة و بيانا لدناءة هممهم وسائر رذائلهم أى لو كان مادعوا اليه (عرضا قريبا) العرض ماعرض لك من منافع الدنيا أى لو كان ذلك غنما سهل المأخذ قريب المنال (وسفرا قاصدا) ذا قصد بين القريب و البعيد (لاتبعوك) فى النفير طمعا فى الفوز بالغنيمة وتعليق الاتباع بكلا الامرين يدل على عدم تحققه عند توسط السفر فقط (ولكن بعدت عليهم الشقة) أى المسافة الشاطة الشاقة التي تقطع بمشقة وقرىء بكسر العين و الشين (وسيحلفون) أى المتخلفون عن الغزو وقوله تعالى (بالله) اما متعلق بسيحلفون أو هو من جملة كلامهم والقول مراد على الوجهين أى سيحلفون بالله اعتذارا عند قفولك قائلين (لواستطعنا) أو سيحلفون قائلين بالله لو استطعنا الخ أى لو كان لنا استطاعة من جهة العدة أو من جهة الصحة أو من جهتهما جميعا حسبما عن لهم من الكذب و التعلل وعلى كلا التقديرين فقوله تعالى (لخرجنا معكم) ساد مسد جوابى القسم والشرط جميعا أما على الثانى فظاهر وأما على الاول فلان قولهم لواستطعنا فى قوة بالله لو استطعنا لانه بيان لقوله تعالى سيحلفون بالله وتصديق له والأخبار بما سيكون منهم بعد القفول وقد وقع حسبما أخبر به من جملة المعجزات الباهرة وقرىء لو استطعنا بضم الواو تشبيها لها بواو الجمع كما فى قوله عزوجل « فتمنوا الموت » (يهلكون أنفسهم) بدل من سيحلفون لان الحلف الكاذب أهلاك للنفس ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع » أو حال من فاعله أى مهلكين أنفسهم أومن فاعل خرجنا جىء به على طريقة الاخبار عنهم كأنه قيل نهلك أنفسنا أى لخرجنا معكم مهلكين أنفسنا كما فى قولك: حلف ليفعلن مكان لافعلن (والله يعلم أنهم لكاذبون) أى فى مضمون الشرطية وفيما ادعوا ضمنا من انتفاء تحقق المقدم حيث كانوا مستطيعين للخروج و لم يخرجوا (عفا الله عنك) صريح فى أنه سبحانه وتعالى قد عفا عنه عليه الصلاة و السلام ماوقع منه عند استئذان المتخلفين فى التخلف معتذرين بعدم الاستطاعة وأذنه اعتمادا على أيمانهم ومواثيقهم لخلوها عن المزاحم من ترك الاولى والافضل الذى هو التأنى و التوقف الى انجلاء الامر وانكشاف الحال وقوله عز و جل (لم أذنت لهم) أى لاى سبب أذنت لهم فى التخلف حين اعتلوا بعللهم بيان لما اشير اليه بالعفو من ترك الاولى واشارة الى أنه ينبغى أن تكون أموره عليه الصلاة و السلام منوطة بأسباب قوية موجبة لها أومصححة وأن ماأبرزوه فى معرض التعلل والاعتذار مشفوعا بالايمان كان بمعزل من كونه سببا للاذن

قبل ظهور صدقه وكلتا اللامين متعلقة بالاذن لاختلافهما فى المعنى فان الاولى للتعليل والثانية للتبليغ والضمير المجرور لجميع المستأذنين وتوجه الانكار الى الأذن باعتبار شموله للكل لا باعتبار تعلقه بكل فرد فرد لتحقق عدم استطاعة بعضهم كما ينبىء عنه قوله سبحانه (حتى يتبين لك الذين صدقوا) أى فيما أخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة من جهة المال أو من جهة البدن أو من جهتهما معا حسبما عن لهم هناك (وتعلم الكاذبين) فى ذلك فتعامل كلا من الفريقين بما يستحقه وهو بيان لذلك الاولى الأفضل وتحضيض له عليه الصلاة والسلام عليه فان كلمة حتى سواء كانت بمعنى اللام أو بمعنى الى لا يمكن تعلقها بقوله تعالى لم أذنت لاستلزامه أن يكون أذنه عليه الصلاة والسلام لهم معللا او مغيا بالتبيين والعلم ويكون توجه الاستفهام اليه من تلك الحيثية وذلك بين الفساد بل بما يدل عليه ذلك كأنه قيل لم سارعت الى الاذن لهم وهلا تأنيت حتى ينجلى الامر كما هو قضية الحزم قال قتادة وعمرو بن ميمون اثنان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر فيهما بشىء أذنه للمنافقين واخذه الفداء من الاسارى فعاتبه الله تعالى كما تسمعون وتغيير الاسلوب بأن عبر عن الفريق الأول بالموصول الذى صلته فعل دال على الحدوث وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدوام للايذان بأن ماظهر من الاولين صدق حادث فى امر خاص غير مصحح لنظمهم فى سلك الصادقين وان ماصدر من الآخرين وان كان كذبا حادثا متعلقا بأمر خاص لكنه امر جار على عادتهم المستمرة ناشىء عن رسوخهم فى الكذب والتعبير عن ظهور الصدق بالتبين وعما يتعلق بالكذب بالعلم لما هو المشهور من ان مدلول الخبر هو الصدق والكذب احتمال عقلى فظهور صدقه انما هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه بعدما كان محتملا له احتمالا عقليا وأما كذبه فأمر حادث لا دلالة للخبر عليه فى الجملة حتى يكون ظهوره تبينا له بل هو نقيض لمدلوله فما يتعلق به يكون علما مستأنفا . واسناده الى ضميره عليه الصلاة والسلام لا ألى المعلومين ببناء الفعل للمفعول مع اسناد التبين الى الأولين لما أن المقصود ههنا علمه عليه الصلاة والسلام بهم ومؤاخذتهم بموجبه بخلاف الأولين حيث لامؤاخذة عليهم ومن لم يتنبه لهذا قال حتى يتبين لك من صدق فى عذره ممن كذب فيه . واسناد التبين الى الأولين وتعليق العلم بالآخرين مع أن مدار الاسناد والتعلق أولا وبالذات هو وصف الصدق والكذب كما أشير اليه لما أن المقصد هو العلم بكلا الفريقين باعتبار اتصافهما بوصفيهما المذكورين ومعاملتهما بحسب استحقاقهما لا العلم بوصفيهما بذاتيهما أو باعتبار قيامهما بموصوفيهما هذا . وفى تصدير فاتحة الخطاب ببشارة العفو دون مايوهم العتاب من مراعاة جانبه عليه الصلاة والسلام

وتعهده بحسن المفاوضة ولطف المراجعة مالايخفى على أولي الألباب . قال سفيان ابن عيينة انظروا الى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو ولقد أخطأ وأساء الأدب و بئسما فعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام كناية عن الجناية وان معناه أخطأت وبئسما فعلت . هب انه كناية أليس إيثارها على التصريح بالجناية للتلطيف فى الخطاب والتخفيف فى العتاب وهب ان العفو مستلزم للخطأ فهل هو مستلزم لكونه من القبح واستتباع اللائمة بحيث يصحح هذه المرتبة من المشافهة بالسوء أو يسوغ أنشاء الاستقباح بكلمة بئسما المنبئة عن بلوغ القبح الى رتبة يتعجب منها ولا يخفى أنه لم يكن فى خروجهم مصلحة للدين او منفعة للمسلمين بل كان فيه فساد وخبال حسبما نطق به قوله عز وجل «لوخرجوا» الخ وقد كرهه سبحانه كما يفصح عنه قوله تعالى «ولكن كره الله انبعاثهم» الآية نعم كان الأولى تأخير الاذن حتى يظهر كذبهم آثر ذى أثير ويفتضحوا على رؤوس الاشهاد ولا يتمكنوا من التمتع بالعيش على الأمن والدعة ولا يتسنى لهم الابتهاج فيما بينهم بأنهم غروه عليه الصلاة والسلام وأرضوه بالاكاذيب على انه لم يهنأ لهم عيش ولا قرت لهم عين إذ لم يكونوا على أمن واطمئنان بل كانوا على خوف من ظهور امرهم وقد كان (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر) تنبيه على انه كان ينبغى ان يستدل باستئذانهم على حالهم ولايؤذن لهم اى ليس من عادة المؤمنين ان يستأذنوك فى (ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) وأن الخلص منهم يبادرون اليه من غير توقف على الاذن فضلا عن أن يستأذنوك فى التخلف وحيث استأذنك هؤلاء فى التخلف كان ذلك مئنة للتأنى فى أمرهم بل دليلا على نفاقهم وقيل المستأذن فيه محذوف ومعنى قوله تعالى أن يجاهدوا كراهة ان يجاهدوا ثم قيل المحذوف هو التخلف والمعنى لايستأذنك المؤمنون فى التخلف كراهة الجهاد فيتوجه النفى الى القيد وبه يمتاز المؤمن من المنافق وهو وان كان فى نفسه امرا خفيا لا يوقف عليه بادىء الامر لكن عامة احوالهم لما كانت منبئة عن ذلك جعل امرا ظاهرا مقررا . وقيل هو الجهاد أى لايستأذنك المؤمنون فى الجهاد كراهة أن يجاهدوا بناء على أن الاستئذان فى الجهاد ربما يكون لكراهته ولا يخفى أن الاستئذان فى الشيء لكراهته مما لا يقع بل لايعقل ولو سلم وقوعه فالاستئذان لعلة الكراهة مما لا يمتاز بحسب الظاهر من الاستئذان لعلة الرغبة ولو سلم فالذى نفى عن المؤمنين يجب أن يثبت للمنافقين وظاهر أنهم لم يستأذنوا فى الجهاد لكراهتهم له بل انما استأذنوا فى التخلف (والله عليم بالمتقين) شهادة لهم بالانتظام فى سلك المتقين وعدة لهم بأجزل الثواب وتقرير لمضمون ما سبق كأنه قيل والله عليم بأنهم كذلك واشعار بأن ما

صدر عنهم معلل بالتقوى (انما يستأذنك) أي فى التخلف مطلقا على الاول أو لكراهة الجهاد على الثانى (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) تخصيص الايمان بهما فى الموضعين للايذان بأن الباعث على الجهاد ببذل النفس والمال إنما هو الايمان بهما إذ به يتسنى للمؤمنين استبدال الحياة الأبدية والنعيم المقيم الخالد بالحياة الفانية والمتاع الكاسد (وارتابت قلوبهم) عطف على الصلة وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الريب وتقرره (فهم) حال كونهم (فى ريبهم) وشكهم المستقر فى قلوبهم (يترددون) أى يتحيرون فان التردد ديدن المتحير كما أن الثبات ديدن المستبصر والتعبير عنه به مما لايخفى حسن موقعه (ولو أرادوا الخروج) يدل على أن بعضهم قالوا عند الاعتذار كنا نريد الخروج لكن لم نتهيأ له وقد قرب الرحيل بحيث لا يمكننا الاستعداد فقيل تكذيبا لهم لو أرادوه (لأعدوا له) للخروج فى وقته (عدة) أى أهبة من الزاد والراحلة والسلاح وغير ذلك مما لا بد منه للسفر وقرىء عده بحذف التاء والاضافة إلى ضمير الخروج كما فعل بالعدة من قال: وأخلفوك عد الأمر الذى وعدوا . أى عدته وقرىء عدة بكسر العين وعده بالاضافة (ولكن كره الله انبعاثهم) أى نهوضهم للخروج قيل هو استدراك عما يفهم من مقدم الشرطية فان انتفاء إرادتهم للخروج يستلزم انتفاء خروجهم وكراهة الله تعالى انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج فكأنه قيل ماخرجوا ولكن تثبطوا والاتفاق فى معنى لايمنع الوقوع بين طرفى لكن بعد تحقق الاختلاف نفيا واثباتا فى اللفظ كقولك ما أحسن إلى زيد ولكن أساء والاظهر ان يكون استدراكا من نفس المقدم على نهج ما فى الأقيسة الاستثنائية والمعنى لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن ما أرادوه لما انه تعالى كره انبعاثهم لما فيه من المفاسد التى ستبين (فثبطهم) أي حبسهم بالجبن والكسل فتثبطوا عنه ولم يستعدوا له (وقيل اقعدوا مع القاعدين) تمثيل لالقاء الله تعالى كراهة الخروج فى قلوبهم أو لوسوسة الشيطان بالأمر بالقعود أو هو حكاية قول بعضهم لبعض أو هو إذن الرسول صلى الله عليه وسلم لهم فى القعود والمراد بالقاعدين اما المعذورون أو غيرهم وأياما كان فغير خال عن الذم (لو خرجوا فيكم) بيان لسر كراهته تعالى لانبعاثهم أى لو خرجوا مخالطين لكم (مازادوكم) أى ما أورثوكم شيئا من الأشياء (إلا خبالا) أى فسادا وشرا فالاستثناء مفرغ متصل وقيل منقطع وليس بذلك (ولأوضعوا خلالكم) أى ولسعوا فيما بينكم بالنمائم والتضريب وافساد ذات البين من وضع البعير وضعا اذا أسرع وأوضعته أنا أى حملته

على الاسراع والمعنى لأوضعوا ركائبهم بينكم والمراد به المبالغة فى الاسراع بالنمائم لأن الراكب أسرع من الماشى وقرىء ولا رقصوا من رقصت الناقة أسرعت وأرقصتها أنا وقرىء ولأوفضوا أى أسرعوا (يبغونكم الفتنة) يحاولون أن يفتنوكم بايقاع الخلاف فيما بينكم والقاء الرعب فى قلوبكم وافساد نياتكم والجملة حال من ضمير أوضعوا أو استئناف (وفيكم سماعون لهم) أى نمامون يسمعون حديثكم لأجل نقله اليهم أو فيكم قوم ضعفة يسمعون للمنافقين أى يطيعونهم والجملة حال من مفعول يبغونكم او من فاعله لاشتمالها على ضميريهما أو مستأنفة ولعلهم لم يكونوا فى كمية العدد وكيفية الفساد بحيث يخل مكانهم فيما بين المؤمنين بأمر الجهاد اخلالا عظيما ولم يكن فساد خروجهم معادلا لمنفعته ولذلك لم تقتض الحكمة عدم خروجهم فخرجوا مع المؤمنين ولكن حيث كان انضمام المنافقين القاعدين اليهم مستتبعا لخلل كلى كره الله انبعاثهم فلم يتسن اجتماعهم فاندفع فسادهم . ووجه العتاب على الاذن فى قعودهم مع تقرره لا محالة وتضمن خروجهم لهذه المفاسد أنهم لو قعدوا بغير إذن منه عليه الصلاة والسلام لظهر نفاقهم فيما بين المسلمين من أول الأمر ولم يقدروا على مخالطتهم والسعى فيما بينهم بالأراجيف ولم يتسن لهم التمتع بالعيش الى أن يظهر حالهم بقوارع الآيات النازلة (والله عليم بالظالمين) علما محيطا بضمائرهم وظواهرهم وما فعلوا فيما مضى وما يتأتى منهم فيما سيأتى ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد فى الوعيد والاشعار بترتبه على الظلم ولعله شامل للفريقين السماعين والقاعدين (لقد ابتغوا الفتنة) تشتيت شملك وتفريق أصحابك منك (من قبل) أى يوم أحد حين انصرف عبدالله بن أبى بن سلول المنافق بمن معه وقد تخلف بمن معه عن تبوك أيضا بعدما خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم الى ذى جدة أسفل من ثنية الوداع وعن ابن جريج رضى الله عنه وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثناعشر رجلا من المنافقين ليفتكوا به عليه الصلاة والسلام فردهم الله تعالى خاسئين (وقلبوا لك الأمور) تقليب الأمر تصريفه من وجه الى وجه وترديده لأجل التدبير والاجتهاد فى المكر والحيلة يقال للرجل المتصرف فى وجوه الحيل حول وقلب أى اجتهدوا ودبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء فى أبطال أمرك وقرىء بالتخفيف (حتى جاء الحق) أى النصر والتأييد الالهى (وظهر أمر الله) غلب دينه وعلا شرعه (وهم كارهون) والحال أنهم كارهون لذلك على رغم منهم والآيتان لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن تخلف المتخلفين وبيان ماثبطهم الله تعالى لأجله وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وازاحة أعذارهم تداركا لما

عسى يفوت بالمبادرة الى الاذن وايذانا بأن مافات بها ليس مما لايمكن تلافيه بهوينا للخطب (ومنهم من يقول ائذن لى) فى القعود (ولاتفتنى) أى لا توقعنى فى الفتنة وهى المعصية والاثم يريدانى متخلف لامحالة أذنت أو لم تأذن فائذنلى حتى لأ أقع فى المعصية بالمخالفة أولا تلقنى فى الهلكة فانى ان خرجت معك هلك مالى وعيالى لعدم من يقوم بمصالحهم وقيل قال الجدبن قيس قد علمت الانصار أنى مشتهر بالنساء فلاتفتنى ببنات الاصفر يعنى نساء الروم ولكن أعينك بمالى فاتركنى . وقرىء ولاتفتنى من أفتنه بمعنى فتنه (ألا فى الفتنة) أى فى عينها ونفسها وأكمل أفرادها الغنى عن الوصف بالكمال الحقيق باختصاص اسم الجنس به (سقطوا) الا فى شىء مغاير لهافضلاعن أن يكون مهربا ومخلصا عنها وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف والجراءة على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعة ومن القعود بالاذن المبنى عليه وعلى الاعتذارات الكاذبة وقرىء بافراد الفعل محافظة على لفظ من وفى تصدير الجملة بحرف التنبيه مع تقديم الظرف ايذان بأنهم وقعوا فيها وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة زعما منهم أن الفتنة انما هى التخلف بغير اذن وفى التعبير عن الافتتان بالسقوط فى الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم فى دركات الردى أسفل سافلين وقوله عز وجل (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) وعيد لهم على ما فعلوا معطوف على الجملة السابقة داخل تحت التنبيه أى جامعة لهم يوم القيامة من كل جانب . وايثار الجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار أو محيطة بهم الآن تنزيلا لشىء سيقع عن قريب منزلة الواقع أووضعا لاسباب الشىء موضعه فان مبادي احاطة النار بهم من الكفر والمعاصى محيطة بهم الآن من جميع الجوانب ومن جملتها مافروا منه وما سقطوا فيه من الفتنة . وقيل تلك المبادى المتشكلة بصور الاعمال والاخلاق هي النار بعينها ولكن لايظهر ذلك فى هذه النشأة وانما يظهر عند تشكلها بصورها الحقيقية فى النشأة الآخرة والمراد بالكافرين اما المنافقون . وايثار وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر والاشعار بانهم معظم اسباب الاحاطة المذكورة واما جميع الكافرين الشاملين للمنافقين شمولا أوليا (أن تصبك) فى بعض مغازيك (حسنة) من الظفر والغنيمة (تسؤهم) تلك الحسنة أى تورثهم مساءة لفرط حسدهم وعداوتهم لك (و إن تصبك) فى بعضها (مصيبة) من نوع شدة (يقولوا) متبجحين بما صنعوا حامدين لآرائهم (قد أخذنا أمرنا) أى تلافينا مايهمنا من الامر يعنون به الاعتزال عن المسلمين والقعود عن الحرب والمداراة مع الكفرة وغير ذلك من أمور الكفر والنفاق قولا وفعلا (من قبل) أى من قبل اصابة

المصيبة فى وقت تداركه يشيرون بذلك الى ان المعاملة المذكورة انما تروج عند الكفرة بوقوعها حال قوة الاسلام لا بعد اصابة المصيبة (ويتولوا) عن مجلس الاجتماع والتحدث الى أهاليهم أو يعرضوا عن النبى صلى الله عليه وسلم (وهم فرحون) بما صنعوا من أخذ الامر وبما أصابه عليه الصلاة والسلام والجملة حال من الضمير فى يقولوا ويتولوا لا فى الاخير فقط لمقارنة الفرح لهما معا وايثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام السرور واسناد المساءة الى الحسنة والمسرة الى أنفسهم دون المصيبة بأن يقال وان تصبك مصيبة تسرهم للايذان باختلاف حاليهم حالتى عروض المساءة والمسرة بأنهم فى الاولى مضطرون وفى الثانية مختارون (قل) بيانا لبطلان مابنوا عليه مسرتهم من الاعتقاد (لن يصيبنا) أبدا وقرىء هل يصيبنا وهل يصيبنا من فيعل لا من فعل لانه واوى يقال صاب السهم يصوب واشتقاقه من الصواب (الا ما كتب الله لنا) أى أثبته لمصلحتنا الدنيوية أو الاخروية من النصرة عليكم أو الشهادة المؤدية إلى النعيم الدائم (هو مولانا) ناصرنا ومتولى أمورنا (وعلى الله) وحده (فليتوكل المؤمنون) التوكل تفويض الأمر الى الله والرضا بما فعله وان كان ذلك بعد ترتيب المبادي العادية والفاء للدلالة على السببية والاصل ليتوكل المؤمنون على الله قدم الظرف على الفعل لافادة القصر ثم أدخل الفاء للدلالة على استيجابه تعالى التوكل عليه كما فى قوله تعالى «واياى فارهبون» والجملة ان كانت من تمام الكلام المأمور به فاظهار الاسم الجليل فى مقام الاضمار لاظهار التبرك والتلذذ به وان كانت مسوقة من قبله تعالى أمراً للمؤمنين بالتوكل أثر أمره عليه الصلاة والسلام بما ذكر فالامر ظاهر وكذا إعادة الامر فى قوله عز وجل (قل هل تربصون بنا) لانقطاع حكم الامر الأول بالثانى وان كان أمر الغائب وأما على الوجه الاول فهى لابراز كمال العناية بشأن المأمور به والاشعار بما بينه وبين ما أمر به أولا من الفرق فى السياق والتربص والتمكث مع انتظار مجىء شيء خيرا كان أو شرا والباء للتعدية واحدى التاءين محذوفة أى ما تنتظرون بنا (إلا إحدى الحسنيين) أى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هى حسنى العواقب وهما النصر والشهادة وهذا نوع بيان لما أبهم فى الجواب الاول وكشف لحقيقة الحال باعلام أن ما يزعمونه مضرة للمسلمين من الشهادة أنفع مما يعدونه منفعة من النصر والغنيمة (ونحن نتربص بكم) إحدى السوأيين من العواقب إما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده) كما أصاب من قبلكم من الأمم المهلكة والظرف صفة عذاب ولذلك حذف عامله وجوبا (أو) بعذاب (بأيدينا) وهو القتل على الكفر (فتربصوا) الفاء فصيحة أى اذا كان الامر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا (إنا معكم متربصون) ماهو

عاقبتكم فاذا لقى كل منا ومنكم ما يتربصه لاتشاهدون الا ما يسرنا ولا نشاهد الاما يسوءكم (قل أنفقوا) أموالكم فى سبيل الله (طوعا أو كرها) مصدران وقعا موقع الفاعل أى طائعين أو كارهين وهو أمر فى معنى الخبر كقوله تعالى «استغفر لهم أو لاتستغفر لهم» والمعنى أنفقتم طوعا أو كرها (لن يتقبل منكم) ونظم الكلام فى سلك الامر للمبالغة فى بيان تساوى الامرين فى عدم القبول كأنهم أمروا بأن يمتحنوا الحال فينفقوا على الحالين فينظروا هل يتقبل منهم فيشاهدوا عدم القبول وهو جواب قول جد بن قيس ولكن أعينك بمالى ونفى التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الاخذ منهم وأن يكون بمعنى عدم الاثابة عليه وقوله عز وجل (أنكم كنتم قوما فاسقين) أى عاتين متمردين تعليل لرد أنفاقهم (وما منعهم أن تقبل منهم) وقرىء بالتحتانية (نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله) استثناء من أعم الأشياء أى مامنعهم قبول نفقاتهم منهم شيء من الأشياء إلا كفرهم. وقرىء يقبل على البناء للفاعل وهو الله تعالى (ولا يأتون الصلوة إلا وهم كسالى) أى لا يأتونها فى حال من الأحوال إلا حال كونهم متثاقلين (ولا ينفقون إلا وهم كارهون) لأنهم لايرجون بهما ثوابا ولا يخافون على تركهما عقابا فقوله تعالى طوعا أى من غير إلزام من جهته عليه الصلاة والسلام لا رغبة أو هو فرضى لتوسيع الدائرة (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) فان ذلك استدراج لهم ووبال عليهم حسبما ينبىء عنه قوله عز وجل (إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) بما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يقاسون فيها من الشدائد والمصائب (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر فى العاقبة فيكون ذلك لهم نقمة لا نعمة وأصل الزهوق الخروج بصعوبة (ويحلفون بالله إنهم لمنكم) فى الدين والاسلام (وماهم منكم) فى ذلك (ولكنهم قوم يفرقون) يخافون أن يفعل بهم ما يفعل بالمشركين فيظهرون الاسلام تقية ويؤيدونه بالايمان الفاجرة (لو يجدون ملجأ) استئناف مقرر لمضمون ماسبق من أنهم ليسوا من المسلمين وأن التجاءهم إلى الانتماء اليهم إنما هو للتقية اضطرارا حتى أنهم لو وجدوا غير ذلك ملجأ أى مكاناً حصيناً يلجؤن اليه من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة. وإيثار صيغة الاستقبال فى الشرط وإن كان المعنى على المضى لافادة استمرار عدم الوجدان فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس نصافى إفادة انتفاء استمرار الفعل كما هو الظاهر بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضا حسبما يقتضيه المقام فان معنى قولك لو تحسن ألي لشكرتك أن انتفاء الشكر بسبب استمرار انتفاء الاحسان لا انه بسبب انتفاء استمرار الاحسان

فان الشكر يتوقف على وجود الاحسان لا على استمراره كما حقق فى موضعه (أو مغارات) أى غيرانا وكهوفا يخفون فيها أنفسهم وقرىء بضم الميم من أغار الرجل اذا دخل الغور وقيل هو متعد من غار إذا دخل الغور أى أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم وأهليهم ويجوز أن يكون من أغار الثعلب إذا أسرع بمعنى مهارب ومفار (أو مدخلا) أى نفقا يندسون فيه وينجحرون وهو مفتعل من الدخول. وقرىء مدخلا من الدخول ومدخلا من الادخال أى مكانا يدخلون فيه أنفسهم. وقرىء متدخلا ومندخلا من التدخل والاندخال (لولوا) أى لصرفوا وجوههم وأقبلوا وقرىء لوألوا أي لالتجأوا (اليه) أى الى أحد ماذكر (وهم يجمحون) أى يسرعون بحيث لا يردهم شيء من الفرس الجموح وهو الذى لا يثنيه اللجام. وفيه إشعار بكمال عتوهم وطغيانهم وقرىء يجمزون بمعنى يجمحون ويشتدون ومنه الجمازة (ومنهم من يلمزك) بكسر الميم وقرىء بضمها أى يعيبك سرا وقرىء يلمزك ويلامزك مبالغة (فى الصدقات) أى فى شأنها وقسمتها (فان أعطوا منها) بيان لفساد لمزهم وأنه لامنشأله سوى حرصهم على حطام الدنيا أى ان أعطوا منها قدرما يريدون (رضوا) بما وقع من القسمة واستحسنوها (وان لم يعطوا منها) ذلك المقدار (اذاهم يسخطون) أى يفاجؤن السخط وإذا نائب مناب فاء الجزاء قيل نزلت الآية فى أبى الجواظ المنافق حيث قال ألا ترون إلى صاحبكم يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل. وقيل فى ابن ذى الخويصرة واسمه حرقوص بن زهير التميمى رأس الخوارج كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين فاستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال اعدل يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام «ويلك ان لم أعدل فمن يعدل» وقيل هم المؤلفة قلوبهم والأول هو الأظهر (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله) أى ما أعطاهم الرسول صلى الله عليه وسلم من الصدقات طيبى النفوس به وان قل وذكر الله عز وجل للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم كان بأمره سبحانه (وقالوا حسبنا الله) أى كفانا فضله وصنعه بنا وما قسمه لنا (سيؤتينا الله من فضله ورسوله) بعد هذا حسبما نرجوا ونؤمل (إنا إلى الله راغبون) فى أن يخولنا فضله والآية بأسرها فى حيز الشرط والجواب محذوف بناء على ظهوره أى لكان خيرا لهم (أنما الصدقات) شروع فى تحقيق حقية ما صنعه الرسول صلى الله عليه وسلم من القسمة ببيان المصارف ورد لمقالة القالة فى ذلك وحسم لأطماعهم الفارغة المبنية على زعمهم الفاسد ببيان أنهم بمعزل من الاستحقاق أى جنس الصدقات المشتملة على الأنواع

المختلفة (للفقراء و المساكين) أى مخصوصة بهؤلاء الاصناف الثمانية الآتية لا تتجاوزهم إلى غيرهم كأنه قيل إنما هى لهم لا لغيرهم فما للذين لا علاقة بينها و بينهم يقولون فيها ما يقولون وما سوغهم أن يتكلموا فيها وفى قاسمها . والفقير من له أدنى شيء والمسكين من لا شيء له هو المروى عن أبى حنيفة رضى الله عنه وقد قيل على العكس و لكل منهما وجه يدل عليه (والعاملين عليها) الساعين فى جمعها وتحصيلها (والمؤلفة قلوبهم) هم أصناف فمنهم أشراف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألفهم ليسلموا فيرضخ لهم ومنهم قوم أسلموا ونياتهم ضعيفة فيؤلف قلوبهم باجزال العطاء كعيينة بن حصن و الاقرع بن حابس والعباس بن مرداس ومنهم من يترقب باعطائهم اسلام نظرائهم ولعل الصنف الأول كان يعطيهم الرسول صلى الله عليه وسلم من خمس الخمس الذى هو خالص ماله وقد عد منهم من يؤلف قلبه بشيء منها على قتال الكفار وما نعى الزكاة و قد سقط سهم هؤلاء بالاجماع لما أن ذلك كان لتكثير سواد الاسلام فلما أعزه الله عز وعلا وأعلى كلمته استغنى عن ذلك (وفى الرقاب) أى و للصرف فى فك الرقاب بأن يعان المكاتبون بشيء منها على أداء نجومهم . وقيل بأن يفدي الاسارى وقيل بأن يبتاع منها الرقاب فتعتق وأياما كان فالعدول عن اللام لعدم ذكرهم بعنوان مصحح المالكية والاختصاص كالذين من قبلهم أو للايذان بعدم قرار ملكهم فيما أعطوا كما فى الوجهين الأولين أو بعدم ثبوته رأساً كما فى الوجه الأخير أو للاشعار برسوخهم فى استحقاق الصدقة لما أن فى للظرفية المنبئة عن احاطتهم بها وكونهم محلها ومركزها (والغارمين) أى الذين تداينوا لانفسهم فى غير معصية اذا لم يكن لهم نصاب فاضل عن ديونهم وكذلك عند الشافعى رضى الله عنه من غرم لأصلاح ذات البين و اطفاء النائرة بين القبيلتين وان كانوا أغنياء (وفى سبيل الله) أى فقراء الغزاة والحجيج و المنقطع بهم (وابن السبيل) أى المسافر المنقطع عن ماله وتكرير الظرف فى الاخيرين للايذان بزيادة فضلهما فى الاستحقاق أو لما ذكر من ايرادهما بعنوان غير مصحح للمالكية والاختصاص فهذه مصارف الصدقات فللمتصدق أن يدفع صدقته إلى كل واحد منهم وأن يقتصر على صنف منهم لأن اللام لبيان أنهم مصارف لا تخرج عنهم لا لاثبات الاستحقاق وقد روى ذلك عن عمر وابن عباس وحذيفة رضى الله عنهم وعند الشافعى لا يجوز الا أن يصرف إلى ثلاثة من تلك الأصناف (فريضة من الله) مصدر مؤكد لما دل عليه صدر الآية أى فرض لهم الصدقات فريضة ونقل عن سيبويه أنه منصوب بفعله مقدرا أى فرض الله ذلك

فريضة أو حال من الضمير المستكن فى قوله للفقراء أى انما الصدقات كائنة لهم حال كونها فريضة أى مفروضة (والله عليم) بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم (حكيم) لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة من الامور الحسنة التى من جملتها سوق الحقوق إلى مستحقيها (ومنهم الذين يؤذون النبى) نزلت فى فرقة من المنافقين قالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام مالا ينبغى فقال بعضهم لا تفعلوا فانا نخاف أن يبلغه ذلك فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد نقول ماشئنا ثم نأتيه فننكر ماقلنا ونحلف فيصدقنا بمانقول إنما محمد أذن سامعة وذلك قوله عز وجل (ويقولون هو أذن) أى يسمع كل ماقيل من غير أن يتدبر فيه ويميز بين مايليق بالقبول لمساعدة أمارات الصدق له وبين مالا يليق به وانما قالوه لانه عليه الصلاة والسلام كان لا يواجههم بسوء ماصنعوا ويصفح عنهم حلما وكرما فحملوه على سلامة القلب وقالوا ماقالوا (قل اذن خير لكم) من قبيل رجل صدق فى الدلالة على المبالغة فى الجودة والصلاح كانه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الأذن ويجوز أن يكون المراد أذنا فى الخير والحق وفيما ينبغى سماعه وقبوله لافى غير ذلك كما يدل عليه قراءة رحمة بالجر عطفا عليه أي هو اذن خير ورحمة لايسمع غيرهما ولا يقبله . وقرىء أذن بسكون الذال فيهما وقرىء أذن خير على أنه صفة أو خبر ثان وقوله عز وجل (يؤمن بالله) تفسير لكونه أذن خير لهم أى يصدق بالله تعالى لما قام عنده من الأدلة الموجبة له وكون ذلك خيرا للمخاطبين كما أنه خير للعالمين ممالايخفى (ويؤمن للمؤمنين) أى يصدقهم لماعلم فيهم من الخلوص واللام مزيدة للتفرقة بين الايمان المشهور وبين الايمان بمعنى التسليم والتصديق كما فى قوله تعالى أنؤمن لك الخ وقوله تعالى فما آمن لموسى الخ (ورحمة) عطف على اذن خير أى وهو رحمة بطريق اطلاق المصدر على الفاعل للمبالغة (للذين آمنوا منكم) أى للذين أظهروا الايمان منكم حيث يقبله منهم لكن لاتصديقا لهم فى ذلك بل رفقا بهم وترحما عليهم ولا يكشف أسرارهم ولايهتك أستارهم . واسناد الايمان اليهم بصيغة الفعل بعد نسبته إلى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئة عن الرسوخ والاستمرار للايذان بأن إيمانهم أمر حادث ماله من قرار وقرىء بالنصب على أنها علة لفعل دل عليه أذن خير أي يأذن لكم رحمة (والذين يؤذون رسول الله) بما نقل عنهم من قولهم هو اذن ونحوه . وفى صيغة الاستقبال المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار ماهم عليه اشعار بقبول توبتهم كما أفصح عنه قوله تعالى فيماسيأتى « فان يتوبوا يك خيرا لهم » (لهم) بما يجترءون عليه من أذيته عليه الصلاة والسلام كما ينبىء عنه بناء الحكم على الموصول (عذاب أليم) وهذا اعتراض مسوق من قبله عز وجل على

نهج الوعيد غير داخل تحت الخطاب . وفى تكرير الاسناد باثبات العذاب الأليم لهم ثم جعل الجملة خبرا للموصول مالا يخفى من المبالغة وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة مضافا الى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيه على أن أذيته راجعة الى جنابه عز وجل موجبة لكمال السخط والغضب (يحلفون بالله لكم) الخطاب للمؤمنين خاصة وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن ثم يأتونهم فيعتذرون اليهم ويؤكدون معاذيرهم بالأيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم أى يحلفون لكم أنهم ماقالوا مانقل اليهم مما يورث أذاة النبى صلى الله عليه وسلم وأما التخلف عن الجهاد فليس بداخل فى هذا الاعتذار (ليرضوكم) بذلك وافراد ارضائهم بالتعليل مع أن عمدة أغراضهم ارضاء الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قبل عليه الصلاة والسلام ذلك منهم ولم يكذبهم للايذان بأن ذلك بمعزل من أن يكون وسيلة الى ارضائه عليه الصلاة والسلام وأنه صلى الله عليه وسلم انما لم يكذبهم رفقا بهم وسترا لعيوبهم لاعن رضا بمافعلوه كما أشير اليه (والله ورسوله أحق أن يرضوه) أى أحق بالارضاء ولا يتسنى ذلك إلا بالطاعة والمتابعة وإيفاء حقوقه عليه الصلاة والسلام فى باب الاجلال والاعظام مشهدا ومغيبا . وأما ماأتوا به من الايمان الفاجرة فانما يرضى به من انحصر طريق علمه فى الاخبار إلى أن يجىء الحق ويزهق الباطل والجملة نصب على الحالية من ضمير يحلفون أى يحلفون لكم لارضائكم والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالارضاء منكم أى يعرضون عما يهمهم ويجديهم ويشتغلون بما لايعنيهم . وأفراد الضمير فى يرضوه أما للايذان بأن رضاه عليه الصلاة والسلام مندرج تحت رضاه سبحانه وارضاؤه عليه الصلاة والسلام ارضاء له تعالى لقوله تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » وأما لانه مستعار لاسم الأشارة الذى يشار به إلى الواحد والمتعدد بتأويل المذكور كما فى قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق ⁂ كأنه فى الجلد توليع البهق

أى كأن ذلك . لايقال أى حاجة الى الاستعارة بعد التأويل المذكور . لانا نقول لولا الاستعارة لم يتسن التأويل لما أن الضمير لايتعرض إلا للذات مايرجع اليه من غير تعرض لوصف من أوصافه التى من جملتها المذكورية وإنما المتعرض لها اسم الأشارة وأما لأنه عائد الى رسوله والكلام جملتان حذف خبر الأولى لدلالة خبر الثانية عليه كما ذهب اليه سيبويه ومنه قول من قال :

نحن بما عندنا وأنت بما ⁂ عندك راض والرأى مختلف

أو الى الله على أن المذكور خبر الجملة الأولى وخبر الثانية محذوف كما هو رأى المبرد

(إن كانوا مؤمنين) جوابه محذوف تعويلا على دلالة ماسبق عليه أى ان كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله بما ذكر فانهما أحق بالارضاء (ألم يعلموا) أى أولئك المنافقون والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة مع علمهم بسوء عاقبتها وقرىء بالتاء على الالتفات لزيادة التقريع والتوبيخ أى ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من فنون القوارع والانذارات (أنه) أى الشأن (من يحادد الله ورسوله) المحادة من الحد كالمشاقة من الشق والمعاداة من العدوة بمعنى الجانب فان كل واحد من مباشري كل من الأفعال المذكورة فى محل غير محل صاحبه ومن شرطية جوابها قوله تعالى (فان له نار جهنم) على أن خبره محذوف أى فحق أن له نار جهنم . وقرىء بكسر الهمزة والجملة الشرطية فى محل الرفع على انها خبر لأن وهي مع خبرها سادة مسد مفعولى يعلموا وقيل المعنى فله وان تكرير اللأولى للتأكيد لطول العهد لا من باب التأكيد اللفظي المانع للأولى من العمل ودخول الفاء كما فى قول من قال :

لقد علم الحى اليمانون أنني   إذا قلت أما بعد أنى خطيبها

وقد جوز أن يكون فأن له معطوفا على انه وجواب الشرط محذوف تقديره ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فان له الخ ورد بأن ذلك إنما يجوز عند كون فعل الشرط ماضيا أو مضارعا مجزوما بلم (خالدا فيها) حال مقدرة من الضمير المجرور ان اعتبر فى الظرف ابتداء الاستقرار وحدوثه وان اعتبر مطلق الاستقرار فالأمر ظاهر (ذلك) أشير الى ماذكر من العذاب الخالد بذلك ايذانا ببعد درجته فى الهول والفظاعة (الخزى العظيم) الخزى الذل والهوان المقارن للفضيحة والندامة وهى ثمرات نفاقهم حيث يفتضحون على رءوس الاشهاد بظهورها ولحوق العذاب الخالد بهم والجملة تذييل لما سبق (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم) فى شأنهم فان ما نزل فى حقهم نازل عليهم (سورة تنبئهم بما فى قلوبهم) من الاسرار الخفية فضلا عما كانوا يظهرونه فيما بينهم من اقاويل الكفر والنفاق ومعنى تنبئتها اياهم بما فى قلوبهم مع أنه معلوم لهم وأن المحذور عندهم اطلاع المؤمنين على أسرارهم لا اطلاع أنفسهم عليها أنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم فتنتشر فيما بين الناس فيسمعونها من أفواه الرجال مذاعة فكأنها تخبرهم بها أو المراد بالتنبئة المبالغة فى كون السورة مشتملة على أسرارهم كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة مالا يعلمونه فتنبئهم بها وتنعى عليهم قبائحهم . وقيل معنى يحذر ليحذر وقيل الضميران الاولان للمؤمنين والثالث للمنافقين ولا يبالى بالتفكيك عند ظهور الامر بعود المعنى اليه أى يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما فى قلوب المنافقين وتهتك عليهم أستارهم

قال أبو مسلم كان اظهار الحذر منهم بطريق الاستهزاء فانهم كانوا اذا سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر كل شيء و يقول انه بطريق الوحي يكذبونه و يستهزءون به ولذلك قيل (قل استهزؤا) أى افعلوا الاستهزاء وهو أمر تهديد (ان الله مخرج) أى من القوة الى الفعل أو من الكمون الى البروز (ماتحذرون) أى ماتحذرونه من انزال السورة و من مخازيكم ومثالبكم المستكنة فى قلوبكم الفاضحة لكم على ملأ الناس. والتأكيد لرد انكارهم بذلك لا لدفع ترددهم فى وقوع المحذور اذ ليس حذرهم بطريق الحقيقة (ولئن سألتهم) عما قالوا (ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يسير فى غزوة تبوك و بين يديه ركب من المنافقين يستهزءون بالقرآن و بالرسول صلى الله عليه وسلم و يقولون انظروا الى هذا الرجل يريد أن يفتتح حصون الشام وقصورها هيهات فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك فقال «احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يانبي الله لا والله ماكنا فى شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك ولكن كنا فى شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر» (قل) غير ملتفت الى اعتذارهم ناعيا عليهم جناياتهم منزلا لهم منزلة المعترف بوقوع الاستهزاء موبخا لهم على اخطائهم موقع الاستهزاء (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن) حيث عقب حرف التقرير بالمستهزأ به ولا يستقيم ذلك الا بعد تحقق الاستهزاء وثبوته (لاتعتذروا) لاتشتغلوا بالاعتذار وهو عبارة عن محو أثر الذنب فانه معلوم الكذب بين البطلان (قد كفرتم) أظهرتم الكفر بايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم والطعن فيه (بعد ايمانكم) بعد اظهاركم له (ان نعف عن طائفة منكم) لتوبتهم واخلاصهم أو تجنبهم عن الايذاء والاستهزاء وقرئ ان يعف على اسناد الفعل الى الله سبحانه . وقرئ على البناء للمفعول مسندا الى الظرف بتذكير الفعل وبتأنيثه أيضا ذهابا الى المعنى كانه قيل ان ترحم طائفة (نعذب) بنون العظمة وقرئ بالياء على البناء للفاعل وبالتاء على البناء للمفعول مسندا الى مابعده (طائفة بأنهم كانوا مجرمين) مصرين على الاجرام وهم غير التائبين أو مباشرين له وهم غير المجتنبين قال محمد بن اسحق الذى عفى عنه رجل واحد هو يحيى بن حمير الاشجعى لما نزلت هذه الآية تاب عن نفاقه وقال اللهم انى لاأزال أسمع آية تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لايقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة فما أحد من المسلمين الا عرف مصرعه غيره (المنافقون والمنافقات) التعرض لاحوال الاناث للايذان بكمال عراقتهم فى الكفر والنفاق

(بعضهم من بعض) أى متشابهون فى النفاق والبعد عن الايمان كأبعاض الشىء الواحد بالشخص وقيل أريد به نفى أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم فى حلفهم بالله انهم لمنكم وتقرير لقوله تعالى وماهم منكم وقوله تعالى (يأمرون بالمنكر) أى بالكفر والمعاصى (وينهون عن المعروف) أى عن الايمان والطاعة استئناف مقرر لمضمون ماسبق ومفصح عن مضادة حالهم لحال المؤمنين أو خبر ثان (ويقبضون أيديهم) أى عن المبرات والانفاق فى سبيل الله فان قبض اليد كناية عن الشح (نسوا الله) أغفلوا ذكره (فنسيهم) فتركهم من رحمته وفضله وخذلهم . والتعبير عنه بالنسيان للمشاكلة (ان المنافقين هم الفاسقون) الكاملون فى التمرد والفسق الذى هو الخروج عن الطاعة والانسلاخ عن كل خير . والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير كما فى قوله تعالى (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار) أى المجاهرين (نار جهنم خالدين فيها) مقدرين الخلود فيها (هى حسبهم) عقابا وجزاء وفيه دليل على عظم عقابها وعذابها (ولعنهم الله) أى أبعدهم من رحمته وأهانهم . وفى اظهار الاسم الجليل من الايذان بشدة السخط مالا يخفى (ولهم عذاب مقيم) أى نوع من العذاب غير عذاب النار دائم لاينقطع أبدا أو لهم عذاب مقيم معهم فى الدنيا لاينفك عنهم وهو مايقاسونه من تعب النفاق الذى هم منه فى بلية دائمة لا يأمنون ساعة من خوف الفضيحة ونزول العذاب ان اطلع على أسرارهم (كالذين من قبلكم) التفات من الغيبة الى الخطاب للتشديد والكاف فى محل الرفع على الخبرية أى أنتم مثل الذين من قبلكم من الامم المهلكة أو فى حيز النصب بفعل مقدر أى فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم (كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا) تفسير وبيان لشبههم بهم وتمثيل لحالهم بحالهم (فاستمتعوا) تمتعوا . وفى صيغة الاستفعال ما ليس فى صيغة التفعل من الاستزادة والاستدامة فى التمتع (بخلاقهم) بنصيبهم من ملاذ الدنيا واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير وهو ماقدر لصاحبه (فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع) الكاف فى محل النصب على انه نعت لمصدر محذوف أى استمتاعا كاستمتاع (الذين من قبلكم بخلاقهم) ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة من الشهوات الفانية والتهائهم بها عن النظر فى العواقب الحقة واللذائذ الحقيقية تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم اياهم واقتفائهم أثرهم (وخضتم) أى دخلتم فى الباطل (كالذى خاضوا) أى كالذين باسقاطهم النون أو كالفوج الذى أو كالخوض الذى خاضوه (أولئك) اشارة الى المتصفين بالاوصاف المعدودة من المشبهين والمشبه بهم لا إلى الفريق الأخير فقط فان ذلك يقتضى أن يكون حبوط أعمال المشبهين وخسرانهم

مفهومين ضمنا لا صريحا ويؤدي الى خلو تلوين الخطاب عن الفائدة إذ الظاهر حينئذ أولئكم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح للخطاب أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأفعال الذميمة (حبطت أعمالهم) ليس المراد بها أعمالهم المعدودة كما يشعر به التعبير عنهم باسم الاشارة فان غائلتها غنية عن البيان بل أعمالهم التي كانوا يستحقون بها أجوراحسنة لو قارنت الايمان أي ضاعت و بطلت بالكلية ولم يترتب عليها أثر (في الدنيا و الآخرة) بطريق المثوبة والكرامة أما في الآخرة فظاهر وأما في الدنيا فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها من الصحة والسعة وغير ذلك حسبما ينبىء عنه قوله عز وجل « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » ليس ترتبه عليها على طريقة المثوبة والكرامة بل بطريق الاستدراج (وأولئك) أي الموصوفون بحبوط الاعمال في الدارين (هم الخاسرون) الكاملون في الخسران في الدارين الجامعون لمباديه وأسبابه طرا فانه قد ذهبت رءوس أموالهم التي هي أعمالهم فيما ضرهم ولم ينفعهم قط ولو أنها ذهبت فيما لا يضرهم ولا ينفعهم لكفى به خسرانا . وايراد اسم الاشارة في الموضعين للاشعار بعلية الاوصاف المشار اليها للحبوط والخسران (ألم يأتهم) أي المنافقين (نبأ الذين من قبلهم) أي خبرهم الذي له شأن وهو مافعلوا وما فعل بهم والاستفهام للتقرير والتحذير (قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين) وهم قوم شعيب (والمؤتفكات) قريات قوم لوط ائتفكت بهم أي انقلبت بهم أي فصار عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل . وقيل قريات المكذبين. وائتفاكهن انقلاب أحوالهن من الخير الى الشر (أتتهم رسلهم بالبينات) استئناف لبيان نبئهم (فما كان الله ليظلمهم) الفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام و يستدعيه النظام أي فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى فما ظلمهم بذلك. وايثار ما عليه من النظم الكريم للمبالغة في تنزيه ساحة السبحان عن الظلم أي ماصح وما استقام له أن يظلمهم ولكنهم ظلموا أنفسهم . والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل في قوله عز وجل (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) للدلالة على استمرار ظلمهم حيث لم يزالوا يعرضونها للعقاب بالكفر والتكذيب. وتقديم المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم على رأى من لا يرى التقديم موجبا للقصر فيكون كما في قوله تعالى « وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم » من غير قصر للظلم على الفاعل أو المفعول وسيجيء لهذا مزيد بيان في قوله سبحانه « ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون » (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) بيان لحسن

حال المؤمنين والمؤمنات حالا ومآلا أثر بيان قبح حال أضدادهم عاجلا وآجلا والتعبير عن نسبة هؤلاء بعضهم الى بعض بالولاية وعن نسبة أولئك بمن الاتصالية للايذان بأن نسبة هؤلاء بطريق القرابة الدينية المبنية على المعاقدة المستتبعة للآثار من المعونة والنصرة وغير ذلك ونسبة أولئك بمقتضى الطبيعة والعادة (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) أي جنس المعروف والمنكر المنتظمين لكل خير وشر (ويقيمون الصلاة) فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو فى مقابلة ماسبق من قوله تعالى نسوا الله (ويؤتون الزكوة) بمقابلة قوله تعالى ويقبضون أيديهم (ويطيعون الله ورسوله) أى فى كل أمر ونهى وهو بمقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة (أولئك) اشارة الى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافهم بما سلف من الصفات الفاضلة وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد درجتهم فى الفضل أي أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة (سيرحمهم الله) أى يفيض عليهم آثار رحمته من التأييد والنصرة ألبتة فان السين مؤكدة للوقوع كما فى قولك سأنتقم منك (ان الله عزيز) تعليل للوعد أى قوى قادر على اعزاز أوليائه وقهر أعدائه (حكيم) يبنى أحكامه على أساس الحكمة الداعية الى إيصال الحقوق من النعمة والنقمة الى مستحقيها من أهل الطاعة وأهل المعصية وهذا وعد للمؤمنين متضمن لوعيد المنافقين كما أن ما سبق فى شأن المنافقين من قوله تعالى « فنسيهم » وعيد لهم متضمن لوعد المؤمنين فان منع لطفه تعالى عنهم لطف فى حق المؤمنين (وعد الله المؤمنين والمؤمنات) تفصيل لآثار رحمته الاخروية أثر ذكر رحمته الدنيوية . والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بعلية وصف الايمان لحصول ما تعلق به الوعد وعدم التعرض لذكر مامر من الأمر بالمعروف وغير ذلك للايذان بأنه من لوازمه ومستتبعاته أى وعدهم وعدا شاملا لكل أحد منهم على اختلاف طبقاتهم فى مراتب الفضل كيفا وكما (جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) فان كل أحد منهم فائز بها لا محالة (ومساكن طيبة) أى وعد بعض الخواص الكمل منهم منازل تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش . فى الخبر أنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر (فى جنات عدن) هى أبهى أماكن الجنات وأسناها . عن النبى صلى الله عليه وسلم عدن دار الله لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لايسكنها غير ثلاثة النبيون والصديقون والشهداء يقول الله تعالى طوبى لمن دخلك » وعن ابن عمر رضى الله عنهما ان فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج وله خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حوراء لايدخله إلا

نبي أو صديق أو شهيد » وعن ابن مسعود رضى الله عنه هى بطنان الجنة وسرتها. فعدن على هذا علم وقيل هو بمعناه اللغوى أعنى الاقامة والخلود فرجع العطف الى اختلاف الوصف وتغايره فكأنه وصفه أولا بأنه من جنس ما هو أشرف الاماكن المعروفة عندهم من الجنات ذات الانهار الجارية لتميل اليها طباعهم أول مايقرع أسماعهم ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معرى عن شوائب الكدورات التى لاتكاد تخلو عنها أماكن الدنيا وفيها ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات فى جوار العليين لايعتريهم فيها فناء ولا تغير ثم وعدهم بما هو أعلى من ذلك كله فقال (ورضوان من الله) أى وشيء يسير من رضوانه تعالى (أكبر) اذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة وبه يناط نيل كل شرف وسيادة ولعل عدم نظمه فى سلك الوعد مع عزته فى نفسه لانه متحقق فى ضمن كل موعود ولانه مستمر فى الدارين . روى أنه تعالى يقول لاهل الجنة هل « رضيتم فيقولون مالنا لانرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا وأى شيء أفضل من ذلك قال أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا» (ذلك) اشارة الى ماسبق ذكره وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد رجته فى العظم والفخامة (هو الفوز العظيم) دون ما يعده الناس فوزا من حظوظ الدنيا فانها مع قطع النظر عن فنائها وتغيرها وتنغصها وتكدرها ليست بالنسبة الى أدنى شيء من نعيم الآخرة بمثابة جناح البعوض قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء » ونعما قال من قال :

تالله لو كانت الدنيا بأجمعها * تبقى علينا ويأتى رزقها رغدا
ما كان من حق حر أن يدل بها * فكيف وهى متاع يضمحل غدا

(ياأيها النبي جاهد الكفار) أى المجاهرين منهم بالسيف (والمنافقين) بالحجة واقامة الحدود (واغلظ عليهم) فى ذلك ولا يأخذك بهم رأفة قال عطاء نسخت هذه الآية كل شيء من العفو والصفح (ومأواهم جهنم) جملة مستأنفة لبيان آجل أمرهم اثر بيان عاجله وقيل حالية (وبئس المصير) تذييل لما قبله والمخصوص بالذم محذوف (يحلفون بالله ما قالوا) استئناف لبيان ما صدر عنهم من الجرائم الموجبة لما مر من الأمر بالجهاد والغلظة عليهم ودخول جهنم . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمعه من كان منهم معه عليه الصلاة والسلام فقال الجلاس بن سويد منهم لئن كان ما يقول محمد حقا لاخواننا الذين

خلفنا هم وهم ساداتنا وأشرافنا فنحن شر من الحمير فقال عامر بن قيس الانصاري للجلاس أجل والله ان محمداً لصادق وأنت شر من الحمار فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضر فحلف بالله ما قال فرفع عامر يده فقال اللهم انزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق فنزل . وايثار صيغة الاستقبال في يحلفون لاستحضار الصورة أو للدلالة على تكرير الحلف . وصيغة الجمع في قالوا مع أن القائل هو الجلاس للايذان بأن بقيتهم برضاهم بقوله صاروا بمنزلة القائل (ولقد قالوا كلمة الكفر) هي ما حكي آنفاً والجملة مع ما عطف عليها اعتراض (وكفروا بعد إسلامهم) أي وأظهروا ما في قلوبهم من الكفر بعد اظهارهم الاسلام (وهموا بما لم ينالوا) هو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه توافق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عليه الصلاة والسلام عن راحلته اذا تسنم العقبة بالليل وكان عمار بن ياسر آخذا بخطام راحلته يقودها وحذيفة بن اليمان خلفها يسوقها فبينما هما كذلك اذسمع حذيفة بوقع أخفاف الابل وبقعقعة السلاح فالتفت فاذا قوم متلثمون فقال «اليكم اليكم يا أعداء الله» فهربوا وقيل هم المنافقون بقتل عامر لرده على الجلاس. وقيل أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي ابن سلول وان لم يرض به رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما نقموا) أي وما أنكروا وما عابوا أو وما وجدوا واما يورث نقمتهم (إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) سبحانه وتعالى وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في غاية ما يكون من ضنك العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشر ألف درهم فاستغنى. والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أو من أعم العلل أي وما أنكروا شيئا من الاشياء الا أغناء الله تعالى اياهم أو وما أنكروا ما أنكروا لعلة من العلل إلا لأغناء الله إياهم (فان يتوبوا) عما هم عليه من الكفر والنفاق (يك خيرا لهم) في الدارين قيل لما تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الجلاس يارسول الله لقد عرض الله على التوبة والله لقد قلت وصدق عامر فتاب الجلاس وحسنت توبته (وان يتولوا) أي استمروا على ما كانوا عليه من التولي والاعراض عن الدين أو أعرضوا عن التوبة بعد هذا العرض (يعذبهم الله عذابا أليما في الدنيا) بالقتل والاسر والنهب وغير ذلك من فنون العقوبات (والآخرة) بالنار وغيرها من أفانين العقاب (وما لهم في الأرض) مع سعتها وتباعد أقطارها وكثرة أهلها المصححة لوجدان ما نفي بقوله عز وجل (من ولي ولا نصير) ينقذهم من العذاب بالشفاعة أو المدافعة (ومنهم) بيان لقبائح بعض آخر منهم (من عاهد

الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) لنؤتين الزكاة وغيرها من الصدقات (ولنكونن من الصالحين) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يريد الحج وقرىء بالنون الخفيفة فيهما قيل نزلت فى ثعلبة بن حاطب أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أدع الله أن يرزقنى مالا فقال عليه الصلاة والسلام « يا ثعلبة قليل تؤدى حقه خير من كثير لا تطيقه » فراجعه وقال والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد . فقال « ياويح ثعلبة » بعث مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فيه الفرائض فقال ماهذه ألا جزية ماهذه إلا أخت الجزية وقال ارجعا حتى أرى رأيى وذلك قوله عز وجل (فلما آتاهم من فضله بخلوا به) أى منعوا حق الله منه (وتولوا) أى أعرضوا عن طاعة الله سبحانه فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلما « يا ويح ثعلبة مرتين » فنزلت فجاء ثعلبة بالصدقة فقال عليه الصلاة والسلام « أن الله منعنى أن أقبل منك » فجعل يحثو التراب على رأسه فقال عليه الصلاة والسلام « هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى » فقبض عليه الصلاة والسلام فجاء بها إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبلها وجاء بها إلى عمر رضى الله عنه فى خلافته فلم يقبلها وهلك فى خلافة عثمان رضى الله عنه وقيل نزلت فيه وفى سهل بن الحرث وجد بن قيس ومعتب بن قشير والأول هو الأشهر (وهم معرضون) جملة معترضة أى وهم قوم عادتهم الاعراض أو حالية أى تولوا بأجرامهم وهم معرضون بقلوبهم (فاعقبهم) أى جعل الله عاقبة فعلهم ذلك (نفاقا) راسخا فى (قلوبهم إلى يوم يلقونه) إلى يوم موتهم الذى يلقون الله تعالى عنده أو يلقون فيه جزاء عملهم وهو يوم القيامة. وقيل فأورثهم البخل نفاقا متمكنا فى قلوبهم ولا يلائمه قوله عز وجل (بما أخلفوا الله ماوعدوه) أى بسبب أخلافهم ما وعدوه تعالى من التصديق والصلاح (وبما كانوا يكذبون) أى بكونهم مستمرين على الكذب فى جميع المقالات التى من جملتها وعدهم المذكور . وتخصيص الكذب به يؤدى إلى تخلية الجمع بين صيغتي الماضى والمستقبل عن المزية فان تسبب الاعقاب المذكور بالاخلاف والكذب يقضى باسناده إلى الله عز وجل اذ لا معنى لكونهما سببين لأعقاب البخل النفاق . والتحقيق أنه لما كانت الفاء الدالة على الترتيب والتفريع منبئة عن ترتب اعقاب النفاق المخلد على أفعالهم المحكية عنهم من المعاهدة بالتصدق والصلاح والبخل

والتولى والأعراض وفيها مالا دخل له فى الترتب المذكور كالمعاهدة أزيح مافى ذلك من الابهام بتعيين ماهو المدار فى ذلك والله تعالى أعلم. وقرئ بتشديد الذال (ألم يعلموا) أى المنافقون أو من عاهد الله . وقرىء بالتاء الفوقانية خطابا للمؤمنين فالهمزة على الاول للانكار والتوبيخ والتهديد أى ألم يعلموا (أن الله يعلم سرهم ونجواهم) أى ماأسروا به فى أنفسهم وما تناجوا به فيما بينهم من المطاعن وتسمية الصدقة جزية وغير ذلك مما لاخير فيه. وسر تقديم السر على النجوى سيظهر فى قوله سبحانه وستردون الى عالم الغيب والشهادة (وأن الله علام الغيوب) فلا يخفى عليه شئ من الاشياء حتى اجترءوا على ماجترءوا عليه من العظائم. واظهار اسم الجلالة فى الموقعين لالقاء الروعة وتربية المهابة. وفى ايراد العلم المتعلق بسرهم ونجواهم بصيغة الفعل الدال على الحدوث والتجدد والعلم المتعلق بالغيوب الكثيرة الدائمة بصيغة الاسم الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة مالا يخفى وعلى الثانى لتقرير علم المؤمنين بذلك وتنبيههم على أنه تعالى مؤاخذهم ومجازيهم بما علم من أعمالهم (الذين يلمزون) نصب أو رفع على الذم . ويجوز جره على البدلية من الضمير فى سرهم ونجواهم وقرئ بضم الميم وهي لغة أى يعيبون (المطوعين) أى المتطوعين المتبرعين (من المؤمنين) حال من المطوعين وقوله تعالى (فى الصدقات) متعلق بيلمزون . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حث الناس على الصدقة فأتى عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب وقيل بأربعة آلاف درهم وقال كان لى ثمانية آلاف فأقرضت ربى أربعة وأمسكت لعيالى أربعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت» فبارك له حتي صولحت تماضر رابعة نسائه عن ربع الثمن على ثمانين ألفا وتصدق عاصم بن عدى بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الانصارى بصاع من تمر فقال بت ليلتى أجر بالجرير على صاعين فتركت صاعا للعيالى وجئت بصاع فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره على الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا ماأعطى عبد الرحمن وعاصم الارياء وان كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات فنزلت (والذين لايجدون الا جهدهم) عطف على المطوعين أى ويلمزون الذين لايجدون الاطاقتهم . وقرئ بفتح الجيم وهو مصدر جهد فى الامر اذا بالغ فيه. وقيل هو بالضم الطاقة وبالفتح المشقة (فيسخرون منهم) عطف على يلمزون أى يهزءون بهم والمراد بهم الفريق الاخير (سخر الله منهم)اخبار بمجازاته تعالى اياهم على مافعلوا من السخرية . والتعبير عنها بذلك للمشاكلة (ولهم)

أى ثابت لهم (عذاب أليم) التنوين للتهويل والتفخيم. وايراد الجملة اسمية للدلالة على الاستمرار (استغفر لهم أولا تستغفر لهم) اخبار باستواء الامرين الاستغفار لهم وتركه فى استحالة المغفرة وتصويره بصورة الامر للمبالغة فى بيان استوائهما كانه عليه الصلاة والسلام أمر بامتحان الحال بأن يستغفر تارة ويترك أخرى ليظهر له جلية الامر كما مر فى قوله عز وجل «قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم» (ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) بيان لاستحالة المغفرة بعد المبالغة فى الاستغفار اثر بيان الاستواء بينه وبين عدمه ,, روى أن عبد الله بن أبى وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض أبيه ان يستغفر له ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام محافظة على ماهو الاصل من أن مراتب الاعداد حدود مبينة يخالف حكم كل منها حكم مافوقها « ان الله قد رخص لى فسأزيد على السبعين» فنزلت «سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم» وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة فى مطلق التكثير لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنها العدد بأسره . وقيل هى أكمل الاعداد لجمعها معانيها ولان الستة أول عدد تام لتعادل أجزائها الصحيحة اذ نصفها ثلاثة وثلثها اثنان وسدسها واحد وجملتها ستة وهى مع الواحد سبعة فكانت كاملة اذ لا مرتبة بعد التمام الا الكمال ثم السبعون غاية الكمال اذ الآحاد غايتها العشرات والسبعمائة غاية الغايات (ذلك) اشارة الى امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغة فى الاستغفار أى ذلك الامتناع ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل (بأنهم) أى بسبب أنهم (كفروا بالله ورسوله) كفراً متجاوزاً عن الحد كما يلوح به وصفهم بالفسق فى قوله عز وجل (والله لا يهدى القوم الفاسقين) فان الفسق فى كل شىء عبارة عن التمرد والتجاوز عن حدوده أى لا يهديهم هداية موصلة إلى المقصد ألبتة لمخالفة ذلك للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع . وأما الهداية بمعنى الدلالة على مايوصل اليه فهى متحققة لامحالة . ولكنهم بسوء اختيارهم لم يقبلوها فوقعوا فيما وقعوا وهو تذييل مؤكد لما قبله من الحكم فان مغفرة الكافر إنما هى بالاقلاع عن الكفر والاقبال الى الحق والمنهمك فيه المطبوع عليه بمعزل من ذلك وفيه تنبيه على عذر النبى صلى الله عليه وسلم فى استغفاره لهم وهو عدم يأسه من إيمانهم حيث لم يعلم أنهم مطبوعون على الغى والضلال إذ الممنوع هو الاستغفار لهم بعد تبين حالهم كما سيتلى من قوله عز وجل ما كان للنبى الآية (فرح المخلفون) أى الذين خلفهم النبى صلى الله عليه وسلم بالاذن لهم فى القعود عند استئذانهم أو خلفهم الله

بتثبيطه إياهم لما علم فى ذلك من الحكمة الخفية أو خلفهم كسلهم أو نفاقهم (بمقعدهم) متعلق بفرح أى بقعودهم وتخلفهم عن الغزو (خلاف رسول الله) أى خلفه وبعد خروجه حيث خرج ولم يخرجوا يقال أقام خلاف الحى أي بعدهم ظعنوا ولم يظعن . ويؤيده قراءة من قرأ خلف رسول الله فانتصابه على أنه ظرف لمقعدهم إذ لا فائدة فى تقييد فرحهم بذلك وقيل هو بمعنى المخالفة ويعضده قراءة من قرأ خلف رسول الله بضم الخاء فانتصابه على انه مفعول له والعامل اما فرح أى فرحوا لاجل أى مخالفته عليه الصلاة والسلام بالقعود واما مقعدهم أى فرحوا بقعودهم لاجل مخالفته عليه الصلاة والسلام أو على أنه حال والعامل أحد المذكورين أى فرحوا مخالفين له عليه الصلاة والسلام بالقعود أو فرحوا بالقعود مخالفين له عليه الصلاة والسلام (وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) لا إيثاراً للدعة والخفض على طاعة الله تعالى فقط بل مع ما فى قلوبهم من الكفر والنفاق فان إيثار أحد الأمرين قد يتحقق بأدنى رجحان منه من غير أن يبلغ الآخر مرتبة الكراهية وإنما أوثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال وكرهوا أن يخرجوا الى الغزو إيذانا بأن الجهاد فى سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب وأشرف المطالب التى يجب أن يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه كما فرحوا بأقبح القبائح الذى هو القعود خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقالوا) أى لاخوانهم تثبيتا لهم على التخلف والقعود وتواصيا فيما بينهم بالشر والفساد أو للمؤمنين تثبيطا لهم عن الجهاد ونهيا عن المعروف واظهاراً لبعض العلل الداعية لهم الى ما فرحوا به من القعود فقد جمعوا ثلاث خلال من خصال الكفر والضلال الفرح بالقعود وكراهية الجهاد ونهى الغير عن ذلك (لا تنفروا فى الحر) فانه لايستطاع شدته (قل) رداً عليهم وتجهيلا لهم (نار جهنم) التى ستدخلونها بما فعلتم (أشد حراً) مما تحذرون من الحر المعهود وتحذرون الناس منه فما لكم لا تحذرونها وتعرضون أنفسكم لها بأيثار القعود على النفير (لوكانوا يفقهون) اعتراض تذييلى من جهته سبحانه وتعالى غير داخل تحت القول المأمور به مؤكد لمضمونه وجواب لو اما مقدر أى لوكانوا يفقهون أنها كذلك أو كيف هى أو أن مآلهم اليها لما فعلوا مافعلوا أو لتأثروا بهذا الالزام واما غير منوى على أن لو لمجرد التمنى المنبيء عن امتناع تحقق مدخولها أى لوكانوا من أهل الفطانة والفقه كما فى قوله عز وجل « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً) اخبار عن عاجل أمرهم وآجله

من الضحك القليل والبكاء الطويل المؤدى اليه أعمالهم السيئة التى من جملتها ما ذكر من الفرح . والفاء لسببية ماسبق للاخبار بما ذكر من الضحك والبكاء لا لنفسهما إذ لا تصور السببية فى الأول أصلا وقليلا وكثيراً منصوبان على المصدرية أو الظرفية أي ضحكا قليلا وبكاء كثيرا أو زمانا قليلا وزمانا كثيرا . واخراجه فى صورة الأمر للدلالة على تحتم وقوع المخبر به فان أمر الآمر المطاع مما لا يكاد يتخلف عنه المأمور به خلا أن المقصود إفادته فى الأول هو وصف القلة فقط وفى الثانى وصف الكثرة مع الموصوف . يروى أن أهل النفاق يبكون فى النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم . ويجوز أن يكون الضحك كناية عن الفرح والبكاء عن الغم وأن تكون القلة عبارة عن العدم والكثرة عن الدوام (جزاء بما كانوا يكسبون) من فنون المعاصى والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددى ما داموا فى الدنيا وجزاء مفعول له للفعل الثانى أى ليبكوا جزاء أو مصدر حذف ناصبه أي يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاء بما كسبوا من المعاصى المذكورة (فان رجعك الله) الفاء لتفريع الامر الآتى على مابين من أمرهم والفعل من الرجع المتعدى دون الرجوع اللازم أى فان ردك الله تعالى (الى طائفة منهم) أى الى المنافقين من المتخلفين فى المدينة فان تخلف بعضهم إنما كان لعذر عائق مع الاسلام أو الى من بقى من المنافقين المتخلفين بأن ذهب بعضهم بالموت أو بالغيبة عن البلد أو بأن لم يستأذن البعض. عن قتادة أنهم كانوا اثنى عشر رجلا قيل فيهم ماقيل (فاستأذنوك للخروج) معك الى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه (فقل) اخراجا لهم عن ديوان الغزاة وابعادا لمحلهم عن محفل صحبتك (لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا) من الأعداء وهو اخبار فى معنى النهى للمبالغة وقد وقع كذلك (أنكم) تعليل لما سلف أى لأنكم (رضيتم بالقعود) أي عن الغزو وفرحتم بذلك (أول مرة) هى غزوة تبوك (فاقعدوا) الفاء لتفريع الأمر بالقعود بطريق العقوبة على ماصدر عنهم من الرضا بالقعود أى اذا رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا من بعد (مع الخالفين) أى المتخلفين الذين ديدنهم العقود والتخلف دائماً وقرىء الخلفين على القصر فكان محو أساميهم من دفتر المجاهدين ولزهم فى قرن الخالفين عقوبة لهم أى عقوبة . وتذكير اسم التفضيل المضاف الى المؤنث هو الأكثر الدائر على الألسنة فانك لا تكاد تسمع قائلا يقول هى كبرى امرأة أو أولى مرة (ولا تصل على أحد منهم مات) صفة لأحد وانما جيء بصيغة الماضى تنبيها على تحقق الوقوع لامحالة (أبدا) متعلق بالنهى أى لا تدع ولا تستغفر لهم أبدا (ولا تقم على قبره)

أى لاتقف عليه للدفن أو للزيارة والدعاء « روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم فلما مرض رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول بعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتيه فلما دخل عليه قال عليه السلام «أهلكك حب اليهود » فقال يارسول الله بعثت اليك لتستغفر لى لالتؤنبنى وسأله أن يكفنه فى شعاره الذى يلى جلده ويصلى عليه فلما مات دعاه ابنه وكان مؤمنا صالحا فأجابه عليه السلام تسلية له ومراعاة لجانبه وأرسل اليه قميصه فكفن فيه فلما هم بالصلاة أوصلى نزلت » وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لما هلك عبد الله بن أبى وضعناه ليصلى عليه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أتصلى على عدو الله القائل يوم كذا كذا وكذا والقائل يوم كذا كذا وكذا وعددت أيامه الخبيثة فتبسم عليه السلام وصلى عليه ثم مشى معه وقام على حفرته حتى دفن فوالله مالبث الايسيرا حتى نزل ولاتصل الخ فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على منافق ولاقام على قبره وانما لم ينه عن التكفين بقميصه صلى الله عليه وسلم لأن الضنة بالقميص كانت مظنة الاخلال بالكرم على أنه كان مكافأة لقميصه الذى كان ألبسه العباس رضى الله تعالى عنه حين أسر ببدر والخبر مشهور (أنهم كفروا بالله ورسوله) تعليل للنهى على معنى أن الاستغفار للميت والوقوف على قبره إنما يكون لاستصلاحه وذلك مستحيل فى حقهم لأنهم استمروا على الكفر بالله ورسوله مدة حياتهم (وماتوا وهم فاسقون) أى متمردون فى الكفر خارجون عن حدوده كما بين من معنى الفسق (ولاتعجبك أموالهم وأولادهم) تكرير لما سبق وتقرير لمضمونه بالاخبار بوقوعه ويجوز أن يكون هذا فى حق فريق غير الفريق الأول وتقديم الأموال فى أمثال هذه المواقع على الأولاد مع كونهم أعز منها اما لعموم مساس الحاجة اليها بحسب الذات وبحسب الأفراد والاوقات فانها مما لابد منه لكل أحد من الآباء والأمهات والأولاد فى كل وقت وحين حتى أن من له أولاد ولامال له فهو وأولاده فى ضيق ونكال. وأما الأولاد فانما يرغب فيهم من بلغ مبلغ الأبوة. واما لأن المال مناط لبقاء النفس والأولاد لبقاء النوع . واما لأنها أقدم فى الوجود من الاولاد لان الأجزاء المنوية إنما تحصل من الاغذية كما سيأتى فى سورة الكهف (إنما يريد الله) بما متعهم به من الاموال والاولاد (أن يعذبهم بها فى الدنيا) بسبب معاناتهم المشاق ومكابدتهم الشدائد فى شأنها (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) أى فيموتوا كافرين باشتغالهم بالتمتع بها والالتهاء عن النظر والتدبر فى العواقب (واذا أنزلت سورة) من القرآن ويجوز أن يراد بها بعضها (أن آمنوا بالله) أن مفسرة لما فى الانزال من معنى القول والوحى

أو مصدرية حذف عنها الجار اى بأن آمنوا (وجاهدوا مع رسوله) لأعزاز دينه واعلاء كلمته (استأذنك أولو الطول منهم) أى ذوو الفضل والسعة والقدرة على الجهاد بدنا ومالا (وقالوا) عطف تفسيرى لاستأذنك مغن عن ذكر ما استأذنوا فيه يعنى القعود (ذرنا نكن مع القاعدين) أى الذين قعدوا عن الغزو لما بهم من عذر (رضوا) استئناف لبيان سوء صنيعهم وعدم امتثالهم لكلا الامرين وان لم يردوا الاول صريحا (بأن يكونوا مع الخوالف) مع النساء اللاتى شأنهن القعود ولزوم البيوت جمع خالفة وقيل الخالفة من لاخير فيه (وطبع على قلوبهم فهم) بسبب ذلك (لا يفقهون) مافى الايمان بالله وطاعته فى أوامره ونواهيه واتباع رسوله عليه السلام والجهاد من السعادة ومافى أضداد ذلك من الشقاوة (لكن الرسول والذين آمنوا معه) بالله وبما جاء من عنده تعالى . وفيه إيذان بأنهم ليسوا من الايمان بالله فى شيء وان لم يعرضوا عنه صريحا أعراضهم عن الجهاد باستئذانهم فى القعود (جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى أن تخلف هؤلاء عن الغزو فقد نهد اليه ونهض له من هو خير منهم واخلص نية ومعتقداً وأقاموا أمر الجهاد بكلا نوعيه كقوله تعالى « فأن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » (وأولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة (لهم) بواسطة نعوتهم المزبورة (الخيرات) أى منافع الدارين النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة والكرامة فى العقبى . وقيل الحور كقوله عز قائلا « فيهن خيرات حسان» وهى جمع خيرة تخفيف خيرة (وأولئك هم المفلحون) أى الفائزون بالمطلوب لامن حاز بعضا من الحظوظ الفانية عما قليل . وتكرير اسم الاشارة تنويه لشأنهم وربء لمكانهم (أعد الله لهم) استئناف لبيان كونهم مفلحين أى هيأ لهم فى الآخرة (جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) حال مقدرة من الضمير المجرور والعامل أعد (ذلك) اشارة الى ما فهم من أعداد الله سبحانه لهم الجنات المذكورة من نيل الكرامة العظمى (الفوز العظيم) الذى لافوز وراءه (وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم) شروع فى بيان أحوال منافقى الاعراب أثر بيان منافقى أهل المدينة والمعذرون من عذر فى الامر اذا قصر فيه وتوانى ولم يجد وحقيقته أن يوهم أن له عذرا فيما يفعل ولا عذر له أو المعتذرون بأدغام التاء فى الذال ونقل حركتها الى العين وهم المعتذرون بالباطل . وقرىء المعذرون من الاعذار وهو الاجتهاد فى العذر والاحتشاد فيه . قيل هم أسد وغطفان قالوا ان لنا عيالا وان بنا لجهدا فائذن لنا فى التخلف . وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا ان غزونا معك أغارت أعراب طيء على أهالينا ومواشينا

فقال عليه السلام «سيغنيني الله تعالى عنكم» وعن مجاهد نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله سبحانه. وعن قتادة اعتذروا بالكذب. وقرىء المعذرون بتشديد العين والذال من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن اذ التاء لا تدغم فى العين ادغامها فى الطاء والزاء والصاد فى المطوعين وأزكى وأصدق. وقيل أريد بهم المعتذرون بالصحة وبه فسر المعذرون والمعذرون أى الذين لم يفرطوا فى العذر (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) وهم منافقوا الاعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا فظهر أنهم كذبوا الله ورسوله فى ادعاء الايمان والطاعة (سيصيب الذين كفروا منهم) أى من الاعراب أو من المعذرين فان منهم من اعتذر لكسله لا لكفره (عذاب أليم) بالقتل والاسر فى الدنيا والنار فى الآخرة (ليس على الضعفاء ولا على المرضى) كالهرمى والزمنى (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) لفقرهم كمزينة وجهينة وبنى عذرة (حرج) اثم فى التخلف (اذا نصحوا لله ورسوله) وهو عبارة عن الايمان بهما والطاعة لهما فى السر والعلن وتوليهما فى السراء والضراء والحب فيهما والبغض فيهما كما يفعل المولى الناصح بصاحبه (ما على المحسنين من سبيل) استئناف مقرر لمضمون ما سبق أى ليس عليهم جناح ولا الى معاتبتهم سبيل. ومن مزيدة للتأكيد ووضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على انتظامهم بنصحهم لله ورسوله فى سلك المحسنين أو تعليل لنفى الحرج عنهم أى ما على جنس المحسنين من سبيل وهم من جملتهم (والله غفور رحيم) تذييل مؤيد لمضمون ما ذكر مشير الى أن بهم حاجة الى المغفرة وان كان تخلفهم بعذر (ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم) عطف على المحسنين كما يؤذن به قوله عز وجل فيما سيأتى «انما السبيل» الآية وقيل عطف على الضعفاء وهم البكاءون سبعة من الأنصار معقل بن يسار. وصخر بن خنساء. وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير. وثعلبة بن عنمة. وعبد الله بن معقل. وعلبة بن زيد. أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغز معك فقال عليه السلام «لا أجد» فتولوا وهم يبكون. وقيل هم بنو مقرن معقل وسويد ونعمان وقيل أبو موسى الاشعرى وأصحابه رضى الله تعالى عنه (قلت لا أجد ما أحملكم عليه) حال من الكاف فى أتوك بأضمار قد وما عامة لما سألوه عليه السلام وغيره مما يحمل عليه عادة. وفى ايثار لا أجد على ليس عندى من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين ما لا يخفى كأنه عليه السلام يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا يجده (تولوا) جواب اذا (وأعينهم تفيض) أى تسيل بشدة (من الدمع) أى دمعا فان من البيانية مع مجرورها فى حيز النصب على التمييز وهو أبلغ من يفيض دمعها لافادتها ان العين بعينها

صارت دمعا فياضا والجملة حالية وقوله عز اسمه (حزنا) نصب على العلية أو الحالية أو المصدرية لفعل دل عليه ما قبله أي تفيض للحزن فان الحزن يسند الى العين مجازا كالفيض أو تولوا له أو حزنين أو يحزنون حزنا فتكون هذه الجملة حالا من الضمير فى تفيض (ألا يجدوا) على حذف لام متعلقة بحزنا أو تفيض أى لئلا يجدوا (ما ينفقون) فى شراء ما يحتاجون اليه ان لم يجدوه عندك (انما السبيل) بالمعاتبة (على الذين يستأذنوك) فى التخلف (وهم أغنياء) واجدون لأهبة الغزو مع سلامتهم (رضوا) استئناف تعليلي لما سبق كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل رضوا (بأن يكونوا مع الخوالف) الذين شأنهم الضعة والدناءة (وطبع الله على قلوبهم) أي خذلهم فغفلوا عن وخامة العاقبة (فهم) بسبب ذلك (لا يعلمون) أبدا غائلة ما رضوا به وما يستتبعه آجلا كما لم يعلموا بخساسة شأنه عاجلا (يعتذرون أليكم) استئناف لبيان ما يتصدون له عند القفول اليهم * روى أنهم كانوا بضعة وثمانين رجلا فلما رجع عليه السلام اليهم جاءوا يعتذرون اليه بالباطل والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانهم كانوا يعتذرون اليهم أيضا لا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط أي يعتذرون اليكم فى التخلف (اذا رجعتم) من الغزو منتهين (اليهم) وانما لم يقل الى المدينة ايذانا بان مدار الاعتذار هو الرجوع اليهم لا الرجوع الى المدينة فلعل منهم من بادر الى الاعتذار قبل الرجوع اليها (قل) تخصيص هذا الخطاب برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تعميمه فيما سبق لاصحابه أيضا لما أن الجواب وظيفته عليه السلام وأما اعتذارهم فكان شاملا للمسلمين شمول الرجوع لهم (لا تعتذروا) لا تفعلوا الاعتذار كقوله تعالى «اخسؤا فيها ولا تكلمون» أولا تعتذروا بما عندكم من المعاذير. وأما التعرض لعنوان كذبها فلا يساعده قوله تعالى (لن نؤمن لكم) أي لن نصدقكم فى ذلك أبدا فانه استئناف تعليلي للنهي مبني على سؤال نشأ من قبلهم متفرع على ادعاء الصدق فى الاعتذار كانهم قالوا لم لا نعتذر فقيل لانا لا نصدقكم أبدا فيكون عبثا اذ لا يترتب عليه غرض المعتذر وقوله عز وجل (قد نبأنا الله من أخباركم) تعليل لانتفاء التصديق أي أعلمنا بالوحي بعض أخباركم المنافية للتصديق مما باشرتموه من الشر والفساد وأضمرتموه فى ضمائركم وهيأتموه للابراز فى معرض الاعتذار من الأكاذيب. وجمع ضمير المتكلم فى الموضعين للمبالغة فى حسم أطماعهم من التصديق رأسا ببيان عدم رواج اعتذارهم عند أحد من المؤمنين أصلا فان تصديق البعض لهم ربما يطمعهم فى تصديق الرسول أيضا صلى الله عليه وسلم بواسطة المصدقين وللايذان بأن افتضاحهم بين المؤمنين كافة (وسيرى الله عملكم) فيما سيأتي أتنيبون اليه تعالى بما أنتم

فيه من النفاق أم تثبتون وكأنه استتابة وامهال للتوبة . وتقدم مفعول الرؤية على ماعطف على فاعله من قوله تعالى (ورسوله) للايذان باختلاف حال الرؤيتين وتفاوتهما وللاشعار بأن مدار الوعيد هو علمه عز وجل بأعمالهم (ثم تردون) يوم القيامة (الى عالم الغيب والشهادة) للجزاء بما ظهر منكم من الأعمال ووضع المظهر موضع المضمر لتشديد الوعيد فان علمه سبحانه وتعالى بجميع أعمالهم الظاهرة والباطنة واحاطته بأحوالهم البارزة والكامنة مما يوجب الزجر العظيم فينبئكم عند ردكم اليه ووقوفكم بين يديه (بما كنتم تعملون) أي بما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من الأعمال السيئة السابقة واللاحقة على أن ما موصولة والعائد اليها محذوف أو بعملكم المستمر على أنها مصدرية والمراد بالتنبئة بذلك المجازاة به . وايثارها عليها لمراعاة ماسبق من قوله تعالى « قد نبأنا الله » الخ فان المتنبأ به الأخبار المتعلقة بأعمالهم وللايذان بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالهم وانما يعلمونها يومئذ (سيحلفون بالله لكم) تأكيدا لمعاذيرهم الكاذبة وتقريرا لها والسين للتأكيد والمحلوف عليه محذوف يدل عليه الكلام وهو ما اعتذروا به من الأكاذيب والجملة بدل من يعتذرون أو بيان له (إذا انقلبتم) أي انصرفتم من الغزو (اليهم) ومعنى الانقلاب هو الرجوع والانصراف مع زيادة معنى الوصول والاستيلاء وفائدة تقييد حلفهم به الايذان بأنه ليس لدفع ما خاطبهم النبي عليه السلام به من قوله تعالى لاتعتذروا الخ بل هو أمر مبتدأ (لتعرضوا) وتصفحوا (عنهم) صفح رضا فلاتوبخوهم ولا تعاتبوهم كما يفصح عنه قوله تعالى « لترضوا عنهم » (فأعرضوا عنهم) لكن لا اعراض رضا كما هو طلبتهم بل اعراض اجتناب ومقت كما يعرب عنه قوله عز وجل (انهم رجس) فأنه صريح في أن المراد بالاعراض عنهم اما الاجتناب عنهم لما فيهم من الرجس الروحاني واما ترك استصلاحهم بترك المعاتبة لأن المقصود بها التطهير بالحمل على الانابة وهؤلاء أرجاس لاتقبل التطهير فلايتعرض لهم بها وقوله عز وعلا (ومأواهم جهنم) اما من تمام التعليل فان كونهم من أهل النار من دواعي الاجتناب عنهم وموجبات ترك استصلاحهم باللوم والعتاب . واما تعليل مستقل أي وكفتهم النار عتابا وتوبيخا فلا تتكلفوا أنتم في ذلك (جزاء) نصب على انه مصدر مؤكد لفعل مقدر من لفظه وقع حالا أي يجزون جزاء أو لمضمون الجملة السابقة فانها مفيدة لمعنى المجازاة قطعا كأنه قيل مجزيون جزاء (بما كانوا يكسبون) في الدنيا من فنون السيئات أو على انه مفعول له (يحلفون لكم) بدل مما سبق . وعدم ذكر المحلوف به لظهوره أي يحلفون به تعالى (لترضوا عنهم) بحلفهم وتستديموا عليهم ما كنتم

تفعلون بهم (فأن ترضوا عنهم) حسبما راموا وساعدتموهم فى ذلك (فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أى فان رضاكم عنهم لا يجديهم نفعا لأن الله ساخط عليهم ولا أثر لرضاكم عند سخطه سبحانه ووضع الفاسقين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حل بهم من السخط وللايذان بشمول الحكم لمن شاركهم فى ذلك والمراد به نهى المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وآكده فان الرضا عمن لا يرضى عنه الله تعالى مما لا يكاد يصدر عن المؤمن. وقيل انما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين من دواعى رضا الله تعالى قيل هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين منافقا فقال النبى صلى الله عليه وسلم للمؤمنين حين قدم المدينة لا تجالسوهم ولا تكلموهم. وقيل جاء عبدالله بن أبي يحلف أن لا يتخلف عنه أبدا (الأعراب) هى صيغة الجمع وليست بجمع للعرب قاله سيبويه لئلا يلزم كون الجمع أخص من الواحد فان العرب هو هذا الجيل الخاص سواء سكن البوادى أم القرى. وأما الاعراب فلا يطلق الا على من يسكن البوادى ولهذا نسب الى الاعراب على لفظه فقيل اعرابى وقال أهل اللغة رجل عربى وجمعه العرب كما يقال مجوسى ويهودي ثم يحذف ياء النسب فى الجمع فيقال المجوس واليهود ورجل أعرابى ويجمع على الاعراب والاعاريب أي أصحاب البدو (أشد كفرا ونفاقا) من أهل الحضر لجفائهم وقسوة قلوبهم وتوحشهم ونشئهم فى معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده كما فى قوله تعالى «وكان الانسان كفورا» إذ ليس كلهم كما ذكر على ما ستحيط به خبرا (وأجدر أن لا يعلموا) أى أحق وأخلق بأن لا يعلموا (حدود ما أنزل الله على رسوله) لبعدهم عن مجالسه صلى الله عليه وسلم وحرمانهم من مشاهدة معجزاته ومعاينة ما ينزل عليه من الشرائع فى تضاعيف الكتاب والسنة (والله عليم) بأحوال كل من أهل الوبر والمدر (حكيم) فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم من العقاب والثواب (ومن الأعراب) شروع فى بيان تشعب جنس الأعراب إلى فريقين وعدم انحصارهم فى الفريق المذكور كما يتراءى من ظاهر النظم الكريم وشرح لبعض مثالب هؤلاء المتفرعة على الكفر والنفاق بعد بيان تماديهم فيهما وحمل الأعراب على الفريق المذكور خاصة وان ساعده كون من يحكى حاله بعضا منهم وهم الذين بصدد الانفاق من أهل النفاق دون فقرائهم أو أعراب أسد وغطفان وتميم كما قيل لكن لا يساعده ما سيأتى من قوله تعالى «ومن الأعراب من يؤمن» الخ فان أولئك ليسوا من هؤلاء

قطعا وإنما هم من الجنس أى ومن جنس الأعراب الذى نعت بنعت بعض أفراده (من يتخذ ماينفق) من المال أى يعد مايصرفه فى سبيل الله ويتصدق به صورة (مغرما) أى غرامة وخسرانا لازما إذ لاينفقه احتسابا ورجاء لثواب الله تعالى ليكون له مغنما وإنما ينفقه رياء وتقية فهى غرامة محضة . وما فى صيغة الاتخاذ من معنى الاختيار والانتفاع بما يتخذ إنما هو باعتبار غرض المنفق من الرياء والتقية لا باعتبار ذات النفقة أعنى كونها غرامة (ويتربص بكم الدوائر) أصل الدائرة ما يحيط بالشىء والمراد بها مالا محيص عنه من مصائب الدهر أى ينتظر بكم دوائر الدهر ونوبه ودوله ليذهب غلبتكم عليه فيتخلص مما ابتلى به (عليهم دائرة السوء) دعاء عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين على نهج الاعتراض كقوله سبحانه «غلت أيديهم» بعد قول اليهود ماقالوا والسوء مصدر ثم أطلق على كل ضر وشر وأضيفت اليه الدائرة ذما كما يقال رجل سوء لأن من دارت عليه يذمها وهي من باب إضافة الموصوف الي صفته فوصفت فى الأصل بالمصدر مبالغة ثم أضيفت إلى صفتها كقوله عز وجل «ما كان أبوك امرأ سوء» وقيل معنى الدائرة يقتضى معني السوء فانما هى إضافة بيان وتأكيد كما قالوا : شمس النهار ولحيا رأسه . وقرىء بالضم وهو العذاب كما قيل له سيئة (والله سميع) لما يقولونه عند الانفاق مما لا خير فيه (عليم) بما يضمرونه من الأمور الفاسدة التى من جملتها أن يتربصوا بكم الدوائر وفيه من شدة الوعيد مالا يخفى (ومن الاعراب) أى من جنسهم على الاطلاق (من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ) أى يأخذ لنفسه على وجه الاصطفاء والادخار (ماينفق) أى ينفقه في سبيل الله تعالى (قربات) أي ذرائع اليها وللايذان بما بينهما من كمال الاختصاص جعل كأنه نفس القربات . والجمع باعتبار أنواع القربات أو أفرادها وهى ثانى مفعولى يتخذ وقوله تعالى (عند الله) صفتها أو ظرف ليتخذ (وصلوات الرسول) أى وسائل اليها فانه عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ولذلك سن للمصدق أن يدعو للمتصدق عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلى عليه كما فعله عليه الصلاة والسلام حين قال «اللهم صل على آل أبى أوفى» فان ذلك منصبه فله أن يتفضل به على من يشاء . والتعرض لوصف الايمان بالله واليوم الآخر فى الفريق الاخير مع أن مساق الكلام لبيان الفرق بين الفريقين فى شأن اتخاذ ماينفقانه حالا ومآلا وأن ذكر اتخاذه ذريعة إلى القربات والصلوات مغن عن التصريح بذلك لكمال العناية بإيمانهم وبيان اتصافهم به وزيادة الاعتناء بتحقيق الفرق بين الفريقين من أول

الأمر وأما الفريق الأول فاتصافهم بالكفر والنفاق معلوم من سياق النظم الكريم صريحا (ألا أنها قربة لهم) شهادة لهم من جناب الله تعالى بصحة ما اعتقدوه وتصديق لرجائهم والضمير لما ينفق والتأنيث باعتبار الخبر مع مامر من تعدده بأحد الوجهين والتنكير للتفخيم المغنى عن الجمع أى قربة عظيمة لايكتنه كنهها . وفى ايراد الجملة اسمية وتصديرها بحر فى التنبيه والتحقيق من الجزالة ما لا يخفى والاقتصار على بيان كونها قربة لهم لانها الغاية القصوى وصلوات الرسول من ذرائعها وقوله تعالى (سيدخلهم الله فى رحمته) وعد لهم بأحاطة رحمته الواسعة بهم وتفسير للقربة كما أن قوله عز وعلا والله سميع عليم وعيد للأولين عقيب الدعاء عليهم والسين للدلالة على تحقق ذلك وتقرره ألبتة وقوله تعالى (إن الله غفور رحيم) تعليل لتحقق الوعد على نهج الاستئناف التحقيقى قيل هذا فى عبد الله ذى البجادين وقومه وقيل فى بنى مقرن من مزينة وقيل فى أسلم وغفار وجهينة وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أسلم وغفار وشيء من جهينة ومزينة خير عند الله يوم القيامة من تميم وأسد بن خزيمة وهوازن وغطفان » (والسابقون الأولون من المهاجرين) بيان لفضائل أشراف المسلمين أثر بيان فضيلة طائفة منهم والمراد بهم الذين صلوا الى القبلتين أو الذين شهدوا بدرا أو الذين أسلموا قبل الهجرة (والانصار) أهل بيعة العقبة الاولى وكانوا سبعة نفر وأهل بيعة العقبة الثانية وكانوا سبعين رجلا والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة ومصعب بن عمير وقرىء بالرفع عطفا على والسابقون (والذين اتبعوهم باحسان) أى ملتبسين به والمراد به كل خصلة حسنة وهم اللاحقون بالسابقين من الفريقين على أن من تبعيضية أو الذين اتبعوهم بالايمان والطاعة إلى يوم القيامة فالمراد بالسابقين جميع المهاجرين والانصار ومن بيانية (رضى الله عنهم) خبر للمبتدا أي رضى الله عنهم بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم (ورضوا عنه) بما نالوه من رضاه المستتبع لجميع المطالب طرا (وأعد لهم) فى الآخرة (جنات تجرى تحتها الانهار) وقرىء من تحتها كما فى سائر المواقع (خالدين فيها أبدا) من غير انتهاء (ذلك الفوز العظيم) الذى لا فوز وراءه وما فى اسم الاشارة من معنى البعد لبيان بعد منزلتهم فى مراتب الفضل وعظم الدرجة من مؤمنى الأعراب (وممن حولكم من الأعراب) شروع فى بيان أحوال منافقى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب بعد بيان حال أهل البادية منهم أى ممن حول بلدتكم (منافقون) وهم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها (ومن

أهل المدينة) عطف على ممن حولهم عطف مفرد على مفرد وقوله تعالى (مردوا على النفاق) اما جملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مسوقة لبيان غلوهم فى النفاق اثر بيان اتصافهم به واما صفة المبتدا المذكور فصل بينها وبينه بما عطف على خبره وأما صفة لمحذوف أقيمت هي مقامه وهو مبتدا خبره من أهل المدينة كما فى قوله: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا، والجملة عطف على الجملة السابقة أى ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق أى تمهروا فيه من مرن فلان على عمله ومرد عليه إذا درب به وضرى حتى لان عليه ومهر فيه غير أن مرد لا يكاد يستعمل إلا فى الشر فالتمرد على الوجهين الأولين شامل للفريقين حسب شمول النفاق وعلى الوجه الأخير خاص بمنافقى أهل المدينة وهو الاظهر والانسب بذكر منافقى أهل البادية أولا ثم ذكر منافقى الأعراب المجاورين للمدينة ثم ذكر منافقى أهلها والله تعالى أعلم وقوله عز شأنه (لا تعلمهم) بيان لتمردهم أى لا تعرفهم أنت لكن لا بأعيانهم واسمائهم وأنسابهم بل بعنوان نفاقهم يعنى أنهم بلغوا من المهارة فى النفاق والتنوق فى مراعاة التقية والتحامى عن مواقع التهم الى مبلغ يخفى عليك حالهم مع ماأنت عليه من علو الكعب وسمو الطبقة فى كمال الفطنة وصدق الفراسة. وفى تعليق نفى العلم بهم مع أنه متعلق بحالهم مبالغة فى ذلك وإيماء إلى أن ماهم فيه من صفة النفاق لعراقتهم ورسوخهم فيها صارت بمنزلة ذاتياتهم أو مشخصاتهم بحيث لا يعد من لا يعرفهم بتلك الصفة عالما بهم وحمل عدم علمه عليه الصلاة والسلام باعيانهم على عدم علمه عليه الصلاة والسلام بعد مجىء هذا البيان على انه عليه الصلاة والسلام يعلم أن فيهم منافقين لكن لا يعلمهم بأعيانهم مع كونه خلاف الظاهر عار عما ذكر من المبالغة وقوله عز وجل (نحن نعلمهم) تقرير لما سبق من مهارتهم فى فن النفاق أى لا يقف على سرائرهم المركوزة فى ضمائرهم الا من لا تخفى عليه خافية لما هم عليه من شدة الاهتمام بأبطان الكفر واظهار الاخلاص. وفى تعليق العلم بهم مع أن المقصود بيان تعلقه بحالهم مامر فى تعليق نفيه بهم وقوله عز شأنه (سنعذبهم) وعيد لهم وتحقيق لعذابهم حسبما علم الله فيهم من موجباته. والسين للتأكيد (مرتين) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيبا يوم الجمعة فقال « اخرج يافلان فانك منافق اخرج يافلان فانك منافق» فأخرج ناسا وفضحهم فهذا هو العذاب الأول والثانى اما القتل واما عذاب القبر أو الأول هو القتل والثانى عذاب القبر. أو الأول أخذ الزكاة لما أنهم يعدونها مغرما بحتا والثانى نهك الابدان واتعابها بالطاعات الفارغة عن الثواب. ولعل تكرير عذابهم لما فيهم من الكفر المشفوع

بالنفاق أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه. ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير كما فى قوله تعالى «فارجع البصر كرتين» أى كرة بعد أخرى (ثم يردون) يوم القيامة (الى عذاب عظيم) هو عذاب النار. وفى تغيير السبك باسناد عذابهم السابق الى نون العظمة حسب اسناد ماقبله من العلم واسناد ردهم الى العذاب اللاحق الى أنفسهم إيذان باختلافهما حالا وان الأول خاص بهم وقوعا وزمانا يتولاه سبحانه وتعالى والثانى شامل لعامة الكفرة وقوعا وزمانا وان اختلفت طبقات عذابهم (وآخرون) بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم فى امور الدين وهو عطف على منافقون أى ومنهم يعنى وممن حولكم ومن أهل المدينة قوم آخرون (اعترفوا بذنوبهم) التى هي تخلفهم عن الغزو. وايثار الدعة عليه والرضا بسوء جوار المنافقين وندموا على ذلك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة ولم يخفوا ماصدر عنهم من الأعمال السيئة كما فعله من اعتاد اخفاء مافيه وإبراز ماينافيه من المنافقين الذين اعتذروا بما لا خير فيه من المعاذير المؤكدة بالايمان الفاجرة حسب ديدنهم المألوف وهم رهط من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد عند مابلغهم مانزل فى المتخلفين فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين حسب عادته الكريمة ورآهم كذلك فسأل عن شأنهم فقيل انهم أقسموا أن لايحلوا أنفسهم حتى تحلهم وقال عليه الصلاة والسلام «وأنا اقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم» فنزلت (خلطوا عملا صالحا) هو ماسبق منهم من الأعمال الصالحة والخروج الى المغازى السابقة وغيرها وما لحق من الاعتراف بذنوبهم فى التخلف عن هذه المرة وتذممهم وندامتهم على ذلك. وتخصيصه بالاعتراف لايناسب الخلط لاسيما على وجه يؤذن بتوارد المختلطين وكون كل منهما مخلوطا ومخلوطا به كما يؤذن به تبديل الواو بالباء فى قوله تعالى (وآخر سيئا) فان قولك خلطت الماء باللبن يقتضى إيراد الماء على اللبن دون العكس وقولك خلطت الماء واللبن معناه إيقاع الخلط بينهما من غير دلالة على اختصاص أحدهما بكونه مخلوطا والآخر بكونه مخلوطا به وترك تلك الدلالة للدلالة على جعل كل منهما متصفا بالوصفين جميعا وذلك فيما نحن فيه بورود كل من العملين على الآخر مرة بعد أخرى والمراد بالعمل السيء ماصدر عنهم من الأعمال السيئة أولا وآخرا. وعن الكلبى التوبة والاثم. وقيل الواو بمعنى الباء كما فى قولهم بعت الشاء شاة ودرهما بمعنى شاة بدرهم (عسى الله أن يتوب عليهم) أى يقبل توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم (ان الله غفور رحيم) يتجاوز عن سيئات التائب ويتفضل عليه وهو تعليل لما تفيده كلمة عسى من وجوب القبول فانها للاطماع

الذى هو من أكرم الأكرمين إيجاب وأى إيجاب (خذ من أموالهم صدقة) روى أنهم لما أطلقوا قالوا يارسول الله هذه أموالنا التى خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا فقال عليه الصلاة والسلام «ماأمرت أن آخذ من أموالكم شيئا» فنزلت. فليست هى الصدقة المفروضة لكونها مأمورا بها ولما روى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ منهم الثلث وترك لهم الثلثين فوقع ذلك بيانا لما فى صدقة من الاجمال وانما هى كفارة لذنوبهم حسبما ينبىء عنه قوله عز وجل (تطهرهم) أى عما تلطخوا به من أوضار التخلف والتاء للخطاب والفعل مجزوم على أنه جواب للامر. وقرىء بالرفع على أنه حال من ضمير المخاطب فى خذ أو صفة لصدقة والتاء للخطاب أو للصدقة والعائد على الاول محذوف ثقة بمابعده. وقرىء تطهرهم من أطهره بمعنى طهره (وتزكيهم بها) باثبات الياء وهو خبر لمبتدأ محذوف والجملة حال من الضمير فى الامر أو فى جوابه أى وأنت تزكيهم بها أى تنمي بتلك الصدقة حسناتهم الى مراتب المخلصين أو أموالهم أو تبالغ فى تطهيرهم هذا على قراءة الجزم فى تطهرهم. وأما على قراءة الرفع فسواء جعلت التاء للخطاب أو للصدقة وكذا اذا جعلت الجملة الأولى حالا من ضمير المخاطب أو صفة للصدقة على الوجهين فالثانية عطف على الاولى حالا وصفة من غير حاجة الى تقدير المبتدا لتوجيه دخول الواو فى الجملة الحالية (وصل عليهم) أى واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم (أن صلوتك) وقرىء صلواتك مراعاة لتعدد المدعو لهم (سكن لهم) تسكن نفوسهم اليها وتطمئن قلوبهم بها ويثقون بأنه سبحانه قبل توبتهم والجملة تعليل للامر بالصلاة عليهم (والله سميع) يسمع ماصدر عنهم من الاعتراف بالذنب والتوبة والدعاء (عليم) بمافى ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم ومن الاخلاص فى التوبة والدعاء أو سميع يجيب دعاءك لهم عليم بماتقتضيه الحكمة والجملة حينئذ تذييل للتعليل مقرر لمضمونه وعلى الاول تذييل لماسبق من الآيتين محقق لمافيهما (ألم يعلموا) وقرىء بالتاء والضمير اما للتائبين فهو تحقيق لماسبق من قبول توبتهم وتطهير الصدقة وتزكيتها لهم وتقرير لذلك وتوطين لقلوبهم ببيان أن المتولى لقبول توبتهم وأخذ صدقاتهم هو الله سبحانه وان أسند الاخذ والتطهير والتزكية اليه عليه الصلاة والسلام أى ألم يعلم أولئك التائبون (أن الله هو يقبل التوبة) الصحيحة الخالصة (عن عباده) المخلصين فيها ويتجاوز عن سيئاتهم كما يفصح عنه كلمة عن. والمراد بهم اما أولئك التائبون ووضع المظهر فى موضع المضمر للاشعار بعلية العبادة لقبولها واما كافة العباد وهم داخلون فى ذلك دخولا أوليا (ويأخذ الصدقات) أى يقبل صدقاتهم

على أن اللام عوض عن المضاف اليه أو جنس الصدقات المندرج تحته صدقاتهم اندراجا أوليا أى هو الذى يتولى قبول التوبة وأخذ الصدقات وما يتعلق بها من التطهير والتزكية وان كنت أنت المباشر لها ظاهرا . وفيه من تقرير ما ذكر ورفع شأن النبي صلى الله عليه وسلم على نهج قوله تعالى «ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله» مالا يخفى (وان الله هو التواب الرحيم) تأكيد لما عطف عليه وزيادة تقرير لما يقرره مع زيادة معنى ليس فيه أى ألم يعلموا أنه المختص المستأثر ببلوغ الغاية القصوى من قبول التوبة والرحمة وأن ذلك سنة مستمرة له وشأن دائم والجملتان فى حيز النصب بيعلموا بسد كل واحدة منهما مسد مفعوليه . واما لغير التائبين من المؤمنين فقدروى أنهم قالوا لما تيب على الاولين هؤلاء الذين تابوا كانوا بالامس معنا لايكلمون ولايجالسون فما لهم فنزلت. أي ألم يعلموا ما للتائبين من الخصال الداعية الى التكرمة والتقريب والانتظام فى سلك المؤمنين والتلقى بحسن القبول والمجالسة فهو ترغيب لهم فى التوبة والصدقة وقوله تعالى (وقل اعملوا) زيادة ترغيب لهم فى العمل الصالح الذى من جملته التوبة وللاولين فى الثبات على ماهم عليه أى قل لهم بعد ما بان لهم شأن التوبة اعملوا ماتشاءون من الاعمال فظاهره ترخيص وتخيير و باطنه ترغيب وترهيب وقوله عز وجل (فسيرى الله عملكم) أى خيرا كان أو شرا تعليل لما قبله وتأكيد للترغيب والترهيب والسين للتأكيد (ورسوله) عطف على الاسم الجليل وتأخيره عن المفعول للاشعار بما بين الرؤيتين من التفاوت (والمؤمنون) فى الخبر «لو أن رجلا عمل فى صخرة لاباب لها ولا كوة لخرج عمله الى الناس كائناما كان» والمعنى أن أعمالكم غير خافية عليهم كما رأيتم وتبين لكم ثم ان كان المراد بالرؤية معناها الحقيقى فالامر ظاهر وان أريد بها مآلها من الجزاء خيرا أو شرا فهو خاص بالدنيوى من اظهار المدح والثناء والذكر الجميل والاعزاز ونحو ذلك من الاجزية واضدادها (وستردون) أى بعد الموت (الى عالم الغيب والشهادة) فى وضع الظاهر موضع المضمر من تهويل الامر وتربية المهابة مالايخفي ووجه تقديم الغيب فى الذكر لسعة عالمه وزيادة خطره على الشهادة غنى عن البيان. وقيل أن الموجودات الغائبة عن الحواس علل أو كالعلل للموجودات المحسوسة والعلم بالعلل علة للعلم بالمعلولات . فوجب سبق العلم بالغيب على العلم بالشهادة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما الغيب مايسرونه من الاعمال . والشهادة ما يظهرونه كقوله تعالى «يعلم ما يسرون ومايعلنون» فالتقديم حينئذ لتحقيق أن نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحدة على أبلغ وجه وآكد لا لايهام أن علمه سبحانه

بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته منزه عن أن يكون بطريق حصول الصورة بل وجود كل شيء وتحققه في نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الامور البارزة والكامنة . واما للايذان بأن رتبة السر متقدمة على رتبة العلن إذ ما من شيء يعلن إلا وهو أو مباديه القريبة أو البعيدة مضمر قبل ذلك في القلب فتعلق علمه تعالى به في حالته الأولى متقدم على تعلقه به في حالته الثانية (فينبئكم) عقيب الرد الذي هو عبارة عن الأمر الممتد إلى يوم القيامة (بما كنتم تعملون) قبل ذلك في الدنيا والمراد بالتنبئة بذلك الجزاء بحسبه ان خيرا فخير وان شراً فشر فهو وعد ووعيد (وآخرون) عطف على آخرون قبله أي ومن المتخلفين من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب قوم آخرون غير المعترفين المذكورين (مرجون) وقرىء مرجئون من أرجيته وأرجأته أي أخرته ومنه المرجئة الذين لا يقطعون بقبول التوبة (لأمر الله) في شأنهم قال ابن عباس رضي الله عنهما هم كعب بن مالك ومرارة ابن الربيع وهلال بن أمية لم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السواري وإظهار الغم والجزع والندم على مافعلوا فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى أصحابه عن أن يسلموا عليهم ويكلموهم وكانوا من أصحاب بدر فهجروهم والناس في شأنهم على اختلاف فمن قائل هلكوا او قائل عسى الله أن يغفر لهم فصاروا عندهم مرجئين لأمره تعالى (اما يعذبهم) ان بقوا على ماهم عليه من الحال وقيل ان أصروا على النفاق وليس بذاك فان المذكورين ليسوا من المنافقين (واما يتوب عليهم) ان خلصت نيتهم وصحت توبتهم والجملة في محل النصب على الحالية أي منهم هؤلاء اما معذبين واما متوباً عليهم وقيل آخرون مبتدأ ومرجون صفته وهذه الجملة خبره (والله عليم) بأحوالهم (حكيم) فيما فعل بهم من الأرجاء ومابعده . وقرىء والله غفور رحيم (والذين اتخذوا مسجداً) عطف على ما سبق أي ومنهم الذين أو نصب على الذم . وقرىء بغير واو لأنها قصة على حيالها (ضرارا) أي مضارة للمؤمنين وانتصابه على أنه مفعول له أو مفعول ثان لاتخذوا أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر منصوب على الحالية أي يضارون بذلك ضرارا أو على أنه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالا من ضمير اتخذوا أي مضارين المؤمنين . روى أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فيصلي بهم في مسجدهم فلما فعله عليه الصلاة والسلام حسدتهم اخوتهم بنو اغنم بن عوف وقالوا نبني مسجدا ونرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فيه ويصلي فيه أبو عامر الراهب أيضا

إذا قدم من الشام وهو الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق وقد كان قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل يفعل ذلك الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يومئذ ولى هاربا إلى الشام وأرسل الى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فانى ذاهب الى قيصر وآت بجنود ومخرج محمدا وأصحابه من المدينة فبنوا مسجدا الى جنب مسجد قباء وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعوا لنا بالبركة فقال عليه الصلاة والسلام «انى على جناح سفر وحال شغل واذا قدمنا ان شاء الله تعالى صلينا فيه» فلما قفل عليه الصلاة والسلام من غزوة تبوك سألوه أتيان المسجد فنزلت عليه فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشى فقال لهم «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعلوا» وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة وهلك أبو عامر الفاسق بالشام بقنسرين (وكفرا) تقوية للكفر الذي يضمرونه (وتفريقا بين المؤمنين) الذين كانوا يصلون فى مسجد قباء مجتمعين فيغص بهم فأرادوا أن يتفرقوا وتختلف كلمتهم (وارصادا) اعدادا وانتظارا وترقبا (لمن حارب الله ورسوله) وهو الراهب الفاسق أى لاجله حتى يجىء فيصلى فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قبل) متعلق باتخذوا أى اتخذوه من قبل أن ينافقوا بالتخلف حيث كانوا بنوه قبل غزوة تبوك. أو بحارب أى حاربهما قبل اتخاذ هذا المسجد (وليحلفن ان أردنا) أى ما أردنا ببناء هذا المسجد (الا الحسنى) الا الخصلة الحسنى وهى الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين أو الا الارادة الحسنى (والله يشهد أنهم لكاذبون) فى حلفهم ذلك (لاتقم) للصلاة (فيه) فى ذلك المسجد حسبما دعوك اليه (أبدا لمسجد أسس) أى بنى أصله (على التقوى) يعنى مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهى يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة. وقيل هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة. وعن أبى سعيد رضى الله عنه سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال مسجدكم هذا مسجد المدينة واللام اما للابتداء أو للقسم المحذوف أى والله لمسجد وعلى التقديرين فمسجد مبتدأ وما بعده صفته وقوله تعالى (من أول يوم) أى من أيام تأسيسه متعلق بأسس وقوله تعالى (أحق أن تقوم فيه) أى للصلاة وذكر الله تعالى خبره وقوله تعالى (فيه رجال) جملة مستأنفة مبينة لأحقيته لقيامه عليه الصلاة

والسلام فيه من جهة الحال بعد بيان أحقيته له من حيث المحل أو صفة أخرى للمبتدأ أو حال من الضمير فى فيه وعلى كل حال ففيه تحقيق وتقرير لاستحقاقه القيام فيه. والمراد بكونه أحق نفس كونه حقيقا به اذ لا استحقاق فى مسجد الضرار رأسا . وانما عبر عنه بصيغة التفضيل لفضله وكماله فى نفسه أو الافضلية فى الاستحقاق المتناول لما يكون باعتبار زعم البانى ومن يشايعه فى الاعتقاد وهو الأنسب بما سيأتى (يحبون أن يتطهروا) من المعاصى والخصال الذميمة لمرضاة الله سبحانه. وقيل من الجنابة فلا ينامون عليها (والله يحب المطهرين) أى يرضى عنهم ويدنيهم من جنابه ادناء المحب حبيبه. قيل لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فاذا الانصار جلوس فقال «أمؤمنون أنتم» فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر رضى الله تعالى عنه يارسول الله انهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه الصلاة والسلام «أترضون بالقضاء» قالوا نعم. قال عليه الصلاة والسلام «أتصبرون على البلاء» قالوا نعم. قال «أتشكرون فى الرخاء» . قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام «مؤمنون ورب الكعبة» فجلس ثم قال «يامعشر الانصار ان الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذى تصنعون عند الوضوء وعند الغائط» فقالوا نتبع الغائط الاحجار الثلاثة ثم نتبع الاحجار الماء فتلا النبى عليه الصلاة والسلام « فيه رجال يحبون أن يتطهروا » وقرىء أن يطهروا بالادغام. وقيل هو عام فى التطهر عن النجاسات كلها وكانوا يتبعون الماء اثر البول. وعن الحسن رضى الله عنه هو التطهر عن الذنوب بالتوبة وقيل يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم (أفمن أسس بنيانه) على بناء الفعل للفاعل والنصب. وقرىء على البناء للمفعول والرفع. وقرىء أسس بنيانه على الاضافة جمع أساس واساس بالفتح والكسر جمع أس وقرىء أساس بنيانه جمع أس أيضا واس بنيانه وهى جملة مستأنفة مبينة لخيرية الرجال المذكورين من أهل مسجد الضرار والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر أى أبعد ما علم حالهم من أسس بنيان دينه (على تقوى من الله ورضوان) أى على قاعدة محكمة هى التقوى من الله وابتغاء مرضاته بالطاعة والمراد بالتقوى درجتها الثانية التى هى التوقى عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك . وقرىء تقوى بالتنوين على ان الالف للالحاق دون التأنيث (خير أمن أسس بنيانه) ترك الاضمار للايذان باختلاف البنيانين ذاتا مع اختلافهما وصفا واضافة (على شفا جرف هار) الشفا الحرف والشفير والجرف ماجرفه السيل أى استأصله واحتفر ما تحته فبقي واهيا يريد الانهدام والهار الهائر المتصدع المشرف الى السقوط من هار يهور ويهار أو هار يهير قدمت لامه على عينه فصار كغاز ورام . وقيل حذفت عينه

اعتباطا أي بغير موجب جرى وجوه الاعراب على لامه (فانهار به فى نار جهنم) مثل ما بنوا عليه أمر دينهم فى البطلان وسرعة الانطماس بما ذكر ثم رشح بانهياره فى النار ووضع بمقابلة الرضوان تنبيها على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله الى الرضوان ومقتضياته التى أدناها الجنة وتأسيس هذا على ماهو بصدد الوقوع فى النار ساعة فساعة ثم مصيرهم اليها لامحالة وقرىء جرف بسكون الراء (والله لايهدى القوم الظالمين) أى لانفسهم أو الواضعين للاشياء فى غير مواضعها أى لا يرشدهم الى ما فيه نجاتهم وصلاحهم ارشادا موجبا له لا محالة واما الدلالة على ما يرشدهم اليه ان استرشدوا به فهو متحقق بلا اشتباه (لا يزال بنيانهم الذى بنوا) البنيان مصدر أريد به المفعول ووصفه بالموصول الذى صلته فعله للايذان بكيفية بنائهم له وتأسيسه على أوهن قاعدة وأوهى أساس وللاشعار بعلة الحكم أى لا يزال مسجدهم ذلك مبنيا ومهدوما (ريبة فى قلوبهم) أى سبب ريبة وشك فى الدين كأنه نفس الريبة أما حال بنيانه فظاهر لما أن اعتزالهم من المؤمنين واجتماعهم فى مجمع على حياله يظهرون فيه ما فى قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون فيه أمورهم ويتشاورون فى ذلك ويلقى بعضهم إلى بعض ماسمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا فى الدين . وأما حال هدمه فلما انه رسخ به ما كان فى قلوبهم من الشر وتضاعفت آثاره وأحكامه أو سبب ريبة فى أمرهم حيث ضعفت قلوبهم ووهى اعتقادهم بخفاء أمرهم على المؤمنين لأنهم أظهروا من أمرهم بعد البناء أكثر مما كانوا يظهرونه قبل ذلك وقت اختلاطهم بالمؤمنين وساءت ظنونهم بأنفسهم فلما هدم بنيانهم تضاعف ذلك الضعف وتقوى وصاروا مرتابين فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هل يتركهم على ما كانوا عليه من قبل أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم وقال الكلبى معنى ريبة حسرة وندامة وقال السدى وحبيب والمبرد لا يزال هدم بنيانهم حزازة وغيظا فى قلوبهم (الا أن تقطع) من التفعل بحذف احدى التائين أى الا أن تتقطع (قلوبهم) قطعا وتتفرق أجزاء بحيث لا يبقى لها قابلية ادراك واضمار قطعا وهو استثناء من أعم الأوقات أو أعم الأحوال ومحله النصب على الظرفية أى لا يزال بنيانهم ريبة فى كل الأوقات أو كل الأحوال الا وقت تقطع قلوبهم أو حال تقطع قلوبهم فحينئذ يسلون عنها. وأما مادامت سالمة فالريبة باقية فيها فهو تصوير لامتناع زوال الريبة عن قلوبهم ويجوز أن يكون المراد حقيقة تقطعها عند قتلهم أو فى القبور أو فى النار . وقرىء تقطع على بناء المجهول من التفعيل وعلى البناء للفاعل منه على خطاب النبى صلى الله عليه وسلم أى الا أن تقطع أنت قلوبهم بالقتل

وقرىء على البناء للمجهول من الثلاثى مذكراً ومؤنثا . وقرىء الى أن تقطع قلوبهم والى أن تقطع قلوبهم على الخطاب . وقرىء ولو قطعت قلوبهم على اسناد الفعل مجهولا الى قلوبهم ولو قطعت قلوبهم على الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب . وقيل الا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم (والله عليم) بجميع الأشياء التى من جملتها ماذكر من أحوالهم (حكيم) فى جميع أفعاله التى من زمرتها أمره الوارد فى حقهم (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) ترغيب للمؤمنين فى الجهاد ببيان فضيلته أثر بيان حال المتخلفين عنه ولقد بولغ فى ذلك على وجه لا مزيد عليه حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيله تعالى وأثابته اياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ثم جعل المبيع الذى هو العمدة والمقصد فى العقد أنفس المؤمنين وأموالهم والثمن الذى هو الوسيلة فى الصفقة الجنة ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال ان الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصد فى العقد هو الجنة وما بذله المؤمنون فى مقابلتها من الانفس والأموال وسيلة اليها ايذانا بتعلق كمال العناية بهم وبأموالهم ثم انه لم يقل بالجنة بل قيل (بأن لهم الجنة) مبالغة فى تقرير وصول الثمن اليهم واختصاصه بهم كأنه قيل بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم . وأما مايقال من أن ذلك لمدح المؤمنين بأنهم بذلوا أنفسهم وأموالهم بمجرد الوعد لكمال ثقتهم بوعده تعالى وأن تمام الاستعارة موقوف على ذلك اذ لو قيل بالجنة لاحتمل كون الشراء حقيقة لانها صالحة للعوضية بخلاف الوعد بها فليس بشىء لان مناط دلالة ماعليه النظم الكريم على الوعد ليس كونه جملة ظرفية مصدرة بأن فان ذلك بمعزل من الدلالة على الاستقبال بل هو الجنة التى يستحيل وجودها فى الدنيا . ولو سلم ذلك يكون العوض الجنة الموعود بها لا الوعد بها (يقاتلون فى سبيل الله) استئناف لكن لا لبيان مالاجله الشراء ولا لبيان نفس الاشتراء لان قتالهم فى سبيل الله تعالى ليس باشتراء الله تعالى منهم أنفسهم وأموالهم بل هو بذل لهما فى ذلك بل لبيان البيع الذى يستدعيه الاشتراء المذكور كأنه قيل كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة فقيل يقاتلون فى سبيل الله وهو بذل منهم لانفسهم وأموالهم الى جهة الله سبحانه وتعريض لهما للهلاك وقوله تعالى (فيقتلون ويقتلون) بيان لكون القتال فى سبيل الله بذلا للنفس وأن المقاتل فى سبيله باذل لها وان كانت سالمة غانمة فان الاسناد فى الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما ولا اشتراط الاتصاف باحدهما ألبتة بل بطريق وصف الكل بحال البعض فانه يتحقق القتال من الكل سواء

وجد الفعلان أو أحدهما منهم أو من بعضهم بل يتحقق ذلك وان لم يصدر منهم أحدهما أيضا كما اذا وجدت المضاربة ولم يوجد القتل من أحد الجانبين أو لم توجد المضاربة أيضا فانه يتحقق الجهاد بمجرد العزيمة والنفير وتكثير السواد . وتقديم حالة القاتلية على حالة المقتولية للايذان بعدم الفرق بينهما فى كونهما مصداقا لكون القتال بذلا للنفس . وقرىء بتقديم المبنى للمفعول رعاية لكون الشهادة عريقة فى الباب وايذانا بعدم مبالاتهم بالموت فى سبيل الله تعالى بل بكونه أحب اليهم من السلامة كما قيل فى حقهم :

لا يفرحون اذا نالت رماحهم * قوما وليسوا مجازيعا اذا نيلوا

لا يقطع الطعن الا فى نحورهم * وما لهم عن حياض الموت تهليل

وقيل فى يقاتلون الخ معنى الامر كما قوله تعالى «تجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم» (وعدا عليه) مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلا (حقا) نعت لوعدا والظرف حال منه لانه لو تأخر لكان صفة له وقوله تعالى (فى التوراة والأنجيل والقرآن) متعلق بمحذوف وقع صفة لوعدا أى وعدا مثبتا فى التوراة والانجيل كما هو مثبت فى القرآن (ومن أوفى بعهده من الله) اعتراض مقرر لمضمون ماقبله من حقية الوعد على نهج المبالغة فى كونه سبحانه أوفى بالعهد من كل واف فان اخلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع امكان صدوره عنهم فكيف بجناب الخلاق الغنى عن العالمين جل جلاله . وسبك التركيب وان كان على انكار أن يكون أحد أوفى بالعهد منه تعالى من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها لكن المقصود به قصدا مطردا انكار المساواة ونفيها قطعا فاذا قيل من أكرم من فلان أو لا أفضل منه فالمراد به حتما أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل (فاستبشروا) التفات الى الخطاب تشريفا لهم على تشريف وزيادة لسرورهم على سرور . والاستبشار اظهار السرور والسين فيه ليس للطلب كاستوقد وأوقد والفاء لترتيب الاستبشار أو الامر به على ماقبله أى فاذا كان كذلك فسروا نهاية السرور وافرحوا غاية الفرح بما فزتم به من الجنة وانما قيل (ببيعكم) مع أن الابتهاج به باعتبار أدائه الى الجنة لان المراد ترغيبهم فى الجهاد الذى عبر عنه بالبيع وانما لم يذكر العقد بعنوان الشراء لان ذلك من قبل الله سبحانه لا من قبلهم والترغيب إنما يكون فيما يتم من قبلهم وقوله تعالى (الذى بايعتم به) لزيادة تقرير بيعهم وللاشعار بكونه مغايرا لسائر البياعات فانه بيع للفانى بالباقى ولان كلا البدلين له سبحانه وتعالى - عن الحسن رضى الله عنه أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها روى أن الانصار لما بايعوه عليه الصلاة والسلام على العقبة قال عبد الله

ابن رواحة رضى الله تعالى عنه اشترط لربك ولنفسك ماشئت قال عليه الصلاة والسلام « أشترط لربى أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم قالوا فاذا فعلنا ذلك فمالنا قال لكم الجنة قالوا ربح البيع لانقيل ولانستقيل » ومر برسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابى وهو يقرؤها قال كلام من قال كلام الله عز وجل قال بيع والله مربح لانقيله ولانستقيله فخرج الى الغزو واستشهد (وذلك) أى الجنة التى جعلت ثمنا بمقابلة مابذلوا من أنفسهم وأموالهم (هو الفوز العظيم) الذى لافوز أعظم منه ومافى ذلك من معنى البعد أشارة الى بعد منزلة المشار اليه وسمو رتبته فى الكمال . ويجوز أن يكون ذلك أشارة الى البيع الذى أمروا بالاستبشار به ويجعل ذلك كأنه نفس الفوز العظيم أو يجعل فوز فى نفسه فالجملة على الاول تذييل للآية الكريمة وعلى الثانى لقوله تعالى فاستبشروا مقرر لمضمونه (التائبون) رفع على المدح أى هم التائبون يعنى المؤمنين المذكورين كما يدل عليه القراءة بالياء نصبا على المدح ويجوز أن يكون مجرورا على أنه صفة للمؤمنين وقد جوز الرفع على الابتداء والخبر محذوف أى التائبون من أهل الجنة أيضا وان لم يجاهدوا كقوله تعالى وكلا وعد الله الحسنى . ويجوز أن يكون خبره قوله تعالى (العابدون) ومابعده خبر بعد خبر أى التائبون من الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه النعوت الفاضلة أى المخلصون فى عبادة الله تعالى (الحامدون) لنعمائه أو لما نابهم من السراء والضراء (السائحون) الصائمون لقوله عليه الصلاة والسلام « سياحة أمتى الصوم » شبه بها لانه عائق عن الشهوات أولانه رياضة نفسانية يتوسل بها الى العثور على خفايا الملك والملكوت وقيل هم السائحون فى الجهاد وطلب العلم (الراكعون الساجدون) فى الصلاة (الآمرون بالمعروف) بالايمان والطاعة (والناهون عن المنكر) عن الشرك والمعاصى والعطف فيه للدلالة على أن المتعاطفين بمنزلة خصلة واحدة وأما قوله تعالى (والحافظون لحدود الله) أي فيما بينه وعينه من الحقائق والشرائع عملا وحملا للناس عليه فلئلا يتوهم اختصاصه بأحد الوجهين (وبشر المؤمنين) أى الموصوفين بالنعوت المذكورة ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الأيمان وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشر به للايذان بخروجه عن حد البيان . وفى تخصيص الخطاب بالأولين اظهار زيادة اعتناء بأمرهم من الترغيب والتسلية (ما كان للنبى والذين آمنوا) بالله وحده أى ماصح لهم فى حكم الله عز وجل وحكمته وما استقام (ان يستغفروا للمشركين) به سبحانه (ولو كانوا) أى المشركون (أولى

قربى) أى ذوى قرابة لهم وجواب لو محذوف لدلالة ماقبله عليه والجملة معطوفة على جملة أخرى قبلها محذوفة حذفا مطردا كما بين فى قوله تعالى « ولو كره الكافرون » ونظائره روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لعمه أبى طالب لما حضرته الوفاة « ياعم قل كلمة أحاج لك بها عندالله » فأبى فقال عليه الصلاة والسلام « لا أزال أستغفر لك مالم أنه عنه » فنزلت . وقيل لما افتتح مكة خرج الى الأبواء فزار قبر أمه ثم قام مستعبرا فقال « انى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى وأنزل على الآيتين » (من بعد ماتبين لهم) أى للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين (أنهم) أى المشركين (أصحاب الجحيم) بأن ماتوا على الكفر أو نزل الوحى بأنهم يموتون على ذلك (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه) بقوله واغفر لأبى أى بان توفقه للايمان وتهديه اليه كما يلوح به تعليله بقوله انه كان من الضالين والجملة استئناف مسوق لتقرير ماسبق ودفع مايتراءى بحسب الظاهر من المخالفة . وقرىء وما استغفر ابراهيم لأبيه وقرىء وما يستغفر ابراهيم على حكاية الحال الماضية وقوله تعالى (الا عن موعدة) استثناء مفرغ من أعم العلل أى لم يكن استغفاره عليه السلام لابيه آزر ناشئا عن شيء من الأشياء الا عن موعدة (وعدها) ابراهيم عليه الصلاة والسلام اياه أى أباه . وقد قرىء كذلك بقوله لأستغفرن لك وقوله سأستغفر لك ربى بناء على رجاء ايمانه لعدم تبين حقيقة أمره والا لما وعدها اياه كأنه قيل وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة مبنية على عدم تبين أمره كما ينبىء عنه قوله تعالى (فلما تبين له) أى لأبراهيم بان أوحى اليه أنه مصر على الكفر غير مؤمن أبدا . وقيل بأن مات على الكفر والأول هو الانسب بقوله تعالى (انه عدو لله) فان وصفه بالعداوة مما يأباه حالة الموت (تبرأ منه) أى تنزه عن الاستغفار له وتجانب كل التجانب . وفيه من المبالغة ماليس فى تركه ونظائره (ان ابراهيم لأواه) لكثير التأوه وهو كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب (حليم) صبور على الأذية والمحنة وهو استئناف لبيان ما كان يدعوه عليه الصلاة والسلام الى ماصدر عنه من الاستغفار . وفيه ايذان بأن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان أواها حليما فلذلك صدر عنه ماصدر من الاستغفار قبل التبين فليس لغيره أن يأتسى به فى ذلك وتأكيد لوجوب الاجتناب عنه بعد التبين بأنه عليه الصلاة والسلام تبرأ منه بعد التبين وهو فى كمال رقة القلب والحلم فلا بد أن يكون غيره أكثر منه اجتنابا وتبرؤا وأما أن الاستغفار قبل التبين لو كان غير محظور لما استثنى من الائتساء به فى قوله تعالى « الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك » فقد حقق فى سورة مريم باذن الله تعالى (وما كان الله ليضل قوما)

أي ليس من عادته أن يصفهم بالضلال عن طريق الحق ويجري عليهم أحكامه (بعد أذ هداهم) للاسلام (حتى يبين لهم) بالوحي صريحا أو دلالة (مايتقون) أى ما يجب اتقاؤه من محظورات الدين فلا ينزجروا عما نهوا عنه . وأما قبل ذلك فلا يسمى ماصدر عنهم ضلالا ولا يؤاخذون به فكانه تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك وفيه دليل على أن الغافل غير مكلف بما لا يستبد بمعرفته العقل (ان الله بكل شيء عليم) تعليل لما سبق أى أنه تعالى عليم بجميع الأشياء التى من جملتها حاجتهم الى بيان قبح ما لا يستقل العقل فى معرفته فبين لهم ذلك كما فعل ههنا (ان الله له ملك السموات والأرض) من غير شريك له فيه (يحيي ويميت ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير) لما منعهم من الاستغفار للشركين وان كانوا أولى قربى وضمن ذلك التبرؤ منهم رأسا بين لهم أن الله تعالى مالك كل موجود ومتولى أموره والغالب عليه ولا يتأتى لهم نصر ولا ولاية الا منه تعالى ليتوجهوا اليه بشراشرهم متبرئين عما سواه غير قاصدين الا اياه (لقد تاب الله على النبى) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو العفو عن اذنه للمنافقين فى التخلف عنه (والمهاجرين والأنصار) قيل هو فى حق ذلات سبقت منهم يوم أحد ويوم حنين . وقيل المراد بيان فضل التوبة وانه مامن مؤمن الا وهو محتاج اليها حتى النبى صلى الله عليه وسلم لما صدر عنه فى بعض الاحوال من ترك الأولى (الذين اتبعوه) ولم يتخلفوا عنه ولم يخلوا بأمر من أوامره (فى ساعة العسرة) أى فى وقتها والتعبير عنه بالساعة لزيادة تعيينه وهى حالهم فى غزوة تبوك كانوا فى عسرة من الظهر يعتقب عشرة على بعير واحد ومن الزاد تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والاهالة الزنخة وبلغت بهم الشدة الى أن اقتسم التمرة اثنان وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء المتغير وفى عسرة من الماء حتى نحروا الابل واعتصروا فروثها وفى شدة زمان من حمارة القيظ ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة ووصف المهاجرين والانصار بما ذكر من اتباعهم له عليه الصلاة والسلام فى مثل هاتيك المراتب من الشدة للمبالغة فى بيان الحاجة الى التوبة فان ذلك حيث لم يغنهم عنها فلأن لا يستغنى عنها غيرهم أولى وأحرى (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) بيان لتناهى الشدة وبلوغها الى مالا غاية وراءها وهو اشراف بعضهم على أن يميلوا الى التخلف عن النبى عليه الصلاة والسلام وفى كاد ضمير الشأن أو ضمير القوم الراجع اليه الضمير فى منهم . وقرىء بتأنيث الفعل . وقرىء من بعد مازاغت قلوب فريق منهم يعنى المتخلفين من المؤمنين كأبى لبابة وأضرابه (ثم تاب عليهم) تكرير للتأكيد وتنبيه على أنه

يتاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة والمراد أنه تاب عليهم لكيدودتهم (انه بهم رؤف رحيم) استئناف تعليلي فان صفة الرأفة والرحمة من دواعى التوبة والعفو . ويجوز كون الأول عبارة عن ازالة الضرر والثانى عن ايصال المنفعة وأن يكون أحدهما للسوابق والآخر للواحق (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أى وتاب الله على الثلاثة الذين أخر أمرهم عن أمر أبى لبابة وأصحابه حيث لم يقبل معذرتهم مثل أولئك ولا ردت ولم يقطع فى شأنهم بشىء الى أن نزل فيهم الوحى وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة ابن الربيع . وقرىء خلفوا أى خلفوا الغازين بالمدينة أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم . وقرىء على المخلفين والأول هو الأنسب لأن قوله تعالى (حتى اذا ضاقت عليهم الأرض) غاية للتخليف ولا يناسبه إلا المعنى الأول أى خلفوا وأخر أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض (بما رحبت) أى برحبها وسعتها لأعراض الناس عنهم وانقطاعهم عن مفاوضتهم وهو مثل لشدة الحيرة كأنه لا يستقر به قرار ولا تطمئن له دار (وضاقت عليهم أنفسهم) أى إذا رجعوا إلى أنفسهم لا يطمئنون بشىء لعدم الأنس والسرور واستيلاء الوحشة والحيرة (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) أى علموا أنه لا ملجأ من سخطه تعالى إلا الى استغفاره (ثم تاب عليهم) أى وفقهم للتوبة (ليتوبوا) أو أنزل قبول توبتهم ليصيروا من جملة التوابين أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم (ان الله هو التواب) المبالغ فى قبول التوبة كما وكيفا وإن كثرت الجنايات وعظمت (الرحيم) المتفضل عليهم بفنون الآلاء مع استحقاقهم لافانين العقاب « روى أن ناسا من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به عليه الصلاة والسلام » عن الحسن رضى الله عنه أنه قال بلغنى أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهم فقال ياحائطاه ماخلفنى الا ظلك وانتظار ثمارك اذهب فأنت فى سبيل الله ولم يكن لآخر الا أهله فقال يا أهلاه ما بطأنى ولا خلفنى الا الفتن بك فلا جرم والله لأكابدن الشدائد حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فتأبط زاده ولحق به عليه الصلاة والسلام قال الحسن رضى الله عنه كذلك والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصر عليها . وعن أبى ذر الغفارى أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشيا فقال عليه الصلاة والسلام لما رأى سواده « كن أباذر » فقال الناس هو ذاك فقال عليه الصلاة والسلام « رحم الله أباذر يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده » وعن أبى خيثمة أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له

فى الظل وبسطت له الحصيرة وقربت اليه الرطب والماء البارد فنظر فقال : ظل ظليل ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح والريح ماهذا بخير فقام ورحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق فاذا براكب يزهاه السراب فقال «كن أبا خيثمة» فكانه ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له ومنهم من بقى لم يلحق به عليه الصلاة والسلام منهم الثلاثة قال كعب رضى الله عنه لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد على كالمغضب بعد ماذكرنى وقال « ياليت شعرى ماخلف كعبا » فقيل ماخلفه الا حسن برديه والنظر فى عطفيه فقال عليه الصلاة والسلام « ماأعلم الا فضلا واسلاما » ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن فلما تمت خمسون ليلة اذا أنا بنداء من ذروة سلع أبشر يا كعب بن مالك فخررت لله ساجدا وكنت كما وصفنى ربى وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وتتابعت البشارة فلبست ثوبى وانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمون فقام الى طلحة بن عبيدالله يهرول الى حتى صافحنى وقال لتهنك توبة الله عليك فلن أنساها لطلحة رضى الله عنه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر « أبشر يا كعب بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » ثم تلا علينا الآية . وعن أبى بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال ان تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبه (يا أيها الذين آمنوا) خطاب عام يندرج فيه التائبون اندراجا أوليا . وقيل لمن تخلف عليه من الطلقاء عن غزوة تبوك خاصة (اتقوا الله) فى كل ماتأتون وما تذرون فيدخل فيه المعاملة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر المغازى دخولا أوليا (وكونوا مع الصادقين) فى ايمانهم وعهودهم أو فى دين الله نية وقولا وعملا أو فى كل شأن من الشئون فيدخل ماذكر أو فى توبتهم وانابتهم فيكون المراد بهم حينئذ هؤلاء الثلاثة وأضرابهم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه خطاب لمن آمن من أهل الكتاب أى كونوا مع المهاجرين والانصار وانتظموا فى سلكهم فى الصدق وسائر المحاسن . وقرىء من الصادقين (ما كان لأهل المدينة) ماصح وما استقام لهم (ومن حولهم من الاعراب) كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأضرابهم (أن يتخلفوا عن رسول الله) عند توجهه عليه الصلاة والسلام الى الغزو (ولا يرغبوا) نصب وقد جوز الجزم (بأنفسهم عن نفسه) أى لا يصرفوها

عن نفسه الكريمة ولا يصونوها عما لم يصن عنه نفسه بل يكابدوا معه مايكابده من الاهوال والخطوب والكلام فى معنى النهى وان كان على صورة الخبر (ذلك) اشارة الى مادل عليه الكلام من وجوب المشايعة (بأنهم) بسبب أنهم (لايصيبهم ظمأ) أى عطش يسير (ولانصب) ولاتعب ما (ولامخمصة) أى مجاعة ما لاما يستباح عنده المحرمات من مراتبها فان الظمأ والنصب اليسيرين حين لم يخلوا من الثواب فلأن لايخلو ذلك منه أولى فلاحاجة الى تأكيد النفى بتكرير كلمة لاو يجوز أن يراد بها تلك المرتبة ويكون الترتيب بناء على كثرة الوقوع وقلته فان الظمأ أكثر وقوعا من النصب الذى هو أكثر وقوعا من المخمصة بالمعنى المذكور فتوسيط كلمة لاحينئذ ليس لتأكيد النفي بل للدلالة على استقلال كل واحد منها بالفضيلة والاعتداد به (فى سبيل الله) واعلاء كلمته (ولايطؤن موطئا يغيظ الكفار) أى لايدوسون بأرجلهم وحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم دوسا أو مكانا يداس (ولا ينالون من عدو نيلا) مصدر كالقتل والأسر والنهب أو مفعول أى شيئا ينال من قبلهم (الا كتب لهم به) أى بكل واحد من الامور المعدودة (عمل صالح) وحسنة مقبولة مستوجبة بحكم الوعد الكريم للثواب الجميل ونيل الزلفى والتنوين للتفخيم وكون المكتوب عين مافعلوه من الامور لايمنع دخول الباء فان اختلاف العنوان كاف فى ذلك (ان الله لايضيع أجر المحسنين) على إحسانهم تعليل لما سلف من الكتب والمراد بالمحسنين اما المبحوث عنهم . ووضع المظهر موضع المضمر لمدحهم والشهادة عليهم بالانتظام فى سلك المحسنين وأن أعمالهم من قبيل الاحسان للاشعار بعلية المأخذ للحكم وأما جنس المحسنين وهم داخلون فيه دخولا أوليا (ولا ينفقون نفقة صغيرة) ولو تمرة أو علاقة سوط (ولا كبيرة) كما أنفق عثمان رضى الله عنه والترتيب باعتبار ماذكر من كثرة الوقوع وقلته . وتوسيط لا للتنصيص على استبداد كل منهما بالكتب والجزاء لا لتأكيد النفى كما فى قوله عز وجل (ولا يقطعون) أى لايجتازون فى مسيرهم (واديا) وهو فى الأصل كل منفرج من الجبال والآكام يكون منفذا للسيل اسم فاعل من ودى اذا سال ثم شاع فى الأرض على الاطلاق (إلا كتب لهم) أى أثبت لهم ذلك الذى فعلوه من الانفاق والقطع (ليجزيهم الله) بذلك (أحسن ما كانوا يعملون) أحسن جزاء أعمالهم أو جزاء أحسن أعمالهم (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) أى ماصح وما استقام لهم أن ينفروا جميعا لنحو غزو أو طلب علم كما لايستقيم لهم أن يتثبطوا جميعا فان ذلك مخل بأمر المعاش (فلولا نفر) فهلا نفر (من كل فرقة) أى طائفة كثيرة (منهم) كأهل بلدة أو قبيلة

عظيمة (طائفة) أى جماعة قليلة (ليتفقهوا فى الدين) أى يتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا مشاق تحصيلها (ولينذروا قومهم) أى وليجعلوا غاية سعيهم ومرمى غرضهم من ذلك إرشاد القوم وانذارهم (اذا رجعوا اليهم) وتخصيصه بالذكر لانه أهم وفيه دليل على أن النفقة فى الدين من فروض الكفاية وأن يكون غرض المتعلم الاستقامة والاقامة لا الترفع على العباد والتبسط فى البلاد كما هو ديدن أبناء الزمان والله المستعان (لعلهم يحذرون) ارادة أن يحذروا عما ينذرون واستدل به على أن أخبار الآحاد حجة لان عموم كل فرقة يقتضى أن ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفة الى التفقه لتنذر فرقتها كى يتذكروا ويحذروا فلو لم يعتبر أخبار مالم يتواتر لم يفد ذلك. وقد قيل للآية وجه آخر وهو أن المؤمنين لما سمعوا ما نزل فى المتخلفين سارعوا الى النفير رغبة ورهبة وانقطعوا عن التفقه فأمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة الى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطع الفقه الذى هو الجهاد الاكبر لان الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة فالضمير فى ليتفقهوا ولينذروا لبواقى الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو وفى رجعوا للطوائف أى ولينذر البواقى قومهم النافرين اذا رجعوا اليهم بما حصلوا فى أيام غيبتهم من العلوم (ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أمروا بقتال الاقرب منهم فالاقرب كما أمر عليه الصلاة والسلام أولا بأنذار عشيرته فان الاقرب أحق بالشفقة والاستصلاح قيل هم اليهود حوالى المدينة كبنى قريظة والنضير وخيبر. وقيل الروم فانهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة بالنسبة الى العراق وغيره (وليجدوا فيكم غلظة) أى شدة وصبرا على القتال. وقرىء بفتح الغين كسخطة وبضمها وهما لغتان فيها (واعلموا أن الله مع المتقين) بالعصمة والنصرة والمراد بهم اما المخاطبون. ووضع الظاهر موضع الضمير للتنصيص على أن الايمان والقتال على الوجه المذكور من باب التقوى والشهادة بكونهم من زمرة المتقين. واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والمراد بالمعية الولاية الدائمة وقد ذكر وجه دخول مع على المتبوع فى قوله تعالى ان الله معنا (واذا ما أنزلت سورة) من سور القرآن (فمنهم) أى من المنافقين (من يقول) لاخوانه ليثبتهم على النفاق أو لعوام المؤمنين وضعفتهم ليصدهم عن الايمان (أيكم زادته هذه) السورة (إيمانا) وقرىء بنصب أيكم على تقدير فعل يفسره المذكور أى أيكم زادت زادته هذه الخ وايراد الزيادة مع انه لا ايمان فيهم اصلا باعتبار اعتقاد المؤمنين حسبما نطق به قوله تعالى «انما المؤمنين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم

أيمانا (فأما الذين آمنوا) جواب من جهته سبحانه وتحقيق للحق وتعيين لحالهم عاجلا وآجلا اى فأما الذين آمنوا بالله تعالى و بما جاء من عنده (فزادتهم إيمانا) بزيادة العلم اليقينى الحاصل من التدبر فيها والوقوف على ما فيها من الحقائق وانضمام ايمانهم بما فيها بايمانهم السابق (وهم يستبشرون) بنزولها و بما فيه من المنافع الدينية والدنيوية (وأما الذين فى قلوبهم مرض) اى كفر وسوء عقيدة (فزادتهم رجسا الى رجسهم) اى كفرا بها مضموما الى الكفر بغيرها وعقائد باطلة واخلاقا ذميمة كذلك (وماتوا وهم كافرون) واستحكم ذلك الى ان يموتوا عليه (أولا يرون) الهمزة للانكار والتوبيخ والواو للعطف على مقدر أى ألا ينظرون ولا يرون (انهم) اى المنافقين (يفتنون فى كل عام) من الاعوام (مرة او مرتين) والمراد مجرد التكثير لا بيان الوقوع حسب العدد المزبور أى يبتلون بأفانين البليات من المرض والشدة وغير ذلك مما يذكر الذنوب والوقوف بين يدى رب العزة فيؤدى الى الايمان به تعالى او بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعاينون ما ينزل عليه من الآيات لا سيما القوارع الزائدة للايمان الناعية عليهم ما فيهم من القبائح المخزية لهم (ثم لا يتوبون) عطف على لا يرون داخل تحت الانكار والتوبيخ وكذا قوله تعالى (ولا هم يذكرون) والمعنى أولا يرون افتتانهم الموجب لايمانهم ثم لا يتوبون عما هم عليه من النفاق ولا هم يتذكرون بتلك الفتن الموجبة للتذكر والتوبة . وقرىء بالتاء والخطاب للمؤمنين والهمزة للتعجيب أى ألا تنظرون ولا ترون أحوالهم العجيبة التى هى افتتانهم على وجه التتابع وعدم التنبه لذلك فقوله تعالى ثم لا يتوبون وما عطف عليه معطوف على يفتنون (واذا ما أنزلت سورة) بيان لاحوالهم عند نزولها وهم فى محفل تبليغ الوحى كما أن الاول بيان لمقالاتهم وهم غائبون عنه (نظر بعضهم الى بعض) تغامزوا بالعيون انكارا لها أو سخرية بها أو غيظاً لما فيها من مخازيهم (هل يراكم من أحد) أى قائلين هل يراكم أحد من المسلمين لننصرف مظهرين أنهم لا يصطبرون على استماعها ويغلب عليهم الضحك فيفتضحون أو ترامقوا يتشاورون فى تدبير الخروج والانسلال لواذا يقولون هل يراكم من أحد ان قمتم من المجلس . وإيراد ضمير الخطاب لبعث المخاطبين على الجد فى انتهاز الفرصة فان المرأ بشأنه أكثر اهتماما منه بشأن أصحابه كما فى قوله تعالى « وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا » وقيل المعنى واذا ما أنزلت سورة فى عيوب المنافقين (ثم انصرفوا) عطف على نظر بعضهم والتراخي باعتبار وجدان الفرصة والوقوف على عدم رؤية أحد من المؤمنين أى انصرفوا جميعا عن محفل الوحي خوفا

من الافتضاح أو غير ذلك (صرف الله قلوبهم) أى عن الايمان حسب انصرافهم عن المجلس والجملة اخبارية أو دعائية (بأنهم) أى بسبب أنهم (قوم لايفقهون) لسوء الفهم أولعدم التدبر (لقدجاءكم) الخطاب للعرب (رسول) أى رسول رسول عظيم الشأن (من أنفسكم) من جنسكم عربى قرشى مثلكم . وقرىء بفتح الفاء أى أشرفكم وأفضلكم (عزيز عليه ماعنتم) أى شاق شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع فى العذاب وهذا من نتائج ماسلف من المجانسة (حريص عليكم) فى أيمانكم وصلاح حالكم (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم (رؤف رحيم) قدم الابلغ منهما وهى الرأفة التى هى عبارة عن شدة الرحمة محافظة على الفواصل (فان تولوا) تلوين للخطاب وتوجيه له الى النبى صلى الله عليه وسلم تسلية له أى أن أعرضوا عن الايمان بك (فقل حسبى الله) فانه يكفيك ويعينك عليهم (لااله إلاهو)استئناف مقرر لمضمون ماقبله (عليه توكلت) فلا أرجو ولاأخاف إلا منه (وهو رب العرش العظيم) أى الملك العظيم أو الجسم الاعظم المحيط الذى تنزل منه الاحكام والمقادير وقرىء العظيم بالرفع وعن أبى أن آخر مانزل هاتان الآيتان « وعن النبى صلى الله عليه وسلم مانزل القرآن على الا آية آية وحرفا حرفا ماخلا سورة براءة وسورة قل هو الله أحد فانهما أنزلتا على ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة »

﴿ سورة يونس عليه السلام مكية وآيها مائة وتسع آيات ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر) بتفخيم الراء المفتوحة . وقرىء بالامالة اجراء للاصلية مجرى المنقلبة عن الياء وقرىء بين بين وهو إما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على أحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الاعراب وأما اسم للسورة كما عليه أطباق الاكثر فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى هذه السورة مسماة بالر وهو أظهر من الرفع على الابتداء لعدم سبق العلم بالتسمية بعد فحقها الاخبار بها لاجعلها عنوان الموضوع لتوقفه على علم المخاطب بالانتساب كما مر . والاشارة اليها قبل جريان ذكرها لما انها باعتبار كونها على جناح الذكر وبصدده صارت فى حكم الحاضر كما يقال هذا ما اشترى فلان أو النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو أذكر أو اقرأ وكلمة (تلك) اشارة اليها اما على تقدير كون الر مسرودة على نمط التعديد فقد نزل حضور مادتها التى هى

الحروف المذكورة منزلة ذكرها فأشير اليها كأنه قيل هذه الكلمات المؤلفة من جنس
هذه الحروف المبسوطة الخ وأما على تقدير كونه اسما للسورة فقد نوهت بالاشارة
اليها بعد تنويهها بتعيين اسمها أو الامر بذكرها أو بقراءتها . وما في اسم الاشارة من
معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتها في الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ خبره قوله تعالى
(آيات الكتاب) وعلى تقدير كون الم مبتدأ فهو مبتدأ ثان أو بدل من الاول. والمعنى
هى آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمقصود ببيان بعضيتها منه وصفها بما
اشتهر اتصافه به من النعوت الفاضلة والصفات الكاملة. والمراد بالكتاب اما جميع القرآن
العظيم وان لم ينزل الكل حينئذ أما باعتبار تعينه وتحققه في علم الله عز وعلا أو في اللوح
أو باعتبار أنه أنزل جملة الى السماء الدنيا كما هو المشهور فان فاتحة الكتاب كانت مسماة
بهذا الاسم وبأم القرآن في عهد النبوة ولما يحصل المجموع الشخصى اذ ذاك فلابد من
ملاحظة كل من الكتاب والقرآن بأحد الاعتبارات المذكورة. واما جميع القرآن النازل
وقتئذ المتفاهم بين الناس اذ ذاك فانه كما يطلق على المجموع الشخصى يطلق على مجموع
ما نزل في كل عصر ألا يرى الى ما روى عن جابر رضى الله عنه أنه قال كان النبى صلى
الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول أيهم أكثر أخذا
للقرآن فاذا أشير له الى أحدهما قدمه في اللحد فان ما يفهمه الناس من القرآن في ذلك
الوقت ويحافظون على التفاوت في أخذه انما هو المجموع النازل حينئذ من غير ملاحظة
لتحقق المجموع الشخصى في علم الله سبحانه أو في اللوح ولا لنزوله جملة الى السماء
الدنيا (الحكيم) ذى الحكمة وصف به لاشتماله على فنون الحكم الباهرة ونطقه بها
أو هو من باب وصف الكلام بصفة صاحبه أو من باب الاستعارة المكنية المبنية على
تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة هذا وقد جعل الكتاب عبارة عن نفس السورة
وكلمة تلك اشارة الى ما في ضمنها من الآى فانها في حكم الحاضر لا سيما بعد ذكر
ما يتضمنها من السورة عند بيان اسمها أو الامر بذكرها أو بقراءتها. وينبغى أن يكون
المشار اليه حينئذ كل واحدة منها لا جميعها من حيث هو جميع لانه عين السورة فلا يكون
للاضافة وجه ولا لتخصيص الوصف بالمضاف اليه حكمة فلا يتأتى ما قصد من مدح المضاف
بما للمضاف اليه من صفات الكمال ولان في بيان اتصاف كل منها بالكمال من المبالغة ما ليس في
بيان اتصاف الكل بذلك. والمتبادر من الكتاب عند الاطلاق وان كان كله باحد الوجهين
المذكورين لكن صحة إطلاقه على بعضه أيضا مما لا ريب فيها والمعهود المشهور وان كان اتصاف
الكل باحد الاعتبارين بما ذكر من نعوت الكمال ألا أن شهرة اتصاف كل سورة منه بما

اتصف به الكل بما لا ينكر وعليه يدور تحقق مدح السورة بكونها بعضا من القرآن الكريم اذ لولا أن بعضه منعوت بنعت كله داخل تحت حكمه لما تسنى ذلك وفيه مالا يخفى من التكلف والتعسف (أكان للناس عجبا) الهمزة لانكار تعجبهم ولتعجيب السامعين منه لكونه فى غير محله والمراد بالناس كفار مكة وانما عبر عنهم باسم الجنس من غير تعرض لكفرهم مع أنه المدار لتعجبهم كما تعرض له فى قوله عز وجل « قال الكافرون » الخ لتحقيق مافيه الشركة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعيين مدار التعجب فى زعمهم ثم تبيين خطئهم وإظهار بطلان زعمهم بايراد الانكار والتعجيب واللام متعلقة بمحذوف وقع حالا من عجبا وقيل بعجبا على التوسع المشهور فى الظروف وقيل المصدر اذا كان بمعنى اسم الفاعل أو اسم المفعول جاز تقديم معموله عليه. وقيل متعلقة بكان وهو مبنى على دلالة كان الناقصة على الحدث (أن أوحينا) اسم كان قدم عليه خبرها اهتماما بشأنه لكونه مدار الانكار والتعجيب وتشويقا الى المؤخر ولان فى الاسم ضرب تفصيل ففى مراعاة الاصل نوع اختلال بتجاوب أطراف الكلام وقرىء برفع عجب على أنه الاسم وهو نكرة والخبر أن أوحينا وهو معرفة لان أن مع الفعل فى تأويل المصدر المضاف الى المعرفة ألبتة والمختار حينئذ أن تجعل كان تامة وأن أوحينا متعلقا بعجب على حذف حرف التعليل أى أحدث للناس عجب لأن أوحينا أو من أن أوحينا أو بدلا من عجب لكن لا على توجيه الانكار والتعجيب الى حدوثه بل الى كونه عجبا فان كون الابدال فى حكم تنحية المبدل منه ليس معناه اهداره بالمرة وانما قيل للناس لا عند الناس للدلالة على أنهم اتخذوه أعجوبة لهم وفيه من زيادة تقبيح حالهم مالا يخفى (الى رجل منهم) أى الى بشر من جنسهم كقولهم أبعث الله بشرا رسولا أو من أفناثهم من حيث المال لا من عظمائهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وكلا الوجهين من ظهور البطلان بحيث لا مزيد عليه * أما الاول فلان بعث الملك انما يكون عند كون المبعوث اليهم ملائكة كما قال سبحانه « قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية كيف لا وهى منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وانما الذى تقتضيه الحكمة أن يبعث الملك من بينهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا الى جانب * وأما الثانى فلما أن مناط الاصطفاء للنبوة والرسالة هو التقدم فى

الاتصاف بما ذكر من النعوت الجميلة والصفات الجليلة والسبق فى إحراز الفضائل العلية وحيازة الملكات السنية جبلة واكتسابا ولا ريب لأحد منهم فى أنه عليه الصلاة والسلام فى ذلك الشأن فى غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية وأما التقدم فى الرياسات الدنيوية والسبق فى نيل الحظوظ الدنية فلا دخل له فى ذلك قطعا بل له اخلال به غالبا قال عليه الصلاة والسلام «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء» (أن أنذر الناس) أن مصدرية لجواز كون صلتها أمرا كما فى قوله تعالى «وأن أقم وجهك» وذلك لان الخبر والانشاء فى الدلالة على المصدر سيان فساغ وقوع الامر والنهى صلة حسب وقوع الفعل فليجرد عند ذلك عن معنى الامر والنهى نحو تجرد الصلة الفعلية عن معنى المضى والاستقبال. ووجوب كون الصلة فى الموصول الاسمي خبرية إنما هو للتوصل بها الى وصف المعارف بالجمل لالقصور فى دلالة الانشاء على المصدر أو مفسرة اذ الايحاء فيه معنى القول وقد جوز كونها مخففة من المثقلة على حذف ضمير الشأن والقول من الخبر والمعنى أن الشأن قولنا أنذر الناس والمراد به جميع الناس كافة لاما أريد بالأول وهو النكتة فى إيثار الاظهار على الاضمار وكون الثانى عين الاول عند اعادة المعرفة ليس على الاطلاق (وبشر الذين آمنوا) بما أوحيناه وصدقوه (أن لهم) أى بأن لهم (قدم صدق) أى سابقة ومنزلة رفيعة (عند ربهم) وانما عبر عنها بها اذ بها يحصل السبق والوصول الى المنازل الرفيعة كما يعبر عن النعمة باليد لانها تعطي بها وقيل مقام صدق والوجه أن الوصول الى المقام إنما يحصل بالقدر واضافتها الى الصدق للدلالة على تحققها وثباتها وللتنبيه على أن مدار نيل ما نالوه من المراتب العلية هو صدقهم فان التصديق لاينفك عن الصدق (قال الكافرون) هم المتعجبون. وإيرادهم ههنا بعنوان الكفر مما لاحاجة الى ذكر سببه وترك العاطف لجريانه مجرى البيان للجملة التى دخلت عليها همزة الانكار أو لكونه استئنافا مبنيا على السؤال كأنه قيل ماذا صنعوا بعد التعجب هل بقوا على التردد والاستبعاد أو قطعوا فيه بشىء فقيل قال الكافرون على طريقة التأكيد (ان هذا) يعنون به ما أوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن الحكيم المنطوى على الانذار والتبشير (لسحر مبين) أى ظاهر. وقرىء لساحر على أن الاشارة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقرىء ماهذا إلا سحر مبين وهذا اعتراف من حيث لايشعرون بأن ماعاينوه خارج عن طوق البشر نازل من جناب خلاق القوى والقدر ولكنهم سموه بما قالوا تماديا فى العناد كما هو ديدن المكابر اللجوج ودأب المفحم المحجوج (ان ربكم) كلام

مستأنف سيق لاظهار بطلان تعجبهم المذكور وما بنوا عليه من المقالة الباطلة غب الاشارة اليه بالانكار والتعجيب وحقق فيه حقية ماتعجبوا منه وصحة ماأنكروه بالتنبيه الاجمالى على بعض مايدل عليها من شئون الخلق والتقدير وأحوال التكوين و التدبير ويرشدهم الى معرفتها بأدنى تذكير لاعترافهم به من غير نكير لقوله تعالى « قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون » وقوله تعالى « قل من يرزقكم من السماء والارض » الى قوله تعالى « ومن يدبر الامر فسيقولون الله » أى ان ربكم ومالك أمركم الذى تتعجبون من أن يرسل اليكم رجلا منكم بالانذار والتبشير وتعدون ما أوحى اليه من الكتاب الحكيم سحراً هو (الله الذى خلق السموات و الأرض) وما فيهما من أصول الكائنات (فى ستة أيام) أى فى ستة أوقات أوفى مقدار ستة أيام معهودة فان نفس اليوم الذى هو عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأرض مما لا يتصور تحققه حين لا أرض ولا سماء وفى خلقها مدرجا مع القدرة التامة على ابداعها دفعة دليل على الاختيار واعتبار للنظار وحث لهم على التأنى فى الأحوال والاطوار . وأما تخصيص ذلك بالعدد المعين فأمر قد استأثر بعلم ما يستدعيه علام الغيوب جلت قدرته ودقت حكمته . وايثار صيغة الجمع فى السموات لما هو المشهور من الايذان بأنها أجرام مختلفة الطباع متباينة الآثار والاحكام (ثم استوى على العرش) العرش هو الجسم المحيط بسائر الاجسام سمى به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فان الاوامر والتدابير منه تنزل . وقيل هو الملك ومعنى استوائه سبحانه عليه استيلاؤه عليه أو استواء أمره وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف والمعنى أنه سبحانه استوى على العرش على الوجه الذى عناه منزها عن التمكن والاستقرار وهذا بيان لجلالة ملكه وسلطانه بعد بيان عظمة شأنه وسعة قدرته بما مر من خلق هاتيك الاجرام العظام (يدبر الامر) التدبير النظر فى أدبار الامور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود والمراد ههنا التقدير على الوجه الاتم الأكمل والمراد بالامر أمر ملكوت السموات والأرض والعرش وغير ذلك من الجزئيات الحادثة شيئاً فشيئاً على أطوار شتى وأنحاء لا تكاد تحصى من المناسبات والمباينات فى الذوات والصفات والازمنة والاوقات أى يقدر ما ذكر من أمر الكائنات الذى ما تعجبوا منه من أمر البعث والوحى فرد من جملته وشعبة من دوحته ويهيء أسباب كل منها حدوثا وبقاء فى أوقاتها المعينة ويرتب مصالحها على الوجه الفائق والنمط اللائق حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة والجملة فى محل النصب على

أنها حال من ضمير استوى وقد جوز كونها خبرا ثانيا لأن أو مستأنفة لا محل لها من الاعراب مبنية على سؤال نشأ من ذكر الاستواء على العرش المنبيء عن اجراء أحكام الملك وعلى كل حال فايثار صيغة المضارع للدلالة على تجدد التدبير واستمراره وقوله عز وجل (ما من شفيع) بيان لاستبداده سبحانه فى التقدير والتدبير ونفى للشفاعة على أبلغ الوجوه فان نفى جميع أفراد الشفيع بمن الاستغراقية يستلزم نفى الشفاعة على أتم الوجوه كما فى قوله تعالى «لا عاصم اليوم من أمر الله» وهذا بعد قوله تعالى «يدبر الامر» جار مجرى قوله تعالى «وهو يجير ولا يجار عليه» عقيب قوله تعالى «قل من بيده ملكوت كل شيء» وقوله تعالى (إلا من بعد اذنه) استثناء مفرغ من أعم الاوقات أى مامن شفيع يشفع لأحد فى وقت من الاوقات إلا بعد اذنه المبنى على الحكمة الباهرة وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الاخيار والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة كقوله تعالى «يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا» وفيه من الدلالة على عظمة جلاله سبحانه مالا يخفى (ذلكم) اشارة إلى المعلوم بتلك العظمة أى ذلكم العظيم الشأن المنعوت بما ذكر من نعوت الكمال التى عليها يدور استحقاق الالوهية (الله) وقوله تعالى (ربكم) بيان له أو بدل منه أو خبر ثان لاسم الاشارة وهذا بعد بيان أن ربهم الله الذى خلق السموات والارض الخ لزيادة التقرير والمبالغة فى التذكير ولتفريع الامر بالعبادة عليه بقوله تعالى (فاعبدوه) أى وحدوه من غير أن تشركوا به شيئا من ملك أو نبى فضلا عن جماد لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وآمنوا بما أنزله اليكم (أفلا تذكرون) أي أتعلمون أن الامر كما فصل أفلا تتذكرون ذلك حتى تقفوا على فساد ماأنتم عليه فترتدعوا عنه (اليه) لاالى أحد سواه استقلالا أو اشتراكا (مرجعكم) أى بالبعث كما ينبيء عنه قوله تعالى (جميعا) فانه حال من الضمير المجرور لكونه فاعلا فى المعنى أى اليه رجوعكم مجتمعين والجملة كالتعليل لوجوب العبادة (وعد الله) مصدر مؤكد لنفسه لان قوله عز وجل «اليه مرجعكم» وعد منه سبحانه بالبعث أو لفعل مقدر أى وعد الله وأياما كان فهو دليل على أن المراد بالمرجع هو الرجوع بالبعث لان ما بالموت بمعزل من الوعد كما أنه بمعزل من الاجتماع وقرىء بصيغة الفعل (حقا) مصدر آخر مؤكد لما دل عليه الاول (انه يبدأ الخلق) وقرىء يبدىء (ثم يعيده) وهو استئناف علل به وجوب المرجع اليه سبحانه وتعالى فان غاية البدء والاعادة هو جزاء المكلفين بأعمالهم حسنة أو سيئة وقرىء بالفتح أى لانه ويجوز كونه منصوبا بما نصب وعد الله أى وعد الله وعدا بدء الخلق ثم إعادته

ومرفوعا بما نصب حقا أى حق حقا بدء الخلق الخ (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أى بالعدل وهو حال من فاعل يجزى أى ملتبسا بالعدل أومتعلق بيجزى أى ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم وانما أجمل ذلك ايذانا بأنه لا يفى به الحصر أو بقسطهم وعدلهم عند ايمانهم ومباشرتهم للاعمال الصالحة وهو الانسب بقوله عز وجل (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) فان معناه ويجزى الذين كفروا بسبب كفرهم وتكرير الاسناد بجعل الجملة الظرفية خبرا للموصول لتقوية الحكم والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على مواظبتهم على الكفر وتغيير النظم الكريم للايذان بكمال استحقاقهم للعقاب وأن التعذيب بمعزل عن الانتظام فى سلك العلة الغائية للخلق بدأ واعادة . وانما يحيق ذلك بالكفرة على موجب سوء اختيارهم وأما المقصود الاصلى من ذلك فهو الاثابة (هو الذى جعل الشمس ضياء) تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته بآثار صنعه فى النيرين بعد التنبيه على الاستدلال بما مر من إبداع السموات والارض والاستواء على العرش وغير ذلك وبيان لبعض أفراد التدبير الذى أشير اليه اشارة اجمالية وارشاد الى أنه حيث دبرت أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بالمعاد بارسال الرسول وانزال الكتاب وتبيين طرائق الهدى وتعيين مهاوى الردى أولى واحرى . والجعل ان جعل بمعنى الانشاء والابداع فضياء حال من مفعوله أى خلقها حال كونها ذات ضياء على حذف المضاف أوضياء محضا للمبالغة . وان جعل بمعنى التصيير فهو مفعوله الثانى أى جعلها ضياء على أحد الوجهين المذكورين لكن لابعد أن كانت خالية عن تلك الحالة بل أبدعها كذلك كما فى قولهم ضيق فم الركية ووسع أسفلها . والضياء مصدر كقيام أوجمع ضوء كسياط وسوط وياؤه منقلبة من الواو لانكسار ما قبلها وقرىء ضئاء بهمزتين بينهما ألف بتقديم اللام على العين (والقمر نورا) الكلام فيه كالكلام فى الشمس والضياء أقوى من النور . وقيل ما بالذات ضوء وما بالعرض نور . ففيه اشعار بأن نوره مستفاد من الشمس (وقدره) أى قدر له وهيأ (منازل) أو قدر مسيره فى منازل أو قدره ذا منازل على تضمين التقدير معنى التصيير وتخصيص القمر بهذا التقدير لسرعة سيره ومعاينة منازله وتعلق أحكام الشريعة به وكونه عمدة فى تواريخ العرب وقد جعل الضمير لكل منهما وهى ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه على تقدير مستو لا يتفاوت بسير فيها من ليلة المستهل الى الثامنة والعشرين . فاذا كان فى آخر منازله

دق واستقوسن ثم يستتر ليلتين أو ليلة اذا نقص الشهر ويكون مقام الشمس في كل منزلة منها ثلاثة عشر يوما . وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت اليها العرب الانواء المستمرة . وهي السرطان . والبطين . والثريا . الدبران . الهقعة . الهنعة . الذراع . النثرة . الطرف . الجبهة . الزبرة . الصرفة . العواء . السماك . الغفر . الزبانى . الاكليل . القلب . الشولة . النعائم . البلدة . سعد الذابح . سعد بلع . سعد السعود . سعد الاخبية . فرع الدلو المقدم . فرع الدلو المؤخر . الرشا وهو بطن الحوت (لتعلموا) اما بتعاقب الليل والنهار المنوطين بطلوع الشمس وغروبها أو باعتبار نزول كل منهما في تلك المنازل (عدد السنين) التي يتعلق بها غرض علمي لاقامة مصالحكم الدينية والدنيوية (والحساب) أي حساب الاوقات من الاشهر والايام والليالي وغير ذلك مما نيط به شيء من المصالح المذكورة . وتخصيص العدد بالسنين والحساب بالاوقات لما أنه لم يعتبر في السنين المعدودة معنى مغاير لمراتب الاعداد كما اعتبر في الاوقات المحسوبة . وتحقيقه أن الحساب احصاء ماله كمية انفصالية بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل كالسنة المتحصلة من اثني عشر شهرا قد تحصل كل من ذلك من ثلاثين يوما قد تحصل كل من ذلك من أربع وعشرين ساعة مثلا والعد مجرد احصائه بتكرير أمثاله من غير اعتبار أن يتحصل بذلك شيء كذلك . ولما لم يعتبر في السنين المعدودة تحصل حد معين له اسم خاص غير أسامي مراتب الاعداد وحكم مستقل أضيف اليها العدد . وتحصل مراتب الاعداد من العشرات والمئات والألوف اعتباري لا يجدي في تحصل المعدود نفعا وحيث اعتبر في الاوقات المحسوبة تحصل ما ذكر من المراتب التي لها أسام خاصة وأحكام مستقلة علق بها الحساب المنبيء عن ذلك . والسنة من حيث تحققها في نفسها مما يتعلق به الحساب وانما الذي يتعلق به العد طائفة منها وتعلقه في ضمن ذلك بكل واحدة من تلك الطائفة ليس من الحيثية المذكورة أعني حيثية تحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات فان ذلك وظيفة الحساب بل من حيث أنها فرد من تلك الطائفة المعدودة من غير ان يعتبر معها شيء غير ذلك . وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعلما على العكس لان العلم المتعلق بعدد السنين علم اجمالي بما تعلق به الحساب تفصيلا وان لم تتحد الجهة أو لان العدد من حيث أنه لم يعتبر فيه تحصل أمر آخر حسبما حقق آنفا نازل من الحساب الذي اعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب (ما خلق الله ذلك) أي ماذكر من الشمس والقمر على ماحكي من الاحوال . وفيه ايذان بأن معنى

جعلهما على تلك الاحوال والهيئات ليس الا خلقهما كذلك كما أشير اليه . ولا يقدح فى ذلك أن استفادة القمر النور من الشمس أمر حادث فان المراد بجعله نورا انما هو جعله بحيث يتصف بالنور عند وجود شرائط الاتصاف به بالفعل (إلا بالحق) استثناء مفرغ من أعم أحوال الفاعل أو المفعول أي ماخلق ذلك ملتبسا بشيء من الاشياء إلا ملتبسا بالحق مراعيا لمقتضى الحكمة البالغة أو مراعى فيه ذلك وهو ما أشير اليه اجمالا من العلم بأحوال السنين والاوقات المنوط به أمور معاملاتهم وعباداتهم (نفصل الآيات) أى الآيات التكوينية المذكورة أو جميع الآيات فيدخل فيها الآيات المذكورة دخولا أوليا او يفصل الآيات التنزيلية المنبهة على ذلك وقرىء بنون العظمة (لقوم يعلمون) الحكمة فى ابداع الكائنات فيستدلون بذلك على شؤون مبدعها جل وعلا أو يعلمون ما فى تضاعيف الآيات المنزلة فيؤمنون بها وتخصيص التفصيل بهم لانهم المنتفعون به (إن فى اختلاف الليل والنهار) تنبيه آخر إجمالى على ما ذكر أى فى تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر بحسب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات السموات وسكون الأرض أو فى تفاوتهما فى أنفسهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر وانتقاصه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة الينا قربا وبعداً بحسب الازمنة أو فى اختلافهما وتفاوتهما بحسب الامكنة اما فى الطول والقصر فان البلاد القريبة من القطب الشمالى أيامها الصيفية أطول ولياليها الصيفية أقصر من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها وأما فى أنفسهما فان كرية الأرض تقتضى أن يكون بعض الأوقات فى بعض الاماكن ليلا وفى مقابله نهاراً (وما خلق الله فى السموات والأرض) من أصناف المصنوعات (لآيات) عظيمة أو كثيرة دالة على وجود الصانع تعالى ووحدته وكمال علمه وقدرته وبالغ حكمته التى من جملة مقتضياتها ما أنكروه من إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم وانزال الكتاب والبعث والجزاء (لقوم يتقون) خصهم بذلك لأن الداعى إلى النظر والتدبر إنما هو تقوى الله تعالى والحذر من العاقبة فهم الواقفون على أن جميع المخلوقات آيات دون غيرهم « وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (ان الذين لا يرجون لقاءنا) بيان لمآل أمر من كفر بالبعث وأعرض عن البينات الدالة عليه بعد تحقيق أن مرجع الكل اليه تعالى وأنه يعيدهم بعد بدئهم للجزاء ثوابا وعقابا . وتفصيل بعض الآيات الشاهدة بذلك والمراد بلقائه أما الرجوع اليه تعالى بالبعث أو لقاء الحساب كما فى قوله عز وعلا « انى ظننت أنى ملاق حسابيه » وأياما كان ففيه مع الالتفات الى ضمير الجلالة من تهويل الأمر مالا يخفى والمراد

بعدم الرجاء عدم التوقع مطلقا المنتظم لعدم الأمل وعدم الخوف فان عدمهما لا يستدعى عدم اعتقاد وقوع المأمول والمخوف أى لا يتوقعون الرجوع الينا أو لقاء حسابنا المؤدى اما الى حسن الثواب أو إلى سوء العذاب فلا يأملون الأول واليه أشير بقوله عز وجل (ورضوا بالحياة الدنيا) فانه منبىء عن إيثار الأدنى الخسيس على الأعلى النفيس كقوله تعالى « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » ولا يخافون الثانى واليه أشير بقوله تعالى (واطمأنوا بها) أى سكنوا فيها سكون من لا براح له منها آمنين من اعتراء المزعجات غير مخطرين ببالهم مايسوءهم من عذابنا . وقيل المراد بالرجاء معناه الحقيقى وباللقاء حسن اللقاء أى لا يأملون حسن لقائنا بالبعث والاحياء بالحياة الابدية ورضوا بدلا منها . وبما فيها من فنون الكرامات السنية بالحياة الدنيا الدنية الفانية واطمأنوا بها أى سكنوا اليها مكبين عليها قاصرين مجامع هممهم على لذائذها وزخارفها من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم . وايثار الباء على كلمة الى المنبئة عن مجرد الوصول والانتهاء للايذان بتمام الملابسة ودوام المصاحبة والمؤانسة وحمل الرجاء على الخوف فقط يأباه كلمة الرضا بالحياة الدنيا فانها منبئة عما ذكر من ترك الأعلى وأخذ الأدنى . واختيار صيغة الماضى فى الصلتين الأخيرتين للدلالة على التحقيق والتقرر كما أن اختيار صيغة المستقبل فى الأولى للايذان باستمرار عدم الرجاء (والذين هم عن آياتنا) المفصلة فى صحائف الأكوان حسبما أشير الى بعضها أو آياتنا المنزلة المنبهة على الاستشهاد بها المتفقة معها فى الدلالة على حقية مالا يرجونه من اللقاء المترتب على البعث وعلى بطلان مارضوا به واطمأنوا إليه من الحياة الدنيا (غافلون) لا يتفكرون فيها أصلا وان نبهوا على ذلك وذكروا بأنواع القوارع لانهماكهم فيما يصدهم عنها من الأحوال المعدودة وتكرير الموصول للتوسل به إلى جعل صلته جملة اسمية منبئة عما هم عليه من استمرار الغفلة ودوامها وتنزيل التغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى إيذانا بمغايرة الوصف الأخير للأوصاف الأول واستقلاله باستتباع العذاب . هذا وأما ماقيل من أن العطف اما لتغاير الوصفين والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأسا والانهماك فى الشهوات بحيث لا يخطر ببالهم الآخرة أصلا وأما لتغاير الفريقين والمراد بالأولين من أنكر البعث ولم يرد الا الحياة الدنيا وبالآخرين من ألهاه حب العاجل عن التامل فى الآجل فكلام ناء عن السداد فتأمل (أولئك) الموصوفون بما ذكر من صفات السوء (مأواهم) أى مسكنهم ومقرهم الذى لا براح لهم منه (النار) لا ما اطمأنوا بها من الحياة الدنيا ونعيمها (بما كانوا يكسبون) من الأعمال القلبية

المعدودة وما يستتبعه من أصناف المعاصى والسيئات أو بكسبهم أياها والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددى والباء متعلقة بمضمون الجملة الأخيرة الواقعة خبراً عن اسم الاشارة وهو مع خبره خبر لأن فى قوله تعالى «ان الذين لايرجون لقاءنا» الخ (ان الذين آمنوا) أى فعلوا الايمان أو آمنوا بما يشهد به الآيات التى غفل عنها الغافلون أو بكل ما يجب أن يؤمن به فيندرج فيه ذلك اندراجا أوليا (وعملوا الصالحات) أى الأعمال الصالحة فى أنفسها اللائقة بالايمان وانما ترك ذكر الموصوف لجريانها مجرى الاسماء (يهديهم ربهم) أوثر الالتفات تشريفاً لهم باضافة الرب واشعارا بعلة الهداية (بايمانهم) أى يهديهم بسبب إيمانهم إلى مأواهم ومقصدهم وهى الجنة . وانما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس اليها لاسيما بملاحظة ماسبق من بيان مأوى الكفرة وما آواهم اليه من أعمالهم السيئة ومشاهدة مالحق من التلويح والتصريح وفى النظم الكريم اشعار بأن مجرد الايمان والعمل الصالح لايكفى فى الوصول الى الجنة بل لابد بعد ذلك من الهداية الربانية وان الكفر والمعاصى كافية فى دخول النار ثم انه لانزاع فى أن المراد بالايمان الذى جعل سببا لتلك الهداية هو إيمانهم الخاص المشفوع بالأعمال الصالحة لا الايمان المجرد عنها ولا ما هو أعم منها الا أن ذلك بمعزل عن الدلالة على خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة من أن الايمان الخالى عن العمل الصالح يفضى الى الجنة فى الجملة . ولايخلد صاحبه فى النار . فان منطوق الآية الكريمة أن الايمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية الى الجنة . وأما أن كل ما هو سبب لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالة لها ولا لغيرها عليه قطعا . كيف لا وقوله عز وجل «الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» مناد بخلافه. فان المراد بالظلم هو الشرك كما أطبق عليه المفسرون . والمعنى لم يخلطوا ايمانهم بشرك ولئن حمل على ظاهره أيضا يدخل فى الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحا ثم مات قبل أن يظلم بفعل حرام أو بترك واجب (تجرى من تحتهم الانهار) أى بين أيديهم كقوله سبحانه «وهذه الانهار تجرى من تحتى» أو تجرى وهم على سرر مرفوعة وأرائك مصفوفة والجملة مستأنفة أو خبر ثان لان أو حال من مفعول يهديهم على تقدير كون المهدى اليه ما يريدونه فى الجنة كما قيل. وقيل يهديهم ويسددهم للاستقامة على سلوك السبيل المؤدى الى الثواب والجنة. وقوله «تجرى من تحتهم الانهار» جار مجرى التفسير والبيان فان التمسك بحبل السعادة فى حكم الوصول اليها . وقيل يهديهم الى ادراك الحقائق البديعة بحسب القوة العملية كما قال عليه الصلاة والسلام «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» (فى جنات النعيم) خبر آخر أو حال

أخرى منه أو من الانهار أو متعلق بتجرى أو بيهدي. فالمراد بالمهدى اليه امامنازلهم فى الجنة أو ما يريدونه فيها (دعواهم) أى دعاؤهم وهو مبتدأ وقوله عز وجل (فيها) متعلق به وقوله تعالى (سبحانك اللهم) خبره أى دعاؤهم هذا الكلام وهو معمول لمقدر لا يجوز اظهاره . والمعنى اللهم انا نسبحك تسبيحا ولعلهم يقولونه عندما عاينوا فيها من تعاجيب آثار قدرته تعالى ونتائج رحمته ورأفته مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر تقديسا لمقامه تعالى عن شوائب العجز والنقصان وتنزيها لوعده الكريم عن سمات الخلف (وتحيتهم فيها) التحية التكرمة بالحالة الجليلة أصلها أحياك الله حياة طيبة أى ما يحيى به بعضهم بعضا أو تحية الملائكة اياهم كما فى قوله تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام » أو تحية الله عز وجل لهم كما فى قوله تعالى « سلام قولا من رب رحيم » (سلام) أى سلامة عن كل مكروه (وآخر دعواهم) أى خاتمة دعائهم (أن الحمد لله رب العالمين) أى أن يقولوا ذلك نعتاله عز وجل بصفات الاكرام اثر نعته تعالى بصفات الجلال أى دعاؤهم منحصر فيما ذكر اذ ليس لهم مطلب مترقب حتى ينظموه فى سلك الدعاء . وأن هى المخففة من أن المثقلة أصله أنه الحمد لله فحذف ضمير الشأن كما فى قوله « أن هالك كل من يحفى وينتعل » وقرئ أن الحمد لله بالتشديد ونصب الحمد ولعل توسيط ذكر تحيتهم عند الحكاية بين دعائهم وخاتمته للتوسل الى ختم الحكاية بالتحميد تبركا مع أن التحية ليست بأجنبية على الاطلاق ودعوي كون ترتيب الوقوع أيضا كذلك بأن كانوا حين دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة من الآفات والفوز باصناف الكرامات أو حياهم بذلك رب العزة فحمدوه تعالى وأثنوا عليه يأباه اضافة الآخر الى دعواهم وقد جوز أن يكون المراد بالدعاء العبادة كما فى قوله تعالى « وأعتزلكم وما تدعون » الخ ايذانا بأن لا تكليف فى الجنة أى ما عبادتهم الا أن يسبحوه ويحمدوه وليس ذلك بعبادة انما يلهمونه وينطقون به تلذذا ولا يساعده تعيين الخاتمة (ولو يعجل الله للناس) هم الذين لا يرجون لقاء الله تعالى لانكارهم البعث وما يترتب عليه من الحساب والجزاء أشير الى بعض من عظائم معاصيهم المتفرعة على ذلك وهو استعجالهم بما أوعدوا به من العذاب تكذيبا واستهزاء وايرادهم باسم الجنس لما أن تعجيل الخير لهم ليس دائرا على وصفهم المذكور اذ ليس كل ذلك بطريق الاستدراج أى لو يعجل الله لهم (الشر) الذى كانوا يستعجلون به فانهم كانوا يقولون اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أوائتنا بعذاب أليم ونحو ذلك وقوله تعالى (استعجالهم بالخير)

نصب على أنه مصدر تشبيهى وضع موضع مصدر ناصبه دلالة على اعتبار الاستعجال فى جانب المشبه كاعتبار التعجيل فى جانب المشبه به واشعارا بسرعة اجابته تعالى لهم حتى كأن استعجالهم بالخير نفس تعجيله لهم والتقدير ولو يعجل الله لهم الشر عند استعجالهم به تعجيلا مثل تعجيله لهم الخير عند استعجالهم به فحذف ماحذف تعلايلا على دلالة الباقى عليه (لقضى اليهم أجلهم) لأدى اليهم الأجل الذى عين لعذابهم وأميتوا وأهلكوا بالمرة وما أمهلوا طرفة عين . وفى ايثار صيغة المبنى للمفعول جرى على سنن الكبرياء مع الايذان بتعين الفاعل . وقرىء على البناء للفاعل كما قرىء لقضينا واختيار صيغة الاستقبال فى الشرط وان كان المعنى على المضى لافادة أن عدم قضاء الاجل لاستمرار عدم التعجيل . فان المضارع المنفي الواقع موقع الماضى ليس بنص فى افادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضا بحسب المقام كما حقق فى موضعه . واعلم أن مدار الافادة فى الشرطية أن يكون التالى أمرا مغايرا للمقدم فى نفسه مترتبا عليه فى الوجود كما فى قوله عز وجل « لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم » فان العنت أى الوقوع فى المشقة والهلاك أمر مغاير لطاعته عليه الصلاة والسلام لهم مترتب عليها فى الوجود أو يكون فردا كاملا من أفراده ممتازا عن البقية بأمر يخصه كما فى الاجوبة المحذوفة فى مثل قوله تعالى ولو ترى اذ وقفوا على ربهم وقوله تعالى « ولو ترى اذ وقفوا على النار » وقوله تعالى « ولو ترى اذ المجرمون » ونظائرها أى لرأيت أمرا هائلا فظيعا أو نحو ذلك وكما فى قوله تعالى « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة » اذا فسر الجواب بالاستئصال فانه فرد كامل من أفراد مطلق المؤاخذة قد عبر عنه بما لامزيد عليه فى الدلالة على الشدة والفظاعة فحسن موقعه فى معرض التالى للمؤاخذة المطلقة . وأما ما نحن فيه من القضاء فليس بأمر مغاير لتعجيل الشر فى نفسه وهو الظاهر بل هو إما نفسه أو جزئى منه كسائر جزئياته من غير مزية له على البقية إذ لم يعتبر فى مفهومه ما ليس فى مفهوم تعجيل الشر من الشدة والهول فلا يكون فى ترتبه عليه وجودا أو عدما مزيد فائدة مصححة لجعله تاليا له فالحق أن المقدم ليس نفس التعجيل المذكور بل هو ارادته المستتبعة للقضاء المذكور وجودا وعدما كما فى قوله تعالى « لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب » أى لو يريد مؤاخذتهم فان تعجيل العذاب لهم نفس المؤاخذة أو جزئى من جزئياتها غير ممتاز عن البقية فليس فى بيان ترتبه عليها وجودا أو عدما مزيد فائدة . فانما الفائدة فى بيان ترتبه على ارادتها حسبما ذكر وأيضا فى ترتب التالى على ارادة المقدم ماليس فى ترتبه على نفسه من الدلالة على المبالغة وتهويل الامر والدلالة على أن الامور مترسطة

بإرادته تعالى على الحكم البالغة (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا) بنون العظمة الدالة على التشديد فى الوعيد وهو عطف على مقدر تنبىء عنه الشرطية كأنه قيل لكن لا نفعل ذلك لما تقتضيه الحكمة فنتركهم امهالا واستدراجا (فى طغيانهم) الذى هو عدم رجاء اللقاء وانكار البعث والجزاء وما يتفرع على ذلك من أعمالهم السيئة ومقالاتهم الشنيعة (يعمهون) أى يترددون ويتحيرون،فنى وضع الموصول موضع الضمير نوع بيان للطغيان بما فى حيز الصلة واشعار بعليته للترك والاستدراج (وإذا مس الانسان الضر) أى أصابه جنس الضر من مرض وفقر وغيرهما من الشدائد اصابة يسيرة (دعانا) لكشفه وازالته (لجنبه) حال من فاعل دعا بشهادة ماعطف عليه من الحالين واللام بمعنى على كما فى قوله تعالى «يخرون للأذقان» أى دعانا كائنا على جنبه أى مضطجعا (أو قاعدا أو قائما) أى فى جميع الاحوال بما ذكر وما لم يذكر وتخصيص المعدودات بالذكر لعدم خلو الانسان عنها عادة أو دعانا فى جميع أحوال مرضه على أنه المراد بالضر خاصة مضطجعاً عاجزاً عن القعود وقاعداً غير قادر على النهوض وقائما لا يستطيع الحراك (فلما كشفنا عنه ضره) الذى مسه غب ما دعانا حسبما ينبئ عنه الفاء (مر) أي مضى واستمر على طريقته التي كان ينتحيها قبل مساس الضر ونسى حالة الجهد والبلاء أو مر عن موقف الضراعة والابتهال ونأى بجانبه (كأن لم يدعنا) أى كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن كما فى قوله « كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا » والجملة التشبيهية فى محل النصب على الحالية من فاعل مر أي مر مشبها من لم يدعنا (إلى ضر) أى إلى كشف ضر (مسه) وهذا وصف للجنس باعتبار حال بعض أفراده ممن هو متصف بهذه الصفات (كذلك) نصب على المصدرية وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الآتى وما فيه من معنى البعد للتفخيم والكاف مقحمة للدلالة على زيادة فخامة المشار اليه اقحاما لا يكاد يترك فى لغة العرب ولا فى غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل مكان أنت لا تبخل أى مثل ذلك التزيين العجيب (زين للمسرفين) أى للموصوفين بما ذكر من الصفات الذميمة وإسرافهم لما أن الله تعالى إنما أعطاهم القوى والمشاعر ليصرفوها إلى مصارفها ويستعملوها فيما خلقت له من العلوم والاعمال الصالحة فلما صرفوها إلى مالا ينبغى وهى رأس مالهم فقد أتلفوها وأسرفوا إسرافا ظاهراً . والتزيين إما من جهة الله سبحانه على طريقة التخلية والخذلان أو من الشيطان بالوسوسة والتسويل (ما كانوا يعملون) من الاعراض عن الذكر والدعاء والانهماك فى الشهوات . وتعلق الآية الكريمة بما قبلها من حيث أن فى كل

منهما املاء للكفرة على طريقة الاستدراج بعد الانقاذ من الشر المتمدر فى الأولى ومن الضر المفرر فى الاخرى (ولقد أهلكنا القرون) أى القرون الخالية مثل قوم نوح وعاد وأضرابهم ومن فى قوله تعالى (من قبلكم) متعلقة بأهلكنا أى أهلكناهم من قبل زمانكم والخطاب لأهل مكة على طريقة الالتفات للمبالغة فى تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القسمى (لما ظلموا) ظرف للاهلاك أي أهلكناهم حين فعلو الظلم بالتكذيب والتمادى فى الغى والضلال من غير تأخير وقوله تعالى (وجاءتهم رسلهم) حال من ضمير ظلموا باضمار قد وقوله تعالى (بالبينات) متعلق بجاءتهم على أن الباء للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من رسلهم دالة على افراطهم فى الظلم وتناهيهم فى المكابرة أى ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينة الدالة على صدقهم أو ملتبسين بها حين لامجال للتكذيب . وقد جوز أن يكون قوله تعالى « وجاءتهم » عطفا على ظلموا فلا محل له من الاعراب عند سيبويه وعند غيره محله الجر لانه معطوف على ماهو مجرور باضافة الظرف اليه وليس الظلم منحصرا فى التكذيب حتى يحتاج إلى الاعتذار بأن الترتيب الذكرى لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعى كما فى قوله تعالى « ورفع أبويه على العرش وخروا له » الخ بل هو محمول على سائر أنواع الظلم والتكذيب مستفاد من قوله تعالى (وما كانوا ليؤمنوا) على أبلغ وجه وآكده فان اللام لتأكيد النفى أى وما صح وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله تعالى إياهم لعلمه بأن الالطاف لا تنجع فيهم . والجملة على الاول عطف على ظلموا لانه إخبار باحداث التكذيب وهذا بالاصرار عليه . وعلى الثانى عطف على ما عطف عليه وقيل اعتراض بين الفعل وما يجرى مجرى مصدره التشبيهى أعنى قوله تعالى (كذلك) فان الجزاء المشار اليه عبارة عن مصدره أى مثل ذلك الجزاء الفظيع أى الاهلاك الشديد الذى هو الاستئصال بالمرة (نجزى القوم المجرمين) أى كل طائفة مجرمة وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لاهل مكة لاشتراكهم لاولئك المهلكين فى الجرائم والجرائر التى هى تكذيب الرسول والاصرار عليه وتقرير لمضمون ماسبق من قوله تعالى « ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير » وقرئ بالياء على الالتفات إلى الغيبة . وقد جوز أن يكون المراد بالقوم المجرمين أهل مكة على طريقة وضع الظاهر موضع ضمير الخطاب إيذانا بأنهم أعلام الاجرام ويأباه كل الاباء قوله عز وجل (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم) فانه صريح فى أنه ابتداء تعرض لامورهم وأن ما بين فيه انما هو مبادى أحوالهم لاختبار كيفيات أعمالهم على وجه يشعر

باستمالتهم نحو الايمان والطاعة فحال أن يكون ذلك أثر بيان منتهى أمرهم وخطابهم ببت القول باهلاكهم لكمال اجرامهم والمعنى ثم استخلفنا كم فى الارض من بعد إهلاك أولئك القرون التى تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها استخلاف من يختبر (لننظر) أى لنعامل معاملة من ينظر (كيف تعملون) فهى استعارة تمثيلية وكيف منصوب على المصدرية بتعملون لا بننظر فان مافيه من معنى الاستفهام مانع من تقدم عامله عليه أى أى عمل أو على الحالية أى على أي حال تعملون الاعمال اللائقة بالاستخلاف من أوصاف الحسن كقوله عز وعلا «ليبلوكم أيكم أحسن عملا» فيه اشعار بأن المراد بالذات والمقصود الاصلى من الاستخلاف انما هو ظهور الكيفية الحسنة للاعمال الصالحة . وأما الاعمال السيئة فبمعزل من أن تصدر عنهم لا سيما بعد ماسمعوا أخبار القرون المهلكة وشاهدوا آثار بعضها فضلا عن أن ينظم ظهورها فى سلك العلة الغائية للاستخلاف . وقيل منصوب على أنه مفعول به أي أى عمل تعملون أخيرا أم شرا فنعاملكم بحسبه فلا يكون فى كلمة كيف حينئذ دلالة على أن المعتبر فى الجزاء جهات الاعمال وكيفياتها لا ذواتها كما هو رأى القائل بل تكون حينئذ مستعارة لمعنى أى شيء (واذا تتلى عليهم) التفات من خطابهم الى الغيبة اعراضا عنهم وتوجيها للخطاب إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعديد جناياتهم المضادة لما أريد منهم بالاستخلاف من تكذيب الرسول والكفر بالآيات البينات وغير ذلك كدأب من قبلهم من القرون المهلكة وصيغة المضارع للدلالة على تجدد جوابهم الآتى حسب تجدد التلاوة (آياتنا) الدالة على حقية التوحيد وبطلان الشرك والاضافة لتشريف المضاف والترغيب فى الايمان به والترهيب عن تكذيبه (بينات) حال كونها واضحات الدلالة على ذلك وايراد فعل التلاوة مبنيا للمفعول مسندا الى الآيات دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ببنائه للفاعل للاشعار بعدم الحاجة لتعين التالى . وللايذان بأن كلامهم فى نفس المتلو دون التالى (قال الذين لا يرجون لقاءنا) وضع الموصول موضع الضمير اشعارا بعلية مافى حيز الصلة للعظيمة المحكية عنهم وانهم انما اجترءوا عليها لعدم خوفهم من عقابه تعالى يوم اللقاء لانكارهم له ولما هو مباديه من البعث وذما لهم بذلك أي قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما لم يذكر ايذانا بتعينه (ائت بقرآن غير هذا) أشاروا بهذا إلى القرآن المشتمل على تلك الآيات لا إلى نفسها فقط قصدا إلى إخراج الكل من البين أى ائت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه مانستبعده من البعث والحساب والجزاء وما نكرهه من ذم آلهتنا ومعايبها والوعيد على عبادتها

(أو بدله) بتغيير ترتيبه بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى خالية عنها وانما قالوه كيدا وطمعا فى المساعدة ليتوسلوا به الى الالزام والاستهزاء به (قل) لهم (ما يكون لى) أى ما يصح وما يستقيم لى ولا يمكنني أصلا (أن أبدله من تلقاء نفسى)أى من قبل نفسى وهو مصدر استعمل ظرفا وقرىء بفتح التاء وقصر الجواب ببيان امتناع ما اقترحوه على اقتراحهم الثانى للايذان بأن استحالة ما اقترحوه أولا من الظهور بحيث لاحاجة الى بيانها وأن التصدى لذلك مع كونه ضائعا ربما يعد من قبيل المجاراة مع السفهاء اذ لا يصدر مثل ذلك الاقتراح عن العقلاء ولان مايدل على استحالة الثانى يدل على استحالة الاول بالطريق الأولى (ان أتبع) أى ما أتبع فى شيء مما آتى وأذر (إلا ما يوحى إلى) من غير تغيير له فى شيء أصلا على معنى قصر حاله عليه السلام على اتباع مايوحى اليه لاقصر اتباعه على مايوحى اليه كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كأنه قيل ما أفعل إلا اتباع مايوحى إلي وقد مر تحقيق المقام فى سورة الانعام . وهو تعليل لصدر الكلام فان من شأنه اتباع الوحى على ما هو عليه لا يستبد بشيء دونه قطعا وفيه جواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض ورد لما عرضوا به عليه الصلاة والسلام بهذا السؤال من أن القرآن كلامه عليه الصلاة والسلام ولذلك قيد التبديل فى الجواب بقوله من تلقاء نفسى.وسماه عصيانا عظيما مستتبعا لعذاب عظيم بقوله تعالي (انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم) فانه تعليل لمضمون ما قبله من امتناع التبديل واقتصار أمره عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى أى أخاف ان عصيته تعالى بتعاطي ما ليس لى من التبديل من تلقاء نفسى والاعراض عن اتباع الوحى عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة أو يوم اللقاء الذى لا يرجونه وفيه اشعار بأنهم استوجبوه بهذا الاقتراح والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام لتهويل أمر العصيان واظهار كمال نزاهته عليه السلام عنه وايراد اليوم بالتنوين التفخيمى ووصفه بالعظم لتهويل مافيه من العذاب وتفظيعه ولا مساغ لحمل مقترحهم على التبديل والاتيان بقرآن آخر من جهة الوحى بتفسير قوله تعالى « ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى » بأنه لا يتسهل لى أن أبدله بالاستدعاء من جهة الوحى ما أتبع الا ما يوحى الى من غير صنع ما من الاستدعاء وغيره من قبلى لانه يرده التعليل المذكور لالان المقترح حينئذ ليس فيه معصية أصلا كما توهم فان استدعاء تبديل الآيات النازلة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعية بعضها ببعض لاسيما بموجب اقتراح الكفرة مما لا ريب فى كونه معصية بل لانه ليس فيه معصية الافتراء مع أنها المقصودة بما ذكر فى التعليل

ألا يرى الى ما بعده من الآيتين الكريمتين فانه صريح فى أن مقترحهم الاتيان بغير القرآن وتبديله بطريق الافتراء وأن زعمهم فى الاصل أيضا كذلك وقوله عز وجل (قل لوشاء الله ماتلوته عليكم) تحقيق لحقية القرآن وكونه من عندالله تعالى اثر بيان بطلان ما اقترحوا الاتيان به واستحالته عبارة ودلالة وانما صدر بالامر المستقل مع كونه داخلا تحت الامر السابق اظهارا لكمال الاعتناء بشأنه وايذانا باستقلاله مفهوما واسلوبا فانه برهان دال على كونه بأمر الله تعالى ومشيئته كما سيأتى . وما سبق مجرد اخبار باستحالة ما اقترحوه ومفعول شاء محذوف ينبىء عنه الجزاء لا غير ذلك كما قيل فان مفعول المشيئة انما يحذف اذا وقعت شرطا وكان مفعولها مضمون الجزاء ولم يكن فى تعلقها به غرابة كما فى قوله « ولو شئت أن أبكى دمالبكيته » حيث لم يحذف لفقدان الشرط الاخير ولان المستلزم للجزاء أعنى عدم تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن عليهم انما هو مشيئته تعالى له لا مشيئته لغير القرآن والمعنى ان الامر كله منوط بمشيئته تعالى وليس لى منه شىء قط ولو شاء عدم تلاوتى له عليكم لا بأن شاء عدم تلاوتى له من تلقاء نفسى بل بأن لم ينزله على ولم يأمرنى بتلاوته كما ينبىء عنه ايثار التلاوة على القراءة ماتلوته عليكم (ولا أدراكم به) أى ولا أعلمكم به بواسطتى والتالى وهو عدم التلاوة والادراء منتف فينتفى المقدم أعنى مشيئة عدم التلاوة . ولا يخفى أنها مستلزمة لعدم مشيئة التلاوة قطعا فانتفاؤها مستلزم لانتفائه حتما . وانتفاء عدم مشيئة التلاوة انما يكون بتحقق مشيئة التلاوة فثبت أن تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن بمشيئته تعالى وأمره . وانما قيدنا الادراء بكونه بواسطته عليه الصلاة والسلام لان عدم الاعلام مطلقا ليس من لوازم الشرط الذى هو مشيئة عدم تلاوته عليه السلام . فلا يجوز نظمه فى سلك الجزاء وفى اسناد عدم الادراء اليه تعالى المنبىء عن استناد الادراء اليه تعالى ايذان بان لادخل له عليه السلام فى ذلك حسبما يقتضيه المقام . وقرىء ولا ادرأتكم ولا ادرأكم بالهمزة فيهما على لغة من يقول اعطأت وأرضأت فى أعطيت وأرضيت أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أى ولا جعلتكم بتلاوته عليكم خصماء تدرؤننى بالجدال . وقرىء ولا أنذرتكم به . وقرىء لأدراكم بلام الجواب أى لو شاء الله ما تلوته عليكم أنا ولأعلمكم به على لسان غيرى على معنى انه الحق الذى لا محيص عنه لو لم أرسل به أنا لأرسل به غيرى ألبتة . أو على معنى أنه تعالى يمن على من يشاء فخصنى بهذه الكرامة (فقد لبثت فيكم عمرا) تعليل للملازمة المستلزمة لكون تلاوته بمشيئة الله تعالى وأمره حسبما بين آنفا لكن لا بطريق الاستدلال عليها بعدم تلاوته عليه الصلاة والسلام فيما سبق بسبب مشيئته تعالى اياه

بل بطريق الاستشهاد عليها بما شاهدوا منه عليه الصلاة والسلام في تلك المدة الطويلة
من الامور الدالة على استحالة كون التلاوة من جهته عليه الصلاة والسلام بلا وحي
وعمرا نصب على التشبيه بظرف الزمان والمعنى قد أقمت فيما بينكم دهرا مديدا مقدار
أربعين سنة تحفظون تفاصيل أحوالي طرا وتحيطون بما لدي خبرا (من قبله) أي من قبل نزول
القرآن لا أتعاطى شيئا مما يتعلق به لا من حيث نظمه المعجز ولا من حيث معناه الكاشف
عن أسرار الحقائق وأحكام الشرائع (أفلا تعقلون) أي ألا تلاحظون ذلك فلا تعقلون
امتناع صدوره عن مثلي ووجوب كونه منزلا من عند الله العزيز الحكيم. فانه غير خاف
على من له عقل سليم. والحق الذي لا محيد عنه أن من له أدنى مسكة من العقل اذا تأمل
في أمره عليه الصلاة والسلام وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل من غير مصاحبة العلماء
في شأن من الشؤون ولا مراجعة اليهم في فن من الفنون ولا مخالطة البلغاء في المفاوضة
والحوار. ولا خوض معهم في انشاء الخطب والاشعار. ثم أتى بكتاب بهرت فصاحته
كل فصيح فائق. وبذت بلاغته كل بليغ رائق. وعلا نظمه كل منثور ومنظوم. وحوى فحواه
بدائع أصناف العلوم. كاشف عن أسرار الغيب من وراء أستار الكمون. ناطق بأخبار
ما قد كان وما سيكون. مصدقا لما بين يديه من الكتب المنزلة مهيمن عليها في أحكامها
المجملة والمفصلة لا يبقى عنده شائبة اشتباه في أنه وحي منزل من عند الله. هذا هو الذي
اتفقت عليه كلمة الجمهور. ولكن الانسب بناء الجواب فيما سلف على مجرد امتناع صدور
التغيير والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام لكونه معصية موجبة للعذاب العظيم واقتصار
حاله عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحي وامتناع الاستبداد بالرأي من غير تعرض
هناك ولا ههنا لكون القرآن في نفسه أمرا خارجا عن طوق البشر. ولا لكونه عليه
الصلاة والسلام غير قادر على الاتيان بمثله ان يستشهد ههنا على المطلب بما يلائم ذلك
من أحواله المستمرة في تلك المدة المتطاولة من كمال نزاهته عليه الصلاة والسلام عما
يوهم شائبة صدور الكذب والافتراء عنه في حق أحد كائنا من كان. كما ينبيء عنه تعقيبه
بتظليم المفتري على الله تعالى. والمعنى قد لبثت فيما بين ظهرانيكم قبل الوحي لا أتعرض
لاحد قط بتحكم ولا جدال ولا أحوم حول مقال فيه شائبة شبهة فضلا عما فيه كذب أو افتراء ألا
تلاحظون فلا تعقلون أن من هذا شأنه المطرد في هذا العهد البعيد مستحيل ان يفتري على الله عز
وجل ويتحكم على كافة الخلق بالاوامر والنواهي الموجبة لسلب الاموال وسفك الدماء ونحو ذلك
وأن ما أتى به وحي مبين تنزيل من رب العالمين وقوله عز وجل (فمن أظلم ممن افترى

على الله كذبا) استفهام انكارى معناه الجحد أى لا أحد أظلم منه على معنى أنه أظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب مفيد الانكار أن يكون أحد أظلم منه من غير تعرض لانكار المساواة ونفيها فانه اذا قيل من أفضل من فلان أو لا أعلم منه يفهم منه حتما انه أفضل من كل فاضل وأعلم من كل عالم . وزيادة قوله تعالى «كذبا» مع أن الافتراء لا يكون الا كذلك للايذان بأن ما أضافوه اليه ضمنا وحملوه عليه الصلاة والسلام عليه صريحا مع كونه افتراء على الله تعالى كذب فى نفسه فرب افتراء يكون كذبه فى الاسناد فقط كما اذا أسند ذنب زيد الى عمرو وهذا للمبالغة منه عليه الصلاة والسلام فى التفادى عما ذكر من الافتراء على الله سبحانه (أو كذب بآياته) فكفر بها وهــذا تظليم للمشركين بتكذيبهم للقرآن وحملهم على انه من جهته عليه الصلاة والسلام والفاء لترتيب الكلام على ما سبق من بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وأمره فلا مجال لحمل الافتراء على الافتراء باتخاذ الولد والشريك أى واذا كان الأمر كذلك فمن افترى عليه تعالى بان يختلق كلاما فيقول هذا من عند الله أو يبدل بعض آياته تعالى ببعض كما تجوزون ذلك فى شأنى وكذلك من كذب بآياته تعالى كما تفعلونه أظلم من كل ظالم (انه) الضمير للشأن وقع اسما لأن والخبر ما يعقبه من الجملة ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصديرها به الايذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه من أول الأمر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده عليه فضل تمكن فكأنه قيل ان الشأن هذا أى (لا يفلح المجرمون) أى لا ينجون من محذور ولا يظفرون بمطلوب والمراد جنس المجرمين فيندرج فيه المفترى والمكذب اندراجا أوليا (ويعبدون من دون الله) حكاية لجناية أخرى لهم نشأت عنها جنايتهم الأولى معطوفة على قوله تعالى واذا تتلى عليهم الآية عطف قصة على قصة ومن دون متعلق بيعبدون ومحله النصب على الحالية من فاعله أى متجاوزين الله سبحانه لا بمعنى ترك عبادته بالكلية بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلها قرينا لعبادة الأصنام كما يفصح عنه سياق النظر الكريم (مالا يضرهم ولا ينفعهم) أى ما ليس من شأنه الضر والنفع من الأصنام التى هى جمادات وما موصولة أو موصوفة وتقديم نفى الضرر لأن أدنى أحكام العبادة دفع الضرر الذى هو أول المنافع والعبادة أمر حادث مسبوق بالعدم الذى هو مظنة الضرر فحيث لم تقدر الاصنام على الضرر لم يوجد لاحداث العبادة سبب . وقيل لا يضرهم ان تركوا عبادتها ولا ينفعهم ان عبدوها . كان أهل الطائف يعبدون اللات . وأهل مكة عزى . ومناة . وهبل . واسافا ونائلة (ويقولون

هؤلاء شفعاؤنا عندالله)عن النضر بن الحرث اذا كان يوم القيامة يشفع لى اللات. قيل انهم كانوا يعتقدون ان المتولى لكل اقليم روح معين من أرواح الافلاك . فعينوا لذلك الروح صنما معينا من الاصنام واشتغلوا بعبادته ومقصودهم ذلك الروح . ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عند الاله الأعظم مشتغلا بعبوديته . وقيل انهم كانوا يعبدون الكواكب فوضعوا لها أصناما معينة واشتغلوا بعبادتها قصدا الى عبادة الكواكب وقيل انهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام ثم تقربوا اليها. وقيل انهم وضعوا هذه الاصنام على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فان أولئك الاكابر يشفعون لهم عند الله تعالى (قل) تبكيتا لهم (أتنبئون الله بما لا يعلم)أى أتخبرونه بما لا وجود له أصلا وهو كون الاصنام شفعاءهم عند الله تعالى اذ لو لاه لعلمه علام الغيوب . وفيه تقريع لهم وتهكم بهم وبما يدعونه من المحال الذى لايكاد يدخل تحت الصحة والامكان . وقرىء أتنبيون بالتخفيف وقوله تعالى (فى السموات ولا فى الارض)حال من العائد المحذوف فى يعلم مؤكدة للنفى لأن مالا يوجد فيهما فهو منتف عادة (سبحانه وتعالى عما يشركون) عن اشراكهم المستلزم بتلك المقالة الباطلة أو عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعاءهم عند الله تعالى. وقرىء تشركون بتاء الخطاب على أنه من جملة القول المأمور به وعلى الأول هو اعتراض تذييلى من جهته سبحانه وتعالى (وما كان الناس الا أمة واحدة)بيان لأن التوحيد والاسلام ملة قديمة أجمعت عليها الناس قاطبة فطرة وتشريعا. وان الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة خلافا للجمهور وشقا لعصا الجماعة . وأما حمل اتحادهم على الاتفاق على الضلال عند الفترة واختلافهم على ما كان منهم من الاتباع والاصرار فمما لا احتمال له . أى وما كان الناس كافة من أول الأمر الا متفقين على الحق والتوحيد من غير اختلاف وذلك من عهد آدم عليه الصلاة والسلام الى أن قتل قابيل هابيل . وقيل الى زمن ادريس عليه السلام. وقيل الى زمن نوح عليه السلام. وقيل من حين الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا . الى أن ظهر فيما بينهم الكفر . وقيل من لدن ابراهيم عليه الصلاة والسلام الى أن أظهر عمرو بن لحى عبادة الأصنام . فالمراد بالناس العرب خاصة وهو الأنسب بايراد الآية الكريمة أثر حكاية ما حكى عنهم من الهنات وتنزيه ساحة الكبرياء عن ذلك (فاختلفوا) بأن كفر بعضهم وثبت آخرون على ما هم عليه فخالف كل من الفريقين الآخر لا أن كلا منهما أحدث ملة على حدة من ملل الكفر مخالفة لملة الآخر. فان الكلام ليس فى ذلك الاختلاف إذ كل منهما مبطل حينئذ فلا يتصور أن يقضى بينهما بابقاء المحق

و اهلاك المبطل والفاء التعقيبية لاتنافى امتداد زمان الاتفاق اذ المراد بيان وقوع الاختلاف عقيب انصرام مدة الاتفاق لاعقيب حدوث الاتفاق (ولو لا كلمة سبقت من ربك) بتأخير القضاء بينهم أو بتأخير العذاب الفاصل بينهم الى يوم القيامة فانه يوم الفصل (لقضى بينهم) عاجلا (فيما فيه يختلفون) بتمييز الحق من الباطل بابقاء المحقق واهلاك المبطل . وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية وللدلالة على الاستمرار (ويقولون) حكاية لجناية أخرى لهم معطوفة على قوله تعالى «و يعبدون» وصيغة المضارع لاستحضار صورة مقالتهم الشنعاء والدلالة على الاستمرار والقائلون أهل مكة (لو لا أنزل عليه آية من ربه) أرادوا آية من الآيات التى اقترحوها كأنهم لفرط العتو والفساد ونهاية التمادي فى المكابرة والعناد لم يعدوا البينات النازلة عليه عليه الصلاة والسلام من جنس الآيات واقترحوا غيرها مع أنه قد أنزل عليه من الآيات الباهرة والمعجزات المتكاثرة مايضطرهم الى الانقياد والقبول لو كانوا من أرباب العقول (فقل) لهم فى الجواب (انما الغيب لله) اللام للاختصاص العلمى دون التكوينى فان الغيب والشهادة فى ذلك الاختصاص سيان والمعنى أن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتم ايمانكم بنزوله من الغيوب المختصة بالله تعالى لا وقوف لى عليه (فانتظروا) نزوله (انى معكم من المنتظرين)أى لما يفعل الله بكم لاجترائكم على مثل هذه العظيمة من جحود الآيات واقتراح غيرها وجعل الغيب عبارة عن الصارف عن انزال الآيات المقترحة يأباه ترتيب الأمر بالانتظار على اختصاص الغيب به تعالى (واذا أذقنا الناس رحمة) صحة وسعة (من بعد ضراء مستهم) أى خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم واسناد المساس إلى الضراء بعد اسناد الاذاقة الى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية كما فى قوله تعالى «واذا مرضت فهو يشفين» ونظائره قيل سلط الله تعالى على أهل مكة القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم بالحيا فطفقوا يطعنون فى آياته تعالى و يعادون رسوله عليه الصلاة والسلام و يكيدونه وذلك قوله تعالى (اذا لهم مكر فى آياتنا)أى بالطعن فيها وعدم الاعتداد بها والاحتيال فى دفعها واذا الأولى شرطية والثانية جوابها كأنه قيل فاجؤا وقوع المكر منهم وتنكير مكر للتفخيم وفى متعلقة بالاستقرار الذى يتعلق به اللام (قل الله أسرع مكراً) أى أعجل عقوبة أى عذابه أسرع وصولا اليكم مما يأتى منكم فى دفع الحق و تسمية العقوبة بالمكر لوقوعها فى مقابلة مكرهم وجودا أو ذكرا (ان رسلنا) الذين يحفظون أعمالكم و الاضافة للتشريف (يكتبون ما تمكرون) أى مكركم أو ما تمكرونه و هو تحقيق للانتقام منهم وتنبيه على أن مادبروا فى اخفائه

غير خاف على الحفظة فضلا عن العليم الخبير وصيغة الاستقبال في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددي والجملة تعليل من جهته تعالى لأسرعية مكره سبحانه غير داخل في الكلام الملقن كقوله تعالى «ولو جئنا بمثله مددا» فان كتابة الرسل لما يمكرون من مبادي بطلان مكرهم وتخلف أثره عنه بالكلية وفيه من المبالغة مالا يوصف وتلوين الخطاب بصرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم للتشديد في التوبيخ وقرىء على لفظ الغيبة فيكون حينئذ تعليلا لما ذكر أو للأمر (هو الذي يسيركم) كلام مستأنف مسوق لبيان جناية أخرى لهم مبنية على مامر آنفا من اختلاف حالهم حسب اختلاف ما يعتريهم من السراء والضراء أي يمكنكم من السير تمكينا مستمرا عند الملابسة به وقبلها (في البر) مشاة وركبانا وقرىء ينشركم من النشر ومنه قوله عز وجل «بشر تنتشرون» (والبحر حتى إذا كنتم في الفلك) أي السفن فانه جمع فلك على زنة أسد جمع أسد لا على وزن قفل وغاية التسيير ليست ابتداء ركوبهم فيها بل مضمون الشرطية بتمامه كما ينبىء عنه إيثار الكون المؤذن بالدوام على الركوب المشعر بالحدوث (وجرين) أي السفن (بهم) بالذين فيها والالتفات إلى الغيبة للايذان بما لهم من سوء الحال الموجب للاعراض عنهم كأنه يذكر لغيرهم مساوي أحوالهم ليعجبهم منها ويستدعي منه الانكار والتقبيح وقيل ليس فيه التفات بل معنى قوله تعالى «حتى اذا كنتم في الفلك» اذا كان بعضكم فيها اذ الخطاب للكل ومنهم المسيرون في البر فالضمير الغائب عائد الى ذلك المضاف المقدر كما في قوله تعالى «أو كظلمات في بحر لجي يغشاه» أي أو كذي ظلمات يغشاه موج (بريح طيبة) لينة الهبوب موافقة لمقصدهم (وفرحوا بها) بتلك الريح لطيبها وموافقتها (جاءتها) جواب اذا والضمير المنصوب للريح الطيبة أي تلقتها واستولت عليها من طرف مخالف لها فان الهبوب على وفقها لا يسمى مجيئا لريح أخرى عادة بل هو اشتداد للريح الاولى وقيل للفلك والأول أظهر لاستلزامه للثاني من غير عكس لان الهبوب على طريقة الريح اللينة يعد مجيئا بالنسبة الى الفلك دون الريح اللينة مع أنه لا يستتبع تلاطم الأمواج الموجب لمجيئها من كل مكان ولان التهويل في بيان استيلائها على ما فرحوا به وعلقوا به حبال رجائهم أكثر (ريح عاصف) أي ذات عصف وقيل العصوف مختص بالريح فلا حاجة إلى الفارق وقيل الريح قد يذكر (وجاءهم الموج) في الفلك (من كل مكان) أي من أمكنة مجيء الموج عادة ولا بعد في مجيئه من جميع الجوانب أيضا اذ لا يجب أن يكون مجيئه من جهة هبوب الريح فقط. بل قد يكون من غيرها بحسب أسباب تتفق له (وظنوا أنهم أحيط بهم) أي هلكوا فان ذلك مثل في الهلاك أصله إحاطة العدو بالحي أو سدت

عليهم مسالك الخلاص (دعوا الله) بدل من ظنوا بدل اشتمال لما بينهما من الملابسة والتلازم أو استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الاذهان كأنه قيل فماذا صنعوا فقيل دعوا الله (مخلصين له الدين) من غير أن يشركوا به شيئا من آلهتهم لا مخصصين للدعاء به تعالى فقط بل للعبادة أيضا فانهم بمجرد تخصيص الدعاء به تعالى لا يكونون مخلصين له الدين (لئن أنجيتنا) اللام موطئة للقسم على ارادة القول أي قائلين والله لئن أنجيتنا (من هذه) الورطة (لنكونن) ألبتة بعد ذلك أبدا (من الشاكرين) لنعمك التي من جملتها هذه النعمة المسئولة وقيل الجملة مفعول دعوا لان الدعاء من قبيل القول والاول هو الاولى لاستدعاء الثاني لاقتصار دعائهم على ذلك فقط وفى قوله لنكونن من الشاكرين من المبالغة فى الدلالة على كونهم ثابتين فى الشكر مثابرين عليه منتظمين فى سلك المنعوتين بالشكر الراسخين فيه ما ليس فى أن يقال لنشكرن (فلما أنجاهم) مما غشيهم من الكربة والفاء للدلالة على سرعة الاجابة (اذاهم يبغون فى الأرض) أى فاجؤا الفساد فيها وسارعوا اليه متراقين فى ذلك متجاوزين عما كانوا عليه من حدود العيث من قولهم بغى الجرح اذا ترامى فى الفساد وزيادة فى الارض للدلالة على شمول بغيهم لاقطارها وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وقوله تعالى (بغير الحق) تأكيد لما يفيده البغى أو معناه أنه بغير الحق عندهم أيضا بأن يكون ذلك ظلما ظاهرا لا يخفى قبحه على أحد كما فى قوله تعالى « ويقتلون النبيين بغير الحق » وأما ماقيل من أنه للاحتراز عن البغى بحق كتخريب الغزاة ديار الكفرة وقطع أشجارهم وإحراق زرعهم فلا يساعده النظم الكريم لابتنائه على كون البغى بمعنى إفساد صورة الشىء وابطال منفعته دون ماذكر من المعنى اللائق بحال المفسدين (يا أيها الناس) توجيه للخطاب الى أولئك الباغين للتشديد فى التهديد والمبالغة فى الوعيد (انما بغيكم) الذى تتعاطونه وهو مبتدأ وقوله تعالى (على أنفسكم) خبره أى عليكم فى الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم وان ظن كذلك وقوله تعالى (متاع الحيوة الدنيا) بيان لكون ما فيه من المنفعة العاجلة شيئا غير معتد به سريع الزوال دائم الوبال وهو نصب على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر بطريق الاستئناف أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا وقيل على أنه مصدر وقع موقع الحال أى متمتعين بالحياة الدنيا والعامل هو الاستقرار الذى فى الخبر لا نفس البغى لانه يؤدي الى الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر ولا يخبر عن الموصول إلا بعد تمام صلته وأنت خبير بأنه ليس فى تقييد كون بغيهم على أنفسهم بحال تمتعهم بالحياة الدنيا معنى يعتد به

وقيل على أنه ظرف زمان نحو مقدم الحاج أى زمن متاع الحياة الدنيا وفيه ما مر بعينه وقيل على أنه مفعول لفعل دل عليه المصدر أى تبغون متاع الحياة الدنيا ولا يخفي أنه لا يدل على البغي بمعنى الطلب وجعل المصدر أيضا بمعناه مما يخل بجزالة النظم الكريم لان الاستئناف لبيان سوء عاقبة ما حكى عنهم من البغي المفسر بالافساد المفرط اللائق بحالهم فاى مناسبة بينه وبين البغي بمعنى الطلب وجعل الاول أيضا بمعناه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عنه وقيل على أنه مفعول له أى لاجل متاع الحياة الدنيا والعامل ما ذكر من الاستقرار وفيه أن المعلل بما ذكر نفس البغي لا كونه على أنفسهم وقيل العامل فيه فعل مدلول عليه بالمصدر أى تبغون لاجل متاع الحياة الدنيا على أن الجملة مستأنفة وقيل على أنه مفعول صريح للمصدر وعلى أنفسكم ظرف لغو متعلق به والمراد بالانفس الجنس والخبر محذوف لطول الكلام والتقدير انما بغيكم على أبناء جنسكم متاع الحياة الدنيا محذور أو ظاهر الفساد أو نحو ذلك وفيه ما مر من ابتنائه على مالا يليق بالمقام من كون البغي بمعنى الطلب نعم لو جعل نصبه على العلة أى انما بغيكم على أبناء جنسكم لاجل متاع الحياة الدنيا محذور كما اختاره بعضهم لكان له وجه فى الجملة لكن الحق الذى تقتضيه جزالة التنزيل انما هو الاول وقرىء متاع بالرفع على أنه الخبر والظرف صلة للمصدر أو خبر ثان أو خبر لمبتدا محذوف أى هو متاع الخ كما فى قوله تعالى «الا ساعة من نهار بلاغ» أى هذا بلاغ فالمراد بانفسهم على الوجه الاول أبناء جنسهم وانما عبر عنهم بذلك هزا لشفقتهم عليهم وحثا لهم على ترك ايثار التمتع المذكور على حقوقهم ولا مجال للحمل على الحقيقة لان كون بغيهم وبالا عليهم ليس بثابت عندهم حسبما يقتضيه ما حكى عنهم ولم يخبر به بعد حتى يجعل من تتمة الكلام ويجعل كونه متاعا مقصود الافادة على أن عنوان كونه وبالا عليهم قادح فى كونه متاعا فضلا عن كونه من مبادى ثبوته للمبتدا كما هو المتبادر من السوق وأما كون البغى على أبناء الجنس فمعلوم الثبوت عندهم ومتضمن لمبادي التمتع من أخذ المال والاستيلاء على الناس وغير ذلك وأما على الوجهين الاخيرين فلا موجب للعدول عن الحقيقة فان المبتدأ إما نفس البغى أو الضمير العائد عليه من حيث هو هو لا من حيث كونه وبالا عليهم كما فى صورة كون الظرف صلة للمصدر فتدبر وقرىء متاع الحياة الدنيا أما نصب متاعا فعلى ما مر وأما نصب الحياة فعلى أنه بدل من متاعا بدل اشتمال. وقيل على أنه مفعول به لمتاعا اذا لم يكن انتصابه على المصدرية لان المصدر المؤكد لا يعمل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا تمكر ولا تعن ماكرا ولا تبغ ولا تعن باغيا» ولا تنكث ولا تعن ناكثا وكان

يتلوها وقال محمد بن كعب «ثلاث من كن فيه كن عليه» البغي والنكث والمكر . قال تعالى انما بغيكم على أنفسكم وما يمكرون الا بانفسهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه وعنه عليه الصلاة والسلام أسرع الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغي واليمين الفاجرة وروى ثنتان يعجلهما الله تعالى فى الدنيا البغي وعقوق الوالدين وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لو بغى جبل على جبل لدك الباغي (ثم الينا مرجعكم) عطف على مامر من الجملة المستأنفة المقدرة كانه قيل تتمتعون متاع الحياة الدنيا ثم ترجعون الينا وانما غير السبك الى الجملة الاسمية مع تقديم الجار والمجرور للدلالة على الثبات والقصر (فننبئكم بما كنتم تعملون) فى الدنيا على الاستمرار من البغي وهو وعيد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت وفيه نكتة خفية مبنية على حكمة أبية وهى أن كل ما يظهر فى هذه النشأة من الاعيان والاعراض فانما يظهر بصورة مغايرة لصورته الحقيقة التى بها يظهر فى النشأة الآخرة فان المعاصى مثلا سموم قاتلة قد برزت فى الدنيا بصور تستحسنها نفوس العصاة . وكذا الطاعات مع كونها أحسن الاحاسن قد ظهرت عندهم بصور مكروهة ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» فالبغي فى هذه النشأة وان برز بصورة تشتهيها البغاة وتستحسنها الغواة لتمتعهم به من حيث أخذ المال والتشفى من الاعداء ونحو ذلك لكن ذلك ليس بتمتع فى الحقيقة بل هو تضرر من حيث لا يحتسبون وانما يظهر لهم ذلك عند ابراز ما كانوا يعملونه من البغي بصورته الحقيقية المضادة لما كانوا يشاهدونه على ذلك من الصورة وهو المراد بالتنبئة المذكورة والله سبحانه وتعالى أعلم (انما مثل الحياة الدنيا) كلام مستأنف مسوق لبيان شأن الحياة الدنيا وقصر مدة التمتع بها وقرب زمان الرجوع الموعود وقد شبه حالها العجيبة الشأن البديعة المثال المنتظمة لغرابتها فى سلك الامثال فى سرعة تقضيها وانصرام نعيمها غب اقبالها واغترار الناس بها بحال ما على الارض من أنواع النبات فى زوال رونقها ونضارتها فجأة وذهابها حطاما لم يبق لها أثر اصلا بعد ما كانت غضة طرية قد التف بعضها ببعض وازينت الارض بالوانها وتقوت بعد ضعفها بحيث طمع الناس وظنوا أنها سلمت من الجوائح وليس المشبه به مادخله الكاف فى قوله عز وجل (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض) بل مايفهم من الكلام فانه من التشبيه المركب (مما يأكل الناس والأنعام) من البقول والزروع والحشيش (حتى اذا أخذت الارض زخرفها) جعلت الارض فى تزينها بما عليها من أصناف النباتات وأشكالها وألوانها المختلفة المونقة آخذة زخرفها على طريقة التمثيل بالعروس التى قد أخذت من

ألوان الثياب والزين فتزينت بها (وازينت) أصله تزينت فأدغم وقرىء على الاصل وقرىء وأزينت كاغيلت من غير اعلال والمعنى صارت ذات زينة وازيانت كابياضت (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) متمكنون من حصدها ورفع غلتها (أتاها أمرنا) جواب اذا أى ضرب زرعها مايجتاحه من الآفات والعاهات (ليلا أو نهاراً فجعلناها) أى زرعها وسائر ما عليها (حصيداً) أى شبيها بما حصد من أصله (كأن لم تغن) كأن لم يغن زرعها والمضاف محذوف للمبالغة وقرىء بتذكير الفعل (بالأمس) أي فيما قبل بزمان قريب فان الامس مثل فى ذلك كأنه قيل لم تغن آنفا (كذلك) أى مثل ذلك التفصيل البديع (نفصل الآيات) أى الآيات القرآنية التى من جملتها هذه الآيات المنبهة على أحوال الحياة الدنيا أى نوضحها ونبينها (لقوم يتفكرون) فى تضاعيفها ويقفون على معانيها وتخصيص تفصيلها بهم لأنهم المنتفعون بها ويجوز أن يراد بالآيات ماذكر فى اثناء التمثيل من الكائنات والفاسدات وبتفصيلها تصريفها على الترتيب المحكى إيجاداواعداما فانها آيات وعلامات يستدل بها من يتفكر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالا ومآلا (والله يدعو الى دار السلام) ترغيب للناس فى الحياة الأخروية الباقية أثر ترغيبهم عن الحياة الدنيوية الفانية أى يدعوا الناس جميعا الى دار السلامة عن كل مكروه وآفة وهي الجنة وانما ذكرت بهذا الاسم لذكر الدنيا بما يقابله من كونها معرضا للآفات أو الى دار الله تعالى وتخصيص الاضافة التشريفية بهذا لاسم الكريم للتنبيه على ذلك أو الى دار يسلم الله والملائكة فيها على من يدخلها أو يسلم بعضهم على بعض (ويهدى من يشاء) هدايته منهم (الى صراط مستقيم) موصل اليها وهو الاسلام والتزود بالتقوى وفى تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الارادة وأن من أصر على الضلالة لم يرد الله رشده (للذين أحسنوا) أى أعمالهم أى عملوها على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك» (الحسنى) أى المثوبة الحسنى (وزيادة) أى ومايزيد على تلك المثوبة تفضلا لقوله عز اسمه «ويزيدهم من فضله» وقيل الحسنى مثل حسناتهم والزيادة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف وأكثر وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان وقيل الحسنى الجنة والزيادة اللقاء (ولا يرهق وجوههم) أي لا يغشاها (قتر) غبرة فيها سواد (ولا ذلة) أى أثر هوان وكسوف بال والمعنى لا يرهقهم مايرهق أهل النار أولا يرهقهم مايوجب ذلك من الحزن وسوء الحال والتنكير للتحقير أى شيء منهما

والجملة مستأنفة لبيان أمنهم من المكاره أثر بيان فوزهم بالمطالب والثاني وان اقتضى الاول إلا أنه ذكر أذكارا بما ينقذهم الله تعالى منه برحمته وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان أن المصون من الرهق أشرف أعضائهم وللتشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة لوروده فعند وروده عليها يتمكن عندها فضل تمكن ولان فى الفاعل ضرب تفصيل كما فى قوله تعالى « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وقوله عز وجل « وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (أولئك) اشارة الى المذكورين باعتبار اتصافهم بالصفات المذكورة ومافى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان بعلو درجتهم وسمو طبقتهم أى أولئك الموصوفون بما ذكر من النعوت الجميلة الفائزون بالمثوبات الناجون عن المكاره (أصحاب الجنة هم فيها خالدون) بلا زوال دائمون بلا انتقال (والذين كسبوا السيآت) أى الشرك والمعاصى وهو مبتدأ بتقدير المضاف خبره قوله تعالى (جزاء سيئة بمثلها) أى جزاء الذين كسبوا السيئات أن يجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها كما يزاد فى الحسنة وتغيير السبك حيث لم يقل « وللذين كسبوا السيئات السوأى » لمراعاة مابين الفريقين من كمال التنائى والتباين وإيراد الكسب للايذان بأن ذلك إنما هو لسوء صنيعهم وبسبب جنايتهم على أنفسهم أو الموصول معطوف على الموصول الاول كأنه قيل وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها كقولك فى الدار زيد والحجرة عمرو . وفيه دلالة على أن المراد بالزيادة الفضل (وترهقهم ذلة) وأى ذلة كما ينبئ عنه التنوين التفخيمى وفى اسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم إيذان بأنها محيطة بهم غاشية لهم جميعاً . وقرئ يرهقهم بالياء التحتانية (ما لهم من الله من عاصم) أى لا يعصمهم أحد من سخطه وعذابه تعالى أو مالهم من عنده تعالى من يعصمهم كما يكون للمؤمنين وفى نفى العاصم من المبالغة فى نفى العصمة مالا يخفى والجملة مستأنفة أو حال من ضمير ترهقهم (كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل) لفرط سوادها وظلمتها (مظلما) حال من الليل والعامل فيه أغشيت لأنه العامل فى قطعاً وهو موصوف بالجار والمجرور والعامل فى الموصوف عامل فى الصفة أو معنى الفعل فى من الليل وقرئ قطعا بسكون الطاء وهو طائفة من الليل قال :

افتحى الباب وانظرى فى النجوم .. كم علينا من قطع ليل بهيم

فيجوز كون مظلما صفة له أو حالا منه وقرئ كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم والجملة كما قبلها مستأنفة أو حال من ضمير ترهقهم (أولئك) أى الموصوفون

بما ذكر من الصفات الذميمة (أصحاب النار هم فيها خالدون) وحيث كانت الآية الكريمة فى حق الكفار بشهادة السياق والسباق لم يكن فيها تمسك للوعيدية (ويوم نحشرهم) كلام مستأنف مسوق لبيان بعض آخر من أحوالهم الفظيعة وتأخيره فى الذكر مع تقدمه فى الوجود على بعض أحوالهم المحكية سابقا للايذان باستقلال كل من السابق واللاحق بالاعتبار ولو روعى الترتيب الخارجى لعد الكل شيئا واحدا كما مر فى قصة البقرة ولذلك فصل عما قبله ويوم منصوب على المفعولية بمضمر أى أنذرهم أو ذكرهم وضمير نحشرهم لكلا الفريقين الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات لأنه المتبادر من قوله تعالى (جميعا) ومن افراد الفريق الثانى بالذكر فى قوله تعالى (ثم نقول للذين أشركوا) أى نقول للمشركين من بينهم ولأن توبيخهم وتهديدهم على رءوس الاشهاد أفظع والاخبار بحشر الكل فى تهويل اليوم أدخل وتخصيص وصف اشراكهم بالذكر فى حيز الصلة من بين سائر ما اكتسبوه من السيئات لابتناء التوبيخ والتقريع عليه مع ما فيه من الايذان بكونهم معظم جناياتهم وعمدة سيئاتهم وقيل للفريق الثانى خاصة فيكون وضع الموصول موضع الضمير لما ذكر آنفا (مكانكم) نصب على أنه فى الأصل ظرف لفعل أقيم مقامه لا على أنه اسم فعل وحركته حركة بناء كما هو رأى الفارسى أى الزموه حتى تنظروا ما يفعل بكم (أنتم) تأكيد للضمير المنتقل اليه من عامله لسده مسده (وشركاؤكم) عطف عليه وقرىء بالنصب على أن الواو بمعنى مع (فزيلنا) من زلت الشىء عن مكانه أزيله أى أزلته والتضعيف للتكثير لا للتعدية وقرىء فزايلنا بمعناه نحو كلمته وكالمته وهو معطوف على نقول وايثار صيغة الماضى للدلالة على التحقق المورث لزيادة التوبيخ والتحسير والفاء للدلالة على وقوع التزييل ومباديه عقيب الخطاب من غير مهلة ايذانا بكمال رخاوة ما بين الفريقين من العلاقة والوصلة أى ففرقنا (بينهم) وقطعنا أقرانهم والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا لكن لا من الجانبين بل من جانب العبدة فقط لعدم احتمال شمول الشركاء للشياطين كما سيجىء فخابت آمالهم وانصرمت عرى أطماعهم وحصل لهم اليأس الكلى من حصول ما كانوا يرجونه من جهتهم والحال وان كانت معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب لكن هذه المرتبة من اليقين انما حصلت عند المشاهدة والمشافهة وقيل المراد بالتزييل التفريق الحسى أى فباعدنا بينهم بعد الجمع فى الموقف وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم كما فى قوله تعالى «أينما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا» فالواو حينئذ فى قوله تعالى (وقال شركاؤهم) حالية بتقدير كلمة قد عند من

يشترطها وبدونه عند غيره لا عاطفة كما فى التفسير الاول لاستدعاء المحاورة المحاضرة الفائتة بالمباعدة وليس فى ترتيب التنزيل بهذا المعنى على الامر بلزوم المكان ما فى ترتيبه عليه بالمعنى الاول من النكتة المذكورة ليصار لاجل رعايتها إلى تغيير الترتيب الخارجى فان المباعدة بعد المحاورة حتما وأما قطع الاقران والعلائق فليس كذلك بل ابتداؤه حاصل من حين الحشر بل بعض مراتبه حاصل قبله أيضا وانما الحاصل عند المحاورة أقصاها كما أشير اليه فلا اعتداد بما فى تقديمه من التغيير لا سيما مع رعاية ما ذكر من النكتة ولو سلم تأخر جميع مراتبه عن المحاورة فمراعاة تلك النكتة كافية فى استدعاء تقديمه عليها ويجوز أن تكون حالية على هذا التقدير أيضا والمراد بالشركاء قيل الملائكة وعزير والمسيح وغيرهم ممن عبدوه من أولى العلم ففيه تأييد لرجوع الضمير الى الكل وقولهم (ما كنتم ايانا تعبدون) عبارة عن تبريهم من عبادتهم وأنهم انما عبدوا فى الحقيقة أهواءهم وشياطينهم الذين أغووهم لانها الآمرة لهم بالاشتراك دونهم كقولهم «سبحانك أنت ولينا من دونهم» الآية وقيل الأصنام ينطقها الله الذى أنطق كل شيء فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التى كانوا يتوقعونها (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) فانه العليم الخبير (أن كنا عن عبادتكم لغافلين) أى عن عبادتكم لنا وتركه للظهور والايذان بكمال الغفلة عنها والغفلة عبارة عن عدم الارتضاء والا فعدم شعور الملائكة بعبادتهم لهم غير ظاهر وهذا يقطع احتمال كون المراد بالشركاء الشياطين كما قيل فان ارتضاءهم باشراكهم مما لاريب فيه وان لم يكونوا مجبرين لهم على ذلك وان مخففة من أن واللام فارقة (هنالك) أى فى ذلك المقام الدهش أو فى ذلك الوقت على استعارة ظرف المكان للزمان (تبلوا) أى تختبر وتذوق (كل نفس) مؤمنة كانت أو كافرة سعيدة أو شقية (ما أسلفت) من العمل وتعاينه بكنهه مستتبعا لآثاره من نفع أو ضر وخير أو شر وأما ماعملت من حالها من حين الموت والابتلاء بالعذاب فى البرزخ فأمر مجمل وقرىء نبلو بنون العظمة ونصب كل وابدال ما منه أى نعاملها معاملة من يبلوها ويتعرف أحوالها من السعادة والشقاوة باختبار ماأسلفت من العمل ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء أى العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر فتكون ما منصوبة بنزع الخافض وقرىء تتلو أى تتبع لان عملها هو الذى يهديها إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار أو تقرأ فى صحيفة أعمالها ما قدمت من خير أو شر (وردوا) الضمير للذين أشركوا على أنه معطوف على زيلنا و ما عطف عليه وقوله عز وجل هنالك تبلوا الخ

اعتراض فى أثناء الحكاية مقرر لمضمونها (إلى الله) أى الى جزائه وعقابه (مولاهم) ربهم (الحق) أى المتحقق الصادق ربوبيته لاما اتخذوه ربا باطلا وقرىء الحق بالنصب على المدح كقولهم الحمد لله أهل الحمد أو على المصدر المؤكد (وضل عنهم) وضاع أى ظهر ضياعه وضلاله لا أنه قبل ذلك غير ضال أو ضل فى اعتقادهم أيضا (ما كانوا يفترون) من أن آلهتهم تشفع لهم أو ما كانوا يدعون أنها آلهة هذا وجعل الضمير فى ردوا للنفوس المدلول عليها بكل نفس على أنه معطوف على تبلوا وأن العدول إلى الماضى للدلالة على التحقق والتقرر وأن إيثار صيغة الجمع للايذان بأن ردهم إلى الله يكون على طريقة الاجتماع لايلائمه التعرض لوصف الحقية فى قوله تعالى مولاهم الحق فانه للتعريض بالمردودين حسبما أشير اليه ولئن اكتفى فيه بالتعريض ببعضهم أو حمل الحق على معنى العدل فى الثواب والعقاب فقوله عز وجل « وضل عنهم ما كانوا يفترون » مما لا مجال فيه للتدارك قطعا فان ما فيه من الضمائر الثلاثة للمشركين فيلزم التفكيك حتما وتخصيص كل نفس بالنفوس المشركة مع عموم البلوى للكل يأباه مقام تهويل المقام والله تعالى أعلم (قل) أى لاولئك المشركين الذين حكيت أحوالهم وبين ما يؤدي اليه أعمالهم احتجاجا على حقية التوحيد وبطلان ماهم عليه من الاشراك (من يرزقكم من السماء و الارض) أي منهما جميعا فان الارزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية أو من كل واحدة منهما توسعة عليكم وقيل من لبيان كلمة من على حذف المضاف أى من أهل السماء والارض (أم من يملك السمع والابصار) أم منقطعة وما فيها من كلمة بل للاضراب عن الاستفهام الاول لكن لا على طريقة الابطال بل على وجه الانتقال وصرف الكلام عنه الى استفهام آخر تنبيها على كفايته فيما هو المقصود أى من يستطيع خلقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما من أدنى شيء يصيبهما (ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) أى ومن يحيى ويميت أو ومن ينشىء الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان (ومن يدبر الأمر) أى ومن يلي تدبير أمر العالم جميعا وهو تعميم بعد تخصيص بعض ما اندرج تحته من الامور الظاهرة بالذكر (فسيقولون) بلا تلعثم ولا تأخير (الله) إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه والخبر محذوف أى الله يفعل ماذكر من الافاعيل لاغيره (فقل) عند ذلك تبكيتا لهم (أفلا تتقون) الهمزة لانكار عدم الاتقاء بمعنى انكار الواقع كما فى أتضرب أباك لا بمعنى انكار الوقوع كما فى أأضرب أبي والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أى

أتعلمون ذلك فلا تقون أنفسكم عذابه الذى ذكر لكم بما تتعاطونه من إشراككم به مالا يشاركه فى شيء مما ذكر من خواص الآلهية (فذلكم) فذلكم لما تقدم أى ذلكم الذى اعترفتم باتصافه بالنعوت المذكورة وهو مبتدأ وقوله تعالى (الله) خبره وقوله تعالى (ربكم) أى مالككم ومتولى أموركم على الاطلاق بدل منه أو بيان له وقوله تعالى (الحق) صفة له أى ربكم الثابت ربوبيته والمتحقق ألوهيته تحققا لاريب فيه (فماذا) يجوز أن يكون الكل اسما واحدا قد غلب فيه الاستفهام على اسم الاشارة وأن يكون ذاموصولا بمعنى الذى أى ماالذى (بعد الحق) أى غيره بطريق الاستعارة واظهار الحق أما لان المراد به غير الاول وأما لزيادة التقرير ومراعاة كمال المقابلة بينه وبين الضلال والاستفهام انكارى بمعنى انكار الوقوع ونفيه أى ليس غير الحق (إلا الضلال) الذى لايختاره أحد فحيث ثبت أن عبادة من هو منعوت بما ذكر من النعوت الجميلة حق ظهر أن ماعداها من عبادة الاصنام ضلال محض اذ لا واسطة بينهما وانما سميت ضلالا مع كونها من أعمال الجوارح باعتبار ابتنائها على ماهو ضلال من الاعتقاد والرأى هذا على تقدير كون الحق عبارة عن التوحيد وأما على تقدير كونه عبارة عن الاول فالمراد بالضلال هو الاصنام لاعبادتها والمعنى فماذا بعد الرب الحق الثابت ربوبيته إلا الضلال أى الباطل الضائع المضمحل وانما سمي بالمصدر مبالغة كأنه نفس الضلال والضياع وهذا أنسب بقوله تعالى « وضل عنهم ما كانوا يفترون » على التفسير الثانى (فأنى تصرفون) استفهام انكارى بمعنى انكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه وفيه من المبالغة ماليس فى توجيه الانكار الى نفس الفعل لان كل موجود لابد من أن يكون وجوده على حال من الاحوال قطعا فاذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهانى كما مر مرارا والفاء لترتيب الانكار على ماقبله أى كيف تصرفون من الحق الذى لامحيد عنه وهو التوحيد الى الضلال عن السبيل المستبين وهو الاشراك وعبادة الاصنام أو من عبادة ربكم الحق الثابت ربوبيته الى عبادة الباطل الذي سمعتم ضلاله وضياعه فى الآخرة وفى إيثار صيغة المبنى للمفعول إيذان بأن الانصراف من الحق الى الضلال مما لايصدر عن العاقل بارادته وانما يقع عند وقوعه بالقسر من جهة صارف خارجي (كذلك) أى كما حقت الربوبية لله تعالى أو كما أنه ليس بعد الحق إلا الضلال أو أنهم مصروفون عن الحق (حقت كلمت ربك) وحكمه وقضاؤه (على الذين فسقوا) أى تمردوا فى الكفر وخرجوا من أقصى حدوده (أنهم لايؤمنون) بدل من الكلمة أو تعليل لحقيتها والمراد بها العدة بالعذاب (قل هل من شركائكم)

احتجاج آخر على حقية التوحيد وبطلان الاشراك باظهار كون شركائهم بمعزل من استحقاق الالهية ببيان اختصاص خواصها من بدء الخلق واعادته به سبحانه وتعالى وانما لم يعطف على ماقبله إيذاناً باستقلاله فى إثبات المطلوب والسؤال للتبكيت والالزام وقد جعلت هلية الاعادة وتحققها لوضوح مكانها وسنوح برهانها بمنزلة بدء الخلق فنظمت فى سلكه حيث قيل (من يبدأ الخلق ثم يعيده) إيذانا بتلازمهما وجودا وعلما يستلزم الاعتراف بها وان صدهم عن ذلك ما بهم من المكابرة والعناد ثم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يبين لهم من يفعل ذلك فقيل له (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أى هو يفعلهما لاغيركائنا ما كان لابأن ينوب عليه الصلاة والسلام عنهم فى ذلك كما قيل لان القول المأمور به غير ما أريد منهم من الجواب وان كان مستلزما له اذ ليس المسئول عنه من يبدأ الخلق ثم يعيده كما فى قوله تعالى «قل من رب السموات والارض قل الله» حتى يكون القول المأمور به عين الجواب الذي أريد منهم ويكون عليه الصلاة والسلام نائبا عنهم فى ذلك بل انما هو وجود من يفعل البدء والاعادة من شركائهم فالجواب المطلوب منهم لا لاغير. نعم أمر عليه الصلاة والسلام بأن يضمنه مقالته إيذانا بتعينه وتحققه واشعارا بأنهم لايجترؤن على التصريح به مخافة التبكيت والقام الحجر لامكابرة ولجاجا فتدبر. واعادة الجملة فى الجواب بتمامها غير محذوفة الخبر كما فى الجواب السابق لمزيد التأكيد والتحقيق (فأنى تؤفكون) الافك الصرف والقلب عن الشيء وقد خص بالقلب عن الرأى وهو الانسب بالمقام أي كيف تقلبون من الحق الى الباطل والكلام فيه كما ذكر فى تصرفون (قل هل من شركائكم) احتجاج آخر على ماذكر جيء به الزاما لهم غب الزام والحاما أثر الحام وفصله عما قبله لما ذكر من الدلالة على استقلاله (من يهدى الى الحق) أى بوجه من الوجوه فان أدنى مراتب المعبودية هداية المعبود لعبدته الى ما فيه صلاح أمرهم وأما تعيين طريق الهداية وتخصيصه بنصب الحجج وارسال الرسل والتوفيق للنظر والتدبر كما قيل فمخل بما يقتضيه المقام من كمال التبكيت والالزام فان العجز عن الهداية على وجه خاص لا يستلزم العجز عن مطلق الهداية. وهدى كما يستعمل بكلمة الى لتضمنه معنى الانتهاء يستعمل باللام للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية وأنها تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك استعمل بها ما أسند الى الله تعالى حيث قيل (قل الله يهدى للحق) أى هو يهدى له دون غيره وذلك بما ذكر من نصب الادلة والحجج وارسال الرسل وانزال الكتب والتوفيق للنظر والتدبر وغير ذلك من فنون الهدايات والكلام فى الامر بالسؤال والجواب كما مر فيما مر (أفمن يهدى

الى الحق)وهو الله عزوجل (أحق أن يتبع أمن لا يهدى) بكسر الهاء أصله يهتدى فأدغم وكسرت الهاء لالتقاء الساكنين وقرىء بكسر الياء اتباعا لها لحركة الهاء وقرىء بفتح الهاء نقلا لحركة التاء اليها أي لا يهتدى بنفسه فضلا عن هداية غيره وفيه من المبالغة مالا يخفي وانما نفى عنه الاهتداء مع أن المفهوم مما سبق نفى الهداية لما أن نفيها مستتبع لنفيه غالبا فان من اهتدى الى الحق لا يخلو عن هداية غيره في الجملة وأدناها كونه قدوة له بأن يراه فيسلك مسلكه من حيث لا يدرى والفاء لترتيب الاستفهام على ماسبق من تحقق هدايته تعالى صريحا وعدم هداية شركائهم المفهوم من القصر ومن عدم الجواب المنبيء عن الجواب بالعدم فان ذلك مما يضطرهم الى الجواب الحق لا لتوجيه الاستفهام الى الترتيب كما يقع في بعض المواقع فان ذلك مختص بالانكارى كما في قوله تعالى «أفمن اتبع رضوان الله» الخ ونحوه والهمزة متأخرة في الاعتبار وانما تقديمها في الذكر لاظهار عراقتها في اقتضاء الصدارة كما هو رأى الجمهور حتى لو كان السؤال بكلمة أى لاخرت حتما ألا يرى الى قوله تعالى «فأى الفريقين أحق بالامن» أثر تقدير ما يلجىء المشركين الى الجواب من حالهم وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء لا يهدى بمعنى لا يهتدى لمجيئه لازما أو لا يهدى غيره. وصيغة التفضيل اما على حقيقتها والمفضل عليه محذوف كما اختاره مكى والتقدير أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع ممن لا يهدى أم من لا يهدي أحق الخ واما بمعنى حقيق كما اختاره أبو حيان وأياما كان فالاستفهام للالزام وأن يتبع في حيز النصب أو الجر بعد حذف الجار على الخلاف المعروف أى بأن يتبع (الا أن يهدى) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى لا يهتدى أو لا يهدى غيره في حال من الاحوال الا حال هدايته تعالى له الى الاهتداء أو الى هداية الغير وهذا حال اشراف شركائهم من الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام وقيل المعنى أم من لا يهتدى من الاوثان الى مكان فينتقل اليه الا أن ينقل اليه أو الا أن ينقله الله تعالى من حاله الى أن يجعله حيوانا مكلفا فيهديه وقرىء الا أن يهدى من التفعيل للمبالغة (فمالكم) أى أى شيء لكم في اتخاذكم هؤلاء شركاء لله سبحانه وتعالى. والاستفهام للانكار التوبيخي وفيه تعجيب من حالهم وقوله تعالى (كيف تحكمون) أى بما يقضى صريح العقل ببطلانه انكار لحكمهم الباطل وتعجب منه وتشنيع لهم بذلك والفاء لترتيب كلا الانكارين على ما ظهر من وجوب اتباع الهادى الى الحق. ان قلت التبكيت بالاستفهام السابق انما يظهر في حق من يعكس جوابه الصحيح فيحكم بأحقية من لا يهدى بالاتباع دون من يهدى وهم ليسوا حاكمين بأحقية شركائهم لذلك دون الله سبحانه وتعالى بل باستحقاقهما جميعا مع رجحان جانبه تعالى حيث يقولون

هؤلاء شفعاؤنا عند الله قلت حكمهم باستحقاقه تعالى للاتباع بطريق الاشتراك حكم منهم بعدم استحقاقه تعالى لذلك بطريق الاستقلال فصاروا حاكمين باستحقاق شركائهم له دون الله تعالى من حيث لا يحتسبون (وما يتبع أكثرهم) كلام مبتدأ غير داخل في حيز الامر مسوق من قبله تعالى لبيان عدم فهمهم لمضمون ما أفحمهم وألقمهم الحجر من البرهان النير الموجب لاتباع الهادى الى الحق الناعى عليهم بطلان حكمهم وعدم تأثرهم من ذلك لعدم اهتدائهم الى طريق العلم أصلا أى ما يتبع أكثرهم فى معتقداتهم ومحاوراتهم (الا ظنا) واهيا من غير التفات الى فرد من أفراد العلم فضلا عن أن يسلكوا مسالك الأدلة الصحيحة الهادية الى الحق المبنية على المقدمات اليقينية الحقة فيفهموا مضمونها و يقفوا على صحتها و بطلان ما يخالفها من أحكامها الباطلة فيحصل التبكيت والالزام فالمراد بالاتباع مطلق الاعتقاد الشامل لما يقارن القبول والانقياد و ما لا يقارنه وبالقصر ما أشير اليه من أن لا يكون لهم فى أثنائه اتباع لفرد من أفراد العلم و التفات اليه. ووجه تخصيص هذا الاتباع بأكثرهم الاشعار بأن بعضهم قد يتبعون العلم فيقفون على حقيقة التوحيد و بطلان الشرك لكن لا يقبلونه مكابرة وعنادا فيحصل بالنسبة اليهم التأثر من البرهان المزبور وان لم يظهروه وكونهم أشد كفرا و أكثر عذابا من الفريق الأول لا يقدح فيما يفهم من فحوى الكلام عرفا من كون أولئك أسوأ حالا من غيرهم إذ المعتبر سوء الحال من حيث الفهم والادراك لا من حيث الكفر والعذاب أو ما يتبع أكثرهم مدة عمرهم الا ظنا ولا يتركونه أبدا فان حرف النفي الداخل على المضارع يفيد استمرار النفي بحسب المقام فالمراد بالاتباع حينئذ هو الاذعان والانقياد والقصر باعتبار الزمان ووجه تخصيص هذا الاتباع بأكثرهم مع مشاركة المعاندين لهم فى ذلك التلويح بما سيكون من بعضهم من اتباع الحق والتوبة كما سيأتى. هذا وقد قيل المعنى وما يتبع أكثرهم فى اقرارهم بالله تعالى الا ظنا غير مستند الى برهان عندهم. وقيل وما يتبع أكثرهم فى قولهم للاصنام أنها آلهة الا ظنا والمراد بالأكثر الجميع فتأمل وقيل الضمير فى أكثرهم للناس فلا حاجة الى التكلف (ان الظن لا يغنى من الحق) من العلم اليقيني والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع (شيئا) من الاغناء ويجوز أن يكون مفعولا به ومن الحق حالا منه والجملة استئناف لبيان شأن الظن وبطلانه وفيه دلالة على وجوب العلم فى الاصول وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد (ان الله عليم بما يفعلون) وعيد لهم على أفعالهم القبيحة فيندرج تحتها ما حكى عنه من الاعراض عن البراهين القاطعة والاتباع للظنون الفاسدة اندراجا أوليا وقرىء تفعلون بالالتفات الى الخطاب لتشديد الوعيد (وما كان هذا القرآن)

شروع فى بيان ردهم للقرآن الكريم أثر بيان ردهم للأدلة العقلية المندرجة فى تضاعيفه أى وما صح و ما استقام أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الهدايات المستوجبة للاتباع التى من جملتها هاتيك الحجج البينة الناطقة بحقية التوحيد و بطلان الشرك (ان يفترى من دون الله) أى افتراء من الخلق أى مفترى منهم سمى بالمصدر مبالغة (ولكن تصديق الذى بين يديه) من الكتب الالهية المشهود على صدقها أى مصدقا لها كيف لا وهو لكونه معجزا دونها عيار عليها شاهد بصحتها ونصبه بأنه خبر كان مقدرا وقد جوز كونه علة لفعل محذوف تقديره لكن أنزله الله تصديق الخ وقرىء بالرفع على تقدير المبتدا أى ولكن هو تصديق الخ (وتفصيل الكتاب) عطف عليه نصبا ورفعا أى و تفصيل ما كتب وأثبت من الحقائق والشرائع (لاريب فيه) خبر ثالث داخل فى حكم الاستدراك أى منتفيا عنه الريب أو حال من الكتاب وان كان مضافا اليه فانه مفعول فى المعنى أو استئناف لامحل له من الاعراب (من رب العالمين) خبر آخر أى كائنا من رب العالمين أو متعلق بتصديق أو بتفصيل أو بالفعل المعلل بهما و لاريب فيه اعتراض كما فى قولك زيد لاشك فيه كريم أو حال من الكتاب أو من الضمير فى فيه ومساق الآية الكريمة بعد المنع عن اتباع الظن لبيان مايجب اتباعه (أم يقولون افتراه) أى بل يقولون افتراه محمد عليه الصلاة والسلام و الهمزة لانكار الواقع واستبعاده (قل) تبكيتا لهم واظهارا لبطلان مقالتهم الفاسدة ان كان الأمر كما تقولون (فأتوا بسورة مثله) أى فى البلاغة وحسن الصياغة و قوة المعنى على وجه الافتراء فانكم مثلى فى العربية و الفصاحة وأشد تمرنا منى فى النظم والعبارة و قرىء بسورة مثله على الاضافة أى بسورة كتاب مثله (وادعوا) للمظاهرة والمعاونة (من استطعتم) دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التى تزعمون أنها ممدة لكم فى المهمات والملمات ومداركم الذين تلجؤن الى آرائهم فى كل ماتأتون وماتذرون (من دون الله) متعلق بادعوا ودون جار مجرى أداة الاستثناء وقد مر تفصيله فى قوله تعالى «وادعوا شهداءكم من دون الله» أى ادعوا سواه تعالى من استطعتم من خلقه فانه لايقدر عليه أحد واخراجه سبحانه من حكم الدعاء للتنصيص على براءتهم منه تعالى وكونهم فى عدوة المضادة والمشاقة لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ماكلفوه فان ذلك مما يوهم أنهم لودعوه تعالى لأجابهم اليه (ان كنتم صادقين) أى فى أنى افتريته فان ذلك مستلزم لامكان الاتيان بمثله وهو أيضا مستلزم لقدرتكم عليه والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) أضراب وانتقال عن أظهار بطلان ماقالوا فى حق القرآن العظيم بالتحدى الى

اظهاره ببيان أنه كلام ناشىء عن جهلهم بشأنه الجليل فما عبارة عن كله لا عما فيه من ذكر البعث والجزاء وما يخالف دينهم كما قيل فأنه مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن مثله أى سارعوا إلى تكذيبه آثر ذى أثير من غير أن يتدبروا فيه ويقفوا على مافى تضاعيفه من الشواهد الدالة على كونه كما وصف آنفا ويعلموا أنه ليس مما يمكن أن يكون له نظير يقدر عليه المخلوق والتعبير عنه بما لم يحيطوا بعلمه دون أن يقال بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحو ذلك للايذان بكمال جهلهم به وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به وبان تكذيبها به انما هو بسبب عدم علمهم به لما أن إدارة الحكم على الموصول مشعرة بعلية مافى حيز الصلة له (ولما يأتهم تأويله) عطف على الصلة أو حال من الموصول أى ولم يقفوا بعد على تأويله ولم يبلغ أذهانهم معانيه الرائقة المنبئة من علو شأنه والتعبير عن ذلك باتيان التأويل للاشعار بأن تأويله متوجه إلى الاذهان منساق اليها بنفسه أو لم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الاخبار بالغيوب حتى يتبين أنه صدق أم كذب والمعنى أن القرآن معجز من جهة النظم والمعنى ومن جهة الاخبار بالغيب وهم فاجؤا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفكروا فى معناه أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الامور المستقبلة ونفى أتيان التأويل بكلمة لما الدالة على التوقع بعد نفى الاحاطة بعلمه بكلمة لم لتأكيد الذم وتشديد التشنيع فان الشناعة فى تكذيب الشىء قبل علمه المتوقع أتيانه أفحش منها فى تكذيبه قبل علمه مطلقا والمعنى أنه كان يجب عليهم أن يتوقفوا إلى زمان وقوع المتوقع فلم يفعلوا وأما أن المتوقع قد وقع بعد وأنهم استمروا عند ذلك أيضا على ما هم عليه أولا فلا تعرض له ههنا والاستشهاد عليه بعدم انقطاع الذم أو ادعاء أن قولهم افتراه تكذيب بعد التدبر ناشىء من عدم التدبر فتدبر كيف لا وهم لم يقولوه بعد التحدى بل قبله وادعاء كونه مسبوقا بالتحدى الوارد فى سورة البقرة يرده أنها مدنية وهذه مكية وانما الذى يدل عليه ماسيتلى عليك من قوله تعالى « ومنهم من يؤمن به ومنهم » الخ وقوله تعالى (كذلك) الخ وصف لحالهم المحكى وبيان لما يؤدى اليه من العقوبة أى مثل ذلك التكذيب المبنى على بادى الرأى والمجازفة من غير تدبر وتأمل (كذب الذين من قبلهم) أى فعلوا التكذيب أو كذبوا ما كذبوا من المعجزات التى ظهرت على أيدى أنبيائهم أو كذبوا أنبياءهم (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) وهم الذين من قبلهم من المكذبين وانما وضع المظهر موضع المضمر للايذان بكون التكذيب ظلما أو بعليته لاصابة ما أصابهم من سوء العاقبة وبدخول هؤلاء الظالمين فى زمرتهم جرما ووعيدا دخولا أوليا وقوله عز وجل (ومنهم)

الخ وصف لحالهم بعد اتيان التأويل المتوقع إذ حينئذ يمكن تنويعهم الى المؤمن وغير المؤمن ضرورة امتناع الايمان بشىء من غير علم به واشتراك الكل فى التكذيب والكفر به قبل ذلك حسبما أفاده قوله تعالى « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » أى ومن هؤلاء المكذبين (من يؤمن به) عند الاحاطة بعلمه وأتيان تأويله وظهور حقيته بعد ماسمعوا فى المعارضة ووازوا قواهم فيها فتضاءلت دونها أو بعد ماشاهدوا وقوع ما أخبر به كما أخبر به مراراً . ومعنى الايمان به اما الاعتقاد بحقيته فقط أى يصدق به فى نفسه و يعلم أنه حق ولكنه يعاند و يكابر وهؤلاء هم الذين أشير بقصر اتباع الظن على أكثرهم الى انهم يعلمون الحق على التفسير الاول كما أشير اليه فيما سلف وأما الايمان الحقيقى أى سيؤمن به و يتوب عن الكفر وهم الذين أشير بالقصر المذكور على التفسير الثانى الى أنهم سيتبعون الحق كما مر (ومنهم من لا يؤمن به) أى لا يصدق به فى نفسه كما لا يصدق به ظاهرا لفرط غباوته المانعة عن الاحاطة بعلمه كما ينبغى وان كان فوق مرتبة عدم الاحاطة به أصلا أو لسخافة عقله واختلال تمييزه وعجزه عن تخليص علومه عن مخالطة الظنون والاوهام التى ألفها فيبقى على ما كان عليه من الشك وهذا القدر من الاحاطة وأتيان التأويل كاف فى مقابلة ماسبق من عدم الاحاطة بالمرة وهؤلاء هم الذين أريدوا فيما سلف بقوله عز وجل « وما يتبع أكثرهم ألا ظنا » على التفسير الاول أو لا يؤمن به فيما سيأتى بل يموت على كفره معاندا كان أو شاكا وهم المستمرون على اتباع الظن على التفسير الثانى من غير اذعان للحق وانقياد له (وربك أعلم بالمفسدين) أى بكلا الفريقين على الوجه الاول لا بالمعاندين فقط كما قيل لاشتراكهما فى أصل الافساد المستدعى لاشتراكهما فى الوعيد أو بالمصرين الباقين على الكفر على الوجه الثانى من المعاندين والشاكين (وأن كذبوك) أى ان تموا على تكذيبك وأصروا عليه حسبما أخبر عنهم بعد الزام الحجة بالتحدى (فقل لى عملى ولكم عملكم) أى تبرأ منهم فقد أعذرت كقوله تعالى « فان عصوك فقل انى برىء » والمعنى لى جزاء عملى و لكم جزاء عملكم حقا كان أو باطلا وتوحيد العمل المضاف اليهم باعتبار الاتحاد النوعى ولمراعاة كمال المقابلة (أنتم بريؤن مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) تأكيد لما أفادته لام الا ختصاص من عدم تعدى جزاء العمل الى غير عامله أى لا تؤ اخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم ولما فيه من ايهام المتاركة وعدم التعرض لهم قيل انه منسوخ بآية السيف (ومنهم من يستمعون أليك) بيان لكونهم مطبوعا على قلوبهم بحيث لا سبيل الى ايمانهم . وانما جمع الضمير الراجع الى كلمة

من رعاية لجانب المعنى كما أفرد فيما سيأتى محافظة على ظاهر اللفظ ولعل ذلك للايماء الى كثرة المستمعين بناء على عدم توقف الاستماع على مايتوقف عليه النظر من المقابلة وانتفاء الحجاب والظلمة أى ومنهم ناس يستمعون اليك عندقراءتك القرآن وتعليمك الشرائع (أفأنت تسمع الصم) همزة الاستفهام انكاريه والفاء عاطفة وليس الجمع بينهما لترتيب انكار الاسماع على الاستماع كما هو رأى سيبويه والجمهور على أن يجعل تقديم الهمزة على الفاء لاقتضائها الصدارة كما تقرر فى موضعه بل لانكار ترتبه عليه حسبما هو المعتاد لكن لابطريق العطف على الفعل المذكور لادائه الى اختلال المعنى لانه اما صلة أوصفة وأيا ما كان فالعطف عليه يستدعى دخول المعطوف فى حيزه وتوجه الانكار اليه من تلك الحيثية ولاريب فى فساده بل بطريق العطف على مقدر مفهوم من من فحوى النظم كانه قيل أيستمعون اليك فانت تسمعهم لاانكارا لاستماعهم فانه أمر محقق بل انكارا لوقوع الاسماع عقيب ذلك وترتبه عليه حسب العادة الكلية بل نفيا لامكانه أيضا كما ينبىء عنه وضع الصم موضع ضميرهم ووصفهم بعدم العقل بقوله تعالى (ولو كانوا لا يعقلون) أى ولو انضم الى صممهم عدم عقولهم لان الأصم العاقل ربما تفرس اذا وصل الى صماخه صوت وأما اذا اجتمع فقدان السمع والعقل جميعا فقد تم الامر (ومنهم من ينظر اليك) ويعاين دلائل نبوتك الواضحة (أفأنت) أى أعقيب ذلك أنت تهديهم وانما قيل (تهدى العمى) تربية لانكار هدايتهم وابرازا لوقوعها فى معرض الاستحالة وقد أكد ذلك حيث قيل (ولو كانوا لا يبصرون) أى ولو انضم الى عدم البصر عدم البصيرة فان المقصود من الابصار الاعتبار والاستبصار والعمدة فى ذلك هى البصيرة ولذلك يحدث الاعمى المستبصر ويتفطن لما لا يدركه البصير الاحمق فحيث اجتمع فيهم الحمق والعمى فقد انسد عليهم باب الهدى وجواب لو فى الجملتين محذوف لدلالة قوله تعالى تسمع الصم تهدى العمى عليه وكل منهما معطوفة على جملة مقدرة مقابلة لها فى الفحوى كلتاهما فى موضع الحال من مفعول الفعل السابق أى أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون أفأنت تهدى العمى لو كانوا يبصرون ولو كانوا لايبصرون أى على كل حال مفروض وقد حذفت الاولى فى الباب حذفا مطردا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة فان الشىء اذا تحقق عند تحقق المانع أو المانع القوى فلأن يتحقق عند عدمه أو عند تحقق المانع الضعيف أولى وعلى هذه النكتة يدور ما فى لو وان الوصليتين من التاكيد وقد مر الكلام فى قوله تعالى «ولو كره الكافرون» ونظائره مرارا (أن الله لا يظلم الناس) اشارة الى أن ما حكى عنهم من عدم اهتدائهم

الى طريق الحق وتعطل مشاعرهم من الادراك ليس لامر مستند الى الله عز وجل من خلقهم موفى المشاعر ونحو ذلك بل انما هو من قبلهم أى لا ينقصهم (شيئا) مما نيط به مصالحهم الدينية والدنيوية وكمالاتهم الاولوية والاخروية من مبادى ادراكاتهم وأسباب علومهم من المشاعر الظاهرة والباطنة والارشاد الى الحق بارسال الرسل وانزال الكتب بل يوفيهم ذلك من غير اخلال بشىء أصلا (ولكن الناس) وقرىء بالتخفيف ورفع الناس وضع الظاهر موضع الضمير لزيادة تعيين وتقرير أى لكنهم بعدم استعمال مشاعرهم فيما خلقت له واعراضهم عن قبول دعوة الحق وتكذيبهم للرسل والكتب (أنفسهم يظلمون) أى ينقصوٴن ما ينقصون مما يخلون به من مبادى كمالهم وذرائع اهتدائهم وانما لم يذكر لما أن مرمى الغرض انما هو قصر الظلم على أنفسهم لا بيان ما يتعلق به الظلم. والتعبير عن فعلهم بالنقص مع كونه تفويتا بالكلية وابطالا بالمرة لمراعاة جانب قرينته وقوله عز وجل «أنفسهم» اما تأكيد للناس فيكون بمنزلة ضمير الفصل فى قوله تعالى «وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين» فى قصر الظالمية عليهم واما مفعول ليظلمون حسبما وقع فى سائر المواقع . وتقديمه عليه لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد الى قصر المظلومية عليهم على رأى من لا يرى التقديم موجبا للقصر فيكون كما فى قوله تعالى «وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم» من غير قصر للظلم لا على الفاعل ولا على المفعول وأما على رأى من يراه موجبا له فلعل ايثار قصرها دون قصر الظالمية عليهم للمبالغة فى بيان بطلان أفعالهم وسخافة عقولهم لما أن أقبح الامرين عند اتحاد الفاعل والمفعول وأشدهما أنكارا عند العقل ونفرة لدى الطبع وأوجبهما حذرا منه عند كل أحد هو المظلومية لا الظالمية على أن قصر الاولى عليهم مستلزم لما يقتضيه ظاهر الحال من قصر الثانية عليهم ضرورة أنه اذا لم يظلم أحد من الناس الا نفسه يلزم أن لا يظلمه الا نفسه اذ لو ظلمه غيره يلزم كون ذلك الغير ظالما لغير نفسه والمفروض أن لا يظلم أحد الا نفسه فاكتفى بالقصر الاول عن الثانى مع رعاية ما ذكر من الفائدة وصيغة المضارع للاستمرار نفيا واثباتا فان حرف النفى اذا دخل على المضارع يفيد بحسب المقام استمرار النفى لا نفى الاستمرار ألا يرى أن قولك ما زيدا ضربت يدل على اختصاص النفى لا على نفى الاختصاص ومساق الآية الكريمة لالزام الحجة ويجوز أن يكون للوعيد فالمضارع المنفى للاستقبال والمثبت للاستمرار والمعنى ان الله لا يظلمهم بتعذيبهم يوم القيامة شيئا من الظلم ولكنهم أنفسهم يظلمون ظلما مستمرا فان مباشرتهم المستمرة للسيئات الموجبة للتعذيب عين ظلمهم لأنفسهم وعلى الوجهين فالآية الكريمة تذييل لما سبق

(ويوم يحشرهم) منصوب بمضمر . وقرىء بالنون على الالتفات أى اذكر لهم أو أنذرهم يوم يحشرهم (كأن لم يلبثوا) أى كأنهم لم يلبثوا (إلا ساعة من النهار) أى شيئا قليلا منه فانها مثل فى غاية القلة وتخصيصها بالنهار لان ساعاته أعرف حالا من ساعات الليل والجملة فى موقع الحال من ضمير المفعول أى يحشرهم مشبهين فى أحوالهم الظاهرة للناس بمن لم يلبث فى الدنيا ولم يتقلب فى نعيمها الا ذلك القدر اليسير فان من أقام بها دهرا وتمتع بمتاعها لا يخلو عن بعض آثار نعمة وأحكام بهجة منافية لما بهم من رثاثة الهيئة وسوء الحال أو بمن لم يلبث فى البرزخ إلا ذلك المقدار ففائدة التقييد بيان كمال يسر الحشر بالنسبة الى قدرته تعالى ولو بعد دهر طويل واظهار بطلان استبعادهم وانكارهم بقولهم « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون » ونحو ذلك أو بيان تمام الموافقة بين النشأتين فى الاشكال والصور فان قلة اللبث فى البرزخ من موجبات عدم التبدل والتغير فيكون قوله عز وعلا (يتعارفون بينهم) بيانا وتقريرا له لان التعارف مع طول العهد ينقلب تناكرا وعلى الاول يكون استئنافا أى يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا الا قليلا وذلك أول ما خرجوا من القبور اذ هم حينئذ على ما كانوا عليه من الهيئة المتعارفة فيما بينهم ثم ينقطع التعارف بشدة الاهوال المذهلة واعتراء الاحوال المعضلة المغيرة للصور والاشكال المبدلة لها من حال الى حال (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله) شهادة من الله سبحانه وتعالى على خسرانهم وتعجب منه وقيل حال من ضمير يتعارفون على ارادة القول والتعبير عنهم بالموصول مع كون المقام مقام اضمار لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعليته لما أصابهم والمراد بلقاء الله ان كان مطلق الحساب والجزاء أو حسن اللقاء فالمراد بالخسران الوضيعة والمعنى وضعوا فى تجاراتهم ومعاملاتهم واشترائهم الكفر بالايمان والضلالة بالهدى ومعنى قوله تعالى (وما كانوا مهتدين) ما كانوا عارفين بأحوال التجارة مهتدين لطرقها وان كان سوء اللقاء فالخسار الهلاك والضلال أى قد ضلوا وهلكوا بتكذيبهم وما كانوا الى طريق النجاة (وأما نرينك) أصله أن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة أكد الفعل بالنون أى بنصرتك بأن نظهر لك (بعض الذى نعدهم) أى وعدناهم من العذاب ونعجله فى حياتك فتراه والعدول الى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار أى نعدهم وعدا متجددا حسبما تقتضيه الحكمة من انذار غب انذار وفى تخصيص البعض بالذكر رمز الى العدة بأراءة بعض الموعود وقد أراه يوم بدر (أو نتوفينك) قبل ذلك (فألينا مرجعهم) أى كيفما دارت الحال أريناك بعض ما وعدناهم

أو لا فالينا مرجعهم فى الدنيا والآخرة فننجز ما وعدناهم ألبتة . وقيل المذكور جواب للشرط الثانى كانه قيل فالينا مرجعهم فنريكه فى الآخرة وجواب الاول محذوف لظهوره أى فذاك (ثم الله شهيد على ما يفعلون) من الافعال السيئة التى حكيت عنهم والمراد بالشهادة اما مقتضاها ونتيجتها وهى معاقبته تعالى اياهم واما اقامتها وأداؤها بأنطاق الجوارح . واظهار اسم الجلالة لادخال الروعة وتربية المهابة وتأكيد التهديد وقرىء ثمة أى هناك (ولكل أمة) من الامم الخالية (رسول) يبعث اليهم بشريعة خاصة مناسبة لاحوالهم ليدعوهم الى الحق (فاذا جاء رسولهم) فبلغهم ما أرسل به فكذبوه وخالفوه (قضى بينهم) أى بين كل أمة ورسولها (بالقسط) بالعدل وحكم بنجاة الرسول والمؤمنين به وهلاك المكذبين كقوله تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (وهم لا يظلمون) فى ذلك القضاء المستوجب لتعذيبهم لانه من نتائج أعمالهم أو ولكل أمة من الامم يوم القيامة رسول تنسب اليه وتدعى به فاذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والايمان كقوله عز وجل « وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم » (ويقولون متى هذا الوعد) استعجالا لما وعدوا من العذاب على طريقة الاستهزاء به والانكار حسبما يرشد اليه الجواب لا طلبا لتعيين وقت مجيئه على وجه الالزام كما فى سورة الملك (ان كنتم صادقين) أى فى أنه يأتينا والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآيات المتضمنة للوعد المذكور وجواب الشرط محذوف اعتمادا على ما تقدم حسبما حذف فى مثل قوله تعالى « فائتنا بما تعدنا أن كنت من الصادقين » فان الاستعجال فى قوة الامر بالاتيان عجلة كانه قيل فليأتنا عجلة ان كنتم صادقين ولما فيه من الاشعار بكون اتيانه بواسطة النبى صلى الله عليه وسلم قيل (قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا) أى لا أقدر على شىء منهما بوجه من الوجوه وتقديم الضر لما أن مساق النظم لاظهار العجز عنه وأما ذكر النفع فلتوسيع الدائرة تكملة للعجز وما وقع فى سورة الاعراف من تقديم النفع للاشعار بأهميته والمقام مقامه والمعنى انى لا أملك شيئا من شئونى ردا وإيرادا مع أن ذلك أقرب حصولا فكيف أملك شئونكم حتى أتسبب فى اتيان عذابكم الموعود (الا ماشاء الله) استثناء منقطع أى ولكن ماشاء الله كائن وحمله على الاتصال على معنى الا ماشاء الله أن أملكه يأباه مقام التبرؤ من ان يكون له عليه السلام دخل فى اتيان الوعد فان ذلك يستدعى بيان كون المتنازع فيه مما لا يشاء الله أن يملكه عليه السلام . وجعل ما عبارة عن بعض الاحوال المعهودة المنوطة بالافعال الاختيارية المفوضة الى العباد على أن يكون المعنى

لاأملك لنفسى شيئا من الضر والنفع الا ماشاء الله أن أملكه منهما من الضر والنفع المترتبين على أفعالى الاختيارية كالضر والنفع المترتبين على الاكل والشرب عدما ووجودا تعسف ظاهر وقوله تعالى (لكل أمة أجل) بيان لما أبهم فى الاستثناء وتقييد لما فى القضاء السابق من الاطلاق المشعر بكون المقضى به أمرا منجزا غير متوقف على شئ غير مجئ الرسول وتكذيب الامة أى لكل أمة أمة من قضى بينهم وبين رسولهم أجل معين خاص بهم لايتعدى الى أمة أخرى مضروب لعذابهم يحل بهم عند حلوله (أذا جاء أجلهم) ان جعل الاجل عبارة عن حد معين من الزمان فمعنى مجيئه ظاهر وان أريد به ماامتد اليه من الزمان فمجيئه عبارة عن انقضائه أذ هناك يتحقق مجيئه بتمامه والضمير ان جعل للامم المدلول عليها بكل أمة فاظهار الاجل مضافا اليه لافادة المعنى المقصود الذى هو بلوغ كل أمة أجلها الخاص بها ومجيئه اياها بعينها من بين الامم بواسطة اكتساب الاجل بالاضافة عموما يفيده معنى الجمعية كانه قيل اذا جاءهم آجالهم بأن يجئ كل واحدة من تلك الامم أجلها الخاص بها وان جعل لكل أمة خاصة كماهو الظاهر فالاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاضافة الى الضمير لافادة كمال التعيين أى اذا جاءها أجلها الخاص بها (فلا يستأخرون) عن ذلك الاجل (ساعة) أى شيئا قليلا من الزمان فانها مثل فى غاية القلة منه أى لا يتأخرون عنه أصلا . وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له (ولا يستقدمون) أى لا يتقدمون عليه وهو عطف على يستأخرون لكن لالبيان انتفاء التقدم مع امكانه فى نفسه كالتأخر بل للمبالغة فى انتفاء التأخر بنظمه فى سلك المستحيل عقلا كما فى قوله سبحانه وتعالى «وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار» فان من مات كافرا مع ظهور أن لاتوبة له رأسا قد نظم فى عدم قبول التوبة فى سلك من سوفها الى حضور الموت ايذانا بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة كما مر فى سورة الاعراف وقد جوز أن يراد بمجىء الاجل دنوه بحيث يمكن التقدم فى الجملة كمجىء اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة معينة منه لكن ليس فى تقييد عدم الاستئخار بدنوه مزيد فائدة . وتقديم بيان انتفاء الاستئخار على بيان انتفاء الاستقدام لان المقصود الاهم بيان عدم خلاصهم من العذاب ولو ساعة وذلك بالتأخر وأماما فى قوله تعالى «ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون» من سبق السبق فى الذكر فلما أن المراد هناك بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم له حسبما ينبىء عنه

قوله عز وجل «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون» فالأمم اذ
ذاك بيان انتفاء السبق كما ذكر هناك (قل) لهم غب مابينت كيفية جريان سنة الله
عز وجل فيما بين الأمم على الاطلاق ونبهتهم على أن عذابهم أمر مقرر محتوم لايتوقف
إلا على مجيء أجله المعلوم ايذانا بكمال دنوه وتنزيلا له منزلة اتيانه حقيقة (أرأيتم)
أى أخبروني (ان أتاكم عذابه) الذى تستعجلون به (بياتا) أى وقت بيات
واشتغال بالنوم (أونهاراً) أى عند اشتغالكم بمشاغلكم حسبما عين لكم من الأجل
بمقتضى المشيئة التابعة للحكمة كما عين لسائر الأمم المهلكة وقوله عز وجل (ماذا
يستعجل منه المجرمون) جواب للشرط بحذف الفاء كما فى قولك: أن أتيتك ماذا تطعمنى
والمجرمون موضوع موضع المضمر لتأكيد الانكار ببيان مباينة حالهم للاستعجال
فان حق المجرم أن يهلك فزعا من اتيان العذاب فضلا عن استعجاله . والجملة الشرطية
متعلقة بأرأيتم والمعنى أخبرونى إن أتاكم عذابه تعالى أى شيء تستعجلون منه سبحانه
والشيء لايمكن استعجاله بعد اتيانه والمراد به المبالغة فى انكار استعجاله باخراجه عن
حيز الامكان وتنزيله فى الاستحالة منزلة استعجالة بعد اتيانه بناء على تنزيل تقرر اتيانه
ودنوه منزلة اتيانه حقيقة كما أشير اليه وهذا الانكار بمنزلة النهي فى قوله عز وعلا
«أتى أمر الله فلا تستعجلوه» خلا أن التنزيل هناك صريح وهنا ضمنى كما فى قول من
قال لغريمه الذى يتقاضاه حقه أرأيت أن أعطيتك حقك فماذا تطلب منى يريد المبالغة
فى إنكار التقاضى بنظمه فى سلك التقاضى بعد الاعطاء بناء على تنزيل تقرره منزلة
نفسه وقوله عز وجل (أثم إذا ماوقع آمنتم به) أنكار لايمانهم بنزول العذاب بعد
وقوعه حقيقة داخل مع ماقبله من أنكار استعجالهم به بعد اتيانه حكما تحت القول
المأمور به أى أبعد ماوقع العذاب وحل بكم حقيقة آمنتم به حين لاينفعكم الايمان
إنكاراً لتأخيره إلى هذا الحد وإيذانا باستتباعه للندم والحسرة ليقلعوا عما هم عليه من
العناد ويتوجهوا نحو التدارك قبل فوت الوقت فتقدم الظرف للقصر وقيل ماذا
يستعجل منه متعلق بأرأيتم وجواب الشرط محذوف أي تندموا على الاستعجال أو
تعرفوا خطأه والشرطية اعتراض مقرر لمضمون الاستخبار وقيل الجواب قوله تعالى
أثم إذا ماوقع الخ والاستفهامية الاولى اعتراض والمعنى أخبرونى إن أتاكم عذابه
آمنتم به بعد وقوعه حين لاينفعكم الايمان ثم جيء بكلمة التراخى دلالة على الاستبعاد
ثم زيد أداة الشرط دلالة على استقلاله بالاستبعاد وعلى الأول كالتمهيد له وجيء باذا
مؤكداً بما ترشيحاً لمعنى الوقوع وزيادة للتجهيل وأنهم لم يؤمنوا الابعد أن لم ينفعهم

الايمان ألبتة وقوله تعالى (آلآن) استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت القول الملقن مسوق لتقرير مضمون ماسبق على ارادة القول أى قيل لهم عند ايمانهم بعد وقوع العذاب آلآن أمنتم به إنكارا للتأخير وتوبيخا عليه ببيان أنه لم يكن ذلك لعدم سبق الانذار به ولا للتأمل والتدبر فى شأنه ولا لشىء آخر مما عسى يعد عذراً فى التأخير بل كان ذلك على طريق التكذيب والاستعجال به على وجه الاستهزاء وقرىء آلآن بحذف الهمزة وألقاء حركتها على اللام وقوله تعالى (وقد كنتم به تستعجلون) أى تكذيبا واستهزاء جملة وقعت حالا من فاعل آمنتم المقدر لتشديد التوبيخ والتقريع وزيادة التندم والتحسير. وتقديم الجار والمجرور على الفعل لمراعاة الفواصل دون القصر وقوله تعالى (ثم قيل) الخ تأكيد للتوبيخ والعتاب بوعيد العذاب والعقاب وهو عطف على ماقدر قبل آلآن (للذين ظلموا) أى وضعوا الكفر والتكذيب موضع الايمان والتصديق أو ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب والهلاك . ووضع الموصول موضع الضمير لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعليته لاصابة ما أصابهم (ذوقوا عذاب الخلد) المؤلم على الدوام (هل تجزون) اليوم (إلا بما كنتم تكسبون) فى الدنيا من أصناف الكفر والمعاصى التى من جملتها ما مر من الاستعجال (ويستنبئونك) أى يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاء أو الانكار (أحق هو) أحق خبر قدم على المبتدأ الذى هو الضمير للاهتمام به ويؤيده قوله تعالى انه لحق أو مبتدأ والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر والجملة فى موقع النصب بيستنبئونك. وقرىء ألحق هو تعريضا بأنه باطل كأنه قيل أهو الحق لا الباطل أو أهو الذى سميتموه الحق (قل) لهم غير ملتفت الى استهزائهم مغضيا عما قصدوا وبانيا للأمر على أساس الحكمة (أى وربى) أى من حروف الايجاب بمعنى نعم فى القسم خاصة كما أن هل بمعنى قد فى الاستفهام خاصة ولذلك يوصل بواوه (انه) أى العذاب الموعود (لحق) لثابت ألبتة أكد الجواب بأتم وجوه التأكيد حسب شدة إنكارهم وقوته وقد زيد تقريرا وتحقيقا بقوله عز اسمه (وما أنتم بمعجزين) أى بفائتين العذاب بالهرب وهو لاحق بكم لامحالة وهو اما معطوف على جواب القسم أو مستأنف سيق لبيان عجزهم عن الخلاص مع مافيه من التقرير المذكور (ولو أن لكل نفس ظلمت) بالشرك أو التعدى على الغير أو غير ذلك من أصناف الظلم ولو مرة حسبما يفيده كون الصفة فعلا (مافى الأرض) أى ما فى الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة بما كثرت (لافتدت به) أى لجعلته فدية لها من العذاب من افتداه بمعنى فداه (وأسروا) أى النفوس المدلول عليها بكل نفس والعدول الى صيغة الجمع مع تحقق العموم فى

صورة الافراد أيضا لافادة تهويل الخطب بكون الأسرار بطريق المعية والاجتماع وانما لم يراع ذلك فيما سبق لتحقيق مايتوخى من فرض كون جميع مافى الأرض لكل واحدة من النفوس. وإيثار صيغة جمع المذكر لحمل لفظ النفس على الشخص أو لتغليب ذكور مدلوله على اناثه (الندامة) على مافعلوا من الظلم أى أخفوها ولم يظهروها لكن لا للاصطبار والتجلد هيهات ولات حين اصطبار بل لأنهم بهتوا (لما رأوا العذاب) أى عند معاينتهم من فظاعة الحال وشدة الأهوال مالم يكونوا يحتسبون فلم يقدروا على أن ينطقوا بشيء فلما بمعنى حين منصوب بأسروا أو حرف شرط حذف جوابه لدلالة ماتقدم عليه وقيل أسرها رؤساؤهم ممن أضلوهم حياء منهم وخوفا من توبيخهم ولكن الأمر أشد من أن يعتريهم هنالك شيء غير خوف العذاب. وقيل أسروا الندامة أخلصوها لأن أسرارها اخلاصها أو لأن سر الشيء خالصته حيث تخفى ويضن بها ففيه تهكم بهم . وقيل أظهروا الندامة من قولهم سر الشيء وأسره اذا أظهره حين عيل صبره وفنى تجلده (وقضى بينهم) أى أوقع القضاء بين الظالمين من المشركين وغيرهم من الأصناف أهل الظلم بأن أظهر الحق سواء كان من حقوق الله سبحانه أو من حقوق العباد من الباطل وعومل أهل كل منهما بما يليق به (بالقسط) بالعدل وتخصيص الظلم بالتعدى وحمل القضاء على مجرد الحكومة بين الظالمين والمظلومين من غير أن يتعرض لحال المشركين وهم أظلم الظالمين لايساعده المقام فان مقتضاه اما كون الظلم عبارة عن الشرك أو عما يدخل فيه دخولا أوليا (وهم) أى الظالمون (لايظلمون) فيما فعل بهم من العذاب بل هو من مقتضيات ظلمهم ولوازمه الضرورية (ألا أن لله مافى السموات والأرض) أى ماوجد فيهما داخلا فى حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما وكلمة ما لتغليب غير العقلاء على العقلاء فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الاشياء وبيان لاندراج الكل تحت ملكوته يتصرف فيه كيفما يشاء إيجادا واعداما واثابة وعقابا (ألا أن وعد الله) اظهار الاسم الجليل لتفخيم شأن الوعد والاشعار بعلة الحكم وهو أما بمعنى الموعود أى جميع ماوعد به كائناما كان فيندرج فيه العذاب الذى استعجلوه وما ذكر فى أثناء بيان حاله اندراجا أوليا أو بمعناه المصدرى أى وعده بجميع ماذكر فمعنى قوله تعالى (حق) على الأول ثابت واقع لامحالة وعلى الثانى مطابق للواقع . وتصدير الجملتين بحرفى التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقق مضمونهما المقرر لمضمون ماسلف من الآيات الكريمة والتنبيه على وجوب استحضاره والمحافظة عليه (ولكن أكثرهم) لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم والفهم

بالأحوال المحسوسة المعتادة (لايعلمون) ذلك فيقولون مايقولون و يفعلون مايفعلون (هو يحيي و يميت)في الدنيا من غير دخل لاحد في ذلك (و اليه ترجعون) في الآخرة بالبعث و الحشر (ياأيها الناس) التفات ور جوع إلى استمالتهم نحو الحق واستنزالهم ألى قبوله و اتباعه غب تحذيرهم من غوائل الضلال بماتلى عليهم من القوارع الناعية عليهم سوء عاقبتهم و إيذان بان جميع ذلك مسوق لمصالحهم ومنافعهم (قدجاءتكم موعظة) هي والوعظ والعظة التذكير بالعواقب سواء كان بالزجر والترهيب أو بالاستمالة والترغيب و كلمة من في قوله تعالى (من ربكم) ابتدائية متعلقة بجاءتكم أو تبعيضية متعلقة بمحذوف و قع صفة لموعظة أي موعظة كائنة من مواعظ ربكم و في التعرض لعنوان الربوبية من حسن الموقع مالايخفى (وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين)أي كتاب جامع لهذه الفوائد والمنافع فانه كاشف عن أحوال الاعمال حسناتها وسيئاتها مرغب في الأولى و رادع عن الاخرى ومبين للمعارف الحقة التي هي شفاء لما في الصدور من الادواء القلبية كالجهل والشك و الشرك والنفاق وغيرها من العقائد الزائغة و هاد الى طريق الحق واليقين بالارشاد الى الاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والانفس و في مجيئه رحمة للمؤمنين حيث نجوا به من ظلمات الكفر و الضلال الى نور الايمان و تخلصوا من دركات النيران وارتقوا الى درجات الجنان . و التنكير في الكل للتفخيم (قل) تلوين للخطاب و توجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأمر الناس بأن يغتنموا مافي مجيء القرآن العظيم من الفضل و الرحمة (بفضل الله وبرحمته) المراد بهما اما مافي مجيء القرآن من الفضل و الرحمة واما الجنس وهما داخلان فيه دخولا أولياً والباء متعلقة بمحذوف وأصل الكلام ليفرحوا بفضل الله وبرحمته . وتكرير الباء في رحمته للايذان باستقلالها في استيجاب الفرح ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لافادة القصر ثم أدخل عليه الفاء لافادة معنى السببية فصار بفضل الله و برحمته فليفرحوا ثم قيل (فبذلك فليفرحوا) للتأكيد والتقرير ثم حذف الفعل الاول لدلالة الثاني عليه والفاء الاولى جزائية و الثانية للدلالة على السببية والاصل أن فرحوا بشيء فبذلك ليفرحوا لابشيء آخر ثم أدخل الفاء للدلالة على السببية ثم حذف الشرط ومعنى البعد في اسم الأشارة للدلالة على بعد درجة فضل الله تعالى ورحمته و يجوز أن يراد بفضل الله و برحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا ويجوز أن يتعلق الباء بجاءتكم أي جاءتكم موعظة بفضل الله و برحمته فبذلك أي فبمجيئها فليفرحوا . وقرىء فلتفرحوا وقرأ أبي فافرحوا وعن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل بفضل الله و برحمته فقال

«بكتاب الله والاسلام» وقيل فضله الاسلام ورحمته ما وعد عليه (هو) أى ما ذكر من فضل الله ورحمته (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا. وقرىء تجمعون أى فبذلك فليفرح المؤمنون هو خير مما تجمعون أيها المخاطبون (قل أرأيتم) أى أخبرونى (ما أنزل الله لكم من رزق) ما منصوبة المحل بما بعدها أو بما قبلها واللام للدلالة على أن المراد بالرزق ما حل لهم وجعله منزلا لانه مقدر فى السماء محصل هو أو ما يتوقف عليه وجوداً أو بقاء بأسباب سماوية من المطر والكواكب فى الانضاج والتلوين (فجعلتم منه) أى جعلتم بعضه (حراما) أى حكمتم بأنه حرام (وحلالا) أى وجعلتم بعضه حلالا أى حكمتم بحله مع كون كله حلالا وذلك قولهم «هذه أنعام وحرث حجر» الآية وقولهم «ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا» ومحرم على أزواجنا ونحو ذلك وتقديم الحرام لظهور أثر الجعل فيه ودوران التوبيخ عليه (قل) تكرير لتأكيد الامر بالاستخبار أى أخبرونى (آلله أذن لكم) فى ذلك الجعل فأنتم فيه ممتثلون بأمره تعالى (أم على الله تفترون) أم متصلة والاستفهام للتقرير والتبكيت لتحقق العلم بالشق الاخير قطعا كأنه قيل أم لم يأذن لكم بل تفترون عليه سبحانه فأظهر الاسم الجليل وقدم على الفعل دلالة على كمال قبح افترائهم وتأكيداً للتبكيت أثر تأكيد مع مراعاة الفواصل. ويجوز أن يكون الاستفهام للانكار وأم منقطعة ومعنى بل فيها الاضراب والانتقال من التوبيخ والزجر بانكار الاذن الى ما تفيده همزتها من التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريره. وتقديم الجار والمجرور على هذا يجوز أن يكون للقصر كأنه قيل بل أعلى الله تعالى خاصة تفترون (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب) كلام مسوق من قبله تعالى لبيان هول ما سيلقونه غير داخل تحت القول المأمور به والتعبير عنهم بالموصول فى موقع الاضمار لقطع احتمال الشق الاول من الترديد والتسجيل عليهم بالافتراء وزيادة الكذب مع أن الافتراء لا يكون إلا كذبا لاظهار كمال قبح ما افتعلوا وكونه كذبا فى اعتقادهم أيضا وكلمة ما استفهامية وقعت مبتدأ وظن خبرها ومفعولاه محذوفان وقوله عز وجل (يوم القيامة) ظرف لنفس الظن أى أى شىء ظنهم فى ذلك اليوم يوم عرض الافعال والاقوال والمجازاة عليها مثقالا بمثقال والمراد تهويله وتفظيعه بهول ما يتعلق به مما يصنع بهم يومئذ. وقيل هو ظرف لما يتعلق بظنهم اليوم من الامور التى ستقع يوم القيامة تنزيلا له ولما فيه من الاحوال لكمال وضوح أمره فى التقرر والتحقق منزلة المسلم عندهم أى أى شىء ظنهم لما سيقع يوم القيامة أيحسبون أنهم لا يسئلون عن افترائهم أو لا يجازون عليه أو يجازون جزاء يسيرا ولاجل ذلك يفعلون ما يفعلون

كلا أنهم لفى أشد العذاب لان معصيتهم أشد المعاصى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا . وقرىء على لفظ الماضى أى أى ظن ظنوا يوم القيامة . وإيراد صيغة الماضى لانه كائن فكأنه قد كان (أن الله لذو فضل) أي عظيم لا يكتنه كنهه (على الناس) أي جميعاً حيث أنعم عليهم بالعقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ورحمهم بانزال الكتب وارسال الرسل وبين لهم الاسرار التى لاتستقل العقول فى ادراكها وأرشدهم الى مايهمهم من أمر المعاش والمعاد (ولكن أكثرهم لايشكرون) تلك النعمة الجليلة فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم الى ماخلقت له ولايتبعون دليل العقل فيما يستبد به ولا دليل الشرع فيما لايدرك الابه وقد تفضل عليهم ببيان ماسيلقونه يوم القيامة فلا يلتفتون اليه فيقعون فيما يقعون فهو تذييل لما سبق مقرر لمضمونه (وما تكون فى شأن) أى فى أمر من شأنت شأنه أى قصدت قصده مصدر بمعنى المفعول (وماتتلوا منه) الضمير للشأن والظرف صفة لمصدر محذوف أى تلاوة كائنة من الشأن اذهى معظم شئونه عليه السلام أوللتنزيل والاضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ومن ابتدائية أو تبعيضية أولله عز وجل ومن ابتدائية والتى فى قوله تعالى (من قرآن) مزيدة لتأكيد النفى أوابتدائية على الوجه الاول وبيانية أوتبعيضية على الثانى والثالث (ولاتعملون من عمل) تعميم للخطاب أثر تخصيصه بمقتدى الكل وقد روعى فى كل من المقامين مايليق به حيث ذكر أولا من الاعمال مافيه فخامة وجلالة وثانيا مايتناول الجليل والحقير (إلا كنا عليكم شهوداً) استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالافعال الثلاثة أى ماتلابسون بشيء منها فى حال من الاحوال الاحال كوننا رقباء مطلعين عليه حافظين له (أذ تفيضون فيه) أى تخوضون وتندفعون فيه وأصل الافاضة الاندفاع بكثرة أو بقوة وحيث أريد بالافعال السابقة الحالة المستمرة الدائمة المقارنة للزمان الماضى أيضاً أوثر فى الاستثناء صيغة الماضى وفى الظرف كلمة أذ التى تفيد المضارع معنى الماضى (ومايعزب عن ربك) أى لايبعد ولايغيب عن علمه الشامل وفى التعرض لعنوان الربوبية من الاشعار باللطف مالايخفى . وقرىء بكسر الزاى (من مثقال ذرة) كلمة من مزيدة لتأكيد النفى أى مايعزب عنه مايساوى فى الثقل نملة صغيرة أوهباء (فى الارض ولافى السماء) أى فى دائرة الوجود والامكان فان العامة لاتعرف سواهما ممكنا ليس فى أحدهما أومتعلقا بهما . وتقديم الارض لان الكلام فى حال أهلها والمقصود إقامة البرهان على احاطة علمه تعالى بتفاصيلها وقوله تعالى (ولاأصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) كلام برأسه مقرر لما قبله ولا نافية

للجنس وأصغر اسمها وفى كتاب خبرها. وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر ومن عطف على لفظ مثقال ذرة وجعل الفتح بدل الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعاً كأنه قيل لايعزب عن ربك شيء ما لكن جميع الاشياء فى كتاب مبين فكيف يعزب عنه شيء منها. وقيل يجوز أن يكون الاستثناء متصلا ويعزب بمعنى يبين ويصدر والمعنى لايصدر عنه تعالى شيء إلا وهو فى كتاب مبين والمراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ (ألا أن أولياء الله) بيان على وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لاعمال المؤمنين وغاية لما ذكر قبله من كونه تعالى مهيمناً على نبيه عليه السلام وأمته فى كل مايأتون ومايذرون واحاطة علمه سبحانه بجميع مافى السماء والارض وكون الكل مثبتاً فى الكتاب المبين بعد ماأشير الى فظاعة حال المفترين على الله تعالى يوم القيامة وماسيعتريهم من الهول اشارة اجمالية على طريق التهديد والوعيد وصدرت الجملة بحرفى التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها والولى لغة القريب والمراد بأولياء الله خلص المؤمنين لقربهم الروحانى منه سبحانه وتعالى كما سيفصح عنه تفسيرهم (لاخوف عليهم) فى الدارين من لحوق مكروه (ولاهم يحزنون) من فوات مطلوب أى لايعتريهم مايوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لايخافون ولايحزنون ولا أنه لايعتريهم خوف وحزن أصلا بل يستمرون على النشاط والسرور كيف لا واستشعار الخوف والخشية استعظاماً لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارا للجد والسعى فى اقامة حقوق العبودية من خصائص الخواص والمقربين والمراد بيان دوام انتفائهما لابيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر فى الجملة الثانية مضارعا لمامر مراراً من أن النفى وان دخل على نفس المضارع يفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام وانما لايعتريهم ذلك لان مقصدهم ليس إلا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزلفى وذلك مما لاريب فى حصوله ولا احتمال لفواته بموجب الوعد بالنسبة اليه تعالى وأما ماعدا ذلك من الامور الدنيوية المترددة بين الحصول والفوات فهى بمعزل من الانتظام فى سلك مقصدهم وجودا وعدما حتى يخافوا من حصول ضارها أو يحزنوا بفوات نافعها وقوله عز وجل (الذين آمنوا) أى بكل ماجاء من عند الله تعالى (وكانوا يتقون) أى يقون أنفسهم عما يحق وقايتها عنه من الافعال والتروك وقاية دائمة حسبما يفيده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل بيان وتفسير لهم واشارة الى مابه نالوا مانالوا على طريقة الاستئناف المبنى على السؤال ومحل الموصول الرفع على انه خبر لمبتدا محذوف كأنه

قيل من أولئك وما سبب فوزهم بتلك الكرامة فقيل هم الذين جمعوا بين الايمان والتقوى المفضيين الى كل خير المنجيين عن كل شر. وقيل محله النصب أو الرفع على المدح أو على انه وصف مادح للاولياء ولا يقدح فى ذلك توسط الخبر، والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقى عن الشرك التى يفيدها الايمان أيضا ومرتبة التجنب عن كل مايؤثم من فعل وترك أعنى تنزه الانسان عن كل مايشغل سره عن الحق والتبتل اليه بالكلية وهى التقوى الحقيقة المأمور بها فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » وبه يحصل الشهود والحضور والقرب الذى عليه يدور اطلاق الاسم عليه وهكذا كان حال كل من دخل معه عليه السلام تحت الخطاب بقوله عز وجل «ولا تعملون من عمل» خلا أن لهم فى شأن التبتل والتنزه درجات متفاوتة حسب تفاوت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة المبنية على الحكم الأبية اقصاها ما انتهى اليه همم الانبياء عليهم السلام حتى جمعوا بذلك بين رياستى النبوة والولاية ولم يعقهم التعلق بعالم الأشباح عن الاستغراق فى عالم الارواح ولم تصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن التبتل الى جناب الحق لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية فملاك أمر الولاية هى التقوى المذكورة فاولياء الله هم المؤمنون المتقون ويقرب منه ماقيل من انهم الذين تولى الله هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة اليه ولايخالفه ماقيل من انهم الذين يذكر الله برؤيتهم لما روى عن سعيد بن جبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أولياء الله فقال هم الذين يذكر الله برؤيتهم أى بسمتهم وإخباتهم وسكينتهم ولا ما قيل من انهم المتحابون فى الله لما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « أن من عباد الله عبادا ليسوا بانبياء ولا شهداء يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله قالوا يارسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام منهم ولا أموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور لايخافون اذا خاف الناس ولايحزنون اذا حزن الناس» فانما ذكر من حسن السمت والسكينة المذكرة لله تعالى والتحاب فى الله سبحانه من الاحكام الدنيوية اللازمة للايمان والتقوى والآثار الخاصة بهما الحقيقة بالتخصيص بالذكر لظهورها وقربها من أفهام الناس قد أورد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من ذلك حسبما يقتضيه مقام الارشاد والتذكير ترغيبا للسائلين أو غيرهم من الحاضرين فيما خصه بالذكر هناك من أحكامها فلعل الحاضرين أولا كانوا محتاجين الى اصلاح الحال

من جهة الاقوال والافعال والملابس ونحو ذلك والحاضرين ثانيا مفتقرين الى تأليف قلوبهم وعطفها نحو المؤمنين الذين لا علاقة بينهم وبينهم من جهة النسب والقرابة وتأكيد ما بينهم من الاخوة الدينية ببيان عظم شأنها ورفعة مكانتها وحسن عاقبتها ليراعوا حقوقها ويهجروا من لا يوافقهم فى الدين من أرحامهم وأما ماذكر من انه يغبطهم الانبياء فتصوير لحسن حالهم على طريقة التمثيل قال الكواشى وهذا مبالغة والمعنى لوفرض قوم بهذه الصفة لكانوا هؤلاء. وقيل أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة. وجعل قوله عز وجل «الذين آمنوا وكانوا يتقون» تفسيرا لتوليهم اياه تعالى وقوله عز وجل (لهم البشرى فى الحيوة الدنيا وفى الآخرة) تفسيرا لتوليه تعالى اياهم ولا ريب فى أن اعتبار القيد الاخير فى مفهوم الولاية غير مناسب لمقام ترغيب المؤمنين فى تحصيلها والثبات عليها وبشارتهم بآثارها ونتائجها بل مخل بذلك اذ التحصيل انما يتعلق بالمقدور والاستبشار لايحصل الا بما علم وجود سببه والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتى يحصلوا الولاية بتحصيله ولا بمعلوم لهم عند حصوله حتى يعرفوا حصول الولاية لهم ويستبشروا بمحاسن آثارها بل التولى بالكرامة عين نتيجة الولاية فاعتباره فى عنوان الموضوع ثم الاخبار بعدم الخوف والحزن ممالايليق بشأن التنزيل الجليل فالذى يقتضيه نظمه الكريم أن الاول تفسير للاولياء حسبما شرح والثانى بيان لما أولاهم من خيرات الدارين بعد بيان انجائهم من شرورهما ومكارههما والجملة مستأنفة كما سبق كانه قيل هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة فقيل لهم مايسرهم فى الدارين. وتقديم الاول لما أن التخلية سابقة على التحلية مع ما فيه من مراعاة حق المقابلة بين حسن حال المؤمنين وسوء حال المفترين وتعجيل ادخال المسرة بتبشير الخلاص عن الاهوال وتوسيط البيان السابق بين بشارة الخلاص عن المحذور وبشارة الفوز بالمطلوب لاظهار كمال العناية بتفسير الاولياء مع الايذان بأن انتفاء الخوف والحزن لاتقائهم عما يؤدى اليهما من الاسباب. والبشرى مصدر أريد به المبشر به من الخيرات العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك والآجلة الغنيمة عن البيان. وايثار الابهام والاجمال للايذان بكونه وراء البيان والتفصيل والظرفان فى موقع الحال منه والعامل ما فى الخبر من معنى الاستقرار أى لهم البشرى حال كونها فى الحياة الدنيا وحال كونها فى الآخرة أى عاجلة وآجلة أو من الضمير المجرور أى حال كونهم فى الحياة الخ ومن البشرى العاجلة الثناء الحسن والذكر الجميل ومحبة الناس .. عن أبى ذر رضى الله عنه قلت يارسول الله الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال عليه السلام «تلك عاجل بشرى المؤمن»

هذا وقيل البشرى مصدر والظرفان متعلقان به » أما البشرى فى الدنيا فهى البشارات الواقعة للمؤمنين المتقين فى غير موضع من الكتاب المبين وعن النبى صلى الله عليه وسلم «هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له» وعنه عليه الصلاة والسلام «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات» وعن عطاء لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة قال الله تعالى تتنزل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة » وأما البشرى فى الآخرة فتلقى الملائكة اياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرون من بياض وجوههم واعطاء الصحائف بأيمانهم ومايقرءون منها وغير ذلك من البشارات فتكون هذه بشارة بما سيقع من البشارات العاجلة والآجلة المطلوبة لغاياتها لالذواتها ولايخفى أن صرف البشارة الناجزة عن المقاصد بالذات الى وسائلها مما لا يساعد جلالة شأن التنزيل الكريم (لا تبديل لكلمات الله) لا تغيير لاقواله التى من جملتها مواعيده الواردة بشارة للمؤمنين المتقين فيدخل فيها البشارات الواردة ههنا دخولا أوليا ويثبت امتناع الاخلاف فيها ثبوتا قطعيا وعلى تقدير كون المراد بالبشرى الرؤيا الصالحة فالمراد بعدم تبديل كلماته تعالى ليس عدم الخلف بينها وبين نتائجها الدنيوية والاخروية بل عدم الخلف بينها وبين مادل على ثبوتها ووقوعها فيما سيأتى بطريق الوعد من قوله تعالى «لهم البشرى» فتدبر (ذلك) اشارة الى ما ذكر من أن لهم البشرى فى الدارين (هو الفوز العظيم) الذى لا فوز وراءه وفيه تفسير لما أبهم فيما سبق وهاتيك الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرطه أن يكون بعده كلام متصل بما قبله أو هذه تذيل والسابقة اعتراض (ولا يحزنك قولهم) تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من جهتهم من الاذية الناشئة عن مقالتهم الموحشة وتبشير له عليه الصلاة والسلام بأنه عز وجل ينصره ويعزه عليهم أثر بيان أن له ولاتباعه أمنا من كل محذور وفوزا بكل مطلوب . وقرىء ولايحزنك من أحزنه وهو فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن الحزن كانه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بتكذيبهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك وابطال أمرك وسائر ما يتفوهون به فى شأنك مما لا خير فيه. وانما وجه النهى الى قولهم للمبالغة فى نهيه عليه السلام عن الحزن لما أن النهى عن التأثير نهى عن التأثر باصله ونفى له بالمرة وقد يوجه النهى الى اللازم والمراد هو النهى عن الملزوم كما فى قولك: لا أرينك ههنا. وتخصيص النهى عن الحزن بالايراد مع شمول النفى السابق للحزن أيضا لماأنه لم يكن فيه عليه السلام شائبة خوف حتى ينهى عنه وربما كان يعتريه عليه السلام فى بعض الاوقات نوع حزن فسلى عن

ذلك وقوله تعالى (ان العزة) تعليل للنهى على طريقة الاستئناف أى الغلبة والقهر (لله جميعا) أى فى ملكته وسلطانه لا يملك أحد شيئا منها أصلا لاهم ولا غيرهم فهو يقهرهم ويعصمك منهم وينصرك عليهم وقد كان كذلك فهى من جملة المبشرات العاجلة. وقرىء بفتح أن على صريح التعليل أى لان العزة لله (هو السميع العليم) يسمع ما يقولون فى حقك ويعلم ما يعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك (ألا أن لله من فى السموات ومن فى الارض) أى العقلاء من الملائكة والثقلين. وتخصيصهم بالذكر للايذان بعدم الحاجة الى التصريح بغيرهم فانهم مع شرفهم وعلو طبقتهم اذا كانوا عبيدا له سبحانه مقهورين تحت قهره وملكته فما عداهم من الموجودات أولى بذلك وهو مع ما فيه من التأكيد لما سبق من اختصاص العزة لله تعالى الموجب لسلوته عليه السلام وعدم مبالاته بالمشركين وبمقالاتهم تمهيد لما لحق من قوله تعالى (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) وبرهان على بطلان ظنونهم وأعمالهم المبنية عليها وما اما نافية وشركاء مفعول يتبع ومفعول يدعون محذوف لظهوره أى ما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فى الحقيقة وان سموها شركاء فاقتصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر. ويجوز أن يكون المذكور مفعول يدعون ويكون مفعول يتبع محذوفا لانفهامه من قوله تعالى (ان يتبعون الا الظن) أى ما يتبعون يقينا انما يتبعون ظنهم الباطل واما موصولة معطوفة على من كانه قيل ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أى وله شركاؤهم. وتخصيصهم بالذكر مع دخولهم فيما سبق عبارة أو دلالة للمبالغة فى بيان بطلان اتباعهم وفساد ما بنوه عليه من ظنهم شركاءهم معبودين مع كونهم عبيدا له سبحانه واما استفهامية أى وأى شىء يتبعون أى لا يتبعون شيئا ما يتبعون الا الظن والخيال الباطل كقوله تعالى «ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها» الخ وقرىء تدعون بالتاء فالاستفهام للتبكيت والتوبيخ كانه قيل وأى شىء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين تقريرا لكونهم متبعين لله تعالى مطيعين له وتوبيخا لهم على عدم اقتدائهم بهم فى ذلك كقوله تعالى «أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة» ثم صرف الكلام عن الخطاب الى الغيبة فقيل ان يتبع هؤلاء المشركون الا الظن ولا يتبعون ما يتبعه الملائكة والنبيون من الحق (وان هم الا يخرصون) يكذبون فيما ينسبونه اليه سبحانه ويحزرون ويقدرون أنهم شركاء تقديرا باطلا (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) تنبيه على تفرده تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة ليدلهم على توحده سبحانه باستحقاق العبادة وتقريرا لما سلف من كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكته المفصح عن اختصاص

العزة به سبحانه والجعل ان كان بمعنى الابداع والخلق فبصرا حال والا فلكم مفعوله الثاني أو هو حال كما في الوجه الاول والمفعول الثاني لتسكنوا فيه أو هو محذوف يدل عليه المفعول الثاني من الجملة الثانية كما أن العلة الغائية منها محذوفة اعتمادا على ما في الاولى والتقدير هو الذي جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه والنهار مبصرا لتتحركوا فيه لمصالحكم كما سيجيء نظيره في قوله تعالى «وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله» الآية فحذف في كل واحد من الجانبين ما ذكر في الآخر اكتفاء بالمذكور عن المتروك . واسناد الابصار الى النهار مجازي كالذي في نهاره صائم (أن في ذلك) أي في جعل كل منهما كما وصف أو فيهما وما في اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه وعلو رتبته (لآيات) عجيبة كثيرة أو آيات أخر غير ما ذكر (لقوم يسمعون) أي هذه الآيات المتلوة ونظائرها المنبهة على تلك الآيات التكوينية الآمرة بالتأمل فيها سماع تدبر واعتبار فيعملون بمقتضاها وتخصيص الآيات بهم مع أنها منصوبة لمصلحة الكل لما انهم المنتفعون بها (قالوا) شروع في ذكر ضرب آخر من أباطيلهم وبيان بطلانه (اتخذ الله ولدا) أي تبناه (سبحانه) تنزيه وتقديس له عما نسبوا اليه وتعجيب من كلمتهم الحمقاء (هو الغني) على الاطلاق عن كل شيء في كل شيء وهو علة لتنزيهه سبحانه وايذان بأن اتخاذ الولد من أحكام الحاجة وقوله عز وجل (له ما في السموات وما في الارض) أي من العقلاء وغيرهم تقرير لغناه وتحقيق لمالكيته تعالى لكل ماسواه وقوله تعالى (ان عندكم من سلطان) أي حجة (بهذا) أي بما ذكر من قولهم الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع عن المعارض فمن في قوله تعالى من سلطان زائدة لتأكيد النفي وهو مبتدأ والظرف المقدم خبره أو مرتفع على أنه فاعل للظرف لاعتماده على النفي وبهذا متعلق اما بسلطان لانه بمعنى الحجة والبرهان واما بمحذوف وقع صفة له واما بما في عندكم من معنى الاستقرار كانه قيل ان عندكم في هذا القول من سلطان والالتفات الى الخطاب لمزيد المبالغة في الالزام والافحام وتأكيد ما في قوله تعالى (أتقولون على الله ما لا تعلمون) من التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلاقهم وفيه تنبيه على ان كل مقالة لا دليل عليها فهي جهالة وأن العقائد لا بد لها من برهان قطعي وأن التقليد بمعزل من الاعتداد به (قل) تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين لهم سوء مغبتهم ووخامة عاقبتهم (ان الذين يفترون على الله الكذب) أي في كل أمر فيدخل ما نحن بصدده من الافتراء بنسبة الولد والشريك اليه سبحانه دخولا أوليا (لا يفلحون) أي لا ينجون من مكروه ولا

يفوزون بمطلوب أصلا وتخصيص عدم النجاة والفوز بما يندرج فى ذلك من عدم النجاة من النار وعدم الفوز بالجنة لايناسب مقام المبالغة فى الزجر عن الافتراء عليه سبحانه (متاع فى الدنيا) كلام مستأنف سيق لبيان أن مايتراءى فيهم بحسب الظاهر من نيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيوية على الاطلاق أو فى ضمن افترائهم بمعزل من أن يكون من جنس الفلاح كأنه قيل كيف لايفلحون وهم فى غبطة ونعيم فقيل هو متاع يسير فى الدنيا وليس بفوز بالمطلوب ثم أشير الى انتفاء النجاة عن المكروه أيضا بقوله عز وعلا (ثم الينا مرجعهم) أى بالموت (ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) فيبقون فى الشقاء المؤبد بسبب كفرهم المستمر أو بكفرهم فى الدنيا فأين هم من الفلاح وقيل المبتدأ المحذوف حياتهم أو تقلبهم وقد قيل انه افتراؤهم ولا يخفى أن المتاع انما يطلق على مايكون متبوعا عند النفس مرغوبا فيه فى نفسه يتمتع وينتفع به وانما عدم الاعتداد به لسرعة زواله ونفس الافتراء عليه سبحانه أقبح القبائح عند النفس فضلا عن أن يكون مطبوعا عندها وعده كذلك باعتبار اجراء حكم مايؤدى اليه من رياستهم عليه مما لاوجه له فالوجه ماذكر أولا وليس ببعيد ماقيل أن المحذوف هو الخبر أى لهم متاع والآية اما مسوقة من جهة الله تعالى لتحقيق عدم افلاحهم غير داخلة فى الكلام المأمور به كما يقتضيه ظاهر قوله تعالى «ثم الينا» وقوله تعالى «ثم نذيقهم» وأما داخلة فيه على أن النبى عليه الصلاة والسلام مأمور بنقله وحكايته عنه عز وجل (واتل عليهم) أى على المشركين من أهل مكة وغيرهم لتحقيق ما سبق من أنهم لايفلحون وأن مايتمتعون به على جناح الفوات وأنهم مشرفون على العذاب الخالد (نبأ نوح) أى خبره الذى له شأن وخطر مع قومه الذين هم أضراب قومك فى الكفر والعناد ليتدبروا مافيه من زوال ماتمتعوا به من النعيم وحلول عذاب الغرق الموصول بالعذاب المقيم لينزجروا بذلك عما هم عليه من الكفر أو تنكسر شدة شكيمتهم أو يعترف بعضهم بصحة نبوتك بأن عرفوا أن ماتتلوه موافقا لما ثبت عندهم من غير مخالفة بينهما أصلا مع علمهم بأنك لم تسمع ذلك من أحد ليس الا بطريق الوحى . وفيه من تقرير ماسبق من كون الكل لله سبحانه واختصاص العزة به تعالى وانتفاء الخوف والحزن عن أوليائه عز وعلا قاطبة وتشجيع النبى صلى الله عليه وسلم وحمله على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم مالا يخفى (إذ قال) معمول لنبأ أو بدل منه بدل اشتمال وأياما كان فالمراد بعض نبئه عليه السلام لا كل ماجرى بينه وبين قومه واللام فى قوله تعالى (لقومه) للتبليغ (ياقوم أن كان كبر) أى عظم وشق (عليكم مقامى) أى

نفسى كما يقال فعلته لمكان فلان أى لفلان ومنه قوله تعالى «ولمن خاف مقام ربه» أى خاف ربه أو قيامى ومكثى بين ظهرانيكم مدة طويلة أو قيامى (وتذكيرى بآيات الله) فانهم كانوا اذا وعظوا الجماعة يقومون على ارجلهم والجماعة قعود ليظهر حالهم ويسمع مقالهم (فعلى الله توكلت) جواب للشرط أى دمت على تخصيص التوكل به تعالى ويجوز أن يراد به احداث مرتبة مخصوصة من مراتب التوكل (فأجمعوا أمركم) عطف على الجواب والفاء لترتيب الأمر بالاجماع على التوكل لا لترتيب نفس الاجماع عليه أو هو الجواب وما سبق جملة معترضة والاجماع العزم قيل هو متعد بنفسه وقيل فيه حذف وايصال قال السدوسى أجمعت الامر أفصح من أجمعت عليه وقال أبو الهيثم أجمع أمره جعله مجموعا بعدما كان متفرقا وتفرقه انه يقول مرة أفعل كذا وأخرى افعل كذا واذا عزم على أمر واحد فقد جمعه أى جعله جميعا (وشركاءكم) بالنصب على أن الواو بمعنى مع كما تدل عليه القراءة بالرفع عطفا على الضمير المتصل تنزيلا للفصل منزلة التأكيد واسناد الاجماع الى الشركاء على طريقة التهكم وقيل انه عطف على أمركم بحذف المضاف أى أمر شركائكم وقيل منصوب بفعل محذوف أى وادعوا شركاءكم وقد قرىء كذلك وقرىء فاجمعوا من الجمع أى فاعزموا على أمركم الذى تريدون بى من السعى فى أهلاكى واحتشدوا فيه على أى وجه يمكنكم (ثم لا يكن أمركم) ذلك (عليكم غمة) أى مستوراً من غمه أذا ستره بل مكشوفا مشهورا تجاهرونى به فان السر انما يصار اليه لسد باب تدارك الخلاص بالهرب او نحوه فحيث استحال ذلك فى حقى لم يكن للسر وجه . وانما خاطبهم عليه السلام بذلك اظهارا لعدم المبالات بهم وانهم لم يجدوا اليه سبيلا وثقة بالله سبحانه وبما وعده من عصمته وكلاءته فكلمة ثم للتراخى فى الرتبة واظهار الأمر فى موقع الاضمار لزيادة تقرير يقتضيها مقام الامر بالاظهار الذى يستلزمه النهى عن التستر والاسرار وقيل المراد بأمرهما يعتريهم من جهته عليه السلام من الحال الشديدة عليهم المكروهة لديهم والغمة والغم كالكربة والكرب وثم للتراخى الزمانى والمعنى لا يكن حالهم عليكم غمة وتخلصوا باهلاكى من ثقل مقامى وتذكيرى ولا يخفى أنه لا يساعده قوله عز وجل (ثم اقضوا ألى ولا تنظرون) أى أدوا ألى أى احكموا ذلك الأمر الذى تريدون بى ولا تمهلونى كقوله تعالى «وقضينا أليه ذلك الأمر» أو أدوا ألى ماهو حق عليكم عندكم من أهلاكى كما يقضى الرجل غريمه فان توسيط ما يحصل بعد الاهلاك بين الأمر بالعزم على مباديه وبين الأمر بقضائه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه . وقرىء أفضوا بالفاء أى انتهوا ألى بشركم أو ابرزوا ألى من أفضى إذا خرج ألى الفضاء (فأن

توليتم) الفاء لترتيب التولى على ماسبق فالمراد به اما الاستمرار عليه واما أحداث التولى المخصوص أى ان أعرضتم عن نصيحتى و تذكيرى أثر ماشاهدتم منى من مخايل صحة ما أقول ودلائلها التى من جملتها دعوتى إياكم جميعاً إلى تحقيق ماتريدون بى من السوء غير مبال بكم و بما يأتى منكم وأحجامكم من الاجابة علماً منكم بأنى على الحق المبين مؤيد من عند الله العزيز (فماسألتكم) بمقابلة وعظى وتذكيرى (من أجر) تؤدونه إلى حتى يؤدى ذلك إلى توليكم اما لاتهامكم إياى بالطمع والسؤال و إما لثقل دفع المسئول عليكم أوحتى يضرنى توليكم المؤدى إلى الحرمان فالأول لاظهار بطلان التولى ببيان عدم مايصححه والثانى لاظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه وعلى التقديرين فالفاء الجزائية لسببية الشرط لاعلام مضمون الجزاء لالنفسه والمعنى إن توليتم فاعلموا أن ليس فى مصحح له ولا تأثر منه وقوله عز وجل (أن أجرى إلا على الله) ينتظم المعنيين جميعاً خلا أنه على الأول تأكيد وعلى الثانى تعليل لاستغنائه عليه السلام عنهم أى ماثوابى على العظة والتذكير إلا عليه تعالى يثيبنى به آمنتم أو توليتم (و أمرت أن أكون من المسلمين) المنقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره أو المستسلمين لكل ما يصيب من البلاء فى طاعة الله تعالى (فكذبوه) فأصروا على ماهم عليه من التكذيب بعد ما ألزمهم الحجة وبين لهم المحجة وحقق أن توليهم ليس له سبب غير التمرد والعناد فلا جرم حقت عليهم كلمة العذاب (فنجيناه ومن معه فى الفلك) من المسلمين وكانوا ثمانين (وجعلناهم خلائف) من الهالكين (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) أى بالطوفان وتأخير ذكره عن ذكر الانجاء والاستخلاف حسبما وقع فى قوله عز وعلا « ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة» وغير ذلك من الآيات الكريمة لاظهار كمال العناية بشأن المقدم ولتعجيل المسرة للسامعين وللايذان بسبق الرحمة التى هى من مقتضيات الربوبية على الغضب الذى هو من مستتبعات جرائم المجرمين (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) تهويل لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول عليه الصلاة والسلام وتسلية له عليه السلام (ثم بعثنا) أى أرسلنا (من بعده) أى من بعد نوح عليه السلام (رسلا) التنكير للتفخيم ذاتاً ووصفاً أى رسلا كراماً ذوى عدد كثير (الى قومهم) أى الى أقوامهم لكن لا بأن أرسلنا كل رسول منهم إلى أقوام الكل أو إلى قوم ما أى قوم كانوا بل كل رسول الى قومه خاصة مثل هود إلى عاد وصالح إلى ثمود وغير ذلك ممن قص منهم ومن لم يقص (فجاؤهم) أى جاء كل رسول قومه المخصوصين به (بالبينات) أى المعجزات

الواضحة الدالة على صدق ماقالوا والباء إما متعلقة بالفعل المذكور على أنها للتعدية أو بمحذوف وقع حالا من ضمير جاءوا أى ملتبسين بالبينات لكن لا بأن يأتى كل رسول ببينة واحدة بل ببينات كثيرة خاصة به معينة له حسب اقتضاء الحكمة فان مراعاة انقسام الآحاد الى الآحاد انما هى فيما بين ضميرى جاءوهم كما أشير اليه (فما كانوا ليؤمنوا) بيان لاستمرار عدم ايمانهم فى الزمان الماضى لا لعدم استمرار إيمانهم كما مر مثله فى هذه السورة الكريمة غير مرة أى فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوام فى وقت من الأوقات أن يؤمنوا بل كان ذلك ممتنعا منهم لشدة شكيمتهم فى الكفر والعناد ثم ان كان المحكى آخر حال كل قوم حسبما يدل عليه حكاية قوم نوح فالمراد بعدم ايمانهم المذكور ههنا أصرارهم على ذلك بعد اللتيا والتى وبما أشير اليه فى قوله عز وجل (بما كذبوا به من قبل) تكذيبهم من حين مجىء الرسل الى زمان الأصرار والعناد وانما لم يجعل ذلك مقصودا بالذات كالأول حيث جعل صلة للموصول ايذانا بانه بين بنفسه غنى عن البيان وانما المحتاج الى ذلك عدم إيمانهم بعد تواتر البينات الظاهرة وتظاهر المعجزات الباهرة التى كانت تضطرهم الى القبول لو كانوا من أصحاب العقول والموصول الذى تعلق به الايمان والتكذيب سلبا وايجابا عبارة عن جميع الشرائع التى جاء بها كل رسول أصولها وفروعها وان كان المحكى جميع أحوال كل قوم منهم فالمراد بما ذكر أولا كفرهم المستمر من حين مجىء الرسل الى آخره وبما أشير اليه آخرا تكذيبهم قبل مجيئهم فلا بد من كون الموصول المذكور عبارة عن اصول الشرائع التى أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعوا أممهم اليها آثر ذى أثير لاستحالة تبدلها وتغيرها مثل ملة التوحيد ولوازمها ومعنى تكذيبهم بها قبل مجىء رسلهم أنهم ما كانوا فى زمن الجاهلية بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قط بل كان كل قوم من أولئك الأقوام يتسامعون بها من بقايا من قبلهم كثمود من بقايا عاد وعاد من بقايا قوم نوح عليه السلام فيكذبونها ثم كانت حالتهم بعد مجىء الرسل كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث اليهم أحد وتخصيص التكذيب وعدم الايمان بما ذكر من الأصول لظهور حال الباقى بدلالة النص فانهم حيث لم يؤمنوا بما أجمعت عليه كافة الرسل فلأن لايؤمنوا بما تفرد به بعضهم أولى وعدم جعل هذا التكذيب مقصودا بالذات لما أن ماعليه يدور أمر العذاب والعقاب عند اجتماع المكذبين هو التكذيب الواقع بعد الدعوة حسبما يعرب عنه قوله تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وانما ذكر ماوقع قبلها بيانا لعراقتهم فى الكفر والتكذيب وعلى التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة فى المرجع وقيل ضمير كذبوا راجع الى قوم نوح عليه

السلام والمعنى فما كان قوم الرسل ليؤمنوا بما كذب بمثله قوم نوح ولا يخفى ما فيه من التعسف . وقيل الباء للسببية أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل ولا يخفى أن ذلك يؤدى الى مخالفة الجمهور من جعل ما المصدرية من قبيل الاسماء كما هو رأى الاخفش وابن السراج ليرجع اليها الضمير وفى ارجاعه الى الحق بادعاء كونه مركوزا فى الاذهان ما لا يخفى من التعسف (كذلك) أى مثل ذلك الطبع المحكم (نطبع) بنون العظمة وقرىء بالياء على أن الضمير لله سبحانه (على قلوب المعتدين) المتجاوزين عن الحدود المعهودة فى الكفر والعناد المتجافين عن قبول الحق وسلوك طريق الرشاد وذلك بخذلانهم وتخليتهم وشأنهم لانهماكهم فى الغى والضلال وفى أمثال هذه دلالة على أن الافعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد (ثم بعثنا) عطف على قوله تعالى ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم عطف قصة على قصة (من بعدهم) أى من بعد أولئك الرسل عليهم السلام (موسى وهرون) خصت بعثتهما عليهما السلام بالذكر ولم يكتف باندراج خبرهما فيما أشير اليه اشارة اجمالية من أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم وأوثر فى ذلك ضرب تفصيل ايذانا بخطر شأن القصة وعظم وقعها كما فى نبأ نوح عليه السلام (الى فرعون وملئه) أى أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر لاصالتهم فى اقامة المصالح والمهمات ومراجعة الكل فى النوازل اليهم والملمات (بآياتنا) أى ملتبسين بها وهى الآيات المفصلات فى الاعراف (فاستكبروا) الاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق والفاء فصيحة أى فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتباعهما وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام « ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين » الخ (وكانوا قوما مجرمين) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أى كانوا معتادين لارتكاب الذنوب العظام فان الاجرام مؤذن بعظم الذنب ومنه الجرم أى الجثة فلذلك اجترءوا على ما اجترءوا عليه من الاستهانة برسالة الله تعالى وحمل الاستكبار على الامتناع عن قبول الآيات لا يساعده قوله عز وعلا (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين) فانه صريح فى أن المراد باستكبارهم ما وقع منهم قبل مجىء الحق الذى سموه سحرا أعنى العصا واليد البيضاء كما ينبىء عنه سياق النظم الكريم وذلك أول ما أظهره عليه السلام من الآيات العظام والفاء فيه أيضا فصيحة معربة عما صرح به فى مواضع أخر كأنه قيل قال موسى قد جئتكم ببينة من ربكم الى قوله تعالى « فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين » فلما جاءهم الحق من عندنا وعرفوه قالوا من فرط عتوهم وعنادهم إن هذا لسحر مبين أى ظاهر كونه سحرا أو فائق فى بابه واضح فيما بين أضرابه . وقرىء

لساحر (قال موسى) استئناف مبنى على سؤال تنساق اليه الاذهان كأنه قيل فماذا قال لهم موسى حينئذ فقيل قال على طريقة الاستفهام الانكارى التوبيخى (أتقولون للحق) الذى هو أبعد شيء من السحر الذى هو الباطل البحت (لما جاءكم) أى حين مجيئه اياكم و وقوفكم عليه أو من أول الامر من غير تأمل وتدبر وكلا الحالين مما ينافى القول المذكور والمقول محذوف ثقة بدلالة ماقبله وما بعده عليه وايذانا بأنه مما لا ينبغى أن يتفوه به ولو على نهج الحكاية أى أتقولون له ماتقولون من أنه سحر يعنى به أنه مما لايمكن أن يقوله قائل ويتكلم به متكلم أو القول بمعنى العيب والطعن من قولهم فلان يخاف القالة وبين الناس تقاول اذا قال بعضهم لبعض مايسوءه ونظيره الذكر فى قوله تعالى «سمعنا فتى يذكرهم» الخ فيستغنى عن المفعول أى أتعيبونه وتطعنون فيه وعلى الوجهين فقوله عز وجل (أسحر هذا) انكار مستأنف من جهته عليه السلام لكونه سحرا وتكذيب لقولهم وتوبيخ لهم على ذلك أثر توبيخ وتجهيل بعد تجهيل أما على الاول فظاهر وأما على الثانى فوجه ايثار انكار كونه سحرا على انكار كونه معيبا بأن يقال مثلا أفيه عيب حسبما يقتضيه ظاهر الانكار السابق التصريح بالرد عليهم فى خصوصية ماعابوه به بعد التنبيه بالانكار السابق على أن ليس فيه شائبة عيب ما وما فى هذا من معنى القرب لزيادة تعيين المشار اليه واستحضار ما فيه من الصفات الدالة على كونه آية باهرة من آيات الله المنادية على امتناع كونه سحرا أى أسحر هذا الذى أمره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد ممن له عين مبصرة وتقديم الخبر للايذان بانه مصب الانكار ولما استلزم كونه سحرا كون من أتى به ساحرا أكد الانكار السابق ومافيه من التوبيخ والتجهيل بقوله عز وجل (ولا يفلح الساحرون) وهو جملة حالية من ضمير المخاطبين والرابط هو الواو بلا ضمير كما فى قول من قال: جاء الشتاء ولست أملك عدة ، وقولك جاء زيد ولم تطلع الشمس أى أتقولون للحق انه سحر والحال أنه لا يفلح فاعله أى لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مكروه فكيف يمكن صدوره من مثلى من المؤيدين من عند الله العزيز الحكيم الفائزين بكل مطالب الناجين من كل محذور وقوله تعالى أسحر هذا جملة معترضة بين الحال وصاحبها أكد بها الانكار السابق ببيان استحالة كونه سحرا بالنظر الى ذاته قبل بيان استحالته بالنظر الى صدوره عنه عليه السلام هذا . وأما تجويز أن يكون الكل مقول القول على أن المعنى أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون فما لا يساعده النظم الكريم أصلا أما أولا فلان ما قالوا هو الحكم بأنه سحر من غير أن يكون فيه دلالة على ما تعسف فيه

من المعنى بوجه من الوجوه فصرف جوابه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به الى ما لا يفهم منه أصلا مما يجب تنزيه النظم التنزيلي عن الحمل على أمثاله وأما ثانيا فلان التعرض لعدم افلاح السحرة على الاطلاق من وظائف من يتمسك بالحق المبين دون الكفرة المتشبثين باذيال بعض منهم فى معارضته عليه السلام ولو كان ذلك من كلامهم لناسب تخصيص عدم الافلاح بمن زعموه ساحرا بناء على غلبة من يأتون به من السحرة وأما ثالثا فلان قوله عز وجل (قالوا أجئتنا) الخ مسوق لبيان أنه عليه السلام ألقمهم الحجر فانقطعوا عن الاتيان بكلام له تعلق بكلامه عليه السلام فضلا عن الجواب الصحيح واضطروا الى التشبث بذيل التقليد الذى هو دأب كل عاجز محجوج وديدن كل معاند لجوج على أنه استئناف وقع جوابا عما قبله من كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى قال موسى الخ حسبما أشير اليه كأنه قيل فماذا قالوا لموسى عليه السلام عندما قال لهم ما قال فقيل قالوا عاجزين عن المحاجة أجئتنا (لتلفتنا) أى لتصرفنا فان الفتل واللفت اخوان (عما وجدنا عليه آباءنا) أى من عبادة الاصنام ولا ريب فى أن ذلك انما يتسنى بكون ما ذكر من تتمة كلامه عليه السلام على الوجه الذى شرح اذ على تقدير كونه محكيا من قبلهم يكون جوابه عليه السلام خاليا عن التبكيت الملجىء لهم الى العدول عن سنن المحاجة ولا ريب فى أنه لا علاقة بين قولهم أجئتنا الخ وبين انكاره عليه السلام لما حكى عنهم مصححة لكونه جوابا عنه (وتكون لكما الكبرياء) أى الملك أو التكبر على الناس باستتباعهم . وقرىء ويكون بالياء التحتانية وكلمة فى فى قوله تعالى (فى الارض) أى أرض مصر متعلقة بتكون أو بالكبرياء أو بالاستقرار فى لكما لوقوعه خبرا أو بمحذوف وقع حالا من الكبرياء أو من الضمير فى لكما لتحمله اياه (وما نحن لكما بمؤمنين) أى بمصدقين فيما جئتما به وتثنية الضمير فى هذين الموضعين بعد افراده فيما تقدم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزام التصديق لاحدهما التصديق للآخر وأما اللفت والمجىء له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسندا الى موسى عليه السلام خاصة (وقال فرعون) توحيد الفعل لان الامر من وظائف فرعون أى قال لملئه يأمرهم بترتيب مبادى الزامهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأس من الزامهما بالقول (ائتونى بكل ساحر عليم) بفنون السحر حاذق ماهر فيه. وقرىء سحار (فلما جاء السحرة) عطف على مقدر يستدعيه المقام قد حذف ايذانا بسرعة امتثالهم لامر فرعون كما هو شأن الفاء الفصيحة فى كل مقام أى فأتوا به فلما جاءوا (قال لهم موسى) لكن لا فى ابتداء مجيئهم بل بعد ما قالوا له عليه السلام ما حكى عنهم فى السور الاخر من قولهم اما أن تلقى واما أن نكون

نحن الملقين ونحو ذلك (ألقوا ما أنتم ملقون) أى ملقون له كائنا ما كان من أصناف السحر (فلما ألقوا) ما ألقوا من العصى والحبال واسترهبوا الناس وجاءوا بسحر عظيم (قال) لهم (موسى) غير مكترث بهم وبما صنعوا (ما جئتم به السحر) ما موصولة وقعت مبتدأ والسحر خبره أى هو السحر لا ماسماه فرعون وقومه من آيات الله سبحانه أو هو من جنس السحر يريهم أن حاله بين لا يعبأ به كأنه قال ما جئتم به مما لا ينبغى أن يجاء به . وقرىء آلسحر على الاستفهام فما استفهامية أى أى شىء جئتم به أهو السحر الذى يعرف حاله كل أحد ولا يتصدى له عاقل. وقرىء ما جئتم به سحر وقرىء ما أتيتم به سحر ودلالتهما على المعنى الثانى فى القراءة المشهورة أظهر (ان الله سيبطله) أى سيمحقه بالكلية بما يظهره على يدى من المعجزة فلا يبقى له أثر أصلا أو سيظهر بطلانه للناس والسين للتأكيد (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) أى عمل جنس المفسدين على الاطلاق فيدخل فيه السحر دخولا أوليا أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالافساد والاشعار بعلة الحكم وليس المراد بعدم اصلاح عملهم عدم جعل فسادهم صلاحا بل عدم اثباته واتمامه أى لا يثبته ولا يكمله ولا يديمه بل يمحقه ويهلكه ويسلط عليه الدمار والجملة تعليل لما سبق من قوله ان الله سيبطله والكل اعتراض تذييلى وفيه دليل على أن السحر افساد وتمويه لا حقيقة له (ويحق الله الحق) عطف على قوله سيبطله أى يثبته ويقويه . واظهار الاسم الجليل فى المقامين الأخيرين لالقاء الروعة وتربية المهابة (بكلماته) بأوامره وقضاياه . وقرىء بكلمته (ولو كره المجرمون) ذلك والمراد بهم كل من اتصف بالاجرام من السحرة وغيرهم (فما آمن لموسى) معطوف على مقدر قد فصل فى مواقع اخر أى فألقى عصاه فاذا هى تلقف ما يأ فكون الخ وانما لم يذكر تعويلا على ذلك وايثارا للايجاز وايذانا بأن قوله تعالى ان الله سيبطله مما لا يحتمل الخلف أصلا وعطفه على ذلك بالفاء مع كونه عدما مستمرا من قبيل مافى قوله عز وجل فاتبعوا أمر فرعون ومافى قولك : وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر والسر فى ذلك أن الاتيان بالشىء بعد ورود مايوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث أى فما آمن له عليه السلام بمشاهدة تلك الآيات القاهرة (الا ذرية من قومه) اى الا أولاد من أولاد قومه بنى اسرائيل حيث دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون وأجابته طائفة من شبانهم . وقيل الضمير لفرعون والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به عليه السلام أو مؤمن آل فرعون وامرأته آسية وخازنه وامرأته وماشطته وهو

بعيد (على خوف) أى كائنين على خوف عظيم (من فرعون وملئهم) الضمير لفرعون والجمع لما هو المعتاد فى ضمائر العظماء ولا يأباه مقام بيان علوه فى الفساد وعلوه فى الشر والتسلط على العباد أو لأن المراد به آله كما يقال ربيعة ومضر أو للذرية أو للقوم أى على خوف من فرعون ومن أشراف بنى اسرائيل حيث كانوا يمنعون أعقابهم خوفا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم (أن يفتنهم) أى يعذبهم وهو بدل اشتمال أو مفعول خوف فان أعمال المصدر المنكر كثير كما فى قوله عز وجل «أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما» أو مفعول له بعد حذف اللام. وإسناد الفعل الى فرعون خاصة لأنه الآمر بالتعذيب (وأن فرعون لعال فى الأرض) لغالب فى أرض مصر (وإنه لمن المسرفين) فى الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو فى الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء والجملتان اعتراض تذييلى مؤكد لمضمون ما سبق (وقال موسى) لما رأى تخوف المؤمنين منه (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله) أى صدقتم به وبآياته (فعليه توكلوا) وبه ثقوا ولاتخافوا أحداً غيره فانه كافيكم كل شر وضر (إن كنتم مسلمين) مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين فان المعلق بالايمان وجوب التوكل عليه تعالى فانه المقتضى له والمشروط بالاسلام وجوده فانه لا يتحقق مع التخليط ونظيره ان أحسن اليك زيد فأحسن اليه ان قدرت عليه (فقالوا) مجيبين له عليه السلام من غير تلعثم فى ذلك (على الله توكلنا) لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين ثم دعوا ربهم قائلين (ربنا لاتجعلنا فتنة) أى موقع فتنة (للقوم الظالمين) أى لاتسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا أو يفتتنوا بنا ويقولوا لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا وقوله تعالى (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) دعاء منهم بالانجاء من سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم بعد الانجاء من ظلمهم ولذلك عبر عنهم بالكفر بعد ماوصفوا بالظلم. وفى ترتيب الدعاء على التوكل تلويح بأن الداعى حقه أن يبنى دعاءه على التوكل على الله تعالى (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ) أن مفسرة لأن فى الوحى معنى القول أى اتخذا مباءة (لقومكما بمصر بيوتا) تسكنون فيها وترجعون اليها للعبادة (واجعلوا) أنتما وقومكما (بيوتكم) تلك (قبلة) مصلى وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعنى الكعبة فان موسى عليه السلام كان يصلى اليها (وأقيموا الصلوة) أى فيها أمروا بذلك فى أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم (وبشر المؤمنين) بالنصرة فى الدنيا اجابة لدعوتهم وبالجنة فى العقبى وانما ثنى الضمير أولا لأن التبوأ للقوم واتخاذ المعابد مما يتولاه رؤساء القوم

بتشاور . ثم جمع لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما يفعله كل أحد . ثم وحد لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة ووضع المؤمنين موضع ضمير القوم لمدحهم بالايمان وللاشعار بأنه المدار في التبشير (وقال موسى ربنا أنك أتيت فرعون وملأه زينة) أي مايتزين به من اللباس والمراكب ونحوها (وأموالا) وأنواعاً كثيرة من المال (في الحيوة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) دعاء عليهم بلفظ الأمر بما علم بممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره كقولك لعن الله ابليس وقيل اللام للعاقبة وهي متعلقة بأتيت أو للعلة لأن ايتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال ولأنهم لما جعلوها ذريعة الى الضلال فكأنهم أوتوها ليضلوا فيكون ربنا تكريراً للأول تأكيداً أو تنبيهاً على أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم تقدمة لقوله تعالى (ربنا اطمس على أموالهم) الطمس المحو وقرىء بضم الميم أي أهلكها (واشدد على قلوبهم) أي اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لا تنشرح للايمان كما هو قضية شأنهم (فلا يؤمنوا) جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهي أو عطف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض (حتى يروا العذاب الأليم) أي يعاينوه ويوقنوا به بحيث لا ينفعهم ذلك اذ ذاك (قال قد أجيبت دعوتكما) يعني موسى وهرون عليهما السلام لأنه كان يؤمن كما يشعر به اضافة الرب الى ضمير المتكلم مع الغير في المواقع الثلاثة (فاستقيما) فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزام الحجة ولا تستعجلا فان ما طلبتما كائن في وقته لامحالة . روى أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة (ولاتتبعان سبيل الذين لا يعلمون) أي بعادات الله سبحانه في تعليق الأمور بالحكم والمصالح أو سبيل الجهلة في الاستعجال أو عدم الوثوق بوعد الله تعالى . وقرىء بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين ولا تتبعان من تبع ولاتتبعان أيضاً (وجاوزنا ببني اسرائيل البحر) هو من جاوز المكان اذا تخطاه وخلفه والباء للتعدية أي جعلناهم مجاوزين البحر بأن جعلناه يبسا وحفظناهم حتى بلغوا الشط . وقرئ جوزنا وهو من التجويز المرادف للمجاوزة لا ماهو بمعنى التنفيذ نحو ما وقع في قول الاعشى . كما جوز السكي في الباب فيتق . والا لقيل وجوزنا بني اسرائيل في البحر وخلا النظم الكريم عن الايذان بانفصالهم عن البحر وبمقارنة العناية الالهية لهم عند الجواز كما هو المشهور في الفرق بين أذهبه وذهب به (فأتبعهم) يقال تبعته حتى اتبعته إذا كان سبقك فلحقته اي أدركهم ولحقهم (فرعون وجنوده) حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان (بغيا وعدوا) ظلما واعتداء أي باغين وعادين أو للبغي والعدوان . وقرئ وعدوا

وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببنى اسرائيل على حين غفلة من فرعون فلما سمع به تبعهم حتى لحقهم ووصل إلى الساحل وهم قد خرجوا من البحر ومسلكهم باق على حاله يبساً فسلكه بجنوده أجمعين فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج غشيهم من اليم ما غشيهم (حتى اذا أدركه الغرق) أى لحقه وألجه (قال آمنت أنه) أى بأنه والضمير للشأن . وقرىء انه على الاستئناف بدلا من آمنت وتفسيراً له (لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل) لم يقل كما قاله السحرة آمنا برب العالمين رب موسى وهرون بل عبر عنه تعالى بالموصول وجعل صلته إيمان بنى اسرائيل به تعالى للاشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتباعه لمن كان يستتبعهم طمعاً فى القبول والانتظام معهم فى سلك النجاة (وأنا من المسلمين) أى الذين أسلموا نفوسهم لله أى جعلوها سالمة خالصة له تعالى وأراد بهم أما بنى اسرائيل خاصة واما الجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة على الاول عطف على آمنت . وايثار الاسمية لادعاء الدوام والاستمرار وعلى الثانى يحتمل الحالية أيضاً من ضمير المتكلم أى امنت مخلصا لله منتظما فى سلك الراسخين فيه ولقد كرر المعنى الواحد بثلاث عبارات حرصا على القبول المفضى إلى النجاة وهيهات هيهات بعد ما فات مافات وأتى ما هو آت وقوله عز وجل (آلآن) مقول لقول مقدر معطوف على قال أى فقيل آلآن وهو إلى قوله تعالى آية حكاية لما جرى منه سبحانه من الغضب على المخذول ومقابلة ما أظهره بالرد على وجه الانكار والتوبيخ على تأخيره وتقريعه بالعصيان والافساد وغير ذلك. وفى حذف الفعل المذكور وابراز الخبر المحكى فى صورة الانشاء من الدلالة على عظم السخط وشدة الغضب ما لا يخفى كما يفصح عنه ما روى من أن جبريل دس فاه عند ذلك بحال البحر وسده به فانه تأكيد للرد القولى بالرد الفعلى ولا ينافيه تعليله بمخافة ادراك الرحمة فيما نقل أنه قال للنبي عليهما السلام فلو رأيتنى يا محمد وأنا اخذ من حال البحر فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة اذ المراد بها الرحمة الدنيوية أى النجاة التى هى طلبة المخذول وليس من ضرورة ادراكها صحة الايمان كما فى ايمان قوم يونس عليه السلام حتى يلزم من كراهته مالا يتصور فى شأن جبريل عليه السلام من الرضا بالكفر اذ لا استحالة فى ترتب هذه الرحمة على مجرد التفوه بكلمة الايمان وان كان ذلك فى حالة البأس واليأس فيحمل دسه عليه السلام على سد باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدة الحرد فتدبر والله الموفق. وحق العامل فى الظرف أن يقدر مؤخراً ليتوجه الانكار والتوبيخ إلى تأخير الايمان إلى حد يمتنع قبوله فيه أى الآن تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات وقوله عز وعلا

(وقد عصيت قبل) حال من فاعل الفعل المقدر جيء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الايمان إلى هذا الآن ببيان أنه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة اليه ولا للتأمل والتدبر فى دلائله وآياته ولا لشىء آخر مما عسى يعد عذرا فى التأخير بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والافساد فان قوله تعالى (وكنت من المفسدين) عطف على عصيت داخل فى حيز الحال أى وكنت من الغالين فى الضلال والاضلال عن الايمان كقوله تعالى «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون» فهذا عبارة عن فساده الراجع إلى نفسه والسارى إلى غيره من الظلم والتعدى وصد بني اسرائيل عن الايمان والأول عن عصيانه الخاص به (فاليوم ننجيك) أى نخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافيا وفى التعبير عنه بالتنجية تلويح بأن مراده بالايمان هو النجاة كما مر وتهكم به أو نلقيك على نجوة من الارض ليراك بنو اسرائيل. وقرئ ننجيك من الانجاء وننحيك بالحاء من التنحية أى نلقيك بناحية الساحل (ببدنك) فى موضع الحال من ضمير المخاطب أى ننجيك ملابسا ببدنك فقط لا مع روحك كما هو مطلوبك فهو تخييب له وحسم لاطماعه بالمرة أو عاريا عن اللباس أو كاملا سويا أو بدرعك وكانت له درع من الذهب يعرف بها. وقرىء بأبدانك أى بأجزاء بدنك كلها كقولهم هوى بأجرامه. أو بدروعك كأنه كان مظاهرا بينها (لتكون لمن خلفك آية) لمن وراءك علامة وهم بنو اسرائيل إذ كان فى نفوسهم من عظمته ما خيل اليهم أنه لا يهلك حتى يروى أنهم لم يصدقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه الى أن عاينوه مطرحا على ممرهم من الساحل أو تكون لمن يأتى بعدك من الامم اذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالا من الطغيان أو حجة تدلهم على أن الانسان وان بلغ الغاية القصوى من عظم الشأن وعلو الكبرياء وقوة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية. وقرىء لمن خلفك فعلا ماضيا أى لمن خلفك من الجبابرة. وقرىء لمن خلقك بالقاف أى لتكون لخالقك آية كسائر الآيات فان افراده سبحانه إياك بالالقاء الى الساحل دليل على أنه قصد منه لكشف تزويرك واماطة الشبهة فى أمرك وبرهان نير على كمال علمه وقدرته وحكمته وارادته وهذا الوجه محتمل على القراءة المشهورة أيضا وفى تعليل تنجيته بما ذكر إيذان بأنها ليست لاعزازه أو لفائدة أخرى عائدة اليه بل لكمال الاستهانة به وتفضيحه على رءوس الاشهاد وزيادة تفظيع حاله كمن يقتل ثم يجر جسده فى الاسواق أو يدار برأسه فى البلاد واللام الاولى متعلقة بننجيك والثانية بمحذوف وقع حالا من آية أى كائنة لمن خلفك (وأن كثيرا من الناس عن آياتنا

لغافلون) لايتفكرون فيها ولايعتبرون بها وهو اعتراض تذييلى جيء به عند الحكاية تقريرا لفحوى الكلام المحكى (ولقد بوأنا بنى أسرائيل) كلام مستأنف مسيق لبيان النعم الفائضة عليهم أثر نعمة الانجاء على وجه الاجمال واخلالهم بشكرها وأداء حقوقها أى أسكناهم وأنزلناهم بعد ماأنجيناهم وأهلكنا أعداءهم (مبوأ صدق) أى منزلا صالحا مرضيا وهو الشام ومصر ملكوهما بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا فى نواحيهما حسبما نطق به قوله تعالى «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها» (ورزقناهم من الطيبات) أى اللذائذ (فما اختلفوا) فى أمر دينهم (حتى جاءهم العلم) أى الابعد ماجاءهم العلم بقراءتهم التوراة وعلمهم بأحكامها أو فى أمر محمد عليه الصلاة والسلام إلا من بعد ماعلموا صدق نبوته وتظاهر معجزاته فالمراد بالمختلفين أعقابهم الذين كانوا فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام (ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فيميز بين المحق والمبطل بالاثابة والتعذيب (فان كنت فى شك) أى فى شك ما يسير على الفرض والتقدير فان مضمون الشرطية إنما هو تعليق شيء بشيء من غير تعرض لامكان شيء منهما كيف لا وقد يكون كلاهما ممتنعاً كقوله عز وجل «قل أن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» وقوله تعالى «لئن أشركت ليحبطن عملك» ونظائرهما (مما أنزلنا اليك) من القصص التى من جملتها قصة فرعون وقومه وأخبار بنى اسرائيل (فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) فان ذلك محقق عندهم ثابت فى كتبهم حسبما القينا اليك والمراد اظهار نبوته عليه السلام بشهادة الاحبار حسبماهو المسطور فى كتبهم وان لم يكن اليه حاجة أصلا أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ فى العلم بصحة نبوته عليه السلام أو تهييجه عليه السلام وزيادة تثبيته على ماهو عليه من اليقين لاتجويز صدور الشك منه عليه السلام ولذلك قال عليه السلام لاأشك ولاأسأل. وقيل المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميم الدارى وكعب وأضرابهم. وقيل الخطاب للنبى عليه السلام والمراد أمته أو لكل من يسمع أى أن كنت أيها السامع فى شك مما أنزلنا اليك على لسان نبينا. وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع الى حلها بالرجوع الى أهل العلم. وقرىء فاسأل الذين يقرءون الكتب (لقد جاءك الحق) الذى لامحيد عنه ولاريب فى حقيته (من ربك) وظهر ذلك بالآيات القاطعة التى لايحوم حولها شائبة الارتياب وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام من التشريف مالايخفى (فلا تكونن من الممترين) لاتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين ودم على ذلك

كما كنت من قبل (ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله) من باب التهييج والالهاب والمراد به أعلام أن التكذيب من القبح والمحذورية بحيث ينبغي أن ينهى عنه من لا يتصور امكان صدوره عنه فكيف بمن يمكن اتصافه به وفيه قطع لاطماع الكفرة (فتكون) بذلك (من الخاسرين) أنفسا وأعمالا (ان الذين حقت عليهم) شروع فى بيان سر اصرار الكفرة على ماهم عليه من الكفر والضلال أى ثبتت ووجبت بمقتضى المشيئة المبنية على الحكمة البالغة (كلمة ربك) حكمه وقضاؤه بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون فى النار كقوله تعالى «ولكن حق القول منى لأملأن جهنم» الى اخره (لا يؤمنون) أبدا إذ لا كذب لكلامه ولا انتقاض لقضائه أى لا يؤمنون ايمانا نافعا واقعا فى أوانه فيندرج فيهم المؤمنون عند معاينة العذاب مثل فرعون باقيا عند الموت فيدخل فيهم المرتدون (ولو جاءتهم كل آية) واضحة المدلول مقبولة لدى العقول لأن سبب ايمانهم وهو تعلق ارادته تعالى به مفقود لكن فقدانه ليس لمنع منه سبحانه مع استحقاقهم له بل لسوء اختيارهم المتفرع على عدم استعدادهم لذلك (حتى يروا العذاب الأليم) كدأب آل فرعون وأضرابهم (فلولا كانت) كلام مستأنف لتقرير ماسبق من استحالة ايمان من حقت عليه كلمته تعالى لسوء اختيارهم مع تمكنهم من التدارك فيكون الاستثناء الآتى بيانا لكون قوم يونس عليه السلام ممن لم يحق عليه الكلمة لاهتدائهم الى التدارك فى وقته ولولا بمعنى هلا . وقرىء كذلك أى فهلا كانت (قرية) من القرى المهلكة (آمنت) قبل معاينة العذاب ولم تؤخر ايمانها الى حين معاينته كما فعل فرعون وقومه (فنفعها أيمانها) بأن يقبله الله تعالى منها ويكشف بسببه العذاب عنها (الا قوم يونس) استثناء منقطع أى لكن قوم يونس (لما آمنوا)أول ما رأوا أمارة العـــذاب ولم يؤخروا الى حلوله (كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) بعد ما أظلهم وكاد يحل بهم ويجوز أن تكون الجملة فى معنى النفى كما يفصح عنه حرف التحضيض فيكون الاستثناء متصلا اذ المراد بالقرى أهاليها كانه قيل ما آمنت طائفة من الامم العاصية فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس عليه السلام فيكون قوله تعالى لما آمنوا استئنافا لبيان نفع ايمانهم ويؤيده قراءة الرفع على البدلية (ومتعناهم) بمتاع الدنيا بعد كشف العذاب عنهم (الى حين) مقدر لهم فى علم الله سبحانه . روى أن يونس عليه السلام بعث الى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة وقيل قال لهم يونس عليه السلام أجلكم أربعون ليلة فقالوا أن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيما أسود هائلا يدخن دخانا شديدا ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم فلبسوا المسوح

وبرزوا الى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فحن بعضها الى بعض وعلت الاصوات والعجيج وأظهروا الايمان والتوبة وتضرعوا الى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضى الله عنه بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى أن الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده الى صاحبه. وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فماترى فقال لهم قولوا ياحى حين لاحى ويا حى محيى الموتى وياحى لا إله إلا أنت فقالوها فكشف عنهم. وعن الفضيل بن عياض قالوا ان ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض) تحقيق لدوران ايمان كافة المكلفين وجودا وعدما على قطب مشيئته تعالى مطلقا اثر بيان تبعية كفر الكفرة لكلمته ومفعول المشيئة محذوف لوجود ما يقتضيه من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء وأن لا يكون فى تعلقها به غرابة كما هو المشهور أى لو شاء سبحانه ايمان من فى الأرض من الثقلين لآمن (كلهم) بحيث لا يشذ عنهم أحد (جميعا) مجتمعين على الايمان لا يختلفون فيه لكنه لا يشاؤه لكونه مخالفا للحكمة التى عليها بنى أساس التكوين والتشريع . وفيه دلالة على أن من شاء الله تعالى ايمانه يؤمن لا محالة (أفأنت تكره الناس) على مالم يشأ الله منهم حسبما ينبىء عنه حرف الامتناع فى الشرطية والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل أربك لا يشاء ذلك فأنت تكرههم (حتى يكونوا مؤمنين) فيكون الانكار متوجها الى ترتيب الاكراه المذكور على عدم مشيئته تعالى . ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الانكار على عدم مشيئته تعالى بناء على أن الهمزة متأخرة فى الاعتبار . وانما قدمت لاقتضائها الصدارة كما هو رأى الجمهور وأياما كان فالمشيئه على اطلاقها اذ لا فائدة بل لا وجه لاعتبار عدم مشيئته الالجاء خاصة فى انكار الترتيب عليه أو ترتيب الانكار عليه وفى أيلاء الاسم حرف الاستفهام أيذان بأن الاكراه أمر ممكن لكن الشأن فى المكره من هو وما هو الا هو وحده لا يشاركه فيه لانه القادر على أن يفعل فى قلوبهم مايضطرهم الى الايمان وذلك غير مستطاع للبشر وفيه ايذان باعتبار الالجاء فى المشيئة كما أشير اليه (وما كان لنفس) بيان لتبعية ايمان النفوس المؤمنة لمشيئته تعالى وجودا بعد بيان الدوران الكلى عليها وجودا وعدما أى ما صح وما استقام لنفس من النفوس التى علم الله تعالى أنها تؤمن (أن تؤمن الا بأذن الله) أى بتسهيله ومنحه للألطاف. وانما خصت النفس بمن ذكر ولم يجعل من قبيل قوله تعالى « وما كان

لنفس أن تموت إلا بأذن الله» لأن الاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أى ما كان لنفس أن تؤمن فى حال من أحوالها إلا حال كونها ملابسة باذنه تعالى فلا بد من كون الايمان مما يؤل اليه حالها كما أن الموت مآل لكل نفس بحيث لامحيص لها عنه فلا بد من تخصيص النفس بمن ذكر فان النفوس التى علم الله أنها لا تؤمن ليس لها حال تؤمن فيها حتى يستثنى تلك الحال من غيرها (ويجعل الرجس) أى الكفر بقرينة ما قبله عبر عنه بالرجس الذى هو عبارة عن القبيح المستقذر المستكره لكونه علما فى القبح والاستكراه. وقيل هو العذاب أو الخذلان المؤدى اليه. وقرىء بنون العظمة وقرىء بالزاى أى يجعل الكفر ويبقيه (على الذين لا يعقلون) لا يستعملون عقولهم بالنظر فى الحجج والآيات أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع فلا يحصل لهم الهداية التى عبر عنها بالاذن فيبقون مغمورين بقبائح الكفر والضلال أو مقهورين بالعذاب والنكال والجملة معطوفة على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم كأنه قيل فيأذن لهم بمنح الالطاف ويجعل الخ (قل) مخاطبا لاهل مكة بعثا لهم على التدبر فى ملكوت السموات والأرض وما فيهما من تعاجيب الآيات الانفسية والآفاقية ليتضح لك أنهم من الذين لايعقلون وحقت عليهم الكلمة (انظروا) أى تفكروا . وقرىء بنقل الهمزة الى لام قل (ماذا فى السموات والأرض) أى اى شيء بديع فيهما من عجائب صنعه الدالة على وحدته وكمال قدرته على أن ماذا جعل بالتركيب اسما واحدا مغلبا فيه الاستفهام على اسم الاشارة فهو مبتدأ خبره الظرف ويجوز أن يكون ما مبتدأ وذا بمعنى الذى والظرف صلته والجملة خبر للمبتدأ وعلى التقديرين فالمبتدأ والخبر فى محل النصب باسقاط الخافض وفعل النظر معلق بالاستفهام (وما تغنى) أى ما تنفع وقرىء بالتذكير (الآيات) وهى التى عبر عنها بقوله تعالى« ماذا فى السموات والأرض » (والنذر) جمع نذير على أنه فاعل بمعنى منذر أو على أنه مصدر أى لاتنفع الآيات والرسل المنذرون أو الانذارات (عن قوم لا يؤمنون) فى علم الله تعالى وحكمه فما نافية والجملة اما حالية أو اعتراضية ويجوز كون ما استفهامية انكارية فى موضع النصب على المصدرية أى اى اغناء تغنى الخ فالجملة حينئذ اعتراضية (فهل ينتظرون) أى مشركو مكة واضرابهم (إلا مثل أيام الذين خلوا) أى إلا يوما مثل أيام الذين خلوا (من قبلهم) من مشركى الامم الماضية أى مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم اذلا يستحقون غيره من قولهم ايام العرب لوقائعها (قل) تهديدا لهم (فانتظروا) ما هو عاقبتكم (أنى معكم من المنتظرين)

لذلك (ثم ننجى رسلنا) بالتشديد . وقرىء بالتخفيف وهو عطف على مقدر يدل عليه قوله مثل أيام الذين خلوا وما بينهما اعتراض جيء به مسارعة الى التهديد ومبالغة فى تشديد الوعيد كأنه قيل اهلكنا الامم ثم نجينا رسلنا المرسلة اليهم (والذين آمنوا) وصيغة الاستقبال لحكاية الاحوال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورها وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الاهلاك على عكس ما فى قوله تعالى « فنجيناه ومن معه فى الفلك» الخ ونظائره الواردة فى مواقع عديدة ليتصل بقوله عز وجل (كذلك) أى مثل ذلك الانجاء (حقا علينا) اعتراض بين العامل والمعمول أى حق ذلك حقا . وقيل بدل من المحذوف الذى ناب عنه كذلك أى انجاء مثل ذلك حقا والكاف متعلقة بقوله تعالى (ننجى المؤمنين) أى من كل شدة وعذاب والجملة تذييل لما قبلها مقرر لمضمونه والمراد بالمؤمنين اما الجنس المتناول للرسل عليهم السلام والاتباع واما الاتباع فقط وانما لم يذكر انجاء الرسل ايذانا بعدم الحاجة اليه وأياما كان ففيه تنبيه على أن مدار النجاة هو الايمان (قل) لجمهور المشركين (ياأيها الناس) أوثر الخطاب باسم الجنس مصدرا بحرف التنبيه تعميما للتبليغ واظهارا لكمال العناية بشأن ما بلغ اليهم (أن كنتم فى شك من دينى) الذى اتعبد الله عز وجل به وأدعوكم اليه ولم تعلموا ماهو وماصفته (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) فى وقت من الاوقات (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) ثم يفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب أى فاعلموا أنه تخصيص العبادة به ورفض عبادة ما سواه من الاصنام وغيرها مما تعبدونه جهلا . وتقديم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم التخلية على التحلية كما فى كلمة التوحيد وللايذان بالمخالفة من أول الامر أوان كنتم فى شك من صحة دينى وسداده فاعلموا أن خلاصته اخلاص العبادة لمن بيده الايجاد والاعدام دون ما هو بمعزل منهما من الاصنام فاعرضوها على عقولكم وأجيلوا فيها أفكاركم وانظروا فيها بعين الانصاف لتعلموا أنه حق لاريب فيه . وفى تخصيص التوفى بالذكر متعلقا بهم ما لا يخفى من التهديد والتعبير عما هم فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للايذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل فى هذا الباب هو الشك فى صحته وأما القطع بعدمها فمما لا سبيل اليه أوان كنتم فى شك من ثباتى على الدين فاعلموا أنى لا أتركه أبدا (وأمرت أن أكون من المؤمنين) بما دل عليه العقل ونطق به الوحى وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد ليس بطريق العقل الصرف بل بالامداد السماوى والتوفيق الالهى وحذف حرف الجر من أن يجوز أن يكون من باب الحذف المطرد مع أن وأن وان يكون خاصا بفعل الامر

كما فى قوله . أمرتك الخير فافعل ما أمرت به . (وأن أقم وجهك للدين) عطف على أن أكون خلا أن صلة أن محكية بصيغة الامر ولا ضير فى ذلك لان مناط جواز وصلها بصيغ الافعال دلالتها على المصدر وذلك لا يختلف بالخبرية والطلبية ووجوب كون الصلة خبرية فى الموصول الاسمى انما هو للتوصل الى وصف المعارف بالجمل وهى لا توصف الا بالجمل الخبرية وليس الموصول الحرفى كذلك أى وأمرت بالاستقامة فى الدين والاستبداد فيه باداء الامور به والانتهاء عن المنهى عنه أو باستقبال القبلة فى الصلاة وعدم الالتفات الى اليمين والشمال (حنيفا) حال من الدين أو الوجه أى مائلا عن الاديان الباطلة (ولا تكونن من المشركين) عطف على أقم داخل تحت الامر أى لا تكونن منهم اعتقادا ولا عملا وقوله عز وعلا (ولا تدع) عطف على قوله تعالى قل يا أيها الناس غير داخل تحت الامر . وقيل على ماقبله من النهى والوجه هو الاول لان ما بعده من الجمل الى آخر الآيتين متسقة لا يمكن فصل بعضها عن بعض كما ترى ولا وجه لادراج الكل تحت الامر وهو تأكيد للنهى المذكور وتفصيل لما أجمل فيه اظهارا لكمال العناية بالامر وكشفا عن وجه بطلان ما عليه المشركون أى لا تدع (من دون الله) استقلالا ولا اشتراكا (ما لا ينفعك) اذا دعوته بدفع مكروه أو جلب محبوب (ولا يضرك) اذا تركته بسلب المحبوب دفعا أو رفعا أو بايقاع المكروه وتقديم النفع على الضرر غنى عن بيان السبب (فأن فعلت) أى ما نهيت عنه من دعاء مالا ينفع ولا يضر كنى به عنه تنويها لشأنه عليه السلام وتنبيها على رفعة مكانه من أن ينسب اليه عبادة غير الله سبحانه ولو فى ضمن الجملة الشرطية (فانك أذا من الظالمين) جزاء للشرط وجواب لسؤال من يسأل عن تبعة ما نهى عنه (وأن يمسسك الله بضر) تقرير لما أورد فى حيز الصلة من سلب النفع من الأصنام وتصوير لاختصاصه به سبحانه (فلا كاشف له) عنك كائنا من كان وما كان (الا هو) وحده فيثبت عدم كشف الأصنام بالطريق البرهانى وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه المستلزم لعدم النفع بجلب المحبوب استلزاما ظاهرا فان رفع المكروه أدنى مراتب النفع فاذا انتفى انتفى النفع بالكلية (وأن يردك بخير) تحقيق لسلب الضرر الوارد فى حيز الصلة أى ان يرد أن يصيبك بخير (فلا راد لفضله) الذى من جملته ما أرادك به من الخير فهو دليل على جواب الشرط لا نفس الجواب وفيه ايذان بأن فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضل من غير استحقاق عليه سبحانه أى لا أحد يقدر على رده كائنا ما كان فيدخل فيه الاصنام دخولا أوليا وهو بيان لعدم ضرها بدفع المحبوب قبل وقوعه

المستلزم لعدم ضرها برفعه أو بايقاع المكروه استلزاما جليا ولعل ذكر الارادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الأمرين للايذان بأن الخير مراد بالذات وان الضر انما يمس من يمسه لما يوجبه من الدواعي الخارجية لا بالقصد الأولى أو اريد معنى الفعلين في كل من الضر والخير وانه لاراد لما يريد منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فأوجز الكلام بأن ذكر في أحدهما المس وفي الآخر الارادة ليدل بما ذكر في كل جانب على ماترك في الجانب الآخر على انه قد صرح بالاصابة حيث قيل (يصيب به) اظهارا لكمال العناية بجانب الخير كما ينبيء عنه ترك الاستثناء فيه أي يصيب بفضله الواسع المنتظم لما أراد به من الخير وجعل الفضل عبارة عن ذلك الخير بعينه على أن يكون من باب وضع المظهر في موضع المضمر لما ذكر من الفائدة يأباه قوله عز وجل (من يشاء من عباده) فان ذلك ينادي بعموم الفضل و قوله عز قائلا (وهو الغفور الرحيم) تذييل لقوله تعالى يصيب به الخ مقرر لمضمونه والكل تذييل للشرطية الاخيرة محقق لمضمونها (قل) مخاطبا لأولئك الكفرة بعد ما بلغتهم ما أوحي اليك (يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام التي من جملتها مامر آنفا من أصول الدين واطلعتم على ما في تضاعيفه من البينات والهدى ولم يبق لكم عذر (فمن اهتدى) بالايمان به والعمل بما في مطاويه (فانما يهتدي لنفسه) أي منفعة اهتدائه لها خاصة (ومن ضل) بالكفر والاعراض عنه (فانما يضل عليها) أي فوبال الضلال مقصور عليها والمراد تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد اليه عليه السلام من جلب نفع أو ضر كما يلوح به اسناد المجيء الى الحق من غير اشعار بكون ذلك بواسطته (وما أنا عليكم بوكيل) بحفيظ موكول الى أمركم وانما أنا بشير ونذير (واتبع) اعتقادا وعملا وتبليغا (ما يوحى اليك) على نهج التجدد والاستمرار من الحق المذكور المتأكد يوما فيوما . وفي التعبير عن بلوغه اليهم بالمجيء واليه عليه السلام بالوحي تنبيه على ما بين المرتبتين من التنائي (واصبر) على ما يعتريك من مشاق التبليغ (حتى يحكم الله) بالنصرة عليهم أو بالامر بالقتال (وهو خير الحاكمين) اذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس أعطي له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون والحمد لله وحده

تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث وأوله سورة هود

فهرس الجزء الثانى

من كتاب تفسير العلامة أبى السعود

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى لا يعرف كمال عظمة جلاله إلا هو جل شأنه . والصلاة والسلام على خيرة المرسلين . وعلى صحابته والتابعين . أما بعد .

فقد ظهر من أعمال « الجمعية العلمية الازهرية » بتوفيق القدير الحكيم . ما كبت الخصم اللدود . وضاق به صدر الحنق الحسود . حتى فاه بالبهتان — وخسر بالغيبة الباطلة أيما خسران . وما دمنا نتقن عملنا . ونبذل فى حسن روائه أنفسنا ونفيسنا . ونعتمد فى كل ظرف على خالقنا . فلن تضيرنا الخصوم — بل — تمثل بقول الشاعر فى الناقص المغتاب :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

وكفانا ما فى التنزيل الحكيم عن أن نشتغل بما شغل به نفسه من قوله تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) الآية صدق الله العظيم . وفقنا الله جميعاً لما فيه صلاح الدين . والنفع العام للاسلام والمسلمين . آمين ؟

مدير الجمعية

محمد عبد الوصيف محمد

أحد علماء الازهر الشريف

لسان العرب

أكبر قاموس وضع فى لغة العرب

بدأت دار العصور للطبع والنشر بالاشتراك مع الجمعية العلمية الأزهرية المصرية الملايوية فى طبع هذا القاموس العظيم واقعاً فى ثلاثين مجلداً مضبوطة مفرداته المشروحة بالشكل وفى ثوب لم تظهر به مطبوعات لغوية قبل الآن .

فألى الناطقين بالضاد فى أنحاء الكرة الأرضية نزف هذه البشرى التى تثلج بها صدور الذين كثيرا ماشعروا بالحاجة إلى هذا السفر العظيم . فبادر بالاشتراك فيه الآن لتفوز بأكبر كنز تحويه خزائن لغة القرآن الكريم .

وسنعنى بتصحيحه بواسطة لجنة من الادباء تصحيحاً لغوياً دقيقا جديرا بمكانة هذا الكتاب اللغوية وبمكانة اللغة التى يعتبر هذا الكتاب من أثمن كنوزها .

وخدمة للغة العرب سنخرج الكتاب على أحسن ورق مصقول ولهذا جعلنا له اشتراكا قبل الطبع على الطريقة الآتية :

قبل الطبع	بعد الطبع
ج	ج
الجزء ١٠ — ١٢	١٥ — ٢٠ الجزء

أما بعد الطبع فسيكون ثمن النسخة ستة جنيهات مصرية

فبادروا بانتهاز هذه الفرصة لتقتصد من مالك وتزيد من علمك .

وتقبل الاشتراكات بمكتبة الجمعية العلمية الأزهرية المصرية الملايوية شرقى الأزهر الشريف بشارع رقعة القمح وبدار العصور للطبع والنشر .

اطلبوا من مكتبة الجمعية العلمية كتاب تفسير العلامة أبى السعود على ورق جيد وطبع بحسن رواثه لم يسبق . واشتركوا فيه يامحبى الاقتصاد ـ وكتاب علم المنطق الحديث والقديم على النظام الصحيح والنظم القويم لفضيلة مدير الجمعية ـ ورسالة السنيين فى الرد على الوهابيين له أيضا وسائر الكتب العلمية اقبلوا على اقتناء العلم الصحيح وشجعوا العاملين على نشره وفقكم الله الى مافيه الفلاح والنجاح .